بهج الصباغة

في شرح

نهج البلاغة

العلامة المحقق الحاج الشيخ محمد تقي التستري قدس سره

المجلد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

بهج الصباغة

في شرح

نهج البلاغة

المجلد الأول

قدس سره

العلامة المحقق الحاج الشيخ محمد تقي التستري

دار أمير كبير للنشر

طهران ـ ١٤١٨ هـ ق

بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة (المجلد الأول)
المصنف : الشيخ محمد تقي التستري (قدس سره)
التحقيق : مؤسسة نهج البلاغة
الناشر : دار اميركبير للنشر
الطبعة الاولىٰ : (١٣٧٦ هـ ش) (١٤١٨ هـ ق) (١٩٩٧ م)
المطبعة : سپهر
عدد النسخ المطبوعة : ٢٠٠٠ نسخة

شابك ١ - ٠٢٦٣ - ٠٠ - ٩٦٤ ISBN 964-00-0263-1

الجمهورية الاسلامية في ايران - طهران - ص. ب ٤١٩١-١١٣٦٥

فهرس المطالب

العنوان رقم الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة في حياة المؤلف

في بلدة تستر فقيه عالم ومحقق بارع، منقطع عن علائق الدنيا وزخارفها متوجهاً إلى الله تعالىٰ. لقد أمضىٰ حياته الشريفة في سبيل إرشاد الناس، وبثّ المعارف الإسلامية إنّه والدي المعظّم الحاج الشّيخ محمّد تقي الشيخ التّستري (الشوشتري). ولد في النجف الأشرف سنة (١٣٢٠ هـ.ق) وعاش في تلك البلدة المباركة حتى السنة السابعة من عمره، فلمّا أتم والده العلامة آية الله الحاج الشّيخ محمد كاظم التستري دراساته العلمية الاسلامية عند أساطين العلم ونال درجة الاجتهاد، عاد الى تستر والتحق بعد قليل والدي بأبيه المحترم مع والدته وخاله في تستر واشتغل بتعلّم القراءة والكتابة والقرآن الكريم، ثمّ واصل دراسته بكلّ جدّ؛ فأقبل يدرس العلوم الإسلامية عند أساتذة تلك البلدة، مثل السيّد حسين النوري والسيّد محمد علي الإمام والسيّد علي أصغر الحكيم، ثمّ أتمّ دراساته العالية في العلوم الاسلامية عند كبار العلماء مثل السيّد محمّد تقي شيخ الاسلام، والسيّد مهدي آل طيّب ووالده المعظم، فنال درجة الاجتهاد.

وفي سنة (١٣١٤ هـ.ش) غادر مولده تستر مع عائلته مناهضاً رفع



الشيخ محمد تقي التستري ﴿﴾

حجاب النساء، الّذي فرضه رضا شاه البهلوي على ايران، وأقام في بلدة كربلاء المباركة وواصل دراساته العلمية الإسلامية في العتبات العاليات، وهناك التحق بالعالم النحرير الجليل المرحوم الحاج الشيخ آقا بزرگ الطهراني ونال منه إجازة نقل الحديث.

وبعدما عزل رضا شاه عن منصبه عاد الى تستر سنة (١٣٢١ هـش) وأقام في تلك البلدة واشتغل بالتدريس والتحقيق والإرشاد والتأليف. لقد جاء بترجمة لحياته ونشاطاته العلمية العلّامة النّحرير الشيخ آقا بزرگ الطهراني في كتابه طبقات أعلام الشيعة[١] وهذا نصه :

هو الشيخ محمد تقي بن كاظم بن الشيخ محمد علي بن الشيخ جعفر التستري الشهير، عالم بارع ولد في النجف (١٣٢٠ هـق) ونشأ بها على حب العلم والفضيلة اللّذين ورثهما عن آبائه وعن جدّه الأعلى الشيخ جعفر الغني عن الوصف، فاشتغل على الأعلام الأفاضل مجدّاً مجتهداً حتّى برع وصنّف، فله:

١ ـ تحقيق المسائل (شرح على الروضة البهية)[٢].

٢ ـ رسالة سهو النبي صلّى الله عليه وآله[٣].

٣ ـ الرّسالة المبصرة في أحوال أبي بصير[٤].

٤ ـ شرح تنقيح المقال[٥].

٥ ـ قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[٦].

---

(١) طبقات أعلام الشيعة ١: ٦٥.

(٢) هذا الكتاب شرح للمعة الدّمشقية في مجلّدات كثيرة، خرج إلى الآن منها ستّ مجلّدات.

(٣) و (٤) طبعت هاتان الرّسالتان في ملحق قاموس الرّجال: الجزء (١١).

(٥) طبع هذا الكتاب باسم قاموس الرجال في أربعة عشر مجلّداً.

(٦) طبع هذا الكتاب مرّات عديدة في النجف وبيروت وقم، وترجمته باللغة الفارسية وسمّيته (قضاوت هاى

٦ ـ الأربعينيات الثلاث[١].

٧ ـ جوامع أحوال الأئمةعليهم السلام. وانتهى. وتلواً يذكر بعض ما لم يقف عليها العلّامة الطهراني[٢].

٨ ـ بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، وهو هذا الكتاب الذي بين يديك[٣].

٩ ـ الأوائل[٤].

١٠ ـ البدائع[٥].

١١ ـ آيات بيّنات في حقيقة بعض المنامات[٦].

١٢ ـ الأخبار الدّخيلة[٧].

وفي الختام أُهدي أطيب تحياتي إلى مؤسسة نهج البلاغة التي عنيت بتجديد طبع هذا الكتاب، (بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة) وأرجو من الله تعالى التوفيق لهذه المؤسسة في سبيل نشر المعارف الإسلامية، والسلام عليكم ورحمته وبركاته

محمد علي شيخ

ابن المؤلف ١٠ / ٩ / ١٣٦٧ هـ. ش

علىعليه السلام) وطبعت هذه الترجمة أيضاً عدّة مرّات.

(١) طبع هذا الكتاب باسم الأربعين حديثاً.

(٢) طبعت هذه الرسالة في ملحق قاموس الرجال: الجزء (١١).

(٣) طبع في أربعة عشر مجلّداً.

(٤) طبع في مطبعة جامعة طهران في مجلّد واحد.

(٥) عنيت بطبعه ونشره مكتبة الصدوق.

(٦) عنيت بطبعه ونشره مكتبة الصدوق.

(٧) خرج من الكتاب الى الآن أربع مجلّدات، عنيت بنشرها مكتبة الصدوق.

دليل القارئ

* ضمّ «بهج الصّباغة في شرح نهج البلاغة» (٦٠) فصلاً وزِّعت على ١٤ مجلّداً حازت تلك الفصول على أسماء خاصّة بها، وأُدرِجَت وفقاً لهيكل ارتآه المؤلِّف نفسه.

* اشتمل كلّ فصل على عدد من نصوص النّهج المُراد شرحها، كُتبت بالغامق، وانتظمت استناداً إلى ترابطها الموضوعي بعناوين مُنحت أرقاماً بارزة أعلاها تمثِّل تسلسلها في الفصل، إضافة إلى رقم خاص بين قوسين يُشير إلى موقعها في النّهج.

* قد تحتوي بعض العناوين على أكثر من نصٍّ يُراد توضيحه فتشترك نصوص العنوان برقم واحد أعلاها، ويُميّز كلّ نصٍّ برقمه الخاص في نهج البلاغة.

* يُبتدأ الشّرح باقتطاع كلمات أو فقرات متتالية حسب أولويّتها في النصّ ـ غالباً ـ وتُحصر بين قوسين وتُميّز بالغامق في أوّل مورد أتت به لشرحها.

* غالباً ما يكون الشّرح لغويّاً أوّل الأمر، ثمّ يُنطلق منه إلى وقائع تأريخيّة وقصص أدبيّة معزّزة بأنواع الشّواهد شعراً ونثراً.

* لم تُحصر النصوص المنقولة ـ من غير نهج البلاغة ـ بين قوسين لكثرتها، واكتفي لتمييز أوّلها بذكر اسم الكتاب المأخوذة منه ـ ويقع أوّل السّطر في أحيان كثيرة ـ بين قوسين، ونهايتها بهامش يُشير إلى استخراجها ويبدأ النصّ الآخر برأس سطر جديد.

* عندما يتمّ شرح كلّ نص من العنوان يُنتقل إلى عنوان آخر يليه وفقاً لرقم تسلسله في الفصل، فتُشرح نصوصه ويُنتقل إلى عنوان بعده، وهكذا تُشرح الفصول متتابعة.

* إنّ العبارات التي تقع بين خطّين، هي عبارات اعتراضيّة توضيحيّة.

* أُضيف في نهاية كلِّ مجلّد فهرستٌ للخطب والكُتُب والحِكَم الواردة في ذلك المجلّد.

* وختاماً نرجو من القراء الأعزاء أرسال ما لديهم من ملاحظات أو اقتراحات بناءة حول الكتاب. كما نعتذر عن السهو والخطأ إن وجد.

نتمنى للجميع التسديد والصواب، ومن الله الأجر والثواب

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الناشر

مقدّمة مؤسسة نهج البلاغة

على مدار ألف سنة مرّت من عمر هذا السّفر القيّم «نهج البلاغة» دوّن عليه أكثر من (٣٠٠) شرح وترجمة بأساليب ومحتويات علمية وأذواق متباينة، اختلفت درجة تقبّل القرّاء لها باختلاف تطلّعاتهم ورؤاهم.

وبالرغم من تلك الشروح الكثيرة فقد بقيت امكان متهلهلة فيها، تشير إلى خلوّها من شرح موضوعي، إلى أن تصدّي المرحوم العلّامة آية الله الحاج الشيخ محمد تقي التستري لإحكام نسج جديد، فشرع بكتابة شرح موضوعي نفيس باللّغة العربية في (١٤) مجلداً لـ (٦٠) موضوعاً؛ فجزاه الله خير الجزاء، وشكر مساعيه العلمية الجليلة، وتغمّده برحمته، وأسكنه فسيح جنّاته.

إنّ أهميّة الشرح الموضوعي من منظار علمي أمر لا يقبل المناقشة؛ لأنّ كل علم إذا لم تُبحث قضاياه بهذه المنهجية فسوف تبقى النظرة الواقعية له أو لمؤلف الكتاب عائمةً في أمواج من الغموض؛ تلك المنهجية التي اتخذها الفقهاء الأفذاذ في رصد وجمع الموارد ذات العلاقة ودراستها، لابداء آرائهم الدقيقة في المسائل الفقهية الكثيرة.

وتأسيساً على ذلك ينبغي لمن يتطلّع إلى آفاق نظر الإمام عليه السلام أن يسلك اسلوب الشرح الموضوعي، ويحتوي كل الموارد دراسة وتحليلاً؛ فليس من الصحيح أن نقتطع كلمة أو كتاباً من بين عشرات الكلمات والكتب، ونشيّد عليها وجهة نظر المؤلف؛ لأنّه لا يمكن بيان كلّ الموارد في جملة واحدة، بل إنّ تحرّي وتجميع الجزئيات المتقارنة والمتباينة بعين شمولية فاحصة، وبمطالعة تحليلية دقيقة، وتعرّف لغة وثقافة المقال والكتاب، تزيح ستاراً كثيفاً عن الحقيقة، وتمنح دفقة اطمئنان لعرضٍ مدروس لآراء مؤلفه.

وقد صادقت مؤسسة نهج البلاغة ـ ضمن خططها ـ على مشروع لتفسير نهج البلاغة موضوعياً، وتقرّر أن تبدأ مجاميع علمية مهامّها في هذا المجال.

فشرعت نخبة من المحققين أعمالها بدقّة وتنسيق متبادل، لرصد الموضوعات عن طريق نظام

البطاقات التي بلغت ما يقارب (٥٠٠٠) بطاقة، استُلّ منها (٣٠٠) عنوان رئيسي وفرعي، وبعد دراسات وبحوث متعدّدة، وتصحيح وإكمال موارد النقص، صدر «نهج البلاغة» المنقّح بإشراف وطبع ونشر مؤسسة نهج البلاغة.

وجدير بالذكر أنّ من المصادر المستفادة في ذلك المشروع هي المجموعة النادرة لـ«بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة». وإن كانت موضوعاتها منحصرة بـ(٦٠) موضوعاً، إلّا أنّها تصب في إطار هدفنا العام.

لكنّ لغة تدوين هذا الكتاب هي العربية، ومقتضيات أهداف المؤسسة ترتبط ـ أوّلاً بالذات ـ بالرفد الثقافي للناطقين باللغة الفارسية، الأمر الذي دعا إلى ترجمته.

وهنا نرى من الضرورة أن نُعرب عن شكرنا لجميع الأخوة الذين ساهموا في إعداد وتنظيم وتهيئة هذه المجموعة النادرة، وعن تقديرنا لمساعيهم المخلصة، وتحمّلهم للمصاعب العلمية والفنيّة باذلين وقتاً غالياً لاخراج هذا السفر على أكمل صورة؛ إنّ تلك الجهود لوحة رائعة تعبّر عن علاقتهم الوثيقة بسيّد الأولياء، وحبّهم الكبير لمولى الموحّدين عليه السلام.

نسأل الله أن يتقبّل من الجميع هذا العمل بأحسن القبول، وأن يكون أمير المؤمنين وإمام العارفين شفيعهم ﴿يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون * إلّا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ﴾.

والله ولي التوفيق

سيد جمال‌الدين دين‌پرور

رئيس مؤسسة نهج البلاغة

مقدّمة المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة على محمّد وآله الطاهرين.

وبعد فإنّ علماء الإسلام الخاصّ منهم والعامّ، وإن صنّفوا من الصّدر الأول في كلّ فنّ إلّا أنّه لم يؤلّف أحد مثل كتاب الشريف الرضيّ هذا، فإنّ أهمّية كلّ كتاب بمقدار فائدته، وقيمته بقدر عائدته، ولم يبلغ بكتابه هذا بعد كتاب الله تعالى كتاب، فإنّه تاليه في الفصاحة والبلاغة، وفي الاشتمال على كلّ نصح وحكمة، ولقد أجاد من قال فيه:

كتاب كأنّ الله رصّع لفظه بجوهر آيات الكتاب المنزَّل
حوى حكماً كالدرّ ينطق صادقاً فلا فرق إلّا أنّه غير منزل[1]

ويأتي في العنوان (٢٣) من الفصل الأوّل خبر أنّ ذعلباً لمّا أجابه أمير المؤمنين عليه السلام سؤاله «هل رأيت ربّك؟» خرّ مغشياً عليه، ثمّ قال: تالله ما سمعت بمثل هذا الجواب[2] ويأتي في خطبة المتّقين أنّ همّاماً لمّا سمع

---

(١) نقل البيتين الخوئي في ديباجة شرحه ١: ٨٠.

(٢) بهج الصباغة: الفصل (١) العنوان (٢٣).

كلامه عليه السلام في وصف أهل التّقوىٰ صُعق صعقة كانت نفسه فيها[1].

ويأتي في العنوان (١١) من الفصل الثلاثين أنّ قوله عليه السلام: «إنّ الحقّ لا يعرف بالرّجال» وقوله عليه السلام: «انظر الى ما قال، ولا تنظر الى من قال» بلا قيمة[2].

وقال الجاحظ: أجمعوا على أنّهم لم يجدوا كلمة أقلّ حرفاً، ولا أكثر ريعاً، ولا أعمّ نفعاً، ولا أحثّ على تبيين، ولا أهجى لمن ترك التفهّم وقصّر في الافهام من قول علي عليه السلام: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»[3].

وقال الخليل: أحثّ كلمة على طلب علم قول عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «قدر كلّ امرئ ما يحسن»[4].

وقال الرضيّ في (خصائصه): قوله عليه السلام: «كلمة حقّ يراد بها باطل» في ردّ قول الخوارج: «لا حكم إلّا لله» أبلغ عبارة من أمر الخوارج لما جمعوا من حسن الاعتراء والشّعار، وفتح الإبطان والإضمار[5].

وقال أيضاً فيه في قوله عليه السلام: «لم يذهب مالك ما وعظك»: سبحان الله! ما أقصر هذه الكلمة من كلمة، وأطول شأو بدرها في مضمار الحكمة![6]

وقال في (نهج البلاغة) في قوله عليه السلام: «فلئن أمر الباطل لقديماً فعل»: إنّ في هذا الكلام الأدنى من مواقع الإحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وإنّ

---

(١) بهج الصباغة: الفصل (٤٠) العنوان (١٣).

(٢) بهج الصباغة: الفصل (٣٠) العنوان (١١).

(٣) صرح الشارح في العنوان (١٦) من الفصل الثامن عشر أنّه نقله من كتاب البيان والتّبيين للجاحظ، وأورد الجاحظ الحديث في ٢: ٨٠ بلا كلام حوله.

(٤) نقله أبو علي الطوسي في أماليه ٢: ١٠٨، المجلس ١٧ باسناد عن خليل.

(٥) خصائص الأئمة للشريف الرضي: ٨٨.

(٦) المصدر نفسه.

حظّ العَجب منه أكثر من حظّ العُجب به، وفيه مع الحال الّتي وصفنا زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، ولا يطّلع فجّها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلّا من ضرب في هذه الصناعة بحقّ، وجرى فيها على عرق، وما يعقلها إلّا العالمون[١].

وقال في قوله عليه السلام: «فإنَّ الغاية أمامكم...»: إنَّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه، وبعد كلام رسوله صلى الله عليه وآله بكلّ كلام لمال به راجحاً، وبرّز عليه سابقاً. فأمّا قوله عليه السلام: «تخفّفوا تلحقوا» فما سمع كلام أقلّ منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً، وما أبعد غورها من كلمة وأنقع نطفتها من حكمة[٢].

وقال في الخطبة (٢٨): لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزّهد في الدنيا ويضطرّ الى عمل الآخرة لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الاتّعاظ، والازدجار[٣].

وقال في الخطبة (٨٠): إذا تأمّل المتأمّل قوله عليه السلام: «من أبصر بها بصّرته» وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد ما لا تُبلغ غايته، ولا يُدرك غوره، ولاسيّما إذا قرن إليه قوله عليه السلام: «ومن أبصر اليها أعمته» فإنّه يجد الفرق بين أبصر بها وأبصر إليها واضحاً نيّراً وعجيباً باهراً[٤].

وقال في قوله عليه السلام: «لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير عمل...»: لو لم يكن في هذا الكتاب إلّا هذا الكلام لكفىٰ به موعظة ناجعة وحكمة بالغة، وبصيرة

---

(١) نهج البلاغة ١: ٤٨، الخطبة(١٦).

(٢) نهج البلاغة ١: ٥٨، الخطبة (٢١).

قال الشريف في خصائص الأئمة: ٨٧ بعد نقل قوله عليه السلام: «تخفّفوا تلحقوا»: ما أقلّ هذه الكلمة وأكثر نفعها وأعظم قدرها وأبعد غورها وأسطع نورها.

(٣) نهج البلاغة ١: ٧٢.

(٤) نهج البلاغة ١: ١٣١.

لمبصر، وعبرة لناظر مفكّر[١].

إلىٰ غير ذلك من كلماتهم في كلامه عليه السلام، ممّا لو استُقصيت لصارت كتاباً، فللّه درّه في جمعه هذا الكتاب، فكم اهتدي به من يوم تأليفه إلى يومنا هذا، وكم يهتدى به إلى الأبد، مع أنّه أتقن به لغة العرب، وأمتن به قواعد الأدب، فشكر الله سعيه وأعطاه خير جزاء.

لكنه ـ عفا الله عنه ـ لمّا كان متهالكاً على نقل كلّ كلام فصيح منسوب إليه عليه السلام، لم يتفطّن أنّ الخصم قد يحتال ويزوّر على لسانه عليه السلام بتزويق كلامه، كما ترى ذلك في الخطبة (٩٠ و ١٦٦ و ٢٦٦) وفي نقله الخطبة (٦) لمّا أُشير عليه بأن لا يتّبع طلحة والزبير، وقد تكلمنا عنها في موضعها[٢].

كما أنّه ـ عفا الله عنه ـ لمّا كان نظره في اختياره من كلامه عليه السلام على الكلمة الفصيحة، فقد يقتصر من نقل كلامه عليه السلام على مثل الاقتصار على قوله تعالىٰ: ﴿لا تقربوا الصلاة﴾ بدون ﴿وأنتم سكارى﴾[٣] كما تراه في الحكمة (٤٦٧)، وقد بحثناها في موضعها[٤].

كما أنّه ـ عفا الله عنه ـ لكون مراجعته الى كتب العامّة ورواياتهم فقط، غالباً قد ينقل ما تكذّبه روايات الخاصّة كما تراه في الخطبة (٥٧)، وقد

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٣٨، الحكمة (١٥٠).

(٢) نهج البلاغة ١: ١٨١، الخطبة (٩٠) شرحها في بهج الصباغة الفصل (٣٠) العنوان (٨)، و ٢: ٨٠، الخطبة (١٦٦) شرحها في بهج الصباغة: الفصل (٢٩) العنوان (٢٤) و ٢: ٢٢٢، الخطبة (٢٢٦) شرحها في بهج الصباغة: الفصل (٢٩) العنوان (٢٦) و ١: ٤١، الخطبة (٦) شرحها في بهج الصباغة: الفصل (٣١) العنوان (٣).

(٣) الآية بتمامها: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتّى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلّا عابري سبيل حتىٰ تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو علىٰ سفر أو جاء أحدكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيّباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوّاً غفوراً﴾. النساء: ٤٣.

(٤) نهج البلاغة ٤: ١٠٧، الحكمة (٤٦٧) شرحها في بهج الصباغة: الفصل (٢٩) العنوان (٢٧).

شرحناه في محلّه[١].

كما أنّه ـ عفا الله عنه ـ قد ينسب إليه عليه السلام ما لغيره، كما تراه في الحكمة (٢٨٩) فاتفقت الروايات على أنّه لابنه الحسن عليه السلام[٢]. وما تراه في الحكمة (٢٢٧) فاتفقت الروايات على أنّه عليه السلام نقله عن النبيّ صلى الله عليه وآله، وقد أوضحناهما في محلّهما[٣].

كما أنّه قد ينسب إليه عليه السلام ما روي عنه عليه السلام في المنام، كما تراه في الحكمة (٤٠٦) وقد بحثنا ذلك في محلّه[٤].

كما أنّه قد ينسب الشيء إلى غير محلّه؛ فقال في الكتاب (٦٢): ومن كتابٍ له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر. مع أنّه روى الثقفي في (غاراته)، وابن قتيبة في (خلفائه)، والكليني في (رسائله)، وابن جرير الطبريّ في (مسترشده) أنّه كانت خطبة له عليه السلام في التحريض على الجهاد لمّا فتحت مصر وقتل محمّد بن أبي بكر[٥].

كما أنّه قد يحرّف لعدم تدبّره أو لسقم نسخة مستنده؛ فنقل في الكتاب (٥٧): «خرجت من حيي هذا» فإنه محرّف: «خرجت مخرجي هذا». كما شرحناه في محلّه[٦].

ونقل في الحكمة (٣٧١): «والشرّ جامع لمساوي العيوب» فإنّه محرّف

(١) نهج البلاغة ١: ١٠٥، الخطبة (٥٧) شرحها في بهج الصباغة: الفصل (٩) العنوان (١٥).

(٢) نهج البلاغة ٤: ٦٩، الحكمة (٢٨٩) شرحها في بهج الصباغة: الفصل (٤٠) العنوان (١٥).

(٣) نهج البلاغة ٤: ٥٠، الحكمة (٢٢٧) شرحها في بهج الصباغة: الفصل (٤٠) العنوان (٥).

(٤) نهج البلاغة ٤: ٩٥، الحكمة (٤٠٦). شرحها في بهج الصباغة: الفصل (٦)، العنوان (٢٥).

(٥) نهج البلاغة ٣: ١١٨، الكتاب (٦٢) شرحه في بهج الصباغة: الفصل (٨) العنوان (١٥)، والغارات للثقفي ١: ٣٠٢، وتاريخ الخلفاء وهو كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ١٥٤، وكشف المحجّة لابن طاووس: ١٧٢ نقلاً عن رسائل الكليني، والمسترشد للطبري: ٩٥.

(٦) نهج البلاغة ٣: ١١٤، شرحه في بهج الصباغة: الفصل (٣) العنوان (٧).

«والبخل جامع لمساوي العيوب»، كما نقله نفسه في الحكمة (٣٧٨)[١]، ونقل في الخطبة (٦٣): «ولا وقف به عجز عمّا خلق»، فإنّ الظاهر أنّه محرّف «ولا وقف به عجز عمّا لم يخلق». وقد شرحنا الكل في موضعه[٢].

ونقل في الخطبة (٤٩): «فلا عين من لم يره تنكره، ولا قلب من أثبته يبصره»، فإنّه محرّف «فلا قلب من لم يره ينكره، ولا عين من أثبته تبصره»[٣] وقد نقله بعضهم من الرواية[٤].

وقد صنّف قبل المصنّف جمعٌ في خطبه عليه السلام، ذكرهم (فهرست الشّيخ) و(فهرست النجاشي)، ومنهم: إبراهيم بن الحكم الفزاري[٥]، واسماعيل بن مهران[٦]، وزيد بن وهب[٧]، وعبد العظيم الحسني[٨]، ومسعدة بن صدقة[٩]، والمدائني[١٠]، وعبد العزيز الجلودي[١١]، إلّا أنّ كتبهم لم تصل إلينا.

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٨٧، الحكمة (٣٧١) شرحها في بهج الصباغة: الفصل (٦٠) العنوان (٨٣)، و ٤: ٩٠، الحكمة (٣٧٨) شرحها في بهج الصباغة: الفصل (٤٤) العنوان (٦).

(٢) نهج البلاغة ١: ١١٢ الخطبة (٦٣) شرحها في بهج الصباغة: الفصل (١) العنوان (٥).

(٣) نهج البلاغة ١: ٩٨ الخطبة (٤٩) شرحها في بهج الصباغة: الفصل (١) العنوان (٤).

(٤) نقله ابن أبي الحديد في شرحه ١: ٢٩٢.

(٥) الفهرست للطوسي: ٤.

(٦) الفهرست للنجاشي: ١٩، والفهرست للطوسي: ١١.

(٧) الفهرست للطوسي: ٧٢، والمعالم لابن شهر آشوب: ٥١. نقله الأردبيلي عن الاسترآبادي عن النجاشي أيضاً، لكن لم أجده في فهرست النجاشي، وجامع الرواة ١: ٣٤٤.

(٨) الفهرست للنجاشي: ١٧٣.

(٩) الفهرست للنجاشي: ٢٩٥.

(١٠) قال ابن النديم في الفهرست: انّ له كتاب خطب علي عليه السلام. فهرست ابن النديم: ١١٤. وامّا فهرست الطوسي ففي بعض نسخه كتاب «الخونة» لأمير المؤمنين وبعض نسخه «الحوز». فهرست الطوسي: ٩٥، وفي موضع آخر «الحروب». فهرست الطوسي: ١٩٢، وامّا المعالم لابن شهر آشوب ففي بعض نسخه «الخولة»، وبعضها الآخر «الولاء» لأمير المؤمنين. المعالم: ١٣٦.

(١١) الفهرست للنجاشي: ١٦٧.

وأظنّ أنّ أوّل من صنّف فيها الحارث الأعور الّذي كان من خواصّه عليه السلام، وقال عليه السلام له: «أما إنّه لا يموت عبد يحبّني فتخرج نفسه حتّى يراني حيث يحبّ، ولا يموت عبد يبغضني فتخرج نفسه حتّى يراني حيث يكره» كما رواه الكشي[1]. وقال عليه السلام له: أُبشّرك يا حارث لتعرفني عند الممات وعند الصّراط وعند الحوض وعند المقاسمة. قال الحارث: وما المقاسمة؟ قال: «مقاسمة النار، أُقاسمها قسمة صحيحة، أقول: هذا وليّي فاتركيه، وهذا عدوي فخذيه». كما رواه أمالي الشّيخين[2]، وقد نظم الحميريّ في قوله: يا حار همدان ـ الأبيات المعروفة ـ مضمون الخبرين[3].

وروى الكليني والصدوق باسنادهما عن أبي اسحاق السبيعي عن الحارث أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب خطبة بعد العصر فعجب الناس من حسن صفته وما ذكره من تعظيم الله تعالى. قال أبو إسحاق: فقلت للحارث: أوما حفظتها؟ قال: كتبتها ـ قال السبيعيّ ـ فأملأها علينا الحارث من كتابه... ثمّ زيد بن وهب الّذي كان من أصحابه عليه السلام أيضاً[4].

وقد شرح الكتاب جمع كثير، من أراد الوقوف عليها فليراجع (الذريعة)[5]، ولكن أبسطها وأمتنها (شرح ابن أبي الحديد) ثمّ (شرح ابن ميثم)، ثمّ (شرح الخوئي) ولكن لم يكن أحد منها جامعاً مع أنّ الأخير غير تام، فإنّه

---

(١) أخرجه الكشّي اختيار معرفة الرجال: ٨٨، وابن شهر آشوب في المناقب ٣: ٢٢٣ عن الحارث، وأخرجه الكليني في الكافي ٢: ١٣٢ ح ٥، وأحمد بن محمّد بن عيسى في نوادره عنه البحار ٦: ١٩٩ ح ٥٢ عن عباية الأسدي.

(٢) أخرجه المفيد في أماليه: ٣ ح ٣ المجلس (١)، وأبو جعفر الطوسي في أماليه ٢: ٢٣٨ المجلس (١٢)، والطبري في بشارة المصطفى: ٤ والإربلي في كشف الغمة ٢: ٣٨ والديلمي في إرشاد القلوب: ٢٩٧.

(٣) نقل الأبيات في ذيل الحديث في المصادر المذكورة والبيت بتمامه:

يا حار همدان من يمت يرني ... من مؤمن أو منافق قبلاً

(٤) الكافي ١: ١٤١ ح ٧، والتوحيد للصدوق: ٣١ ح ١.

(٥) الذريعة لآقا بزرك الطهراني ١٤: ١١٣ ـ ١٦٠.

إلى الخطبة (٢٢٨). وأمّا شرح الراوندي المسمّىٰ (منهاج البراعة) كما يفهم من (طرائف ابن طاووس)[١]، فلم يوجد منه إلّا نسخ في بعض المكتبات، ومنها نسخة في المكتبة الرضوية كشرح أبي الحسن الكيذري الّذي ينقل عنه كثيراً ابن ميثم، ومنها في الشقشقيّة في كتاب رجل من أهل السواد[٢]، فلم يوجد إلّا في بعض المكتبات، ومنها نسخة في المكتبة الأميريّة، وهو جمع بين شرح الراوندي وشرح البيهقي كما نقل[٣].

و (شرح ابن أبي الحديد) وإن ادّعى أنّه تاريخيّ أدبيّ إلّا أنّ فيه معايب، ففي بعض الموارد يفرط في نقل التاريخ حتى يمكن أن يجعل ما نقل تاريخاً مستقلاً، وكان عليه أن يقتصر على المقدار المناسب للعنوان، وفي بعض الموارد لا ينقل شيئاً أصلاً، كما أنّه في الأدب كذلك قد يُفرط وقد يفرّط، بل ينقل كثيراً ما لا ربط له أصلاً؛ كما ترى عند شرحه لقوله عليه السلام في الإخبار عن الخوارج: «كلّا والله انّهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء»[٤].

وقد يغفل عن شيء في محلّه ويذكره في غيره، كما تراه في أوّل فصل الجمل في قوله عليه السلام: «ربّ عالم قد قتله جهله، وعلمه معه لا ينفعه»[٥].

وله أوهام كثيرة؛ فنسب الخطبة (٣٩) الى كونه في غارة النّعمان مع أنّه كان في قتل محمّد بن أبي بكر[٦]، ونسب الخطبة (٢٩) إلى كونه في غارة

---

(١) الطرائف لابن طاووس ٢: ٤٨٣.

(٢) شرح ابن ميثم ١: ٢٦٩.

(٣) قال الكيذري نفسه في مقدّمة شرحه ١: ٨٧ انّه استفاد من هذين الشّرحين.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١: ٤٢٨ ـ ٤٤٧ شرح الخطبة (٥٩).

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٨٧ ـ ٢٨٨ شرح الحكمة (١٠٧)، وبهج الصباغة: الفصل (٣١) العنوان (١).

(٦) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢١٣، وبهج الصباغة: الفصل (٣٤) العنوان (٦).

الضحّاك مع أنّه كان بعد النهر في الشخوص إلى معاوية[١]، ونسب الكتاب (٣٦) إلى كونه في غارة بسر مع أنّه كان في غارة الضحّاك[٢]، كما أوضحنا ذلك في فصل الغارات، ونسب قولهعليه السلام في الثاني من فصل غريب النهج «هذا الخطيب الشحشح» إلى أنّه قاله في صعصعة، مع أنّه قاله في رجل من أهل الجمل من أصحاب عائشة، كما بيّنّاه في الفصل السّتين[٣]. وله تفسيرات باطلة كما ستقف عليها في المطاوي كراراً.

وهو وإن نقل في شرحه أشياء حسنة وذكر فيه أُموراً مهمّة، إلّا أنّه لم يراعِ المناسبة في الغالب.

وأمّا ابن ميثم فمذاقه مذاق الفلاسفة، يرتكب كثيراً تأويلات غير صحيحة ويعلّل بعلل عليلة، كما في شرحه لقولهعليه السلام: «وأنا لكم وزيراً خير لكم منّي أميراً»[٤]، ويخبط كثيراً في فهم المراد، كما في شرحه لقولهعليه السلام في الخطبة (١٠٤): «وايم الله لو فرّقوكم تحت كلّ كوكب لجمعكم الله لشرّ يوم لهم»[٥].

مع قلّة اطّلاعه على التاريخ فيخبط فيه، كما ترى ذلك عند شرحه لقولهعليه السلام مشيراً إلى الكوفة في الخطبة (٤٧): «ما أراد بك جبّار سوءاً»[٦]، وعند شرحه لقولهعليه السلام في الخطبة (٢١٧): «أدركت وتري من بني عبد مناف

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٥٢، وبهج الصباغة: الفصل (٣٤) العنوان (٥).

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٥٦، وبهج الصباغة: الفصل (٣٤) العنوان (١٢).

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣٥٥، وبهج الصباغة: الفصل (٦٠) العنوان (٦٤).

(٤) شرح ابن ميثم ٢: ٣٨٥ شرح الخطبة (٩٠)، وبهج الصباغة الفصل (٣٠) العنوان (٨).

(٥) شرح ابن ميثم ٣: ٣٦، وبهج الصباغة: الفصل (٩) العنوان (٢٨).

(٦) شرح ابن ميثم ٢: ١٢٤، وبهج الصباغة: الفصل (٩) العنوان (١٤).

وأقلتني أعيان بني جمح»[١]. وعند شرحه لقوله‌عليه السلام في الخطبة القاصعة: «وإنّ فيكم من يطرح في القليب...»[٢].

وأغرب في شرح قوله‌عليه السلام في الكتاب (٢٨): «منّا النبيّ ومنكم المكذّب»[٣]، وشرح قوله‌عليه السلام في الكتاب (٥٨): «فمن تمّ على ذلك»[٤]، وشرح قوله‌عليه السلام: «من أعمام وأخوال» في الكتاب (٦٤)[٥]، وشرح قوله‌عليه السلام في الكتاب (٦٢): «الّذي قد شرب فيكم الحرام وجلد حدّاً في الإسلام»[٦]. وقد ذكرنا الكل في مواضعه.

ومن العجب أنّه مع عدّه نفسه من الفلاسفة يأتي باللّجاج؛ ففي كثير من تلك الموارد ترى أنّ ابن أبي الحديد قال: إنّ الراونديّ خبط فيها، وانّه استهزأ به لعدم اطّلاعه على التاريخ، ومع ذلك أصرّ على متابعة الراونديّ، فلو كان الراوندي وقف على ما خُطِّئ فيه لرجع، كما أنّه تبع الكيذري في أوهامه.

و (شرح الخوئي) ليس فيه سوى الإكثار من الأخبار الضعيفة، مع اقتصاره على ما ورد من طريقنا الّذي لا يكون حجّة على غيرنا، مع قلّة اطّلاعه على التاريخ، فتبع ابن ميثم في كثير من خبطاته المتقدّمة.

فرأيت أن أكتب بعون الله تعالى شرحاً جامعاً فيه من التاريخ والأدب والأخبار القويّة والآثار الّتي تكون حجّة بقدر الحاجة، وفي محلّ يكون فيه مناسبة، مع ذكر مدارك عناوين الكتاب بقدر الوسع.

---

(١) شرح ابن ميثم ٤: ٥١، وبهج الصباغة: الفصل (٣١) العنوان (١١).

(٢) شرح ابن ميثم ٤: ٣١٩، وبهج الصباغة: الفصل (٦) العنوان (٤٢).

(٣) شرح ابن ميثم ٤: ٤٤٠، وبهج الصباغة: الفصل (٧) العنوان (١١).

(٤) شرح ابن ميثم ٥: ١٩٦، وبهج الصباغة: الفصل (٢٩) العنوان (٢٥).

(٥) شرح ابن ميثم ٥: ٢١١، وبهج الصباغة: الفصل(٨) العنوان (٨).

(٦) شرح ابن ميثم ٥: ٢٠٣، وبهج الصباغة الفصل (٢٩) العنوان (٢٩).

وأمّا الشّراح المتقدّمون فلم يقفوا في كثير منها على مداركها أصلاً، وفي يسير منها لم يقفوا غالباً إلّا على بعضها.

واقتصرت في شرح الفقرات من الإعراب واللّغة والتفسير على المشكلات التي تحتاج إلى ذلك، لا في كلّ فقرة كما فعله بعضهم لكونه لغواً، كما أنّه ذكرت اللغة عند كلّ فقرة وكلمة، ولم أجمعها بعد العنوان كما فعل الشّرّاح لئلّا يكون الفهم في محلّ الحاجة صعباً.

وذكر ابن ميثم في أوّل كتابه مقداراً من مباحث علم البيان وتبعه الخوئي، وهو لغو، فتجنّبته لأنّه صنّف في ذاك الفنّ كتب، فكان عليهما حيث ذكرا مباحث البيان أن يذكرا مباحث الصّرف والنّحو واللّغة.

وليس دأبي دأب أكثر الشّرّاح يذكر اللاحق ما قاله السابق في صورة الإنشاء منه، فإنه نوع سرقة؛ فما كان من غيري أنسبه إليه، وما فيه بلا نسبة فهو منّي. وحيث إنّ ترتيب المصنّف للكتاب بالخطب والكتب والكلمات القصار ترتيب لفظيّ أحببت ترتيبه بالمعنى، فجمعت ما يكون راجعاً الى التوحيد مثلاً في موضع، وما يكون راجعاً إلى النّبوّة في موضع، وإلى الإمامة في موضع، وهكذا كلّ موضوع، وهاك تفصيل فصولها:

الأوّل: في التوحيد، وفيه (٥٣) عنواناً.

الثاني : في خلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسي وفيه (٦) عناوين.

الثالث: في خلق الملائكة، وفيه (٣) عناوين.

الرابع : في خلق آدم عليه السلام، وفيه (٤) عناوين.

الخامس: في النبوّة العامّة، وفيه (٩) عناوين.

السادس: في النبوّة الخاصّة، وفيه (٤٧) عنواناً.

السابع: في الإمامة العامّة، وفيه (٣٤) عنواناً.

الثامن: في الإمامة الخاصة، وفيه (٣٣) عنواناً، وفي أواخرها كلامه عليه السلام في الشقشقية[١] وفي دفن سيّدة النساء[٢] وفي فدك[٣].

التاسع: في إخباره عليه السلام بالملاحم وما يقع في المستقبل، وفيه (٣٧) عنواناً.

العاشر: في علمه عليه السلام وصفحه ومكارم أخلاقه، وفيه (٦) عناوين.

الحادي عشر: في تفسيراته عليه السلام للآيات وغيرها، وفيه (٧) عناوين.

الثاني عشر: في قضاياه عليه السلام، وفيه عنوانان.

الثالث عشر: في أجوبته التمثيليّة وأدب السّؤال والجواب، وفيه (١٠) عناوين.

الرابع عشر: في زهده وإعراضه عن الدنيا وعدله وتواضعه وذكر الحقوق، وفيه (١٥) عنواناً.

الخامس عشر: في التزامه عليه السلام بالحقّ والعدل وحثّه عليهما قولاً وعملاً، وفيه (٨) عناوين.

السادس عشر: في أدعيته عليه السلام، وفيه (٩) عناوين.

السابع عشر: في عجائب خلقه تعالىٰ، وفيه (٣) عناوين.

الثامن عشر: في العلوم؛ مذمومها وممدوحها، وفيه (٢٥) عنواناً.

التاسع عشر: في إرشاد الثاني (عمر) في مصالح الاسلام، وفيه عنوانان.

---

(١) العنوان (٣٠) من الفصل الثامن.

(٢) العنوان (٣١) من الفصل الثامن.

(٣) العنوان (٣٢) من الفصل الثامن.

العشرون: في حبّه وبغضه، وفيه عنوانان.

الحادي والعشرون: في شجاعته عليه السلام ومهابته ومناعته، وفيه (٤) عناوين.

الثاني والعشرون: في أوليائه وأعدائه، وفيه (١٢) عنواناً.

الثالث والعشرون: في عتاباته لعمّاله وغيرهم، وفيه (١١) عنواناً.

الرابع والعشرون: في حلفه وتقيّته، وفيه (٣) عناوين.

الخامس والعشرون: في شكايته من أهل عصره، وفيه (٦) عناوين.

السادس والعشرون: في نقص الناس واختلافهم وعجائب قلوبهم وصفات أراذلهم، وفيه (٩) عناوين، ومنها قوله عليه السلام لمن سأله أن يعظه[1].

السابع والعشرون: في القضاء والقدر وفيه عنوانان.

الثامن والعشرون: في الجامع لأمر الدين والدنيا، وفيه (٨) عناوين، ومنها وصيته عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام[2] وعهده للأشتر لمّا ولّاه مصر.

التاسع والعشرون: في ما يتعلّق بعمر وعثمان، وفيه (٢٧) عنواناً.

الثلاثون: في بيعته عليه السلام، وفيه (١٥) عنواناً.

الحادي والثلاثون: في وقعة الجمل، وفيه (١٥) عنواناً.

الثاني والثلاثون: في وقعة صفين، وفيه (١٢) عنواناً.

الثالث والثلاثون: في وقعة النهروان، وفيه (١٠) عناوين.

الرابع والثلاثون: في الغارات، وفيه (١٢) عنواناً.

الخامس والثلاثون: في مقتله ووصاياه عليه السلام، وفيه (٨) عناوين.

السادس والثلاثون: في الموت، وفيه (٣٤) عنواناً، وفي آخرها

---

(١) العنوان (٨) من الفصل السادس والعشرين.

(٢) العنوان (٢) من الفصل الثامن والعشرين.

«سبحانك خالقاً ومعبوداً»[١].

السابع والثلاثون: في ذمّ الدنيا وفنائها، وفيه (٤٣) عنواناً.

الثامن والثلاثون: في القيامة والجنّة والنّار، وفيه (٢٢) عنواناً.

التاسع والثلاثون: في ما يجب على العبد لربّه، وفيه (١٨) عنواناً.

الأربعون: في الاسلام والايمان والتقوى والكفر والنّفاق، وفيه (٣٠) عنواناً.

الحادي والأربعون: في القرآن، وفيه (١٣) عنواناً.

الثاني والأربعون: في العبادات والمعاملات والخير والشرّ، وفيه (٣١) عنواناً.

الثالث والأربعون: في مكارم الأخلاق، وفيه (٢٧) عنواناً.

الرابع والأربعون: في ذمائم الصفات ومحامدها، وفيه (٣٣) عنواناً.

الخامس والأربعون: في آداب المعاشرة، وفيه (١٠) عناوين.

السادس والأربعون: في الأصدقاء، وفيه (١٤) عنواناً.

السابع والأربعون: في التّعازي والتّهاني، وفيه (٦) عناوين.

الثامن والأربعون: في آداب الحرب، وفيه (١٦) عنواناً.

التاسع والأربعون: في ذمّ الشام ومدح الكوفة، وفيه عنوانان.

الخمسون: في الأنصار وطوائف قريش وتميم والشعراء، وفيه (٤) عناوين.

الحادي والخمسون: في الاستسقاء والأضحية، وفيه (٤) عناوين.

الثاني والخمسون: في الإقبال والإدبار، وفيه (٥) عناوين.

الثالث والخمسون: في الفتن والشبه والبدع، وفيه (٧) عناوين.

---

(١) العنوان (٣٤) من الفصل السادس والثلاثين.

الرابع والخمسون: في العقل، وفيه (٨) عناوين.
الخامس والخمسون: في القلوب، وفيه (٥) عناوين.
السادس والخمسون: في الحقائق، وفيه (١٤) عنواناً.
السابع والخمسون: في الفقر، وفيه (٤) عناوين.
الثامن والخمسون: في النّساء، وفيه (٧) عناوين.
التاسع والخمسون: في إبليس، وفيه (٣) عناوين.
الستون: في موضوعات مختلفة، وفيه (١٠٤) عناوين.

ثم إنّ النّسخ المطبوعة من النهج أحسنها نشر مطبعة الاستقامة المشتملة على الأرقام في أبوابه الثلاثة، ومع ذلك فهي مشحونة من التصحيف في العناوين والمتون والمواضع، كما يظهر من تطبيقها على نقل ابن أبي الحديد وابن ميثم وعلى النسخ الخطيّة المصحّحة، ومنها عندي نسخة مؤرّخة بسنة (١٠٧٥) وإن كان ناشرها قال: تمتاز هذه عن المطبوعات السابقة بتمام العناية بضبطها وتصحيحها، فقد سقط منها قول المصنّف بعد الخطبة (١٩): يريد عليه السلام أنّه أُسر في الكفر مرّة وفي الإسلام مرّة، وأمّا قوله عليه السلام: «دلّ على قومه السّيف»: فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة غرّ فيه قومه ومكر بهم حتّى أوقع بهم خالد، وكان قومه بعد ذلك يسمّونه عرف النار، وهو اسم للغادر عندهم[١]. وبعد الخطبة (٤٦) وابتداء هذا الكلام مروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قفّاه أمير المؤمنين عليه السلام بأبلغ كلام وتمّمه بأحسن تمام من قوله: «ولا يجمعهما غيرك» إلى آخر الفصل[٢]. وبعد قوله: ومن كلام له عليه السلام في الخطبة (١٣٢)، وقد وقعت مشاجرة بينه وبين

---

(١) في شرح ابن أبي الحديد ١: ٩٧ كلّه، وشرح ابن ميثم ١: ٣٢٢ بعضه.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٧٦، ولكن شرح ابن ميثم ٢: ١٢١ خالٍ منه.

عثمان فقال المغيرة بن الأخنس لعثمان: أنا أكفيكه. فقال أمير المؤمنين عليه السلام للمغيرة[١].

وسقط منها قوله في الخطبة (٨٩): روى مسعدة بن صدقة...[٢]، وخلطت الحواشي بالمتن، ففيها في آخر الخطبة (١٣) وفي رواية أُخرى: «بلادكم أنتن بلاد الله تربة؛ أقربها من الماء، وأبعدها من السماء، وبها تسعة أعشار الشرّ، المحتبس فيها بذنبه، والخارج بعفو الله، كأنّي أنظر الى قريتكم هذه قد طبّقها الماء حتّى ما يرى منها إلّا شرف المسجد كأنّه جؤجؤ طير في لجّة بحر»[٣]. فليس في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية) أثر منه، وإنّما أخذه بعض المحشّين من نقل ابن ميثم في رواية طويلة أخذ المصنّف منها كلامه، فيها ذاك الكلام[٤].

وفيها في الحكمة (٤٨٠) وهي آخر الحكم: قال الرضي: يقال حشمه وأحشمه إذا أغضبه، وقيل أخجله، واحتشمه طلب ذلك له، وهو مظنّة مفارقته[٥].

وبعد الحكمة (٤٧٩) قال الرضيّ: لأنّ التكليف مستلزم للمشقّة، وهو شرّ لازم عن الأخ المتكلّف له، فهو شرّ الإخوان[٦].

وليس واحد منهما كلام الرضيّ، بل من حواش مختلطة لخلو (ابن أبي

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٧١، وشرح ابن ميثم ٣: ١٦٣.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٣٨، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٢٢.

(٣) الزيادة في شرح ابن أبي الحديد ١: ٨٣ كلّها، وفي شرح ابن ميثم ١: ٢٩٠ بعضها.

(٤) الزيادة في شرح ابن ميثم عقيب الخطبة، وليس في الرواية الطويلة أثر منها.

(٥) لا يوجد في شرح ابن أبي الحديد ٤: ٥٢٩، وأمّا شرح ابن ميثم ٥: ٤٦٧ فقال فيه بعد أصل الحكمة: «حشمه أحشمه بمعنى أغضبه، وقيل أخجله». ولم ينسبه إلى الرّضيّ.

(٦) لا يوجد في شرح ابن أبي الحديد ٤: ٥٢٩، وشرح ابن ميثم ٥: ٤٦٧.

الحديد وابن ميثم والخطية) من الكلامين، ولأنّ الرضي رحمه الله أجلّ من أن يتكلّم بمثل ذاك الكلام الساقط المذكور فيهما، ولأنّه لا يفسّر إلّا المشكل، لا مثله.

وأيضاً زادت في ما نقل كلاماً للمصنّف من الأوّل إلى الآخر جملة: «قال الرضيّ» مع أنّه ليس كلام المصنّف حتّى يُجعل جزءَ النهج، وإنّما هو إنشاء الشرّاح: ابن أبي الحديد وابن ميثم وغيرهما؛ فالخطيّة خالية منها، وابن ميثم غالباً يقول: قال السيّد، وابن أبي الحديد يعبّر مختلفاً[1].

وخُلطت في عهده عليه السلام للأشتر لمّا ولّاه على مصر في الكتاب (٥٣) حواشٍ مأخوذة من رواية (تحف العقول) للعهد، بالمتن، منها: «وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلّا بالاهتمام والاستعانة بالله، وتوطين نفسه على لزوم الحقّ والصبر عليه في ما خف عليه أو ثقل» خلطه بين «ولكلّ على الوالي حقّ بقدر ما يصلحه» و «فولّ من جنودك أنصحهم في نفسك»[2].

ومنها: «وإنّ أفضل قرّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودّة الرعيّة، وانّه لا تظهر مودّتهم إلّا بسلامة صدورهم» خلطه بين «فإنّ عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك» و «ولا تصحّ نصيحتهم إلّا بحيطة على ولاة أُمورهم»[3].

ومنها: «رياضة منك لنفسك ورفقاً برعيّتك» خلطه بين «فإنّ في ذلك» و «أعذاراً تبلغ به حاجتك»[4].

فإنّ النهج كان خالياً من الفقرات الثّلاث بدليل خلوّ (ابن أبي الحديد وابن

---

(١) ذكر اسم مصنّف الكتاب من قبل النّسّاخ والرّاوين أمر شائع في الكتب القديمة.

(٢) شرح ابن ميثم ٥: ١٥٠ خال من هذه القطعة، لكن توجد في شرح ابن أبي الحديد ٤: ١٢٧، وكذلك في تحف العقول: ١٣٢.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤: ١٢٨، وشرح ابن ميثم ٥: ١٥١، وكذلك في تحف العقول: ١٣٣.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٤: ١٤٥، وشرح ابن ميثم ٥: ١٧٤ بفرق يسير في تحف العقول: ١٤٥.

ميثم والخطية) منها، وإن فُرض كونها من كلامه عليه السلام وجزء العهد[١].

وقُدّمت وأُخّرت وحُرّفت العناوين عن مواضعها؛ ففي (ابن أبي الحديد وابن ميثم) العنوان «ومن كلام له عليه السلام قاله لعبد الله بن العبّاس وقد جاءه برسالة من عثمان، وهو محصور...» قبل العنوان «ومن كلام له عليه السلام اقتصّ فيه ذكر ما كان منه عليه السلام بعد هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله ...»[٢]. وإن كان الراوندي قال في شرحه وتاريخ فراغه منه (٥٥٦): ذاك العنوان زيادة من نسخة كتبت على عهد المصنف[٣]. وفي (المصرية) العنوان الأوّل تحت الرقم (٢٣٥) والثاني تحت الرقم (٢٣١).

وفي (ابن أبي الحديد وابن ميثم) العنوان «إنّ هذه القلوب تملّ» بعد العنوان «أوضع العلم ما وقف على اللسان»[٤]، وفي (المصرية) بالعكس؛ الأوّل الحكمة (٩١) والثاني الحكمة (٩٢).

كما أنّها قد تجعل جزء العنوان عنواناً مستقلّاً؛ ففي (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة) الحكمة (٩٥) من رقم (المصريّة) جزء الحكمة (٩٤) منه[٥]، وفي (ابن أبي الحديد وابن ميثم) الحكمة (١٢٣) من رقم (المصرية) جزء الحكمة (١٢٢) منه[٦]، وفي (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة) «طوبىٰ لمن ذكر المعاد» الحكمة (٤٤) من المصريّة جزء «يرحم الله خباب بن الارت»

---

(١) مع ما ذكرت لا يبقى وجه لنسبة هذه الألفاظ إلى الأخذ من تحف العقول.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٨٦، ٢٨٨، وشرح ابن ميثم ٤: ٣٢٢، ٣٢٤، وهما الخطبتان ٢٣٤، ٢٣٨.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٨٢، وشرح ابن ميثم ٥: ٢٨٦، وهما الحكمتان ٩١، ٩٢.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٨٣، وشرح ابن ميثم ٥: ٢٨٧.

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣٠١، وشرح ابن ميثم ٥: ٣٠٦.

(٦) في شرح ابن ميثم ٥: ٢٦٥ جمعهما، وفي شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٦٣ شرحهما معاً فقط، لكن فصّل بينهما بقوله: «وقال عليه السلام».

الحكمة (٤٣)[١]، ولم تكتف (المصرية) بالخلط، بل زادت فقرتين من الثاني في الأوّل أيضاً.

كما أنّها قد تفعل بالعكس، فتجعل المستقلّ جزءاً؛ ففي (المصرية) «إنّ الدنيا والآخرة عدوّان متفاوتان» جزء الحكمة (١٠٢) «ورئي عليه عليه السلام إزار خلِق مرقوع»، وفي (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة) مستقلّ ليس جزءه[٢].

كما أنّها نقلت أشياء تفرّد بنقلها من النهج ابن أبي الحديد، ونبّهت على ذلك بجعلها بين قوسين، لكنّها وهمت في محلّ نقلها منها: «الغنى الأكبر اليأس عمّا في أيدي الناس»، ففي (ابن أبي الحديد) هو بعد الحكمة (٣٣٣)، و(المصرية) جعلته بعد الحكمة (٣٤١).

ومنها: «المسؤول حرّ حتّى يعد» فإنّه في (ابن أبي الحديد) قبل الحكمة (٣٣٤)، و (المصرية) جعلته الحكمة (٣٣٦)[٣].

ومنها قوله عليه السلام: «نعم الطيب المسك»، وقوله: «ضع فخرك» جعلتهما (المصرية) الحكمة (٣٩٧) و (٣٩٨) مع أنّهما في (ابن أبي الحديد) قبل (٣٩٣)[٤].

وما جعلته المصريّة (٣٨٩) هو في (ابن أبي الحديد) قبل (٣٨٦)[٥]، وما جعلته (٣٣٩) و (٤٠٠) هما في (ابن أبي الحديد) بعد (٣٩٦)[٦]، الى غير ذلك من تحريفاتها.

ولو أردنا استقصاء ما فيها من التصحيف والتحريف والتغيير

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٨٥ ـ ٢٨٦، وشرح ابن ميثم ٥: ٢٩٢.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣٩٤.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣٩٥.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٤٢١، ٤٢٤.

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٤١٩.

(٦) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٠.

والتبديل والزيادة والنقصان لطال الكلام، حيث إنّه قلّ عنوان منها من أوّلها إلى آخرها لم يكن بمحرَّف، ومنها كلام المصنّف في آخر الكتاب، فلم يكن بعد الحكمة (٤٨٠) كما في (المصرية)، بل بعد (٤٦٢)[١]، كما ستقف عليه في ذكر اختلاف نسخ النهج[٢].

ثم (إنّ) نسخ النهج كانت مختلفة من الصّدر الأوّل. قال (ابن ميثم) بعد خطبة همّام المذكورة تحت الرقم (١٨٨) من المصريّة: من هاهنا اختلفت نسخ النهج، فكثير منها تكون هذه الخطبة فيها أوّل المجلّد الثاني منه بعد الخطبة المسمّاة بالقاصعة، ويكون عقيب كلامه للبرج بن مسهّر الطائي قولهعليه السلام: «الحمد لله الذي لا تدركه الشّواهد ولا تحويه المشاهد»، وكثير من النسخ تكون هذه الخطبة فيها متّصلة بكلامهعليه السلام للبرج بن مسهّر، وتتأخّر تلك الخطبة فتكون بعد قوله: «ومن كلام لهعليه السلام وهو يلي غسل رسول اللهصلى الله عليه وآله» ويتصل ذلك إلى تمام الخطبة المسمّاة بالقاصعة، ثمّ يليه قوله: «باب المختار من كتب أمير المؤمنين ورسائله»، وعليه جماعة الشّارحين، كالامام قطب الدين أبي الحسن الكيذري، والفاضل عبد الحميد بن أبي الحديد، ووافقتهم هذا الترتيب لغلبة الظنّ باعتمادهم على النسخ الصحيحة[٣].

قلت: والمفهوم منه أنّ نسخته لم تكن كنسخة ابن أبي الحديد ونسخة

---

(١) كما في شرح ابن أبي الحديد ٤: ٥٠٦، وشرح ابن ميثم ٥: ٤٦٠.

(٢) يأتي في الصفحات الآتية من المقدمة.

(٣) شرح ابن ميثم ٣: ٤١٣، وخطبة همّام رقمها (١٩١) والقاصعة رقمها (١٩٠) وقوله للبرج رقمه (١٨٢) وقوله «الحمد لله الذي» رقمه (١٨٣) وكلامه عند غسل الرسولصلى الله عليه وآله رقمه (٢٣٣) بأرقامنا. وما قاله ابن ميثم: «هذه الخطبة» أراد به خطبة همّام و: «تلك الخطبة» يعني بها خطبة «الحمد لله الّذي». وفي شرحَي الكيذري وابن أبي الحديد وبالتّبع شرح ابن ميثم جاء كلامهعليه السلام للبرج بلا فاصل قبل خطبة همّام، ثم بفاصل كلامه عند غسل الرسولصلى الله عليه وآله، ثمّ بعده بلا فاصل خطبة «الحمد لله الذي»، ثم بعده بفاصل خطبة القاصعة، ثمّ بعده بفاصل باب الكتب.

الكيذري، فتبعهما لما قاله من غلبة ظنّه باعتمادهما على النسخ الصحيحة، لكن ذلك منه عجيب، فصرّح في مواضع من كتابه بأنّ نسخته من النهج بخطّ مصنّفه، ومنها في القاصعة، فقال في قوله عليه السلام: «ولا لزمت الأسماء معانيها»: «وفي نسخة الرّضي» برفع الأسماء[1].

وقال أيضاً في قوله: «لا يُدرىٰ أمن سني الدنيا»، ففي نسخة الرّضيّ «يدري» بالبناء للفاعل[2].

ومنها في الخطبة (١٨٨) في الفقرة: «وكان ليلهم في دنياهم نهاراً»، وفي نسخة الرّضيّ بخطّه «كأنّ»، والتّرجيح إنّما يعقل بين نسخ غير المصنّف، وأمّا المصنّف فلا يعقل التّرجيح بينه وبين غيره[3].

وفي شرح الراوندي خطبة همّام قبل الخطبة (١٨١): «الحمد لله المعروف من غير رؤية، الخالق من غير منصبة»[4]، وفي نسختنا خطبة همّام بعد القاصعة، كما قاله ابن ميثم أوّلاً[5].

وكيف كان، فوجه الاختلاف ـ ظاهراً ـ أنّ المصنّف كتب النهج في نسخ متعددة، وزاد ونقص وقدّم وأخّر في النّسخ الأخيرة، حسب شأن المصنّفين في ما لو كتبوا نسخاً من كتاب، فلو فرض أنّ مصنّفاً كتب كتابه مائة مرّة لغيّر في كلّ من المائة بحسب ما يراه أحسن، ويشهد لما قلنا أنّ ابن أبي الحديد قال في العنوان: «وقال عليه السلام وقد جاءه نعي الأشتر» الحكمة (٤٤٣): يقال: إنّ الرضي ختم كتاب نهج البلاغة بهذا الفصل، وكتبت به نسخ متعددة،

---

(١) شرح ابن ميثم ٤: ٢٧٥.

(٢) شرح ابن ميثم ٤: ٢٤٧.

(٣) شرح ابن ميثم ٤: ٢٠٩.

(٤) شرح الراوندي كما في سائر النسخ.

(٥) مرّ آنفاً.

ثمّ زاد عليه إلى أنّ وفي الزيادات التي نذكرها فيما بعد[١].

وقال في العنوان «ربّ مفتون بحسن القول فيه»، الحكمة (٤٦٢): واعلم أنّ الرضي قطع كتاب نهج البلاغة على هذا الفصل، وهكذا وجدت النسخة بخطّه، وقال: «وهذا حين انتهاء الغاية بنا» إلى «ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النّصير»[٢].

وقال ابن ميثم في الحكمة (٤٦٢) : قال السيّد: وهذا حين انتهاء الغاية بنا الى قطع المختار من كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه، حامدين لله سبحانه على ما منّ به من توفيقنا لضمّ ما انتشر من أطرافه وتقريب ما بعد من اقطاره، وتقرّر العزم ـ كما شرطنا أوّلاً ـ على تفضيل أوراق من البياض في آخر كلّ باب من الأبواب، ليكون لاقتناص الشارد واستلحاق الوارد، وما عساه أن يظهر لنا بعد الغموض ويقع الينا بعد الشذوذ، وما توفيقنا إلّا بالله، عليه توكّلنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أقول: إنّه ـ رضوان الله عليه ـ بلغ في اختيار كلامه عليه السلام إلى هذه الغاية وقطعه عليها، ثمّ كتبت على عهده زيادة من محاسن الكلمات، إمّا باختياره هو أو بعض مَنْ كان يحضره من أهل العلم. وتلك الزيادة تارة توجد خارجة عن المتن وتارة موضوعة فيه ملحقة بمنقطع اختياره، وروي أنّها قرئت عليه وأمر بإلحاقها بالمتن؛ وأوّلها: «وقال عليه السلام : الدنيا خلقت لغيرها ولم تخلق لنفسها»[٣].

وقال الراوندي بعد كلامه عليه السلام في الاستغفار، الحكمة (٤١٧): قال السيّد:

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٤٧٨.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٥٠٦.

(٣) شرح ابن ميثم ٥: ٤٦١.

وهذا حين انتهاء الغاية بنا ـ إلى أن قال ـ وذلك من رجب سنة أربعمائة، والحمد لله وصلاته على رسوله محمّد وآله وسلامه.

ثمّ قال الراوندي: زيادة من نسخة كتبت على عهد المصنّف رحمه الله قال عليه السلام: «الدّنيا خلقت لغيرها ولم تخلق لنفسها»، ثمّ ذكر العناوين إلى «إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه»[١].

وقال أيضاً في كلامه عليه السلام الّذي قاله لعبد الله بن عباس برقم (٢٣٨): زيادة في نسخة كتبت على عهد المصنّف[٢].

وقال في الخطبة (٢٣٧): وكان في نسخة بغدادية زيادة وهي: «ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمّد عليهم السلام ـ إلى ـ ورعاته قليل» ثمّ قال: وقد مضى مثل ذلك في ما تقدّم، وزاد الرّاوندي في بيان المصنّف في الشّقشقيّة كما يأتي فيها[٣].

وفي (ابن ميثم) في آخر الباب الأوّل: هذا آخر الخطب والأوامر، ويتلوه المختار من الكتب والرسائل، إن شاء الله تعالى بعونه وعصمته وتوفيقه وهدايته[٤].

وفي (الخطيّة) «والحمد لله كثيراً»، وليس في (ابن أبي الحديد) شيء أصلاً[٥]، كما أنّ في (المصرية) «وصلّى الله على سيّدنا محمّد النبي الأُمّيّ وعلى آله مصابيح الدّجى والعروة الوثقىٰ وسلّم تسليماً كثيراً»، كما أنّ بين (ابن أبي الحديد) و(ابن ميثم) اختلافات؛ فممّا تفرّد به ابن أبي الحديد نقله

---

(١) قال الراوندي: وليس فيه قوله: «زيادة من نسخة كتبت...» شرح الراوندي ٣: ٤٣٥، شرح الحكمة (٤٨٠).

(٢) ليس هذا من كلام الراوندي، بل نقله في هامش الشرح ٢: ٣٥٢ عن هامش نسخة خطية من نهج البلاغة.

(٣) لا توجد هذه الخطبة في شرح الراوندي أصلاً.

(٤) شرح ابن ميثم ٤: ٢٣٧.

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٩٣.

ضمن عنوان الخطبة (٥٢) عن الرضيّ: وقد تقدّم مختارها برواية، ونذكر ما يذكره هاهنا برواية أُخرىٰ لتغاير الروايتين[١].

ومما تفرّد به أيضاً نقل الخطبة الأخيرة برقم (٢٣٩): «والله مستأديكم شكره...» بعد الخطبة (٢١٨): «قد أحيا عقله»[٢].

وتفرّد في جعل «ونعم القرين الرضا» أوّل الحكمة(٤) آخر الحكمة(٣)[٣]، وجعل «ومن رضي عن نفسه كثر الساخط عليه» آخر الحكمة (٥) أوّل (٦)[٤]، وجعل الحكمة (١٧) بعد (١١)[٥]، وجعل الحكمة (٩٢) قبل (٩١)[٦]، وجعل جزء الحكمة (١٢٧): «ولا حاجة لله في من ليس لله في ماله ونفسه نصيب» مستقلّاً[٧]، وجعل الحكمة (١٥٤) بعد (١٥١)[٨]، وجعل(١٥٥) و(١٥٦) بعد (١٨٨)[٩]، وجعل (١٥٧) بعد (١٨٤)[١٠]، وجعل كلّاً من: «ومن لم يعط قاعداً لم يعط قائماً» و «والدهر يومان»، وهما جزء الحكمة (٣٩٦): «المنية ولا الدّنية»، مستقلّاً[١١].

وتفرّد أيضاً بنقل عناوين في أواخر الباب الثالث، مرّ بعضها ويأتي

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٣١.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣: ٤٢، ٤٧ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٤٠، وجعل ابن أبي الحديد صدر الحكمة الثالثة وذيل الثالثة مع صدر الرابعة رابعةً وذيلها الخامسة.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٤٣.

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٤٦، ٢٤٧.

(٦) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٨٢.

(٧) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣٠٣.

(٨) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣١٦.

(٩) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣١٨، ٣١٩ .

(١٠) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣١٩.

(١١) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٤٢٧، ٤٢٨.

باقيها في آخر الكتاب[١]، ويأتي في العنوان (١٢) من الفصل الأربعين تصريح ابن ميثم بتفرّد (ابن أبي الحديد) بنقل الفقرة: «ومنه ما يكون عواريّ في القلوب»[٢]، وتفرّد أيضاً بنقل القطعة: «والله ما تنقم منّا قريش...» في الخطبة (٣٣)، ويأتي بحثها في موضعه[٣].

وممّا تفرّد به (ابن ميثم) عدم نقل كلام المصنّف في آخر الشقشقيّة، وعدم نقل ما في الخطبة (٥) من (لما) إلى (بالخلافة) وعدم نقل كلام المصنّف في الخطبة (٣٩ و ٤٢ و ٦٨ و ١٦٣) والحكمة (٨١)[٤].

وتفرّد في الخطبة (٨٩) في زيادة في العنوان، كما يأتي في محله[٥]، وتفرّد في جعل (ومنها) الثانية في الخطبة (٢٦) مستقلّاً، فقال بدل (ومنها): ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها عمرو بن العاص[٦].

وتفرّد بعدم ذكر الكتاب (٤٠): «أمّا بعد فقد بلغني عنك أمر...» رأساً[٧].

وجعل (ابن ميثم والخطيّة) من الحكمة (٢) إلى (٦) تحت عنوان واحد[٨]، وجعلا الحكمة (٤٤) جزءَ (٤٣)[٩]، وجعلا الحكمة (٣٤٣) بعد

---

(١) بهج الصباغة: خاتمة الكتاب.

(٢) بهج الصباغة: الفصل (٤٠) العنوان (١٢)، وشرح ابن ميثم ٤: ١٩٤، أقول: ما زاد ابن أبي الحديد ٣: ٢١٥ هذه الفقرة في أصل الخطبة لكن شرحها عند الشرح ٣: ٢١٦.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٧٦، وبهج الصباغة: الفصل (٨) العنوان (٢).

(٤) شرح ابن ميثم ١: ٢٥١، ٢٧٦، و ٢: ٩٩، ١٠٧، و ٣: ٣١٢، و ٥: ٢٨١، وكلام الرضي في شرح ابن ميثم ٢: ١٩١.

(٥) شرح ابن ميثم ٣: ٢٢٢، وبهج الصباغة: الفصل (١) العنوان (٨).

(٦) في شرح ابن ميثم ٢: ٢٧ أيضاً «ومنها».

(٧) موضعه في شرح ابن ميثم ٥: ٨٧، وليس فيه.

(٨) شرح ابن ميثم ٥: ٢٣٨.

(٩) شرح ابن ميثم ٥: ٢٦٥.

الحكمة (٣٤١)[١]، وجعلا الحكمة (١٤٢) و (١٤٣) جزء (١٤١) بزيادة حرف عطف في أوّلهما[٢]، إلى غير ذلك ممّا تفرّد به كل من ابن أبي الحديد وابن ميثم، لو أُريد استقصاؤه لطال الكلام.

ثم لو اتّفقا في شيء على خلاف نسخنا يكون ما في نسخنا تصحيفاً قطعاً لصحّة نسخهما دون نسخنا، وأمّا لو تفرّد كلّ واحد منهما فيشكل الترجيح، ولا يبعد ترجيح نقل ابن ميثم لما عرفت من كون نسخته بخطّ المصنّف، وإن كان هو رجّح عند خطبة همّام ترتيب نسخة ابن أبي الحديد[٣]، ولأن كثيراً ممّا تفرّد بزيادته يبعد اختيار الرضيّ له لعدم كونه بتلك البلاغة.

والإشكال إنّما هو في ما لو وافقت نسخنا أحدهما، وأمّا لو خالفتهما ـ كما في الحكمة (٢ ـ ٦) على ما عرفت ـ فلا اعتبار بها لكونها على خلافٍ ما، من قبيل الإجماع المركّب.

هذا ولكون شرحي على صوغ بهج على ما منّ الله تعالى، سمّيته ببهج الصباغة في شرح نهج البلاغة. قال ابن دريد: يقال: أبهجني هذا الأمر وبهجني، إذا سرّك[٤].

(١) جعل ابن ميثم الحكمتين (٣٤٣، ٣٤٤) حكمة واحدة أوردها بعد الحكمة (٣٤١)، شرح ابن ميثم ٥: ٤٠٩، ٤١٠.

(٢) شرح ابن ميثم ٥: ٣١٩.

(٣) شرح ابن ميثم ٣: ٤١٣.

(٤) جمهرة اللغة لابن دريد ١: ٢١٥.

شرح خطبة الرّضي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المصنّف ﴿رحمه الله﴾:

روى (العيون) عن الرضا عليه السلام: أنَّ بسم الله الرحمن الرحيم أقربُ الى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها[1].

وروى العياشي عن الصادق عليه السلام: ما أنزل الله من السماء كتاباً إلّا وفاتحته بسم الله الرّحمن الرّحيم، وإنّما كان يعرف انقضاء السورة بنزول بسم الله الرّحمن الرحيم ابتداءً للأُخرىٰ[2].

«أمّا بَعْدُ» في (تاريخ الطبري) عن الهيثم بن عدي: أوّل من قال: «أمّا بعد»

---

(١) رواه عن الرضا عليه السلام الصّدوق في العيون ٢: ٥ ح١١، والعياشيّ في تفسيره ١: ٢١ ح١٢، وابن طاووس في مهج الدعوات:٣١٦، وأيضاً رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في الشّعب، وأبوذرّ الهرويّ في فضائله، والخطيب في التاريخ عنهم الدرّ المنثور ١: ٨، وابن النجار في التاريخ، عنه منتخب كنز العمّال ١: ٣٧١، وابن طاووس في مهج الدعوات: ٣١٩ عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وآله، ورواه عاصم بن حميد في أصله: ٢٨ عن علي عليه السلام، والطوسي في التهذيب عن الباقر عليه السلام ٢: ٢٨٩ ح١٥، وابن شعبة في تحف العقول: ٤٨٧، والإربلي في كشف الغمّة ٣: ٢١٠، وابن طاووس في مهج الدّعوات: ٣١٧، والمسعودي في اثبات الوصية: ٢١٢ عن العسكري عليه السلام.

(٢) أخرجه العياشي في تفسيره ١: ١٩ ح٥، والسيّاري في التنزيل والتحريف، عنه المستدرك ١: ٢٧٥ ح٩ عن الصادق عليه السلام، وأخرج معناه البرقيّ في المحاسن: ٤٠ ح٤٩، والسّياري في التنزيل والتحريف، عنه المستدرك ١: ٢٧٦ ح١٠ عن الصادق عليه السلام، والكليني في الكافي ٣: ٣١٣ ح٣ عن الباقر عليه السلام.

قسّ بن ساعدة الإيادي[١].

وعن أبي موسى الأشعري: أوّل من قال: «أمّا بعد» داود النبيعليه السلام، وهي فصل الخطاب الّذي ذكره الله تعالى عنه في ما آتاه[٢].

وروى الصولي في (أدب الكاتب) أنّ أوّل من قاله كعب بن لُؤي[٣].

«حَمْدِ اللّٰهِ» أُتي بلفظ الإضافة تنبيهاً على كمال اختصاص الحمد به تعالى، وإلّا فالمناسب لقوله بعد «والصّلاة على رسوله»: الحمد لله.

«الّذي جَعَلَ الْحَمْدَ ثَمَناً لِنَعْمائِهِ» روى الصّدوق عن الصّادقعليه السلام: من قال في كلّ يوم سبع مرّات: الحمد لله على كلّ نعمة كانت أو هي كائنة؛ فقد أدّى شكر ما مضى وشكر ما بقي[٤].

وعنهعليه السلام: من قال أربع مرّات إذا أصبح «الحمد لله ربّ العالمين» فقد أدّى شكر يومه، ومن قالها إذا أمسى فقد أدّى شكر ليلته[٥]. وعنهعليه السلام: ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال: «الحمد لله» إلّا أدّى شكرها[٦].

«ومَعَاذاً مِنْ بلائِهِ» المستتبع لترك حمده وشكره، قال تعالىٰ: ﴿... ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾[٧].

---

(١) رواه الطبري في تاريخه ٥: ٢٤، سنة(٧٢)، والكراجكي في كنز الفوائد: ٢٥٤.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه ٥: ٢٤، سنة(٧٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره، والديلمي عنهما الدر المنثور ٥: ٣٠٠، وأخرج معناه الثعلبي في العرائس: ٢٧٧، وسعيد بن منصور في السنن، وابن أبي شيبة في مسنده، وابن سعد وعبد بن حميد في مسنده، وابن المنذر عنهم الدر المنثور ٥: ٣٠٠ عن زياد.

(٣) رواه الصولي في أدب الكاتب: ٣٦.

(٤) أخرجه الصدوق في ثواب الأعمال: ٢٤ ح ١.

(٥) أخرجه الكليني في الكافي ٢: ٥٠٣ ح٥، والصدوق في ثواب الأعمال: ٢٨، ورواه ابن فهد في عدّة الداعي، عنه البحار ٩٣: ٢١٦ ح ٢١ عن الصادقعليه السلام.

(٦) أخرجه الكليني في الكافي ٢: ٩٦ ح ١٤ عن الصادقعليه السلام.

(٧) إبراهيم : ٧.

«وَسَبيلاً» هكذا في (المصرية)، والصواب: (ووسيلاً) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[١]، والوسيل مفرد كالواسل ولغة في الوسيلة كما نقله (المصباح)[٢]، لا جمع وسيلة كما توهّمه (الصحاح)[٣]، وتبعه ابن أبي الحديد وابن ميثم والخوئي[٤]، ولو كان جمعاً لصار المعنى: جعل الحمد وسائل إلى جنانه. ولا معنى له، والمصنّف أيضاً جعله مفرداً كما يشهد له قوله قبل: «ثمناً ومعاذاً»، وبعد: «سبباً».

«إلىٰ جِنانِهِ» عن النبي ﷺ: لمّا أُسري بي إلى السماء دخلت الجنّة فرأيت فيها قيعاناً يقتاً من مسك، ورأيت فيها ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، وربّما أمسكوا، فقلت لهم: مالكم ولأيّ شيء تبنون مرّة وتمسكون أُخرىٰ؟ قالوا: حتّى تأتينا النّفقة. قلت: وما نفقتكم؟ قالوا: قول المؤمن: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر»؛ فاذا قالهنّ بنينا، وإذا سكت أمسكنا[٥].

وفي خبر آخر: إذا أصبحت وأمسيت فقل: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر» فإنّ لك بذلك إن قلته بكلّ تسبيحة عشر شجرات في الجنّة

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٤، وشرح ابن ميثم ١: ٨٩.

(٢) في المصباح المنير للفيومي ٢: ٣٨٠ «الوسيل قيل جمع وسيلة، وقيل لغة فيها».

(٣) صحاح اللغة للجوهري ٥: ١٨٤١ مادة (وسل).

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٤، وشرح ابن ميثم ١: ٩٢، وشرح الخوئي ١: ٨٣.

(٥) أخرجه أبو علي الطوسي في أماليه ٢: ٨٨، المجلس (١٧)، وعلي بن ابراهيم في تفسيره بطريقين ١: ٢١، و ٢: ٥٣، والنعماني وابن قولويه في التفسير المنسوب إلى كليهما: ٨٣، وروى معناه علي بن ابراهيم في تفسيره ١: ٢١، والصدوق في أماليه: ٣٦٤ ح ٢، المجلس (٦٩)، والنعماني وابن قولويه في التفسير المنسوب الى كليهما: ٨٢، والراوندي في الدعوات عنه البحار ٩٣: ١٧٤ ح ٢١، والترمذي في السنن ٥: ٥١٠ ح ٣٤٦٢، وابن مردويه بثلاث روايات، والطبراني عنهما الدرّ المنثور ٤: ١٥٣ كلّهم عن النبي ﷺ.

من أنواع الفاكهة، وهنّ من الباقيات الصالحات[١].

«وَسَبَباً لِزِيادَةِ إِحسانِهِ» قال تعالىٰ: ﴿... لئن شكرتم لأزيدنّكم...﴾[٢].

«وَالصَّلاةُ عَلىٰ رَسُولِهِ نَبِيِّ الرَّحمَةِ» قال تعالىٰ: ﴿وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين﴾[٣].

«وَإمامِ الأئمَّةِ وَسِراجِ الأُمَّةِ» قال تعالىٰ: ﴿يا أيّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[٤].

«المُنتَجَبِ مِن طينَةِ الكَرَمِ وَسُلالَةِ المَجدِ الأَقدَمِ، وَمَغرَسِ الفِخارِ المُعرِقِ وَفَرعِ العَلاءِ المُثمِرِ المُورِقِ» الفقرات الأربع مأخوذة من زيارة جامعة مروية عن الهاديعليه السلام[٥]. والسلالة ما يستخرج من الشيء باللّطف والخفاء؛ قال تعالىٰ: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾[٦].

وقال الشاعر:

وما هند إلّا مهرة عربيّة   سليلة أفراس تجلّلها بغل[٧]

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿... يتسلّلون منكم لواذاً..﴾[٨]، ولذا يقال للسرقة

---

(١) أخرجه الصدوق في أماليه: ١٦٩ ح ١٦، المجلس (٣٦) والبرقي في المحاسن: ٣٧ ح ٣٨، والكليني في الكافي ٢: ٥٠٦ ح ٤ عن الباقرعليه السلام عن النبيّصلى الله عليه وآله.

(٢) إبراهيم : ٧.

(٣) الأنبياء: ١٠٧.

(٤) الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦.

(٥) أخرج الزيارة الجامعة الصدوق في العيون ٢: ٢٧٧، والفقيه ٢: ٣٧٠ ح ٢، والطوسي في التهذيب ٦: ٩٥ ح ١، كلّهم مسنداً، ورواها الكفعمي في البلد الأمين: ٢٩٧ مجردة عن الهاديعليه السلام، وصاحب الكتاب العتيق فيه، عنه البحار ١٠٢: ١٤٦ ح ٥ بلا عزو، وما أدري لم ذهب ظن الشارح الى أنّ الفقرات الأربع أُخذت من هذه الزيارة.

(٦) المؤمنون : ١٢.

(٧) نقل البيت لسان العرب ١١: ٣٣٩، مادة (سلل) وهو منسوب إلىٰ هند بنت النعمان.

(٨) النور : ٦٣.

الخفيّة السلّة.

قال ابن أبي الحديد: سلالة المجد فرعه[١]، وهو كما ترى. والفَخار بالفتح اسم مصدر من فخر كما قاله (المصباح)[٢]، لا مصدره كما قال ابن أبي الحديد، لعدم صحّة معنى المصدر هنا، ولأنّ قبله وبعده أسماء لا مصادر كالطّينة والسّلالة والعلاء، وما قاله ابن أبي الحديد: من أنّ الفعل إذا كان (عينه) أو (لامه) حرف حلق يكون مصدره فَعالاً بالفتح، نحو: ذهب وسمح[٣]، لا يوجب أن يكون كلّ فَعال بالفتح مصدراً لأعمّيته، مع أنّه ليس لأصله كليّة، فإنّ (سأل) ليس مصدره بالفتح[٤].

«وَعَلىٰ أهلِ بَيتِهِ مَصابيحِ الظُّلَم، وَعِصَمِ الأُمَمِ، وَمَنارِ الدّينِ» قال ابن أبي الحديد: المنار الأعلام واحدها منارة[٥].

وقال الخوئي: لم يصرّح أحد من اللّغويين بكون المنار جمعاً لها (أي: للمنارة)، فهذا (القاموس والمصباح) قالا: جمع المنارة المناور والمنائر[٦].

قلت: لِمَ لَمْ يراجع (النهاية)؟ فإنّه قال في الحديث: «لعن الله من غيّر منار الأرض»[٧]. المنار جمع منارة وهي العلامة تجعل بين الحدّين، ومنار الحرم أعلامه التي ضربها الخليل عليه السلام على أقطاره ونواحيه، و(الميم) زائدة، ومنه

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٤.

(٢) المصباح المنير للفيومي ٢: ١٣٦.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٢.

(٤) لم يدّع ابن أبي الحديد كليّته، فإنّه قال: «فقد جاء المصدر الثلاثي إذا كان عينه أو لامه حرف حلق على فَعال بالفتح، نحو: سمع سماعاً، وذهب ذهاباً».

(٥) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٤.

(٦) شرح الخوئي ١ : ٨٣، والقاموس المحيط ٢: ١٤٩، مادة (نور)، والمصباح المنير ٢: ٣٤٢ مادة (نور).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه ٣: ١٥٦٧ ح٤٣، والنسائي في سننه ٧: ٢٣٢ في ذيل حديث عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله، وروي الحديث بألفاظ أُخرى.

حديث أبي هريرة: «إنّ للإسلام ضوى ومناراً»[١]. أي: علامات وشرائع يعرف بها[٢].

ولِمَ لَمْ يراجع (الأساس)؟ فقال: واهتدوا بمنار الأرض، أي: بأعلامها، وهدم فلان منار المساجد، منار جمع منارة[٣].

ولِمَ لَمْ يراجع (تهذيب الأزهري)؟ فقال كما في (اللسان): المنار جمع منارة، وهي العلامة تجعل بين الحدّين ومنار الحرم أعلامه التي ضربها إبراهيم الخليل عليه السلام على أقطار الحرم ونواحيه، وبها تعرف حدود الحرم من حدود الحلّ[٤].

ولِمَ خصّ اعتراضه بـ(ابن أبي الحديد)، والأصل فيه المصنّف حيث جعله وصفاً لأهل بيته كمصابيح وعصم قبلها ومثاقيل بعدها؟

«الواضِحَةِ» صفة المنار وهو أيضاً شاهد لكون المنار جمعاً، ويشهد لقول المصنّف قول الشاعر:

لعكَ في مناسمها منار ... إلى عدنان واضحة السّبيل[٥]

«وَمَثاقيلِ» الأصل في مثقال الشيء لغة: وزانه من مثله، وهو من الأسماء اللازمة الإضافة بحسب المعنى؛ قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره* ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿... وإن كان مثقال

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة، وله شاهد أخرجه الطبراني في معجمه الكبير عن أبي الدّرداء عنهما الجامع الصغير ١: ٩٥.

(٢) النهاية لابن الأثير ٥: ١٢٧، مادة (نور).

(٣) أساس البلاغة: ٤٧٦، مادّة (نور).

(٤) لسان العرب ٥: ٢٤١، مادّة (نور).

(٥) نقله لسان العرب ٥: ٢٤١، مادّة (نور).

(٦) الزلزلة: ٧ ـ ٨.

حبّة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[١].

ثم نقل بالعرف العام إلى وزن الدينار، فيقال: هذا مثقال، أي مثقال دينار. فيقطع عن الإضافة وينوى المضاف إليه المعهود. وإذا ذكر المضاف إليه ـ كما هو أصله وكما استعمله المصنّف ـ ينسب إلى كلّ شيء.

«الفَضلِ الراجِحَةِ» على فضل العالمين.

«صَلَّى اللهُ عَلَيهِم أجمَعينَ صَلاةً تَكُونُ ازاءً» أي: وفاقاً.

«لِفَضلِهِم» أي: فضائلهم النفسانيّة.

«وَمُكافأَةً» أي: جزاء.

«لِعَمَلِهِم» أي: أعمالهم الصالحة.

«وَكِفاءً» أي: كُفأً ونظيراً؛ قال حسّان:

وروح القدس ليس له كفاء[٢].

«لِطيبِ فَرعِهِم وَأَصلِهِم» روى (الكافي) عن معاوية بن وهب عن الباقر عليه السلام في علائم الإمام: طهارة الولادة وحسن المنشأ ولا يلهو ولا يلعب[٣].

وفي خبر آخر: إنَّ الإمام لا يستطيع أحد أن يطعن عليه في فم ولا بطن ولا فرج[٤].

«ما أنارَ فَجرٌ ساطِعٌ» أي: مرتفع.

«وَخَوىٰ نَجمٌ طالِعٌ» أي: سقط وغرب.

«فَإنّي» جواب أمّا.

---

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) نقله لسان العرب ١: ١٣٩، مادة (كفأ).

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٢٨٤ ح٤.

(٤) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٢٨٤ ح٣ في ذيل حديث.

«كُنتُ في عُنفُوان السِّنِّ» أي : أوّله.

«وَغَضاضَةِ الغُصنِ» أي: طراوته، وغضاضة الغصن كناية عن أيّام الشباب، كما أن نعومة الأظفار كناية عن أيّام الطفولة.

«ابتَدَأتُ بِتَألِيفِ كِتابٍ في خَصائِصِ الأئمَّةِ عَلَيهِمُ السَّلامُ» إنّ المصنّف مع أنّه لم يصل إلى حدّ الشيخوخة لأنّ تولده كما قال الثعالبي[1] كان في سنة (٣٩٥) وتوفي سادس المحرم سنة (٤٠٦) كما قال هو والخطيب والنجاشي والجزري[2]، وقول ابن أبي الحديد: مات سنة (٤٠٤)[3] فيكون توفي عن سبع وأربعين سنة، ولذا قال أخوه المرتضى في رثائه:

لله عمرك من قصير طاهر ولربّ عمر طال بالأرجاس[4]

كانت له كتب نفيسة غير (الخصائص) الذي أشار اليه وغير نهجه هذا، ومنها: كتاب (حقائق التنزيل) الذي قال في حقّه شيخه ابن جني[5] وأحمد بن عمر بن روح[6]: يتعذّر وجود مثله. وكتاب (مجاز القرآن) وكتاب (مجازات

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ٣: ١٣١.

(٢) قاله الخطيب في تاريخ بغداد ٢: ٢٤٧، والنجاشي في الفهرست: ٢٨٣، وابن الأثير في الكامل ٩: ٢٦١ سنة (٤٠٦)، وكذا قال ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤: ٤١٩، والعلّامة الحلّي في الخلاصة: ١٦٤، وابن ميثم في شرحه ١: ٨٩، والسيد الحسني في عمدة الطالب: ٢١٠، لكن الثعالبي كان معاصراً للرضيّ ولم يتعرّض الى تاريخ وفاته في يتيمة الدهر ٣: ١٣١.

(٣) قاله ابن أبي الحديد في شرحه ١: ١٣، ونقله أيضاً الطريحي في مجمع البحرين ١: ١٨٩ مادة (رضا) نقلاً عن جامع الأصول، ونقله الخوانساري في الروضات ٦: ١٩٧ عن مجمع البحرين، والمحدث النوري في المستدرك ٣: ٥١٠ عن الروضات. والظاهر انه من سهو الطريحي لأن ابن الأثير في جامع الأصول ١٢: ٢٢٢ ذكر الرضي لكن لم يتعرّض لتاريخ وفاته.

(٤) في ديوان الشريف المرتضى ٢: ١٣٣:

وامّا لعمرك من قصير طاهر ولربّ عمر طال بالأرجاس

(٥) نقله عن ابن جنّي في بعض مجاميعه ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤: ٤١٦.

(٦) نقله عن ابن روح الخطيب في تاريخ بغداد ٢: ٢٤٦.

الآثار النبوية) وقد وصل إلينا جزء من الأوّل، وتمام الأخيرين[١]، ومنها يظهر مقام أدبيّته كما يظهر من بياناته في النهج، وكتاب (تعليق خلاف الفقهاء)، وكتاب تعليقه على إيضاح أبي علي الفارسي، وكتاب (الجيد من شعر ابن الحجّاج)[٢]، و (كتاب مختار شعر أبي إسحاق الصابي)، وكتاب (ما دار بينه وبين الصابي من الرسائل)[٣]، ولم تصل هذه إلينا، وكتاب ديوان شعره، وقد وصل إلينا[٤]. ومنه يظهر صدق ما قيل: إنَّ الرضيّ أشعر الطالبيين بل أشعر قريش أجمعين[٥]. فقالوا: ليس في قريش مُجيد مكثر سوى الرضيّ رضوان الله عليه[٦].

«يَشتَمِلُ عَلى مَحاسِنِ أَخبارِهِم وَجَواهِرِ كَلامِهِم» يعني: جعل ذلك موضع كتابه.

«حَداني» أي: بعثني.

«عَلَيهِ» أي: على تأليف ذاك الكتاب.

---

(١) الأوّل طبع باسم حقائق التأويل في متشابه التنزيل بتحقيق آل كاشف الغطاء، وامّا الثاني فقد طبع باسم تلخيص البيان في مجازات القرآن بطهران فالقاهرة ثم بغداد، وامّا الثالث فقد طبع باسم المجازات النبوية ببغداد ثمّ القاهرة.

(٢) سمّى نفسُه هذا الكتاب: الحسن من شعر الحسين، كما ذكر السيّد الحسني في عمدة الطالب: ٢٠٨، والشيخ الحرّ في أمل الآمل ٢: ٢٦٣ لأنّ اسم ابن الحجّاج الحسين. قال محمّد عبد الغني: حسن. في مقدمة تلخيص البيان: ١٠٠ وقد ذكر ذلك في ديوانه المطبوع ببيروت سنة (١٣٠٧) ونقله المستشرق (متز) في كتابه: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١: ٤٤٩.

(٣) قال عبدالحسين الحلي في مقدّمة حقائق التأويل: ٩١ يعني بذلك الرسائل الشعرية الموجود كثير منها في ديوانه لا رسائل النثر، وقال أيضاً في هذه المقدمة: ٩١ كتاب رسائله (النثرية) ثلاثة مجلدات، ذكر في الدرجات الرفيعة بعضها، ونشرت مجلة العرفان شيئاً منها.

(٤) طبع ديوان شعره مكرّراً.

(٥) أوّل من قال ذلك الثعالبي المعاصر للرّضيّ في يتيمة الدهر ٣: ١٣١ قال: هو أشعر الطالبيين. ثمّ قال: ولو قلت إنّه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق.

(٦) نقله الخطيب في تاريخ بغداد ٢: ٢٤٦ عن ابن محفوظ، وعنه ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤: ٤١٩.

«غَرَضٌ» أي: مقصد، والأصل في معنى الغرض الهدف.

«ذَكَرتُهُ» أي: ذكرت ذاك الغرض.

«في صَدرِ الكِتابِ» ذاك.

«وَجَعَلتُهُ أمامَ الكَلامِ» في المقاصد، وغرضه الّذي ذكره ثمّه دفاعه عن رمي مخالفيه له بالواقفية، وهذا نصّه ثمة: «سألتني أن أُصنّف لك كتاباً يشتمل على خصائص أخبار الأئمّة الاثني عشر على ترتيب أيّامهم وتدريج طبقاتهم[1]... فعاقني عن إجابتك إلى ملتمسك ما لا يزال يعوق من نوائب الزمان ومعارضات الأيّام، إلى أن أنهضني إلى ذلك اتّفاق اتّفق لي فاستثار حميتي، وقوّى نيّتي واستخرج نشاطي وقدح زنادي، وذلك أنّ بعض الرؤساء ممّن غرضه القدح في صفاتي، والغمز لقناتي، والتغطية على مناقبي، والدلالة على مثلبة إن كانت لي؛ لقيني وأنا متوجّه عشيّة عرفة من سنة ثلاث وثمانين (وثلاثمائة) هجرية إلى مشهد مولانا أبي الحسن موسى بن جعفر وأبي جعفر محمّد بن عليّ بن موسى عليهما السلام للتعريف هناك، فسألني عن متوجهي، فذكرت له إلى أين قصدي، فقال لي: متى كان ذلك؟ يعني أنّ جمهور الموسويين جارون على منهاج واحد في القول بالوقف والبراءة ممّن قال بالقطع، وهو عارف بأنّ الإمامة مذهبي وعليها عقدي ومعتقدي، وإنّما أراد التبكيت لي والطعن على ديني. فأجبته في الحال بما اقتضاه كلامه واستدعاه خطابه، وعدت وقد قوي عزمي على عمل هذا الكتاب إعلاناً لمذهبي، وكشفاً عن مغيّبي، وردّاً على العدوّ الّذي يتطلّب عيبي، ويروم ذمي وقصبي...»[2].

«وَفَرَغتُ» في ذاك الكتاب.

---

(١) خصائص الأئمة: ١.

(٢) خصائص الأئمة: ٣.

«مِنَ الخَصائِصِ الَّتي تَخُصُّ أميرَ المُؤمِنينَ عَلياً عليه السلام» في فواتح الميبدي سمّاه أبوه علياً وقال:

سميّته بعليّ كي يدوم له عزّ العلوّ وخير العزّ أدومه

وفيه روى أبو حمراء عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: رأيت ليلة المعراج مكتوباً على العرش: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله أيّدته بعليّ. وقال:

اسم على العرش مكتوب كما نقلوا من يستطيع له محواً وترقينا

وقال الميبدي بالفارسيّة:

از مهر علی کسیکه یابد عرفان
نامش همه دم نقش کند بر دل و جان
این نکته طرفه بین که ارباب کمال
یا بند زبینّات نامش ایمان[1]

«وَعاقَت» أي: حبست.

«عَنْ إتمام بقيَّةِ الكِتابِ» في خصائص باقي الأئمة عليهم السلام.

«مُحاجِزات» أي: ممانعات.

«الزّمانِ» هكذا في (المصريّة)، والصواب: (الأيّام) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطّية)[2].

---

(١) الحديث مشهور رواه ابن عساكر وابن الجوزي في الواهيات، والطبراني في معجمه الكبير عنهم منتخب كنز العمال ٥: ٣٥، والحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٢٢٧، والصدوق في أماليه: ١٧٩ ح ٥ المجلس (٣٨)، والخوارزمي في المناقب: ٢٢٩، والمحب الطبري في ذخائر العقبىٰ عنه ينابيع المودة: ٢٠٧، والحسن بن سليمان في المختصر عنه البحار ٢٧: ١١ ح٢٦، ورواه أيضاً غير هؤلاء بطرق متعددة عنه وعن علي عليه السلام وأبي ذرّ وجابر بن عبدالله وابن عباس وأنس وأبي هريرة، ورواه أيضاً عن أبي الحمراء ابن قانع والطبراني وابن مردويه إلى محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله عنهم الدرّ المنثور ٤: ١٥٣.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٤، وشرح ابن ميثم ١: ٨٩

«وَمُماطَلاتٌ» أي: مدافعات.

«الأيّامِ» هكذا في (المصرية)، والصواب: (الزّمان) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[١].

«وَكُنتُ قد بَوَّبتُ ما خَرَجَ مِن ذلِكَ» في خصائص أمير المؤمنين عليه السلام.

«أبواباً، وَفَصَّلتُهُ فُصُولاً، فَجاءَ في آخِرِها» أي: آخر الفصول.

«فَصلٌ يَتَضَمَّنُ مَحاسِنَ ما نُقِلَ عَنهُ عَلَيهِ السَّلامُ مِنَ الكَلامِ القَصيرِ في الحِكَمِ» هكذا في (المصرية)، والصواب: (في المواعظ والحِكَم) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطّية[٢]).

«وَالأمثالِ وَالأدبِ» وما في ذاك الفصل هو الّذي جعله في النهج الباب الثالث منه.

«دُونَ الخُطَبِ الطويلَةِ، وَالكُتُبِ المَبسُوطَةِ» كما هو موضوع البابين الأوّلين من النهج.

«فَاستَحسَنَ جَماعَةٌ مِنَ الأصدِقاءِ» له.

«والإخوانِ» هكذا في (المصرية)، والصواب: زيادة الكلمة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطّية)[٣].

«ما اشتَمَلَ عَلَيهِ الفَصلُ المُقَدَّمُ ذِكرُهُ» المتضمّن ما نقله عنه عليه السلام من الكلام القصير في المواعظ والحكم والأمثال والأدب.

«معجبينَ بِبَدايِعِهِ وَمُتَعَجِّبينَ» الفرق بين الإعجاب والتعجّب: أنّ الإعجاب بشيء الاستحسان له، والتعجّب من شيء: استغرابه، سواء كان من حسن أو

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٤، وشرح ابن ميثم ١: ٨٩.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٥، وشرح ابن ميثم ١: ٨٩.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٥، وشرح ابن ميثم ١: ٨٩.

قبح، والاسم من الأوّل العُجْب بالضم فالسكون، ومن الثاني العَجَب بفتحتين. قال الشاعر:

وآل ما كان من عُجب إلى عَجَب[١]

أي: انقلب عجبه بشبابه بتعجّبه من شيبته.

«مِن نواصِعِهِ» أي: سواطعه. قال:

ولم يأتك الحقّ الّذي هو ناصع[٢]

«وَسَألُوني عِندَ ذلِكَ» أي: استحسانهم لذاك الفصل من كتاب الخصائص.

«أن اَبتَدئَ بِتَأليفِ كِتابٍ يَحتَوي عَلى مُختارِ كَلام» لا كلّ كلام نقل عنه عليه السلام.

«مَولانا» هكذا في (المصرية)، والكلمة زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[٣].

«أمير المُؤمِنينَ عَلَيهِ السَلام في جَميعِ فنُونِهِ وَمُتَشَعِّباتِ غُصُونِهِ» ولا يختص بشيء دون شيء.

«مِن خُطَبٍ» خطب بها الناس.

«وَكُتُبٍ» كتبها إلى أوليائه وأعدائه وعمّاله.

«وَمَواعِظَ» الوعظ: التذكير بالعواقب.

«وَآدابٍ» هكذا في (المصرية)، والصواب: (وأدب) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطّية)[٤].

«عِلماً» مفعول له لقوله قبل «وسألوني».

---

(١) أورده ابن أبي الحديد ١: ١٥ ونسبه الى أبي تمام، وصدره:

أبدت أسى اذ رأتني مخلس القصب

(٢) أورده أساس البلاغة: ٤٥٩ مادة (نصع) والشاعر: النابغة.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٥، وشرح ابن ميثم ١: ٨٩.

(٤) في شرح ابن أبي الحديد ١: ١١، لكن في شرح ابن ميثم ١: ٩٠ «آداب».

«أَنَّ ذلِكَ» أي: كتاب من كلامه عليه السلام في كلّ فنّ.

«يَتَضَمَّنُ مِن عَجائِبِ البَلاغَةِ، وَغَرائِبِ الفَصاحَةِ» والأصل في الفصاحة انطلاق اللسان خالصاً من اللكنة، كما أنّ الأصل في البلاغة بلوغ المراد في بيانه، ثمّ نقلا عند أهل البيان بما اشتهر.

«وَجَواهِرِ العَرَبِيَّةِ، وَثَواقِبِ الكَلِمِ الدِّينيَّةِ» أي: متلألآتها من قولهم: كوكب ثاقب. أي شديد التلألؤ، ويقال: درّ مثقّب، وبرقع مثقّب. وسمّى شاعر مثقّباً بقوله:

أرينَ محاسناً وكننَّ أُخرىٰ وثقّبن الوصاوص للعيون[1]

«وَالدُّنيويَّة» هكذا في (المصرية)، والصواب (والدنياويّة) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[2] وإن كان الأوّل أيضاً صحيحاً، قال الجوهري: النسبة إلى الدنيا دنياوي. ويقال دنيوي ودنيي[3].

«مالا يُوجَدُ مُجتَمِعاً في كَلامٍ، وَلا مَجمُوعَ الأطرافِ في كتابٍ» فإنّ الكلام إنّما يحسن لفظه أو معناه، فكيف إذا كان جامعاً بين الحسنين، ككلامه عليه السلام؟!

فليقل في ألفاظ كلامه عليه السلام، وفي معاني كلماته ما قيل:

ألفاظ كغمزات الألحاظ. ومعان كأنّها فكّ عان. ألفاظ كما نوّرت الأشجار. ومعان كما تنفّست الأسحار. ألفاظ قد استعارت حلاوة العتاب بين الأحباب، ومعان استلانت كتشكي العشّاق يوم الفراق. ألفاظ كالبشرىٰ مسموعة أو أزاهير الرياض مجموعة، ومعان كأنفاس الرياح تعبق بالريحان والراح. ألفاظ هي خدع الدهر، ومعان هي عُقد السّحر. ألفاظ تأنّق الخاطر في

---

(١) أورده أساس البلاغة: ٤٥ مادة (ثقب).

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ١١، لكن في شرح ابن ميثم ١: ٩٠ «الدنيويّة».

(٣) صحاح اللّغة للجوهري ٦: ٢٣٤١ مادة (دنو).

تذهيبها، ومعان عنى الفهم بتهذيبها. ألفاظ حسبتها من رقتها منسوخة في صحيفة الصّبا، ومعان ظننتها من سلاستها مكتوبة في نحر الهوى. ألفاظ أنوار، ومعان ثمار.

وكيف لا يكون كلامه عليه السلام كذلك وكلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، وكلامه من ملوك الكلام؟!

وقال أبو أحمد العسكري في (زواجره) بعد نقل وصيّته عليه السلام لابنه: لو كان من الحكمة ما يجب أن يكتب بالذهب لكانت هذه[١].

«إذ كانَ أميرُ المُؤمِنينَ عَلَيهِ السَّلام مَشرَعَ» الأصل في المشرع: شرع الماء، وبه سُمّيت الشرائع، وقالوا: الشّرائع نعم الشّرائع؛ من وردها رَوي، وإلّا دَوي.

«الفَصاحَةِ» في (أمالي الشيخ) سئل أمير المؤمنين عليه السلام: من أفصح الناس؟ قال: المجيب المسكت عند بديهة السؤال[٢].

«وَمَورِدَها» الأصل في المورد ورود الماء، كالمصدر الصدور عنه.

«وَمَنشَأ البَلاغَةِ وَمَولِدَها» في خلفاء ابن قتيبة: فرّ محفن منه عليه السلام إلى معاوية، فقال له معاوية: من أين جئت؟ قال: من عند أعيا الناس. فقال له معاوية: ويحك ما سنّ الفصاحة لقريش غير عليّ[٣].

وفي (الخصال) عن الشعبي قال: تكلّم أمير المؤمنين (عليّ) عليه السلام بتسع كلمات ارتجلهنّ ارتجالاً، فقأن عيون البلاغة، وأيتمن جواهر الحكمة، وقطعن

---

(١) رواه عن المواعظ للعسكريّ ابن طاووس في كشف المحجّة: ١٥٧.

(٢) أخرجه أبو جعفر الطوسي في أماليه ٢: ٣١٤، المجلس (٢٢).

(٣) في تاريخ الخلفاء وهو الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ١١٤ ما لفظه: «وذكروا أنّ عبدالله بن أبي محجن الثقفي قدم على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين! انّي أتيتك من عند الغبيّ الجبان البخيل ابن أبي طالب. فقال معاوية: لله أنت! أتدري ما قلت؟ أمّا قولك الغبيّ، فوالله لو أنّ ألسن الناس جمعت لساناً واحداً لكفاها لسان عليّ» ولكن ذكر لفظ الكتاب ابن أبي الحديد ١: ٨، وغيره عن محفن بن أبي محفن ومعاوية.

جميع الأنام عن اللحاق بواحدة منهنّ؛ ثلاث منها في المناجاة، وثلاث منها في الحكمة، وثلاث منها في الأدب؛ فأمّا اللاتي في المناجاة فقال: اللّهمّ كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً. أنت كما أُحب فاجعلني كما تحبّ. وأمّا اللاتي في الحكمة فقال: قيمة كلّ امرئ ما يحسنه، وما هلك امرؤ عرف قدره، والمرء مخبوء تحت لسانه. وأمّا اللاتي في الأدب فقال: امنن على من شئت تكن أميره، واحتج الى من شئت تكن أسيره، واستغن عمّن شئت تكن نظيره[١].

وقال ابن أبي الحديد عند قولهعليه السلام: «سلكوا في بطون البرزخ...»: لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس وتُلي عليهم هذا الكلام، ينبغي أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عديّ بن الرقاع:

قلم أصاب من الدواة مدادها

فلمّا قيل لهم في ذلك، قالوا: إنّا نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن[٢].

هذا، وفي (الأغاني): كان إبراهيم بن المهدي شديد الانحراف عن عليّعليه السلام فقال يوماً للمأمون: إنّي رأيت علياً في النوم، فقلت له: من أنت؟ فقال: عليّ. فمشينا حتّى جئنا قنطرة، فذهب يتقدّمني لعبورها فأمسكته، وقلت له: إنّما أنت رجل تدّعي هذا الأمر بإمرته، ونحن أحقّ به منك. فما رأيت له في الجواب بلاغة كما يوصف عنه. فقال له المأمون: وأي شيء قال لك؟ فقال: ما زادني على أن قال: سلاماً سلاماً. فقال له المأمون: قد والله أجابك أبلغ جواب. قال: وكيف؟ قال: عرّفك أنّك جاهل لا يجاوب مثلك؛ قال تعالى: ﴿... وإذا

(١) أخرجه الصدوق في الخصال: ٤٢٠ ح ١٤.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣: ٥١ شرح الخطبة (٢١٩).

خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾[١] فخجل ابراهيم، وقال للمأمون: ليتني لم أحدّثك بهذا الحديث[٢].

«وَمِنهُعليه السلام ظَهَرَ مَكنُونُها» أي: مستورها.

«وَعَنهُ أُخِذَت قَوانينُها» مرّ أن معاوية قال: ما سنّ الفصاحة لقريش غير عليّ[٣].

«وَعَلى أمثِلَتِهِ» أمثلة جمع المثال.

«حَذا» من حذوت النعل بالنعل إذا قطعتها مماثله.

«كُلُّ قائِلٍ خَطيبٍ» في (مروج المسعودي): والّذي حفظ الناس عنه [عليّ]عليه السلام من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيّف وثمانون خطبة يوردها على البديهة، وتداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً[٤].

«وَبِكَلامِهِ استَعانَ كُلُّ واعِظٍ بَليغٍ» قال ابن نباتة الواعظ المعروف وهو استاذ المصنّف: حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الانفاق إلّا سعة وكثرة؛ حفظت مائة فصل من مواعظ عليّ بن أبي طالبعليه السلام[٥].

وكذا استعان بكلامهعليه السلام كلّ كاتب مجيد؛ قال عبد الحميد الكاتب ـ كاتب مروان بن محمّد، وهو الّذي قيل فيه: إنّ الكتابة فتحت به ـ: حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع، ففاضت ثمّ فاضت[٦].

---

(١) الفرقان: ٦٣.

(٢) الأغاني ١: ١٢٦.

(٣) مرّ في شرح فقرة: «ومنشأ البلاغة» نقلاً عن ابن قتيبة.

(٤) مروج الذهب للمسعودي ٢: ٤١٩.

(٥) نقل هذا عن ابن نباتة، وعبد الحميد ابن أبي الحديد في شرحه ١: ٨ بهذا اللّفظ، ويأتي قول عبد الحميد بلفظ آخر عن الجهشياري في الوزراء: ٨٢، وأمّا قراءة الرضي على ابن نباتة فقد ذكرها السيد علي خان في الدرجات الرفيعة: ٤٥٩.

(٦) المصدر نفسه.

وفي (صناعة أبي هلال العسكري): أخذ إبراهيم بن العباس الصولي قوله: «إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه، وللمسيء من العقاب ما يقمعه ازداد المحسن في الإحسان رغبة، وانقاد المسيء للحقّ رهبة» من قول علي بن أبي طالب عليه السلام: «يجب على الوالي أن يتعهّد أموره، ويتفقّد أعوانه، حتّى لا يخفى عليه إحسان محسن، ولا إساءة مسيء»[1].

وقال الجاحظ: كان جعفر بن يحيى البرمكي من أبلغ الناس وأفصحهم للقول والكتابة، يضّم اللّفظة إلى أُختها، وسمعته يقول: ناهيك حسناً بقول عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «هل من مناص أو خلاص أو معاذ أو ملاذ أو قرار أو مجاز». وكان يتعجّب من قول عليّ عليه السلام: «أين من جدّ واجتهد، وجمع واحتشد، وبنى وشيّد، أو فرش فمهّد، أو زخرف فنجّد». قال: ألا ترى أنّ كلّ لفظة منها أُخذت بعنق قرينتها، جاذبة إيّاها إلى نفسها، دالّة عليها بذاتها[2].

وقال محمّد بن يعقوب الكليني في (كافيه) بعد ذكر خطبة له عليه السلام في باب جوامع التوحيد: هذه الخطبة هي كافية لمن طلب علم التوحيد إذا تدبّرها، وفهم ما فيها. فلو اجتمع ألسنة الجنّ والإنس - ليس فيها لسان نبيّ - على أن يبيّنوا التوحيد بمثل ما أتى عليه السلام به - بأبي وأُمّي - ما قدروا عليه، ولولا إبانته عليه السلام ما علم الناس كيف يسلكون سبل التّوحيد[3].

قلت: هو عليه السلام مصداق ما قيل:

إذا نهضت فأنت نجم ثاقب ... وإذا جلست فأنت ليث رابض
فبك التمثّل حين يُنعت فاضل ... واليك يُرجع حين يشكل غامض

---

(١) الصناعتين للعسكري: ٢١٤.

(٢) جاء ذكر جعفر بن يحيى البرمكيّ في البيان والتبيين ١: ١٢٨ بغير هذه الألفاظ.

(٣) الكافي ١: ١٣٦.

وممّن استعان بكلامه عليه السلام عبد الملك بن صالح العبّاسي -وكان من خطبائهم- في وصاياه لابنه -ونقلها الجاحظ في بيانه[١]- أخذها من وصاياه عليه السلام لابنه، وكذلك طاهر بن الحسين ذو اليمينين الّذي كتب وصيّة طويلة لابنه عبد الله بن طاهر، فأمر المأمون بحفظها وكتابتها[٢]، أخذها من الوصية الجامعة له عليه السلام، بل كان بعض الخطباء يخطب بعين خطبه عليه السلام، كخطبة يوسف بن عمر الثقفي عامل هشام بن عبد الملك على الكوفة: «اتّقوا الله عباد الله فكم من مؤمّل أملاً لا يبلغه، وجامع مالاً لا يأكله، ومانع ما سوف يتركه، ولعلّه من باطل جمعه، ومن حقّ منعه...»[٣].

وكخطبة قطري بن فجاءة أحد أُمراء الخوارج: «أمّا بعد فإنّي أُحذّركم الدنيا فإنّها حلوة خضرة، حفّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحبّبت بالعاجلة، وحليت بالآمال، وتزيّنت بالغرور. لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعتها...»[٤]. ذكر خطبتيهما الجاحظ في بيانه.

وكخطبة المأمون يوم الجمعة، ذكرها ابن قتيبة في (عيونه)[٥]، وأخذ فضيل بن عياض المعروف بالزهد كلامه عليه السلام لشريح القاضي لمّا اشترى داراً، فقاله بعينه لفيض بن إسحاق لمّا اشترى داراً، كما نقله (الحلية)[٦]، وأخذ

---

(١) نقل الجاحظ في البيان والتبيين ٢: ١٢٢، و ٣: ٤٠٨ وصاياه لابنه، لكن المقايسة ليست من الجاحظ.

(٢) نقل وصيّة طاهر الطبري في التاريخ ٧: ١٦٠، سنة (٢٠٦) ونقل أمر المأمون أيضاً الطبري في التاريخ ٧: ١٦٨، سنة (٢٠٦).

(٣) نقلها الجاحظ في البيان والتبيين ٢: ١٦٣.

(٤) نقلها الجاحظ في البيان والتبيين ٢: ١٤٤، ونفى ابن أبي الحديد في شرحه ٢: ٢٤٢ شرح الخطبة (١٠٩) كون الخطبة لقطري.

(٥) رواه ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢: ٢٥٣.

(٦) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨: ١٠١.

تفسيره عليه السلام لقوله تعالى: ﴿... إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾[١] أبو يزيد البسطامي كما نقله أيضاً[٢].

وفي (وزراء الجهشياري) قيل لعبد الحميد بن يحيى: ما الّذي مكّنك من البلاغة وخرّجك؟ فقال: حفظ كلام الأصلع. يعني أمير المؤمنين عليه السلام[٣].

وقال (ابن أبي الحديد) في شرح قوله عليه السلام: «ألا وإنّ اللّسان بضعة من الإنسان»: قد أخذ هذه الألفاظ بعينها أبو مسلم الخراساني، فخطب بها في خطبة مشهورة من خطبه[٤].

«وَمَعَ ذلِكَ فَقَدْ سَبَقَ وَقَصَّرُوا وَتَقَدَّمَ وَتَأَخَّروا» أي: في ما أخذوا من كلماته عليه السلام في كلامهم وفي ما استعانوا بجملاته عليه السلام في مقالاتهم؛ قال ابن أبي الحديد عند قوله عليه السلام: «أمّا بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنّة»: إنّ التحريض على الجهاد، والحضّ عليه قد قال فيه الناس فأكثروا، وكلّهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام؛ فمن جيّد ذلك ما قاله ابن نباتة الخطيب: أيّها الناس إلى كم تسمعون الذّكر فلا تعون ـ الى أن قال ابن أبي الحديد ـ هذه آخر خطبة ابن نباتة. فانظر اليها وإلى خطبته عليه السلام (أي المتقدّمة) بعين الانصاف تجدها بالنسبة إليها كمخنّث بالنسبة إلى فحل، أو كسيف من رصاص بالنسبة الى سيف من حديد. وانظر ما عليها من أثر التوليد، وشين التكلّف، ومجاجة كثير من الألفاظ؛ ألا ترى إلى فجاجة قوله: كأنَّ أسماعكم تمجّ ودائع الوعظ، وكأنَّ قلوبكم بها استكبار عن الحفظ ـ الى أن قال ـ إنّي أضرب لك مثلاً تتّخذه دستوراً في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وكلام الكتّاب والخطباء بعده

---

(١) البقرة: ١٥٦.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠: ٣٩.

(٣) الوزراء للجهشياري: ٨٢، والنقل بتصرّف يسير.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٣: ١٨٤، شرح الخطبة (٢٣١).

كابن نباتة والصابئ وغيرهما، انظر نسبة شعر أبي تمام، والبحتري، وأبي نواس، ومسلم إلى شعر امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشىٰ ـ الى أن قال بعد ذكر تضمين ابن نباتة جملة قوله عليه السلام: «ما غُزي قوم في عقر دارهم إلّا ذلّوا» ـ انظر كيف تصيح من بين الخطبة صياحاً، وتنادي على نفسها نداءً فصيحاً، وتُعلم سامعها أنّها ليست من المعدن الذي خرج باقي الكلام منه، ولا من الخاطر الّذي صدر ذلك السجع عنه. ولعمر الله لقد جملت الخطبة وحسنتها وزانتها، وما مثلها فيها إلّا كآية من الكتاب العزيز، يُتمثل بها في رسالة أو خطبة[1].

«وَلِأَنَّ» هكذا في (المصرية)، والصواب: (لأَنَّ) بدون العاطف كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطّية)[2].

«كَلامَهُ عليه السلام الكَلامُ الَّذي عَلَيهِ مَسْحَةٌ مِنَ العِلْمِ الإلهي» المسحة أن يبقى أثر المسح على الممسوح عليه؛ قال ذو الرّمة:

علىٰ وجه ميّة مسحة من ملاحة[3]

ولنعم ما قال الميبدي في شرح الديوان المنسوب اليه عليه السلام:

شاهد كه مهش غلام و مهراست كنيز
ناطق بكمال اوست قرآن عزيز
گرقدر كلام او رفيع است چه دور
در خانه به كدخداى ماند همه چيز

«وَفيهِ عَبَقَةٌ» من عبق به الطيب لزمه.

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٤٢ ـ ١٤٤ شرح الخطبة (٢٧).
(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٥، وشرح ابن ميثم ١: ٩٠.
(٣) لسان العرب ٢: ٥٩٦ مادة (مسح).

«مِنَ الكَلامِ النَبَوِيّ» وكيف لا يكون كذلك وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»؟![1]

في (فهرست منتجب الدّين): الشيخ القاضي جمال الدّين محمّد بن الحسين بن محمّد بن القريب قاضي قاشان فاضل فقيه، كان يكتب نهج البلاغة من حفظه، وله رسالة العبقة في شرح قول السيّد الرضيّ في خطبة النّهج: «عليه مسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبويّ»[2].

وقال ابن أبي الحديد عند الكلام في خطبة الجهاد المتقدّمة: إنّ الناس قد اتفقوا على أن القرآن في أعلى طبقات الفصاحة، وتأمّله تأملاً شافياً، وانظر إلى ما خصّ به من مزيّة الفصاحة، والبعد عن التقعّر والتعقيد، والكلام الوحشي الغريب، وانظر كلام أمير المؤمنين عليه السلام فإنّك تجده مشتقّاً من ألفاظه، ومقتضباً من معانيه ومذاهبه، ومحذوّاً به حذوه، ومسلوكاً به في منهاجه؛ فهو وإن لم يكن نظيراً ولا ندّاً يصلح أن يقال: إنّه ليس بعده كلام أفصح منه، ولا أجزل، ولا أعلىٰ، ولا أفخم، ولا أنبل، إلّا أن يكون كلام ابن

---

(١) رواه العقيلي في الضعفاء، وابن عدي في الكامل، والطبراني في معجمه الكبير، والحاكم في المستدرك عنهم الجامع الصغير ١: ١٠٨، وابن المغازلي في المناقب بثلاث طرق: ٨١ ـ ٨٣، والخوارزمي في المناقب ٤٠، والحسكاني بطرق متعددة في شواهد التنزيل ١: ٨١ ح ١١٨، وابن أخي تبوك في مسنده، منتخب السند: ٤٢٦ ح ٢، والديلمي في الفردوس، والجويني في فرائد السمطين عنهما ينابيع المودة: ٧٢ عن ابن عبّاس، ورواه ابن عدي في الكامل، والحاكم في المستدرك عنهما الجامع الصغير ١: ١٠٨، وابن المغازلي في المناقب بطريقين: ٨٠، ٨٤، والبزاز في مسنده، والطبراني في معجمه الأوسط عنهما ينابيع المودة: ٢٨٢ عن جابر بن عبدالله، وأخرجه أحمد في الفضائل عنه تذكرة الخواصّ: ٤٨، وابن المغازلي بطريقين: ٨٢، ٨٥، والحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٣٣٤ ح٤٥٩، وأبو جعفر الطوسي في أماليه ٢: ١٩٠، المجلس (٥)، والصدوق في العيون ٢: ٦٦ ح٢٩٨ عن علي عليه السلام، وفي الباب أحاديث بهذا اللفظ عن الثلاثة وأبي سعيد الخدري وحذيفة بن اليمان وكعب بن عجرة وأنس وابن مسعود والحسن عليه السلام والصادق عليه السلام والصنابجي وسلمة وغيرهم، وروي أيضاً بألفاظ أُخرىٰ لم يسعها المقام.

(٢) الفهرست لمنتجب الدين: ١٧٦.

عمّه صلى الله عليه وآله وسلم[١].

وقال أيضاً عند قوله عليه السلام: «عالم السرّ من ضمائر المضمرين ...»: لو سمع النّضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله: ما قاله عليّ بن العباس بن جريج لإسماعيل بن بلبل:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كـلّا ولكـن لعـمري مـنه شـيبان
وكـم أب قـد عـلا بـابن ذرى شـرفاً كـمـا عـلا بـرسول الله عـدنان

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان، بل كان يقرّ به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن، ويقول النضر له: لم يعف ما شيّدت من معالم التوحيد، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولداً ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب ما لم تبتدعه أنت في جاهلية النّبط، بل لو سمع هذا الكلام أرسطاليس ـ القائل بأنّه تعالى لا يعلم الجزئيات ـ[٢] لخشع قلبه، وقفّ شعره، واضطرب فكره. ألا ترى ما عليه من الرواء والمهابة، والعظمة والفخامة، والمتانة والجزالة مع ما قد أُشرب من الحلاوة والطلاوة، واللّطف والسّلاسة؟ لا أرى كلاماً يشبه هذا إلّا أن يكون كلام الخالق سبحانه؛ فإنّ هذا الكلام نبعة من تلك الشجرة، وجدول من ذاك البحر، وجذوة من تلك النار[٣].

وقال في شرح قوله عليه السلام: «ومنها في صفة الأرض» من الخطبة (٨٩): في بيان أنّه عليه السلام إمام أرباب صناعة البديع، وذلك لأن هذا الفن لايوجد منه في كلام غيره ممن تقدّمه إلا ألفاظ يسيرة غير مقصودة، ولكنها واقعة بالاتّفاق،

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٤٣ شرح الخطبة (٢٧).

(٢) قال الفارابي في كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين: ١٠٦ في تفسير قول أرسطو بهذا القول مجملاً، ونسبه إلى افلاطون وأرسطو، والظاهر اشتراك جمهور الحكماء فيه، كما نقله الغزالي في المنقذ من الضّلال: ٥١، والعلّامة الحلّي في كشف المراد: ٢٢٢، وغيرهما.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٦٧ شرح الخطبة (٨٩).

كما وقع التجنيس في القرآن العزيز اتفاقاً غير مقصود، وذلك نحو قوله: ﴿...يا أسفا على يوسف...﴾[١]، وكما وقعت المقابلة أيضاً غير مقصودة في قوله: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾[٢]؛ على أنّها ليست مقابلة في المعنى، بل من اللفظ خاصّة. ولما تأمّل العلماء شعر امرئ القيس ـ ووجدوا فيه من الاستعارة بيتاً أو بيتين، نحو قوله يصف الليل:

فقلت له لمّا تمطّى بصلبه وأردف اعجازاً وناء بكلكل

وقوله:

وإن يك قد ساءتك منّي خليقة فسلّي ثيابي من ثيابك تنسل[٣]

ولم ينشدوا مثل ذلك في أشعار الجاهلية ـ حكموا له بأنّه إمام الشعراء ورئيسهم.

وهذا الفصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام قد اشتمل من الاستعارة العجيبة وغيرها من أبواب البديع على ما لو كان موجوداً في ديوان شاعر مكثر، أو مترسّل مكثر، لكان مستحقّ التقديم بذلك؛ ألا تراه كيف وصف الأمواج بأنّها مستفحلة، وأنها ترغو رغاء فحول الإبل. ثم جعل الماء جماحاً ثُمَّ وصفه بالخضوع، وجعل للأرض كلكلاً، وجعلها واطئة للماء به، ووصف الماء بالذلّ والاستخذاء، لمّا جعل الأرض متمعّكة عليه كما يتمعّك الحمار أو الفرس، وجعل لها كواهل، وجعل للذلّ حكمة، وجعل الماء في حكمة الذلّ منقاداً أسيراً، وساجياً مقهوراً، وجعل الماء قد كان ذا نخوة وبأو واعتلاء، فردّته الأرض خاضعاً مسكيناً، وطأطأت من شموخ أنفه، وسموّ غلوائه،

---

(١) يوسف: ٨٤.

(٢) الرحمن: ٧.

(٣) أورده كذلك في المعلّقات السبع: ٢٠، لكن في الديوان: ١٨، ولسان العرب ١١: ٥٩٧ مادّة (كلل) بدل (صلبه): (جوزه).

وجعلها كاعمة له، وجعل الماء ذا كظّة بامتلائه، كما تعتري الكظّة المستكثر من الأكل، ثم جعله هامداً بعد أن كانت له نزقات، ولابداً بعد أن كانت له وثبات، ثم جعل للأرض أكتافاً وعرانين، وأنوفاً وخياشيم، ثم نفى النوم عن وميض البرق، وجعل الجنوب مارية درر السحاب، ثم جعل للسّحاب صدراً وبواناً، ثم جعل الأرض مبتهجة مسرورة مزدهاة، وجعل لها ريطاً من لباس الزهور، وسموطاً تحلّى بها. فيا لله وللعجب من قوم زعموا أن الكلام إنما يفضل بعضه بعضاً لاشتماله على أمثال هذه الصنعة، فإذا وجدوا في مائة ورقة كلمتين أو ثلاثاً منها، أقاموا القيامة، ونفخوا في الصّور وملؤوا الصحف بالاستحسان لذلك والاستطراف، ثم يمرّون على هذا الكلام المشحون كله بهذه الصنعة على ألطف وجه، وأرصع وجه، وأرشق عبارة، وأدقّ معنى، وأحسن مقصد، ثم يحملهم الهوى والعصبية على السكوت عن تفضيله إذا أجملوا وأحسنوا، ولم يتعصبوا لتفضيل غيره عليه. على أنه لا عجب، فإنه كلام عليّ عليه السلام، وحظّ الكلام حظّ المتكلّم؛ وأشبه امرأ بعض بزّه![1].

قلت: ما قاله ابن أبي الحديد ليس يحسن على إطلاقه، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو ﴿النبأ العظيم الّذي هم فيه مختلفون﴾[2]، فإذا كان أعداؤه كذلك فإنّ أولياءه يعترفون بالعجز عن وصف محاسنه، وأنّ كلامه تالي القرآن الّذي قال جل وعلا فيه: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[3]. ولا يحطّ

---

(١) أورده الزمخشري في المستقصى ١: ١٨٧ ثم قال يضرب في مماثلة الشيء صاحبه.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥٩ شرح الخطبة (٨٩) وقد جاء في الأخبار أنّ عليّاً عليه السلام هو النبأ العظيم، أخرجه عليّ بن إبراهيم في تفسيره ٢: ٤٠١، والفرات الكوفي في تفسيره: ٢٠٢ والحسكاني في شواهد التنزيل ٢: ٣١٧، ٣١٨ بطرق متعددة: وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿...عن النبأ العظيم * الذي هم فيه مختلفون﴾ النبأ: ٢ ـ ٣.

(٣) الاسراء: ٨٨.

علوّه عمل أعدائه؛ ولنعم ما قيل بالفارسية:

شب پره گر وصل آفتاب نخواهد   رونق بازار آفتاب نكاهد(١)

وقال سبط ابن الجوزي في (تذكرته): كان عليّ عليه السلام ينطق بكلام قد حف بالعصمة ويتكلّم بميزان الحكمة. كلام ألقى الله عليه المهابة، فكلّ من طرق سمعه راعه فهابه، وقد جمع الله له بين الحلاوة والملاحة، والطلاوة والفصاحة. لم يسقط منه كلمة، ولا بارت له حجّة. أعجز الناطقين، وحاز قصب السبق في السابقين. ألفاظ يشرق عليها نور النبوّة، ويحير الافهام والألباب(٢).

قلت: ولا غرو أن يكون على كلامه عليه السلام مسحة من العلم الإلهي، وكان كراراً يقول: «أنا أعلم بطرق السماء منّي بطرق الأرض»(٣).

وكان عليه السلام يقول: «لو ثُنيت لي الوسادة لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم، وأهل الإنجيل بإنجيلهم، وأهل الفرقان بفرقانهم، حتّى ينطق كلّ منها ويقول: إنّ عليّاً قضى فيّ بما أنزل الله تعالى فيّ»(٤).

وكيف لا يكون في كلامه عبقة من الكلام النبوي، وقد جعلهما الله تعالى في آية المباهلة نفساً واحدة(٥)؟! وكان عليه السلام يقول: «أنا من النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) أورده دهخدا في أمثال وحكم ٢: ١٠١٣ والشاعر: سعدي، وترجمة البيت: «ان كان الخفاش لا يريد وصال الشمس فليس ذلك بقادح في منزلتها».

(٢) تذكرة الخواصّ: ١١٩.

(٣) رواه الإربلي في كشف الغمة ١: ١٣٠، والآمدي في غرر الحكم، الفصل (٣٩) ح٨٥، وشاذان في الفضائل: ٩٨.

(٤) أخرجه الصفار في بصائر الدرجات: ١٥٣ ح ٤، والثعلبي في تفسيره عنه تذكرة الخواص: ١٦، والفرات الكوفي في تفسيره: ٦٩، والحسكاني بروايتين في شواهد التنزيل ١: ٢٨٠، ٢٨١ ح ٣٨٤، ٣٨٥، والجويني في فرائد السمطين عنه ينابيع المودة: ٧٤ عن زاذان عن علي عليه السلام، وروي بطرق عديدة حاضرة عندي عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام وزاذان وأبي البحتري والأصبغ بن نباتة وسلمة بن كهيل وعمرو بن أبي المقدام وسليم بن قيس وغيرهم.

(٥) إشارة الى قوله تعالى: ﴿فمن حاجّك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم

كالصّنو من الصّنو، والذّراع من العضد»(١). وكان كلامه عليه السلام أولى من كلام قيل فيه: وكلام لا تمجّه الآذان، ولا تبليه الأزمان. كلام قريب شاسع، ومطمع مانع، كالشمس تقرب ضياء، وتبعد علاء، أو كالماء يرخص موجوداً، ويغلو مفقوداً. كلام سهل متسلسل كالمدام بماء غلام، يقرب أذنه على الأفهام. كلام كَبرد الشراب على الأكباد الأحرار، وبُرد الشباب في خلع العذار. كلام كثير العيون، سلس المتون، رقيق الحواشي، سهل النواحي. كلام هو السّحر الحلال، والماء الزّلال، والبرود والحبر، والأمثال والعبر، والنعيم الحاضر، والشباب الناضر. نظرت منه الى صورة الظرف بحتاً، وصورة البلاغة سبكاً ونحتاً. كلام يسرّ المحزون، ويسهّل الحزون، ويعطّل الدرّ المخزون. كلام بعيد من الكِلْف، نقي من الكَلف، كما ينفس السحر عن نسيمه، ويبسم الدرّ عن نظيمه. كلام كالبشرى بالولد الكريم، قرع به سمع الشيخ العقيم، كلام أنسى حلاوة الأولاد بحلاوته، وطلاوة الربيع بطلاوته. كلام قرب حتى أطمع، وبعد حتى امتنع؛ قرب حتّى صار قاب قوسين أو أدنى، ثم علا حتّى صار بالمنزل الأعلى، رقيق المزاج، حلو السماع، نقي السبك، مقبول اللفظ. قرأت لفظاً جلياً، حوى معنى خفياً، وكلاماً قريباً، رمى غرضاً بعيداً. كلام أُنس المقيم الحاضر، وزاد الراحل المسافر. كلام يصغي إليه المقبور وينتفض له العصفور. كلام يقضي حقّ البيان، ويملك رق الحسن والاحسان. كلام منه يجتنى الدرّ، وبه يعقد السحر، وعنده يغيب الدهر، وله ينشرح الصدر. كلام كما هبّ نسيم السحر على صفحات الزهر.

«فَأَجَبتُهُم إلَى الابتِداء بِذلكَ عالِماً بِما فيهِ مِن عَظيمِ النَّفعِ» ينتفع به جميع

وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾. آل عمران: ٦١.

(١) أخرجه الشريف الرضي في نهج البلاغة ٣: ٧٣ ضمن الكتاب (٤٥).

البشر الموحّد منهم ممّا فيه من ذكر الثواب والعقاب، والملحد منهم ممّا فيه من الحكم والآداب، ومع ذلك فهو معجزة للإسلام ككتاب الله تعالى وشاهد للنبوّة والإمامة.

«وَمَنشُورِ الذِكرِ» إنّ الرضي انقرض نسله كأخيه المرتضى، إلّا أنّه انتشر ذكره في العالم بجمعه هذا الكتاب؛ فكثير من الكتب لم يشتهر أمرها أصلاً، وبعضها إنّما اشتهر في عصر أو قطر، وأمّا هذا الكتاب فاشتهر اشتهار الشمس في رابعة النهار.

وينبغي لمن فتح هذا الكتاب أن يخاطب الرضيّ بخطاب أبي تمام الشّاعر للحسن بن وهب الكاتب لمّا قرأ كتاباً له:

لقد جلّى كتابك كلّ بثّ ... جوٍ وأصاب شاكلة الرميّ
فضضت ختامه فتبلجت لي ... غرائبه عن الخبر الجليّ
وكان أغضّ في عيني وأندى ... على كبدي من الزهر الحليّ
وأحسن موقعاً عندي ومنّي ... من البشرى أتت بعد النعيّ
وضمّن صدره ما لم تضمّن ... صدور الغانيات من الحليّ
فكائن فيه من معنى بديع ... وكائن فيه من لفظ بهيّ

وقال بعضهم في الرضيّ وفي كتابه:

إنّ الرضيّ الموسويَّ ... لمّائه هو مائح
لاقت به وبجمعه ... عدد القطاط مدائح(١)

«وَمَذخُورِ الأجرِ» فمن هدى شخصاً يكون خيراً له ممّا طلعت عليه الشمس، وقد هدى الرضيّ بتأليفه نهجه هذا من لا يحصيهم إلّا الله تعالى.

«وَاعتَمَدتُ بِهِ» أي: قصدت بجمع هذا الكتاب.

---

(١) نقله ضمن أبيات الخوئي في شرحه ١: ٨٠ عن السيّد عزّالدين بن ضياء الدين.

«أن أُبيّنَ» من الإبانة.

«مِن عظيم» هكذا في (المصرية)، والصواب: (عن عظيم) كما في (ابن ميثم، والخطيّة)[١] ولأنّ الإبانة إنّما تتعدّى بـ(عن).

«قَدرِ أميرِ المُؤمنينَ عليه السَّلام في هذِهِ الفَضيلَةِ» أي: فضيلة النطق؛ قال تعالى: ﴿... فلمّا كلّمه قال إنّك اليوم لدينا مكين أمين﴾[٢].

وقال عليه السلام: «تكلّموا تُعرَفوا، فإنّ المرء مخبوء تحت لسانه»[٣].

«مُضافَةً» هذه الفضيلة.

«إلى المَحاسِنِ الدَّثِرَة» أي: الكثيرة العالية؛ قال ابن مقبل:

أصاخت له فدر اليمامة بعدما ... تدثّرها من وبله ما تدثّرا[٤]

«وَالفَضائِلِ الجَمَّةِ» أي: المجتمعة؛ قال الشاعر:

إن تغفر اللّهمّ تغفر جمّا ... وأيّ عبد لك لا ألمّا[٥]

وقد وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم محاسن أمير المؤمنين عليه السلام وفضائله، فقال: «لو أنّ البحار كانت مداداً، والأشجار أقلاماً، والجنّ والإنس كتّاباً، لما أحصوا فضائل عليّ بن أبي طالب»[٦].

وروى العكبري كما في (مناقب الكنجي الشافعي) مسنداً عن ابن عباس قال: بينما النبي صلى الله عليه وآله وسلم جالس في جماعة من أصحابه، إذ أقبل عليّ عليه السلام، فلمّا

---

(١) كذا في شرح ابن ميثم ١: ٩٠، ولكن في شرح ابن أبي الحديد ١: ١٥ «من عظيم» أيضاً.

(٢) يوسف: ٥٤.

(٣) نهج البلاغة ٤: ٩٣ الحكمة (٣٩٢).

(٤) لسان العرب ٤: ٢٧٧ مادة (دثر).

(٥) أورده لسان العرب ١٢: ١٠٤ مادة (جمم)، والشاعر: أبو خراش الهذليّ.

(٦) رواه الديلمي في الفردوس عنه البحار ٤٠: ٧٥ ح ١١٢، والمطرزي عنه البحار ٤٠: ٧٤ ح ١١٠، وسبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: ١٣، والكراجكي في كنز الفوائد: ١٢٨، وفي التفضيل: ٤٠، والديلمي في إرشاد القلوب: ٢٠٩.

بصر به النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «من أراد منكم أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوح في حكمه، وإلى إبراهيم في حلمه، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[(١)]. قال الكنجي: وتشبيهه بآدم في علمه لقوله تعالى في آدم: ﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها...﴾[(٢)]، وبنوح في حكمه لشدّته على الكفّار لقوله: ﴿... ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾[(٣)]، وبإبراهيم في حلمه لقوله تعالى: ﴿... إنَّ إبراهيم لأوّاه حليم﴾[(٤)]،[(٥)] ولقد أجاد شباب التستري حيث قال فيه عليه السلام بالفارسيّة:

كتاب فضل ترا آب بحر كافى نيست
كه تر كنند سر انگشت و صفحه بشمارند[(٦)]

وهو عليه السلام أولى ممّن قيل فيه:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد[(٧)]

---

(١) رواه الكنجي في كفاية الطالب: ٤٦، وأيضاً الحسكاني في شواهد التنزيل ١: ١٠٦ ح ١٤٧، والمحب الطبري في ذخائر العقبى عنه ينابيع المودة: ٢١٤ عن ابن عباس، ورواه الديلمي في الفردوس عنه البحار ٤٠: ٧٨، والحسكاني في شواهد التنزيل بطريقين ١: ٧٩، ٨٠ ح١١٦، ١١٧، والخوارزمي بطريقين: ٤٠، ٢١٩، والمحبّ الطبريّ في ذخائر العقبى عنه ينابيع المودّة: ٢١٤ عن أبي الحمراء، وأخرجه ابن المغازلي في المناقب: ٢١٢، والكراجكي في التفضيل: ٣١ عن أنس، ورواه الكراجكي في التفصيل: ٣١ عن أبي سعيد الخدري، ونقله ابن أبي الحديد في شرحه ٢: ٤٢٩ ح ٤ عن أحمد في مسنده والبيهقي في السنن، وروى معناه الخوارزمي: ٤٥ عن الحارث الأعور عن جمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، وبين الألفاظ اختلاف.

(٢) البقرة: ٣١.

(٣) نوح: ٢٦.

(٤) التوبة: ١١٤.

(٥) كفاية الطالب: ٤٦ والنقل بتصرّف يسير.

(٦) أورده دهخدا في أمثال وحكم ٣: ١١٩١ ونسبه الى الأسدي، وذيله فيه «كه تر كنى سر انگشت و صفحه بشمارى» وترجمة البيت: «لا يكفي كتاب فضلك ماء البحر أن ترطّب بنانك وتعدّ صفحاته».

(٧) أورده ابن أبي الحديد في شرحه ٢: ٢٣١، وغيره.

ما قاله الشارح المعتزلي في فضائله عليه السلام :

قال ابن أبي الحديد في أوّل كتابه: فأمّا فضائله عليه السلام فإنّها قد بلغت من العظم والجلال والانتشار والاشتهار مبلغاً يسمج معه التعرّض لذكرها والتصدّي لتفصيلها، فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل والمعتمد: رأيتني في ما أتعاطى من وصف فضلك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر والقمر الزاهر الّذي لا يخفى على الناظر، فأيقنت أنّي حيث انتهى بي القول منسوب إلى العجز، مقصّر عن الغاية.فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك.

وما أقول في رجل أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل ولم يمكنهم جحد مناقبه ولا كتمان فضائله، فقد علمت أنّه استولى بنو أُميّة على سلطان الاسلام في شرق الأرض وغربها، واجتهدوا بكلّ حيلة في إطفاء نوره والتحريف عليه، ووضع المعائب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعّدوا مادحيه، بل حبسوهم وقتلوهم، ومنعوا من رواية حديث يتضمّن له فضيلة أو يرفع له ذكراً، حتّى حظروا أن يُسمّى أحد باسمه، فما زاده ذلك إلّا رفعةً وسموّاً، وكان كالمسك، كلّما سُتر انتشر عرفه، وكلّما كُتم تضوّع نشره، وكالشمس لا تستر بالراح، وكضوء النّهار إن حجبت عنه عين واحدة أدركته عيون كثيرة.

وما أقول في رجل تُعزى إليه كلّ فضيلة، وتنتهي إليه كلّ فرقة، وتتجاذبه كلّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عذرها وسابق مضمارها ومجلّي حلبتها، كلّ من بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى.

وقد عرفت أنّ أشرف العلوم هو العلم الإلهي، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف الموجودات، فكان هو أشرف العلوم، ومن كلامه عليه السلام اقتبس، وعنه نُقل، وإليه انتهى، ومنه ابتدئ.

فإنّ المعتزلة ـ الذين هم أهل التوحيد والعدل وأرباب النظر، ومنهم تعلّم الناس هذا الفن ـ تلامذته وأصحابه، لأنّ كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمّد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذه عليه السلام.

وأمّا الأشعرية فإنّهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن بشر الأشعري وهو تلميذ أبي علي الجبائي، وأبو علي أحد مشائخ المعتزلة، فالأشعرية ينتهون بأخَرة إلى أستاذ المعتزلة ومعلّمهم، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام.

وأمّا الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر.

ومن العلوم: علم الفقه، وهو عليه السلام أصله وأساسه، وكلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه. أمّا أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف، ومحمّد، وغيرهما فأخذوا عن أبي حنيفة، وأمّا الشافعي فقرأ على محمّد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة، وأمّا أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة، وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمّد عليه السلام وقرأ جعفر على أبيه، وينتهي الأمر إلى علي عليه السلام، وأمّا مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرّأي، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبدالله بن عباس، وقرأ عبدالله بن عباس على عليّ، وإن شئت رددت إليه فقه الشافعي بقراءته على مالك كان لك ذلك، فهؤلاء الفقهاء الأربعة، وأمّا فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر.

وأيضاً فإنّ فقهاء الصحابة كانوا عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس، وكلاهما أخذا عن عليّ عليه السلام، أمّا ابن عباس فظاهر، وأمّا عمر فقد عرف كلّ

أحد رجوعه إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة، وقوله غير مرّة: «لولا عليّ لهلك عمر»[١]، وقوله: «لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن»[٢]، وقوله: «لا يفتينّ أحد في المسجد وعليّ حاضر»[٣]. فقد عرف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقه إليه. وقد روت العامّة والخاصّة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أقضاكم عليّ»[٤] والقضاء هو الفقه، فهو إذن أفقههم، وروى الكلّ أيضاً أنّه صلى الله عليه وآله قال له وقد بعثه الى اليمن قاضياً: «اللّهم اهد قلبه، وثبّت لسانه». قال: فما شككت بعدها في قضاء بين اثنين[٥]. وهو عليه السلام الّذي أفتى في المرأة التي وضعت لستّة أشهر[٦]، وهو الّذي أفتى في الحامل

---

(١) رواه ابن عيّاش والسمعاني عنهما مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٣١، والخوارزمي في المناقب: ٣٩، والمحب الطبري في ذخائر العقبىٰ عنه ينابيع المودة: ٢١١، وصاحب مسند زيد بن علي فيه: ٣٣٥، والفضل بن شاذان في الايضاح: ٩٨، ٩٩، ١٠١ وجمع آخر.

(٢) رواه البلاذري في أنساب الأشراف، وابن بطة في الابانة، والزمخشري في الفائق عنهم مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٣١، وابن سعد في الطبقات، والمحب الطبري في ذخائر العقبى عنهما ينابيع المودة: ٢١١، ٢٨٦، وابن عبد البر في الاستيعاب ٣: ٣٩، والخوارزمي في المناقب: ٥١، وابن الأثير في أُسد الغابة ٤: ٢٢، والمفيد في الارشاد: ١٠٩، ونقله ابن البطريق في العمدة ٢: ١٣٤ عن مسند أحمد.

(٣) نقله مقاتل بن عطية في المؤتمر: ٤٧.

(٤) رواه الخوارزمي بطريقين في المناقب: ٣٩، ٤١ عن أبي سعيد الخدري، والصدوق في أماليه: ٤٤٠ ح ٢٠ المجلس (٨١) عن سلمان، والمفيد في الارشاد: ٢٢ عن ابن عباس، والمحب الطبري في ذخائر العقبىٰ عنه ينابيع المودة: ٢١١ عن أنس، وابن بطة في الإبانة عنه مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٣٣ عن أبي امامة، وأبو يعلى في مسنده عنه المطالب العالية ٤: ٨٥ ح ٤٠٣١ عن ابن عمر، وابن شهر آشوب مجرّداً في المناقب ٢: ٣٣ عن الصادق عليه السلام، والقاضي الصعدي في درر الأحاديث: ١٤٥ عن الهادي الى الحق، كلّهم عن النبيّ صلى الله عليه وآله، وروي بلا رفع عن علي عليه السلام وابن عباس وابن مسعود وعمر.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ٣: ٣٠١ ح ٣٥٨٢، وابن ماجة في سننه ٢: ٧٧٤ ح ٢٣١٠، وصاحب مسند زيد بن علي فيه: ٢٩٤، وأحمد في مسنده ١: ٨٣، ١١١، ١٣٦، والمفيد في الإرشاد: ١٠٥، وجمع آخر.

(٦) القصّة: أنّ عمر أُتي بامرأة وضعت لستة أشهر فأمر برجمها، فاستدلّ عليّ عليه السلام بآيتين على أنّ أقل الحمل ستّة أشهر فخلّى سبيلها. أخرجها جمع، منهم: البيهقي، وابن أبي حاتم عنهما الدّر المنثور ١: ٢٨٨، والفضل بن شاذان

الزانية[١]، وهو الّذي قال في المنبريّة: «صار ثُمْنُها تسعاً»[٢] وهذه المسألة لو فكر الفرضيّ فيها فكراً طويلاً لاستحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب، فما ظنّك بمن قاله بديهة واقتضبه ارتجالاً.

ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أُخذ ومنه فرّع، وإذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحّة ذلك، لأنّ أكثره عنه وعن عبدالله بن عبّاس، وقد علم الناس حال ابن عبّاس في ملازمته وانقطاعه إليه، وأنّه تلميذه وخرّيجه، وقيل له: أين علمك من علم ابن عمّك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط[٣].

ومن العلوم علم النحو والعربية، وقد علم الناس كافّة أنّه هو الّذي ابتدعه وأنشأه، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه وأُصوله من جملتها: الكلام كلّه ثلاثة أشياء: اسم وفعل وحرف. ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى

في الايضاح: ٩٨، والمفيد في الإرشاد: ١١٠، وروي نحو هذه القصة بين علي عليه السلام وعثمان، أخرجه عدّة منهم: مالك في الموطّأ: ٦٨٦، والثعلبي في تفسيره، عنه عين العبرة: ٣٢، وروي نحوها بين ابن عباس وعمر، وبين ابن عباس وعثمان؛ قال ابن عبد البر في الاستيعاب ٣: ٣٩: «وعن عليّ أخذها ابن عباس، والله أعلم».

(١) في ذلك قصّتان: الأولى: أُتي عمر بحاملة زانية فأمر برجمها، فأثبت له علي عليه السلام أن تمهل حتى تضع. أخرجها صاحب مسند زيد بن عليّ فيه: ٣٢٥، والفضل بن شاذان في الايضاح: ٩٩، والمفيد في الإرشاد: ١٠٩، والمرتضى في الذريعة ٢: ٧٦٥، وجمع آخر. والقصة الثانية: أنّ خادمة لآل الرّسول زنت وهي حبلى، فحكم بذلك عليّ عليه السلام وأمضى حكمه النبي صلى الله عليه وآله. أخرجه أبو يعلى في مسنده عنه مجمع الزوائد ٦: ٢٥٢، وابن أبي شيبة في مسنده عنه المطالب العالية ٢: ١١٥ ح١٨٠٧، وقد جاء في الباب أحكام عن النبي صلى الله عليه وآله قولاً وفعلاً.

(٢) رواه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: ١٢٠، وابن شهر آشوب في المناقب ٢: ٤٤، والاربلي في كشف الغمّة ١: ١٢٢، وابن أبي الحديد في زوائد نهج البلاغة: ٥٤٤ ح٢٥١.

(٣) رواه المفيد في أماليه: ٢٣٦ ح٦ المجلس (٢٧)، وأبو علي الطوسي في أماليه ١: ١١، والنّقاش في تفسيره عنه مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٣٠، والجويني في فرائد السمطين عنه ينابيع المودة: ٧٠، والإربلي في كشف الغمة ٢: ٥ بفرق يسير، وقد أسقط الشارح منها قول ابن أبي الحديد: «ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوّف...».

معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب الى الرّفع والنصب والجرّ والجزم[١]، وهذا يكاد يلحق بالمعجزات، لأنّ القوّة البشرية لا تفي بهذا الحصر ولا تنهض بهذا الاستنباط، وإن رجعت إلى الخصائص الخلقيّة والفضائل النفسانية والدينية وجدته ابن جلاها وطلاع ثناياها.

وأما الشّجاعة فإنّه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله ومحا اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة تضرب بها الأمثال الى يوم القيامة، وهو الشجاع الّذي ما فرّ قطّ ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحداً إلّا قتله، ولا ضرب ضربة قطّ فاحتاجت الأولى إلى الثانية؛ وفي الحديث كانت ضرباته وتراً[٢].

ولمّا دعا معاوية الى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما قال له عمرو: لقد أنصفك. فقال معاوية: ما غششتني مذ نصحتني إلّا اليوم، أتأمرني بمبارزة أبي الحسن، وأنت تعلم أنّه الشجاع المطرق، أراك طمعت في إمارة الشام بعدي[٣].

وكانت العرب تفتخر بوقوفها في الحرب في مقابلته؛ فأمّا قتلاه فافتخار رهطهم بأنّه عليه السلام قتلهم أظهر وأكثر؛ قالت أُخت عمرو بن عبد ود ترثيه:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... بكيته أبداً ما دمت في الأبد
لكنّ قاتله من لا نظير له ... وكان يدعى أبوه بيضة البلد[٤]

---

(١) رواه المرتضى في الفصول المختارة ١: ٥٩، وابن شهر آشوب في المناقب ٢: ٤٧ والحديث كثير الاشتهار.

(٢) رواه بروايات متعددة ابن شهر آشوب في المناقب ٢: ٨٣.

(٣) نقل القصة الطبري في التاريخ ٤: ٢٩، سنة (٣٧)، والمسعودي في مروج الذهب ٢: ٣٨٦، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١: ١٠٦.

(٤) هذه الرواية مشهورة لكن بين ألفاظها اختلاف؛ نقلها المفيد في الإرشاد: ٥٧، والمرتضى في الفصول: ٢٣٧، وابن شهر

وانتبه معاوية يوماً فرأى عبدالله بن الزبير جالساً تحت رجليه على سريره، فقعد، فقال له عبدالله يداعبه: يا أمير المؤمنين لو شئت أن أفتك بك لفعلت. فقال: لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر. قال: وما الّذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت في الصفّ إزاء علي بن أبي طالب؟ قال له معاوية: لا جرم أنّه قتلك وأباك بيسرى يديه، وبقيت اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها.

وجملة الأمر أن كلّ شجاع في الدّنيا إليه ينتهي وباسمه ينادي في مشارق الأرض ومغاربها.

وأما القوّة والأيد فبه يضرب المثل فيهما؛ قال ابن قتيبة في معارفه: ما صارع أحداً قطّ إلّا صرعه[1]، وهو الّذي قلع باب خيبر واجتمع عليه عصبة من الناس ليقلبوه فلم يقلبوه، وهو الّذي اقتلع هبل من أعلى الكعبة وكان عظيماً كبيراً جدّاً، فألقاه إلى الأرض، وهو الّذي اقتلع الصخرة العظيمة في أيّام خلافته بيده بعد عجز الجيش كلّه عنها، فأنبط الماء من تحتها.

وأمّا السّخاء والجود فحاله فيه ظاهرة؛ كان يصوم ويطوى ويؤثر بزاده، وفيه أُنزل: ﴿ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً* إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾[2].

وروى المفسّرون أنّه لم يكن يملك إلّا أربعة دراهم؛ فتصدّق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سرّاً، وبدرهم علانية، فأُنزل فيه: ﴿الّذين ينفقون

آشوب في المناقب ١: ١٩٩، والإربلي في كشف الغمة ١: ٦٨، وغيرهم.

(١) المعارف لابن قتيبة: ٢١٠.

(٢) روى هذا الشأن الواحدي في أسباب النزول: ٢٩٦، والخوارزمي في المناقب: ١٩٢، وابن الأثير بروايتين في أُسد الغابة ٥: ٥٣٠، والحسكاني بطرق في شواهد التنزيل ٢: ٢٩٩ ـ ٣١٠، وابن مردويه عنه الدّر المنثور ٦: ٢٩٩ عن ابن عباس، وروي بطرق عن عليعليه السلام نفسه وعن أهل بيتهعليهم السلام. والآيتان (٨، ٩) من سورة الانسان.

أموالهم بالليل والنّهار سرّاً وعلانية...﴾[١].

وروي عنه أنّه كان يسقي بيده نخل قوم من يهود المدينة حتّىٰ مجلت يده، ويتصدّق بالأجرة، ويشدّ علىٰ بطنه حجراً[٢].

وقال الشعبي -وقد ذكر عليه السلام -: كان أسخى الناس، كان على الخُلق الّذي يحبّه الله: السخاء والجود، ما قال: (لا) لسائل قط[٣].

وقال عدوّه ومبغضه الذي يجتهد في وصمه وعيبه معاوية لمحفن الضبيّ -لمّا قال له: جئتك من عند أبخل الناس -: ويحك! كيف تقول: إنّه أبخل الناس، وهو الّذي لو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفد تبره قبل تبنه؟![٤] وهو الّذي كان يكنس بيوت الأموال ويصلّي فيها[٥]، وهو الذي قال: «يا صفراء ويا بيضاء غرّيّ غيري»[٦]، وهو الّذي لم يخلّف ميراثاً، وكانت الدّنيا كلّها بيده، إلّا ما كان من الشام.

وأمّا الحلم والصّفح، فكان أحلم الناس عن مذنب وأصفحهم عن

(١) روى هذا الأمر الواحدي في أسباب النزول: ٥٨، والخوارزمي في المناقب: ١٩٨، وابن المغازلي في المناقب: ٢٨٠ ح ٣٢٥، وابن الأثير بثلاث طرق في أُسد الغابة ٤: ٢٥، وعبد الرزاق في الجامع، وعبد بن حميد في مسنده، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفسيره، والطبراني وابن عساكر في التاريخ عنهم الدرّ المنثور ١: ٣٦٣ عن ابن عباس، وروي بطرق أُخرى أيضاً عن ابن عباس وغيره. والآية (٢٧٤) من سورة البقرة.

(٢) حديث استقاء علي عليه السلام لليهودي بالتمر جاء بألفاظ مختلفة، أقربها ما أخرجه ابن ماجة في السنن ٢: ٨١٨ ح ٢٤٤٦، وما روى الإربلي في كشف الغمّة ١: ١٧٥.

(٣) رواه ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١: ١١٤ بفرق يسير.

(٤) رواه ابن عبد البر في الاستيعاب ٣: ٤٩، وغيره، في باب زهده عليه السلام.

(٥) رواه المحب الطبري في ذخائر العقبى، عنه ينابيع المودة: ٢١٧، وابن شهر آشوب في المناقب ٢: ٩٥، والإربلي في كشف الغمّة ١: ١٦٥، وغيرهم، في باب زهده عليه السلام.

(٦) رواه الكليني في الكافي ٨: ١٢٩ ح ١٠٠، والمسعودي في مروج الذهب ٢: ٤١٤، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، والشريف الرضي في خصائص الأئمة: ٥٤ وأنّه عليه السلام ما ورث بيضاء ولا صفراء إلّا سبعمائة درهم فضلت من عطاياه. ورواه الطبري في التاريخ ٤: ١٢١، سنة (٤٠)، وابن عبد البر في الاستيعاب ٣: ٤٨ متردّداً بين سبعمائة وثمانمائة.

مسيء، وقد ظهرت صحّة ما قلناه يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم - وكان أعدى الناس له وأشدّهم بغضاً - فصفح عنه، وكان عبد الله بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد، وخطب يوم البصرة فقال: قد أتاكم الوغب اللئيم علي بن أبي طالب[1]. وكان عليّ عليه السلام يقول: ما زال الزبير رجلاً منّا أهل البيت حتّى شبّ عبدالله[2]، فظفر به يوم الجمل فأخذه أسيراً، فصفح عنه، وقال: «اذهب فلا أرينّك» لم يزده على ذلك. وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكّة - وكان له عدوّاً - فأعرض عنه ولم يقل له شيئاً.

وقد علمتم ما كان من عائشة في أمره، فلمّا ظفر بها أكرمها، وبعث معها الى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس، عمّمهنّ بالعمائم وقلّدهن السيوف، فلمّا كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأفّفت وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الّذين وكلهم بي. فلّما وصلت المدينة ألقت النساء عمائمهنّ، وقلن لها: إنّما نحن نسوة.

وحاربه أهل البصرة وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيف وسبّوه ولعنوه، فلمّا ظفر بهم رفع السيف عنهم، ونادى مناديه في أقطار العسكر: ألا لا يتبع مولّ، ولا يجهز على جريح، ولا يقتل مستأسر، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن تحيّز إلى عسكر الإمام فهو آمن. ولم يأخذ أثقالهم، ولا سبى ذراريّهم، ولا غنم شيئاً من أموالهم، ولو شاء أن يفعل كلّ ذلك لفعل، ولكنّه أبى إلّا الصفح والعفو، وتبع سنّة النبي صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة، فإنّه عفا والأحقاد لم

(١) نقل خطبة ابن الزبير المفيد في الجمل: ١٧٤، لكن هذا اللفظ لا يوجد فيه، بل يوجد معناه.

(٢) هذا مما تفرّد به ابن أبي الحديد في شرحه ٤: ٤٨٠ شرح الحكمة (٤٥٣) من رواية نهج البلاغة، وأخرجه أيضاً الجوهري في السقيفة وفدك: ٦٠، وعاصم بن حميد في أصله: ٢٣، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١: ١٠، وابن عبد البر في الاستيعاب ٢: ٣٠٢، والصدوق في الخصال: ١٥٧ ح ١٩٩، والمفيد في الجمل: ٢٠٨.

تبرد والإساءة لم تُنس[١].

ولمّا ملك عسكر معاوية عليه الماء وأحاطوا بشريعة الفرات، وقالت رؤساء الشام له: اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشا، سألهم عليّ عليه السلام وأصحابه: أن يسوغوا لهم شرب الماء. فقالوا: لا والله ولا قطرة حتى تموت ظمأً كما مات ابن عفّان. فلمّا رأى عليه السلام أنّه الموت لا محالة تقدّم بأصحابه وحمل على عساكر معاوية حملات كثيفة، حتّى أزالهم عن مراكزهم، بعد قتل ذريع سقطت منه الرؤوس والأيدي، وملكوا عليهم الماء، وصار أصحاب معاوية في الفلاة لا ماء لهم، فقال له أصحابه وشيعته: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك، ولا تسقهم منه قطرة، واقتلهم بسيوف العطش، وخذهم قبضاً بالأيدي، فلا حاجة لك إلى الحرب. فقال: «لا والله، لا أُكافئهم بمثل فعلهم، افسحوا لهم عن بعض الشريعة، ففي حدّ السيف ما يغني عن ذلك»[٢].

فهذه إن نسبتَها الى الحلم والصفح فناهيك بها جمالاً وحسناً، وإن نسبتَها إلى الدين والورع فأخلق بمثلها أن تصدر عن مثله.

وأمّا الجهاد في سبيل الله فمعلوم عند صديقه وعدوّه أنّه سيّد المجاهدين، وهل الجهاد لأحد من الناس إلّا له؟! وقد عرفت أنّ أعظم غزاة غزاها النبيّ صلى الله عليه وآله وأشدّها نكاية في المشركين: بدر الكبرىٰ، قتل فيها سبعون من المشركين؛ قتل عليّ عليه السلام نصفهم، وقتل المسلمون والملائكة النصف الآخر.

---

(١) روى سيرة علي عليه السلام في أهل الجمل الطبري في التاريخ ٣: ٥٤٣ سنة (٣٦)، والمسعودي في مروج الذهب ٢: ٣٦٨، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١: ٧٧، والمفيد في الجمل: ٢١٦، وغيرهم من أهل التاريخ والأثر.

(٢) نقله نصر بن مزاحم في وقعة صفين: ١٦٠، والطبري في التاريخ ٣: ٥٦٦ سنة (٣٦)، والمسعودي في مروج الذهب ٢: ٣٧٥، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١: ١٠٥.

وإذا رجعت إلى (مغازي) محمّد بن عمر الواقدي و(تاريخ الأشراف) ليحيى بن جابر البلاذري وغيرهما[١] علمت صحّة ذلك، دع من قتله في غيرها كأُحد والخندق وغيرهما، وهذا الفصل لا معنى للإطناب فيه لأنّه من المعلومات الضرورية كالعلم بوجود مكّة ومصر ونحوهما...[٢].

وأمّا سجاحة الأخلاق وبشر الوجه وطلاقة المحيّا والتبسّم فهو المضروب به المثل فيه، حتّى عابه بذلك أعداؤه؛ قال عمرو بن العاص لأهل الشام: إنّه ذو دعابة شديدة. وقال عليّ عليه السلام في ذاك: «عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أنّ فيّ دعابة، وأنّي امرؤ تلعابه: أُعافس وامارس»[٣]. وعمرو بن العاص إنّما أخذها عن عمر بن الخطاب لقوله له لمّا عزم على استخلافه: «لله أبوك، لولا دعابة فيك»[٤] إلاّ أنّ عمر اقتصر عليها وعمرو زاد فيها وسمّجها.

قال صعصعة بن صوحان وغيره من شيعته وأصحابه: «كان فينا كأحدنا لين جانب وشدّة تواضع وسهولة قياد، وكنّا نهابه مهابة الأسير المربوط للسيّاف الواقف على رأسه».

وقال معاوية لقيس بن سعد: رحم الله أبا الحسن، فلقد كان هشّاً بشّاً ذا فكاهة. قال له قيس: نعم، كان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يمزح ويبتسم إلى أصحابه؛ وأراك تسرّ حسواً في ارتغاء رفعه، وتعيبه بذلك. أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذي لبدتين قد مسّه الطوى؛ تلك هيبة التقوى، ليس كما يهابك طغام أهل الشام.

---

(١) كذا نقل الواقدي في مغازيه ١: ١٤٧، والبلاذري في أنساب الأشراف ١: ٢٩٧، ذكر من قتله بيده عليه السلام في يوم بدر ابن هشام في السيرة ٢: ٢٥١، والمفيد في الإرشاد: ٣٩.

(٢) قال ابن أبي الحديد بعده: «وأمّا الفصاحة...».

(٣) رواه الشريف الرضي في نهج البلاغة ١: ١٤٧ الخطبة (٨٢).

(٤) رواه ثعلب في أماليه عنه شرح ابن أبي الحديد ٢: ١١٤، والفضل بن شاذان في الإيضاح: ١٢٨، ١٢٩.

وقد بقي هذا الخُلق متوارثاً متناقلاً في محبيّه وأوليائه إلى الآن، كما بقي الجفاء والخشونة والوعورة في الجانب الآخر؛ ومن له أدنىٰ معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك.

وأمّا الزّهد في الدّنيا فهو سيّد الزّهاد وبدل الأبدال وإليه تشدّ الرّحال وعنده تنفض الاحلاس. ما شبع من طعام قطّ، وكان أخشن الناس مأكلاً وملبساً؛ قال عبدالله بن أبي رافع: دخلت إليه يوم عيد، فقدّم جراباً مختوماً، فوجدنا فيه خبز شعير يابساً مرضوضاً. فقدَّم فأكل، فقلت يا أمير المؤمنين! كيف تختمه؟ قال: خفت هذين الولدين أن يلتّاه بسمن أو زيت. وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة وبليف أُخرىٰ، ونعلاه من ليف، وكان يلبس الكرباس الغليظ، فإذا وجد كمّه طويلاً قطعه بشفرة ولم يخطه، فكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتّى يبقى سدى لا لحمة له، وكان يأتدم ـ إذا ائتدم ـ بخلّ أو بملح، فإن ترقّى عن ذلك فببعض نبات الأرض، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل، ولا يأكل اللحم إلّا قليلاً، ويقول: لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان. وكان مع ذلك أشدّ الناس قوةً وأعظمهم أيداً، لم ينقص الجوع قوّته، ولا يخور الاقلال منّته، وهو الّذي طلّق الدنيا، وكانت الأموال تُجبىٰ إليه من جميع بلاد الإسلام إلّا من الشام، فكان يفرّقها ويمزّقها، ثم يقول: هذا جناي وخياره فيه إذ كلّ جان يده إلى فيه(١).

وأمّا العبادة فكان أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصوماً، ومنه تعلّم الناس صلاة الليل وملازمة الأوراد وقيام النافلة؛ وما ظنّك برجل يبلغ من

(١) هذه المعاني رواها جمع كثير في باب زهده عليه السلام، منهم: ابن عبد البر في الاستيعاب ٣: ٤٩، والخوارزمي في المناقب: ٦٦، وابن شهر آشوب في المناقب ٢: ٩٣، وابن الأثير في أُسد الغابة ٤: ٢٢، والإربلي في كشف الغمّة ١: ١٦٢، والقندوزي في ينابيع المودة: ١٤٢.

محافظته على ورده أن يبسط له نطع بين الصفّين ليلة الهرير فيصلّي عليه ورده والسهام تقع بين يديه وتمرّ على صماخيه يميناً وشمالاً(١)، فلا يرتاع لذلك ولا يقوم حتّى يفرغ من وظيفته! وما ظنّك برجل كانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده(٢) وأنت إذا تأمّلت دعواته ومناجاته(٣)، ووقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله وما يتضمّنه من الخضوع لهيبته والخشوع لعزّته والاستخذاء له عرفت ما ينطوي عليه من الإخلاص، وفهمت من أي قلب خرجت وعلى أيّ لسان جرت؛ وقيل لعليّ بن الحسين عليه السلام ـ وكان الغاية في العبادة ـ: أين عبادتك من عبادة جدّك؟ قال: عبادتي عند عبادة جدّي كعبادة جدّي عند عبادة النبي صلى الله عليه وآله(٤).

وأمّا قراءة القرآن والاشتغال به فهو المنظور إليه في هذا الباب؛ اتّفق الكلّ على أنّه كان يحفظ القرآن على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله ولم يكن غيره يحفظه، ثمّ هو أوّل من جمعه؛ نقلوا كلّهم أنّه تأخّر عن بيعة أبي بكر. فأهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنّه تأخّر مخالفة للبيعة، بل يقولون: تشاغل بجمع القرآن. فهذا يدلّ على أنّه أوّل من جمع القرآن، لأنّه لو كان مجموعاً في حياة النبي صلى الله عليه وآله لما احتاج الى أن يتشاغل بجمعه بعد وفاته صلى الله عليه وآله.

وإذا رجعت إلى كتب القراءات وجدت أئمة القرّاء كلّهم يرجعون إليه، كأبي عمرو بن العلاء، وعاصم بن أبي النجود، وغيرهما، لأنّهم يرجعون إلى

---

(١) هذا المعنى نقله نصر بن مزاحم في وقعة صفين: ٤٧٧.

(٢) نقله الشريف الرضي في نهج البلاغة ٢: ١٠٣ الخطبة (١٨٠) عن نوف البكالي، وله شاهد أخرجه زيد الزّراد في أصله: ٣ عن علي عليه السلام قال: «إني لأكره للرجل أن تكون جبهته جلحاً ليس فيها شيء من أثر السجود».

(٣) ضبط الشارح هذه الكلمة «مناجاتاته» وهذا غلط، وأثبتنا الصحيح.

(٤) روى حديثاً بهذا المعنى المفيد في الإرشاد: ٢٥٥، والقاضي النعمان في شرح الأخبار ١٣: ١٢٧، وابن شهر آشوب في المناقب ٤: ١٤٩، وبفرق الكليني في الكافي ٨: ١٢٩ ح ١٠٠.

أبي عبد الرحمن السلمي القارئ، وأبو عبد الرحمن كان تلميذه، وعنه أخذ القرآن[١]، فقد صار هذا الفن من الفنون التي تنتهي إليه أيضاً مثل كثير ممّا سبق.

وأمّا الرّأي والتّدبير فكان من أسدّ الناس رأياً وأصحّهم تدبيراً، وهو الّذي أشار على عمر لمّا عزم على أن يتوجّه بنفسه الى حرب الرّوم والفرس بما أشار[٢]، وهو الّذي أشار على عثمان بأُمور كان صلاحه فيها، ولو قبلها لم يحدث عليه ما حدث، وإنّما قال أعداؤه: لا رأي له، لأنّه كان مقيّداً بالشريعة لا يرىٰ خلافها ولا يعمل بما يقتضي الدّين تحريمه؛ وقد قال عليه السلام: «لولا الدّين والتّقى لكنت أدهى العرب»[٣]. وغيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى ما يستصلحه ويستوفقه سواء أكان مطابقاً للشرع أم لم يكن. ولا ريب أنّ من يعمل بما يؤدّي إليه اجتهاده، ولا يقف مع ضوابط وقيود يمتنع لأجلها ممّا يرى الصلاح فيه تكون أحواله الدنياويّة إلى الانتظام أقرب، ومن كان بخلاف ذلك تكون أحواله الدنياويّة إلى الانتشار أقرب.

وأمّا السياسة فإنّه كان شديد السياسة، خشناً في ذات الله، لم يراقب ابن عمّه في عمل كان ولّاه إيّاه، ولا راقب أخاه عقيلاً في كلام جبهه به، وأحرق قوماً بالنّار، ونقض دار مصقلة بن هبيرة، ودار جرير بن عبد الله البجلي، وقطع جماعة وصلب آخرين[٤].

ومن جملة سياسته حروبُه في أيّام خلافته بالجمل وصفّين والنهروان، وفي أقلّ القليل منها مقنع، فإنّ كلّ سائس في الدّنيا لم يبلغ فتكه

---

(١) قوله: كلّهم يرجعون إليه. لا يخلو من الإشكال، فليراجع التّيسير لأبي عمرو الداني: ٨ ـ ١٠ وغيره من كتب القراءة.

(٢) نقله الشريف الرضي في نهج البلاغة ٢: ٢٩ الخطبة (١٤٤).

(٣) نقله الشريف الرضي في نهج البلاغة ٢: ١٨٠ الخطبة (١٩٨) بفرق.

(٤) كل ذلك نقله أهل التاريخ والآثار، ولم يسع المقام لذكره.

وبطشه وانتقامه مبلغ العشر ممّا فعلعليه السلام في هذه الحروب بيده وأعوانه.

فهذه هي خصائص البشر ومزاياهم، قد أوضحنا أنّه فيها الإمام المتّبع فعله والرّئيس المقتفى أثره.

وما أقول في رجل يحبّه أهل الذمّة على تكذيبهم بالنّبوة، وتعظّمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملّة، وتصوّر ملوك الفرنج والروم صورته في بيعها وبيوت عباداتها حاملاً سيفه، مشمراً لحربه، وتصوّر ملوك الترك والديلم صورته على أسيافها! كان على سيف عضد الدولة ابن بويه وسيف أبيه ركن الدولة صورتُه، وكان على سيف ألب أرسلان وابن ملكشاه صورته، كأنّهم يتفاءلون به النّصر والظفر.

وما أقول في رجل أحبّ كلّ واحد أن يتكثّر به، وودّ كلّ أحد أن يتجمّل ويتحسّن بالانتساب إليه؟ حتى الفتوّة التي أحسن ما قيل في حدّها: ألّا تستحسنَ من نفسك ما تستقبحه من غيرك؛ فإنّ أربابها نسبوا أنفسهم إليه، وصنّفوا في ذلك كتباً، وجعلوا لذلك إسناداً أنهوه إليه، وقصروه عليه، وسمّوه سيّد الفتيان، وعضّدوا مذهبهم إليه بالبيت المشهور المرويّ، أنه سمع من السماء يوم أُحد:

لا سيف إلّا ذو الفقا ... ر ولا فتى إلّا عليّ(١)

وما أقول في رجل أبوه أبو طالب سيّد البطحاء، وشيخ قريش ورئيس

---

(١) جملة «لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي» رويت في غزوات بدر وأُحد وخيبر، ورويت بلا ذكر شأن. فأمّا غزوة أُحد فأخرجها الصدوق في معاني الأخبار: ١١٩ ح١، وأماليه: ١٦٧ ح١٠ المجلس (٣٦)، والمفيد بروايتين في الإرشاد: ٤٦، ٤٧ عن النبيصلى الله عليه وآله، وأخرجها المفيد في الإرشاد: ٤٧ عن الباقرعليه السلام. وأخرجها الكليني في الكافي ٨: ١١٠ ح٩٠، والصدوق في علل الشرائع ١: ٧ ح٣ عن الصادقعليه السلام، وفي العيون ١: ٧٠ ح٩ عن الكاظمعليه السلام، وأخرجها ابن هشام في السيرة ٣: ٤٣ عن ابن أبي نجيح، والفرات الكوفي في تفسيره: ٣٥ عن حذيفة بن اليمان، وابن المغازلي في المناقب: ١٩٧ ح٢٣٤، والمفيد في الارشاد: ٤٧ عن ابن رافع. وأبو علي الطوسي في أماليه ١: ١٤٢، المجلس (٥) عن محمّد بن إسحاق.

مكّة؛ قالوا: قلّ أن يسوّد فقير؛ وساد أبو طالب وهو فقير لا مال له، وكانت قريش تسمّيه الشّيخ.

وفي حديث عفيف الكندي، لما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلّي في مبدأ الدعوة، ومعه غلام وامرأة، قال: فقلت للعباس: أيّ شيء هذا؟ قال: هذا ابن أخي يزعم أنّه رسول من الله الى الناس، ولم يتّبعه على قوله إلّا هذا الغلام -وهو ابن أخي أيضاً- وهذه الامرأة، وهي زوجته. قال: فقلت: ما الذي تقولونه أنتم؟ قال: ننتظر ما يفعل الشيخ. يعني: أبا طالب[١]. وأبو طالب هو الذي كفل رسول الله صلى الله عليه وآله صغيراً، وحماه وحاطه كبيراً، ومنعه من مشركي قريش، ولقي لأجله عنتاً عظيماً، وقاسى بلاءً شديداً، وصبر على نصره والقيام بأمره؛ وجاء في الخبر أنّه لما توفي أبو طالب أُوحي إليه عليه السلام وقيل له: اخرج منها، فقد مات ناصرك[٢].

وله مع شرف هذه الأبوّة أنّ ابن عمّه محمّد سيدُ الأولين والآخرين، وأخاه جعفر ذو الجناحين، الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أشبهت خَلقي وخُلقي»[٣] فمر يحجل فرحاً، وزوجته سيّدة نساء العالمين، وابنيه سيّدا شباب أهل الجنّة؛ فآباؤه آباء رسول الله، وأُمّهاته أمّهات رسول الله، وهو مسوط بلحمه ودمه، لم يفارقه منذ خلق الله آدم، إلى أن مات عبد المطلب بين الأخوين: عبد الله وأبي طالب، وأُمّهما واحدة، فكان منهما سيدا الناس؛ هذا الأول وهذا التّالي، وهذا المنذر وهذا الهادي!

وما أقول في رجل سبق الناس إلى الهدى وآمن بالله وعبده، وكلّ من في

---

(١) حديث عفيف أخرجه الطبري بثلاث روايات في التاريخ ٢: ٥٦، ٥٧ وغيره بفرق يسير.

(٢) هذا المعنى أخرجه الكليني في الكافي ١: ٤٤٩ ح٣١، وغيره.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥: ٦٥٤ ح ٣٧٦٥، وأحمد في مسنده ٤: ٣٤٢، والخطيب في التاريخ عنه منتخب كنز العمّال ٥: ١٥٤، وروي أيضاً ضمن أحاديث.

الأرض يعبد الحجر ـ إلى أن قال ـ وقد قال هو عليه السلام: «أنا الصدّيق الأكبر، وأنا الفاروق الأول، أسلمت قبل إسلام النّاس وصلّيت قبل صلاتهم»[١]! ومن وقف على كتب أصحاب الحديث تحقّق ذلك وعَلِمَه واضحاً، وإليه ذهب الواقدي وابن جرير الطبري[٢]، وهو القول الذي رجّحه ونصره صاحب كتاب (الاستيعاب)[٣].

وفي (صناعة أبي هلال العسكري): سُئل صعصعة عن علي عليه السلام فقال: لم يقل فيه مستزيد: لو أنّه، ولا مستقصر: إنّه؛ جمع العلم والحلم والسلم والقرابة القريبة والهجرة القديمة والبصر بالأحكام والبلاء العظيم في الإسلام[٤].

وفيه: لمّا بلغ كلامه عليه السلام في بيان حكمة الله تعالى في خلط لذّات الدنيا بآلامها إلى الجاحظ قال: هو جماع الكلام الّذي دوّنه الناس في كتبهم وتحاوروه بينهم. فسمع بذلك أبو عليّ الجبائي فقال: صدق الجاحظ؛ هذا ما لا يحتمله الزيادة والنقصان[٥].

وقال ابن أبي الحديد في كتابه عليه السلام إلى ابن عبّاس بعد مقتل محمّد بن أبي بكر «فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً»: انظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها وتملّكه زمامها،

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه ١: ٤٤ ح ١٢٠، والنسائي في الخصائص: ٤٦، والطبري في التاريخ ٢: ٥٦، وابن أبي شيبة في مسنده، وابن أبي عاصم في السّنة، والعقيلي في الضعفاء، والحاكم في المستدرك، وأبو نعيم في المعرفة عنهم منتخب كنز العمّال ٥: ٤٠، والثعلبي في تفسيره عنه ينابيع المودّة: ٦٠، والصدوق في الخصال: ٤٠١ ح ١١٠، وله شاهد قويّ من الحديث النبويّ.

(٢) رواه الطبري في تاريخه ١: ٥٥.

(٣) قاله ابن عبد البر في الاستيعاب ٣: ٢٧، وشرح ابن أبي الحديد ١: ٥ ـ ١٠.

(٤) الصناعتين: ١٨٦ والنقل بتصرف يسير.

(٥) لم أجده في الصناعتين.

وأعجب لهذه الألفاظ المنصوبة يتلو بعضها بعضاً كيف تؤاتيه وتطاوعه سلسة سهلة، تتدفّق من غير تعسّف ولا تكلّف، حتّى انتهى إلى آخر الفصل. فقال: يوماً واحداً ولا ألتقي بهم أبداً. وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة جاءت القرائن والفواصل تارة مرفوعة وتارة مجرورة وتارة منصوبة، فإن أرادوا قسرها بإعراب واحد ظهر منها في التكلّف أثر بيّن وعلامة واضحة؛ وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن، ذكره عبد القاهر، قال: انظر إلى سورة النساء وبعدها سورة المائدة: الأُولى منصوبة الفواصل، والثانية ليس فيها منصوب أصلاً، ولو مزجت إحدى السورتين بالأُخرى لم تمتزجا، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما. ثم إنّ فواصل كلّ واحدة منهما تنساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعي لا الصناعة التكليفية.

ثم انظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل كيف قال: «ولداً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً»، لو قال: «ولداً كادحاً وعاملاً ناصحاً» وكذلك ما بعده لما كان صواباً ولا في الموقع واقعاً؛ فسبحان من منح هذا الرجل بهذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة؛ أن يكون غلام من أبناء عرب مكّة ينشأ بين أهله لم يخالط الحكماء، وخرج أعرف بالحكمة ودقائق العلوم الإلهيّة من افلاطون وأرسطو، ولم يعاشر أرباب الحِكَم الخلقية والآداب النفسانية، لأنّ قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط، ولم يربّ بين الشجعان لأن أهل مكّة كانوا ذوي تجارة ولم يكونوا ذوي حرب، وخرج أشجع من كلّ بشر مشى على الأرض؛ قيل لخلف الأحمر: أيّما أشجع عنبسة وبسطام أم علي بن أبي طالب؟ فقال: إنّما يذكر عنبسة وبسطام مع البشر والناس، لا مع من يرتفع عن

هذه الطبقة. فقيل له: فعلى كلّ حال. قال: والله لو صاح عليّ عليه السلام في وجوههما لماتا قبل أن يحمل عليهما. وخرج أفصح من سحبان وقسّ ولم تكن قريش بأفصح العرب كان غيرها أفصح منها. قالوا: أفصح العرب جرهم وإن لم تكن لهم نباهة. وخرج أزهد الناس في الدّنيا وأعفّهم مع أنّ قريشاً ذوو حرص ومحبّة للدّنيا ولا غرو في من كان محمّد صلى الله عليه وآله مربّيه ومخرجه والعناية الإلهية تمدّه وترفده أن يكون منه ما كان[1].

«وَأَنّهُ عَليه السَّلام انْفَرَدَ بِبُلُوغ غايَتِها» أي: غاية فضيلة النّطق.

«عَنْ جَميع» متعلق بقوله «انفرد».

«السَّلَفِ الأوّلينَ الّذينَ إنَّما يُؤثَرُ» أي: يُروى.

«عَنهُم مِنها» أي: من تلك الفضيلة.

«القَليلُ النادِرُ وَالشاذُّ» والأصل في معنى الشاذّ: التفرّق.

«الشّارِدُ» يقال: بعير شارد، ويأتي في الكلام استعارةً؛ قال الشاعر:

شرود إذا الرّاوون حلّوا عقالها ... محجّلة فيها كلام محجّل[2]

قال ابن أبي الحديد عند شرح قوله عليه السلام في صفة الملائكة: «ثمّ خلق سبحانه لإسكان سماواته»: هذا موضع المثل «إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل»[3]. إذا جاء هذا الكلام الربانيّ واللّفظ القدسيّ بطلت فصاحة العرب، وكانت نسبة الفصيح من كلام العرب إلى كلامه نسبة التراب إلى النّضار الخالص، ولو فرضنا أنّ العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة أو المقاربة لهذه الألفاظ، من أين لهم هذه المادة التي عبّرت هذه الألفاظ عنها؟

---

(١) شرح بن أبي الحديد ٤: ٥٤ شرح الكتاب (٣٥)، وما نقل عن عبد القاهر فهو في دلائل الاعجاز: ٣٩٩.

(٢) نقله أساس البلاغة: ٢٣٢ مادة (شرد)، ولسان العرب ٣: ٢٣٧ مادة (شرد).

(٣) نقله الميداني في مجمع الأمثال ١: ٨٨ ضمن الأمثال المولّدة.

ومن أين تعرف الجاهلية بل الصحابة المعاصرون للنبيّ هذه المعاني الغامضة، ليتهيأ لهم التعبير عنها؟

أمّا الجاهليّة فإنّهم إنّما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعير أو فرس أو حمار وحش أو ثور فلاة أو صفة جبال أو فلوات ونحو ذلك، وأمّا الصحابة فالمذكورون منهم بفصاحة إنّما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثّلاثة: إمّا في موعظة تتضمن ذكر الموت أو ذمّ الدنيا، أو ما يتعلّق بحرب وقتال من ترغيب أو ترهيب؛ فأمّا الكلام في الملائكة وصفاتها وعبادتها وتسبيحها ومعرفتها بخالقها وحبّها له وولهها إليه، وما جرى مجرى ذلك ممّا تضمّنه هذا الفصل على طوله، فإنّه لم يكن عندهم معروفاً بهذا التفصيل. نعم ربما علموا جملة غير مقسّمة هذا التقسيم ولا مرتّبة بهذا الترتيب، بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم، وأمّا من عنده من هذه المادة، كعبد الله بن سلام وأُميّة بن أبي الصلت وغيرهما فلم تكن لهم هذه العبارة ولا قدروا على هذه الفصاحة، فثبت أنّ هذه الأُمور الدقيقة لم تحصل إلّا لعليّ عليه السلام وحده[1].

وقال أيضاً في شرح كلامه عليه السلام في صفة الاحتضار وسقوط الناطقة ثمّ السامعة ثمَّ الباصرة: هذا موضع المثل «في كلّ شجرة نار واستمجد المرخ والغفار»[2]. الخطب الوعظية الحسان كثيرة، ولكن هذا حديث يأكل الأحاديث، فإنّ نسبة هذه الخطبة إلى كلّ فصيح من الكلام ـ عدا كلام الله تعالى ورسوله ـ نسبة الكواكب المنيرة الفلكيّة إلى الحجارة الأرضيّة المظلمة؛ ثم لينظر الناظر

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥٠ شرح الخطبة (٨٩) ونقله الشارح بتصرف.

(٢) نقله الميداني في مجمع الأمثال ٢: ٧٤، والزمخشري في المستقصي ٢: ١٨٣ قال الزمخشري: «يضرب في تفضيل القوم على بعض اذا كانوا كلّهم ذوي خير، ولبعضهم مزية وتقدّم ليس للآخرين».

إلى ما عليها من البهاء والجلالة والرواء والديباجة، وما تحدثه من الرّوعة والرهبة والمخافة والخشيّة، حتّى لو تليت على زنديق ملحد مصمّم على اعتقاد نفي البعث والنشور لهدّت قواه، ورعب قلبه، واصعقت على نفسه، وزلزلت اعتقاده، فجزى الله قائلها عن الإسلام أفضل ما جزى به وليّاً من أوليائه، فما أبلغ نصرته له تارة بيده وسيفه وتارة بلسانه ونطقه وتارة بقلبه وفكره؛ إن قيل؛ جهاد وحرب؛ فهو سيّد المجاهدين، وإن قيل: وعظ وتذكير؛ فهو أبلغ الواعظين والمذكرين، وإن قيل: فقه وتفسير؛ فهو رئيس الفقهاء والمفسرين، وإن قيل: عدل وتوحيد فهو إمام العدل والموحّدين، و:

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد[١]

«وَأمّا كَلامُهُ عَليه السَّلام فَهُوَ مِنَ البَحرِ» هكذا في (المصرية)، والصواب: (البحر) بدون (من) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[٢].

«الَّذي لا يُساجَلُ» هكذا في (المصريّة) بالجيم، والصواب: (لا يساحل) بالحاء[٣]، فلا ربط للمساجلة ـ وهي المباراة ـ في الاستقاء من البئر هنا، وإنّما هو من ساحل فلان إذا أتى السّاحل، والمراد أنّ كلامه عليه السلام بحر لا ساحل له.

«وَالجَمُّ» أي: المجتمع، من استجم البئر إذا تركها حتّى يجتمع ماؤها.

«الَّذي لا يُحاقَلُ» أي: لا يظهر فيه نقصان، من حفّل الشاة إذا جمع اللّبن في ضرعها ليرى فيه لبن كثير، وليس كذلك، ونهى عن بيع المحفلة. قال البحتري في وصف كلام:

في نظام من البلاغة ما شكّ   امرؤٌ أنّه نظام فريد

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٣٠ شرح الخطبة (١٠٧) نقله الشارح بتصرّف.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٥، وشرح ابن ميثم ١: ٩٠.

(٣) في شرح ابن أبي الحديد ١: ١٥، وشرح ابن ميثم ١: ٩٠ «يساجل» أيضاً، لكن جعل ابن أبي الحديد «يساحل» بالحاء، رواية.

وبـــديع كأنّـــه الزهـــر الضّــا حِكُ فـــي رونـق الرّبيـع الجـديد
مشرق في جوانب السمع ما يخـ ـــلفه عــوده عــلى المســتعيد
حـــجج تـــخرس الألدّ بألفــا ظٍ فــرادى كـالجواهـر المـعدود
ومـــعان لو فــصّلتها القــوافي هــجّنت شــعر جــرول ولبــيد

«وأرَدتُ أن يَسُوغَ» أي: يجوز. والأصل فيه: سوغ الطعام والشراب من الحلق.

«لِيَ التَمَثُّلُ في الافتِخارِ بِهِ عَليه السَّلام بِقَولِ الفَرَزدَقِ» وهو همّام بن غالب ابن صعصعة، من بني تميم مخاطباً لجرير:

أولئك آبــائي فــجئني بـمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المـجامع(١)

وجرير من كليب بـن يـربوع، كـان بـينهما التـفاخر والمـهاجاة مـدّة حياتهما، وكان يتعصّب لكلّ منهما طائفة، حتّى يقع بينهما التشاجر، ولم يكن لجرير بيت وكان أبوه خاملاً. وأمّا بنو تميم بيت الفرزدق فكانوا معروفين في الجاهلية والإسلام.كان صعصعة جدّه اشترى في الجاهلية ثلاثين مَوْءُودة وأنجاهنّ من الموت(٢)، وفرّق أبوه غالب إبلاً له كثيرة في حمالات الناس في الإسلام، وكان الفرزدق جعل على نفسه أن يجير كلّ من استجار بقبر أبـيه ويسعى في نجح حاجته، وقصّة حبيش أو خنيس في ذلك معروفة، ولسائر آبائه وعشيرته مكارم أثبتها لهم التاريخ، والبيت من قصيدة يـفاخر جـريراً بآبائه، والإشارة في قوله: «أُولئك» في البيت إلى الّذين عدّهم في أبيات قـبل البَيت وذكر مكارمهم، وهي:

ومنّا الذي اختير الرجال سماحةً وخـــيراً إذا هبّ الريـاح الزّعـازع

---

(١) ديوان الفرزدق ١: ٤١٨.

(٢) المصدر نفسه.

ومنّا الّذي أحيا الوئيد وغالب وعمرو ومنّا حاجب والأقارع[(١)]

ونظير شعره هذا (أُولئك آبائي) شعر آخر له:

أُولئك أحلاسي فجئني بمثلهم وأعبد أن أهجو كليباً بدارم[(٢)]

وله قصيدة أُخرى يفاخره أيضاً فيها بآبائه، وهي:

وإن تكُ كلباً من كليب فإنني من الدارميّين الطوال الشقاشق

هم الداخلون البيت لا تدخلونه على الملك والحامون عند الحقائق[(٣)]

هذا، وقال الخوئي بعد نقل قول المصنّف: وأردت أن يسوغ لي التمثل في الافتخار بهعليه السلام بقول الفرزدق: «أُولئك...»: وأنا أيضاً أتمثّل بذلك وأفتخر به كالسيد، لكوننا فرع أصل واحد وغصن دوحة واحدة[(٤)].

قلت: إنّ الرضي رضوان الله عليه لم يرد الافتخار بهعليه السلام بانتسابه إليه وكونه علوياً، لأنّه ليس كلامه في قبال رجل غير علويّ، بل أراد الافتخار بهعليه السلام بائتمامه به في قبال العامّة المؤتمين بأُولئك الثلاثة، بأنّه هل الإمام من يكون له مثل هذه المناقب أو من يكون له تلك المثالب، ومن يكون له مثل هذه الفصاحة الخارجة عن طوق البشر، أو من عجز عن التكلم بكلمات يسيرة؟

قال أبو عبيدة: قال عمر: «ما تصعدتني خطبة كما تصعدتني خطبة

---

(١) أُخرج ذلك ابن مندة وابن أبي الدّنيا وابن عساكر، عنهم شواهد المغني ١: ١٦ عن مغيرة، قال: «لم يكن أحداً من أشراف العرب بالبادية كان أحسن ديناً من صعصعة جدّ الفرزدق، وهو الّذي أحيا ألف مَوْءُودة، وحمل على ألف فرس».

(٢) كثيراً ما يفتخر الفرزدق بدارم، لكن لم أجد هذا البيت في ديوانه. ولعلّه من المنسوبات إليه، ونقل ابن منظور في لسان العرب ٣: ٢٧٥ مادة (عبد) بيتاً عن الفرزدق مصراعه الثاني كذلك، وصدره: أُولئك قوم إن هجوني هجوتهم.

(٣) يوجد البيت الأول في ديوان الفرزدق ٢: ٥٤، لكن الثاني لم أجده فيه.

(٤) شرح الخوئي ١: ٩٠ قال الخوئي عقيب كلامه هذا: «وانتهاء نسبي ونسب السيد الى العبد الصالح موسى بن جعفرعليه السلام».

النكاح[١]. وقال الجاحظ في بيانه: صعد عثمان المنبر فارتجّ عليه، فقال: إنّ أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالاً، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب وستأتيكم الخطب على وجهها[٢].

قلت: وحيث إنّ عثمان -وهو ذو نوريْهم- لم يقدر على خطابة مختصرة، واعتذر باحتياج الناس الى عدل الامام لا خطابته، ليته وفّى لهم ولم يعمل من الجور ما يضطرّ الناس الى قتله، وحينئذٍ، فتمثّل الرضي رحمه الله في معنى قوله تعالى مشيراً إلى قضية العقول: ﴿...أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لا يهدّي إلّا أن يُهدى فمالكم كيف تحكمون﴾[٣]. وحينئذٍ، يمكن أن يتمثّل به كلّ اماميّ وشيعي، فكلّ امامي علويّ؛ وكان مصطلحاً «فلان علويّ، وفلان عثماني» يريدون بالأوّل الإماميّ وبالثّاني المخالف. مع أنّ للرضيّ خصوصيّة في انتسابه إليه عليه السلام، وهي كون انتسابه إليه عليه السلام من قبل الأب والأُمّ مع قلّة الوسائط، فأبوه الحسين بن موسى بن محمّد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم عليه السلام، وأمّه فاطمة بنت الحسن الناصر الصغير ابن أحمد بن الحسن الناصر الكبير ابن عليّ بن الحسين بن عليّ بن عمر الأشرف ابن علي السجاد عليه السلام، كما ذكر ذلك أخوه المرتضى في أوّل (ناصرياته)[٤].

وأمّا قول ابن أبي الحديد: أمه فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن علي

---

(١) نقله الجاحظ في البيان والتبيين ١: ١٦١.

(٢) نقله الجاحظ في البيان والتبيين ١: ٣٥٩.

(٣) يونس: ٣٥.

(٤) في الناصريات: ١٧٨ فاطمة بنت أبي محمّد الحسن، وفي نسخة أبي الحسن بن أحمد أبي الحسين أحمد صاحب جيش أبيه الناصر الكبير أبي محمد الحسين بن أحمد بن الحسين بن الحسن بن عليّ بن الحسين بن علي بن عمر، وفي نسخة أبي محمد الحسين بن علي بن الحسن ابن علي بن عمر بن علي السجّاد زين العابدين.

بن الحسن بن علي بن عمر[١] فوهم، فأهل البيت أدرى بما في البيت.

وقد مدح أبو اسحاق الصابي الرّضيّ في نسبه العالي وشرفه النفسي في قبال حاسديه ومعارضيه بقوله:

ألا أبلغا فرعاً نمته عروقه إلى كلّ سام للمفاخر بان
محمّد المحمود من آل أحمد أبا كلّ بكر في العلى وعوان
أبا حسن قطّعت أحشاء حاسد طواها على البغضاء والشنآن
يراك بحيث النجم تصدع قلبه بحدّ لسان أو بحدّ سنان
جرى جاهداً والعفو منك يفوته فكان هجيناً طالباً لهجان
وأنت سماء في الذؤابة صاعد وذاك حضيض في القرارة عان[٢]

ومراده بمحمّد المحمود الرضيّ، كما أنّه هو المراد بقوله: أبا حسن.

«وَرَأيتُ كلامَهُ عَليه السَّلام يَدُورُ عَلى أقطابٍ» والأصل في القطب: قطب الرّحى.

«ثَلاثَةٍ: أَوّلُها الخُطَبُ وَالأَوامِرُ» والنّواهي.

«وَثانيها: الكُتُبُ وَالرَسائِلُ» والرّسائل أعمّ من الكتب، فيمكن أن تكون الرسائل برسل يؤدّون المطالب شفاهاً.

«وَثالِثُها: الحِكَمُ وَالمَواعِظُ» التي لم تكن في خطبة أو كتاب ورسالة، وبالقيد يكون الثالث قسيماً للأوّلين، وإلّا ففي الخطب والكتب أيضاً حكم ومواعظ كثيرة، وقد ذكرنا في أكثر عناوين الأبواب الثلاثة مدارك وأسانيد لكونها كلامه عليه السلام؛ فإنكار النّصّاب لكون النّهج كلامه عليه السلام غير مسموع في قبال البيّنة، مع أنّ كثيراً منه بل جلّه يصحّح متنه وسنده، لاسيّما الشّقشقيّة

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ١١.

(٢) من قصيدة طويلة للصابي في مدح الشريف الرضي، نقلها الثعالبي معاصرهما في يتيمة الدهر ٢: ٣٠٠.

التي أنكروها خصوصاً[١].

وقال ابن أبي الحديد عند قوله عليه السلام: «واعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار»: إنّ كثيراً من أرباب الهوى يقولون: إنّ كثيراً من نهج البلاغة كلام محدث، صنعه قوم من فصحاء الشيعة. قال: وربّما عزوا بعضه الى الرّضيّ وغيره. قال: وهؤلاء قوم أعمت العصبية أعينهم فضلّوا عن النّهج الواضح، وركبوا بيّنات الطريق ضلالاً وقلّة معرفة بأساليب الكلام. قال: وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط.

فأقول: لا يخلو إمّا أن يكون كلّ نهج البلاغة مصنوعاً منحولاً أو بعضه، والأوّل باطل بالضرورة، لأنّا نعلم بالتواتر صحّة اسناد بعضه إليه عليه السلام، وقد نقل المحدِّثون كلّهم أو جلّهم والمؤرّخون كثيراً منه، وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك؛ والثاني يدلّ على ما قلناه، لأنّ من قد أنس بالكلام والخطابة وشدا طرفاً من علم البيان وصار له ذوق في هذا الباب، لابدّ أن يفرّق بين الكلام الرّكيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولّد، وإذا وقف على كرّاس واحد يتضمّن كلاماً لجماعة من البلغاء أو لاثنين منهم فقط فلابدّ أن يفرّق بين الكلامين ويميّز بين الطريقتين؛ ألا ترى أنّا مع معرفتنا بالشعر ونقده لو تصفّحنا ديوان أبي تمام فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام ونفسه وطريقته ومذهبه في القريض، ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة اليه، لمباينتها لمذهبه في الشعر، وكذلك حذفوا من

---

(١) أمّا إنكار كلّ نهج البلاغة فنقله ابن أبي الحديد في شرحه ٢: ٥٢٦ شرح الخطبة (١٨١) عن بعض، وأمّا إنكار الشّقشقيّة فنقله ابن أبي الحديد في شرحه ١: ٦٩ شرح الخطبة (٣)، وابن ميثم في شرحه ١: ٢٥١ شرح الخطبة (٣)، ويأتي تفصيل بحثه في العنوان (٣٠) من الفصل الثامن.

شعر أبي نواس شيئاً كثيراً لمّا ظهر لهم أنّه ليس من ألفاظه ولا من شعره؟ وكذلك غيرهما من الشعراء، ولم يعتمدوا في ذلك إلّا على الذوق خاصّة. وأنت إذا تأمّلت نهج البلاغة وجدته كلّه ماءً واحداً ونفساً واحداً وأُسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الّذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز أوّله كأوسطه وأوسطه كآخره، وكلّ سورة منه وكلّ آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفنّ والطريق والنظم لباقي الآيات والسور، ولو كان بعض نهج البلاغة منحولاً وبعضه صحيحاً لم يكن ذلك كذلك. فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أنّ هذا الكتاب أو بعضه منحول إليه عليه السلام[١].

قلت: وما ذكره في غاية الجودة لكن يستثنى منه ما أشرنا إليه في أوّل الكتاب[٢]، فليحذف كما حذف من شعر أبي تمام وأبي نواس بالقاعدة التي ذكرها، وقد برهنّا على ما قلنا عند شرح عناوين ما ذكرنا.

هذا، والذي يظهر من كتب اللغة (كالصحاح والأساس)[٣] وغيرهما عدم صحّة استعمال (كرّاس واحد) بل (كرّاسة واحدة)، وكون الكرّاس جمعاً. ثمّ إنّ إخواننا جاوزوا الحدّ في الحطّ من قدره عليه السلام اقتداء بسلفهم. فتارة أنكروا بعض كلامه كونه منه كالشقشقية وغيرها[٤]، وأُخرى نسبوا كلامه عليه السلام إلى غيره؛ فنسبوا كلامه عليه السلام: «أيّها الناس إنّا قد أصبحنا في دهر عنود» إلى

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥٢٦ شرح الخطبة (١٨١).

(٢) مرّ في مقدّمة المؤلّف.

(٣) صحاح اللّغة للجوهريّ ٢: ٩٢٧ مادّة (كرس)، وأساس البلاغة: ٣٩٠ مادّة (كرس)، ولسان العرب ٦: ١٩٣ مادة (كرس).

(٤) كما سبق في شرح الفقرة.

معاوية[١]، كلّ ذلك إرادة لإطفاء نوره عليه السلام، ﴿ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره﴾.

«فأجمَعتُ» أي: عزمت.

«بِتَوفيقِ اللهِ تَعالى عَلَى الابتِداءِ باختِيارِ مَحاسِنِ الخُطَبِ، ثُمَّ مَحاسِنِ الكُتُبِ، ثُمَّ مَحاسِنِ الحِكَمِ وَالأَدَبِ» لا كلّ خطبة وكتاب وكلام له عليه السلام.

«مُفرِداً لِكُلِّ صِنفٍ مِن ذلِكَ» الّذي ذكر من الخطب والكتب والأدب.

«باباً» وتعبيره في الأبواب الثلاثة مختلف، ففي الأوّل يقول: ومن خطبة له عليه السلام، أو ومن كلام له عليه السلام؛ وفي الثّاني في الأغلب يقول: ومن كتاب له عليه السلام، وقد يقول: ومن وصيّة له عليه السلام كما في (١١ و١٢ و١٤ و ٢٤ و ٢٥ و٣١ و٤٧ و٥٦ و٧٦ و٧٧)[٢].

وقال في (٧٤): ومن حلفٍ له عليه السلام كتبه بين ربيعة واليمن[٣]، وقد يقول: ومن عهدٍ له عليه السلام كما في (٢٦ و٢٧)[٤]، وقد يقول: وكان عليه السلام يقول، كما في (١٥ و١٦)[٥] وفي الثالث يقول: قال عليه السلام.

لكن الغريب أنّه قال في الخطبة (٥٩): «وقال عليه السلام لمّا عزم على حرب الخوارج»؛ وقال بعده: «ولمّا قتل الخوارج فقيل له: يا أمير المؤمنين! هلك القوم بأجمعهم. قال عليه السلام»، وقال بعده: «وقال عليه السلام فيهم: «لا تقتلوا الخوارج، بعدي»[٦]. مع أنّ عنوانها عنوان الباب الأخير، كما أنّ كلاًّ منها كلام قصير.

---

(١) رواها الجاحظ في البيان والتبيين ٢: ٥٨ عن معاوية، ثم أُنكر كونها له، ورواها عن معاوية أيضاً ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢: ٢٣٧، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٤: ١٥٢ أشار الى أنّ الرضي نقلها عن معاوية في نهج البلاغة ١: ٧٩، وتأتي الخطبة وبحثها في العنوان (١) من الفصل الخامس والعشرين في شرح الخطبة (٣٢).

(٢) نهج البلاغة ٣: ١٢، ١٣، ١٤، ٢٢، ٢٣، ٣٧، ٧٦، ١١٣، ١٣٦.

(٣) نهج البلاغة ٣: ١٣٤.

(٤) نهج البلاغة ٣: ٢٦، ٢٧.

(٥) نهج البلاغة ٣: (١٥، ١٦).

(٦) نهج البلاغة ١: ١٠٧.

فكان الواجب نقلها في الأخير، اللّهمّ إلّا أن يقال بأنّها ليست عناوين مستقلّة، بل كلّها عطف على قوله قبلها: ومن كلام له عليه السلام كلّم به الخوارج.

وقال في الخطبة (٦٨): وقال عليه السلام في سحرة اليوم الّذي ضرب فيه[١]. مع أنّه كان الواجب جعله في الثالث، ولا يأتي فيه تأويل ذكر لسابقه.

«وَمُفَصَّلاً» وفي (ابن أبي الحديد والخطيّة) و«مفضّلاً» بالمعجمة[٢].

«فيهِ أوراقاً لِتَكُونَ» الأوراق.

«مُقدِّمةً» هكذا في (المصرية)، والكلمة زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد وابن ميثم)[٣].

«لاستِدراكِ ما عَساهُ» أي: لعلّه.

«يَشِذُّ» أي: يتفرّق.

«عَنّي» وقد شذ عنه كلام كثير منه عليه السلام ممّا يدخل في موضوع كتابه، ممّا له مزيد بلاغة في الأبواب الثلاثة، ولا سيّما في الأول والأخير.

«عاجِلاً» أي: في الحال.

«وَيَقَعُ إلَيَّ آجِلاً» أي: بعد، وقد عرفت من (ابن أبي الحديد وابن ميثم) أنّ المصنّف ختم الكتاب بعنوان «رب مفتون» الحكمة (٤٦٢) ثم ألحق به ثمانية عشر عنواناً، وعرفت من الراوندي أنّه زاد في أوّل (٢٣٤ و ٢٣٥)[٤].

«وَإذا جاءَ شَيءٌ مِن كَلامِهِ عليه السلام الخارِجِ في أثناء» جمع ثني، بالكسر.

«حِوارٍ» مصدر حاور، كالمحاورة، مثل نقله ردّه عليه السلام اعتراض الأشعث

---

(١) نهج البلاغة ١: ١١٨.

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ١: ١٦، وشرح ابن ميثم ١: ٩٠ «مفصّلاً» أيضاً بالصّاد المهملة.

(٣) لا يوجد في شرح ابن ميثم ١: ٩٠، لكنه في شرح ابن أبي الحديد ١: ١٦.

(٤) قد مرّ في مقدّمة المؤلف.

عليه في أثناء خطبته[١].

«أو جَوابِ سُؤالٍ» كنقله كلامهعليه السلام في جواب من سأله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به[٢]؟

«أو غَرَضٍ» أي: مقصد.

«آخَرَ مِنَ الاغراضِ» كنقله كلامهعليه السلام في هرب مصقلة[٣]، وفي عدم غناء بيعة مروان بكفّه[٤]، وفي إشارتهعليه السلام على عمر بعدم خروجه بنفسه في حرب الفرس وكذا الروم[٥].

«في غَيرِ الانحاءِ» أي: الأقسام.

«الَّتي ذَكَرتُها، وَقَرَّرتُ القاعِدَةَ عَلَيها» من الخطب والأوامر، والكتب والرسائل، والحكم والمواعظ.

«نَسَبتُها إلى ألیَق الأبوابِ بِهِ» في مقصده.

«وأشَدِّها مُلامَحَةً» يقال: لمح البرق، إذا لمع من بعيد.

«لِغَرَضِهِ» فنقل جميع ما مرّ في الباب الأوّل لكون كلامهعليه السلام فيها كالخطب والأوامر، كما نقل وصيتهعليه السلام لجيشه[٦]، ووصاياهعليه السلام في أمواله[٧]، ووصيتهعليه السلام ـ بعد ضرب ابن ملجم عليه اللّعنة ـ للحسن والحسينعليهما السلام، ووصيتهعليه السلام لابنه الحسنعليه السلام[٨]، ووصيته لابن عباس لمّا

---

(١) نهج البلاغة ١: ٥٦ الخطبة (١٩).

(٢) نهج البلاغة ٢: ٦٣ الخطبة (١٦٠).

(٣) نهج البلاغة ١: ٩٤ الخطبة (٤٤).

(٤) نهج البلاغة ١: ١٢٣ الخطبة (٧١).

(٥) نهج البلاغة ٢: ٢٩ الخطبة (١٤٤).

(٦) نهج البلاغة ٣: ١٢ الكتاب (١١).

(٧) نهج البلاغة ٣: ٢٢ الكتاب (٢٤).

(٨) نهج البلاغة ٣: ٧٦ الكتاب (٤٧).

ولّاه[١]، ووصيته عليه السلام له لمّا بعثه الى الخوارج[٢]، ونحوها في الباب الثاني لكونها كالكتب والرسائل، كما نقل غريب كلماته عليه السلام في الباب الثالث لكونها كالحكم والأدب، لكنّه قد يخرج عمّا قرّر؛ فنقل تحريضاً له عليه السلام لأصحابه في الثاني[٣]، مع أنّه بالأوّل أليق، وقد نقل تحريضاً آخر له عليه السلام في الأوّل[٤]، على أصله ونقله كلامه عليه السلام في معنى الأنصار في السقيفة في الأوّل[٥] مع أنّه بالثالث أليق، ونقل كلاماً آخر له عليه السلام في المعنى في الثالث[٦] على أصله.

وأمّا نقله أدعيته عليه السلام في الأبواب الثلاثة، فلكون نسبتها إليها على السّواء، وإن كان نقل جميعها في الثالث أولى، حيث إنّه أعمّ، لأنّه قال فيه: ويدخل فيه الكلام القصير الخارج في سائر أغراضه بخلاف الأولين[٧].

هذا وقال ابن أبي الحديد في أوّل الباب الثاني بعد نقل كلام المصنّف: باب المختار من كتب أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أورد في هذا الباب ما هو بالباب الأوّل أشبه، نحو كلامه عليه السلام لشريح القاضي لمّا اشترى داراً[٨]، وكلامه عليه السلام لشريح بن هاني لمّا جعله على مقدّمته الى الشام[٩]، لكنّه اعتراض ساقط؛ أمّا كلامه عليه السلام لشريح القاضي، فقال: ومن كتاب له عليه السلام كتبه لشريح، فكيف ينقله في الخطب، ولولا كونه كتاباً، وإن كان كتاب شراء دار لكان بالباب الأخير

(١) نهج البلاغة ٣: ٣٧ الكتاب (٣١).

(٢) نهج البلاغة ٣: ١٣٦ الكتاب (٧٦).

(٣) نهج البلاغة ٣: ١٣٦ الكتاب (٧٧).

(٤) الظاهر أنّ كليهما كلامان في نهج البلاغة ٢: ٢ الخطبة (١٢١)، و٢: ٢٣٢ الخطبة (٢٣٩).

(٥) نهج البلاغة ١: ١١٦ الخطبة (٦٥).

(٦) نهج البلاغة ٤: ٤٣ الحكمة (١٩٠).

(٧) نهج البلاغة ٤: ٣ باب الحكم.

(٨) نهج البلاغة ٣: ٤، الكتاب (٣).

(٩) نهج البلاغة ٣: ١١٣، الكتاب (٥٦) و شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٩٤.

أشبه، لأنّه في الحكم والمواعظ؛ وأمّا كلامهعليه السلام لشريح بن هاني، فعنوان المصنّف له: ومن وصيّة لهعليه السلام وصّى بها شريح بن هاني، وقد قال في أوّل الباب الثاني: ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده الى عمّاله ووصاياه لأهله وأصحابه[١]. فهل هو إلّا من عهودهعليه السلام إلى عمّاله؟! وإن شئت قلت: هو من وصاياه الى أصحابه. ومفاسد قلّة التدبّر كثيرة.

«وَرُبَّما جاءَ في ما أَختارُهُ مِن ذلِكَ» في الأبواب الثلاثة من كلامه.

«فُصُولُ غَيرُ مُتَّسِقَةٍ» الثالث مع الثاني، والثاني مع الأول.

«وَمَحاسِنُ كَلِمٍ غَيرُ مُنتَظِمَةٍ» في مقصد واحد.

«لأنّي أُورِدُ النُّكَتَ» جمع النكتة والأصل في النّكت: أن تنكت في الأرض بقضيب ونحوه، أي: تضرب فتؤثّر فيها.

«وَاللمَعَ» جمع اللّمعة، والأصل فيها قطعة من النّبت إذا أخذت في اليبس.

«وَلا أقصُدُ التَتالِيَ وَالنَّسَقَ» والأصل في النّسق الاستواء. والمصنّف وإن كان يختار فصولاً غير متّسقة ومحاسن كلم غير منتظمة إلّا أنّه ينبّه على عدم اتّساقها وانتظامها بقوله: «منها، ومنها، منه، ومنه»، كقوله في أول الباب الأول: «منها في ذكر الحج»[٢]. وفي ثانيه: «ومنها يعني آل النبيصلى الله عليه وآله»[٣]، وأتى بلفظة «منها» في الخطبة (٨١)[٤]، وفي خطبة «فاتّعظوا عباد الله»[٥]، وفي خطبة الأشباح[٦]، وفي خطبة «فتبارك

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٢ باب الكتب.

(٢) نهج البلاغة ١: ٢٧ الخطبة (١).

(٣) نهج البلاغة ١: ٢٧ الخطبة (٢).

(٤) نهج البلاغة ١: ١٣٢.

(٥) نهج البلاغة ١: ١٤٨، ١٤٩ الخطبة (٨٢) أوّلها: «عجباً لابن النّابغة». ليس فيها لفظة «منها» أصلاً.

(٦) نهج البلاغة ١: ١٦٠ الخطبة (٨٩).

الله»[١]، وفي خطبة «انظروا الى الدّنيا»[٢]، وفي خطبة «الحمد لله الذي شرع الاسلام»[٣]، وفي خطبة الملاحم[٤]، وفي خطبة «كلّ شيء خاشع له»[٥]، وفي خطبة «أرسله داعياً الى الحق»[٦]، وفي «ومن كلام له عليه السلام قاله لأصحابه في ساحة الحرب»[٧]، وفي خطبة ملاحم البصرة[٨]، وفي خطبة «نحمده على ما أخذ وأعطى»[٩]، وفي كلامه عليه السلام «وانقادت له الدّنيا والآخرة»[١٠]، وفي كلام له عليه السلام في معنى طلحة والزبير[١١]، وفي خطبة «وأستعينه»[١٢]، وفي خطبة «الحمد لله الدالّ على وجوده»[١٣]، وفي خطبة «وناظر قلب اللّبيب»[١٤]، وفي كلام في الملاحم[١٥]، وفي خطبة «أرسله على حين فترة»[١٦]، وفي خطبة «أمره قضاء وحكمة»[١٧]، في بعضها مرّة وفي

---

(١) نهج البلاغة ١: ١٨٤ الخطبة (٩٢).

(٢) نهج البلاغة ١: ١٩٧ الخطبة (١٠١).

(٣) نهج البلاغة ١: ٢٠٣ الخطبة (١٠٤).

(٤) نهج البلاغة ١: ٢٠٦ الخطبة (١٠٦).

(٥) نهج البلاغة ١: ٢٠٩ الخطبة (١٠٧).

(٦) نهج البلاغة ١: ٢٢٩ الخطبة (١١٤).

(٧) نهج البلاغة ٢: ٢ الخطبة (١٢١).

(٨) نهج البلاغة ٢: ٩ الخطبة (١٢٦).

(٩) نهج البلاغة ٢: ١٤ الخطبة (١٣٠).

(١٠) نهج البلاغة ٢: ١٦ الخطبة (١٣١).

(١١) نهج البلاغة ٢: ١٩ الخطبة (١٣٥).

(١٢) نهج البلاغة ٢: ٣٧ الخطبة (١٤٩).

(١٣) نهج البلاغة ٢: ٣٩ الخطبة (١٥٠).

(١٤) نهج البلاغة ٢: ٤٣ الخطبة (١٥٢).

(١٥) نهج البلاغة ٢: ٤٧ الخطبة (١٥٤).

(١٦) نهج البلاغة ٢: ٥٣ الخطبة (١٥٦).

(١٧) نهج البلاغة ٢: ٥٥ الخطبة (١٥٨).

بعضها مرّتين وفي بعضها ثلاث أو أكثر.

وكقوله في الباب الثاني في (٦) «منه»[١]، وفي (٢٤) «منها»[٢]، وفي (٢٧) «ومنه»[٣]، وفي (٤٥) «ومن هذا الكتاب»[٤]، وفي (٦٢) «ومنه»[٥].

وحمل كلامه على أنّ مراده أنّه قد يسرد خطبة أو كتاباً، ويكون فيها فقرات غير متّسقة كما فهمه ابن أبي الحديد، فيقول في مطاوي كتابه كثيراً: إنّ كلام الرضيّ ملتقط من فصول مختلفة[٦]، بعيد، حيث انّه خارج عن أصل المقصود من الاستفادة، وغاية ما وقفنا عليه مثل خلطه بين كلامه عليه السلام في خرّيت الناجي وأصحابه من قوله: «آمنوا فقطنوا»، وبين كتابه عليه السلام فيهم من قوله: «فحسبهم بخروجهم»[٧]، إلّا أنّه ككلام واحد.

وأمّا ما ترى من اختلاف ما نقل مع ما وقفنا عليه من أُصول كلامه، فالظّاهر كونه من اختلاف الروايات؛ مثلاً قوله عليه السلام في الخطبة (٤٣) في عنوان كلامه عليه السلام بعد إرساله جرير بن عبدالله البجلي الى معاوية: «ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه...»[٨] وجدته قاله أيّام صفّين، وقوله عليه السلام فيه أيضاً: «إنّه قد كان على الناس والٍ أحدث أحداثاً»[٩] وجدته في كتابه عليه السلام الى أهل مصر، إلى

---

(١) ليس في نهج البلاغة ٣: ٧ لفظة «منه».

(٢) نهج البلاغة ٣: ٢٢ الكتاب (٢٤).

(٣) نهج البلاغة ٣: ٢٧، الكتاب (٢٧).

(٤) ليس في نهج البلاغة ٣: ٧٣، وشرح ابن ميثم ٥: ١٠١ لفظ «ومن هذا الكتاب»، بل في شرح ابن أبي الحديد ٤: ١٠٨.

(٥) نهج البلاغة ٣: ١١٨، الكتاب (٦٢).

(٦) قاله ابن أبي الحديد في شرحه ١: ٢٠٧، ٢١٢، ٢٧٢ و ٣: ١٨٨، ٣٠٧، ٤١٧ في شرح الخطب ٣٧، ٣٨، ٤٥، ٢٣٣ والكتابين ٩، ١٠.

(٧) نهج البلاغة ٢: ١٠٢ الخطبة (١٧٩).

(٨) نهج البلاغة ١: ٩٤.

(٩) ذيل الخطبة (٤٣).

غير ذلك ممّا ستقف عليه في مطاوي الكتاب إن شاء الله تعالى. وبالجملة قد ينقل المصنّف كلاماً في موضوع وردت أجزاؤه في أخبار فيجعلها واحداً بجامعها؛ فكلامه عليه السلام في الخطبة (١٢٢)[١] مأخوذ من ستّ روايات، إلّا أنّها كلّها في التحريض على القتال، وكذلك كلامه عليه السلام في الخطبة (١٢٣) في التحكيم[٢] مأخوذ من ثلاث روايات.

«وَمِن عَجائِبِهِ عَلَيهِ السَّلامُ الَّتي انفَرَدَ بِها، وَأَمِنَ المُشارَكَةَ فيها أَنَّ كَلامَهُ عَلَيْهِ السَلامُ الوارِدَ في الزُّهدِ، وَالمَواعِظِ، وَالتَّذكيرِ وَالزَّواجِرِ، إذا تَأَمَّلَهُ المُتَأمِّلُ، وفَكَّرَ فيهِ المُتَفَكِّرُ، وَخَلَعَ مِنْ قَلبِهِ أَنَّهُ كَلامُ مِثلِهِ مِمَّن عَظُمَ قَدرُهُ وَنَفَذَ أَمرُهُ وَأَحاطَ بِالرِّقابِ مُلكُهُ، لَمْ يَعتَرِضهُ الشَّكُّ في أَنَّهُ كلامُ مَن لا حَظَّ لَهُ في غَيرِ الزَّهادَةِ، وَلا شُغلَ لَهُ بِغَيرِ العِبادَةِ». قد تعجّب الثعالبي[٣] من أبي سهل الحمدوني الّذي كان والي الريّ، وقال أبياتاً يسيرة في الزهد، فكيف لا يتعجّب منه عليه السلام مع ما وصف؟!

«قَد قَبَعَ» والأصل فيه قبع القنفذ: أدخل رأسه في جسده.

«في كِسرِ» بالكسر. عن ابن السكيت: الكسر أسفل شقّة البيت الّتي تلي الأرض، من حيث يكسر جانباه من عن يمينك ويسارك[٤].

«بَيتٍ» أي: خباء.

«أو انقَطَعَ» عن الناس.

«في» هكذا في (المصرية)، والصواب ما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية).

---

(١) نهج البلاغة ٢: ٢.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٥.

(٣) لم أر ذلك في يتيمة الدهر.

(٤) نقله عنه الجوهري في صحاح اللغة ٢: ٨٠٦ مادة (كسر).

«إلى»(١).

«سَفح» أي: أسفل.

«جَبَلٍ لا يَسمَعُ إلّا حِسَّهُ» أي: صوته الخفيّ.

«وَلا يَرى إلّا نَفسَهُ» كسقراط الحكيم؛ ففي (أخبار حكماء القفطي): يعرف بسقراط الحبّ، لأنّه سكن حبّاً مدّة عمره، ولم ينزل بيتاً، وكان يشتمل بكساء، ولم يتّخذ لنفسه غيره، قتله ملك زمانه إذ زجره عن القبائح والفحشاء. قال له الملك: أنت لي عبد. قال: بل أنت عبد لعبدي. قال: كيف؟ قال: لأنّني رجل أملك شهوتي وملكك شهوتك(٢).

«وَلا يَكادُ يُوقِنُ بِأَنَّهُ كَلامُ مَن يَنغَمِسُ» أي: يرتمس.

«في الحَربِ مُصلِتاً» من أصلت سيفه: جرّده من غمده.

«سَيفَهُ فَيَقُطُّ» أي: يقطع عرضاً؛ من قطّ القلم، ويقال: قط البيطار الحافر إذا نحته.

«الرِقابَ وَيُجَدِّلُ» أي: يلقي على الجدالة، وهي الأرض.

«الأبطالَ» جمع البَطل بفتحتين أي: الشجعان. وفي (صفين) لنصر بن مزاحم: وبرز عروة الدمشقي لمّا دعا أمير المؤمنين عليه السلام معاوية إلى المبارزة، فأبى معاوية، فقال: إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن فهلمّ إليّ، فتقدّم اليه عليّ عليه السلام، فقال له أصحابه: ذر هذا الكلب فإنّه ليس لك بخطر، فقال عليه السلام: «والله ما معاوية اليوم بأغيظ لي منه دعوني وإيّاه». ثمّ حمل عليه فضربه فقطعه قطعتين، سقطت إحداهما يمنة والأخرى يسرة، فارتجّ

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٦، وشرح ابن ميثم ١: ٩٠.

(٢) كذا في اخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٣٥ والنقل بتصرف.

وقال الشهرستاني في صفة سقراط في كتاب الملل والنحل ٢: ٩١: «وكان يخوف بالملك الّذي حبسه انّه يريد قتله، قال: ان سقراط في حب، والملك لا يقدر إلّا على كسر الحب، فالحب يكسر ويرجع الماء الى البحر».

العسكران لهول الضربة. ثمّ قال عليه السلام: اذهب يا عروة فاخبر قومك: أمَا والّذي بعث محمّداً بالحق، لقد عاينت النار وأصبحت من النّادمين[١].

«وَيَعودُ بِهِ» أي: بسيفه.

«يَنطِفُ» أي: يسيل.

«دَماً وَيَقطُرُ مُهَجاً» جمع مهجة دم القلب والروح، وكونه عليه السلام كذلك من الواضحات، وقد كانوا سمّوه: قتّال العرب، وكان عليه السلام يقول: «والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت عنها، ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت اليها»[٢]. وكان عليه السلام يقول: «مالقيت رجلاً إلّا أعانني على نفسه»[٣]. أي: انخلع قلبه، وانقطعت مريرته من هيبته عليه السلام.

وفي (تاريخ الطبري) عن أبي لبيد قال: قتل (عليّ) منّا (يوم الجمل) ألفين وخمسمائة والشمس هاهنا. أي: في بعض يوم[٤]. وفيه عن ابن أبي يعقوب يقول: قتل عليّ بن أبي طالب عليه السلام يوم الجمل ألفين وخمسمائة؛ ألف وثلاثمائة وخمسون من الأزد، وثمانمائة من بني ضبة، وثلاثمائة وخمسون من سائر الناس[٥].

وفي (صفين نصر) عن جابر بن عمير الأنصاري: لا والله الّذي بعث محمّداً صلى الله عليه وآله بالحق نبيّاً ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق الله السماوات والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب عليه السلام، إنّه قتل في ما ذكر العادّون زيادة

---

(١) وقعة صفين: ٤٥٨.

(٢) أخرجه الشريف الرضيّ في نهج البلاغة ٣: ٧٣ ضمن الكتاب (٤٥).

(٣) أخرجه الشريف الرضي في نهج البلاغة ٤: ٧٥ الحكمة (٣١٨).

(٤) تاريخ الطبري ٣: ٥٤٧ سنة (٣٦)، ونقله عن أبي لبيد أيضاً المسعودي في مروج الذهب ٢: ٣٧١.

(٥) تاريخ الطبري ٣: ٥٤٧ سنة (٣٦)، وهناك روايات أُخرى في عدد قتلى وقعة الجمل في تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، ٥٤٧ سنة (٣٦)، ومروج الذهب ٢: ٣٧١.

على خمسمائة من أعلام العرب، يخرج بسيفه منحنياً، فيقول: معذرة الى الله عزوجل وإليكم من هذا، لقد هممت أن أصقله، ولكن حجزني عنه أنّي سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله يقول كثيراً: «لا سيف إلّا ذو الفقار، ولا فتى إلّا عليّ، وأنا أُقاتل به دونه». قال: فكنّا نأخذه فنقوّمه، ثمّ يتناوله من أيدينا، فيقتحم به في عرض الصف، فلا والله ما ليث بأشدّ نكاية في عدوّه منه عليه السلام[1].

«وَهُوَ مَعَ تِلْكَ الحالِ» من التصدي للقتال وقتال الأبطال.

«زاهِدُ الزُّهادِ» فقد طلّق عليه السلام الدنيا ثلاثاً وقال لها: «غرّي غيري»[2]. وكان يقول: «ما لعلي ولنعيم يفنى، ولذّة لا تبقى»[3]. وكان عليه السلام يقول: «دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[4]. وكان عليه السلام ينام على التراب، حتّى كنّاه النبيّ صلى الله عليه وآله بأبي تراب[5]، وكان أحبّ كناه إليه عليه السلام[6]. وتضاد روحيات مَنْ له تلك الحالة في الحرب، ومن كان بهذه الدرجة من الزهد معلوم.

وقال ابن أبي الحديد عند قوله عليه السلام: «سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً سلّطت الارض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم، وشربت من دمائهم»: إنّي لأُطيل

---

(١) وقعة صفّين : ٤٧٧.

(٢) هذه قطعة من حديث ضرار بن ضمرة الضبابي، قالها عند معاوية. أخرج الحديث الشريف الرّضي في نهج البلاغة ٤: ١٦ الحكمة (٧٧).

(٣) أخرجه الشريف الرضيّ في نهج البلاغة ٢: ٢١٨ ضمن الخطبة (٢٢٢).

(٤) أخرجه الشريف الرضي في نهج البلاغة ١: ٣٧ ضمن الخطبة (٣) المعروفة بالشّقشقيّة.

(٥) الرواية واقعة خاصّة لا أمر مستمرّ، وبين متن الروايات اختلاف، منها: ما أخرجه النسائي في الخصائص: ١٢٩، وأحمد في مسنده ٤: ٢٦٣، وأبو يعلى في مسنده عنه المطالب العالية ٤: ٦٤ ح ٣٩٦٩، وأبو الفرج بروايتين في مقاتل الطالبيين: ١٤، ١٦، وأبو نعيم في المعرفة، والطبراني في معجمه الكبير عنهما منتخب كنز العمال ٥: ٣٦، وابن المغازلي في المناقب: ٨ ح ٥، وابن مردويه بروايتين عنه ألقاب الرسول: ١٧٧، ١٧٨ وبعض الروايات تشتمل على حصول اختلاف بين علي وفاطمة عليهما السلام، لم أخرجها لكثرة طرقها مع ضعف متنها.

(٦) أكثر روايات تكنية النبي صلى الله عليه وآله علياً بأبي تراب السابقة تشتمل على كونها أحبّ كناه إليه عليه السلام.

التعجّب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدلّ على أنّ طبعه مناسب لطباع الأُسود والنمور وأمثالهما من السباع الضارية، ثمّ يخطب في ذلك الموقف بعينه إذا أراد الموعظة بكلام، يدلّ على أنّ طبعه مشاكل لطباع الرّهبان لا بسي المسوح الّذين لم يأكلوا لحماً، ولم يريقوا دماً، فتارة يكون في صورة بسطام بن قيس الشيباني، وعتيبة بن الحرث اليربوعي، وعامر بن الطفيل العامري، وتارة يكون في صورة سقراط الحبر اليوناني، ويوحنّا المعمدان الإسرائيلي، والمسيح بن مريم الإلهي! وأُقسم بمن تقسم الأُمم كلّها به، لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرّة، ما قرأتها قطّ إلّا وأحدثت عندي روعة وخوفاً وعِظَةً، وأثّرت في قلبي وجيباً، وفي أعضائي رعدة؛ ولا تأمّلتها إلّا وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي، وأرباب ودّي، وخيّلت في نفسي أنّي أنا ذلك الشخص الذي وصفعليه السلام حاله[١].

«وَبَدَلُ الأبدالِ» أي: وليّ الأولياء، وفي (اللسان): والأبدال قوم من الصالحين بهم يقيم الله الأرض؛ أربعون في الشام، وثلاثون في سائر البلاد، لا يموت منهم أحد إلّا قام مكانه آخر، فلذلك سمّوا أبدالاً، وواحد الأبدال العبّاد بِدل وبَدل. وقال ابن دريد: بديل[٢].

وروى ابن شميل بسنده حديثاً عن عليّ كرّم الله وجهه أنّه قال: الأبدال بالشّام، والنّجباء بمصر، والعصائب بالعراق[٣]. قال ابن شميل: الأبدال خيار

(١) شرح ابن أبي الحديد ٣: ٥١ شرح الخطبة (٢١٩).

(٢) جمهرة اللّغة لابن دريد ١: ٢٤٧.

(٣) رواه ابن الأثير في النهاية ٣: ٢٤٣ مادة (عصب)، وأخرجه بفرق لفظيّ في شأن أصحاب المهديعليه السلام الداني في سننه عنه عقد الدّرر: ١٤٩، وابن عساكر في تاريخه عنه ينابيع المودّة: ٤٣٣، والمفيد في أماليه: ٣٠ح٤ المجلس (٤)، والطوسي في الغيبة: ٢٨٤، ورواه ابن الأثير في النهاية ٣: ٢٤٣ مادّة (عصب)، والأحاديث الواردة في الأبدال كثيرة لا يسعها المقام.

بدل من خيار، والعصائب عصبة وعصائب يجتمعون فيكون بينهم حرب -إلى أن قال -: قال ابن السكّيت: الأبدال جمع بَدَل وبدْل، وجمع بديل بدلى[١].

قلت: وأظنّ أنّ الأصل في اصطلاح الأبدال الصوفيّة وضعوه لمشائخهم، وفي حديثه الأُمويّة، وإلّا فأهل الشام كانوا أطوع الناس للمخلوق، وأعصاهم للخالق، والأرض لا تخلو من حجّة -منذ خُلق الناس- نبيّ أو إمام.

وكيف كان، فعلى قول ابن دريد قول المصنّف: «وبدل الأبدال» غير صحيح، لكن قول ابن دريد ليس بصحيح، والصواب قول ابن السكيت في واحد الأبدال.

«وَهذِهِ من قَضائِلِهِ العَجيبَةِ، وَخَصائِصِهِ اللَّطيفَةِ الَّتي جَمَعَ بِها بَينَ الأضدادِ» التي تكون في غيره من المحالات.

وما قاله المصنّف من جمعه عليه السلام بين الأضداد أثبته له القرآن أوّلاً في قوله عز وجل: ﴿... أشداء على الكفار رحماء بينهم...﴾[٢]، ثم نفسه عليه السلام ثانياً في كتابه عليه السلام إلى عثمان بن حنيف -بعد ذكره كون حصر قوته في قرصين لاينافي كون قوّته قوّة تقابل جميع الناس- فقال عليه السلام: «وكأنّي بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان...»[٣].

وقد بلغ عليه السلام الغاية في العلم والعبادة مع أنّهما كذلك في غيره عليه السلام متقابلان، ولذا ورد: العالم كذا وكذا والعابد كذا وكذا.

وبالجملة، وجوده عليه السلام بتلك الجامعيّة من آيات قدرته تعالى.

---

(١) لسان العرب ١١: ٤٩ مادة (بدل). وقال قريباً من قوله ابن دريد في جمهرة اللغة ١: ٢٤٧.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣) نهج البلاغة ٣: ٧٠ الكتاب (٤٥).

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد[١]

«وَأَلَّفَ بَيْنَ الأشتاتِ» أي: المتفرقات في غيره، قال ابن سينا: لم يكن شجاعاً فيلسوفاً قطّ إلّا علي بن أبي طالب عليه السلام[٢].

وقال الثعالبي للمتنبي: إنّك قلت:

يرى الجبناء أنّ العجز حزم   وتلك خديعة الطبع اللئيم

وكلّ شجاعة في المرء تغني   ولا مثل الشجاعة في الحكيم

وأنّى يكون الشجاع حكيماً؟ فقال: هذا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه[٣].

وفي (فواتح الميبدي): قيل للشافعي: ما تقول في عليّ بن أبي طالب؟ فقال: ما أقول في شخص اجتمعت له ثلاثة مع ثلاثة لم تجتمع لأحد من بني آدم: الجود مع الفقر، والشجاعة مع الرأي، والعلم مع العمل، وأنشد:

إنّيَ عبد لفتى   أُنزل فيه ﴿هل أتى﴾[٤]

الى متى أكتمه   أكتمه إلى متى

وجمع عليه السلام بين الشجاعة والجود؛ قال ابن أبي الحديد إنّا: ما رأينا شجاعاً جواداً قط؛ كان عبد الله بن الزبير شجاعاً، وكان أبخل الناس، وكان الزبير أبوه شجاعاً، وكان شحيحاً. قال له عمر: لو ولّيتها لظلت تلاطم الناس في البطحاء على الصاع والمدّ. وأراد عليّ عليه السلام أن يحجر على عبد الله بن جعفر لتبذيره المال، فاحتال عبد الله لنفسه فشارك الزبير في أمواله وتجاراته، فقال علي عليه السلام: «أمّا إنّه قد لاذ بملاذ...»[٥].

---

(١) أورده ابن أبي الحديد في شرحه ٢: ٢٣١، وغيره.

(٢) نقله ابن شهر آشوب في المناقب ٢: ٤٩.

(٣) قاله الثعالبي في يتيمة الدهر ١: ٢٠٨.

(٤) الانسان: ١.

(٥) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٧، وواصل كلامه بضرب أمثلة أخرى.

قلت: ما ذكره في غاية السقوط، وكيف لم يوجد شجاع جواداً، وقد أكثر الشعراء في وصف ممدوحيهم بجمعهم بين الشجاعة والسماحة؛ قال شاعر:

كفاك كف ما تليق درهماً جوداً وأُخرى يعط بالسيف الدما

وقال آخر:

علّم الغيث الندى حتّى إذا ما حكاه علّم الناس الأسد
فله الغيث مقرّ بالندى وله الليث مقرّ بالجلد

وقال آخر:

سماؤك تمطر الذّهبا وحربك يلتظي لهبا
وأي كتيبة لا قتـ ـلك لم تستحسن الهربا

وافتخروا بالجمع بينهما؛ قال حسّان:

لنا الجفنات الغر يلمعنَ بالضُّحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ويحكى أن النّابغة لمّا سمعه قال له: فللت جفانك وسيوفك.

وكيف لم ير شجاعاً جواداً وقد كان أبو دلف العجلي في غاية الجود ونهاية الشجاعة؟!

أمّا جوده فكان إذا أتته الأموال بسطها على الأنطاع ويأمر الشعراء بنهبها، فيأخذ كلّ بقدر قوّته وقد قيل فيه :

إنّما الدّنيا أبو دلف بين باديه ومحتضره
فإذا ولّى أبو دلف ولّت الدنيا على أثره

وقد غضب المأمون عليه وعلى مادحه بهما بأنّه لم يبق له بعد البيتين شيء.

وأمّا شجاعته فكان قد خرج في قافلة الى مكّة، فلمّا تجاوزوا الكوفة حضرت الأعراب وكثرت تريد اغتيالهم، فلمّا سمعوا بأنّ أبا دلف فيهم

انهزموا من غير حرب، وكان يضرب المثل بشجاعته.

ذكر عند المبرّد الحظوظ، فقال: قال شاعر، ولم يكن أراد مدح أبي دلف:

أم هل حسبت سواد الليل شجّعني   أو أنّ قلبي في جنبَيْ أبي دلف

فبلغ شعره أبا دلف فوجّه إليه أربعة آلاف درهم بلا انتظاره.

وكان حاتم الطائي في الجاهلية ومعن بن زائدة الشيباني في الاسلام جامعين بين السخاوة والشجاعة، إلّا أنّ أشهريّة سخاوتهما أخملت شجاعتهما؛ قال ابن قتيبة في (شعرائه) في حاتم: كان حاتم إذا قاتل غلب واذا غنم أنهب[١].

وفي خطبة جناس قلب بعض الكفعمي في (مصباحه): أين من فاق قسّاً في فصاحته وحصافته، وشأى حاتماً في سماحته وحماسته[٢].

وجود معن لا يحتاج إلى بيان، حتّى قال الشاعر في رثائه مخاطباً لقبره:

ويا قبر معن كيف واريت جوده   وقد كان منه البرّ والبحر مترعا

ويكفي في شجاعته استنقاذه منصوراً من جند أبي مسلم لمّا قتله[٣]، وكانوا يعتقدون في أبي مسلم الألوهية، وكانوا أحاطوا بالمنصور وكان أشرف على الهلاك.

ويزيد بن المهلب كان يضرب المثل بشجاعته وسخاوته؛ قال كعب الأشقري فيه:

يداك إحداهما تسقي العدوّ بها   سمّاً وأُخرى نراها لم يزل دِيَما

وحكايات جوده في السيَر مسطورة، وأُرتجَ عليه على المنبر، فضربه

---

(١) قاله ابن قيبة في الشعر والشعراء: ٧٠ والنقل بتصرف يسير.

(٢) المصباح للكفعمي: ٧٥٩ الفصل (٤٩) والخطبة إنشاء نفس المؤلّف.

(٣) روى القصة المسعودي في مروج الذهب ٣: ٢٨٦.

برجله وقال: «فتى حروب لا فتى منابر».

ويزيد بن مزيد الشيباني من أمراء هارون كان أيضاً جامعاً بينهما؛ قال سلم الخاسر فيه:

إنّ لله فـي البـريّة سـيفيـ ـن يـزيداً وخـالد بـن الوليـد
ذاك سيف النبي في سـالف الدهـ ـر وهـذا سيف الإمـام الرّشيد
مـا مـقامي عـلى النّديّ وقـد فـا ضت بـحور النّدى بكفّيْ يـزيد

ولمّا قدم عليه شاعر باليمن وقال فيه :

يوماه يومٌ للمواهب والنّدى خضلٌ ويوم دم وخطف منية
ولقـد أتـيتك واثـقاً بك عـالماً أن لستَ تسمع مدحة بـنسيّة

قال: صدقت لست أسمع مدحة بنسيّة، أعطوه ألف دينار.

وفي (ذيل الطبري): كان عبيد الله بن العباس سيّداً شجاعاً سخيّاً، كان ينحر كلّ يوم جزوراً...(١)، وكان عامّة بـني هـاشم جـامعين بـين السّـخاوة والشجاعة.

ثمّ إن لم يكن الشّجاع سخيّاً، فمن أين يكون بخيلاً حتماً، كما يفهمه ابن أبي الحديد، فأيّ استلزام بينهما؟ فخالد بـن الولـيد ومـالك الأشـتر وهـاشم المرقال وجمع آخر لا يحصى كانوا من الشجعان ولم يصفهم أحد بالبخل.

وأمّا من نقل بخله مع شجاعته كالزبير وابن الزبير وكذا طلحة وعبد الملك، وقد ذكرهم ابن أبي الحديد في ذيل كلامه، فكان جمع الشحّ والشّجاعة فيهم على حسب الاتفاق، مع أنّهم لم يكونوا ذوي شجاعة فـائقة، ولا سـيّما الأخيران، بل الأخير لم يعلم مبارزته لأحد، وانّما كان قسـيّاً ذبـح ابـن عـمّه

(١) المنتخب من ذيل المذيل للطبري: ٣٨.

الأشدق بيده وكان مكتوفاً[١].

وكيف يكون تنافٍ بين الشجاعة والسّخاوة ولا يكون شخص كاملاً إلّا بالجمع بينهما. قال البحتري في أبي عيسى بن صاعد:

نصيبك في الأكرومتين فإنّما
يسود الفتى من حيث يسخو ويشجع

كما أنّ ما قاله من أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد الحجر على عبدالله بن جعفر فاحتال بشركة الزبير، لم أقف عليه، وإنّما روى الخطيب في أبي يوسف أنّ عبدالله بن جعفر أتى الزبير، فقال: إنّي اشتريت كذا وكذا، وإنّ عمّي يريد أن يأتي عثمان ـ وذكر حديث الحجر ـ فقال عثمان: كيف أحجر على رجل في بيعٍ شريكُه فيه الزّبير؟

قال أحمد بن حنبل: لم أسمع هذا إلّا من حديث أبي يوسف[٢].

وبالجملة ما قاله من تضادّ الشجاعة والسخاوة بلا حقيقة، نعم أدخله بعض الشعراء في التضادّ بتخيّلات شعرية بأنّ بسخاوة ممدوحِهِ يحيى جمع من مواليه، وبشجاعته يموت جمع من أعاديه؛ فقال:

يحيا الأنام به في الجدب إن قحطوا ... جوداً ويشقى به يوم الوغى الهام
حالان ضدّان مجموعان فيه فما ... ينفكّ بينهما بؤس وإنعام
كالمزن يجتمع الضدّان فيه معاً ... ماءٌ ونارٌ وإرهام وإضرام

وللشّعراء نظير ذلك كثير، فيخترعون تضادّاً بالتخيّل الشعري في أشياء، قال بعضهم:

---

(١) رواه الطبري في التاريخ ٤: ٥٩٩ سنة (٦٩)، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ٢: ٢٦، والمسعودي في مروج الذهب ٣: ١٠٤، وجاءت روايات تخالف هذه.

(٢) تاريخ بغداد ١٤: ٢٤٢ والنقل بتصرف.

ومن عجب أن الصوارم في الوغى تحيض بأيدي القوم وهي ذكور
وأعجب من ذا أنّها في أكفّهم تؤجّج ناراً والأكفّ بحور[١]

«وَكَثيراً ما أذكُرُ» هكذا في (المصرية)، والصواب: (أذاكر) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[٢].

«الإخوانَ بِها» أي: بهذه العجيبة.

«وَأستَخرِجُ عُجبَهُمْ» المركوز في جبلتهم من مثلها.

«مِنها، وَهِيَ مَوضِعٌ لِلعِبرَةِ بِها، وَالفِكرَةِ فيها» بأنه عليه السلام كان غير البشر المتعارفي، وأنّ اجتماع ذلك فيه عليه السلام من آيات الله تعالى شاهداً لإمامته.

«وَرُبَّما جاءَ في أثناءِ هذا الاختِيارِ» في الأبواب الثلاثة.

«اللَّفظُ المُرَدَّدُ» أي: المرجّع.

«وَالمعنى المُكرَّرُ» ولو بلفظ آخر.

«وَالعُذرُ في ذلِكَ» أي: الترديد والتكرار.

«أنَّ رواياتِ كَلامِهِ عليه السَّلام تَختَلِفُ اختِلافاً شديداً» حسب اختلاف نقل كثير من المطالب.

«فَرُبَّما اتَّفَقَ» أي: وقع.

«الكَلامُ المُختارُ في رِوايَةٍ فَنُقِلَ عَلى وَجْهِهِ» في تلك الرواية.

«ثُمَّ وُجِدَ بَعْدَ ذلِكَ في رِوايةٍ أُخرى مَوضُوعاً غَيرَ وَضعِهِ الأوَّل» أي: كيفيته.

«إمّا بِزِيادَةٍ مُختارَةٍ» أي: ينبغي أن تُختار.

«أو بِلَفظٍ» هكذا في (المصرية)، والصواب: (أو لفظ) كما في (ابن أبي

(١) للمزيد راجع الأغاني لأبي الفرج، والعقد الفريد لابن عبد ربّه، وغيرهما.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٦، وشرح ابن ميثم ١: ٩١.

الحديد، وابن ميثم، والخطية) عطفاً على (زيادة)[١].

«أحسَنَ عِبارَةٍ» من الأوّل.

«فَتَقتَضِي الحالُ أن يُعادَ» لكونه من موضوع الكتاب.

«استِظهاراً» مفعول له لقوله: «يعاد»، أي: تكميلاً.

«لِلاختِيار» من كلامه عليه السلام.

«وَغَيرَةً» بالفتح، من غار الرجل على أهله.

وأمّا الغِيرة بالكسر فقال الجوهري: إنّها الميرة، من غار أهله، أي: مارهم ونفعهم[٢].

وقال الزمخشري: إنّها الدّية، وجمعها الغِيَر؛ قال الشاعر:

لنجدعَنَّ بأيدينا أنوفَكُمُ بني أُميّة إنْ لم تقبلوا الغِيَرا[٣]

«عَلى عقائِلِ الكَلامِ» أي: كرائمه، من أن تفوته.

وممّا أعاده لزيادة مختاره أنّه قال في الخطبة (١٤٧): من كلام له قبل موته[٤].

وقال في الكتاب (٢٣): ومن كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصية[٥].

وقال في آخر الثاني: قد مضى بعض هذا الكلام في ما تقدّم من الخطب، إلّا أنّ فيه ها هنا زيادة أوجبت تكريره.

---

(١) كذا في شرح ابن ميثم ١: ٩١، ولكن في شرح ابن أبي الحديد ١: ١٧ «بلفظ» أيضاً.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٢: ٧٧٥ مادة (غير).

(٣) أساس البلاغة: ٣٣١ مادة (غير).

(٤) نهج البلاغة ٢: ٣٢.

(٥) نهج البلاغة ٣: ٢١.

وكرّر قولهعليه السلام في الحكمة (١٤٨): «المرء مخبوء تحت لسانه»[١] في (٣٩٢) مع زيادة[٢]، لكنّه غفل عن تكراره، حيث لم يشر إليه كما في الأول.

ثمّ من الغريب أنّه كرّر قولهعليه السلام في الحكمة (١١٦) : «كم من مستدرج بالإحسان إليه، ومغرور بالسّتر عليه، ومفتون بحسن القول فيه، وما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء له»[٣] في (٢٦٠) قبل فصل الغريب، وقال: وقد مضى هذا الكلام في ما تقدّم، إلّا أنّ فيه هاهنا زيادة[٤]. مع أنّه ليس في الثاني زيادة أصلاً، إلّا أنّ التكرار على نقل (ابن أبي الحديد والخطيّة)[٥] (كالمصريّة)، وأمّا (ابن ميثم) فليس الثاني فيه[٦]؛ كما أنّه كرّر الحكمة (٢٢)[٧] في (٣٨٩) مع زيادة على نقل (ابن أبي الحديد) دون (ابن ميثم)[٨]، لكن نُسخَتي من (ابن ميثم) بعد الحكمة (٨١) كثيرة التّصحيف، فليلحظ النّسخ الأُخرى.

وممّا أعاده بلفظ آخر قوله في الخطبة (٣٣): «أما والله إن كنت لفي ساقتها حتّى ولّت بحذافيرها، ما ضعفت وما جبنت، وإنّ مسيري هذا لمثلها، فلأنقُبنَّ الباطل حتّى يخرج الحقّ من جنبه»[٩] في جملة الخطبة (١٠٢)[١٠]، لكنّه غفل عن الأول لعدم إشارته إلى التكرار، كما هو دأبه في الاعتذار.

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٣٨.

(٢) نهج البلاغة ٤: ٩٣. وذيله: «تكلّموا تعرفوا».

(٣) نهج البلاغة ٤: ٢٧.

(٤) نهج البلاغة ٤: ٥٧.

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٩١، ٣٥٥.

(٦) لا يوجد في شرح ابن ميثم ٥: ٣٠٧، لكن ورد فيه في: ٣٠٣ كما قال الشارح.

(٧) نهج البلاغة ٤: ٦.

(٨) كرّر في شرح ابن أبي الحديد ٤: ٤١٩، لكن لا يوجد في شرح ابن ميثم ٥: ٤١٩ كما قال الشارح.

(٩) نهج البلاغة ١ : ٨١.

(١٠) نهج البلاغة ١: ١٩٩.

وأعاد قوله عليه السلام في الخطبة (١٧٠): «اللّهمّ إنّي أستعينك على قريش ومن أعانهم، فإنّهم قطعوا رحمي، وصغّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هُوَ لي، ثمّ قالوا: ألا إنّ في الحقّ أن تأخذه وفي الحقّ أن تتركه»[١] في الخطبة (٢١٥) بلفظ آخر[٢]، والظاهر غفلته هنا أيضاً لما يأتي في الآتي.

وأعاد أيضاً بلفظ آخر قوله عليه السلام في الخطبة (٢٦): «فنظرت فإذا ليس لي معين إلّا أهل بيتي، فضننت بهم عن الموت، وأغضيت على القذى، وشربت على الشّجى، وصبرت على أخذ الكظم، وعلى أمرّ من طعم العلقم»[٣] في آخر الخطبة (٢١٥) بلفظ «فنظرت فإذا ليس لي رافد، ولا ذابّ ولا مساعد، إلّا أهل بيتي، فضننت بهم عن المنية، فأغضيت على القذى، وجرعت ريقي على الشّجى، وصبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم، وآلم للقلب من حزّ الشّفار». ثم قال: وقد مضى هذا الكلام في أثناء خطبة متقدّمة، إلّا أنّي كرّرته هنا لاختلاف الروايتين[٤].

ثمّ إنّ المصنّف وإن كرّر في الخطبة (٢١٥) معنى ما ورد في الخطبة (١٧٠)[٥] أيضاً كما مرّ قبل هذا، إلّا أنّ قوله: «وقد مضى ...» إشارة الى ما في الخطبة (٢٦)، ولا يمكن أن يكون إشارة إليهما، لإباء قوله: «هذا الكلام»، وقوله: «خطبة متقدّمة» عن ذلك.

وأعاد أيضاً قوله في الخطبة (٣٣): «إنّ الله بعث محمّداً صلّى الله عليه

(١) نهج البلاغة ٢: ٨٥.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٢٠٢.

(٣) نهج البلاغة ١: ٦٧.

(٤) نهج البلاغة ٢: ٢٠٢.

(٥) نهج البلاغة ٢: ٨٥ ومراد الشارح من المعنى: «اللّهم إنّي استعينك على قريش...».

وآله وسلّم وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً...»[١] في الخطبة (١٠٢)، وقال: وقد تقدّم مختارها بخلاف هذه الرواية[٢].

وأعاد أيضاً قوله في الحكمة (١١٧): «هلك فيّ رجلان : محبّ غالٍ، ومبغض قالٍ»[٣] في (٤٦٩) بلفظ «يهلك فيّ رجلان : محبّ مفرط، وباهت مفتر». وقال: الثاني مثل الأوّل[٤].

وأعاد أيضاً قوله في الخطبة (٧٠) في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله: «حتّى أورى قبس القابس...»[٥] في الخطبة (١٠٤)، وقال: «وقد مضى هذا الكلام في ما تقدّم، إلّا أننا كرّرناه ها هنا لما في الروايتين من الاختلاف»[٦].

وأعاد أيضاً قوله: «يا ابن آدم : لا تحمل همّ يومك...» من الحكمة (٢٦٧)[٧] في (٣٧٩) وقال: «وقد مضى هذا الكلام...»[٨].

وأعاد أيضاً قوله في الحكمة (١٥): «تذلّ الأُمور للمقادير حتى يكون الحتف في التدبير»[٩] في (٤٥٩) بلفظ «يغلب المقدار على التقدير حتّى لا تكون الآفة في التّدبير»، لكنّه غفل عن تكراره فلم يشر ولم يعتذر[١٠].

---

(١) نهج البلاغة ١: ٨٠.

(٢) نهج البلاغة ١: ١٩٩، وقول الرضي في رواية شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٩٩ أبسط من هذا.

(٣) نهج البلاغة ٤: ٢٨.

(٤) نهج البلاغة ٤: ١٠٨، وقول الرضي: «وهذا مثل قوله عليه السلام هلك فيّ رجلان : محب غال ومبغض قال».

(٥) نهج البلاغة ١: ١٢١.

(٦) نهج البلاغة ١: ٢٠٤، ولفظ الخطبة (١٠٤): «حتّى أورى قبساً لقابس...».

(٧) نهج البلاغة ٤: ٤٦.

(٨) نهج البلاغة ٤: ٩١، ولفظ الحكمة (٣٧٩): «فلا تحمل همّ سنتك على همّ يومك».

(٩) نهج البلاغة ٤: ٥.

(١٠) الظاهر أنّه من سهو الشارح، لأنّ الشريف الرضي قال بعد تمام الحكمة في نهج البلاغة ٤: ١٠٥: «وقد مضى هذا المعنى في ما تقدّم برواية تخالف هذه الألفاظ». وكذا في شرح ابن أبي الحديد ٤: ٥٠٥، لكن سقط كلام الشريف في شرح ابن ميثم ٥: ٤٦٠.

وأعاد قوله في الحكمة (٣٤٨): «أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه»[١] بلفظ «أشد الذنوب ما استخف به صاحبه» في (٤٧٧)[٢]، وغفل عن تكراره فلم يعتذر.

«وَرُبَّما بَعُدَ العَهدُ أيضاً بِما اختيرَ أوَّلاً فَأُعيدُ بَعضَهُ» لا لزيادة أو للفظ أحسن عبارة، بل:

«سَهواً أو نِسياناً» هكذا في (المصرية)، والصواب: (ونسياناً)، كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[٣]؛ والعطف فيه تفسيري.

«لا قَصداً واعتِماداً» أي: تعمّداً، فيكون العطف فيه أيضاً تفسيرياً.

فأعاد فقرة «ما شككت في الحق مُذْ أُريتُهُ» جزء الخطبة (٤)[٤] في الحكمة (١٨٤)[٥] نسياناً.

وأعاد فقرة «من أبدى صفحته للحقّ هلك»، وهي جزء الخطبة (١٦)[٦] في الحكمة (١٨٨)[٧] سهواً، وأعاد أيضاً قوله: «كلمة حق يراد بها باطل» جزء الخطبة (٤٠)[٨] في الحكمة (١٩٨)[٩] نسياناً.

وأعاد أيضاً قوله عليه السلام: «من ظنّ بك خيراً فصدّق ظنّه» جزء وصيته عليه السلام

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٨١.

(٢) نهج البلاغة ٤: ١١٠.

(٣) كذا في شرح ابن أبي الحديد ١: ١٧، لكن في شرح ابن ميثم ١: ٩١ «أو» أيضاً.

(٤) نهج البلاغة ١: ٣٩.

(٥) نهج البلاغة ٤: ٤٢.

(٦) نهج البلاغة ١: ٥٠.

(٧) نهج البلاغة ٤: ٤٣.

(٨) نهج البلاغة ١: ٩١.

(٩) نهج البلاغة ٤: ٤٥.

إلى ابنه[١] في الكتاب (٣١) سهواً، في الحكمة (٢٤٨)[٢].

وأعاد أيضاً قوله: «ومفتون بحسن القول فيه» الّذي هو جزء العنوان «كم من مستدرج بالإحسان إليه» ـ المذكور في الحكمة (١١٦) بالاتّفاق[٣]، وفي الحكمة (٢٦٠) أيضاً بنقل (ابن أبي الحديد والخطيّة)[٤]ـ في الحكمة (٤٦٢)[٥] سهواً.

وأعاد قوله عليه السلام: «لا خير في الصمت عن الحكم، كما أنّه لا خير في القول بالجهل» المذكور في الحكمة (١٨٢)[٦] في الحكمة (٤٧١) بنقل (المصرية) و (ابن ميثم)[٧]، وقبل الحكمة (١٩٢) بنقل (ابن أبي الحديد، والخطيّة)[٨] أيضاً غفلةً.

ومنه يظهر أنّه قد يعيد كلّ العنوان سهواً جاعلاً له كُـلّاً ثانياً.

وأعاد الخطبة (٢١) «فإنّ الغاية أمامكم، وإنّ وراءكم السّاعة تحدوكم، تخفّفوا تلحقوا؛ فإنّما ينتظر بأوّلكم آخرُكم»[٩] جزء الخطبة (١٦٥) «إنّ الله تعالى أنزل كتاباً هادياً...» بلفظ «فإن الناس أمامكم، وإنّ الساعة تحدوكم من خلفكم، تخفّفوا تلحقوا؛ فإنّما ينتظر بأوّلكم آخرُكم»[١٠].

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٥٤.

(٢) نهج البلاغة ٤: ٥٤.

(٣) كذا في نهج البلاغة ٤: ٢٧، وشرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٩١، وشرح ابن ميثم ٥: ٣٠٣.

(٤) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣٥٥، ونهج البلاغة ٤: ٥٧.

(٥) نهج البلاغة ٤: ٤٣، ولفظه «ربّ مفتون»، وقال فيه بعد تمام الحكمة: «زيادة عن نسخة كتبت في عهد المصنّف».

(٦) نهج البلاغة ٤ : ٤٣ ولفظه «ربّ مفتون»، وقال فيه بعد تمام الحكمة: «زيادة من نسخة كتبت في عهد المصنّف».

(٧) شرح ابن ميثم ٥: ٤٦٥.

(٨) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣٣٠.

(٩) نهج البلاغة ١: ٥٨.

(١٠) نهج البلاغة ٢: ٨٠.

ومنه يظهر أنّه قد يعيد كلّ عنوان جزء عنوان آخر غفلةً مع اختلاف ما.

وأعاد قوله عليه السلام: «كالفالج الياسر الّذي ينتظر أوّل فوزة من قداحه» جزء الخطبة (٢٣)[١] في رقم (٨) من فصل الغريب بلفظ «كالياسر الفالج ينتظر أوّل فوزة من قداحه»[٢] غفلةً.

وأعاد قوله عليه السلام: «إنّ هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكم» من الحكمة (٩١)[٣] في (١٩٧)[٤] سهواً.

وأعاد قوله عليه السلام في الخطبة (١٧٠): «فقدموا على عاملي بها وخزّان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها، فقتلوا طائفة صبراً وطائفة غدراً» في الخطبة (٢١٦)[٥] بلفظ «فقدموا على عمّالي وخزّان بيت مال المسلمين الّذي في يدي وعلى أهل مصر كلّهم في طاعتي وعلى بيعتي، فشتّتوا كلمتهم وأفسدوا عليّ جماعتهم، ووثبوا على شيعتي فقتلوا طائفة منهم غدراً»[٦] غفلةً.

وأعاد قوله عليه السلام في الخطبة (٢٢): «والله ما أنكروا عليّ منكراً، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً، وإنّهم ليطلبون حقّاً هم تركوه، ودماً هم سفكوه؛ فلئن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبهم منه، ولئن كانوا ولّوه دوني؛ فما التبعة إلّا عندهم، وإنّ أعظم حجّتهم لعلى أنفسهم» في الخطبة (١٣٥)[٧] بلفظ «والله ما أنكروا عليّ منكراً، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً، وأنّهم ليطلبون حقّاً هم

---

(١) نهج البلاغة ١: ٦٠.

(٢) نهج البلاغة ٤: ٦١.

(٣) نهج البلاغة ٤: ٢٠.

(٤) نهج البلاغة ٤: ٤٥ ولفظه «طرائف الحكمة».

(٥) نهج البلاغة ٢: ٨٥.

(٦) نهج البلاغة ٢: ٢٠٣.

(٧) نهج البلاغة ١: ٥٩.

تركوه، ودماً هم سفكوه، فإن كنت شريكهم فيه، فإنّ لهم نصيبهم منه، وإن كانوا ولّوه دوني، فما الطّلبة إلّا قبلهم، وإنّ أوّل عدلهم للحكم على أنفسهم»[١] غفلةً.

كما أنّه أعاد ما في الخطبة (١٠) «ألا وإنّ الشيطان قد جمع حزبه، واستجلب خيله ورَجِلَه، وأنّ معي لبصيرتي؛ ما لبّست على نفسي، ولا لبّس عليّ، وايم الله لأُفرطنّ لهم حوضاً أنا ماتحه! لا يصدرون عنه، ولا يعودون إليه»[٢]، جزءاً منه في الخطبة (٢٢) «ألا وإنّ الشيطان قد ذمر حزبه، واستجلب جلبه»[٣]، وجزءاً منه في الخطبة (١٣٥) «إنّ معي لبصيرتي ما لبست، ولا لبس عليّ ... وايم الله لأُفرطنّ لهم حوضاً أنا ماتحه لا يصدرون عند بريّ، ولا يعبّون بعده في حسي»[٤] غفلةً، مع اختلافٍ ما.

وأعاد الحكمة (٦٨) «العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى»[٥] في الحكمة (٣٤٠)[٦] سهواً.

وأعاد ذيل الخطبة (١٢٥) «إنّما اجتمع رأي ملئكم على اختيار رجلين، أخذنا عليهما أن لا يتعدّيا القرآن، فتاها عنه، وتركا الحقّ وهما يبصرانه، وكان الجور هواهما فمضيا عليه، وقد سبق استثناؤنا عليهما ـ في الحكومة بالعدل، والصّمد للحق ـ سوء رأيهما وجور حكمهما»[٧] في الخطبة (١٧٥) بلفظ

---

(١) نهج البلاغة ٢: ١٩.

(٢) نهج البلاغة ١: ٤٣.

(٣) نهج البلاغة ١: ٥٩.

(٤) نهج البلاغة ٢: ٢٠.

(٥) نقله كذلك ابن أبي الحديد في شرحه ٤: ٢٧٣، ٣٩٦ مكرّراً، لكن في نهج البلاغة ٤: ٨٠، وشرح ابن ميثم ٥: ٤٠٩ كامل وبلا ذيل.

(٦) في نهج البلاغة ٤: ١٥، وشرح ابن ميثم ٥: ٢٧٣.

(٧) نهج البلاغة ٢: ٩.

«فاجمع رأي ملئكم على أن اختاروا رجلين، فأخذنا عليهما أن يجعجعا عند القرآن، ولا يجاوزاه، وتكون ألسنتهما معه، وقلوبهما تَبَعَهُ، فتاها عنه، وتركا الحق وهما يبصرانه، وكان الجور هواهما، والاعوجاج دأبهما، وقد سبق استثناؤنا عليهما ـ في الحكم بالعدل، والعمل بالحق ـ سوء رأيهما، وجور حكمهما»[١] غفلةً.

وأعاد قوله عليه السلام: «الناس أعداء ما جهلوا» في الحكمة (١٧٢)[٢] غفلة في الحكمة (٤٣٨)[٣].

وأعاد قوله عليه السلام: «قليل تدوم عليه أرجى من كثير مملول»[٤] في الحكمة (٢٧٨) نسياناً في الحكمة (٤٤٤) بلفظ «قليل تدوم عليه خير من كثير مملول منه»[٥].

وأعاد قوله عليه السلام في الخطبة (١٤٣): «أيّها الناس! إنّما أنتم في هذه الدّنيا غرض تنتضل فيه المنايا مع كلّ جرعة شرق، وفي كلّ أكلة غصص؛ لا تنالون منها نعمة إلّا بفراق أُخرى، ولا يعمّر معمّر منكم يوماً من عمره إلّا بهدم آخر من أجله»[٦] غفلةً في الحكمة (١٩١) بلفظ «إنّما المرء في الدّنيا غرض تنتضل فيه المنايا، ونهب تبادره المصائب، ومع كلّ جرعة شرق، وفي كلّ أكلة غصص، ولا ينال العبد نعمة إلّا بفراق أُخرى، ولا يستقبل يوماً من عمره إلّا

---

(١) نهج البلاغة ٢: ٩٦.
(٢) نهج البلاغة ٤: ٤٢.
(٣) نهج البلاغة ٤: ١٠٢.
(٤) نهج البلاغة ٤: ٦٨.
(٥) نهج البلاغة ٤: ١٠٣.
(٦) نهج البلاغة ٢: ٢٨.

بفراق آخر من أجله»[١].

وأعاد قوله عليه السلام في الحكمة (٢٤١): «يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم»[٢] غفلةً في الحكمة (٣٤١) بلفظ «يوم العدل على الظالم أشدّ من يوم الجور على المظلوم»[٣].

وأعاد قوله عليه السلام في الخطبة الأخيرة برقم (٢٣٩): «ما أنقص النّوم لعزائم اليوم»[٤] غفلة في الحكمة (٤٤٠)[٥] مستقلاً.

وأعاد قوله عليه السلام: «وكفى أدباً لنفسك تجنّبك ما كرهته لغيرك»[٦] وهو جزء الحكمة (٣٦٥) غفلةً في الحكمة (٤١٢)[٧] مستقلاً.

وأعاد قوله عليه السلام: «القناعة مال لا ينفد» الحكمة (٥٧)[٨] غفلةً في الحكمة (٤٧٥)[٩].

وأعاد قوله عليه السلام: «أشرف الغنى تركُ المنى» الحكمة (٣٤)[١٠] غفلةً جزءَ «الجود حارس الأعراض» الحكمة (٢١١)[١١].

وأعاد قوله عليه السلام في الخطبة (١٥٤): «وإنّهما لا يقرّبان من أجل، ولا

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٤٤.

(٢) نهج البلاغة ٤: ٥٣.

(٣) نهج البلاغة ٤: ٨٠.

(٤) نهج البلاغة ٢: ٢٣٤.

(٥) نهج البلاغة ٤: ١٠٢.

(٦) نهج البلاغة ٤: ٨٥.

(٧) نهج البلاغة ٤: ٩٦ ولفظه «كفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك».

(٨) نهج البلاغة ٤: ١٤.

(٩) نهج البلاغة ٤: ١٠٩. قال فيه بعد تمام الحكمة: «وقد روى بعضهم هذا الكلام لرسول الله صلى الله عليه وآله».

(١٠) نهج البلاغة ٤: ١٠.

(١١) نهج البلاغة ٤: ٤٨.

ينقصان من رزق»[١] في (٣٧٤) بلفظ «وإنّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لا يقرّبان من أجل، ولا ينقصان من رزق»[٢].

وممّا نقلنا من تكراراته يظهر أنّ الرضي، وان قال: إنّه قد يعيد نسياناً بعض ما مرّ، وظاهره يعيده بلفظه، إلّا أنّه قد يفعل كما قال، وقد يعيد كلّ ما مرّ، كما قد يعيد بعض ما مرّ أو كلّه بلفظ آخر. ومرّ في شرح قوله في ما أعاده قصداً لزيادة أو للفظ آخر[٣] جملة ممّا أعادها نسياناً أيضاً.

«وَلا أدّعي مَعَ ذلِكَ أنّي أُحيطُ باقطار» أي: نواحي «جَميع كَلامِهِ عليه السَّلام، حَتّى لا يَشُذَّ عَنّي شاذٌّ» أي: يتفرّق عنّي متفرّق.

«وَلا يَنِدَّ» أي: يبعد عنّي.

«نادٌّ» أي: بعيد.

«بَل لا أُبعِدُ» أي: لا أعدّ بعيداً.

«أن يَكونَ القاصِرُ عَنّي» أي: الّذي لم يصل إليّ.

«فَوقَ الواقِعِ» أي: الواصل من كلامه.

«إلَيَّ، وَالحاصِلُ» عطف على القاصر اسم (يكون).

«في رِبقَتي» بالكسر؛ قال الجوهري: الرِّبق: حبل فيه عدّة عرى تشدّ به البهم[٤].

«دُونَ» أي: أقلّ، وهو عطف على (فوق) خبر (يكون)، أي: من عطف الجملة.

«الخارِج مِن يَدَيَّ» الّذي أفلت عنّي؛ قال الراوندي، كما نقل ابن ميثم عنه:

---

(١) نهج البلاغة ٢: ٤٩.

(٢) نهج البلاغة ٤: ٨٩.

(٣) قول الرضي: «فاعيد بعضه سهواً أو نسياناً لا قصداً واعتماداً».

(٤) صحاح اللّغة للجوهري ٤: ١٤٨٠.

سمعت بعض العلماء بالحجاز يقول: إنّي وجدت بمصر مجموعاً من كلام عليّ عليه السلام في نيف وعشرين مجلّداً[١].

«وَما عَلَيَّ إلّا بَذلُ الجُهْدِ» في (الصحاح): الجَهد والجُهد بالفتح والضم الطاقة؛ وقرئ ﴿... والّذين لا يجدون إلّا جَهدهم...﴾ و ﴿جُهدهم﴾.

قال الفرّاء: الجُهد بالضم: الطاقة، والجَهد بالفتح من قولك: اجهد جَهدك في هذا الأمر؛ أي: ابلغ غايتك. ولا يقال: اجهد جُهدك[٢].

«وَبَلاغُ الوُسعِ» في نقل كلامه عليه السلام.

«وعَلَى اللهِ سُبحانَهُ» أي: المنزّه عن النقائص وعن أن يفوته شيء.

«وتَعالى» هكذا في (المصرية)، والكلمة زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[٣].

«نَهجُ السَّبيلِ» مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وعلى الله قصد السّبيل...﴾[٤].

«وَرَشادُ الدَّليلِ» وقال تعالى: ﴿... أهدكم سبيل الرّشاد﴾[٥].

«إن شاءَ اللهُ» ذلك.

«وَرَأيتُ مِن بَعدُ» أي: بعد الحمد والصلاة، أو بعدما مرّ في شرح كلامه عليه السلام وهو الأظهر.

«تَسمِيَةِ هذا الكِتابِ بِنَهجِ البَلاغَة» والنهج: هو الطريق الواضح.

وأمّا البلاغة فورد عنهم عليهم السلام لها تعريفات، وعن الأُدباء لها توصيفات، وعن العباسية فيها بيانات:

---

(١) شرح ابن ميثم ١: ١٠١.

(٢) صحاح اللّغة للجوهري ١: ٤٥٧ مادة (جهد).

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٧، وشرح ابن ميثم ١: ٩١.

(٤) النحل: ٩.

(٥) غافر: ٣٨.

أمّا الأوّل: ففي (صناعة أبي هلال العسكري): قال أمير المؤمنين عليه السلام: البلاغة إيضاح الملتبسات، وكشف عوار الجهالات، بأسهل ما يكون من العبارات. وقال الحسن بن علي عليهما السلام: البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل العبارة. وقال محمّد بن عليّ عليهما السلام: البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ، وقال: البلاغة قول مفقه في لطف. فالمفقه: المفهم، واللّطيف من الكلام: ما تعطف به القلوب النافرة، وتؤنس به القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الآبية حتّى تبلغ به الحاجة، وتقام به الحجّة[١].

وفي (تحف العقول) عن الصادق عليه السلام: يابن النعمان ليست البلاغة بحدّة اللسان ولا بكثرة الهذيان، ولكنّها إصابة المعنى وقصد الحجّة[٢].

وأمّا الثاني: ففي (دلائل إعجاز عبد القاهر) قالوا: لا يكون الكلام يستحقّ اسم البلاغة حتّى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك من معناه إلى قلبك، ويدخل في الأُذن بلا إذن[٣].

وفي (بيان الجاحظ): قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام. وقيل للرّومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي ما البلاغة؟ قال: وضوح الدّلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة. وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة: البصر بالحجّة والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة: أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربّما كان

---

(١) الصناعتين للعسكري: ٥١، ٥٢.

(٢) تحف العقول: ٣١٢، ونقل هذا التعريف للبلاغة الهاشميّ في جواهر البلاغة: ٣٧ عن خالد بن صفوان.

(٣) دلائل الإعجاز: ٢٠٦.

الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدّرك، وأحقّ بالظّفر. وقال مرّة: جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلّة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض، وبما شرد عليك من اللّفظ أو تعذّر[1].

وقال اعرابيّ: البلاغة التقرّب من البعيد والتباعد من الكلفة، والدلالة بقليل على كثير. وقال اعرابي: البلاغة إيجاز في غير عجز وإطناب في غير خطل. وقيل لأبي العيناء: ما أبلغ الكلام؟ قال: ما أسكت المبطل وحيّر المحقّ.

وأمّا الثالث: فعن ابراهيم المعروف بالإمام: يكفي من حظّ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع. وقال هارون: البلاغة التباعد من الإطالة، والتقرّب من البُغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى. وقال المأمون: ما كنت أتوهم أنّ أحداً يقدر على هذه البلاغة حتّى قرأت كتاب عمرو بن مسعدة إليّ: كتابي اليك، ومن قبلي من القوّاد والأجناد في الطاعة والانقياد على أحسن ما يكون، طاعة جند تأخّرت عطياتهم، واختلّت أحوالهم. وقال ابن المعتز: البلاغة البلوغ الى المعنى، ولم يطل سفر الكلام[2].

قلت: وبأيّ معنى فسّرت فالكتاب مصداقه، فالتّسمية حقّه.

«إذ كانَ يَفتَحُ لِلنّاظِرِ فيهِ» أي: في هذا الكتاب.

«أبوابَها» أي: أبواب البلاغة.

«وَيُقَرِّبُ عَلَيهِ طِلابَها» قد عرفت في ما مرّ اعتراف عبد الحميد الكاتب وابن نباتة الخطيب[3]، وهما على ما عليه بحصول البلاغة لهما من النّظر في

---

(١) كذا في البيان والتبيين للجاحظ: ١١١، وما نقله عن بعض أهل الهند رواه ابن أبي الحديد في زوائد نهج البلاغة: ٥٣٥ ح٩٢ عن علي عليه السلام.

(٢) جمع هذه الأقوال وأقوال أُخرى في تفسير البلاغة الجاحظ في البيان والتبيين، وابن عبد ربه في العقد الفريد.

(٣) مر في شرح خطبة الرضي فقرة: «وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ».

كلامه عليه السلام.

«فيه» هكذا في (المصرية)، والصواب: (وفيه) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[١] ولاقتضاء المقام له.

«حاجَةُ العالِمِ» في زيادة علمه.

«وَالمُتَعَلِّمِ» في حصول العلم له.

«وَبُغيَةُ» بضمّ الباء وكسرها، أي: مطلوب.

«البَليغِ» ليقتدر على الإتيان بالكلام البليغ.

«وَالزّاهِدِ» ليرضى بزهده، ويسرّ به، ويجدّ في ازدياده.

«وَيَمضي في أثنائِهِ» أي: أثناء الكتاب.

«مِنَ الكَلامِ» هكذا في (المصرية)، والصواب: (من عجيب الكلام) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[٢].

«في التَوحيدِ» ولاسيما الخطية (١٨٤). الذي قال المصنّف فيه: ومن خطبة له عليه السلام في التوحيد، وتجمع هذه الخطبة من أُصول العلم ما لا تجمعه خطبة[٣].

«وَالعَدلِ» قال: ابن أبي الحديد في شرح الخطبة (٨٣): واعلم أنّ التوحيد والعدل والمباحث الشّريفة الإلهيّة ما عرفت إلّا من كلام هذا الرجل، وإنّ كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمن شيئاً من ذلك أصلاً، ولا كانوا يتصوّرونه، ولو تصوّروه لذكروه، وهذه الفضيلة عندي أعظم فضائله عليه السلام[٤].

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٨، وشرح ابن ميثم ١: ٩١.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٨، وشرح ابن ميثم ١: ٩١.

(٣) نهج البلاغة ٢: ١١٩.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٢٠.

قلت: بل كان فاروقه قائلاً بعدم عدل الله تعالى. ففي (تاريخ بغداد) في عنوان عثمان بن سعيد: خطب عمر الناس بالجابيّة، فقال: إنّ الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء. فقال قسّ من تلك القسوس: ما يقول أميركم هذا؟ فقالوا: يقول إنّ الله يضلّ من يشاء. فقال القسّ: برقشت، الله أعدل من أن يضلّ أحداً. فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه، فقال: بل الله أضلّك، ولولا عهدك لضربت عنقك[1].

فإذا كان قائلاً بعدم عدله تعالى، كيف ينتظر منه التكلّم في أوصافه تعالى وعدله في القرآن؟! وإن ورد باللفظ، إلّا أنّه تعالى قال بعده: ﴿... وما يضلّ به إلّا الفاسقين* الّذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أُولئك هم الخاسرون﴾[2]، مع أنّ العقل والنقل متطابقان على وجوب تأويل المتشابه، لكن الرّجل مصداق قوله تعالى: ﴿...فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه...﴾[3]، والرّجل أراد الجواب بالضرب والقتل.

«وَتَنزِيهِ اللهِ سُبحانَهُ» عن النقائص.

«وَتَعالى» هكذا في (المصرية)، والصواب: عدم الكلمة، لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[4].

«عَن شِبهِ» متعلق بقوله: «وتنزيه الله».

«الخَلقِ» وفي خطبة الأشباح برقم (٨٩): سأله سائل أن يصف الله تعالى

---

(١) تاريخ بغداد ١١: ٢٩٠ والنقل بتصرف يسير.

(٢) البقرة: ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) آل عمران: ٧.

(٤) كذا في شرح ابن ميثم ١: ٩١، لكن في شرح ابن أبي الحديد ١: ١٨ «وتعالى» أيضاً.

له حتّى كأنّه يراه عياناً، فغضب عليه السلام وخطب بها[١]، وكان عليه السلام أحسّ منه إرادته وصفه بالتشبيه.

«ماهُوَ بِلالُ» بالكسر، النُّدُوّة والرّطوبة؛ قال الشاعر:

كأني حلوت الشّعر حين مدحته صفا صخرة صمّاء يبس بِلالها[٢]

وقال آخر:

وصاحب مرامق داجيته على بِلال نفسه طويته[٣]

وأصله: السقا يطوى وهو مبتلّ فيعفن. قال:

ولقد طويتكم على بللاتكم[٤]

لكن لو كان المصنّف قال: «نقوع» بدل «بلال» كان أقرب الى إفادة المراد؛ يقال: نقع الماء العطش نقعاً ونقوعاً سكّنه، ويقال: شرب حتّى نقع، وإنّما يحسن البِلال في المبالغة في النفي، يقال: ما في سقائك بِلال، أي: ما يبلّ به الحلق.

وقالت ليلى الأُخيلية لابن عمّ توبة حين فرّ عنه حتّى قتل:

فلا وأبيك يابن أبي عقيل تبلّك بعدها فينا بِلال
فلو آسيته لخلاك ذمّ وفارقك ابن عمّك غير قال[٥]

«كُلُّ غُلَّةٍ» بالضم، حرارة العطش، وزاد (ابن أبي الحديد والخطية) بعده:

---

(١) نهج البلاغة ١: ١٦٠.

(٢) أورده لسان العرب ١١: ٦٤ مادة (بلل)، والشاعر أوس.

(٣) أورده لسان العرب ١١: ٦٦ مادة (بلل).

(٤) هذا صدر بيت لحضرمي بن عامر الأسدي، وذيله: وعلمت ما فيكم من الأذراب، أورده أساس البلاغة: ٣٠ مادة (بلل)، ولسان العرب ١١: ٦٦ مادة (بلل).

(٥) أورده لسان العرب ١١: ٦٧ مادة (بلل).

«وشفاء كلّ علّة»[(١)].

«وَجِلاءُ كُلِّ شُبهَةٍ» أي: زوالها واضمحلالها؛ في (الإرشاد) روى الحسن البصري قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين بعد انصرافه من حرب صفين، فقال له: يا أمير المؤمنين! خبّرني عمّا كان بيننا وبين هؤلاء القوم من الحرب، أكان بقضاء من الله وقدر؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما علوتم قلعة ولا هبطتم وادياً إلّا ولله فيه قضاء وقدر. فقال الرجل: فعند الله احتسب عناي يا أمير المؤمنين! فقال له: ولِمَ؟ قال: إذا كان القضاء والقدر ساقانا الى العمل، فما وجه الثواب لنا على الطاعة، وما وجه العقاب لنا على المعصية؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: أوظننت يا رجل أنّه قضاء حتم وقدر لازم، ولا تظنّ ذلك، فانّ القول به مقال عبدة الأوثان وحزب الشيطان وخصماء الرحمن وقدرية هذه الأُمة ومجوسها. إنّ الله تعالى أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يطَع مكرهاً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولم يخلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذلك ظنّ الّذين كفروا فويلٌ للّذين كفروا من النّار﴾. فقال الرجل: فما القضاء والقدر الّذي ذكرته يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السلام: الأمر بالطاعة، والنهي عن المعصية، والتمكين من فعل الحسنة، وترك السيئة، والمعونة على القربة إليه، والخذلان لمن عصاه، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ كُلّ ذلك قضاء الله في أفعالنا وقدره لأعمالنا، فأمّا غير ذلك فلا تظنّه، فإنّ الظنّ له محبط للأعمال. فقال الرجل: فرّجت عنّي يا أمير المؤمنين، فرّج الله عنك. وأنشأ يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم المآب من الرحمن غفرانا

---

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ١: ١٨، وزاده أيضاً ابن ميثم في شرحه ١: ٩١.

أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك بالإحسان إحسانا(١)

«ومِنَ اللهِ سُبحانَهُ أستَمِدُّ التَوفيقَ» لنيل الغرض.

«وَالعِصمَةَ» من الضّلال.

«وأستَنَجِزُ» أي: أستنجح.

«التَّسديدَ» أي: الحمل على السّداد، أي: الصّلاح.

«والمَعُونَةَ» على العمل.

«وَأستَعيذُهُ مِن خَطاءِ الجَنانِ» القلب.

«قَبلَ خَطاءِ اللِّسانِ» قال خالد بن جعفر الكلابي لكسرى لمّا أوفده النعمان بن المنذر إليه:

وعثرة القول أنكى من عثرة الوعث

و الوعث: المكان الذي يشقّ المشي فيه.

«ومِنْ زَلَّةِ الكَلامِ» هكذا في (المصرية)، والصواب: (الكَلِم) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)(٢).

«قَبلَ زَلَّةِ القَدَمِ» قال ابن السكّيت:

يُصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرِّجل
فعثرته في القول تذهب رأسه وعثرته في الرّجل تبرأ عن مهل

---

(١) أخرجه المفيد في الإرشاد: ١٢٠ عن الحسن البصري، وأخرجه الصدوق أيضاً في العيون ١: ١١٤ ح٣٨، والتوحيد: ٣٨٠ ح٢٨ بطريقين، والكراجكي في كنز الفوائد: ١٦٩ عن الحسين عليه السلام، وأخرجه الصدوق في العيون والتوحيد ـ الحديث السابق ـ عن السجاد عليه السلام، ورواه ابن شعبة في تحف العقول: ٤٦٨، والطبرسي في الاحتجاج: ٢٠٨ ضمن رسالة الهادي عليه السلام، وأخرجه الصدوق في العيون والتوحيد ـ الحديث السابق ـ عن ابن عباس، ورواه أبو الحسين الخياط في الغرر عنه شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٧٧ عن الاصبغ بن نباتة، وأخرجه الكليني في الكافي ١: ١٥٥ ح١، والشريف الرضي في نهج البلاغة ٤: ١٧ الحكمة (٧٨)، وفي خصائص الائمة: ٦٩، ورواه ابن ميثم في شرحه ٥: ٢٧٨ مرسلاً ومجرداً.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٨، وشرح ابن ميثم ١: ٩١.

«وَهُوَ حَسبِي وَنِعمَ الوَكيلُ» الأصل فيه قوله تعالى: ﴿... وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[1].

وهذا أوان الشروع في المقصود بعون الملك المحمود، فنقول:

(١) آل عمران: ١٧٣.

الفصل الأوّل

فـي التـوحيـد

وحيث إنّ المصنّف بدأ بخطبة في التوحيد نبدأ بما بدأ به مع كلامه، فقال:

«باب المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام وأوامره، ويدخل في ذلك المختار من كلامه الجاري مجرى الخطب في المقامات المحصورة، والمواقف المذكورة، والخطوب الواردة».

أي: المقاصد العارضة، ككلامه عليه السلام لمّا خاطبه العباس وأبو سفيان بالبيعة له بعد قبض النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (١)، وكلامه عليه السلام لمّا أُشير عليه بألّا يتّبع طلحة والزبير (٢)، إلى غير ذلك ممّا عبّر فيها غالباً بقوله: ومن كلام له عليه السلام.

«فمن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض،وخلق آدم».

ونحن نقتصر من الخطبة هنا على ما يكون في التوحيد، وأمّا ما فيها في

---

(١) نهج البلاغة ١: ٤٠ الخطبة (٥).

(٢) نهج البلاغة ١: ٤١ الخطبة (٦).

خلق السماء والأرض، فنذكره في الفصل الثاني[١]، كما أنّ ما فيها راجعاً إلى خلق آدم نذكره في الفصل الرابع[٢] على ما عرفت أوّلاً في فهرست فصوله[٣]، وإنّما ذكرنا هنا عنوان المصنّف لئلّا ندع شيئاً من كلامه.

«وفيها ذكر الحجّ» هكذا في (المصرية)، والجملة بتمامها زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[٤]، ولابدّ أنّها كانت حاشية من بعض المحشّين، حيث رأى أنّ في الخطبة فصلاً راجعاً إلى الحجّ، فخُلطت بالمتن. وكيف كان، فنذكر ما فيه من ذكر الحجّ في فصل العبادات[٥].

١

من الخطبة (١)

ٱلحَمْدُ لِلّهِ ٱلَّذِي لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ ٱلقَائِلُونَ، ولَا يُحْصِي نَعْمَاءَهُ ٱلعَادُّونَ، ولَا يُؤَدِّي حَقَّهُ ٱلْمُجْتَهِدونَ، ٱلَّذِي لا يُدْرِكُهُ بُعْدُ ٱلْهِمَمِ، وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ ٱلْفِطَنِ، ٱلَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلا نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلا وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَلا أَجَلٌ مَمْدُودٌ. فَطَرَ ٱلْخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَنَشَرَ ٱلرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ، ووَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ.

من الخطبة (٩٤)

وَمِن خُطبَةٍ لَهُ عليه السلام:

ٱلْحَمْدُ لِلّهِ ٱلأَوَّلِ فَلا شَيْءَ قَبْلَهُ، وَٱلآخِرِ فَلا شَيْءَ بَعْدَهُ، وَٱلظَّاهِرِ

---

(١) في العنوان (١).

(٢) في العنوان (١).

(٣) وجاء بعض قطعه في العنوان (١) من الفصل الثالث، وكذا الخامس والسادس، والعنوان (٢) من الفصل الثاني والأربعين.

(٤) كذا في شرح ابن أبي الحديد ١: ١٨، لكن يوجد في شرح ابن ميثم ١: ١٠٦.

(٥) في العنوان (٢).

فَلا شَيْءَ فَوْقَهُ، وَٱلْبَاطِنِ فَلا شَيْءَ دُونَهُ.

من الخطبة (٩٢)

وَمِن خُطبة لَهُ عليه السلام:

فَتَبَارَكَ ٱللّهُ ٱلَّذِي لَا يَبْلُغُهُ بُعْدُ ٱلْهِمَمِ، وَلَا يَنَالُهُ حُسْنُ ٱلْفِطَنِ؛ ٱلأَوَّلُ ٱلَّذِي لا غايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِي، وَلا آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِي.

أقول: نقل الخطبة الأولى ابن طلحة الشافعي في (مطالبه)[1]، وقال الخوئي: إنّ المجلسي رواه في (البحار) عن (عيون الحكمة) لمحمّد بن عليّ الواسطي إلى قوله: ﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾[2]، لكن لم أقف في (البحار) على نقله عنه[3].

«الحمد» ظاهر (الصحاح) ترادف الحمد مع المدح، حيث قال: الحمد نقيض الذّم[4]؛ وفرّق (المصباح) بينهما، فجعل الحمد للجميل الاختياري فقط، والمدح له وللخلقي[5]، إلّا أنّ الظاهر أنّ كلّاً من الحمد والمدح للاختياري النفساني، فكما لم نسمع استعمال حمد اللؤلؤ، كذلك لم نسمع استعمال مدحه.

«لله» روى (المعاني) عن العسكري عليه السلام: أنّ الله هو الّذي يُتألّه إليه عند الحوائج والشدائد[6]، ونقل ابن أبي الحديد عن الراوندي: أنّ (الله) أخصّ من

---

(١) رواه ابن طلحة في مطالب السؤول: ٢٧.

(٢) شرح الخوئي ١: ٩٧.

(٣) بحار الأنوار ٧٧: ٣٠٠ ح٧، وفيه علي بن محمد الواسطي.

(٤) صحاح اللغة للجوهري ١: ٤٦٣ مادة (حمد).

(٥) المصباح المنير ١: ١٨٣ مادة (حمد).

(٦) معاني الأخبار للصدوق ٤: ٢.

(الإله)[١]، ونقل عنه في موضع آخر: أنّ الإله مصدر بمعنى المألوه[٢]، وردّه بأنّه لا فرق بينهما في اللغة، بل في الاصطلاح، وأنّ الإله اسم جنس -كالرجل- لكلّ معبود بحقّ أو باطل، وغلب على الحقّ، وأنّ (مألوه) مصدر لا مفعول، وأنّه لم يسمع مألوه في اللغة، لأنّ أَلِهَ الرّجل -إذا دهش وتحيّر- لازم لا يُبنى منه مفعول[٣].

قلت: حمله ولعُه على الاعتراض على الراوندي ألّا يراجع اللّغة، وإلّا ففي (الصحاح) أَلَه بالفتح، إلاهة، أي: عبد عبادة، وإله فعال بمعنى مفعول، أي: معبود، كقولنا: إمام على فعال، بمعنى مفعول، لأنّه مؤتمّ به[٤].

وما قاله من «أنّ أَلِه الرجل بمعنى: تحيّر لا يبنى منه مفعول» غلطٌ فاحش، فإنّما (وله الرّجل بمعنى: تحيّر) لا يبنى منه مفعول لا (أَلِه)، ولو كان اعترض عليه بأنّ: (إله ليس بمصدر، بل إلاهة، كما قال الجوهري، وأنّه قال: إله فعال بمعني مفعول) كان له وجه.

ثم لو لم يكن فرق بين (الله) و (إله) -كما قال ابن أبي الحديد[٥]- يصير معنى: (لا إله إلّا الله) كقولك: لا رجل إلّا رجل، أو لا زيد إلّا زيد!

وكيف لا يكون بينهما فرق، وقد كان المشركون -وهم من أهل اللّغة- يطلقون (الإله) على الأوثان، ولا يطلقون لفظة (الله) إلّا على موجد العالم؛ قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله...﴾.[٦] كما أنّ

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٠.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢١.

(٣) رد الأول في الصفحة (٢٠)، والثاني في ص(٢١).

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٦: ٢٢٢٥ مادة (أله).

(٥) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٠.

(٦) الزمر: ٣٨.

ما قاله من «أنّ الإله كلّ معبود وغلب على الحقّ» ليس كذلك؛ قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه...﴾(١) وإنّما غير الحقّ يجب أن ينفى ككلّ باطل، فـ (لا إله إلّا الله)، وكذلك قوله: «مألوه مصدر» ليس كذلك، فقد عرفت من (الصحاح) أنّه على أصله.

قال ابن أبي الحديد أيضاً: قال الراوندي: (الحمد لله) دالّ على أنّه عليه السلام حمد الله تعالى، وأنّه ثابت عليه مدّة حياته، وأمر غيره في فحوى كلامه أن يحمدوه أيضاً ثابتين، ولو كان عبّر بلفظ (أحمد الله) لم يفهم منه جميع ذلك(٢). ثمّ ردّه ابن أبي الحديد بأنّه لا فرق بين قولنا: «الحمد لله»، وقولنا: «أحمد الله»(٣).

قلت: لِمَ لَمْ يراجع كلمات علماء البيان في الفرق بين الجملة الاسمية والجملة الفعليّة؟ فإنّما قال الراوندي ما قالوه من أنّ (أحمد الله) بلفظ الفعليّة مجرد إخبار بحمده له تعالى، وأمّا (الحمد لله) بلفظ الاسمية، وتعريف الحمد بلام الجنسية، فدالّ على الدوام والاستمرار، وأنّه تعالى مستحقّ للحمد من كلّ حامد، فكما حمده هو عليه السلام يجب أن يحمده كلّ مخلوق مثله.

وفي الخبر أنّ الباقر عليه السلام فقد بغلة له، فقال: لئن ردّها الله تعالى لأحمدنّه بمحامد يرضاها، فما لبث أن أُتي بها بسرجها ولجامها، فلمّا استوى عليها وضمّ إليه ثيابه رفع رأسه الى السماء، فقال: الحمد لله فلم يزد. ثمّ قال: ما تركت ولا بقيت شيئاً، جعلت كلّ أنواع المحامد لله عزوجل، فما من حمد إلّا وهو داخل في ما قلت(٤).

«الّذي لا يبلغ مدحته القائلون» كيف يبلغ القائلون مدحته، والمادح إنّما

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٠ والنقل بالمعنى.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٠ والنقل بالمعنى.

(٤) رواه الأربلي في كشف الغمة ٢: ٣٣٠، والطبرسي في مكارم الأخلاق: ٣٠٧.

يبلغ مدح شخص إذا أحاط علماً بكمالاته؛ فالجاهل لا يقدر أن يصف علم العالم، ولا يمكن الإحاطة بكمالاته تعالى لغيره عزّوجلّ، فينحصر مدحه تعالى كما ينبغي بذاته المقدّسة؛ ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله: «لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1]. وكيف يبلغ مدحته القائلون وقد قال عزّ اسمه: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مددا﴾[2].

«ولا يحصي نعماءه العادّون» إنّما يمكن الإحصاء في ما له حصر، ولا حصر لنعمائه تعالى؛ وفي الخبر: أنّ أُبيّ بن كعب قرأ عند النبيّ صلى الله عليه وآله قوله تعالى: ﴿... وأسبغ عليكم نعمَهُ ظاهرةً وباطنة...﴾[3]، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقوم عنده ـ وفيهم أبو بكر وعبيدة وعمر وعثمان وعبد الرّحمن ـ قولوا الآن ما أوّل نعمة غرسكم الله بها وأبلاكم بها؟ فخاضوا من المعاش والرّياش والذرّية والأزواج، فلمّا أمسكوا، قال لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا الحسن قل. فقال عليه السلام: إنّ الله خلقني ولم أكن شيئاً مذكوراً، وأن أحسن بي فجعلني حيّاً لا مواتاً، وأن أنشأني، فله الحمد في أحسن صورة وأعدل تركيب، وأن جعلني متفكّراً واعياً لا أبله ساهياً، وأن جعل لي شواعر أدرك بها ما ابتغيت، وجعل فيّ سراجاً منيراً، وأن هداني لدينه ولن يضلّني عن سبيله، وأن جعل لي مردّاً في حياة لا انقطاع لها، وأن جعلني ملكاً مالكاً لا مملوكاً، وأن سخّر لي سماءه وأرضه وما فيهما وما بينهما من خلقه، وأن جعلنا ذكراناً قوّاماً على حلائلنا لا أُناثاً. وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول في كلّ كلمة: صدقت. ثم قال: فما بعد هذا؟ فقال علي عليه السلام:

(١) أخرجه صاحب مصباح الشريعة فيه: ٥٦، والدارقطني في الافراد عنه منتخب كنز العمال ١: ٣٤٨ عن النبي صلى الله عليه وآله، ونقله ابن أبي الحديد في شرحه ١: ١٩، وابن ميثم في شرحه ١: ١١١.

(٢) الكهف: ١٠٩.

(٣) لقمان: ٢٠.

﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾[(١)]. فتبسّم النبيّ صلى الله عليه وآله وقال: ليهنئك الحكمة، ليهنئك العلم، يا أبا الحسن! أنت وارث علمي، والمبيّن لأُمّتي ما اختلفت فيه من بعدي[(٢)].

«ولا يؤدّي حقّه المجتهدون» أي: السّارعون في عبادته؛ وكيف يمكن لأحد أداء حقّه، وحقوقه غير محصورة على حسب نعمائه.

وعن الزهري: دخلت مع عليّ بن الحسين عليه السلام على عبد الملك، فاستعظم ما رأى من أثر السجود بين عينيه، فقال له: يا أبا محمّد لقد تبيّن عليك الاجتهاد، ولقد سبق لك من الله الحسنى، وأنت بضعة من النبيّ صلى الله عليه وآله. فأجابه عليه السلام في كلام طويل بأنّه مع ذلك لم يؤدّ حقّه تعالى ـ الى أن قال عليه السلام له ـ : والله لو تقطّعت أعضائي، وسالت مقلتاي على صدري في قيامي له تعالى، لم أشكر عشر العشير من نعمة واحدة، من جميع نعمه الّتي لا يحصيها العادّون، ويبلغ حدّ نعمة واحدة منها على جميع حمد الحامدين له تعالى...[(٣)].

وقال بعضهم: قوله عليه السلام: «الّذي لا يبلغ مدحته القائلون» إقرار بالعجز عن الحمد باللسان، وقوله عليه السلام: «ولا يحصي نعماءه العادّون» اعتراف بالقصور عن الشكر بالجنان، وقوله عليه السلام: «ولا يؤدّي حقّه المجتهدون» اعتراف بالقصور عن العمل بالأركان[(٤)].

«الّذي لا يدركه بعد الهمم» أي: لا يصل الى كنهه الهمم العالية الراقية إلى شوامخ الأُمور.

---

(١) ابراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨.

(٢) رواه ابن شهر آشوب في المناقب ٢: ٣٥٥، والحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٣٢٩ ح ٤٥٥، وابو علي الطوسي في أماليه ٢: ١٠٥، المجلس (١٧).

(٣) رواه ابن طاووس في فتح الأبواب عنه البحار ٤٦: ٥٦ ح ١٠.

(٤) القائل هو المجلسي في شرح الخطبة: بحار الأنوار ٤: ٢٤٨.

«ولا يناله غوص الفطن» أي: لا ينتهي إلى هويّته الفطن الغائصة لجج الأفكار.

قال الخوئي: إضافة (بعد الهمم) و (غوص الفطن) ليس من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ـ على ما قيل ـ لوجوب المطابقة بين الصفة والموصوف[١].

قلت: ما قيل سليم، وما قاله هو عليل؛ فالمطابقة إنّما في ما إذا بقيت الصفة على وصفها لا بعد تبديلها، فيقال: زيد بعيد الهمم، والأصل ذو همم بعيدة.

ثمّ مثل قوله عليه السلام هنا: «الّذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن» قوله عليه السلام في الثالثة: «فتبارك الله الّذي لا يبلغه بعد الهمم ولا يناله حدس الفطن»؛ فإنّ الفرق بينهما إنّما في اللّفظ، والمعنى واحد.

وما نقلناه (حدس الفطن) إنّما هو في (ابن أبي الحديد وابن ميثم)[٢] فنقلُ (المصرية) «حسن الفطن» تصحيف.

وفي (الكافي): سأل أبو هاشم الجعفري الجواد عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار...﴾[٣] فقال عليه السلام: يا أبا هاشم! أوهام القلوب أدقّ من أبصار العيون؛ أنت قد تدرك بوهمك السّند والهند والبلدان التي لم تدخلها ولا تدركها ببصرك، وأوهام القلوب لا تدركه، فكيف أبصار العيون[٤]؟!

(١) شرح الخوئي ١: ١٠٠.

(٢) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٨٠، لكن في شرح ابن ميثم ٢: ٣٩٤ «حسن الفطن» أيضاً.

(٣) الأنعام: ١٠٣.

(٤) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٩٩ ح ١١، والصدوق في التوحيد: ١١٣ ح ١٢، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٤٤٢ عن أبي هاشم عن الجواد عليه السلام، وروى معناه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٣٦ عن الصادق عليه السلام، والبرقي في المحاسن: ٢٣٩

هذا ومن المضحك أنّ جمهور متكلّمي العامّة يدّعون أنّهم يعرفون حقيقة ذاته، وأفرطوا في الوقاحة، فقالوا: إنّه تعالى لا يعلم من ذاته إلّا ما نعلم منها.

«الّذي ليس لصفته» أي: لتوصيفه، فيأتي كلامه عليه السلام «وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه»؛ والمراد ليس لذاته:

«حدٌّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود» لكون هذه الأُمور من عوارض الجسمانيات، وهو تعالى منزّه عن ذلك.

وروى (توحيد الصدوق) خطبة عنه عليه السلام في استنهاضه الناس الى حرب معاوية ثانية وفيها: «الّذي ليس له وقت معدود، ولا أجل ممدود، ولا نعت محدود»[1].

«فطر» عن ابن عباس: كنت لا أدري ما ﴿...فاطر السماوات...﴾[2] حتّى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: ابتدأتها[3].

«الخلائق» من الجماد والنبات والوحش والطير والهوامّ والأنعام، غير البشر.

«بقدرته» يمكن أن يكون المراد لإظهار قدرته، فيكون قوله هذا: «فطر

ح ٢١٥، والكليني في الكافي ١: ٩٨ ح ١٠، والصدوق في التوحيد: ١١٢ ح ١١ عن طريق أبي هاشم، والصدوق في الأمالي: ٣٣٤ ح ٢ المجلس (٦٤)، وصاحب فقه الرضا عنه البحار ٣: ٢٦٢ ح ١٧ عن غير طريقه عن الرضا عليه السلام، والبرقي في المحاسن ٢٣٩ ح ٢١٥ عن أبي هاشم عن الجواد عليه السلام، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ واللالكائي عنهم الدر المنثور ٣: ٢٧ عن أبي الحسين القارئ موقوفاً.

(١) توحيد الصدوق: ٤١ ح ٣.

(٢) فاطر: ١.

(٣) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث وفضائل القرآن عنهما الكاف الشاف ٢: ٩، وابن جرير وابن الانباري في الوقف والابتداء، وعبد بن حميد في مسنده، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الايمان عنهم الدر المنثور ٣: ٧، و ٥: ٢٤٤، ونقله الطوسي في التبيان ٤: ٨٨ عن ابن عباس، وبين الألفاظ اختلاف يسير.

الخلائق بقدرته» مساوقاً لقولهعليه السلام الآخر: «عباد مخلوقون اقتداراً»، ويمكن أن يكون المراد أنّ خلقه تعالى للخلائق بنفس قدرته لا بمعونة أدوات وآلات كعمل المخلوقين؛ فيكون الكلام إشارة الى قوله تعالى: ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[(١)].

«ونشر الرّياح برحمته» يمكن أن يكون المراد بالرّحمة الأمطار، كالرّحمة في قوله تعالى: ﴿وهو الّذي يرسل الرّياح بشراً بين يدي رحمته...﴾[(٢)]، ويمكن أن يكون المراد بها ترحّمه تعالى على عباده بنشر الرّياح؛ فبالرّياح يجيء السّحاب ـكما عرفت من الآية ـوبالرّياح تلقّح الأشجار؛ قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرّياح لواقح...﴾[(٣)]، وبالرياح تسير السّفن؛ قال تعالى: ﴿إن يشأ يسكن الرّيح فيظللن رواكد على ظهره...﴾[(٤)]، ولولا الرّياح لزويت النباتات ومات الإنسان والحيوانات وفسدت الجمادات.

والرّياح لا تستعمل غالباً إلّا في الخير، كما في الآيات: ﴿وهو الّذي يرسل الرّياح﴾[(٥)]، ﴿وأرسلنا الرّياح لواقح...﴾[(٦)]، ﴿وهو الّذي أرسل الرّياح بشراً...﴾[(٧)]، ﴿... ومن يرسل الرياح بشراً...﴾[(٨)]، ﴿ومن آياته أن يرسل الرّياح مبشّرات...﴾[(٩)]، ﴿والله الّذي أرسل الرّياح فتثير

(١) يس: ٨٢.
(٢) الأعراف: ٥٧.
(٣) الحجر: ٢٢.
(٤) الشورى: ٣٣.
(٥) الأعراف: ٥٧.
(٦) الحجر: ٢٢.
(٧) الفرقان: ٤٨.
(٨) النمل: ٦٣ .
(٩) الروم: ٤٦.

سحاباً...﴾[١]، ﴿...وتصريف الرّياح...﴾[٢].

وممّا جاء للمطلق: ﴿...فأصبح هشيماً تذروه الرّياح...﴾[٣] لكن في قراءةٍ: «الرّيح»[٤].

كما أنّ الرّيح الأغلب استعمالها في الشرّ، كما في آيات: ﴿... إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾[٥]، ﴿... فيرسل عليكم قاصفاً من الريح...﴾[٦]، ﴿... أو تهوي به الرّيح في مكان سحيق﴾[٧]، ﴿... كرمادٍ اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف...﴾[٨].

وممّا جاءت للخير: ﴿ولسليمان الرّيح عاصفة...﴾[٩]، ﴿فسخّرنا له الرّيح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب﴾[١٠]، ﴿ولسليمان الرّيح غدوّها شهر ورواحها شهر...﴾[١١]، ﴿إنّ يشأ يسكن الرّيح...﴾[١٢].

وكذلك ريح بدون اللّام يأتي لهما؛ قال تعالى: ﴿إنّا أرسلنا عليهم ريحاً

---

(١) فاطر: ٩.

(٢) البقرة: ١٦٤.

(٣) الكهف: ٤٥.

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف (الريح) بلفظ المفرد، وقرأ باقي القراء العشرة (الرياح) بلفظ الجمع، كما في التيسير: ٧٨، والنشر ٢: ٢٢٣.

(٥) الذاريات: ٤١.

(٦) الاسراء: ٦٩.

(٧) الحج: ٣١.

(٨) ابراهيم: ١٨.

(٩) الأنبياء: ٨١.

(١٠) ص: ٣٦.

(١١) سبأ: ١٢.

(١٢) الشورى: ٣٣.

صرصراً...﴾[١]، ﴿... ريح فيها عذاب أليم﴾[٢]، ﴿... وتذهب ريحكم...﴾[٣].

ومما ذكرنا يظهر لك ما في قول الثعالبي في (فقه لغته): لم يأت لفظ الرّيح في القرآن إلّا في الشرّ، والرّياح إلّا في الخير، ثمّ ذكر آيات[٤].

«ووتّد بالصّخور» أي: الجبال.

«مَيَدان» أي: اضطراب.

«أرضه» أي: جعل الجبال أوتاداً للأرض لئلّا تضطرب، كأوتاد الخيم لئلّا تضطرب؛ وإلى ذلك أُشير في الكتاب في مواضع، منها: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم...﴾[٥]، ﴿والجبال أوتاداً﴾[٦].

وفي الصخور، أي: الجبال فوائد أُخرى غير منع الأرض من الميدان؛ من كونها معادن للفلزّات والأحجار الكريمة، وخزائن مياه، ومنابت أشجار ونباتات وأزاهير وعقاقير، ومعاقل للناس عن أعدائهم، ومساكن الوحوش والطيور.

قول المصنّف في الثانية:

«ومن خطبة لهعليه السلام»، هكذا في (ابن أبي الحديد وابن ميثم)[٧] وأمّا ما في

---

(١) القمر: ١٩.

(٢) الأحقاف: ٢٤.

(٣) الأنفال: ٤٦.

(٤) هذا قول مشهور بين أهل اللغة والتفسير، قال به الراغب الاصفهاني في المفردات: ٢١١ مادة (روح)، ثم ذكر الآيات وغيره منهم، لكن لم أجده في نسختي من فقه اللغة للثعالبي ولا ملحقه، نعم جاء في متن فقه اللغة: ٢٧٧ ـ ٢٧٩ وملحقه من كتاب الجراثيم لعبدالله بن مسلم: ٣٥٤ ـ ٣٥٥ ذكر الريح والرياح مفصّلاً بأسمائها، ويلوح منه هذا المعنى، لكن لم يذكر آية.

(٥) النحل: ١٥.

(٦) النبأ: ٧.

(٧) شرح ابن أبي الحديد ١: ١٨٢، وشرح ابن ميثم ٢: ٤٠٠.

(المصرية) (ومن خطبة أُخرى) فتحريف، ولا وجه لقوله: «أُخرى»، فكلّ خطبة غير سابقتها.

قوله عليه السلام فيها:

«الحمد لله الأوّل فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظّاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه» الأصل فيه قوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم﴾[1].

قوله عليه السلام في الثالثة:

«الأوّل الذي لا غاية له فينتهي، ولا آخر له فينقضي» روى (توحيد الصدوق): أنّ ابن أبي يعفور قال للصادق عليه السلام: قوله تعالى ﴿هو الأوّل والآخر﴾[2]: عرفنا الأوّل، بيّن لنا تفسير الآخر. فقال عليه السلام له: إنّه ليس شيء إلّا يبيد و يتغيّر أو يدخله الغير والزوال، أو ينتقل من لون إلى لون، ومن هيئة إلى هيئة، ومن صفة إلى صفة، ومن زيادة إلى نقصان، ومن نقصان إلى زيادة، إلّا ربّ العالمين، فإنّه لم يزل ولا يزال واحداً؛ هو الأوّل قبل كلّ شيء، وهو الآخر على ما لم يزل؛ لا تختلف عليه الصفات والأسماء ما يختلف على غيره، مثل الإنسان الّذي يكون تراباً مرّة ومرّة لحماً ومرّة دماً ومرّة رفاتاً ورميماً، وكالتّمر الّذي يكون مرّة بلحاً ومرّة بسراً ومرّة رطباً ومرّة تمراً، فيتبدّل عليه الأسماء والصفات والله عزّوجلّ بخلاف ذلك[3].

---

(١) الحديد: ٣.

(٢) لم يتعرض الشارح لشرح الفقرتين من أول الثالثة، وقد سبق قريب منهما في الأُولى.

(٣) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٣١٤ ح ٢، والكليني في الكافي ١: ١١٥ ح ٥.

٢
من الخطبة (١)

بَعْدَ ما مَرَّ:

أَوَّلُ ٱلدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وكمالُ مَعْرِفَتِهِ ٱلتَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ ٱلتَّصْدِيقِ بِـهِ تَوْحِيدُهُ، وكَمالُ تَوْحِيدِهِ ٱلإِخْلاَصُ لَهُ، وكَمالُ ٱلإِخْلاَصِ لَهِ نَفْيُ ٱلصِّفَاتِ عَنْهُ، بِشَهادةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّـهَا غَيْرُ ٱلمَوصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ ٱلصِّفَةِ؛ فَمَنْ وَصَفَ ٱللّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهَ فَقَدْ ثَـنَّاهُ، وَمَنْ ثَـنَّاهُ فقَدْ جزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَد أشارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَـالَ: فـيمَ. فَـقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: عَلاَمَ. فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ.

«أوّل الدّين» أي: أوّل ما يجب أن يتديّن به.

«معرفته» أي: بالقلب والجنان؛ قال الرضا عليه السلام في علل رواها عنه الفضل ابن شاذان: فإن قال قائل: فما أوّل الفرائض؟ قيل: الإقرار بالله وبرسوله وحجّته وبما جاء من عند الله. فإن قال قائل: لم أمر الخلق بالإقرار بالله وبرسوله وحجّته وبما جاء من عند الله؟ قيل: لعلل كثيرة، منها: أنّ من لم يقرّ بالله لم يتجنّب معاصيه، ولم ينتهِ عن ارتكاب الكبائر، ولم يراقب أحداً في ما يشتهي ويستلذّ من الفساد والظلم؛ وإذا فعل الناس هذه الأشياء،وارتكب كلُّ إنسان ما يشتهي ويهواه، من غير مراقبة لأحد، كان في ذلك فساد الخلق أجمعين، ووثوب بعضهم على بعض، فغصبوا الفروج والأموال، وأباحوا الدماء والسبي، وقتل بعضهم بعضاً من غير حقّ ولا جرم، فيكون في ذلك خراب الدّنيا، وهلاك الخلق، وفساد الحرث والنسل[1].

---

(١) أخرجه ضمن حديث طويل الصدوق في علل الشرائع ١: ٢٥٢ ح ٩، والعيون ٢: ٩٧ ح ١.

«وكمال معرفته» مضافاً إلى معرفته بالقلب.

«التصديق به» أي: الإقرار به باللسان، حتّى لا يكون من الّذين جحدوا بآياته واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً، فإنّ أُولئك معرفتهم ناقصة غير كاملة.

«وكمال التّصديق به توحيده» بنفي الشريك عنه، لأنَّ من عرف بقلبه أنّ للعالم صانعاً، وأقرّ به بلسانه، لكن جعل له شريكاً في الايجاد كالثنويّة، ومن قال: هو ثالث ثلاثة، تصديقه ناقص لا فائدة فيه.

«وكمال توحيده الإخلاص له» في العبادة؛ لأنَّ من وحّده في الايجاد، لكن جعل له شريكاً في العبادة، كالوثنيّة الّذين قالوا في أوثانهم: ﴿... ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى...﴾[1]، توحيده غير كامل.

«وكمال الإخلاص له نفي الصفات» زائدةً على الذات، كما في الناس.

«عنه، بشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف» فعلمُ زيد غير ذات زيد.

«وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة» فذات عمرو غير حلمه؛ وفي حديث الزّنديق الذي قال للصادق عليه السلام: «أتقول: إنّ الله سميع بصير؟ فقال عليه السلام: هو سميع بصير؛ سميع بغير جارحة، وبصير بغير آلة، بل يسمع بنفسه، ويبصر بنفسه؛ وليس قولي: إنّه سميع بنفسه أنّه شيء والنفس شيء آخر، ولكنّي أردت عبارة عن نفسي إذ كنت مسؤولاً، وإفهاماً لك إذ كنت سائلاً، فأقول: يسمع بكلّه، لا أنّ كلّه له بعض، لأنّ الكلّ لنا له بعض، ولكن أردت إفهامك والتّعبير عن نفسي، وليس مرجعي في ذلك كلّه إلّا أنّه السّميع البصير العالم الخبير بلا اختلاف الذات، ولا اختلاف المعنى»[2].

---

(١) الزمر: ٣.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١٠٩ ح ٢، والصدوق بطريقين في التوحيد: ١٤٤ ح ١٠ و ٢٤٥ ح ١، وروى هذا الحديث الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٣٢، لكن لا توجد فيه هذه القطعة.

وقيل للباقر عليه السلام: «يزعم قوم من أهل العراق أنّه يسمع بغير الّذي يبصر، ويبصر بغير الّذي يسمع، فقال عليه السلام: كذبوا وألحدوا وشبّهوا؛ تعالى الله عن ذلك إنّه سميع بصير؛ يسمع بما يبصر، ويبصر بما يسمع»(١).

وكلامه عليه السلام ككلام عترته عليهم السلام ردّ على الصفاتيّة الّذين يقال لهم اليوم الأشعرية.

قال الشهرستاني في ملله: اعلم أنّ جماعة كثيرة من السّلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزليّة من العلم والقدرة، والحياة والإرادة، والسمع والبصر، والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام، والعزّة والعظمة، ولا يفرّقون بين صفات الذات وصفات الفعل، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً، وكذلك يثبتون صفات خبريّة مثل اليدين والوجه، ولا يؤوّلون ذلك، إلّا أنّهم يقولون هذه الصفات قد وردت في الشرع فنسّميها صفات خبريّة؛ ولمّا كانت المعتزلة ينفون الصفات والسلف يثبتون سمّي السلف صفاتيّة، والمعتزلة معطّلة، فبالغ بعض السلف في إثبات الصفات إلى حدّ التّشبيه بصفات المحدثات، واقتصر بعضهم على صفات دلّت الافعال عليها؛ وما ورد به الخبر فافترقوا فيه فرقتين: منهم من أوّله على وجه يحتمل اللّفظ ذلك، ومنهم من توقّف في التأويل... ثمّ ان جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف، فقالوا: لابدّ من اجرائها على ظاهرها والقول بتفسيرها كما وردت، من غير تعرّض للتأويل ولا توقّف في الظاهر. فوقعوا في التشبيه الصرف... أمّا السّلف الّذين لم يتعرّضوا للتّأويل ولا تهدّفوا للتشبيه، فمنهم مالك بن أنس، إذ قال: الاستواء معلوم، والكيفيّة مجهولة، والايمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. ومثل أحمد بن حنبل وسفيان الثوري وداود بن علي الاصفهاني ومن

---

(١) أخرجه ضمن حديث الكليني في الكافي ١: ١٠٨ ح ١، والصدوق في التوحيد: ١٤٤ ح ٩.

تابعهم، حتّى انتهى الزّمان الى عبدالله بن سعيد الكلابي، وأبي العباس القلانسي، والحرث بن أسد المحاسبي.

وهؤلاء كانوا من جملة السلف أنّهم باشروا علم الكلام وأيّدوا عقائد السلف بحجج كلاميّة وبراهين أُصولية وصنّف بعضهم ودرّس بعض، حتّى جرى بين أبي الحسن الأشعري واستاذه مناظرة في مسألة من مسائل الصّلاح والأصلح، فتخاصما، وانحاز الأشعري الى هذه الطائفة، فأيّد مقالتهم بمناهج كلاميّة، وصار ذلك مذهباً لأهل السّنة والجماعة، وانتقلت سمة الصفاتيّة الى الأشعرية، ولمّا كانت المشبهة والكرامية من مثبتي الصفات عددناهم فرقتين من جملة الصّفاتية»[1].

«ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه» هكذا في النسخ[2]، ولا يبعد أن يكون وقع تحريف، وأنّ الأصل (ومن قرنه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد ثنّاه)، فإنّ القول بتثنيته أشنع من القول بتجزيته، فبطلان القول بالتثنية مسلّم عند جميع فرق المسلمين، بخلاف القول بتجزيته، فيدين به المشبّهة منهم والمجسمة.

«ومن قال فيم» كمن قال: إنّه في السماء.

«فقد ضمّنه» أي: جعله في ضمن شيء.

«ومن قال علام» كمن قال إنّه على العرش.

«فقد أخلى منه» أي: غير ذلك الشيء الّذي قال هو عليه، كالكرسيّ مثلاً وغيره؛ قال ابن أبي العوجاء للصادق عليه السلام: أليس اذا كان في السماء كيف يكون في الأرض، وإذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟ فقال عليه السلام: إنّما

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١: ٨٤.

(٢) كذا في نهج البلاغة ١: ١٥، وشرح ابن أبي الحديد ١: ٢٢، وشرح ابن ميثم ١: ١٠٦.

وصفت المخلوق الّذي إذا انتقل عن مكان اشتغل به مكان وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الّذي صار اليه ما يحدث في المكان الذي كان فيه، فأمّا اللّه العظيم الشأن الملك الديّان، فلا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان[1].

هذا، وروى (الإرشاد) هذه الفقرات عن الزهري وعيسى بن زيد عن صالح ابن كيسان عنه عليه السلام هكذا: «أوّل عبادة الله معرفته، وأصل معرفته توحيده، ونظام توحيده نفي التشبيه عنه، جلّ عن أن تحلّه الصّفات بشهادة العقول أنّ كلّ من حلّته الصفات مصنوع، وشهادة العقول أنّه جلّ جلاله ليس بمصنوع؛ بصنع اللّه يُستدلّ عليه وبالعقول تُعتقد معرفته، وبالنظر تثبت حجّته؛ جعل الخلق دليلاً عليه، فكشف به عن ربوبيّته؛ هو الواحد الفرد في أزليته، لا شريك له في إلهيّته، ولا ندّ له في ربوبيّته، بمضادّته بين الأشياء المتضادّة علم أن لا ضدّ له، وبمقارنته بين الأُمور المقترنة علم أن لا قرين له»[2].

وروى (العيون والتوحيد وأمالي المفيد وأمالي الشيخ) عن الرضا عليه السلام خطبة في المعنى وهي: «أوّل عبادة الله معرفته، وأصل معرفة الله توحيده، ونظام توحيد الله نفي الصفات عنه، لشهادة العقول أنّ كلّ صفة وموصوف مخلوق، وشهادة كلّ موصوف أنّ له خالقاً ليس بصفة ولا موصوف، وشهادة كلّ صفة وموصوف بالاقتران، وشهادة الاقتران بالحدوث،

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١٢٦ ح ٣، والصدوق في التوحيد: ٢٥٤ ح ٤، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٣٥ ضمن حديث طويل، وأخرج الحديث الصدوق في العلل ٢: ٤٠٤ ح ٤ والامالي: ٤٩٣ ح ٤ المجلس (٩٠)، والمفيد في الارشاد: ٢٨٠، والكراجكي في الكنز: ٢٢٠، لكن ليس في رواية العلل وما بعدها هذه القطعة.

(٢) الارشاد للمفيد: ١١٩.

وشهادة الحدوث بالامتناع من الأزل الممتنع من الحدوث...»[١].

٣
من الخطبة (١)

بعدما مرّ:

كائنٌ لا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لاعَنْ عَدَم، مَع كلِّ شَيءٍ لابِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كلِّ شَيءٍ لا بِمُزَايَلَةٍ؛ فَاعِلٌ لا بِمَعْنَى ٱلْحَرَكاتِ وَٱلآلَـةِ، بَـصِيرٌ إِذْ لا مَنْظُورَ إِلَيهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ، وَلا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ. أَنْشَأَ ٱلْخَلْقَ إِنْشَاءً، وَٱبْتَدَأَهُ ٱبْتِدَاءً، بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَها، وَلَاتَجرِبَةٍ ٱسْتَفَادَها، وَلَاحَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا، وَلاهَمَامَةِ نَفْسٍ ٱضْـطَرَبَ فِـيها. أَحَـالَ ٱلْأَشْيَاءَ لِأَوْقاتِها، وَلَاءَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِها، وَغَرَّزَ غَـرَائِـزَها، وَأَلْـزَمَها أَشْباحَها، عَالِماً بِهَا قَبْلَ ٱبْتِدَائِهَا، مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وَٱنْـتِهائهَا، عَـارِفاً بِقَرَائنِهَا وأَحْنَائها.

«كائن لا عن حدث» لأنّه مكوّن المحدثات.

«موجود لا عن عدم» لأنّه موجِد المعدومات.

«مع كلّ شيء لا بمقارنة» قال تعالى: ﴿... ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا خمسة إلّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أين ما كانوا...﴾[٢].

«وغير كلّ شيء لا بمزايلة» ﴿... ليس كمثله شيء...﴾[٣].

«فاعل لا بمعنى الحركات والآلة» ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له

---

(١) أخرجه الصدوق في العيون ١: ١٢٣ ح٥١، والتوحيد: ٣٤ ح٢، والمفيد في أماليه: ٢٥٣ ح٤ المجلس (٣٠)، وأبو علي الطوسي في أماليه ١: ٢٢ المجلس (١).

(٢) المجادلة: ٧.

(٣) الشورى: ١١.

كن فيكون﴾[١].

«بصير إذ لا منظور إليه من خلقه» إذ البصيريّة من صفات ذاته تعالى كالسّميعية والعالميّة، والقدرة لا من صفات الفعل حتّى يستلزم أن يكون منظوراً إليه؛ قال الصادق عليه السلام: «لم يزل الله تعالى ربّنا، والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور، فلمّا أحدث الأشياء وكان المعلوم، وقع العلم منه على المعلوم، والسمع على المسموع، والبصر على المبصر، والقدرة على المقدور»[٢].

«متوحّد إذ لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده» إذ التوحيد من صفات ذاته، والاستيناس والاستيحاش من صفات خلقه.

«أنشأ الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً» ومعنى الإنشاء: أنّه تعالى أوجد الخلق لا من مادّة، ومعنى الابتداء: أنّه أوجدهم لا لتحصل له فائدة؛ فعن الرضا عليه السلام في ما أملى في (التوحيد) على محمّد بن زيد: «الحمد لله فاطر الأشياء إنشاءً، ومبتدعها ابتداءً بقدرته وحكمته، لا من شيء فيبطل الاختراع، ولا لعلّة فلا يصحّ الابتداع؛ خلق ما شاء كيف شاء»[٣].

«بلا رويّة» في (الصحاح): الرّويّة التفكّر في الأمر[٤].

«أجالها» أي: أدارها؛ والأصل فيه الجَوَلان.

«ولا تجربة استفادها» كالبشر في أُموره.

«ولا حركة أحدثها» كما يفعل من يريد الاتيان بعمل.

---

(١) يس: ٨٢.

(٢) أخرجه ضمن حديث الكليني في الكافي ١: ١٠٧ ح١، والصدوق في التوحيد: ١٣٩ ح١، وباختصار أبو علي الطوسي في أماليه ١: ١٧٠، المجلس (٦).

(٣) أخرجه ضمن حديث الصدوق في التوحيد: ٩٨، وعلل الشرائع ١: ٩ ح٣.

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٦: ٢٣٦٤ مادة (روى).

«ولا هامة» قال ابن أبي الحديد: إنّ الهمامة اصطلاح للثّنويّة. وفي كتاب (المقالات): إنّ همامة من النّور، وهمامة من الظلمة، أي: قطعة منهما؛ غيّرتا أوّلاً ثم تقارنتا، حتّى ابتُني منهما هذا العالم المحسوس، وإنّ أمير المؤمنين عليه السلام ردّ عليهم في اصطلاحهم، وليست بلفظة عربيّة[١].

قلت: إنّ ابن أبي الحديد لا يراجع غير (الصحاح)، وحيث لم يذكرها، جعل اللّفظة غير عربيّة؛ وهو غلط، فتفهم عربيّتها من كلامه عليه السلام ككلام غيره من العرب، وذكرها (القاموس واللّسان)، لكن جعلاها مصدراً من الـ(هِمّ) بالكسر بمعنى: الشيخ الفاني.

قال الأوّل: والهِمّ والهِمّة بكسرهما: الشيخ الفاني، وقد أهمّ. جمع الهِمّ: أهمام، وهي همّة، وجمعها: همّات وهمائم، والمصدر الهمومة والهمامة[٢].

وقال الثاني: والهِم بالكسر الشيخُ الكبير البالي، والأُنثى همّة بيّنة الهمامة، والمصدر: الهمومة والهمامة، وقد انهمّ؛ وقد يكون الهمّ والهمّة من الابل، قال: وناب همّة لا خير فيها[٣].

والصواب أن يقال: إنّه يجيء مصدراً من فعل الهّم الذي قالا، وإن اختلفا فيه، مع كونه على خلاف القياس من أهمّ كان أو انهمّ؛ ويجيء مصدراً من هممت بالشيء إذا قصدته، كما في كلامه عليه السلام، وهو على القياس.

وبالجملة، هل كتبوا اللغة إلّا من موارد استعمال العرب، وفي ما كتبوا نواقص، ولمن كتب أوهام، حتّى مثل الأصمعيّ الّذي كان من أئمتهم فله

(١) يوجد هذا المعنى في شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٧، وكتاب المقالات يبدو انه للكعبي، وثمة كتب كثيرة بهذا الاسم لا تحصى، ونقل الشهرستاني قريباً من هذه المقالة عن المرقيونية من الثنوية في الملل والنحل ١: ٢٣٣.

(٢) القاموس المحيط ٤: ١٩٢ مادة (همم).

(٣) لسان العرب ١٢: ٦٢١ مادة (همم).

أغلاط واضحة، ومنها في أرعد وأبرق[١]، و(للصحاح) أوهام فاضحة، ومنها في قوله: العِلق بالكسر النفيس من كلّ شيء، يقال: علق مضنّة[٢].

ومن الغريب أنّ ابن أبي الحديد يغلّط يعرب بن قحطان إذا رأى في كلامه شيئاً على خلاف قول (الصحاح)، ومنه إنكاره كون الهمامة عربيّة لعدم ذكر (الصحاح) لها، مع أنّ (الصحاح)، وإن لم يذكر اللّفظة، إلّا أنّه قال: يقال: أهمّني الأمر، إذا أقلقك وحزنك[٣]. فلِمَ لم يجعلها مشتقّة منه، كما يشهد له المقام ونفس الكلام؟

«نفس اضطر فيها» فإنّ كلّ ذلك من صفات الخلق[٤].

«ولاءَم بين مختلفاتها» قال النظام: الدّليل على الصانع: أنّا رأينا أشياء متضادّة من شأنها التنافي والتباين والتفاسد مجموعة، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة المجتمعة في كلّ حيوان وفي أكثر سائر الأجسام، فعلمنا أنّ جامعها قسرها على الاجتماع، ولولا ذلك لتباينت وتفاسدت، ولو جاز أن تجتمع المتضادات المتنافرات وتتقاوم من غير جامع جمعها لجاز أن يجتمع الماء والنار، ويتقاوما من ذاتهما بغير جامع مدبّر مقيم يقيمها، وهذا محال لا يتوهّم؛ وفي اجتماعها دليل على حدوثها لأنّها لا يجوز عليها الانفراد، فإذا كانت لا توجد إلّا مجتمعة بطل أن توجد كذلك إلّا بجامع جمعها، صحّ أنّه قبلها، وأنّها لم توجد إلّا حين ابتدعها مجتمعة، ولو وجدت قبل ذلك لم يوجد إلّا على أحد وجهين: إمّا أن يكون كلّ واحد منها منفرداً، وهذا محال، أو تكون مجتمعة لا جامع لها، وهذا أيضاً محال، فقد صحّ أنّها ابتدعت،

---

(١) نقل قول الأصمعي في لسان العرب ٣: ١٨٠، مادة (رعد).

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٤: ١٥٣٠، مادة (علق).

(٣) صحاح اللغة للجوهري ٥: ٢٠٦١، مادة (همم).

(٤) لم يتعرض الشارح لشرح فقرة: «أحال الأشياء لأوقاتها».

وأنّ الذي جمعها كان موجوداً قبلها[١].

وفي حديث الديصاني ـ وكان من الزنادقة ـ مع الصادق عليه السلام: دلّني على معبودي ولا تسألني عن اسمي ـ وكان اسمه عبدالله ـ فقال عليه السلام له: اجلس واذا غلام له صغير في كفّه بيضة يلعب بها، فقال عليه السلام: يا غلام ناولني البيضة. فناوله، فقال عليه السلام: يا ديصاني هذا حصن مكنون له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة، وفضّة ذائبة؛ فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضّة الذائبة، ولا الفضّة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، فهي على حالها لم يخرج منها خارج مصلح، فيخبر عن صلاحها، ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها، لا يدرى أللذكر خلقت أم للأُنثى؛ تنفلق عن مثل ألوان الطواويس. أترى لها مدبّراً؟ فأطرق ملياً، ثمّ قال: أشهد ألّا إله إلّا الله[٢].

وقد كشف العلم الجديد أنّ الماء مركّب من جزأين قتّالين[٣]، وبتركيبهما صارا حياة لكلّ ذي روح.

«وغرّز غرائزها» وهب لكلّ ذي طبيعة من نوع الإنسان وأجناس الحيوان وأصناف الطيور، وأقسام الوحوش، وصنوف الحيتان طبيعتها.

«وألزمها أشباحها» هكذا في (المصرية وابن أبي الحديد)[٤]، ولكن في (ابن ميثم) «أسناخها»[٥].

---

(١) نقله عنه الكراجكي في كنز الفوائد: ٨٦.

(٢) أخرجه باختلاف يسير الكليني في الكافي ١: ٧٩ ح ٤، والصدوق في التوحيد: ١٢٣ ح ١ والطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٣٢.

(٣) هما غاز الاوكسجين والهيدروجين: وقوله «قتّالين» غريب. خصوصاً في مورد الاوكسجين، لأنّه مادة تجتذبها الرئة وعليها تتوقف الحياة.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٥.

(٥) في شرح ابن ميثم ١: ١٣١ «أشباحها» أيضاً.

جعل كلّ نطفة مبدأً لدابّة وطير وسابح، وكلّ بذر منشأً لنبات وشجر.

«عالماً بها قبل ابتدائها» فإنّه لو لم يكن عالماً بها قبل ابتدائها لما قدر على ابتدائها، وحيث إنّ علمه من صفات ذاته، فعلمه بها قبلها كعلمه بها بعدها؛ وأمّا البشر فقد يعمل عملاً فيجد أثراً فيه بدون علمه بترتبه.

«محيطاً بحدودها، وانتهائها» جعل لكلّ شيء حدّاً وانتهاءً لا يتجاوزه، فلنشو الانسان والحيوان والشجر والنبات حدّ تنتهي إليه ﴿إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر﴾[1].

«عارفاً بقرائنها» أي: ما يوافقها فيقرنها.

«وأحنائها» في الصحاح: الحِنو بالكسر: واحد أحناه، السّرج والقتب؛ وحنو كلّ شيء أيضاً اعوجاجه، ومنه حنو الجبل[2].

هذا، وقال المجلسي في شرح قوله عليه السلام: «عارفاً بقرائنها وأحنائها»: إنّه يدلّ على جواز اطلاق العارف عليه تعالى، ومنعه بعضهم[3].

قلت: إنّما يفهم منه جواز إطلاق عارف مقيّد لا مطلق.

٤
من الخطبة (٤٩)

ومن خطبة له عليه السلام:

اَلحَمْدُ للّهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيّاتِ الأُمُورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلى عَيْنِ البَصِيرِ؛ فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ. سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ

(١) القمر: ٤٩.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٦: ٢٣٢١ مادة (حنو).

(٣) بحار الأنوار ٥٧: ١٨١.

أَقْرَبُ مِنْهُ؛ فَلَا ٱسْتِعْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي ٱلْمَكَانِ بِهِ. لَمْ يُطْلِعِ العُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ؛ فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الوُجُودِ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي ٱلْجُحُودِ، تَعَالَى ٱللّهُ عَمَّا يَقُولُهُ المُشَبِّهُونَ بِهِ وَالجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبِيراً.

«الحمد لله الذي بطن خفيّات الأُمور» أي: صار باطناً لها حتّى كأنّها ظاهرة بالنسبة إليه تعالى ، كما قال عليه السلام في كلام له آخر: «كلّ باطن غيره ظاهر»[١] وذلك لإمكان درك ذاتها، واستحالة ذلك في حقّه تعالى.

وقال ابن أبي الحديد وتبعه ابن ميثم والخوئي[٢]: معنى قوله عليه السلام: «بطن خفيّات الأُمور» علم بالبواطن والخفيّات، وهو كما ترى، مع أنّه يأباه قوله عليه السلام بعد.

«ودلت عليه أعلام الظهور» فإنّه دالّ على أنّ كنهه تعالى وإن كان أخفى الأُمور إلّا أنّ وجوده تعالى أجلى الأشياء، وفي غاية الظهور لكثرة شواهده، وتوفّر أدلّته: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحق أولم يكفِ بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد﴾[٣].

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد[٤]

«وامتنع على عين البصير» أن تبصره وتراه؛ وعن عاصم بن حميد: ذاكرت الصادق عليه السلام في ما يروون من الرّؤية، فقال: الشّمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش،

---

(١) لفظ الفقرة: «وكل باطن غيره غير ظاهر» كما في نهج البلاغة ١: ١١٢ الخطبة (٦٣)، وشرح ابن أبي الحديد ١: ٤٧١، وشرح ابن ميثم ٢: ١٦٧، والفرق كثير.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٩٢، وشرح ابن ميثم ٢: ١٢٧، وشرح الخوئي ٢: ٧٨.

(٣) فصلت: ٥٣.

(٤) أورده ابن أبي الحديد في شرحه ٢: ١٤٤.

والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور الستر؛ فإن كانوا صادقين فليملؤوا أعينهم من الشمس، ليس دونها سحاب[(١)].

وقال المفيد: لا يصحّ رؤية الباري سبحانه بالأبصار، وبذلك شهد العقل، ونطق القرآن، وتواتر الخبر عن أئمة الهدى عليهم السلام من آل محمّد صلى الله عليه وآله، وعليه جمهور أهل الامامة وعامّة متكلّميهم، إلّا من شذّ منهم لشبهة عرضت له في تأويل الأخبار[(٢)].

«فلا عين من لم يره تنكره، ولا قلب من أثبته يبصره» قال ابن أبي الحديد: وقد روي هذا الكلام على وجه آخر، قالوا في الخطبة: «فلا قلب من لم يره ينكره، ولا عين من أثبته تبصره»[(٣)].

قلت: هو أنسب جدّاً؛ فالإنكار ينسب الى القلب، والإبصار الى العين، والأوّل عكسه، ولا يصحّ إلّا بتأوّل؛ دخل رجل من الخوارج على الباقر عليه السلام وقال له: أي شيء تعبد؟ قال: الله تعالى. قال: أرأيته؟ قال: بلى، ولكن لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان. لا يُعرف بالقياس، ولا يُدرك بالحواس، ولا يُشبّه بالناس؛ موصوف بالآيات، معروف بالعلامات. لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلّا هو. فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته[(٤)].

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٩٨ ح٧، والصدوق في التوحيد: ١٠٨ ح٣.

(٢) أوائل المقالات للمفيد: ٦٢.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٩٢.

(٤) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٩٧ ح ٥، والصدوق في التوحيد: ١٠٨ ح ٥، والأمالي: ٢٢٩ ح ٤ المجلس (٤٧)، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٢١ عن الباقر عليه السلام، ورواه الاربلي في كشف الغمة ٢: ٤١٨ متردداً عن الباقر أو الصادق عليهما السلام. وروي هذا المعنى عن علي والصادق عليهما السلام كما يأتي في تحقيق حديث ذعلب في شرح الخطبة (١٧٧).

«سبق في العلوّ» لكونه خالقاً.

«فلا شيء أعلى منه» لأنّ كلّ شيء مخلوق له تعالى.

«وقرب في الدنوّ فلا شيء أقرب منه» حتّى إنّ المحتضر مع قرب أقاربه منه ـ ذاك الحين ـ واجتماعهم حوله، هو تعالى أقرب إليه منهم، حتّى يتوفى تعالى نفسه: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم* وأنتم حينئذٍ تنظرون* ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون﴾[١]، وحتّى إنّ الأجزاء الباطنية للإنسان مع كونها في غاية القرب من صاحبها هو تعالى أقرب إليه منها: ﴿... ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٢]، ﴿... يحول بين المرء وقلبه...﴾[٣].

«فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه» كما باعد استعلاء السماءِ على الأرض السماءَ عن الأرض.

«ولا قربه ساواهم في المكان به» كما ساوى قرب نفرين جارين بينهما في المكان، لأنّ استعلاءه وقربه ليس كاستعلاء بعض الخلق على بعض، وكقرب بعضهم من بعض.

«لم يُطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته» قال الصادق عليه السلام للمفضّل بن عمرو: إنّ العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار، ولا يعرفه بما يوجب له الإحاطة بصفته. فإن قالوا: فكيف يكلّف العبد الضعيف معرفته بالعقل اللّطيف، ولا يحيط به؟ قيل لهم: إنّما كلّف العباد من ذلك في ما طاقتهم أن يبلغوه، وهو أن يوقنوا به ويقفوا عند أمره ونهيه، ولم يكلّفوا الإحاطة بصفته، كما أنّ الملك لا يكلّف رعيته أن يعلموا أطويل هو أم

العنوان (٢٣) من هذا الفصل.

(١) الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥.

(٢) ق: ١٦.

(٣) الأنفال: ٢٤.

قصير، أبيض هو أم أسمر، وإنّما يكلّفهم الإذعان لسلطانه والانتهاء إلى أمره؛ ألا ترى أنّ رجلاً لو أتى الى باب الملك وقال: اعرض عليّ نفسك حتّى أتقصّى معرفتك، وإلّا لم أسمع لك كان قد أحلّ نفسه بالعقوبة؟ فكذا القائل: إنّه لا يقرّ بالخالق سبحانه حتّى يحيط بكنهه متعرّضاً لسخطه[1].

«فهو الّذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود» هو نظير قوله عليه السلام في ما يأتي: «المتجلّي لخلقه بخلقه، والظاهر لقلوبهم بحجّته»[2].

مناظرة ابن أبي العوجاء مع الصادق عليه السلام:

قال أبو منصور المتطبّب: أخبرني رجل من أصحابي، قال: كنت أنا وابن أبي العوجاء وعبدالله بن المقفّع في المسجد الحرام، فقال ابن المقفّع: ترون هذا الخلق ـ وأومأ بيده إلى موضع الطواف ـ ما منهم أحد أُوجب له اسم الإنسانية إلّا ذلك الشيخ الجالس ـ يعني: أبا عبدالله جعفر بن محمّد عليه السلام ـ فأمّا الباقون فرعاع وبهائم. فقال له ابن أبي العوجاء: وكيف أُوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟ قال: لأنّي رأيت عنده ما لم أره عندهم. قال: فقال له ابن أبي العوجاء: لابدّ من اختبار ما قلت فيه منه. فقال له ابن المقفّع: لا تفعل، فإنّي أخاف أن يفسد عليك ما في يدك. فقال: ليس ذا رأيك، ولكن تخاف أن يضعف رأيك عندي في إجلالك إيّاه المحلّ الّذي وصفت. فقال ابن المقفّع: أمّا إذا توهّمت عليّ هذا، فقم إليه وتحفّظ ما استطعت من الزلل، ولا تثنِ عنانك إلى استرسال فيسلمك إلى عقال، وسمه مالك أو عليك.

قال: فقام ابن أبي العوجاء وبقيت أنا وابن المقفّع جالسين، فلمّا رجع

---

(١) توحيد المفضل: ١٧٧.

(٢) نهج البلاغة ١: ٢٠٦ الخطبة (١٠٦). ويأتي في العنوان (١٥) من هذا الفصل.

الينا ابن أبي العوجاء، قال: ويلك يا ابن المقفّع! ما هذا ببشر، وإن كان في الدنيا روحاني يتجسّد إذا شاء ظاهراً، ويتروّح إذا شاء باطناً، فهو هذا. فقال له: وكيف ذلك؟ قال: جلست إليه، فلمّا لم يبق عنده غيري ابتدأني، فقال: إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء ـ يعني أهل الطواف ـ وهو على ما يقولون فقد سلموا وعطبتم، وإن يكن الأمر على ما تقولون، وليس كما تقولون، فقد استويتم وهم. فقلت له: يرحمك الله، وأيّ شيء نقول، وأي شيء يقولون؟ ما قولي وقولهم إلّا واحد. فقال: وكيف يكون قولك وقولهم واحداً وهم يقولون: إنّ لهم معاداً، وثواباً وعقاباً، ويدينون بأنّ في السماء إلهاً وأنّها عمران؛ وأنتم تزعمون أنّ السماء خراب ليس فيها أحد؟ قال: فاغتنمتها منه، فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما يقولون أن يظهر لخلقه، ويدعوهم الى عبادته حتّى لا يختلف منهم اثنان؟ ولِمَ احتجب عنهم، وأرسل اليهم الرسل، ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الايمان به؟ فقال لي: ويلك، وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك: نشوءَك ولم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوّتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوّتك، وسقمك بعد صحّتك، وصحتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حزنك، وحبّك بعد بغضك، وبغضك بعد حبّك، وعزمك بعد أناتك، وأناتك بعد عزمك، وشهوتك بعد كراهتك، وكراهتك بعد شهوتك، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاءَك بعد يأسك، ويأسك بعد رجائك، وخاطِرَك بما لم يكن في وهمك، وعزوب ما أنت معتقده عن ذهنك. ومازال يعدّد عليّ قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتّى ظننت: أنّه سيظهر في ما بيني وبينه[1].

ومن الشواهد على ما ذكره عليه السلام من إقرار قلب ذي الجحود: أنّ كلّ

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٧٤ ح ٢، والصدوق في التوحيد: ١٢٥ ح ٤.

جاحد إذا انقطع رجاؤه عن الأسباب الظاهرية، وصار إلى الاضطرار يتوجّه إلى مبدئه بلا اختيار: ﴿... فطرة الله التي فطر الناس عليها...﴾[(١)]، ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلمّا نجّاهم الى البرّ إذا هم يشركون﴾[(٢)].

وحتّى إنّ عمرو بن العاص الّذي عادى النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أن فتح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مكّة فاستسلم ولم يسلم وأسرّ كفره، ثمّ عادى أمير المؤمنين عليه السلام إلى شهادته، كان مقرّاً بأنّ ما قدّر الله تعالى يقع، ولو على خلاف الأسباب الظاهرية؛ ففي (صفين نصر) أنّ معاوية لمّا أعطى عمرو بن العاص مصر ليعينه على أمير المؤمنين عليه السلام وكتب له كتاباً، وكتب فيه: على أن لا ينقض شرط طاعة، وكتب عمرو: على أن لا تنقض طاعة شرطاً، وكايد كلّ واحد منهما صاحبه، وكان مع عمرو ابن عمّ له فتى شاب، وكان داهياً حليماً، فلمّا جاء عمرو بالكتاب مسروراً عجب الفتى، وقال: ألا تخبرني يا عمرو بأيّ رأي تعيش في قريش؟ أعطيت دينك ومنّيت دنيا غيرك؛ أرى أهل مصر وهم قتلة عثمان يدفعونها إلى معاوية وعليّ حيّ، وتراها إن صارت الى معاوية لا يأخذها بالحرف الّذي قدّمه في الكتاب؟ فقال له عمرو: يابن الأخ إنّ الأمر لله دون عليّ ومعاوية...[(٣)].

«تعالى الله عمّا يقول المشبّهون به والجاحدون له علوّاً كبيراً» روي عن إبراهيم بن محمد الخزاز ومحمد بن الحسين أنّهما حكيا للرضا عليه السلام: إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله رأى ربّه في صورة الشاب الموفق في سنّ أبناء ثلاثين سنة ـ إلى أن قال ـ فخرّ ساجداً لله، ثمّ قال: سبحانك ما عرفوك ولا وحّدوك، فمن أجل ذلك وصفوك ـ إلى أن قال ـ إن النبيّ صلى الله عليه وآله حين نظر إلى عظمة ربّه كان في هيئة

(١) الروم: ٣٠.

(٢) العنكبوت: ٦٥.

(٣) وقعة صفين: ٤٠.

الشاب الموفّق وسنّ أبناء ثلاثين سنة، يا محمّد! عظم ربّي عزوجل أن يكون في صفة المخلوقين. قال: قلت له: جعلت فداك من كانت رجلاه في خضرة؟ قال: ذاك محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، كان إذا نظر الى ربّه بقلبه جعله في نور مثل نور الحجب حتّى يستبين له ما في الحجب[١].

وروي عن داود الرّقيّ، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزوجل: ﴿...وكان عرشه على الماء...﴾[٢]، فقال: ما يقولون؟ قلت: يقولون: إنّه العرش على الماء، والرّبّ فوقه. فقال: كذبوا، من زعم هذا فقد صيّر الله محمولاً، ووصفه بصفة المخلوق، ولزمه أنّ الشيء الّذي يحمله أقوى منه[٣].

وأمّا قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[٤] فهو من قبيل قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق[٥]

في كون المراد به مجرد الاستيلاء والسّلطة.

هذا، وفي (كامل الجزري): وفي سنة (٣٢٣) خرج توقيع الراضيّ الخليفة بما يقرأ على الحنابلة، ينكر عليهم فعلهم ويوبّخهم باعتقاد التّشبيه وغيره، فمنه: تارة أنكم تزعمون أنّ صورة وجوهكم القبيحة السّمجة على مثال ربّ العالمين، وهيئتكم الرّذلة على هيئته، وتذكرون الكفّ والأصابع والرجلين والنّعلين المذهّبين، والشعر القطط، والصعود الى السماء، والنزول الى الدنيا.

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١٠٠ ح ٣، والصدوق في التوحيد: ١١٣ ح ١٣ ضمن حديث طويل. وأخرج معناه أيضاً الكليني في الكافي ١: ١٠٦ ح ٨، والصدوق في التوحيد: ١٧ ح ١.

(٢) هود: ٧.

(٣) أخرجه ضمن حديث الكليني في الكافي ١: ١٣٢ ح ٧، والصدوق في التوحيد: ٣١٩ ح ١.

(٤) طه: ٥.

(٥) أورده لسان العرب ١٤: ٤١٤ مادة (سوا).

تبارك الله عمّا يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً...»[١].

قلت: والأصل في زعمهم قول النبي صلّى الله عليه وآله: فإنّ الله تعالى خلق آدم على صورته[٢]، والضمير في (صورته) راجع الى رجل سبّه من قال النبي صلّى الله عليه وآله له ذلك، فتوهموا رجوعه إلى (الله)؛ روى (العيون) عن الحسين بن خالد قال: قلت للرضا عليه السلام: يابن رسول الله! إنّ الناس يروون أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: إنّ الله خلق آدم على صورته. فقال: قاتلهم الله لقد حذفوا أوّل الحديث: إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله مرّ برجلين يتسابّان، فسمع أحدهما يقول لصاحبه قبّح الله وجهك، ووجه من يشبهك. فقال صلّى الله عليه وآله له: يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك، فإنّ الله تعالى خلق آدم على صورته[٣].

وفي (الكامل) أيضاً في سنة (٤٥٨): ذكر أنّ فيه توفي أبو يعلى الحنبلي مصنّف كتاب (الصفات)؛ أتى فيه بكلّ عجيبة، وفيه التجسيم، وكان ابن تميم

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨: ٣٠٨، سنة (٣٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤: ٢١٨٣ ح ٢٨، وأحمد بطريقين في مسنده ٢: ٣١٥، ٣٢٣، والطبراني في السنة، والدارقطني في الصفات عنهما منتخب كنز العمال ١: ١١٣، وأخرج معناه عنه عبد الرزاق في الجامع، وابن عساكر في التاريخ، منتخب كنز العمال ١: ١١٣، وأخرجه ابن قتيبة في تأويل المختلف: ٢٢٠ مجرداً عن ابن عمر بلفظ «ان الله خلق آدم على صورة الرحمن»، ونحو هذا اللفظ أخرج الطبراني عنه كنوز الحقائق ٢: ١٥٩، وروى الكشي اختيار الكشي: ٢٨٤ ح ٥٠٣ عن هشام بن سالم أنّه يقول: «إنّ آدم خلق على مثال الرب»، وروى الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٤٤ ضمن حديث طويل عن الصادق عليه السلام نسبة التمسك بهذا الحديث الى أصحاب التناسخ، وجاء ما يشبه هذا الحديث في التوراة الموجودة، العهد العتيق ـ سفر التكوين ـ الاصحاح الأول: ٢٦، ٢٧ وفي رسالة بولس الى أهل افسس، العهد الجديد ـ الرسالة المذكورة ـ الاصحاح الرابع: ٢٤، وما نقل من صحف ادريس عليه السلام ابن طاووس في سعد السعود: ٣٢.

(٣) أخرجه الصدوق في العيون ١: ٩٨ ح ١٢، والتوحيد: ١٥٢ ح ١١، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٤١٠ عن الرضا عليه السلام، وروى معناه الصدوق في التوحيد مسنداً: ١٥٢ ح ١٠، وابن قتيبة في تأويل المختلف: ٢١٩، والمرتضى في تنزيه الأنبياء: ١٢٧، وابن خالويه في الاعراب مجرداً: ١٢٩، وجاء في شرح الحديث روايات غير هذه الرواية، منها: ما رواه الصدوق في التوحيد: ١٠٣ ح ١٨، والطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٢٣ عن الباقر عليه السلام.

الحنبلي يقول: لقد خرى أبو يعلى على الحنابلة خرية لا يغسلها ماء[١].

هذا، ونوّع ابن أبي الحديد القول بالتّشبيه من قائليه أحد عشر نوعاً: كونه تعالى جسماً وجوهراً، وذا أعضاء، وذا جهة، وكونه عرضاً، ومحلّاً لشيء آخر، ومتّحداً بغيره، وكونه ذا أعراض ولون، وذا شهوة، ونفرة، وذا تناهٍ، وكونه مرئياً، ونقل في كلّ نوع أباطيل من قائليه، إلّا أنّ في نقله الغثّ والسمين؛ فنسب الى جمع من أجلّة الشيعة أضاليل[٢]، كما نقل ما لاينبغي نقله من ترّهات قصص العامّة، مثل ما نقل عن قاصّ طبري: أنّ في القيامة يخفي الله يزيد بن معاوية تحت قوائم عرشه من فاطمة، ويرغّبها في العفو عنه بإرائته لها قدمه المجروحة من سهم نمرود وعفوه عنه[٣]؛ ونقل عن معاذ العنبري أنّ له جميع الأعضاء حتّى الفرج[٤]. تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

٥
من الخطبة (٦٣)

ومن خطبة له عليه السلام:

اَلْحَمْدُ للّٰهِ اَلَّذِي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً، فَيَكُونَ أَوَّلَا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً، وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً؛ كُلُّ مُسَمّىً بِالْوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ، وكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرَهُ ذَلِيلٌ، وكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرَهُ ضَعِيف، وكُلُّ مَالِكٍ غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ، وكُلُّ عالِمٍ غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ، وكُلُّ قَادِرٍ غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَيَعْجَزُ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ اَلأَصْوَاتِ، وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا،

---

(١) الكامل لابن الأثير ١٠: ٥٢.

(٢) مقصود الشارح هشام بن الحكم وهشام بن سالم ويونس بن عبد الرحمن ومحمد بن النعمان صاحب الطاق والفضل بن شاذان، والنسب التي نسبها اليهم ابن أبي الحديد رواها جمع من مؤلفي الشيعة والسنة، لم يسع المقام لنقل رواياتهم.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٩٥.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٩٤ نقله الشارح بالمعنى.

وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ ٱلْأَلْوَانِ، وَلَطِيفِ ٱلْاجْسَامِ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرَهُ غَيْرُ بَاطِنٍ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرَهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ. لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلا تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ، ولا اسْتِعانَةٍ عَلَى نِدٍّ مُثَاوِرٍ، وَلا شَرِيكٍ مُكَاثِرٍ، ولا ضِدٍّ مُنَافِرٍ، ولَكِنْ خَلاَئِقُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ. لَمْ يَحْلُلْ في الأَشْيَاءِ، فَيُقَال: هُو فِيهَا كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا، فَيُقَالُ: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ. لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ مَا ابْتَدَأَ، ولاَ تدْبِيرُ مَا ذَرَأَ، ولاَ وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ، وَلاَ وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِي ما قَضى وَقَدَّرَ، بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ. اَلْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَم، والمَرْجُوُّ مِنَ النِّعَم.

«الحمد لله» حمده تعالى باعتبار خمسة عشر وصفاً، لا يوصف بواحد منها غيره تعالى:

الأوّل: «الذي لم يسبق له حال حالاً، فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً» وغيره تعالى لا يوصف بالأوّليّة والآخرية في زمان واحد، مثل أوّل سلطنة سلطان وآخرها، وأوّل فاكهة وآخرها، وأمّا هو تعالى ففي كلّ وقت أوّل وآخر؛ وسئل الصادق عليه السلام عن معنى الأول والآخر فيه تعالى، فقال: الأوّل: لا عن أوّل قبله ولا عن بدء سبقه، والآخر: لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين، ولكن قديم أوّل آخر لم يزل ولا يزول بلا بدء ولا نهاية[1].

«ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً» هو أيضاً كسابقه تفريع على قوله: «لم يسبق له حال حالاً» فكما أنّه تعالى في حين آخريته أوّل، كذلك هو في حين باطنيته ظاهر؛ قال تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١١٦ ح٦، والصدوق في التوحيد: ٣١٣ ح١، ومعاني الأخبار: ١٢ ح١ عن ميمون اللبّان عن الصادق عليه السلام.

شيء عليم﴾[١].

وقال الرضاعليه السلام في خبر في أسمائه تعالى: وأمّا الظاهر فليس من أجل أنّه علا الأشياء بركوب فوقها وقعود عليها، وتسنّم لذراها، ولكن ذلك لقهره ولغلبته الأشياء وقدرته عليها، كقول الرّجل: ظهرت على أعدائي، وأظهرني الله على خصمي؛ يخبر عن الفلج والغلبة، فهكذا ظهور الله على الأشياء. ووجه آخر أنّه الظاهر لمن أراده، ولا يخفى عليه شيء، وأنّه مدبّر لكلّ ما برأ، فأيّ ظاهر أظهر وأوضح من الله تعالى؟! لأنك لا تعدم صنعته حيثما توجّهت، وفيك من آثاره ما يغنيك، والظاهر منّا البارز بنفسه، والمعلوم بحدّه. فقد جمعنا الاسم ولم يجمعنا المعنى.

وأمّا الباطن فليس على معنى الاستبطان للأشياء بأن يغور فيها، ولكن ذلك منه على استبطانه للأشياء علماً وحفظاً وتدبيراً، كقول القائل: أبطنته، يعني: خبرته، وعلمت مكتوم سرّه. والباطن منّا الغائب في الشيء المستتر، فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى[٢].

الثاني: «كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل» في وحدته؛ روى الفتح بن يزيد عن الرضاعليه السلام في خبر: فالإنسان واحد في الاسم لا واحد في المعنى، والله تعالى واحد لا واحد غيره، ولا اختلاف فيه ولا تفاوت، ولا زيادة ولا نقصان؛ فأمّا الإنسان المخلوق المصنوع المؤلّف، فمن أجزاء مختلفة وجواهر شتّى، غير أنّه بالاجتماع شيء واحد[٣].

---

(١) الحديد: ٣.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١٢٠ ح ٢، والصدوق في التوحيد: ١٨٩ ح ٢، والعيون ١: ١٢٢ ح ٥٠، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٩٨.

(٣) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٦٢ ح ١٨ ضمن حديث طويل، وأخرجه أيضاً الكليني في الكافي ١: ١٣٧ ح ٣، لكن ليس في حديث الكافي هذه القطعة.

وفي خبر عن الجوادعليه السلام: فلا يقال: الله مؤتلف ولا الله قليل ولا كثير. ولكنه القديم في ذاته، لأنّ ما سوى الواحد متجزّئ، والله واحد لا متجزّئ، ولا متوهّم بالقلّة والكثرة، وكلّ متجزّئ أو متوهّم بالقلّة والكثرة فهو مخلوق دالّ على خالق له[1].

الثالث: «وكلّ عزيز غيره ذليل» ﴿... أيبتغون عندهم العزّة فإنّ العزّة لله جميعاً﴾[2]. والعزّة في غيره تعالى -وإن كان مجازياً- إلّا أنّها أيضاً بيده، فلا ينالها إلّا من يشاء تعالى: ﴿قل اللّهمّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير﴾[3].

كما أنّه تعالى جعلها بمعنى آخر للمنسوبين إليه ﴿... ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[4] وكلتاهما وإن كانت غير حقيقية، إلّا أنّ الأُولى ظاهرية والثانية باطنيّة.

الرّابع: «وكلّ قوي غيره ضعيف» كيف لا يكون غيره ضعيفاً، والإنسان الّذي سخّر له ما في السماوات والأرض، وقال تعالى فيه: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلا﴾[5] في غاية الضعف، فقال تعالى: ﴿... وخلق الإنسان ضعيفا﴾[6]، وقال عليه السلام: «مسكين ابن آدم مكتوم الأجل، مكنون العلل، محفوظ

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١١٦ ح٧، والصدوق في التوحيد: ١٩٣ ح٧، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٤٤٢.

(٢) النساء: ١٣٩.

(٣) آل عمران: ٢٦.

(٤) المنافقون: ٨.

(٥) الاسراء: ٧٠.

(٦) النساء: ٢٨.

العمل، تؤلمه البقة وتقتله الشرقة، وتنته العرقة»[١].

الخامس: «وكلّ مالك غيره مملوك» هو تعالى ﴿... له ملك السماوات والأرض...﴾[٢]، وغيره ﴿... ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾[٣]، ﴿... وما يملكون من قطمير﴾[٤].

قال الجوهري: القطمير الفوقة التي في النواة، وهي القشرة الرقيقة، ويقال: هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة، تنبتُ منها النخلة[٥].

السادس: «وكلّ عالم غيره متعلّم» وأمّا هو تعالى فعلمه من صفات ذاته.

السابع: «وكلّ قادر غيره يقدر» على أشياء معدودة «ويعجز» عن أشياء غير محصورة، وأمّا هو تعالى فقادر على كلّ أمر غير مستحيل، وأمّا المستحيل كإدخال الدنيا في بيضة مع ابقائهما على حالهما، كما اقترحه جاهل معاند، فخارج عن موضوع القدرة، مع أنّه تعالى فعل نظيره.

قال الديصاني لهشام بن الحكم: ألك ربّ؟ فقال: بلى. قال: أقادر هو؟ قال: نعم، قادر قاهر. قال: يقدر أن يُدخل الدنيا كلّها البيضة لا تكبر البيضة، ولا تصغر الدنيا؟ قال هشام: النظرة. فقال له: قد أنظرتك حولاً. ثمّ خرج عنه، فركب هشام الى الصادق عليه السلام فاستأذن عليه، فأذن له، فقال له: يابن رسول الله! أتاني عبد الله الديصاني بمسألة ليس المعوّل فيها إلّا على الله وعليك، فقال له أبو عبدالله عليه السلام: عن ماذا سألك؟ فقال: قال لي: كيت وكيت. فقال أبو عبدالله عليه السلام: يا هشام! كم حواسّك؟ قال: خمس. قال: أيّها أصغر؟ قال: النّاظر.

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٩٨ الحكمة (٤١٩).

(٢) الفرقان: ٢.

(٣) الفرقان: ٣.

(٤) فاطر: ١٣.

(٥) صحاح اللغة للجوهري ٢: ٧٩٧ مادة (قطمر).

قال: وكم قدر الناظر؟ قال: مثل العدسة أو أقل منها. فقال عليه السلام له: يا هشام! فانظر أمامك وفوقك واخبرني بما ترى. فقال: أرى سماءً وأرضاً ودوراً وقصوراً وبراري وجبالاً وأنهاراً. فقال له أبو عبدالله عليه السلام: إنّ الّذي قدر أن يدخل الّذي تراه العدسة أو أقلّ منها قادر أن يدخل الدنيا كلّها البيضة، لا تصغر الدنيا ولا تكبر البيضة. فأكبّ هشام عليه، وقبّل يديه ورأسه ورجليه وقال: حسبي يابن رسول الله، ورجع إلى الدّيصاني فأجابه. فقال: ليس هذا من عندك[1].

الثامن: «وكلّ سميع غيره يَصَمّ» بالفتح، كناية عن عدم السّماع «عن لطيف الأصوات ويُصِمّه» بالضمّ «كبيرها» وأمّا هو تعالى فيسمع السرّ وأخفى، وهو ما خطر بالقلب[2]، «ويذهب عنه ما بعد منها» بخلافه تعالى؛ فالقرب والبعد عنده سواء، بل ليس عنده قرب ولا بعد.

التاسع: «وكلّ بصير غيره يعمى» كناية عن عدم الرؤية «عن خفي الألوان ولطيف الأجسام» الظاهر سقوط ما يؤدّي معنى قوله عليه السلام في السابق «ويذهب عنه ما بعد منها» فكما يذهب عن كلّ سميع غيره تعالى ما بعد من الأصوات، كذلك يذهب عن كلّ بصير غيره جلّ وعلا ما بعد من الألوان ولو كانت واضحة، والأجسام ولو كانت عظيمة؛ فإنّ السّامعة والباصرة منّا محدودتان، وغاية ما قالوا في القصص التاريخية: إنّ زرقاء اليمامة كانت تبصر الراكب من مسيرة ثلاثة أيّام، وأنّها قالت لقومها جديس ـ لمّا بعث ملك

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٧٩ ح٤، والصدوق في التوحيد ١٢٢ ح١، وحديث البيضة جاء بألفاظ أُخرى، منها: سؤال ابليس عيسى عليه السلام أخرجه الصدوق في التوحيد: ١٢٧ ح٥، ومنها سؤال رجل عليّاً عليه السلام أخرجه بروايتين الصدوق في التوحيد: ١٣٠ ح٩، ١٠، وسؤال رجل الرضا عليه السلام أخرجه الصدوق في التوحيد: ١٣٠ ح١١.

(٢) قول الشارح اشارة الى قوله تعالى: ﴿فانه يعلم السر وأخفى﴾ طه: ٧، وتفسيره بما خطر بالقلب مروي موقوفاً عن علي بن ابراهيم وقتادة والحسن البصري وعكرمة، يجيء تخريجه في العنوان (١٥) من هذا الفصل.

اليمن اليهم لأخذ ثأر طسم منهم، وكانوا خافوا أن تبصرهم فتنذرهم فيستعدّوا ولا يقدروا عليهم، فقطعوا الأشجار وجعل كلّ رجل منهم بين يديه شجرة ـ: أرى أشجاراً تقبل اليكم، وأرى فيها رجلاً معه كتف يأكلها أو نعل يخصفها، ففنّدوها، فصبّحوهم على غرّة وأبادوهم(١).

العاشر: «وكلّ ظاهر غيره غير باطن، وكلّ باطن غيره غير ظاهر» لأنّ الظاهر والباطن في غيره تعالى ضدّان لا يجتمعان بخلافهما فيه جلّ وعلا، كما عرفت معناهما في شرح قولهعليه السلام «ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً»(٢).

الحادي عشر: «لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان» ﴿...وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون* ما أُريد من رزق وما أُريد أن يطعمون﴾(٣) «ولا تخوّف من عواقب زمان» كالملوك في أفعالهم.

وفي (تاريخ الطبري): أنّ المنصور بنى الهاشمية قبالة مدينة ابن هبيرة التي كانت إلى جانب الكوفة، وبنى أيضاً الرّصافة بظهر الكوفة، فلمّا ثارت الراونديّة في هاشميته كره سكناها، لاضطراب من اضطرب أمره عليه من الراونديّة مع قرب جواره من الكوفة، ولم يأمن أهلها على نفسه، فأراد أن يبعدهم من جوارهم، فذكر أنّه خرج بنفسه يرتاد موضعاً يتخذه مسكناً لنفسه وجنده، فبدأ فانحدر إلى جرجرايا، ثمّ صار الى بغداد، ثمّ مضى الى الموصل، ثمّ عاد إلى بغداد، فقال: هذا موضع معسكر صالح، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء، يأتينا فيها كلّ ما في البحر، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك. وهذا الفرات يجيء فيه كلّ شيء من الشام

(١) نقل القصة بطولها الحموي في معجم البلدان ٥: ٤٤٦.

(٢) هي الفقرة الثالثة من هذا العنوان.

(٣) الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧.

والرّقة وما حول ذلك؛ فنزل وضرب عسكره على الصّراط وخطّ المدينة، ووكّل بكلّ ربع قائداً[١].

«ولا استعانة على ندّ» بالكسر: المثل والنظير.

«مثاور» أي: مواثب.

«ولا شريك مكاثر» كأهل الدنيا ﴿اعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد...﴾[٢].

وفي (المروج): كتب ملك الصين الى أنوشيروان: من فغفور ملك الصين صاحب قصر الدرّ والجوهر الّذي يجري في قصره نهران يسقيان العود والكافور الّذي توجد رائحته على فرسخين، والّذي تخدمه بنات ألف ملك، والّذي في مربطه ألف فيل أبيض إلى أخيه كسرى أنوشيروان[٣].

وفيه: وكتب إليه ملك الهند: من ملك الهند وعظيم أراكنة المشرق، وصاحب قصر الذهب، وأبواب الياقوت والدّر إلى أخيه ملك فارس صاحب التاج والراية كسرى أنوشيروان[٤].

«ولا ضدّ منافر» كالسلاطين في استحكاماتهم.

وفي (تاريخ الطبري): قيل للمنصور في ما قيل له في محاسن موضع بغداد ليتّخذه حصناً: وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوّك إلّا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وأخرجت القناطر لم يصل اليك عدوّك... والتّدبير في المدن أن تتّخذ لها الأسوار والخنادق والحصون، ودجلة والفرات

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٣٤ سنة (١٤٥)، ونقلها الشارح بتلخيص.

(٢) الحديد: ٢٠.

(٣) مروج الذهب ١: ٢٩٢.

(٤) مروج الذهب ١: ٢٩٣.

خنادق لمدينتك[١].

«ولكن خلائق مربوبون، وعباد داخرون» بالدّال المهملة، أي: صاغرون ذليلون ﴿...إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد﴾[٢]، فكيف يعمل عملاً لتشديد سلطان أو سائر ما ذكر؟

الثاني عشر: «لم يحلل في الأشياء فيقال: هو فيها كائن، ولم ينأَ» بفتح الهمزة، أي: لم يبعد ولم ينفصل «عنها. فيقال: هو منها بائن» مثلاً لا يقال: إنّه تعالى حلّ في السماء، كما لا يقال: إنّه عزّوجلّ نأى عن الأرض، بل نسبتهما إليه تعالى على السواء ﴿وهو الّذي في السماء إله وفي الأرض إله...﴾[٣].

هذا، و (توحيد الصدوق) روى الثاني عشر قبل الحادي عشر[٤]، والظاهر أصحّيته، فإنّ المناسب أن يكون قوله: «لم يحلل...» بعد قوله «وكلّ باطن غيره غير ظاهر»، كما أنّ المناسب أن يكون الثالث عشر «لم يؤده...» بعد قوله «لم يخلق...» لكونهما من وادٍ واحد.

كما أنّه زاد بعد قوله «بائن»: «ولم يخلُ منها فيقال له: أين، لكنّه سبحانه أحاط بها علمه، وأتقنها صنعه، وأحصاها حفظه» فالظاهر وقوع سقط في النهج لكون الزائد من موضوعه كتقديم وتأخير.

الثالث عشر: «لم يؤده» أي: لم يثقله، من آده الحمل أثقله، أو من آدني هذا الأمر بلغ منّي المجهود. «خلق ما ابتدأ» ﴿... وسع كرسيّه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العليّ العظيم﴾[٥]. «ولا تدبير ما ذرأ» في (الصحاح):

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٣٦ سنة (١٤٥).

(٢) ابراهيم: ١٩.

(٣) الزخرف: ٨٤.

(٤) التوحيد للصدوق: ٤٢، ٤٣ ح٣.

(٥) البقرة: ٢٥٥.

حكى بعضهم ذرأت الأرض، أي: بذرتها، وزرع ذريّ، على فعيل، وأنشد:

شققت القلب ثمّ ذرأت فيه هواك فليم فالتأم الفطور[١]

﴿إنّ الله يمسك السّماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده...﴾[٢]، ﴿... فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين* فقضاهنّ سبع سماواتٍ في يومين وأوحى في كلّ سماء أمرها وزيّنا السماء الدّنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾[٣].

«ولا وقف به عجز عمّا خلق» هكذا في النسخ[٤]، والظاهر وقوع تصحيف؛ فقولك وقف بي الأمر الفلاني عن الشيء الفلاني إنّما يقال اذا لم تفعله، فلابدّ أنّ الأصل (ولا وقف به عجز في ما خلق) أو (ولا وقف به عجز عمّا لم يخلق).

ويشهد له رواية (التوحيد) للخطبة: ولا من عجز، ولا من فترة، بما خلق اكتفى، علم ما خلق وخلق ما علم[٥].

الرابع عشر: «ولا ولجت عليه شبهة في ما قضى وقدّر، بل قضاء متقن، وعلم محكم، وأمر مبرم»؛ وفي (التوحيد): لا بالتفكّر ولا بعلم حادث أصاب ما خلق، ولا شبهة دخلت عليه في ما لم يخلق، لكن قضاء مبرم...[٦].

﴿... قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون* ... فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما

---

(١) صحاح اللغة للجوهري ١: ٥١ مادة (ذرأ).

(٢) فاطر: ٤١.

(٣) فصلت: ١١ ـ ١٢.

(٤) كذا في نهج البلاغة ١: ١١٣، وشرح ابن أبي الحديد ١: ٤٧١، وشرح ابن ميثم ٢: ١٦٨.

(٥) التوحيد للصدوق: ٤٣ ح٣.

(٦) المصدر نفسه.

كنتم تكتمون﴾[١].

الخامس عشر «المأمول مع النّقم والمرجوّ مع النّعم» هكذا في (المصرية)، والصواب: (والمرهوب مع النّعم) كما في (ابن ميثم، وغيره)[٢].

يدلّ على كونه تعالى مأمولاً مع النقم، ومرهوباً مع النّعم ما ورد أنّه تعالى قال لداود عليه السلام: بشّر المذنبين، وانذر الصدّيقين.

قال داود: كيف أُبشّر المذنبين، وأنذر الصديقين؟ قال: يا داود بشّر المذنبين أنّي أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصدّيقين ألّا يعجبوا بأعمالهم، فإنّه ليس عبد أنصبه للحساب إلّا هلك[٣].

هذا، ونقل ابن أبي الحديد[٤] هنا آياتٍ وأبياتاً لا ربط لها بالمقام، كقوله تعالى ﴿...فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾[٥]، وكقول الشاعر:

من عاش لاقى ما يسو ءُ من الأنوار وما يسرّ

٦
من الخطبة (٨٣)

ومن خطبة له عليه السلام:

وَأَشْهَدُ أَنْ لَاإِلهَ إِلَّا ٱللّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. الأَوَّلُ لَاشَيْءَ قَبْلَهُ، وَٱلآخِرُ لَا غَايَةَ لَهُ. لَا تَقَعُ ٱلْأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ، وَلَا تَعْقِدُ ٱلْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ، وَلَا تَنَالُهُ التَّجْزِئَةُ وَالتَّبْعِيضُ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ ٱلْأَبْصَارُ وَٱلْقُلُوبُ.

---

(١) البقرة: ٣٠. ٣٣.

(٢) في شرح ابن ميثم ٢: ١٦٨ «المرجو» أيضاً، لكن في شرح ابن أبي الحديد ١: ٤٧١ «المرهوب»، وليس قبله واو.

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ٢: ٣١٤ ح٨ في ذيل حديث عن الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١: ٤٧٥.

(٥) النساء: ١٩.

«وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له» روى (ثواب الأعمال) عن النبي صلى الله عليه وآله في خبر يقول تعالى: فمن لقيني منكم يشهد ألّا إله إلّا أنا، وأنّ محمّداً عبدي ورسولي أدخلته الجنّة برحمتي[١].

«الأوّل لا شيء قبله، والآخر لا غاية له»، وفي الخطبة (٩٩): «الأوّل قبل كلّ أوّل، والآخر بعد كلّ آخر؛ بأوّليته وجب أن لا أوّل له، وبآخريته وجب أن لا آخر له»[٢]، وفي الخطبة (٩٤): «الحمد لله الأوّل فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظّاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه»[٣]. ومرّ في العنوان (١) من هذا الفصل.

«لا تقع الأوهام له على صفة» في حديث الزنديق مع الصادق عليه السلام: قال الزنديق: فإنّا لم نجد موهوماً إلّا مخلوقاً. قال أبو عبدالله عليه السلام: لو كان ذلك كما تقول لكان التّوحيد عنّا مرتفعاً، لأنّا لم نكلّف أن نعتقد غير موهوم، ولكنّا نقول: كلّ موهوم بالحواسّ مدرك، فما تجده الحواسّ وتمثّله فهو مخلوق، ولابدّ من إثبات صانع الأشياء خارج من الجهتين المذمومتين: إحداهما: النفي، إذ كان النّفي هو الإبطال والعدم، والجهة الثانية: التشبيه، إذ كان التشبيه من صفة المخلوق الظاهر التركيب والتأليف، فلم يكن بدّ من إثبات الصانع لوجود المصنوعين والاضطرار منهم إليه[٤].

«ولا تقعد» هكذا في (المصرية)، والصواب: (ولا تعقد) بتقديم العين، كما في (ابن ميثم) وغيره[٥].

---

(١) أخرجه الصدوق في ثواب الأعمال: ٢٥ ح ٢.

(٢) نهج البلاغة ١: ١٩٤ الخطبة (٩٩).

(٣) نهج البلاغة ١: ١٨٦ الخطبة (٩٤).

(٤) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٢٤٥ ح ١، والكليني في الكافي ١: ٨٠ ح ٥، لكن ليس في حديث الكافي هذه القطعة.

(٥) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٢٠، لكن في شرح ابن ميثم ٢: ٢٧٤ «تقعد» أيضاً.

ومن الغريب أنّ محشّي (المصرية) قرّر الغلط، وقال: إنّه مجاز عن استقرار حكمها[١].

«القلوب منه على كيفيّة» هو ردّ على المشبّهة حيث قالوا: كلّ ما لم تعقد القلوب منه على كيفيّة، ولم ترجع فيه إلى إثبات هيئة لم نعقل منه شيئاً. فردّ عليه السلام عليهم: أنّه واحد بلا كيفيّة، وأنّ القلوب تعرفه بلا إحاطة.

وقال الصادق عليه السلام: من نظر في الله: كيف هو هلك[٢].

«ولا تناله التّجزئة والتّبعيض» وما ورد من مثل ﴿... يد الله فوق أيديهم...﴾[٣] و ﴿... بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء...﴾[٤] فكنايات واستعارات.

«ولا تحيط به الأبصار والقلوب» قال الصادق عليه السلام: يا بن آدم! لو أكل قلبك طائر لم يشبعه، وبصرك لو وضع عليه خرق إبرة لغطّاه، تريد أن تعرف بهما ملكوت السماوات والأرض! إن كنت صادقاً فهذه الشمس خلقٌ من خلق الله، فإن قدرت أن تملأ عينيك منها فهو كما تقول[٥].

هذا، ويناسب كلامه عليه السلام ـ في هذه الخطبة ـ قولُ الهادي عليه السلام: إلهي تاهت أوهام المتوهّمين وقصر طرف الطارفين، وتلاشت أوصاف الواصفين، واضمحلّت أقاويل المبطلين عن الدّرك لعجيب شأنك، أو الوقوع بالبلوغ إلى علوّك؛ فأنت في المكان الّذي لا يتناهى، ولم تقع عليك عيون بإشارة ولا عبارة، هيهات ثمّ هيهات، يا أوّلي يا وحداني يا فرداني، شمخت في العلوّ بعزّ الكبر،

---

(١) المحشي هو الشيخ محمد عبده، كذا قال في ذيل نهج البلاغة ١: ١٤٨.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٩٣ ح ٥، والبرقي في المحاسن: ٢٣٧ ح ٢٠٨.

(٣) الفتح: ١٠.

(٤) المائدة: ٦٤.

(٥) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٩٣ ح ٨، والصدوق في التوحيد: ٤٥٥ ح ٥.

وارتفعت من وراء كلّ غورة ونهاية بجبروت الفخر[1].

٧
من الخطبة (٨٨)

ومن خطبة له عليه السلام:

الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَٱلْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، ٱلَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِماً دَائِماً، إِذْ لَا سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَلَا حُجُبٌ ذَاتُ ارتَاجٍ، وَلَا لَيْلٌ دَاجٍ، وَلاَ بَحْرٌ سَاجٍ، وَلَا جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ، وَلَا فَجٌّ ذُو ٱعْوِجَاجٍ، وَلَا أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ، وَلَا خَلْقٌ ذُو ٱعْتِمَادٍ. ذَلِكَ مُبْتَدِعُ ٱلْخَلْقِ وَوَارِثُهُ، وَإِلَهُ ٱلْخَلْقِ وَرَازِقُهُ، وَالشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ. قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ، وَأَحْصَى آثَارَهُمْ، وَأَعْمَالَهُمْ وَعَدَدَ أَنْفاسِهِمْ، وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، وَمُسْتَقَرَّهُمْ وَ مُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ ٱلأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ ٱلْغَايَاتُ. هُوَ ٱلَّذِي ٱشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَٱتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ. قَاهِرُ مَنْ عَازَّهُ، وَمُدَمِّرُ مَنْ شَاقَّهُ، وَمُذِلُّ مَنْ نَاوَاهُ، وَغَالِبُ مَنْ عَادَاهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ.

«الحمد لله» حمده على أوصاف أوجبت حمده:

الأوّل: «المعروف من غير رؤية» الابصار، بل من رؤية القلوب؛ وأملى الرّضا عليه السلام في (التوحيد): احتجب بغير حجاب محجوب، واستتر بغير ستر مستور، عُرف بغير رؤية، ووُصف بغير صورة، ونُعت بغير جسم، لا إله إلّا

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٦٦ ح١٩.

الله الكبير المتعال[١].

الثاني: «والخالق من غير رويّة» بخلاف باقي الصانعين.

والثالث: «الّذي لم يزل قائماً دائماً» قبل أن يكون خلق.

«إذ لا سماء ذات أبراج» قال في (اللّسان): إنّ الأبراج جمع البرج كالبروج[٢].

قال تعالى: ﴿والسماء ذات البروج﴾[٣]، ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾[٤]، ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيّناها للنّاظرين وحفظناها من كلّ شيطان رجيم* إلّا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾[٥].

والبروج الاثنا عشر معروفة، وعن الفرّاء: اختلفوا في البروج فقالوا: هي النجوم. وقالوا: هي البروج المعروفة اثنا عشر برجاً. وقالوا: هي القصور في السماء. والله أعلم بما أراد[٦].

«ولا حجب» وفي خبر زيد بن وهب: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الحجب. فقال: أوّل الحجب سبعة، غلظ كلّ حجاب مسيرة خمسمائة عام، بين كل حجابين منها مسيرة خمسمائة عام، والحجاب الثالث سبعون حجاباً، بين كلّ حجابين منها مسيرة خمسمائة عام، وطوله خمسمائة عام، حَجَبَة كلّ حجاب منها سبعون ألف ملك قوّة كلّ ملك منهم قوّة الثقلين؛ منها ظلمة، ومنها نور، ومنها نار، ومنها دخان، ومنها سحاب، ومنها برق، ومنها مطر،

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٩٨ ح٥، والعلل ١: ٩ ح٣.

(٢) لسان العرب ٢: ٢١٢ مادة (برج).

(٣) البروج: ١.

(٤) الفرقان: ٦١.

(٥) الحجر: ١٦ ـ ١٨.

(٦) نقله عن الفرّاء لسان العرب ٢: ٢١٢، مادة (برج).

ومنها رعد، ومنها ضوء، ومنها رمل، ومنها جبل، ومنها عجاج، ومنها ماء، ومنها أنهار، وهي حجب مختلفة، غلظ كلّ حجاب مسيرة سبعين ألف عام[١].

«ذات إرتاج» بالكسر بمعنى: الاغلاق.

«ولا ليل داج» في معنى قوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾[٢]. قال الأصمعي: دجا الليل إنّما هو ألبس كلّ شيء، وليس هو من الظلمة، ومنه قولهم: «دجا الإسلام» أي: قوي، وألبس كلّ شيء[٣].

وممّا ذكرنا يظهر لك ما في قول الشرّاح «ليل داج» أي: مظلم[٤].

«ولا بحر ساج» أي: ساكن؛ قال الأعشى:

فما ذنبنا أن جاش بحر ابن عمّكم وبحرك ساجٍ لا يواري الدعامصا[٥]

ومنه أيضاً ﴿والليل اذا سجى﴾[٦] أي: بلغ النهاية في الظلمة فسكن.

«ولا جبل ذو فجاج» فجاج: جمع فج؛ قال تعالى: ﴿... من كلّ فج عميق﴾[٧].

وفي (اللّسان): قال أبو الهيثم: الفجّ الطريق الواسع في الجبل، وكلّ طريق بعد فهو فجّ[٨].

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٢٧٨ ح٢، والخصال ٢: ٤٠١ ح١٠٩ ضمن حديث.

(٢) الليل: ١.

(٣) هذا قول بعض أهل اللغة، قال به ابن الاثير في النهاية ٢: ١٠٢ مادة (دجى)، ونقله ابن منظور عن مجهولٍ في لسان العرب ١٤: ٢٤٩ مادة (دجى)، ولم أرَ من نسبه الى الاصمعي، بل حكى ابن منظور في لسان العرب ١٤: ٢٥٠ عن الأصمعي أنّ (دجى الليل) بمعنى: هدأ وسكن، وذكر شاهده على قوله.

(٤) كذا قال ابن أبي الحديد في شرحه ٢: ١٣٧، والمجلسي في شرح الخطبة في بحار الأنوار ٥٧: ٢٦، والخوئي في شرحه ٣: ٦٨، والنقل بالمعنى.

(٥) أورده لسان العرب ١٤: ٣٧١ مادة (سجا).

(٦) الضحى: ٢.

(٧) الحج: ٢٧.

(٨) لسان العرب ٢: ٣٣٩ مادة (فجج).

وقول بعضهم: الفجّ الطّريق الواسع بين جبلين[١] يأباه قولهعليه‌السلام هذا، فجعلعليه‌السلام لجبل واحد فجاجاً، بل الأصل فيه الطريق الواسع، ولو لم يكن في جبل؛ قال تعالى: ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً* لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾[٢]. وكون الجبل ذا فجّ لا يستلزم أن يكون كلّ فجّ في الجبل، فهو نظير أن تقول: جبل ذو عيون؛ مع حصول العين في غير الجبل.

«ولا فجّ ذو اعوجاج» هو أيضاً لا يستلزم أن يكون الفجّ معوجّاً، وإنّما هو وصف غالبي كسابقه، فإنّ الأغلب في الجبال أن تكون ذات فجاج، كما أنّ الأغلب في الفجاج أن تكون ذات اعوجاج.

«ولا أرض ذات مهاد» ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾[٣]، ﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾[٤]، ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً...﴾[٥]، ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً...﴾[٦].

هذا، ونقل (الهيئة والإسلام)[٧] عن بعضهم الاستدلال بالآية الأخيرة على حركة الأرض لكون المهد يتحرّك بلا اضطراب.

قلت: ومثلها الآية الثالثة.

«ولا خلق ذو اعتماد» قال ابن أبي الحديد: أي ولا مخلوق يسعى برجلين فيعتمد عليهما، أو يطير بجناحيه فيعتمد عليهما، ونحو ذلك؛ والاعتماد هنا

---

(١) هو مختار ابن منظور في لسان العرب ٢: ٣٣٨ مادة (فجج)، وغيره.

(٢) نوح: ١٩ ـ ٢٠.

(٣) النبأ: ٦.

(٤) الذاريات: ٤٨.

(٥) الزخرف: ١٠.

(٦) طه: ٥٣.

(٧) الهيئة والاسلام ١: ٦٨.

البطش والتّصرف[١].

قلت: بل الظاهر أنّ المراد أنّه لم يكن مخلوقاً من مخلوقاته الحيّة التي لها قصد في مآربهم وحوائجهم. يقال: اعتمد فلان فلاناً في حاجته إذا قصده، ومنه قتل العمد، أي: قتل عن قصد؛ وقال خفاف بن ندبة:

وإن تكُ خيلي قد أُصيب صميمها فعمداً على عين تيمّمت مالكا[٢]

«والشمس والقمر دائبان»[٣] أي: جادّان، من دأب فلان، أي: جدّ وتعب. والأصل في كلامه عليه‌السلام قوله تعالى: ﴿وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين...﴾[٤].

«في مرضاته» حيث إنّهما مسخّران له فلا يقدران خلافه؛ قال تعالى: ﴿والشّمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم* والقمر قدّرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم﴾[٥].

وقال الصادق عليه‌السلام للزّنديق المصريّ: يلجان فلا يشتبهان، ويرجعان قد اضطرّا، ليس لهما مكان إلّا مكانهما، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فَلِمَ يرجعان؟ وإن كانا غير مضطرّين فَلِمَ لا يصير اللّيل نهاراً والنهار ليلاً؟ اضطرّا ـ واللهِ يا أخا أهل مصر ـ الى دوامهما، والّذي اضطرهما أحكم منهما وأكبر. فقال الزّنديق: صدقت[٦].

«يُبليان» أي يجعلان بالياً.

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٣٧.

(٢) أورده لسان العرب ٣: ٣٠٢ مادة (عمد).

(٣) لم يتعرّض الشارح لشرح فقرتين، هما: «ذلك مبتدع الخلق ووارثه»، «وإله الخلق ورازقه».

(٤) ابراهيم: ٣٣.

(٥) يس: ٣٨ ـ ٣٩.

(٦) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٧٣ ح ١، والصدوق في التوحيد: ٢٩٥ ح ٤، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٣٤.

«كلّ جديد» قال أبو النّجم:

طيّر عنها قنزعاً من قنزع　　مرّ اللّيالي أبطئي وأسرعي
أفناه قيل الله للشمس اطلعي　　حتّى إذا داراكِ أُفقٌ فارجعي[١]

«ويقرّبان كلّ بعيد» قال الصّلتان العبديّ:

أشاب الصغير وأفنى الكبير　　..............................
إذا هرمت ليلة يومها　　أتى بعد ذلك يومٌ فتي[٢]

«قسم أرزاقهم، وأحصى آثارهم، وأعمالهم» قالوا: مأخوذ من قوله تعالى: ﴿...نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا...﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿...ونكتب ما قدّموا وآثارهم...﴾[٤].

قلت: ومن قوله عزّوجلّ: ﴿فالمقسّمات أمراً﴾[٥]، ﴿وكلّ صغير وكبير مستطر﴾[٦]، ﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾[٧] و ﴿وإنّ عليكم لحافظين* كراماً كاتبين* يعلمون ما تفعلون﴾[٨].

«وعدد أنفاسهم» في الخبر: أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿...إنّما نعدّ لهم عدّاً﴾[٩] عدّ الله تعالى لعدد أنفاس عبيده لا لسنيّهم، فإنّ سنيَّهم يعدّها

---

(١) نقله السيوطي في شواهد المغني ٢: ٥٤٥.

(٢) نقله التفتازاني في المطول: ٦١، أحوال الاسناد الخبري بلفظ:

أشاب الصغير وأفنى الكبيـ　　ـر ذكر الغداة ومرّ العشي

(٣) الزخرف: ٣٢.

(٤) يس: ١٢.

(٥) الذاريات: ٤.

(٦) القمر: ٥٣.

(٧) ق: ١٨.

(٨) الانفطار: ١٠ ـ ١٢.

(٩) مريم: ٨٤.

أبواهم أيضاً[١].

«وخائنة أعينهم، وما تخفي صدورهم من الضمير» قال الله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾[٢].

«ومستقرّهم ومستودعهم من الأرحام والظهور إلى أن تتناهى بهم الغايات» ﴿وهو الّذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقرّ ومستودع قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون﴾[٣]، ﴿وما من دابّة في الأرض إلّا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلّ في كتاب مبين﴾[٤].

وعن الحسن: الإنسان مستقرّ في القبر ومستودع في الدّنيا[٥].

وقال سليمان العدويّ:

فجِع الأحبّة بالأحبّة قبلنا فالنّاس مفجوع به ومفجّع
مستودع أو مستقرّ مدخلاً فالمستقرّ يزوره المستودع[٦]

والظاهر أنّ كلامه عليه السلام ناظر إلى قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين* ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين* ثمّ خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثمّ أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين* ثمّ إنكم بعد ذلك لميّتون* ثمّ إنكم يوم

---

(١) أخرج هذا المعنى عبد بن حميد في مسنده عنه الدر المنثور ٤: ٢٨٤ عن الباقر عليه السلام، وأخرجه علي بن ابراهيم في تفسيره ٢: ٥٣، والكليني في الكافي ٣: ٢٥٩ ح ٣٣ عن الصادق عليه السلام، وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وعنهما الدرّ المنثور ٤: ٢٨٤ عن ابن عباس، وجاء أيضاً عنه في تنوير المقباس ٣: ٢١٨.

(٢) غافر: ١٩.

(٣) الأنعام: ٩٨.

(٤) هود: ٦.

(٥) أخرجه ابو الشيخ عنه الدرّ المنثور ٣: ٣٦ عن الحسن وقتادة، وجاء في المصدر أقوال أُخرى في الآية.

(٦) أورده مجمع البيان ٤: ٣٤٠.

القيامة تبعثون﴾[١].

«هو الّذي اشتدّت نقمته على أعدائه في سعة رحمته، واتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته» بخلاف الملوك، فلا تجتمع فيهم شدّة النقمة وسعة الرحمة في وقت واحد؛ وفي (دعاء الافتتاح): أيقنت أنّك أرحم الراحمين في موضع العفو والرّحمة، وأشدّ المعاقبين في موضع النكال والنّقمة[٢].

«قاهر من عازّه» أي: غالبه، بمعنى: أراد الغلبة عليه؛ ﴿وقال فرعون يا أيُّها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي اطّلع إلى إله موسى وإنّي لأظنّه من الكاذبين* واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحقّ وظنّوا أنّهم الينا لا يرجعون* فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾[٣].

«ومذلّ من ناواه» أي: عاداه؛ قال الجوهري: وأصله الهمزة، لأنّه من النوء، وهو النهوض[٤].

قال تعالى: ﴿... وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحقّ فأخذتُهم فكيف كان عقاب﴾[٥]، ﴿...فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصّيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا...﴾[٦].

«وغالب من عاداه» قال تعالى: ﴿... والله غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس

---

(١) المؤمنون: ١٢ ـ ١٦.

(٢) نقله ضمن الدعاء الطوسي في مصباح المتهجد: ٥٢٠. والكفعمي في البلد الأمين: ١٩٣.

(٣) القصص: ٣٨ ـ ٤٠. لم يتعرض الشارح لشرح فقرة: «ومدمّر من شاقّه».

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٦: ٢٥١٧ مادة (نوى).

(٥) غافر: ٥.

(٦) العنكبوت: ٤٠.

لا يعلمون﴾[١]؛ وقال الشاعر في قيام قريش، وكانوا يكنّون عنهم بسخينة على رسوله صلى الله عليه وآله:

زعمت سخينة أن ستغلب ربّها وليغلبنّ مغالب الغلّاب[٢]

«ومن توكّل عليه كفاه» ﴿... ومن يتوكّل على الله فهو حسبه...﴾[٣]، وقد كفى تعالى من المتوكلين عليه خليله ابراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين* قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم* وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾[٤].

وكفى حبيبه محمّداً صلى الله عليه وآله، قال تعالى له: ﴿فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين* إنّا كفيناك المستهزئين...﴾[٥] فأهلك تعالى جميع المستهزئين به: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، وغيرهم، كلّ واحد ببليّة.

«ومن سأله أعطاه» قال زكريا: ﴿...فهب لي من لدنك وليّاً* يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربِّ رضيّاً* يا زكريا إنّا نبشّرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميّاً* قال ربِّ أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيّاً* قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّن وقد خلقتك من قبل ولم تكُ شيئاً﴾[٦].

«ومن أقرضه قضاه» وأعطاه ما أقرض ﴿من ذا الّذي يُقرض الله قرضاً

---

(١) يوسف: ٢١.

(٢) أورده أساس البلاغة: ٢٠٥ مادة (سخن).

(٣) الطلاق: ٣.

(٤) الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠.

(٥) الحجر: ٩٤ ـ ٩٥.

(٦) مريم: ٥ ـ ٩.

حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة...﴾[1]، ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم﴾[2].

«ومن شكره جزاه» ﴿...لئن شكرتم لأزيدنكم...﴾[3].

٨
من الخطبة (٨٩)

ومن خطبة له عليه السلام تعرف بخطبة الأشباح، وهي من جلائل خطبه، وكان سأله سائل أن يصف الله حتّى كأنّه يراه عياناً، فغضب عليه السلام لذلك:

الْحَمْدُ لِلّهِ الّذي لاَ يَفِرُهُ المَنْعُ وَالْجُمُودُ، وَلاَيُكْدِيهِ الإِعْطَاءُ وَالْجُودُ؛ إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلاَهُ؛ وَهُوَ المَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ، وَعَوَائِدِ المَزِيدِ وَالْقِسَمِ. عِيَالُهُ الْخَلْقُ ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ، وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ، وَالطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ، وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلِ. الأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُن لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَالآخِرُ الَّذِي لَيسَ لَهُ بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ، والرَّادِعُ أَنَاسِيَّ الأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ. مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الحالُ، وَلاَكَانَ في مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الانتِقَالُ.

قول المصنف: «تعرف بخطبة الأشباح» قال ابن أبي الحديد: الأشباح: الأشخاص، والمراد بهم هاهنا الملائكة لأنّ الخطبة تتضمّن ذكر الملائكة[4].

---

(١) البقرة: ٢٤٥.

(٢) الحديد: ١١.

(٣) ابراهيم: ٧.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٣٩.

وتبعه الخوئي[١]، إلّا أنّ الظاهر أنّ الخطبة كانت متضمّنة لذكر لفظ الأشباح، كما أنّ الخطبة الشقشقيّة[٢] متضمّنة لذكر الشقشقة، وروى (الروضة) خطبة معروفة بالطالوتية[٣] تضمّنت قصة طالوت، وروى خطبة معروفة بالوسيلة[٤] لكونها متضمّنة لذكر الوسيلة؛ وفي هذه وإن لم نقف على لفظ أشباح، إلّا أنّ المصنف لم ينقل جميعها، بل انتخب منها، فقال تارة فيها: منها: في صفة خلق السماء، وأُخرى قال: منها: ثمّ خلق سبحانه، وثالثة: منها: في صفة الأرض.

ولو كانت العلّة ما ذكر كان كثير من خطب النهج متضمّناً لذكر الملائكة، ومنها في الأُولى، فَلِمَ خصّت هذه بالتّسمية، مع أنّه أيّ مناسبة للتعبير عن الملائكة بالأشباح؟ وإنّما استعمل الأشباح في كلامه عليه السلام في مقابل الأجناس؛ ففي خطبة له عليه السلام رواها (توحيد الصدوق): «ليس بجنس فتعادله الأجناس، ولا بشبح فتضارعه الأشباح»[٥]، والظاهر أنّ المراد به الجسميّة؛ ففي أُخرى رواها: «ليس بشبح فيُرى»[٦].

والظاهر أنّه كان فيها هذه الفقرة: «وكيف يوصف بالأشباح وينعت بالألسن الفصاح» - رواها أواخر توحيد توحيده[٧] - فسقطت منها، يعني لم ينقلها.

(١) شرح الخوئي ٣: ٧٤.
(٢) نهج البلاغة ١: ٣٠ الخطبة (٣).
(٣) الكافي ٨: ٣١ ح ٥.
(٤) الكافي ٨: ١٨ ح ٤.
(٥) التوحيد للصدوق: ٧٠ ح ٢٦.
(٦) التوحيد للصدوق: ٧٨ ح ٣٤.
(٧) أخرج الصدوق الخطبة بروايتين في التوحيد: ٤٨ ح ١٣ و: ٧٧ ح ٣٤، وتوجد هذه الفقرة في الرواية الثانية فقط، والأُولى أوفق بلفظ نهج البلاغة.

«وهي من جلائل» جمع الجليلة.

«خطبه» وفي (ابن أبي الحديد)[١] «الخطب».

«وكان سأله سائل» هكذا في (المصرية)، ولكن في (ابن ميثم والخطية)[٢] «وكان سائل سأله».

«أن يصف الله» هكذا في (المصرية) وزاد ابن ميثم:[٣] «تعالى» و (الخطية): «له».

«حتّى كأنّه يراه عياناً فغضب عليه السّلام لذلك» وزاد ابن ميثم[٤]: «وقال الخطبة».

ثم الكلام من قوله: «وكان ـ إلى ـ لذلك» في (المصرية) و (ابن ميثم والخطية) على اختلاف كما عرفت، وليس في (ابن أبي الحديد) رأساً، ونقل ابن أبي الحديد بدل ذاك الكلام: «روى مسعدة بن صدقة عن الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام أنّه قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الخطبة على منبر الكوفة، وذلك أنّ رجلاً أتاه فقال: يا أمير المؤمنين! صف لنا ربّنا مثل ما نراه عياناً لنزداد له حبّاً وبه معرفة، فغضب ونادى الصلاة جامعة. فاجتمع إليه الناس حتى غصّ المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغيّر اللون، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله ثمّ قال: ...»

ومثله نقل ابن ميثم زائداً على ذاك الكلام بدون فقرة «مثل ما نراه عياناً» وتبديل «ثم قال» في الآخر بقوله: «ثمّ خطبها»[٥] وليس في (الخطية) رأساً[٦].

---

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٣٨، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٢٢ «خطبه» أيضاً.

(٢) شرح ابن ميثم ٢: ٣٢٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) وحذف الباء من أول هذه وحذف (اليه) بعد (فاجتمع).

وجمع الرّضي رضوان الله عليه بينهما مشكل حيث إنّه كالتكرار، وليس ذلك دأبه، وكأنّ نسخ النّهج كانت مختلفة، فنسخة ابن أبي الحديد منه كانت متضمّنةً لنقل الرواية، والنسخة الخطية لنقل الكلام بدلها، وابن ميثم جمع بينهما.

وكيف كان، فلا ريب أنّه رواية مسعدة عن الصادق عليه السلام؛ فروى (توحيد الصدوق) عن الأسدي عن البرمكي عن علي بن العباس عن إسماعيل بن مهران عن إسماعيل بن إسحاق الجهني عن فرج بن فروة عن مسعدة عن الصادق عليه السلام: بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على المنبر بالكوفة إذ قام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين! صف لنا ربّك لنزداد له حبّاً وبه معرفة، فغضب أمير المؤمنين عليه السلام ونادى الصّلاة جامعة. فاجتمع الناس حتّى غصّ المسجد بأهله ثمّ قام متغيّر اللون، فقال: الحمد لله الذي لا يفره المنع، ولا يكديه الإعطاء...[٧] لكن ليس فيه جميع ما في النهج، وفيه اختلافات.

وكيف كان فإنّما غضب عليه السلام لأنّه أحسّ من الرّجل أنّه طلب منه عليه السلام وصفه تعالى بالكنه، وتعريفه بالتّشبيه؛ ففي الخطبة على رواية (التّوحيد): «الذي عجزت الملائكة على قربهم من كرسي كرامته، وطول ولههم إليه، وتعظيم جلال عزّه، وقربهم من غيب ملكوته أن يعلموا من أمره إلّا ما أعلمهم»[٨].

وفيها أيضاً: «أيّها السائل! اعلم أنّ من شبّه ربّنا الجليل بتباين أعضاء

---

(٦) جمع ابن ميثم بين عنوان نهج البلاغة ١: ١٦٠ وشرح ابن أبي الحديد بفرق يسير، والعنوان المذكور في رواية التوحيد: ٤٨ ح ١٣ نحو ابن أبي الحديد، وقد مرت الاشارة الى الاختلاف في مقدمة المؤلف.

(٧) التوحيد للصدوق: ٤٨ ح ١٣.

(٨) التوحيد للصدوق: ٥٠ ح ١٣.

خلقه...»[١] فسؤال الرجل وغضبه عليه السلام نظير سؤال بني إسرائيل موسى بن عمران عليه السلام أن يريهم الله عياناً، فغضب تعالى عليهم كما أخبر عزّوجلّ عنهم بقوله: ﴿وإذْ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾[٢].

«الحمد لله الّذي لا يفره» هنا متعدّ ويأتي لازماً أيضاً، يقال: وفرت الشيء ووفر الشيء.

«المنع» كالنّاس.

«والجمود» هكذا في (المصرية)، وليست الكلمة في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[٣]، فهي زائدة.

«ولا يُكديه» بالضمّ؛ قال تعالى: ﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾[٤]، أي: قطع القليل.

«الإعطاء والجود» كالمخلوقين.

«إذ كلّ معطٍ منتقص سواه» علّة لقوله: «ولا يكديه الإعطاء والجود».

«وكلّ مانع مذموم» صفة مانع.

«ما خلاه» يعني: سواه، والجملة علّة لقوله: «لا يفره المنع» يعني ليس منعه بخلاً فيستحق الذم، بل حكمة فيستحق الحمد أيضاً، لأنّه منع ظاهراً وأعطى في الحقيقة، والمعنى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزّل بقدر ما يشاء إنّه بعباده خبير بصير﴾[٥]، ﴿وأصبح الّذين تمنّوا

(١) التوحيد للصدوق: ٥٤ ح١٣.

(٢) البقرة: ٥٥.

(٣) توجد الكلمة في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٣٨، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٢٣ أيضاً.

(٤) النجم: ٣٤.

(٥) الشورى: ٢٧.

مكانه بالأمس يقولون وَيْكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أنْ منّ الله علينا لخسف بنا...﴾[١].

ووجه كونه علّة: أنّ المنع لوفر المال مذموم لكونه بخلاً.

«وهو» هكذا في (المصرية)، والصواب: (هو) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[٢].

«المنّان بفوائد النعم، وعوائد المزيد والقسم» ﴿... ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده...﴾[٣]، ﴿... قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[٤].

«عياله الخلق» هكذا في (المصرية)، والصواب (الخلائق) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[٥]، فالنهج كان (الخلائق) ولكن نقله (التوحيد): «وبجوده ضمن عيالة الخلق»[٦].

وفي (دعاء أبي حمزة): «والخلق كلّهم عيالك وفي قبضتك»[٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وما من دابّة في الأرض إلّا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلّ في كتاب مبين﴾[٨]، ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيّاكم إنّ قتلهم كان خِطأً كبيراً﴾[٩].

---

(١) القصص: ٨٢.

(٢) توجد (الواو) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٣٨، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٢٣ أيضاً.

(٣) ابراهيم: ١١.

(٤) يوسف: ٩٠.

(٥) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٣٨، لكن في شرح ابن ميثم ٢: ٣٢٢ «الخلق» أيضاً.

(٦) التوحيد للصدوق: ٤٩ ح١٣.

(٧) رواه ضمن الدعاء الطوسي في مصباح المتهجد: ٥٢٥.

(٨) هود: ٦.

(٩) الاسراء: ٣١.

«ضمن أرزاقهم» «وقدّر أقواتهم» أي: ارزاق جميع خلقه من الانسان وأقسام الحيوان، وأصناف الطير، وصنوف الوحش والهوام والحيتان، ولكن غلّب الإنسان في الضّمير. وهو أيضاً من باب التغليب؛ فقدّر لكلّ جنس قوته بحسب ما يناسبه حتّى الجنين والرّضيع، والأصل في كلامه عليه السلام قوله تعالى: ﴿...وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسائلين﴾[١].

«ونهج» أي: أوضح.

«سبيل الرّاغبين إليه» لعبادته.

«والطّالبين ما لديه» من الأجر والثواب بنهج السبيل، بخلقِ العقول لهم، وبعثِ الرّسل إليهم، وإنزالِ الكتب عليهم.

«وليس بما سُئل بأجود منه بما لم يُسأل» وفي الدّعاء: يا من يعطي من سأله ومن لم يسأله تحنّناً منه ورحمة، ويبتدئ بالخير من لم يسأله تفضلاً منه وكرماً[٢].

وفي الخبر: «كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإنّ موسى بن عمران عليه السلام خرج يقتبس لأهله ناراً فكلّمه الله عزّوجلّ ورجع نبيّاً مرسلاً، وخرجت ملكة سبأ فأسلمت مع سليمان عليه السلام، وخرجت سحرة فرعون يطلبون العزّ لفرعون فرجعوا مؤمنين»[٣].

«الأوّل الّذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون

---

(١) فصلت: ١٠.

(٢) هذه قطعة من دعاء السحر، رواه الطوسي في مصباح المتهجد: ٥٤٠.

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ٥: ٨٣ ح ٣، والصدوق في الفقيه ٤: ٢٨٤ ح ٣ مسنداً، وفي الفقيه ٣: ١٠١ ح ٤٤ مجرّداً، وهو في الأمالي: ١٥٠ ح ٧ المجلس (٣٣). وابن شعبة في تحف العقول: ٢٠٨ عن علي عليه السلام، وأخرج صدر الحديث الكليني في الكافي ٥: ٨٣ ح ٢ عن الصادق عليه السلام.

شيء بعده» قد مرّ نظيره[١].

و «الرادع» أي: المانع.

«أناسي» جمع إنسان العين؛ وفي (الصحاح) : إنسان العين: المثال الذي يرى في السواد، أي: سواد العين، ويجمع أيضاً على أُناسي. قال ذو الرمة يصف إبلاً غارت عيونها من التعب والسير:

أُناسي ملحود لها في الحواجب[٢].

«الأبصار عن أن تناله» أي: تصله.

«أو تدركه» كما تدرك الأجسام؛ قال الصادق عليه السلام: «إنّ الأبصار لا تدرك إلّا ماله لون وكيفية، والله خالق الألوان والكيفيّة»[٣] ﴿ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال ربّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صَعِقاً فلمّا أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين﴾[٤].

هذا وفي (تاريخ الطبري) في الفداء بين المسلمين وصاحب الروم عن الواثق ـ الخليفة ـ: أنّه وجّه من يمتحن الأُسَراء منهم: فمن قال منهم إن القرآن مخلوق وإن الله عزّوجلّ لا يُرى في الآخرة فوديَ به، ومن لم يقل ذلك تُرك في أيدي الروم[٥].

وفيه أيضاً: قتل الواثق بيده بسيف عمرو بن معد يكرب أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي ـ وكان جدّه مالك أحد نقباء بني العباس ـ وحظر

(١) مر في العنوان (٥ و ٦) من هذا الفصل.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٢: ٩٠١ مادة (أنس).

(٣) أخرجه الصدوق في الأمالي: ٣٣٤ ح ٣ المجلس (٦٤)، ورواه الفتال في روضة الواعظين ١: ٣٤.

(٤) الاعراف: ١٤٣.

(٥) تاريخ الطبري ٧: ٢٣٢ سنة (٢٣١).

على رأسه في بغداد حظيرة، وضُرب عليه فسطاط، وأُقيم عليه الحرس، وعُرف ذلك الموضع برأس أحمد بن نصر، وكُتب في أُذنه رقعة: هذا رأس الكافر المشرك الضالّ الّذي أقرّ بالتّشبيه، وتكلّم بالكفر، فاستُحلّ دمه. وكان الواثق قال له: ما تقول في ربّك؟ فقال: جاءت الآثار عن النبيﷺ أنّه قال: ترون ربّكم يوم القيامة كما ترون القمر، لا تضامون في رؤيته. فنحن على الخبر. وقال حدّثني سفيان بن عيينة بحديث يرفعه: انّ قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الله يقلّبه، وأنّ النبيﷺ كان يدعو: يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي...[١] وخبره الأول موضوع وأخيراه عمّا رامه بمراحل.

«ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال» يمكن أن يريدعليه السلام بعدم اختلاف الحال منه تعالى لعدم اختلاف الدهر عليه، بالنسبة الى الفقرات المذكورة قبله من إعطائه تعالى ومنعه، وضمانه للأرزاق، وتقديره للأقوات، ونهجه السبيل، واستواء المساول فيه عنده مع غيره، وغيرها؛ فإنّ أسخياء الناس إنّما يجودون إذا جاد عليهم الزمان، ويبخلون إذا بخل عليهم، ويعطون أوّلاً ثمّ يمنعون، ويضمنون شيئاً ثمّ يتبرّؤون، كلّ ذلك بحسب تأثير الدهر والزّمان فيهم، وهو تعالى منزّه عن ذلك.

ويمكن أن يريدعليه السلام به الأعمّ، مثلاً الإنسان في نشئه، وباختلاف دهره يختلف حاله، فهو ـ كما في فقه اللغة ـ ما دام في الرحم فهو جنين، فإذا ولد فهو وليد، ومادام لم يستتم سبعة أيّام فهو صديغ، لأنّه لا يشتدّ صدغه إلى تمام السبعة، ثم ما دام يرضع فهو رضيع، ثمّ إذا قطع عنه اللبن فهو فطيم، ثمّ إذا غلظ وذهبت عنه ترارة الرضاع فهو جحوش عن الأصمعي وأنشد للهذليّ:

قتلنا مخلداً وابني حراق   وآخر جحوشاً فوق الفطيم

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٣٢٨ سنة (٢٣١)، والنقل بتصرف.

قال الأزهري: كأنّه مأخوذ من الجحش الّذي هو ولد الحمار، ثمّ هو إذا دبّ ونما دارِج، فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو خماسيّ، فإذا سقطت رواضعه فهو مثغور؛ عن أبي زيد، فإذا نبتت أسنانه بعد السقوط فهو مثغّر بالثّاء ومتغّر بالتّاء، عن أبي عمرو، فإذا كاد يجاوز عشر سنين أو جاوزها فهو مترعرع وناشئ، فإذا كاد يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع ومراهق، فإذا أدرك واجتمعت قوّته فهو حزوّر، واسمه في جميع هذه الأحوال غلام، فإذا اخضرّ شاربه وأخذ عذاره يسيل قيل: بقل وجهه، فإذا صار ذا فتاء فهو فتى وشارخ، فإذا اجتمعت لحيته وبلغ غاية شبابه، فهو مجتمع، ثمّ ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شابّ، ثم هو كهل الى أن يستوفي ستّين[1]. وهكذا نُقل له أسامٍ بحسب ازدياد سنّه، والله تعالى منزّه عن جميع ذلك.

«ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال» قيل للرضا عليه السلام: ما تقول في الحديث الذي يرويه الناس أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: ينزل الله تعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا؟[2] فقال: لعن الله المحرّفين للكلم عن مواضعه، والله ما قال النبي صلى الله عليه وآله ذلك، إنّما قال: إنّ الله ينزّل ملكاً الى السماء الدّنيا كلّ ليلة في الثلث الأخير، وليلة الجمعة في أوّل الليل[3].

---

(١) فقه اللغة الثعالبي: ٨١ الباب (١٤) الفصل (٢٠).

(٢) حديث نزول الربّ أخرجه أحمد في مسنده ١: ١٢٠ عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله، وأخرجه جعفر الحضرمي في أصله: ٦٩ عن الباقر عليه السلام، ويحضر عندي له (٥١) طريقاً عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ورفاعة الجهني وجبير بن مطعم وابن مسعود وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وآله، وأخرج زيد النرسي في أصله: ٥٤ عن الصادق عليه السلام: «ان الله ينزل في يوم عرفة...»، وأخرج الصدوق في التوحيد في بعض نسخه: ٢٤٨ ـ الهامش، البحار ٣: ٣٣١ عن الصادق عليه السلام تأييد حديث نزول الربّ وتصحيحه، وأخرج علي بن ابراهيم في تفسيره ٢: ٢٠٤ عن الصادق عليه السلام: «ينزل أمره كل ليلة»، وفي نقل البحار ٣: ٣١٥ عنه: «ينزل كلّ ليلة».

(٣) حديث الرضا عليه السلام أخرجه الصدوق في العيون ١: ١٠٤ ح ٢١، والتوحيد: ١٧٦ ح ٧ وأماليه: ٣٣٥ ح ٥ المجلس (٦٤)، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٤١٠، وأخرج نحوه الكليني في الكافي ١: ١٢٥ ح ١، والصدوق في التوحيد: ١٨٣ ح ١٨

٩
من الخطبة (٨٩)

بعدما مرّ في سابقه:

وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ ٱلْجِبَالِ، وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ ٱلْبِحَارِ مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ وَٱلْعِقْيَانِ، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ المَرْجَانِ، مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ وَلَا أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ، وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ ٱلْأَنْعَامِ مَا لاَ تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ ٱلأَنَامِ، لأَنَّهُ ٱلجَوَادُ الَّذِي لاَ يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ، وَلاَ يُبْخِلُهُ إلحَاحُ ٱلْمُلِحِّينَ.

«ولو وهب» قال ابن أبي الحديد: هذا الكلام من تتمّة الكلام الأول، وهو قوله عليه السلام: «لا يفره المنع والجمود ولا يكديه الإعطاء»[1].

قلت: بل خصوص قوله «ولا يكديه الإعطاء»، ولا ربط له بقوله «لا يفره المنع».

«ما تنفّست عنه معادن الجبال» هو استعارة كقوله تعالى: ﴿والصبح اذا تنفّس﴾[2]، والمراد ما تشقّقت عنه المعادن.

«وضحكت عنه» هو أيضاً استعارة كقوله تنفّست، والمراد أيضاً ما تشقّقت، ولا يخفى حسن التعبير عن تشقّق الجبال بالفلزّات بالتنفّس عن الشيء، وعن تشقّق الأصداف باللآلي بالضّحك عنه.

«أصداف البحار» والصدف غشاء الدرّة.

«من فِلِزّ» بكسرتين، وجوّز (القاموس) فيه الضمّتين كعُتُلّ، والكسر

عن الكاظم عليه السلام، والكليني في الكافي ١: ١٢٦ ح ٤ عن الهادي عليه السلام، وروى قريباً منه ابن طاووس في جمال الاسبوع: ١٨٢ بلا عزو.

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٠.

(٢) التكوير: ١٨.

فالفتح كهِجَف، وقال: الفلزّ نحاس أبيض تجعل منه القدور المفرغة أو خبث الحديد أو الحجارة أو جواهر الأرض كلّها أو ما ينقيه الكير من كلّ ما يذاب منها[١].

قلت: الصواب هو القول الرابع لقوله عليه السلام: «اللّجين» بالتّصغير الفضّة.

«والعِقيان» بالكسر الذّهب الخالص، ورواه (التوحيد) «وسبائك العقيان»[٢].

«ونثارة الدرّ» في (الصحاح): النُّثار بالضم ما تناثر من الشيء[٣]، والدرّة: اللؤلؤ، والجمع درّ ودرّات ودرر.

«وحصيد المرجان» ورواه (التوحيد) «ونضائد المرجان»[٤] وقال ابن أبي الحديد: ويروى «وحصباء المرجان»[٥].

قلت: وأبو نؤاس نسب الحصباء إلى الدّرّ، فقال:

كأنّ صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء درّ على أرض من الذّهب[٦]

وفي (اللّسان): قال بعضهم: المرجان البُسّذ وهو جوهر أحمر، قال ابن برّي: الّذي عليه الجمهور إنّه صغار اللؤلؤ، كما ذكره الجوهري، والدّليل على صحة ذلك قول امرئ القيس ابن حجر:

أذود القوافي عنّي ذيادا ذياد غلام جريّ جيادا

---

(١) القاموس المحيط ٢: ١٨٦ مادة (فلز).

(٢) التوحيد للصدوق: ٤٩ ح١٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٢: ٨٢٢ مادة (نثر).

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٠.

(٦) أورده ابن هشام في شرح القطر: ٣١٦.

فأعـــزل مـــرجـــانها جـــانباً وآخذ من درّها المستجادا[١]

قلت: جـعله فـي الآيـة ﴿يـخرج مـنهما اللـؤلؤ والمـرجـان﴾[٢]، وفـي كلامهعليه السلام وفي شعر امرئ القيس مقابل اللّؤلؤ، والدّرّ دالّ على كونه غـيره؛ وفي (المصباح) قال الطرطوشي: هو عروق حمر تطلع مـن البـحر كأصـابع الكفّ، قال: وهكذا شاهدناه بمغارب الأرض كثيراً[٣].

ثمّ الأكثر ذكروا مرجان في مرج، وعن الأزهري: لا أدري أرباعي هو أم ثلاثي؟[٤] هذا، و «من فلز اللّجين والعقيان» راجع الى معادن الجبال، و «ونثارة الدّرّ وحصيد المرجان» راجع إلى أصداف البحار.

«ما أثّر ذلك في جوده، ولا أنفد سعة ما عـنده» وكـيف يـنفد وله خـزائـن السماوات والأرض، وفي (أصل البرسيّ): إنّ الله تعالى قـال لداود: «يـا داود وعزّتي وجلالي، لو أنّ أهل سماواتي وأرضي أمّلوني فأعطيت كلّ مؤمّل أمله بقدر دنياكم سبعين ضعفاً لم يكن ذاك إلّا كما يغمس أحدكم إبرة في البحر ويرفعها، فكيف ينقص شيء أنا أعطيته»[٥].

«ولكان عنده من ذخائر الأنعام مـا لا تـنفده مـطالب الأنـام»، وفـي روايـة (التوحيد): «ولكان عنده من ذخائر الإفضال ما لا ينفده مطالب السّؤال، ولا

---

(١) لسان العرب ٢: ٣٦٦ مادة (مرج) وما نقله عن الجوهري في صحاح اللغة ١: ٣٤١ مادة (مرج).

(٢) الرحمن: ٢٢.

(٣) المصباح المنير ٢: ٢٦٤ مادة (مرج).

(٤) نقله عن الأزهري لسان العرب ٢: ٣٦٦ مادة (مرج)، وقال: «وأورده في رباعي الجيم».

(٥) رواه الحافظ البرسي في مشارق الأنوار: ٤٢ بلا إسناد، لكن أخرج معناه الكليني بروايتين في الكافي ٢: ٦٦ و ٦٧، ح٧، ٨ وأبو جعفر الطوسي في أماليه ٢: ١٩٦ المجلس (٦) وجاء قريباً منه أربع روايات رواها الطبرسي في مشكاة الأنوار: ١٦ ، ١٧، وأما قول الشارح اصل البرسي فهو، لأن الحافظ رجب البرسي ليس من أصحاب الأصول، بل صاحب الأصل هو زيد النرسي وليس في أصله أثر من هذا الحديث.

يخطر لكثرته على بال»[1] ﴿وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم﴾[2].

«لأنّه الجواد الّذي لا يغيضه» من غاض الماء قلّ ونضب. قال الجوهري: وغيض الماء فعل به ذلك، يتعدى ولا يتعدى. وقال الأخفش في قوله تعالى: ﴿...وما تغيض الأرحام...﴾[3] أي: ما تنقص. ويقال غاض الكرام أي قلّوا، وفاض اللّئام أي كثروا، وأعطاه غيضاً من فيض، أي: قليلاً من كثير[4].

«سؤال السائلين ولا يبخله إلحاح الملحّين» وفي رواية (التوحيد) بدل «لأنّه الجواد...»: «لأنّه الجواد الّذي لا تنقصه المواهب، ولا ينحله إلحاح الملحّين، وإنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»[5].

١٠
من الخطبة (٨٩)

بعدما مرّ في سابقة:

وَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ؛ فَمَا دَلَّكَ ٱلْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائتَمَّ بِهِ، وَٱسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، وَمَا كَلَّفَكَ ٱلشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي ٱلْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ، وَلاَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللّه عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَئمَّةِ ٱلْهُدَى أَثَرُهُ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى ٱللّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ ٱللّهِ عَلَيكَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلرَّاسِخِينَ فِي ٱلْعِلْمِ هُمُ ٱلَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ ٱقْتِحَامِ السُّدَدِ ٱلمَضْرُوبَةِ دُونَ ٱلْغُيُوبِ ٱلإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ ٱلْغَيْبِ ٱلمَحْجُوبِ،

---

(١) التوحيد للصدوق: ٤٩ ح١٣.

(٢) الحجر: ٢١.

(٣) الرعد: ٨.

(٤) صحاح اللغة ٣: ١٠٩٦ مادة (غيض).

(٥) التوحيد للصدوق: ٤٩ ح١٣ وفقرة «انما أمره...» هي لفظ الآية (٨٢) من سورة يس.

فَمَدَحَ ٱللَّهُ عزّوجلّ ٱعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا به عِلماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِي ما لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً، فَاقْتَصِرْ عَلَى ذٰلِكَ، وَلاَ تُقَدِّرْ عَظَمَةَ ٱللّهِ سُبْحانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقلِكَ فَتكونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ.

أقول: ورواه (التّوحيد) مع زيادة وتغيّر؛ ففيه: «الّذي لمّا شبّهه العادلون بالخلق المبعّض المحدود في صفاته، ذي الأقطار والنّواحي المختلفة في طبقاته، وكان عزّوجلّ الموجود بنفسه لا بأداته، انتفى أن يكون قدّروه حقّ قدره، فقال تنزيهاً لنفسه عن مشاركة الأنداد، وارتفاعاً عن قياس المقدّرين له بالمحدود من كفرة العباد: ﴿وما قدروا الله حقّ قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويّات بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يشركون﴾[1]، فما دلّك القرآن عليه من صفته فاتّبعه ليوصل بينك وبين معرفته، وائتمّ به، واستضئ بنور هدايته، فإنّما هي نعمة وحكمة أوتيتهما، فخذ ما أُوتيت وكن من الشاكرين، وما دلّك الشيطان...»[2].

«وانظر أيّها السائل فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتمّ به، واستضئ بنور هدايته» وممّا دلّنا القرآن عليه من صفته تعالى: ﴿... لاتأخذه سنة ولا نوم له ما في السّماوات وما في الأرض ... وهو العليّ العظيم﴾[3]، وقال تعالى: ﴿قل هو الله أحد...﴾[4]، وقال جلّ وعلا: ﴿...ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[5].

«وما كلّفك الشيطان علمه» من عرفان كنهه.

«ممّا ليس في الكتاب» أي: القرآن.

---

(١) الزمر: ٦٧.

(٢) التوحيد للصدوق: ٥٥ ح ١٣.

(٣) البقرة: ٢٥٥.

(٤) الاخلاص: ١ ـ ٤.

(٥) الشورى: ١١.

«عليك فرضه، ولا في سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى» وهم أهل بيته عليهم السلام:
وأمّا الثلاثة وإن سمّوهم الخلفاء الرّاشدين، إلّا أنّه لا يصدق إلّا إذا صدق قول من قال: ﴿... ما أُريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرّشاد﴾[١].

«أثره فكِلْ» من وكل أي: فوِّض.

«علمه إلى الله سبحانه» كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: سبحان من لم يجعل في أحد من معرفة نعمه إلّا المعرفة بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه أكثر من العلم أنّه لا يدركه[٢].

«فإن ذلك منتهى حقّ الله عليك» لأنّه لم يكلّف أحداً ما لم يطقه.

وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وأنّ إلى ربّك المنتهى﴾[٣] قال: «إذا انتهى الكلام إلى الله تعالى فامسكوا»[٤].

وفي آخر عنه عليه السلام: «إنّ النّاس لا يزال بهم المنطق حتّى يتكلّموا في الله، فإذا سمعتم ذلك فقولوا: لا إله إلّا الله الواحد الّذي ليس كمثله شيء»[٥].

«واعلم أنّ الراسخين» أي: الثابتين؛ قال لبيد:

رسخ الدمن على أعضاده ثلمته كلّ ريح وسبل[٦]

«في العلم هم الّذين أغناهم عن اقتحام» الاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير رويّة.

---

(١) غافر: ٢٩، وهو مقول فرعون.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٨: ٣٩٤ ح ٥٩٢.

(٣) النجم: ٤٢.

(٤) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٩٢ ح ٣، والبرقي في المحاسن: ٢٣٧ ح ٢٠٦، والصدوق في الهداية: ٤٦ عن الصادق عليه السلام، وأخرجه علي بن ابراهيم في تفسيره ٢: ٣٣٨ بلا عزو.

(٥) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٩٢ ح ٣ عن الصادق عليه السلام، وأخرجه البرقي في المحاسن: ٢٣٧ ح ٢٠٩ عن الباقر عليه السلام.

(٦) أورده أساس البلاغة ١٦٢ مادة (رسخ).

«السُّدَد» بالضمّ فالفتح: جمع السّدّة باب الدّار، وفي الخبر: «الشعث الرؤوس الّذين لا تفتح لهم السُّدَد»(١).

وقال الجزريّ: السّدّة كالظلّة على الباب لتقي الباب من المطر، وقيل: هي الباب نفسه، وقيل: هي الساحة بين يديه(٢).

«المضروبة دون الغيوب» فلا يمكن لأحد الوقوف عليها.

«الإقرار» وهو فاعل «أغناهم».

«بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب» أشار عليه السلام الى قوله تعالى: ﴿هو الّذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أُمّ الكتاب وأُخر متشابهات فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلّا الله والرّاسخون في العلم يقولون آمنا به كلّ من عند ربّنا وما يذكّر إلّا أولو الألباب * ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذْ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب﴾(٣).

ثمّ إنّه وإن اختلفت الخاصّة والعامّة في الآية هل ﴿والراسخون في العلم﴾ عطف على ﴿الله﴾ أو مستأنف(٤)، إلّا أنّ كلامه عليه السلام دالّ على الثاني، وهو الظّاهر من الآية، حيث إنّه لو كان عطفاً لكان الأنسب أن يقال: «ويقولون»

---

(١) نقل ابن منظور في لسان العرب ٣: ٢٠٩، مادة (سدد) هذا اللفظ، وأخرجه الترمذي ٤: ٦٢٩ ح ٢٤٤٤، وابن ماجه ٢: ١٤٣٨ ح ٤٣٠٣، والحاكم في المستدرك عنه الجامع الصغير ١: ٩٠، وأحمد في مسنده ٥: ٢٧٥ عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث في ورود الحوض: «الشعث رؤوساً الدنس ثياباً الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السُّدَد»، وأخرج قريباً منه الضياء المقدسي في المختارة، والطبراني في معجمه الكبير عنهما منتخب كنز العمال ٦: ٩٢ عن أبي أُمامة عن النبي صلى الله عليه وآله.

(٢) النهاية لابن الأثير ٢: ٣٥٣ مادة (سدد).

(٣) آل عمران: ٧ ـ ٨.

(٤) ليس الاختلاف راجعاً الى المذهب، بل القولان العطف والاستيناف يوجدان في كلا المذهبين، ولكلٍّ على مذهبه تفسير وتأويل.

لا «يقولون»، ويأتي فيه زيادة كلام.

ولا ينافي ذلك علم النبيّ صلى الله عليه وآله وأوصيائه بتأويل القرآن، فإنّ علمهم به بوحيه وإلهامه؛ فعلم تأويله من علم الغيب، وقد قال تعالى في موضع: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً* إلّا من ارتضى من رسول...﴾[1] مع أنّه قال: ﴿إنّ الله يعلم غيب السماوات والأرض...﴾[2] وقال: ﴿قل لا يعلم مَنْ في السماوات والأرض الغيبَ إلّا الله...﴾[3]، وحينئذ فالآية في مقام آخر نظير قوله تعالى الآخر: ﴿... فأمّا الّذين آمنوا فيعلمون أنّه الحق من ربّهم وأمّا الّذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً...﴾[4].

«فمدح الله عزّوجلّ اعترافهم بالعجز عن تناول» أي: فهم.

«مالم يحيطوا به علماً» من المتشابه، حيث حكى عنهم أنّهم يقولون: آمنّا به ـ أي: بالكتاب ـ كلٌّ من المحكم الّذي فهمنا، والمتشابه الذي لم نفهمه من عند ربّنا.

«وسمّى تركهم التعمّق في ما لم يكلّفهم البحث» أي: الكشف، والأصل فيه كشف التراب عن الشيء المدفون؛ قال ابن دريد: وفي مثل من أمثالهم: كباحثة عن حتفها بظلفها؛ وذلك أنّ شاة بحثت عن سكين مدفون بظلفها فذبحت به[5].

«عن كنهه» أي: حقيقته وبلوغ غايته.

«رسوخاً» أي: ثبوتاً مستحكماً، من رسخ الجبل؛ فعبّر عنهم بقوله: ﴿والراسخون في العلم﴾.

---

(١) الجن: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) الحجرات: ١٨.

(٣) النمل: ٦٥.

(٤) البقرة: ٢٦.

(٥) جمهرة اللغة لابن دريد ١: ١٩٩.

«فاقتصر على ذلك» وتأدّب بأدب الله.

«ولا تقدّر» أي: لا تعيّن مقدار.

«عظمة الله» وذاته.

«على قدر عقلك» لقصوره.

«فتكون من الهالكين» حيث تجاوزت حدّك؛ قال الباقر عليه السلام: إنّ قوماً تكلّموا في الله عزّوجلّ فتاهوا حتّى كان الرجل ينادي من بين يديه فيجيب من خلفه، وينادي من خلفه فيجيب من بين يديه(١).

وقال الصادق عليه السلام: إنّ ملكاً عظيم الشأن كان في مجلس له، فتناول الرّبّ تعالى، ففقد فما يدرى أين هو(٢).

وفي خبر آخر: تكلّموا في كلّ شيء، ولا تتكلّموا في ذات الله تعالى(٣).

وعن الباقر عليه السلام: تكلّموا في خلق الله، ولا تتكلّموا في الله، فإنّ الكلام في الله لايزداد صاحبه إلّا تحيّراً(٤).

١١
من الخطبة (٨٩)

أيضاً بعدما مرّ:

هُوَ ٱلْقَادِرُ ٱلَّذِي إِذَا ٱرْتَمَتِ ٱلْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ، وَحَاوَلَ

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٤٥٥ ح٧، والبرقي في المحاسن: ٢٣٨ ح٢١١ في ذيل حديث عن الباقر عليه السلام، ورواه صاحب فقه الرضا عنه بحار الأنوار ٣: ٢٦٢ ح١٤ بلا عزو.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٩٣ ح٦، والصدوق في التوحيد: ٤٥٨ ح١٩، والبرقي في المحاسن: ٢٤٠ ح٢١٩ عن الصادق عليه السلام.

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٩٢ ح١، والصدوق في التوحيد: ٤٥٥ ح٢ عن الباقر عليه السلام.

(٤) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٩٢ ح١، والصدوق في التوحيد: ٤٥٤ ح١ عن الباقر عليه السلام، وقد جاءت في هذا المعنى أحاديث كثيرة لم يسع المقام لذكرها.

ٱلْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرَاتِ ٱلْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ، وَتَوَلَّهَتِ ٱلْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ، وَغَمَضَتْ مَدَاخِلُ ٱلْعُقُولِ فِي حَيْثُ لاَ تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ، رَدَعَهَا، وهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ ٱلْغُيُوبِ مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لاَ يُنَالُ بِجَوْرِ الاِعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ، وَلاَ تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلاَلِ عِزَّتِهِ.

«هو القادر» على كلّ شيء.

«الذي إذا ارتمت» أي: قصدت، والأصل فيه رمي الصيد.

«الأوهام لتدرك منقطع قدرته» وفي رواية (التوحيد) بدل جميع الكلام: «لأنّه اللطيف الّذي إذا أرادت الأوهام أن تقع عليه في عميقات غيوب ملكه»[1].

«وحاول» أي: قصد.

«الفكر المبرّأ من خطرات» هكذا في (المصرية)، والصواب: (من خطر) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[2].

«الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته» وفي رواية (التوحيد) بدل جميع الكلام: «وحاولت الفكر المبرأة من خطر الوسواس إدراك علم ذاته»[3].

«وتولّهت» أي: صارت والهة.

«القلوب إليه لتجري في كيفيّة صفاته» وفي رواية (التوحيد) «لتحوي منه مكيّفاً في صفاته»[4].

---

(١) التوحيد للصدوق: ٥١ ح١٣.

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٢، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٢٩ «خطرات» أيضاً.

(٣) التوحيد للصدوق: ٥١ ح١٣.

(٤) التوحيد للصدوق: ٥١ ح١٣.

«وغمضت» من أغمض في الأرض، إذا ذهب وغاب.

«مداخل العقول في حيث» أي: في مكان.

«لا تبلغه الصفات» أي: التوصيفات.

«لتناول» وفي (ابن ميثم والخطية)[١] «لتنال».

«علم ذاته» أي: حقيقته؛ قال ابن أبي الحديد: ذات: لفظة قد طال فيها كلام كثير من أهل العربية، فأنكر قوم إطلاقها على الله تعالى وإضافتها إليه؛ أمّا إطلاقها فلأنّها لفظة تأنيث، والباري سبحانه منزّه عن الأسماء والصفات المؤنثة، وأمّا إضافتها فلأنّها عين الشيء، والشيء لا يضاف إلى نفسه، وأجاز آخرون إطلاقها في الباري تعالى وإضافتها اليه؛ أمّا استعمالها فلوجهان:

أحدهما: أنّها جاءت في الشعر القديم؛ قال حبيب الصحابيّ عند صَلْبه:

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلوٍ موزّع

ويروى: ممزّع.

وقال النابغة:

محبّتهم ذات الإله ودينهم ... قديم فما يخشون غير العواقب

والوجه الثاني: أنّها لفظة اصطلاحية، فجاز استعمالها لا على أنّها مؤنث ذو، بل تستعمل ارتجالاً في مسمّاها الّذي عبّر عنه بها أرباب النظر الإلهي؛ كما استعملوا لفظ الجوهر والعرض وغيرهما في غير ما كان أهل العربيّة واللغة يستعملونها فيه؛ وأمّا منعُهم إضافتها إليه تعالى ـ وأنّه لا يقال: ذاته، لأنّ الشيء لا يضاف الى نفسه ـ فباطلٌ بقولهم: أخذته نفسه، وأخذته عينه[٢].

---

(١) في شرح ابن ميثم ٢: ٣٢٩ في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٢ أيضاً «لتناول».

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٢.

قلت: من المنكرين ابن برهان؛ قال الفيّوميّ: قال ابن برهان من النحاة: قول المتكلمين : «ذات الله» جهلٌ، لأنّ أسماءه لا تلحقها تاء التأنيث؛ فلا يقال: علّامة وإن كان أعلم العالمين. قال: وقولهم: «الصفات الذاتية» خطأ أيضاً، فإنّ النسبة إلى ذوات ذوويّ، لأنّ النسبة تردّ الاسم إلى أصله[١].

قلت: كلامه غلط في غلط، فإنّ ذاتاً بمعنى الحقيقة ليس تاؤه للتأنيث، وإنّما ذات وصفي، في قبال ذو تاؤه للتأنيث؛ تقول: رجل ذو مال وامرأة ذات مال، كما أن (علّامة) ليست تاؤه للتأنيث، بل للمبالغة، كيف ويطلق على الرجال، فيقال: فلان علّامة الدهر؟!

وذات بمعنى الحقيقة: اسم، وقد خلطوا بينه وبين ذات وصفي بمعنى: الصّاحبة؛ ويشهد لخلطهم ما في (اللّسان): أنّ ابن الأنباري قال في قوله تعالى: ﴿...إنّه عليم بذات الصدور﴾[٢]: معناه بحقيقة القلوب من المضمرات. فتأنيث ذات لهذا المعنى، كما قال: ﴿... وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم...﴾[٣] فأُنّث على معنى الطائفة[٤].

فجعل «ذات الصدور» كذات الشوكة مع أنّ الثاني وصف والأصل أنّ الطائفة غير ذات الشوكة لقوله تعالى قبل: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنّها لكم...﴾[٥] والأول اسم، وصرّح بالفرق بينهما الفيوميّ أيضاً[٦].

وقد استعمل (الذات) مضافاً إليه تعالى في غير كلامه عليه السلام، وبيت الصّحار،

(١) المصباح المنير ١: ٢٥٧ مادة (ذوى).

(٢) هود: ٥.

(٣) الأنفال: ٧.

(٤) لسان العرب ١٥: ٤٥٩ مادة (ذو).

(٥) الأنفال: ٧.

(٦) المصباح المنير ١: ٢٥٧ مادة (ذوى).

وبيت النابغة، وفي كلام سيّدة النساء في خطبتها في فدك: «مكدوداً في ذات الله»[١]، وكلامها في مرضها الذي توفيت فيه: «وتنمّره في ذات الله»[٢].

وفي بيت أبي تمام:

ويضرب في ذات الإله فيوجع

نقله (المصباح)[٣] و(المغرب)[٤]، وفي كلام العرب على نقل التكملة كما فيهما[٥]: جعل الله ما بيننا في ذاته.

ومرّ خبر (الكافي): ولا تتكلّموا في ذات الله[٦].

وجاء (ذات) مضافاً إلى غير الله في بيت سويد بن كراع العكلي، وقد نقله (كتاب سيبويه) شاهداً لكفّ لعلّ بلفظة (ما):

تحلّل وعالج ذات نفسك وانظرن ... أبا جعل لعلّما أنت حالم[٧]

وفي بيت ذي الرّمّة، وقد نقله (الأساس)، وهو:

وإنّ هوى صيداء في ذات نفسه ... بسائر أسباب الصبابة راجح[٨]

وفي بيت حكاه ابن فارس في (متخيّر ألفاظه) كما في (المصباح):

---

(١) رواه الطبري في دلائل الامامة: ٣٤، والاربلي في كشف الغمة ٢: ١١٢، والطبرسي في الاحتجاج ١: ١٠١، لكن رواه ابن أبي الحديد في شرحه ٤: ٧٩ بدون هذه الفقرة.

(٢) رواه الصدوق في معاني الأخبار: ٣٥٥ ح ١، والجوهري في السقيفة: ١١٨، والطبري في دلائل الامامة: ٤٠، وأبو علي الطوسي في أماليه ١: ٢٨٤، المجلس (١٣)، والطبرسي في الاحتجاج ١: ١٠٨.

(٣) المصباح المنير ١: ٣٥٧ مادة (ذوى).

(٤) المغرب: ١٩٦ مادة (ذوى).

(٥) المصدران أنفسهما.

(٦) مر هذا الخبر وأخبار أُخرى في المعنى في العنوان (١٠) من هذا الفصل.

(٧) أورده سيبويه في الكتاب ١: ٢٨٣.

(٨) نقله أساس البلاغة: ١٤٧ مادة (ذوى).

فنعم ابن عمّ القوم في ذات ماله إذا كان بعض القوم في ماله كلباً(١)

ثمّ الظاهر أنّ معناه في الكلّ واحد في الأصل، والاختلاف فيه من خصوصيّة المقام؛ فهو في بيت النابغة بمعنى الإله نفسه؛ قال الفَيومي في بيت النابغة: المجلة (بالجيم) الصحيفة، أي: كتابهم عبوديّة نفس الإله(٢).

وفي كلامه عليه السلام وفي كلام الصادق عليه السلام: (ذات الله) أي: حقيقته وهويّته، وفي كلام الصّديقة عليها السلام وبيت الصّحار، وبيت أبي تمام، وكلام العرب بمعنى في جنب الله ولأجله.

وفي قوله تعالى: ﴿... عليم بذات الصدور﴾(٣) أي: بباطنها وخفيّها، فهو في معنى قوله تعالى: ﴿... وما تخفي الصدور﴾(٤)، وفي بيت سويد أيضاً بمعنى الباطن، وفي بيت ذي الرّمّة بمعنى شخصه، وفي بيت ابن فارس بمعنى أصله.

«ردعها» أي: كفّها.

«وهي تجوب» أي: تقطع.

«مهاوي» أي: مهالك.

«سدف» أي: ظلم.

«الغيوب متخلّصةً إليه سبحانه» لا يخالطها قصد غيره.

«فرجعت إذ جبهت» أي: صكّت جباهها.

«معترفة بأنّه» تعالى.

«لا يُنال» بلفظ المجهول.

(١) المصباح المنير ١: ٣٥٧ مادة (ذوى).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) هود: ٥.

(٤) غافر: ١٩.

«بجور» أي: كثرة.

«الاعتساف» أي: الأخذ على غير الطريق.

«كنه معرفته» عزّوجلّ، لكونه من المحالات.

«ولا تخطر ببال» أي: ذهن.

«أُولي الرّويّات» أي: أصحاب التفكّر في الأُمور.

«خاطرة من تقدير جلال عزّته» كيف لا، وقد قال تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[1]؟!

وكلامه عليه السلام من أوّله إلى آخره ناظر إلى قوله تعالى: ﴿... ما ترى في خلق الرّحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[2].

ومثله دعاء قنوت (الصحيفة السجادية) الثانية: سبحانك طوت الأبصار في صنعتك مديدتها، وثنت الألباب عن كنهك أعنّتها[3].

وقال الصادق عليه السلام للمفضّل: فإن قالوا: ولِمَ يختلف فيه تعالى؟ قيل لهم: لقصر الأوهام عن مدى عظمته، وتعدّيها أقدارها في طلب معرفته، وأنّها تروم الإحاطة به، وهي تعجز عن ذلك وما دونه؛ فمن ذلك: هذه الشمس التي تراها تطلع على العالم ولا يوقَف على حقيقة أمرها، ولذلك كثرت الأقاويل فيها، واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها، فقال بعضهم: هو فلك أجوف مملوّ ناراً له فم يجيش بهذا الوهج والشّعاع. وقال آخرون: هو سحابة. وقال

(١) الكهف: ١٠٩.

(٢) الملك: ٣ ـ ٤.

(٣) لم أعثر على نسخته.

آخرون: هو جسم زجاجي يقلّ نارية في العالم ويرسل عليه شعاعها. وقال آخرون: هو صفو لطيف ينعقد ماء البحر، وقال آخرون: هو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار. وقال آخرون: هو من جوهر خامس سوى الجواهر الأربعة. ثم اختلفوا في شكلها... وكذلك اختلفوا في مقدارها... ففي اختلاف هذه الأقاويل منهم في الشمس دليل على أنّهم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها، فإذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر ويدركها الحسّ قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها، فكيف ما لطف عن الحسّ واستتر عن الوهم[١].

هذا، وزاد في رواية التوحيد بعد «من تقدير جلال عزّته»: «لبعده من أن يكون في قوى المحدودين لأنّه خلاف خلقه فلا شبه له من المخلوقين، وإنّما يشبه الشيء بعديله، فأمّا ما لا عديل له، فكيف يشبه بغير مثاله»[٢].

١٢
من الخطبة (٨٩)

بعدما مرّ:

الَّذِي ٱبْتَدَعَ ٱلْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ ٱمْتَثَلَهُ وَلَا مِقْدَارٍ ٱحْتَذَى عَلَيْهِ، مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ، وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ، وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ، وَٱعْتِرَافِ ٱلحَاجَةِ مِنَ ٱلخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكَ قُوَّتِهِ، مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ ٱلحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، فَظَهَرَتْ فِي ٱلْبَدَائِعِ ٱلَّتِي أَحْدَثَهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ، وَأَعْلَامُ حِكْمَتِهِ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ، وَدَلِيلاً عَلَيْهِ؛ وَإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ، وَدَلَالَتُهُ عَلَى ٱلْبِدعِ قَائِمَةٌ.

---

(١) توحيد المفضل: ١٧٨.

(٢) التوحيد للصدوق: ٥٢ ح١٣.

«الذي ابتدع الخلق» أي: اخترعه، قال تعالى: ﴿بديع السماوات والأرض...﴾[١].

«على غير مثال امتثله» لنفسه، كالصائغ الّذي يصوغ حلقة من رصاص، ثمّ يصوغ حلقة من ذهب عليها، وكالبنّاء الّذي يخطّ في الأرض أو غيرها خطوطاً، ثمّ يبني بحسبها، وكالّذي يضرب اللّبن على القالب.

«ولا مقدار احتذى عليه» أي: جعله مقابلاً له؛ يقال: حذو النّعل بالنّعل، والقذّة بالقذّة[٢]. والقذّة: ريش السّهم.

«من خالق معبود» وفي (المصرية): «معهود» وهو غلط[٣].

«كان قبله» كصنّاع يتّبعون صنّاعاً قبلهم كانوا مخترعي تلك الصنعة.

«وأرانا من ملكوت قدرته» قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون﴾[٤]، فهل قدرة أملك من تلك القدرة التي جعلت التراب بشراً ينتشر؟

«وعجائب ما نطقت به آثار حكمته» ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾[٥].

فهل من حكمة أعجب من هذه فلو لم تكن أزواج الناس من جنس

---

(١) البقرة: ١١٧.

(٢) هذا اصطلاح سائد في لغة العرب، وجاء في الحديث النبوي: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة»، رواه رزين في الجمع عنه جامع الاصول ١٠: ٤٠٨ ح ٧٤٧١، والطوسي في الاقتصاد: ٢١٣، والمفصح: ١٢٧، وأورد الميداني في مجمع الأمثال ١: ١٩٥ والزمخشري في المستقصى ٢: ٦١: «حذو القذة بالقذة»، وقال الزمخشري يضرب في التماثلين.

(٣) لفظ شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٣: «معبود»، ولفظ شرح ابن ميثم ٢: ٣٢٩: «معهود».

(٤) الروم: ٢٠.

(٥) الروم: ٢١.

أنفسهم لنفروا عنها ولم يسكنوا اليها، ولنفرت الأزواج عنهم، ولم تسكن إليهم، كما أنّه لو لم يكن جعل تعالى بينهم مودّة ورحمة، كيف كان الرجال يتحمّلون مشاق مؤونات النساء، وكيف كانت النساء يتحملن مشاقّ تكليفات الرجال، الى غير ذلك من غرائب قدرته وعجائب حكمته في خلقه الّذي لا يحصى.

«واعتراف الحاجة من الخلق» بلسان الحال.

«إلى أن» هكذا في النسخ[١]، والظاهر كونه مصحّف (إلى مَنْ).

«يقيمها بمساك قوّته» ﴿إنّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده...﴾[٢].

«ما» مفعول ثانٍ لقوله «وأرانا».

«دلّنا باضطرار قيام الحجّة له على معرفته» بالوجود والقدرة والحكمة.

«وظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته وأعلام حكمته» هكذا في (النهج)[٣]، والظاهر وقوع سقط لعدم ربط الكلام من أوّله بما قبله.

ويشهد للسّقط رواية (التوحيد) ففيها قبله «الّذي صدرت الأُمور عن مشيئته، وتصاغرت عزّة المتجبرين دون جلال عظمته، وخضعت له الرقاب، وعنت الوجوه من مخافته»[٤].

«فصار كلّ ما خلق حجّة له ودليلاً عليه» قال:

فوا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

(١) كذا في نهج البلاغة ١: ١٦٣، وشرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٣، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٢٩.

(٢) فاطر: ٤١.

(٣) كذا في نهج البلاغة ١: ١٦٣، وشرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٣، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٢٩.

(٤) التوحيد للصدوق: ٥٢ ح١٣.

وفـي كـلّ شـيء له آيـة | تـدلّ عـلى أنّـه واحـد[1]

«وإن كان خلقاً صامتاً» وفي (ابن ميثم)[2]: «وإن كان صامتاً».

«فحجّته بالتّدبير» أي: بوجود مدبّر للخلائق.

«ناطقة» بلسان الحال.

«ودلالته على البدع»: أي كونه تعالى مبدعاً لها.

«قائمة» بشهادة العقول؛ قال بعضهم في وصف النّرجس:

عيون في جفون فـي فنون | بدت فأجاد صنعتها المليك

بأبـصار التـغنج لامـحات | كأنّ حـداقـها ذهب سبيك

على غصن الزمرد مخبرات | بأنّ الله ليس له شـريك

١٣
من الخطبة (٨٩)

بعد ما مرّ:

فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ وَتَلاَحُمِ حِقاقِ مَفَاصِلِهِمْ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ، لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ، وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ ٱلْيَقِينُ بِأَنَّهُ لاَ نِدَّ لَكَ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ ٱلتَّابِعِينَ مِنَ ٱلْمَتْبُوعِينَ، إِذْ يَقُولُونَ: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.[3] كَذَبَ ٱلْعَادِلُونَ بِكَ، إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ، وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ، وَجَزَّؤُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ، وَقَدَّرُوكَ عَلَى ٱلْخِلْقَةِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلْقُوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ

---

(١) أورده ابن أبي الحديد في شرحه ٢: ١٤٤.

(٢) في شرح ابن ميثم ٢: ٣٢٩، وفي شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٣ «خلقاً صامتاً» أيضاً.

(٣) الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨.

سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ، وَٱلْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَت بِهِ مُحْكَمُ آيَاتِكَ، وَنَطَقَتْ بِهِ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ، وَأَنْتَ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي ٱلْعُقُولِ، فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً، وَلاَ فِي رَوِيَّاتِ خَاطِرِهَا مَحْدُوداً مُصَرَّفاً.

«فأشهد» إخباره عليه السلام عن شهادته لتأكيد المطلب نظير قول هود عليه السلام لقومه: ﴿...إنّي أشهد الله واشهدوا أنّي بريء ممّا تشركون * من دونه...﴾[1].

«أنّ من شبّهك بتباين أعضاء خلقك» في كون بعضها أفراداً وبعضها أزواجاً؛ قال الصادق عليه السلام للمفضّل: فالرّأس ممّا خلق فرداً، ولم يكن للإنسان صلاح في أن يكون له أكثر من واحد، الا ترى أنّه لو أُضيف إلى رأس الإنسان رأس آخر لكان ثقلاً عليه من غير حاجة اليه، لأنّ الحواس الّتي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد، ثمّ كان الإنسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان؛ فإن تكلّم من أحدهما كان الآخر معطلاً لا إرب فيه ولا حاجة اليه، وإن تكلّم منهما جميعاً بكلام واحد كان أحدهما فضلاً لا يحتاج اليه، وإن تكلّم بأحدهما بغير الّذي تكلّم به من الآخر، لم يدر السّامع بأيّ ذلك يأخذ، وأشباه هذه من الأخلاط. واليدان ممّا خلق أزواجاً، ولم يكن للإنسان خير في أن يكون له يد واحدة، لأنّ ذلك كان يخلّ به في ما يحتاج إلى معالجته من الأشياء؛ ألا ترى أنّ النّجار والبنّاء لو شلّت إحدى يديه لا يستطيع أن يعالج صناعته، وإن تكلّف ذلك لم يُحكمه، ولم يبلغ منه ما يبلغه إذا كانت يداه تتعاونان على العمل[2].

«وتلاحم» أي: تلاصق، من تلاحمت الشجّة: تلاءم لحمها.

«حِقاق» جمع الحُقّ بالضمّ، وفي (الجمهرة): الحُقّ رأس العضد الذي فيه

---

(١) هود: ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) توحيد المفضل: ٦١.

الوابلة، وأصل الورك الّذي فيه عِظم رأس الفخذ[١]. وزاد (اللّسان): والنقرة التي في رأس الكتف أيضاً[٢].

«مفاصلهم المحتجبة» عن العيون؛ وفي (توحيد المفضل): ولو رأيت الدّماغ اذا كُشف عنه لرأيته قد لفّ بحجب بعضها فوق بعض لتصونه من الأعراض وتمسكه فلا يضطرب، ولرأيت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة كيما تقيه هدّ الصدمة والصكّة التي ربّما وقعت في الرّأس، ثمّ قد جلّلت الجمجمة بالشعر حتّى صارت بمنزلة الفرو للرأس، يستره من شدّة الحرّ والبرد، فمن حصّن الدماغ هذا التّحصين إلّا الّذي خلقه، وجعله ينبوع الحس والمستحقّ للحيطة والصيانة بعلوّ منزلته من البدن، وارتفاع درجته وخطير مرتبته. تأمّل ـ يامفضّل ـ الجفن على العين كيف جعل كالغشاء، والأشفار كالأشراج وأولجها في هذا الغار، وأظلّها بالحجاب، وما عليه من الشعر.

يا مفضل! من غيّب الفؤاد في جوف الصدر، وكساه المدرعة التي هي غشاوة وحصّنه بالجوانح، وما عليها من اللّحم والعصب لئلّا يصل إليه ما ينكؤه[٣].

«لتدبير حكمتك» في تباين ما تباين من الأعضاء، وتلاحم حقاق ما احتجبت من المفاصل على ما عرفت.

هذا وقال ابن أبي الحديد: روى بعضهم قوله عليه السلام: «المحتجبة لتدبير حكمتك»: (المحتجة) فمن قال: المحتجّة، أراد أنّها بما فيها من لطيف الصنعة كالمحتجّة المستدلّة على التدبير الحكمي من لدنه سبحانه، ومن قال:

---

(١) جمهرة اللغة لابن دريد ١: ٦٣.

(٢) لسان العرب ١٠: ٥٦ مادة (حقق).

(٣) توحيد المفضل: ٦٤.

المحتجبة، أراد المستترة لأنّ تركيبها الباطن خفي محجوب[١].

والاشكال عليه أنّ ابن ميثم الّذي نسخته بخطّ المصنّف لم ينقل غير «المحتجبة»[٢]، ورواية التوحيد أيضاً بلفظ «المحتجبة» نسخة واحدة[٣]، وقد عرفت أنّ التدبير مربوط بجميع الكلام لا بخصوص تلاحم حقاق المفاصل.

وكيف كان فبيانه عليه السلام لتدبير حكمته تعالى في الأعضاء والمفاصل ضمنيّ، فإنّه عليه السلام في مقام إنكار تشبيه الخالق بالخلائق، كما أنّه قد يكون الكلام في غير مقام المدح والقدح، ويحصلان ضمناً.

كما أنّ قوله عليه السلام: «شبّهك بتباين» جعل وجه الشبه والمشبّه والمشبّه به اختصاراً وايضاحاً لشناعة فعالهم.

«لم يعقد غيب ضميره على معرفتك» أي أنّ المشبّه له تعالى بالخلق، وإن ادّعى أنّه عرفك، إلّا أنّه لم يصل إلى معرفتك، حيث إنّ ما تصوره الربّ ليس بربّ.

ولمّا اتّهم الواثق أحمد بن نصر الخزاعيّ بالخروج عليه، فأخذ وحمل اليه، قال له الواثق: دع ما أُخذت له؛ أفترى ربّك في القيامة؟

قال: كذا جاءت الرواية.

فقال: ويحك يرى كما يرى المحدود المتجسم يحويه مكان، ويحصره الناظر، أنا أكفر بربّ هذه صفته، ما تقولون فيه؟

فقال ابن أبي داود: شيخ مختل لعلّ به عاهة أو تغيّر عقل.

قال الواثق: ما أراه إلّا مؤدّياً لكفره قائماً بما يعتقده، ودعا بالصّمصامة

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٤.

(٢) في شرح ابن ميثم ٢: ٣٢٩ (المحتجبة).

(٣) التوحيد للصدوق: ٥٤ ح١٣ ولم يُنقل في الهامش اختلاف بين النسخ.

وقال: إذا قمت إليه، فلا يقومنّ أحد معي، فإنّي أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الّذي يعبد ربّاً لا نعبده، ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها. ومشى إليه حتّى ضرب عنقه[١].

ومن المضحك أنّ الخطيب الحشويّ وضع له نومين؛ أحدهما: رأوه في النوم، فقال: لقيت الله فضحك إليّ. والثاني: رأوه في النوم، فقال: غضبت لله فأباحني النّظر الى وجهه. تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

وروى ذاك الحشوي في عنوانه للحسين بن شبيب خبراً عن أبي بكر الصيدلاني عن أبي بكر المروزيّ بأسناد له أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: الكرسيّ الّذي يجلس عليه الربّ وما يفضل منه إلّا قدر أربع، وإن له أطيطاً كأطيط الرّحل الجديد (أي صوته).

وقال ذاك الحشويّ: من ردّ هذا فإنّما أراد الطعن على أبي بكر المروزي، وعلى أبي بكر بن سلم. وهل كانا إلّا رجلين معروفين بالمنكر؟!

ومن العجب أنّ ذاك الحشوي يطعن على أدلّة العقول وعلى كلام الرسول صلى الله عليه وآله، ويذعن ويسكن الى جمع حشويّين ناصبيّين معتقدين بما ﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّاً﴾[٢].

وقال الرضا عليه السلام: إلهي بدت قدرتك، ولم تبد هيئة، فجهلوك وقدّروك، والتقدير على غير ما به وصفوك، وإنّي بريء يا الهي من الذين بالتّشبيه طلبوك[٣].

---

(١) نقله الطبري في التاريخ ٧: ٣٢٨ (سنة ٢٣١)، ونقله الشارح بتصرف، وقد سبق بعض القصة في العنوان (٨) من هذا الفصل.

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ٨: ٥٢، والآية (٩٠) من سورة مريم.

(٣) أخرجه الصدوق في التوحيد: ١٢٤ ح ٢، والعيون ١: ٩٥ ح ٥، وأماليه: ٤٨٧ ح ٢ المجلس (٨٩)، ونقله المجلسي عن الكتاب العتيق للغروي في بحار الأنوار ٩٤: ١٨١ ح ٩ عن الرضا عليه السلام، وأخرجه المفيد في الارشاد: ٢٦٠ عن

«ولم يباشر قلبه اليقين بأنّه لا ندّ» أي: مثل.

«لك» وإنّما استندوا إلى أوهام، واعتمدوا على أباطيل؛ ومنهم أبو إسماعيل الهرويّ، فاستند في ما توهم إلى ما عن مرامه بمراحل، فقال: لما عاب تعالى الأصنام بعدم أرجل يمشون بها، وأيد يبطشون بها، وأعين يبصرون بها، وآذان يسمعون بها حيث قال: ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها...﴾،(١) وقال: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم...﴾،(٢) وقال: ﴿... ألم يروا أنّه لا يكلّمهم ولا يهديهم سبيلاً...﴾،(٣) وقال: ﴿أفلا يرون ألّا يرجع إليهم قولاً...﴾(٤) تبيّن أنّه تعالى تمدّح بها، وأنّها حقائق فيه(٥).

فإنّ عيبهم بما قال لا يستلزم مدحه بها كما توهّم، وإلّا لزم أن يكون جميع البشر آلهة، فعاب آلهتهم بعدم كونهم مثلهم تهجيناً لعقولهم، ولا ينافي ذلك اختصاص الإله من عبيده بكونه جامعاً للصفات الكماليّة بدون الحاجة إلى الجوارح الظاهرية.

«وكأنّه لم يسمع تبرؤ التابعين من المتبوعين إذ يقولون ﴿تالله إن كنّا لفي ضلال مبين* إذ نسوّيكم بربّ العالمين﴾»(٦) والآيتان في الشعراء، وقبلهما: ﴿قالوا وهم فيها يختصمون﴾(٧). والمراد من التابعين: الغاوون، ومن

السجاد عليه السلام.

(١) الأعراف: ١٩٥.

(٢) فاطر: ١٤.

(٣) الأعراف: ١٤٨.

(٤) طه: ٨٩.

(٥) نقله عن ابن طاووس في الطرائف ٢: ٣٤٥.

(٦) الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨.

(٧) الشعراء: ٩٦.

المتبوعين: ما يعبدون من دون الله؛ قال تعالى: ﴿وبرزت الجحيم للغاوين* وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون* من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾[١].

وخطابه عليه السلام وإن كان مع الموحّدين، والآيات في المشركين، إلّا أنّهم لمّا شبّهوه بخلقه صاروا كالمشركين غيره تعالى له عزّوجلّ كما قال عليه السلام[٢].

«إذ شبّهوك بأصنامهم» في إثبات الجسميّة له؛ وفي (التوحيد) بدل (بأصنامهم) (بأصنافهم)[٣].

«ونحلوك» أي: ادّعوا لك باطلاً.

«حلية المخلوقين» التي يكون الخالق منزّهاً عنها.

«بأوهامهم» ولم يراجعوا عقولهم.

«وجزّؤوك تجزئة المجسّمات بخواطرهم، وقدّروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم» الناقصة، والمراد: باستنباط عقولهم الضعيفة؛ والأصل في القريحة أوّل ماء يستنبط من البئر.

قال الدواني: المشبّهة منهم من قال: إنّه جسم حقيقة. ثم افترقوا، فقال بعضهم: إنّه مركّب من لحم ودم. وقال بعضهم : هو نور متلألئ كالسبيكة البيضاء طوله سبعة أشبار بشبر نفسه، ومنهم من قال: إنّه على صورة إنسان. ومنهم من يقول: إنّه شاب أمرد جعد قطط. ومنهم من قال: إنّه شيخ أشمط الرأس واللحية. ومنهم من قال: هو في جهة الفوق مماسّ للصّفحة العليا من العرش، ويجوز عليه الحركة والانتقال، تبدل الجهات ويئطّ العرش

(١) الشعراء: ٩١ ـ ٩٣.

(٢) لم يتعرض الشارح لشرح فقرة «كذب العادلون بك».

(٣) التوحيد للصدوق: ٥١ ح١٣ ونصه: «إذ شبّهوه بمثل أصنافهم» وفي نسخة (أصنامهم).

تحته أطيط الرحل الجديد تحت الرّاكب الثقيل، وهو يفضل على العرش بقدر أربع أصابع. ومنهم من قال: هو محاذ للعرش غير مماسّ له، وبعده عنه بمسافة متناهية، وقيل: بمسافة غير متناهية[1]... إلى غير ذلك من خرافاتهم. تعالى عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

«وأشهد أنّ من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك» عن جلالك.

«والعادل بك» غيرك.

«كافر بما نزّلت به محكم آياتك» قال تعالى: ﴿...أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾[2]، ﴿... ولا تتّبع أهواء الّذين كذبوا بآياتنا والّذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربّهم يعدلون﴾[3]، ﴿...ثم الّذين كفروا بربّهم يعدلون﴾[4].

«ونطقت به شواهد حجج بيّناتك» من دلالة العقول على عدم إمكان كون الخالق كالخلائق.

«وأنت الله الذي لم تتناه في العقول» لقصورها عن الإحاطة بك.

«فتكون في مهبّ» رياح.

«فكرها» ككثير من الأشياء.

«مكيّفاً» بكيفيّة.

«ولا في رويّات خاطرها» أي تفكّرها في الأُمور.

«محدوداً مصرّفاً» كخلقه؛ ورد أنّ رجلاً قال له عليه السلام: أين المعبود؟ فقال عليه السلام: لا يقال له: أين. لأنّه أيّن الأينية، ولا يقال له: كيف. لأنّه كيّف الكيفيّة، ولا يقال له: ماهو. لأنّه خلق الماهية. سبحانه من عظيم تاهت الفطن

---

(١) نقله عن الدواني المجلسي في بحار الأنوار ٣: ٢٨٩.

(٢) النمل: ٦٠.

(٣) الأنعام: ١٥٠.

(٤) الأنعام: ١.

في تيّار أمواج عظمته، وحصرت الألباب عن ذكر أزليته، وتحيّرت العقول في أفلاك ملكوته[١].

هذا، وفي (منهاج العلّامة): حكي عن بعض المنقطعين التاركين من شيوخ الحشويّة أنّه اجتاز عليه في بعض الأيام نقّاط ومعه أمرد حسن الصورة قطط الشعر على الصفات التي يصفون ربّهم بها، فألحّ بالنّظر إليه وكرّره، فتوهم منه النّفاط أمراً، فجاء إليه ليلاً وقال له: رأيتك تلحّ بالنّظر إلى هذا الغلام وقد أتيتك به، فإن كان لك فيه نيّة فأنت الحاكم. فحرد عليه، وقال: إنّما كرّرت النظر لأنّ مذهبي: أنّ الله ينزل على صورة هذا الغلام، فتوهّمت أنّه الله. فقال له النفّاط: والله ما أنا عليه من النفاطة أجود ممّا أنت عليه من الزّهد مع هذه المقالة.

وفيه: وذهب بعضهم إلى أنّه تعالى ينزل في كلّ ليلة جمعة على شكل أمرد ببغداد راكباً على حمار، حتى انّ بعضهم ببغداد صنع على سطح داره معلفاً، ويضع كلّ ليلة جمعة فيه شعيراً وتبناً، فلعلّ ينزل الله على حماره على ذلك السطح، فيشتغل الحمار بالأكل، ويشتغل الرّبّ بالنّداء، ويقول: هل تائب مستغفر؟[٢]

١٤
من الخطبة (٨٩)

بعدما مر:

قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَلْطَفَ تَقْدِيرَهُ، وَدَبَّرَهُ فَأَحْكَمَ تَدْبِيرَهُ، وَوَجَّهَهُ لِوِجْهَتِهِ، فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ، وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الانْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ، وَلَمْ

(١) رواه الفتال في روضة الواعظين ١: ٣٧ وروى في معناه كثيراً لم يسع المقام لذكره.

(٢) نقلهما العلّامة الحلي في منهاج الكرامة: ٧ ونقلناهما بتصرف يسير.

يَسْتَصْعِبُ إِذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ، وَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتِ ٱلْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ؟ ٱلْمُنْشِئُ أَصْنَافَ ٱلْأَشْيَاءِ بِلاَ رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا، وَلاَ قَرِيحَةِ غريزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا، وَلاَ تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ، وَلاَ شَرِيكٍ أَعَانَهُ عَلَى ٱبْتِدَاعِ عَجَائِبِ ٱلْأُمُورِ، فَتَمَّ خَلْقُهُ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، وَأَجَابَ إِلَى دَعْوَتِهِ، وَلَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْبَطِيءِ، وَلاَ أَنَاةُ الْمُتَلَكِّئِ، فَأَقَامَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ أَوَدَهَا، وَنَهَجَ حُدُودَهَا، وَلاَءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا، وَوَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا، وَفَرَّقَهَا أَجْنَاساً مُخْتَلِفَاتٍ فِي ٱلْحُدُودِ وَٱلْأَقْدَارِ وَٱلْغَرَائِزِ وَٱلْهَيْئَاتِ، بَدَايَا خَلاَئِقَ أَحْكَمَ صُنْعَهَا، وَفَطَرَهَا عَلَى مَا أَرَادَ وَٱبْتَدَعَهَا.

«قدّر ما خلق فألطف» هكذا في (المصرية)[١]، والصواب: (فأحكم).

«تقديره» ﴿فالق الإصباح وجعل اللّيل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾[٢]، ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلّها ممّا تنبت الأرض ومن أنفسهم وممّا لا يعلمون* وآيةٌ لهم الليل نَسْلَخُ منه النّهار فإذا هم مظلمون* والشمسُ تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم* والقمرَ قدرناه منازل حتّى عاد كالعُرجون القديم﴾[٣].

«ودبّره فأحكم» هكذا في (المصرية)، والصّواب: (فألطف) كما في غيرها[٤].

«تدبيره» ﴿قل أئنّكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العالمين* وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر

---

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٥ «فأحكم» وفي شرح ابن ميثم ٢: ٣٤٠ «فألطف».

(٢) الأنعام: ٩٦.

(٣) يس: ٣٦ ـ ٣٩.

(٤) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٣٥ «فألطف»، وفي شرح ابن ميثم ٢: ٣٤١ «فأحكم».

فيها أقواتها في أربعة أيّام سواءً للسائلين﴾(١).

وفي دعاء الهلال: «سبحانه ما أعجب ما دبّر في أمرك، وألطف ما صنع في شأنك، جعلك مفتاح شهر حادث لأمر حادث»(٢).

وفي (توحيد المفضل) قال الصادق عليه السلام: «انظر الآن يا مفضّل إلى هذه الحواسّ التي خصّ بها الإنسان في خلقه، وشرّف بها على غيره، كيف جعلت العينان في الرأس كالمصابيح فوق المنارة ليتمكّن من مطالعة الأشياء، ولم تجعل في الأعضاء التي تحتهنّ كاليدين والرجلين فتعترضها الآفات، ويصيبها من مباشرة العمل والحركة ما يعلّلها ويؤثّر فيها، وينقص منها، ولا في الأعضاء التي وسط البدن كالبطن والظهر، فيعسر تقلّبها واطّلاعها نحو الأشياء»(٣). وفيه أيضاً: «اعتبر الآن يا مفضل بعظم النعمة على الانسان في مطعمه ومشربه، وتسهيل خروج الأذى، أليس من حسن التقدير في بناء الدار أن يكون الخلاء في أستر موضع منها؟ فكذا جعل الله سبحانه المنفذ المهيّأ للخلاء من الإنسان في أستر موضع منه، فلم يجعله بارزاً من خلفه، ولا ناشراً من بين يديه، بل هو مغيّب في موضع غامض من البدن، مستور محجوب يلتقي عليه الفخذان، وتحجبه الإليتان بما عليهما من اللّحم فتواريانه، فإذا احتاج الإنسان الى الخلاء وجلس تلك الجلسة ألفى ذلك المنفذ منه منصباً مهيّئاً لانحدار الثفل، فتبارك من تظاهرت آلاؤه ولا تحصى نعماؤه»(٤).

«ووجّهه» أي: ما خلق.

«لوجهته» التي ينبغي أن يكون عليها.

---

(١) فصلت: ٩ ـ ١٠.

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة: ٢١٠، الدعاء (٤٣).

(٣) توحيد المفضل: ٥٨.

(٤) توحيد المفضل: ٧٠.

«فلم يتعدَّ حدود منزلته، ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته» بل يصير إلى ما خلق له بلا زيادة ولا نقصان.

في (توحيد المفضل): انظر الآن كيف حياء الأُنثى من الفيلة في أسفل بطنها، فإذا هاجت للضّراب ارتفع وبرز حتّى يتمكّن الفحل من ضربها، فاعتبر كيف جعل حياء الأُنثى من الفيلة على خلاف ما عليه في غيرها من الأنعام، ثمّ جعلت فيه هذه الخلّة ليتهيّأ للأمر الّذي فيه قوام النّسل ودوامه[١].

«ولم يستصعب» ما خلق.

«إذ أُمر بالمضيّ» والنفوذ.

«على إرادته» ووفق مشيئته؛ قال تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين* فقضاهنَّ سبع سماوات في يومين وأوحى في كلّ سماء أمرها وزيّنّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾[٢]، و: ﴿لا الشّمسُ ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلٌّ في فلك يسبحون﴾[٣].

«وكيف» يستصعب شيء عن إرادته تعالى.

«وإنّما صدرت الأُمور عن مشيئته» ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[٤]، ﴿وما تَشاؤُونَ إلّا أن يشاء الله...﴾[٥].

«المنشئ أصناف الأشياء بلا رويّة» أي: تأمّل.

«فكر آل» أي: رجع.

---

(١) توحيد المفضل: ١٠٤.

(٢) فصلت: ١١ ـ ١٢.

(٣) يس: ٤٠.

(٤) يس: ٨٢.

(٥) الانسان: ٣٠.

«اليها» كالناس في أفعالهم ﴿وهو الّذي أنشأ جنّات معروشات وغيرَ معروشات والنّخلَ والزّرعَ مختلفاً أُكُلُهُ والزّيتونَ والرّمان متشابهاً وغير متشابهٍ كلوا من ثمره إذا أثمرَ وآتوا حقَّهُ يَومَ حَصادِه ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين* ومن الأنعام حمولة وفرشاً...﴾[1].

«ولا قريحة» والأصل في القريحة أوّل ماء يستنبط من البئر، ثمّ استعير لما يستنبط بجودة الطبع.

«غريزة» بتقديم الرّاء على الزّاء، أي: الطبيعة.

«أضمر» أي: عمل في الضمير.

«عليها» أي: على تلك القريحة.

«ولا تجربة استفادها من حوادث الدهور» كالنّاس المعمّرين.

«ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأُمور» حسب شأن الخلائق.

«فتمّ خلقه» من حيث جمعه لجميع مصالحه ﴿...ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت...﴾[2].

«وأذعن» أي: خضع وذلّ.

«لطاعته» أي: إطاعته.

«وأجاب إلى دعوته» فلمّا قال بلسان القدرة للسّماء والأرض: ﴿...ائتيا طوعاً أو كرهاً...﴾ قالتا بلسان المذلّة له: ﴿...أتينا طائعين﴾[3].

«ولم يعترض دونه ريث» الرّيث: ضد العجلة كالبُطء.

«البطيء ولا أناة» أي: تأنٍ.

---

(١) الأنعام: ١٤١ ـ ١٤٢.

(٢) الملك: ٣.

(٣) هذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ فصلت: ١١.

«المتلكئ» أي: المتباطئ؛ في رواية (التوحيد) بدل «وأجاب إلى دعوته... أناة المتلكّئ»: «ووافى الوقت الّذي أخرجه إليه إجابة لم يعترض دونها ريث المبطئ، ولا أناة المتلكّئ».[1] وهو الأقرب لإفادة المقصد.

والمراد: أنّ ما يحصل في الوجود كالأسنان للرّضيع، واللحية للرجل، والثّدي للمرأة، إنّما كان لأنّ الأوّل إنّما يوافي الوقت الذي يحتاج إلى الأكل، والثاني إنّما يوافي الوقت الذي يتميّز الرّجل من الطفل، والثالث إنّما يوافي الوقت الذي تستعدّ المرأة للحمل، وكلّ منها قبل ذلك وجوده لغو، لا أنّها تلكّأت وأبطأت عليه ـ تعالى ـ كالناس يريدون شيئاً لا يحصل لهم في ذاك الوقت.

«فأقام من الأشياء أودها» أي: عوجها.

«ونهج» أي: أوضح.

«حدودها» ونقله ابن أبي الحديد (جددها)، وقال: أي طريقها[2]. مع أنّ في (الصحاح): الجَدَد، بالفتح، الأرض الصّلبة[3]، وفي (اللسان) قال ابن شميل: الجدد ما استوى من الأرض[4].

قلت: ويشهد للثاني المثل: من سلك الجدد أمن العثار[5]. ثم في (التوحيد) بدل الجملة «ونهى معالم حدودها»[6].

«ولاءَم بقدرته بين متضادّها» فسّر متضادّ الأشياء ـ التي لاءَم تعالى

---

(١) التوحيد للصدوق: ٥٣ ح ١٢.

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٥ «حدودها» أيضاً، وفي: ١٤٦ شرح فقرة «نهج البلاغة» بلفظ «أوضح الطريق»، وفي شرح ابن ميثم ٢: ٣٤٤ «جددها»، وفي: ٣٤٤ جعل «حدودها» رواية وشرح الفقرة بلفظ «هو ايضاحه لكلّ شيء وجهه وغايته التي تيسرها له».

(٣) صحاح اللغة للجوهري ١: ٤٤٩ مادة (جدد).

(٤) لسان العرب ٣: ١٠٩ مادة (جدد).

(٥) أورده الميداني في مجمع الأمثال ٢: ٣٠٦ والزمخشري في المستقصى ٢: ٣٥٦ وقالا: يضرب في طلب العافية.

(٦) التوحيد للصدوق: ٥٤ ح ١٢.

بينها ـ بعضهم بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وبعضهم بالنّار والماء والريح والتراب.

«ووصل أسباب قرائنها» قيل: المراد اقتران النفوس بالأبدان. وقيل: هدايتها لما هو الأليق بها في معاشها ومعادها. وزاد (التوحيد) «وخالف بين ألوانها»[1].

«وفرّقها أجناساً مختلفات» الإنسان وأنواع الحيوانات والطيور والهوامّ.

«في الحدود والأقدار» أي: المقادير.

«والغرائز» بتقديم الرّاء، أي: الطبائع.

«والهيئات» أي: الأشكال؛ قال الصادق عليه السلام للمفضّل: فكّر يا مفضّل في هذه الأصناف الثلاثة من الحيوان، وفي خلقها على ما هي عليه ممّا صلاح كلّ واحد منها؛ فالإنس لمّا قدروا أن يكونوا ذوي ذهن وفطنة وعلاج لمثل هذه الصناعات من البناء والنجارة والصباغة وغير ذلك خلقت لهم أكفّ كبار ذوات أصابع غلاظ، ليتمكنوا من القبض على الأشياء وأوكدها هذه الصناعات؛ وآكلات اللحم لمّا قدّر أن تكون معائشها من الصيد خلقت لهم أكفّ لطاف مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لأخذ الصيد ولا تصلح للصناعات؛ وآكلات النبات لمّا قدّر أن يكونوا لا ذوات صنعة ولا ذوات صيد، خلقت لبعضها أظلاف تقيها خشونة الأرض إذا حاولت طلب المرعى، ولبعضها حوافر ململمة ذوات قعر كأخمص القدم تنطبق على الأرض عند تهيّئها للركوب والحمولة. تأمّل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان حين خلقت ذوات أسنان حداد وبراثن شداد وأشداق وأفواه واسعة، فإنّه لمّا قدّر أن يكون طعمها اللّحم، خلقت خلقة تشاكل ذلك، وأعينت بسلاح وأدوات

---

(١) التوحيد للصدوق: ٥٤ ح١٣.

تصلح للصيد، وكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير ومخالب مهيّأة لفعلها، ولو كانت الوحوش ذوات مخالب كانت قد أُعطيت ما لا تحتاج إليه، لأنّها لا تصيد ولا تأكل اللّحم، ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه، أعني السلاح الذي تصيد وتتعيّش. أفلا ترى كيف أُعطي كلّ واحد من الصنفين ما يشاكل صنفه وطبقته، بل ما فيه بقاؤه وصلاحه[1].

«بدايا خلائق أحكم صنعها» قال الصادق عليه السلام للمفضّل: فكّر في خلق الزرافة واختلاف أعضائها، وشبهها بأعضاء أصناف من الحيوان؛ فرأسها رأس فرس، وعنقها عنق جمل، وأظلافها أظلاف بقرة، وجلدها جلد نمر، وزعم ناس من الجهّال بالله تعالى أنّ نتاجها من فحول شتّى قالوا: وسبب ذلك أنّ أصنافاً من حيوان البرّ إذا وردت الماء تنزو على بعض السائمة وينتج مثل هذا الشخص الذي هو كالملتقط من أصناف شتّى، وهذا جهل من قائله وقلّة معرفة بالبارئ جلّ قدسه، وليس كلّ صنف من الحيوان يلقح كلّ صنف، فلا الفرس يلقح الجمل، ولا الجمل يلقح البقر، وإنّما يكون التلقيح من بعض الحيوان في ما يشاكله، ويقرب من خلقه كما يلقح الفرس الحمار، فيخرج بينهما البغل، ويلقح الذئب الضبع، فيخرج بينهما السمع[2].

«وفطرها على ما أراد وابتدعها» ﴿سبّح اسم ربّك الأعلى* الذي خلق فسوّى* والّذي قدّر فهدى﴾[3].

وقال الصادق عليه السلام للمفضّل: فكّر في الفطن الّتي جعلت في البهائم لمصلحتها بالطبع والخلقة، لطف من الله عزّوجلّ لهم لئلّا يخلو من نعمه جلّ

---

(١) توحيد المفضل: ٩٦.

(٢) توحيد المفضل: ١٠٤.

(٣) الأعلى: ١ ـ ٣.

وعزّ أحد من خلقه، لا بعقل ورويّة، فإنّ الأيل يأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً، فيمتنع عن شرب الماء خوفاً من أن يدبّ السمّ في جسمه فيقتله، ويقف على الغدير وهو مجهود عطشاً، فيعجّ عجيجاً عالياً ولا يشرب منه، ولو شرب لمات من ساعته. فانظر إلى ما جعل من طباع هذه البهيمة من تحمّل الظماء الغالب الشديد خوفاً من المضرّة في الشرب، وذلك ممّا لا يكاد الإنسان العاقل المميّز يضبطه من نفسه[1].

هذا، وزاد (التوحيد) على ما مرّ: «انتظم علمه صنوف ذرئها، وأدرك تدبيره حسن تقديرها»[2].

١٥
من الخطبة (١٠٦)

ومن خطبة له عليه السلام (وهي من خطب الملاحم):

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَاَلظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ، خَلَقَ اَلْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، إِذْ كَانَتِ اَلرَّوِيَّاتُ لاَ تَلِيقُ إِلَّا بِذَوِي اَلضَّمَائِرِ، وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ؛ خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ اَلسُّتُرَاتِ، وَأَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ اَلسَّرِيرَاتِ.

قول المصنّف: «وهي من خطب الملاحم» الملاحم: الوقائع العظيمة في الفتن، جعلها منها لأنّ فيها: «رأيت ضلالة قد قامت على قطبها...»، كما يأتي في فصل إخباره عليه السلام بالملاحم[3].

قوله عليه السلام: «الحمد لله المتجلّي لخلقه» تجلّياً أجلى من الشمس فقد يشك

---

(١) توحيد المفضل: ١٠٩.

(٢) التوحيد للصدوق: ٥٤ ح١٣.

(٣) يأتي في العنوان (٣٠) منه.

في طلوع الشمس وغروبها وزوالها ومحلّها من السماء إذا كانت تحت السحاب، وليس يشكّ في وجود الصانع غير مكابر في وقت ﴿...أفي الله شكّ فاطر السموات والأرض...﴾[1].

«بخلقه» : أي تجلّيه بسبب مشاهدة مخلوقاته، ولو لم يكن في خلقه إلّا الشمس لكفاه في تجلّيه لخلقه، كيف وخلقه لا يحصى؟!

«والظاهر لقلوبهم بحجّته» وإن لم يظهر لأعينهم بمشاهدته؛ كلّم الصادق عليه السلام ابن أبي العوجاء يوماً فعاد اليه غداً. فقال: كأنّك جئت تعيد بعض ما كنّا فيه. فقال: أردت ذلك يابن رسول الله. فقال له أبو عبدالله عليه السلام: ما أعجب هذا؛ تنكر الله وتشهد أنّي ابن رسول الله! فقال: العادة تحملني على ذلك. فقال عليه السلام: فما يمنعك من الكلام؟ قال: اجلالاً لك ومهابةً ما ينطلق لساني بين يديك، فإنّي شاهدت العلماء وناظرت المتكلّمين فما تداخلني هيبة قطّ مثل ما تداخلني من هيبتك.

قال: يكون ذلك ولكن أفتح عليك بسؤال وأقبل عليه، فقال له: أمصنوع أنت أم غير مصنوع؟ فقال عبد الكريم بن أبي العوجاء: بل أنا غير مصنوع. فقال عليه السلام: فصف لي لو كنت مصنوعاً كيف كنت تكون؟

فبقي عبد الكريم مليّاً لا يحير جواباً، وولع بخشبة كانت بين يديه وهو يقول: طويل عريض عميق قصير متحرّك ساكن كلّ ذلك صفة خلقه. فقال عليه السلام: فإن كنت لم تعلم صفة الصّنعة غيرها فاجعل نفسك مصنوعاً لما تجد في نفسك ممّا يحدث من هذه الأُمور. فقال له عبد الكريم: سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك، ولا يسألني أحد بعدك عن مثلها. فقال أبو عبدالله عليه السلام: هبك علمت أنّك لم تسأل في ما مضى، فما علمك أنّك لا تسأل في

---

(١) ابراهيم: ١٠.

ما بعد؟ على أنّك ـ يا عبد الكريم ـ نقضت قولك، لأنّك تزعم أنّ الأشياء من الأوّل سواء، فكيف قدّمت وأخّرت؟ ثم قال: يا عبد الكريم! أزيدك وضوحاً: أرأيت لو كان معك كيس فيه جواهر، فقال لك قائل: هل في الكيس دينار؟ فنفيت كون الدينار في الكيس، فقال لك: صف لي الدّينار، وكنت غير عالم بصفته، هل كان لك أن تنفي كون الدّينار عن الكيس وأنت لا تعلم؟ قال: لا. فقال أبو عبدالله عليه السلام: فالعالم أكبر وأطول وأعرض من الكيس، فلعلّ في العالم صنعة من حيث لا تعلم صفة الصنعة من غير الصنعة. (أي: فكيف تنفي الصنعة؟). فانقطع عبد الكريم، وأجاب إلى الإسلام بعض أصحابه وبقي معه بعض. فعاد في اليوم الثالث، فقال: أُقلّب السؤال. فقال له أبو عبدالله عليه السلام: سل عمّا شئت. فقال: ما الدّليل على حدث الأجسام؟ فقال عليه السلام: إنّي ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلّا وإذا ضمّ إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأُولى، ولو كان قديماً ما زال ولا حال، لأنّ الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأزل دخوله في العدم، ولن تجتمع صفة الأزل والعدم والحدوث، والقدم في شيء واحد. فقال عبد الكريم: هبك علمت في جري الحالتين والزمانين على ما ذكرت واستدللت بذلك على حدوثها، فلو بقيت الأشياء على صغرها من أين كان لك أن تستدلّ على حدوثهنّ؟ فقال عليه السلام: إنّما نتكلّم على هذا العالم الموضوع، فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر كان لا شيء أدلّ على الحدث من رفعنا إيّاه، ووضعنا غيره، ولكن أُجيبك من حيث قدّرت أن تلزمنا، فنقول: إنّ الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنّه متى ضمّ شيء إلى مثله كان أكبر، وفي جواز التّغيير عليه خروجه من القدم، كما أنّ في تغييره دخوله في الحدث ليس لك وراءه شيء يا عبد الكريم. فانقطع وخزي.

فلمّا كان من العام القابل التقى معه في الحرم، فقال له بعض شيعته: إنّ ابن أبي العوجاء قد أسلم. فقال عليه السلام: هو أعمى من ذلك، لا يسلم. فلمّا بصر به عليه السلام قال: يا سيّدي ومولاي. فقال عليه السلام: ما جاء بك الى هذا الموضع؟ فقال: عادة الجسد وسنّة البلد، ولننظر ما النّاس فيه من الجنون والحلق ورمي الحجارة. فقال له عليه السلام: أنت بعد على عتوّك وضلالك يا عبد الكريم، فذهب يتكلّم.

فقال عليه السلام له: لا جدال في الحجّ، ونفض رداءه من يده، وقال: إن يكن الأمر كما تقول ـ وليس كما تقول ـ نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما نقول ـ وهو كما نقول ـ نجونا وهلكت.

فأقبل عبد الكريم على من معه، فقال: وجدت في قلبي حزازة فردّوني، فردّوه فمات[1].

«خلق الخلق من غير رويّة» أي: تفكّر.

«إذ كانت الرويّات لا تليق إلّا بذوي الضمائر» الّذين لهم قلوب في الصدور.

«وليس بذي ضمير في نفسه» وهو نظير قوله عليه السلام في الخطبة الأُولى: «بلا رويّة أجالها ولا تجربة استفادها ولا حركة أحدثها ولا همامة نفس اضطرب فيها»[2].

«خرق علمه باطن غيب السترات» فجعلها منكشفة: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾[3]، ﴿...فإنّه يعلم السرّ وأخفى﴾[4].

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٧٦ ح ٢، والصدوق في التوحيد: ٢٩٦ ح ٢، لكن الحديث في عدد من نسخ الكافي لا كلّها.

(٢) نهج البلاغة ١: ١٦ شرح الخطبة (١).

(٣) غافر: ١٩.

(٤) طه: ٧.

قالوا: أخفى من السرّ ما خطر بالقلب ولم يحصل في الخارج[١].

«وأحاط بغموض» أي: خفي.

«عقائد السريرات» ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله، ويعلم ما في السماوات والأرض...﴾[٢]، ﴿يَسْتخفُونَ من النّاس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يَرْضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا﴾[٣]، ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين* وهو الذي يتوفاكم باللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار...﴾[٤].

١٦
من الخطبة (١٠٧)

ومن خطبة له عليه السلام:

كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ، غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ، وَمَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ. لَمْ تَرَكَ ٱلْعُيونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بِلْ كُنْتَ قَبْلَ ٱلْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ. لَمْ تَخْلُقِ ٱلْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَلَا ٱسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَا يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى

---

(١) أخرج ما في معناه علي بن ابراهيم في تفسيره ٢: ٥٩، وعبد الرزاق في الجامع، وعبد بن حميد في مسنده عن قتادة، وعبد بن حميد في مسنده، وابن المنذر عن الحسن البصري، وعكرمة عنهم الدرّ المنثور ٤: ٢٩٠.

(٢) آل عمران: ٢٩.

(٣) النساء: ١٠٨.

(٤) الأنعام: ٥٩ ـ ٦٠.

عَنْ أَمْرِكَ. كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلاَنِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ. أَنْتَ ٱلْأَبَدُ فَلاَ أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهى لاَ مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ لاَ مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ؛ بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ؛ سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَمَا أَصْغَرَ عِظَمَهُ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ، وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ، وَمَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِيما غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ، وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي ٱلدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ ٱلآخِرَةِ.

«كلّ شيء خاضع له» هكذا في (المصرية)، والصواب: (خاشع له) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[١]. وخشوع كلّ شيء له بمعنى كونه تحت إرادته كالسجود له؛ قال تعالى: ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدوّ والآصال﴾[٢]، ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يَتَفَيَّأُ ظِلالُه عن اليمين والشمائل سجّداً لله وهم داخرون * ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابّة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾[٣].

«وكلّ شيء قائم به» ﴿أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت...﴾[٤]، ﴿إنّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده...﴾[٥].

«غنى كلّ فقير» ﴿هم الّذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتّى ينفضّوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾[٦]،

---

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٢٧، وفي شرح ابن ميثم ٣: ٤٩ «خاضع» أيضاً.

(٢) الرعد: ١٥.

(٣) النحل: ٤٨ ـ ٤٩.

(٤) الرعد: ٣٣.

(٥) فاطر: ٤١.

(٦) المنافقون: ٧.

﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾[1]، ﴿... إن ترن أنا أقلّ منك مالاً وولداً* فعسى ربّي أن يؤتيني خيراً من جنّتك...﴾[2].

«وعزّ كلّ ذليل» ﴿...أيبتغون عندهم العزّة فإنّ العزّة لله جميعاً﴾[3]، ﴿...ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون﴾[4].

«وقوّة كلّ ضعيف» ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾[5].

«ومفزع كلّ ملهوف» ﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء...﴾،[6] ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثمّ إذا مسّكم الضُرّ فإليه تجأرون﴾[7].ويشهد لجميع الفقرات قوله تعالى: ﴿قل اللّهمّ مالك المُلك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كُلِّ شيء قدير* تولج اللّيل في النهار وتولج النهار في اللّيل وتخرج الحي من الميّت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾[8].

«ومن» هكذا في (المصرية) والصواب: (من) بدون واو، كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[9].

«تكلّم سمع نطقه، ومن سكت علم سرّه» ﴿سواء منكم من أسرّ القول ومن

(١) الضحى: ٨.

(٢) الكهف: ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) النساء: ١٣٩.

(٤) المنافقون: ٨.

(٥) الضحى: ٦.

(٦) النمل: ٦٢.

(٧) النحل: ٥٣.

(٨) آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧.

(٩) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٢٧، ومع (الواو) في شرح ابن ميثم ٣: ٤٩.

جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار﴾[١]، ﴿وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السرّ وأخفى﴾[٢].

«ومن عاش فعليه رزقه» ﴿وما من دابّة في الأرض إلّا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلٌّ في كتاب مبين﴾[٣].

وقال الشاعر:

إنّ الّذي شقّ فمي ضامن للرّزق حتّى يتوفّاني

«ومن مات فإليه منقلبه» ﴿قل يَتَوفاكم مَلَكُ الموتِ الّذي وُكِّلَ بكم ثمّ إلى ربّكم ترجعون﴾[٤].

«لم ترك» الكاف مفعول (لم تر).

«العيون» كما ترى الجسمانيّات.

«فتخبر عنك» بكيفيّة أو كميّة.

«بل كنت قبل الواصفين من خلقك» يعني أنّ شهادة العقول بكونك قبل الخلق دالّة على أنّ المخبر عنك إنّما هو القلوب الشاهدة للغيوب لا العيون القاصرة عن رؤية أمر محجوب.

«لم تخلق الخلق لوحشة» ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون﴾[٥].

«ولا استعملتهم لمنفعة» ﴿ما أُريد منهم من رزق وما أُريد أن يطعمون* إنّ الله هو الرزّاق ذو القوّة المتين﴾[٦].

---

(١) الرعد: ١٠.

(٢) طه: ٧.

(٣) هود: ٦.

(٤) السجدة: ١١.

(٥) الذاريات: ٥٦.

(٦) الذاريات: ٥٧ ـ ٥٨.

«ولا يسبقك من طلبت» ﴿... وإذا أراد الله بقوم سُوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال﴾[١]، ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا...﴾[٢].

«ولا يفلتك» أي: لا يخرج من تحت يدك.

«من أخذت» ﴿...فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾[٣]، ﴿فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله﴾[٤]، ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين* ترجعونها إن كنتم صادقين﴾[٥].

«ولا ينقص سلطانك من عصاك» ﴿ولا يحزنك الّذين يسارعون في الكفر إنّهم لن يضرّوا الله شيئاً...﴾[٦]، ﴿... يا أيّها النّاس إنّما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدّنيا ثمّ إلينا مرجعكم فننبّئُكم بما كنتم تعملون﴾[٧].

«ولا يزيد في ملكك من أطاعك» ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها...﴾[٨]، ﴿... ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه ومن كفر فإنّ ربّي غنيّ كريم﴾[٩]

«ولا يردّ أمرك» المراد: أمره القدريّ لا التكليفي.

«من سخط قضاءك» ﴿... وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) الأنبياء: ٤٣.

(٣) القمر: ٤٢.

(٤) القصص: ٨١.

(٥) الواقعة: ٨٦ ـ ٨٧.

(٦) آل عمران: ١٧٦.

(٧) يونس: ٢٣.

(٨) فصلت: ٤٦.

(٩) النمل: ٤٠.

وكرهاً...﴾[١] و ﴿...يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً...﴾[٢].

«ولا يستغني عنك من تولّى عن أمرك» والمراد: أمره التشريعي، ولذا لم يقل عنه مع تقدّم قوله: ولا يردّ أمرك، ﴿وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلمّا كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لَمْ يَدْعُنا إلى ضرٍّ مسّه...﴾[٣]، ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثمّ إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون ثمّ إذا كشف الضرّ عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون﴾[٤].

«كلّ سرّ عندك علانية» ﴿ألا أنّهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرّون وما يعلنون إنّه عليم بذات الصدور﴾[٥].

«وكلّ غيب عندك شهادة» ﴿...عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾[٦].

«أنت الأبد» أي: وجودك أبديّ.

«لا أمد» أي: لا نهاية.

«لك» كما للخلق حتى السماء والأرض والشمس والقمر، وقال ابن أبي الحديد: «أنت الأبد فلا أمد لك» هذا الكلام علويّ شريف لا يفهمه إلّا الرّاسخون في العلم، وفيه شمّة من قول النبي صلى الله عليه وآله: «لا تسبّوا الدهر فإنّ الدّهر هو الله»[٧].

---

(١) آل عمران: ٨٣.

(٢) الشورى: ٤٩ ـ ٥٠.

(٣) يونس: ١٢.

(٤) النحل: ٥٣ ـ ٥٤.

(٥) هود: ٥.

(٦) الأنعام: ٧٣.

(٧) أخرجه الشريف الرضي في المجازات النبوية: ٢٣٥، وأخرجه باختلاف لفظي آخرون، جمع بعض طرقه وألفاظه السيوطي في الدر المنثور ٦: ٣٥.

وفي مناجاة الحكماء لمحة منه أيضاً وهو قولهم: أنت الأزل السرمد، وأنت الأبد الّذي لا ينفد[١].

قلت: وهو كما ترى، فإنّ الطبيعيّين ينسبون الخلق إلى الدّهر فيعبّرون عن الله تعالى بالدّهر، وأمّا الأبد فلم ينسب أحد إليه أفعال الله، والنهي عن سبّ الدّهر في الخبر إنّما هو لكون النّاس إذا نزلت بهم حادثة ينسبونها إلى الدهر ويسبُّونه، مع أنّ المبدئ لكلّ أمر هو الله تعالى، والكلام الّذي نسبه إلى الحكماء لا يعرف حجّيته، مع أنّه لو كان مأخوذاً من كلامه عليه السلام فيه تجوز، والأصل إلى الأبد.

«وأنت المنتهى لا محيص» أي: لا عدول.

«عنك» ﴿وأن إلى ربّك المنتهى﴾[٢].

«وأنت الموعد» أي في القيامة.

«لا منجي منك إلّا إليك» الكلام بتمامه في (المصرية)، وأما في (ابن ميثم، والخطية) فليس قوله: «إلّا إليك» فيهما، لكن الأوّل ذكره في الشرح، وكأنّه أخذه من (ابن أبي الحديد)[٣].

وكيف كان فالأصل فيه قوله تعالى: ﴿...وظنّوا ألّا ملجأ من الله إلّا إليه...﴾[٤]، لأنّه في معنى كلامه عليه السلام، فكما لا ملجأ غيره كذلك لا منجي غيره.

«بيدك ناصية كلّ دابّة» ﴿... ما من دابّة إلّا هو آخذٌ بناصيتها إنّ ربّي على صراط مستقيم﴾[٥].

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٢٨.

(٢) النجم: ٤٢.

(٣) في ابن أبي الحديد ٢: ٢٢٧ «فلا منجي منك إلّا اليك» وفي ابن ميثم ٣: ٥٠ مثله بلا (فاء) قبل (لا).

(٤) التوبة: ١١٨.

(٥) هود: ٥٦.

«واليك مصير كلّ نسمة» أي: ذي روح أو ذي نفس؛ ﴿إليه مرجعكم جميعاً...﴾[1].

«سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك» من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والأنهار والوحوش والطيور.

«وما أصغر عظمه» هكذا في (المصرية) والصواب: (عظيمه) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم، والخطية)[2].

«في جنب قدرتك» ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مددا﴾[3]، ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد* وما ذلك على الله بعزيز﴾[4].

وفي الخبر أنّ رجلاً جاء اليه عليه السلام فقال: أيقدر الله أن يدخل الأرض في بيضة ولا يصغّر الأرض ولا يكبّر البيضة؟ فقال: ويلك إنّ الله لا يوصف بالعجز، ومن أقدر ممّن يلطّف الأرض أو يعظّم البيضة[5].

«وما أهول ما نرى من ملكوتك، وما أحقر ذلك في ما غاب عنّا من سلطانك» ﴿...خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير...﴾[6]، ﴿له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾[7]، ﴿...وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده

(١) يونس: ٤.

(٢) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٢٧، وفي شرح ابن ميثم ٣: ٥٠ «عظمه» أيضاً.

(٣) الكهف: ١٠٩.

(٤) ابراهيم: ١٩ ـ ٢٠.

(٥) أخرجه الصدوق في التوحيد: ١٣٠ ح ١٠ عن علي عليه السلام، وأخرج ما في معناه أيضاً في التوحيد: ١٣٠ ح ٩ عن علي عليه السلام، وروى هذا المعنى عن عيسى والصادق والرضا عليهم السلام مر تخريجه في العنوان (٥) من هذا الفصل.

(٦) الطلاق: ١٢.

(٧) طه: ٦.

حفظهما وهو العلي العظيم﴾[1]، ﴿قل من ربّ السماوات السبع وربّ العرش العظيم* سيقولون لله...﴾[2]، ﴿...وينزّل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمّن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾[3].

وفي (الفقيه) في باب وصف الصلاة عن الصادق عليه السلام: صار التسبيح أفضل من القراءة في الأخيرتين لأن النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا كان في الأخيرتين ذكر ما رأى من عظمة الله عزّوجلّ فدهش فقال: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر»؛ فلذلك صار التسبيح أفضل من القراءة[4].

«وما أسبغ» أي ما أكمل.

«نعمك في الدّنيا» ﴿...وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة...﴾[5].

«وما أصغرها في نعيم» هكذا في (المصرية) والصواب: (في نعم) كما في الثلاثة[6].

«الآخرة» ﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون﴾[7].

وفي الخبر: في الجنّة ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا على خاطر خطر، وان نعمة أدنى أهل الجنّة سبعون ضعفاً لنعم الدّنيا جميعاً[8].

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٧.

(٣) النور: ٤٣.

(٤) أخرجه الصدوق ضمن حديث في الفقيه ١: ٢٠٢ ح ١٠، وفي علل الشرائع ٢: ٣٢٢ ح ٢.

(٥) لقمان: ٢٠.

(٦) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٢٧، وفي شرح ابن ميثم ٣: ٥٠ «نعيم» أيضاً.

(٧) السجدة: ١٧.

(٨) أخرجه الى قوله: «خاطر خطر» البخاري في صحيحه ٢: ٢١٧، ومسلم في صحيحه ٤: ٢١٧٤ ـ ٢١٧٥ ح ٢ و٣ و٤، والترمذي في سننه ٥: ٣٤٦ ح ٣١٩٧، وابن ماجه في سننه ٢: ١٤٤٧ ح ٤٣٢٨، والدارمي في سننه ٢: ٣٣٢، ٣٣٥، وأحمد

١٧
من الخطبة (١٣١)

ومن كلام له عليه السلام:

وَانْقَادَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا وَالآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا، وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلأَرَضُونَ مَقَالِيدَها، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَٱلآصَالِ ٱلأَشْجارُ النَّاضِرَةُ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النِّيرَانَ الْمُضِيئَةَ، وآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ ٱلثِّمَارُ ٱلْيَانِعَةُ.

«وانقادت له الدّنيا والآخرة بأزمّتها» كانقياد الخيول لراكبيها بأعنّتها، أما انقياد الدّنيا له تعالى بأزمّتها فلأنّه كما وصف نفسه: ﴿قل اللّهمّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير* تولج اللّيل في النّهار وتولج النّهار في الليل وتخرج الحي من الميّت وتخرج الميّت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب﴾[١].

وأمّا انقياد الآخرة له تعالى فأوضح، فلا يملك غيره يومئذ شيئاً: ﴿...لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار﴾[٢]، ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذٍ لله﴾[٣]، ﴿...وخشعت الأصوات للرّحمن فلا تسمع إلّا همساً*

في مسنده ٢: ٣٦٩، ٤٠٧، ٤١٦، ٤٦٢، ٥٠٦، وابن أبي شيبة في مسنده، وهنّاد وأحمد كلاهما في الزهد، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن الأنباري عنهم الدر المنثور ٥: ١٧٦ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله، وروي عن عدّة طرق عن أبي سعيد الخدري وسهل بن سعد وابن عباس وابن مسعود والمغيرة بن شعبة وأبي اليمان الهذلي وغيرهم، وأما عبارة «ان نعمة أدنى أهل الجنة» فقد روي ما في معناه كثيراً، ولا يسع المقام لذكر الطرق كلّها.

(١) آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) غافر: ١٦.

(٣) الانفطار: ١٩.

يومئذٍ لا تنفع الشّفاعة إلّا من أذن له الرّحمن ورَضِيَ له قولاً* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً* وعنت الوجوه للحيّ القيّوم وقد خاب من حمل ظلماً﴾[١].

«وقذفت» أي: ألقت.

«إليه السماوات والأرضون مقاليدها» جمع مقلد المفتاح، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿له مقاليد السماوات والأرض...﴾[٢]. وقذف السماوات والأرض مقاليدها إليه تعالى كناية حسنة عن كمال سيطرته عليهما، كبيت مفتاحه بيد شخص يفتحه متى شاء ويغلقه متى شاء؛ فمتى شاء تعالى جادت السّماء، ومتى شاء بخلت، ومتى شاء أخصبت الأرض، ومتى شاء أجدبت؛ وقال تعالى في قصة نوح في ابتدائها: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر* وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾[٣]، وفي انتهائها: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي...﴾[٤].

ثمّ الّذي وقفنا عليه في النسخ: (بأزمّتها) و (مقاليدها)[٥]، والظاهر وقوع تصحيف وكون الأصل (بأزمّتهما) و (مقاليدهما) بلفظ التّثنية إرجاعاً للأوّل إلى الدّنيا والآخرة، وللثّاني إلى السماوات و (الأرضون). فإنّ أوّل الثاني بكون السماوات و (الأرضون) بلفظ الجمع فلا يتأتى في الأوّل، لكون كلّ من الدّنيا والآخرة بلفظ المفرد، وليسا في معنى الجمع حتّى يعبّر عنهما بلفظ الجمع،

---

(١) طه: ١٠٨ ـ ١١١.

(٢) الزمر: ٦٣.

(٣) القمر: ١١ ـ ١٢.

(٤) هود: ٤٤.

(٥) كذا في نهج البلاغة ٢: ١٦، وشرح ابن أبي الحديد ٢: ٣٦١، وشرح ابن ميثم ٣: ١٥٢.

نظراً إلى المعنى كقوله تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربّهم...﴾[١]، مع أنّ الثاني أيضاً يعبّر عنه بلفظ الاثنين كقوله تعالى: ﴿أولم ير الّذين كفروا أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما...﴾[٢].

«وسجدت له بالغدوّ» على فعول جمع الغدو على فعل، كما قاله الليث وجمعه الآخر الغدوات، وأمّا الغدايا في قولهم: «إنّي لآتيه بالغدايا والعشايا» فلا يأتي جمعاً إلّا ازدواجاً مع العشايا.

«والآصال» جمع الأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب.

وفي القرآن كلّما ذكر الأصيل ذكر مع بكرة، وكلّما ذكر الآصال ذكر مع الغدوّ، كما أنّه كلّما ذُكر الأوّلان نُكّرا فقال: ﴿بكرةً وأصيلاً﴾ وكلّما ذكر الأخيران عرّفا فقال: ﴿بالغدوّ والآصال﴾. الأوّل في أربع آيات في الفرقان والأحزاب والفتح والدّهر[٣]، والثاني في ثلاث في الأعراف والرّعد والنور[٤].

«الأشجار النّاضرة» أي: ذات الحسن والرّونق، والأشجار الناضرة وإن تسجد له تعالى في كلّ حال حسب غيرها من الأشياء كما قال تعالى: ﴿ألم تر أنّ الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدّوابُّ...﴾[٥] إلّا أنّه عليه السلام قيّد سجودها بالغدوّ والآصال، لأنّ المراد بالسجود لها هنا سجود خاص بظهور طراوتها وصفاتها وانتشار شميمها فيهما، دون السجود العام المراد به الدخول تحت خضوع التّكوّن، كما أراد عزّوجلّ فيها.

---

(١) الحج: ١٩.

(٢) الأنبياء: ٣٠.

(٣) الفرقان: ٥، الأحزاب: ٤٢، الفتح: ٩، الدهر: ٢٥.

(٤) الأعراف: ٢٠٥، الرعد: ١٥، النور: ٣٦.

(٥) الحج: ١٨.

«وقدحت» بلفظ المجهول من قدحت النّار، أي: أوقدتها.

«له» أي: لأمره.

«من قضبانها» القضبان جمع القضيب، أي: الغصن.

«النّيران» جمع النّار.

«المضيئة» ﴿أفرأيتم النار التي تورون* أأنتُم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون* نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمُقوين﴾[١]، ﴿الّذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾[٢].

«وآتت» أي: أعطت.

«أُكلها» أي: ما يؤكل منها؛ مفعول مقدّم.

«بكلماته الثّمار اليانعة» وينع الثمر: نضجه؛ قال تعالى: ﴿...انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه إنّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾[٣]، وقوله عليه السلام: «بكلماته» إشارة الى قوله تعالى: ﴿تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربّها...﴾[٤].

ونظير فقراته عليه السلام في العنوان كلام السجّاد عليه السلام من عترته في مناجاته الإنجيلية: فسبّحت له السماوات وأكنافها، والأرض وأطرافها، والجبال وأعراقها، والشجر وأغصانها، والبحار وحيتانها، والنجوم في مطالعها، والأمطار في مواقعها، ووحوش الأرض وسباعها، ومدر الأنهار وأمواجها، وعذب المياه وأُجاجها، وهبوب الرياح وعجاجها، وكلّ ما وقع عليه وصف وتسمية، أو يدركه حدّ يحويه ممّا يتصوّر في الفكر، أو يتمثّل بجسم أو قدر أو ينسب إلى عرض أو جوهر، من صغير حقير أو خطير كبير، مقرّاً له

---

(١) الواقعة: ٧١ ـ ٧٣.

(٢) يس: ٨٠.

(٣) الأنعام: ٩٩.

(٤) ابراهيم: ٢٥.

بالعبوديّة، خاشعاً معترفاً له بالوحدانية، طائعاً مستجيباً لدعوته، خاضعاً متضرّعاً لمشيّته متواضعاً[1].

١٨
من الخطبة (١٥٠)

ومن كلام له عليه السلام:

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِأَشْبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ، لَا تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ. اَلْأَحَدِ لَا بِتَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَالْخَالِقِ لَا بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ، وَالسَّمِيعِ لَا بِأَدَاةٍ، وَالْبَصِيرِ لَا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ، وَالشَّاهِدِ لَا بِمُمَاسَّةٍ، وَالْبَائِنِ لَا بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ، وَالظَّاهِرِ لَا بِرُؤْيَةٍ، وَالْبَاطِنِ لَا بِلَطَافَةٍ. بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: كَيْفَ. فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: أَيْنَ. فَقَدْ حَيَّزَهُ؛ عَالِمٌ إِذْ لَا مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لَا مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لَا مَقْدُورٌ.

أقول: رواه (الكافي) في إسناد عن الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام، وفي آخر عن الكاظم عليه السلام، ورواه (توحيد الصدوق) عن الرضا عليه السلام.

فروى الأوّل أوّلاً عن علي بن محمد عن سهل عن شباب الصيرفي عن عليّ بن سيف عن إسماعيل بن قتيبة قال: دخلت أنا وعيسى شلقان على أبي عبدالله عليه السلام فابتدأنا فقال: عجباً لأقوام يدّعون على أمير المؤمنين عليه السلام ما لم يتكلّم به قطّ؛ خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس بالكوفة فقال: الحمد لله الملهم

(١) روى هذه القطعة ضمن المناجاة الانجيلية المجلسي في بحار الأنوار ٩٤: ١٥٩ عن كتاب أنيس العابدين.

عباده حمده، وفاطرهم على معرفة ربوبيته، الدالّ على وجوده بخلقه، وبحدوث خلقه على أزله، وباشتباههم على أن لا شبه له، المستشهد بآياته على قدرته، الممتنعة من الصفات ذاته، ومن الأبصار رؤيته، ومن الأوهام الإحاطة به، لا أمد لكونه، ولا غاية لبقائه، لا تشمله المشاعر، ولا تحجبه الحجب، والحجاب بينه وبين خلقِه، خلقُه إيّاهم لامتناعه ممّا يمكن في ذواتهم، ولإمكان مما يمتنع منه، ولافتراق الصانع من المصنوع، والحادّ من المحدود، والربّ من المربوب، الواحد بلا تأويل عدد، والخالق لا بمعنى حركة، والبصير لا بأداة، والسميع لا بتفريق آلة، والشاهد لا بمماسّة، والباطن لا باجتنان، والظاهر البائن لا بتراخي مسافة، أزله نهية لمجاول الأفكار، ودوامه ردع لطامحات العقول، قد حسر كنهه نوافذ الأبصار، وقمع وجوده جوائل الأوهام؛ فمن وصف الله فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله، ومن قال: أين. فقد غيّاه، ومن قال: علام. فقد أخلى منه، ومن قال: فيم. فقد ضمّنه(١).

ثم قال: ورواه محمّد بن الحسين عن صالح بن حمزة عن فتح بن عبدالله مولى بني هاشم، قال: كتبت إلى أبي إبراهيم عليه السلام أسأله عن شيء من التوحيد، فكتب إليّ بخطه: الحمد لله، وذكر مثل ما رواه سهل ـ إلى قوله ـ وقمع وجوده جوائل الأوهام. رواه في باب جوامع التوحيد(٢).

وروى الثاني عن الدّقّاق عن الأسدي عن البرمكي عن عليّ بن عباس بن جعفر بن محمد الأشعري عن فتح بن يزيد الجرجاني، قال: كتبت إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام أسأله عن شيء من التوحيد، فكتب إليّ بخطّه، قال جعفر:

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١٣٩ ح٥.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١٤٠ ح٦ وزاد فيه «أول الديانة به معرفته...».

وإنّ فتحاً أخرج إليّ الكتاب فقرأته بخطّ أبي الحسن عليه السلام ... مع تفاوت يسير[1].

«**الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه على أزليّته، وبأشباههم على أن لا شبه له**» استدلّ عليه السلام على أصل وجوده تعالى، ثمّ على أزليّته، ثمّ على نفي الشّبه له بما ذكر.

قال الصادق عليه السلام: لم يكن بدّ من إثبات الصانع لوجود المصنوعين والاضطرار منهم إليه أثبت أنّهم مصنوعون، وأنّ صانعهم غيرهم، وليس مثلهم إذ كان مثلهم شبيهاً بهم في ظاهر التركيب والتأليف، وفيما يجري عليهم من حدوثهم بعد أن لم يكونوا، وتنقلهم من صغر إلى كبر، ومن سواد إلى بياض، ومن قوّة إلى ضعف[2].

«لا تستلمه» من استلم الحجر إذا لمسه.

«المشاعر» أي: الحواس الظاهرة، وهي السامعة والباصرة والذائقة والشامّة واللامسة؛ قال الشاعر:

والرّأس مرتفع فيه مشاعره   يهدي السبيل له سمع وعينان[3]

«**ولا تحجبه السّواتر**» كما تستر البيت أستار الكعبة.

«**لافتراق الصانع والمصنوع**» فلا يمكن أن يكون في الصانع مشاعر مثل مشاعر المصنوعين.

«**والحادّ والمحدود، والربّ والمربوب**» فلا يمكن أن تحجبه السواتر كالمحدود والمربوب.

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٥٦ ح ١٤.

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٢٤٦ ح ١ ضمن احتجاج له عليه السلام، وروى هذا الاحتجاج الكليني في الكافي ١: ٨٠ ح ٥، والطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٣١، ولكن ليست هذه القطعة فيهما.

(٣) لسان العرب ٤: ٤١٣ مادة (شعر) والشاعر بلعاء بن قيس.

«الأحد لا بتأويل عدد» هكذا في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[١] وأمّا ما في (المصرية) «الأحد بلا تأويل عدد» فغلط.

وفي الخبر: أنّ أعرابياً قام يوم الجمل الى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال يا أمير المؤمنين! أتقول: إنّ الله واحد؟ ثمّ انجرّ الحديث إلى أن قال عليه السلام: إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام؛ فوجهان منها لا يجوزان على الله تعالى، ووجهان يثبتان فيه؛ فأمّا اللّذان لا يجوزان عليه: فقول القائل واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد...[٢].

وأمّا ما في دعاء (الصحيفة): «لك يا إلهي وحدانيّة العدد»[٣] فالمراد به أنّه لا يطلق عليه من لفظ الأعداد إلّا الواحد، وإن لم يكن إطلاقه عليه بمعنى كونه أوّل الأعداد، بل بمعنى أنّه لا ثاني له.

وأمّا قول ابن سينا ـ كما نقل عنه في استشكاله في كون موضوع علم الحساب العدد الحاصل في المادة، بأنّ المحاسب يبحث عن العدد المفارق للمادة في الخارج أيضاً، لعروضه المجرّدات كالعقول والنفوس وذات الواجب إن قلنا: إنّ الواحد عدد[٤] ـ فخطأ منه حسب كثير من أوهامه في أُصول الدين.

«والخالق لا بمعنى حركة ونصب» أي: تعب ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[٥].

«والسميع لا بأداة» أي: أُذن وسامعة.

---

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٤٢٢، وشرح ابن ميثم ٣: ٢٢٨ «بلا تأويل» أيضاً.

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٨٣ ح ٣، ومعاني الأخبار: ٥ ح ٢، والخصال ١: ٢ ح ١.

(٣) الصحيفة السجادية الكاملة: ١٥١ الدعاء (٢٨).

(٤) قاله ابن سينا في المقالة الثالثة في إلهيات الشفاء: ٣٣٥ من الفصل الثاني الى السادس بتفصيل، وهذا مستنبط من كلامه.

(٥) يس: ٨٢.

«والبصير لا بتفريق» وأمّا ما في (المصرية): «والبصير بلا تفريق» فغلط[١].

«آلة» قد عرفت أنّ (الكافي) رواه: «البصير لا بأداة والسّميع لا بتفريق آلة»[٢].

لكن الظاهر صحّة ما هنا لتصديق (التوحيد) له[٣]، مع أنّه لا معنى لتفريق الآلة في السمع بخلافه في البصر؛ فالإنسان في إبصاره للأشياء يفرّق الآلة (أي الحدقة) مرّة إلى شيء وأُخرى إلى آخر، وسماعه لشيئين وإن كان بتوجّهه إلى هذا مرّة، وإلى ذاك أُخرى إلّا أنّه ليس فيه تفريق آلة.

قال ابن أبي الحديد: المراد بتفريق الآلة هاهنا الشعاع الذي باعتباره يكون الواحد منّا مبصراً؛ فإنّ القائلين بالشّعاع يقولون: إنّه يخرج من العين أجسام لطيفة هي الأشعة، وتكون آلة للحيّ في أبصار المبصرات فيتفرّق عليها، فكلّ جسم يقع عليه ذلك الشعاع يكون مبصراً[٤].

قلت: وعلى ما فسّرنا كلامه عليه السلام لا يستلزم صحّة القول بالشّعاع، بل الأصحّ هو القول بالانطباع، وتشهد له الأخبار الدالّة على أنّ الله تعالى أدخل العالم بكبره في سواد العين الذي يكون بقدر عدسة[٥].

«والشاهد» للأشياء.

---

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٤٢٢ «لا بتفريق»، وفي شرح ابن ميثم ٣: ٢٢٨ «بلا تفريق» وفي نهج البلاغة ٢: ٤٠ «لا بتفريق» أيضاً.

(٢) مرّ في بداية هذا العنوان.

(٣) التوحيد للصدوق: ٥٦ ح ١٤.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٤٢٣.

(٥) مقصود الشارح حديث سؤال الديصاني هشام بن الحكم وجواب الصادق عليه السلام له. أخرجه الكليني في الكافي ١: ٧٩ ح ٤، والصدوق في التوحيد: ١٢٢ ح ١، ومر متن الحديث في العنوان (٥) من هذا الفصل.

«لا بمماسّة» منه تعالى لها بل بعلمه وإحاطته بها.

«والبائن» أي: البعيد عن الأشياء.

«لا بتراخي» تفاعل من الرخو مقابل الصعب، والمراد البعد، يقال: تراخى السماء، إذا بَعُدَ نزول المطر.

«مسافة» والأصل في المسافة: سفت الشيء، إذا شممته؛ كان الدليل على الطريق إذا كان في فلاة أخذ التراب فشمّه ليعلم أعلى قصد أم جور؛ قال رؤبة:

اذا الدّليل استاف أخلاق الطرق[١]

ثمّ كثر حتّى سمّوا البعد مسافة. والمسافة في قصر الصلاة أربعة وعشرون ميلاً.

«والظاهر لا برؤية» أحدٍ له كظهور غيره من الأشياء.

«والباطن لا بلطافة» كبطون غيره من الأشياء.

«بان» أي: انفصل وبعد.

«من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها» جملة (بان ...) تفسير وشرح لقوله: «والبائن لا بتراخي مسافة».

«وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه» الجملة من تتمة الأُولى، فإنّه اذا كان تعالى بان من الأشياء كانت الأشياء بائنة منه، لكن كلّ منهما لا بمعنى البينونة في الأشياء بعضها مع بعض.

«من وصفه فقد حدّه» ولا حدّ له.

«ومن حدّه فقد عدّه» وهو منزّه عن العدد.

«ومن عدّه فقد أبطل أزله» مع أنّه أزلي لا آخر له، فلا يجيء العدّ في أمده.

«ومن قال: كيف» خبراً.

---

(١) أساس البلاغة: ٢٢٥ مادة (سوف)، ولسان العرب ١: ١٦٥ مادة (سوف).

«فقد استوصفه» ومحال استيصافه، وبيان وصف له.

«ومن قال: أين» خبراً.

«فقد حيّزه» أي: جعله في حيّز وموضع؛ قال القطاميّ في امرأة خافت أن يصير ضيفها:

تحيّز منّي خشية أن أُضيفها   كما انحازت الأفعى مخافة ضارب[١]

وفي (الكافي) بدل «فقد حيّزه»: «فقد غيّاه»[٢]، وفي (التوحيد) بدله «فقد أخلى منه»[٣].

«عالم إذ لا معلوم، وربّ إذ لا مربوب، وقادر إذ لا مقدور» إذ الثلاثة من صفات الذات لا الفعل، وصفات الذات أبدية بلا ضدّ بخلاف صفات الفعل.

قال الكليني: إنّ كلّ شيئين وصفت الله بهما وكانا جميعاً في الوجود فذلك صفة فعل، وتفسير هذه الجملة أنّك تثبت في الوجود ما يريد وما لا يريد، وما يرضاه وما يسخطه، وما يحبّ وما يبغض -ثم قال- إنّا لا نجد في الوجود ما لا يعلم وما لا يقدر عليه[٤].

قال الصادق عليه السلام -لبكير بن أعين لمّا سأله: هل علمه تعالى ومشيئته مختلفان أو متّفقان؟-: العلم ليس هو المشيئة؛ ألا ترى أنّك تقول: سأفعل كذا إن شاء الله، ولا تقول: سأفعل إن علم الله[٥].

وبالجملة كان عزّ وجلّ عالماً وربّاً وقادراً أبداً قبل الخلق وبعد الخلق.

---

(١) لسان العرب ٥: ٣٤٣ مادة (حيز).

(٢) الكافي ١: ١٤٠ ح ٥.

(٣) التوحيد للصدوق: ٥٧ ح ١٤.

(٤) الكافي ١: ١١١.

(٥) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١٠٩ ح ٢، والصدوق في التوحيد: ١٤٦ ح ١٦، ونقله الحسن بن سليمان في مختصر بصائر الدرجات: ١٤٠ في صدر حديث.

١٩
من الخطبة (١٦١)

ومن خطبة له عليه السلام:

الحَمْدُ لِلّهِ خالِقِ الْعِبادِ، وَسَاطِحِ الْمِهَادِ، وَمُسِيلِ الْوِهادِ، ومُخْصِبِ النَّجادِ، لَيْسَ لأوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلاَ لأزَلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ. هُوَ الأوَّلُ لَمْ يَزَلْ، والْبَاقي بِلاَ أجَلٍ. خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاه. حَدَّ الأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إبانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِها. لاَ تُقَدِّرُهُ الأوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالحَرَكَاتِ، وَلاَ بِالجَوَارِحِ وَالأَدَوَاتِ. لاَ يُقَالُ لَهُ: مَتَى، وَلاَ يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ بِحَتَّى. الظَّاهِرُ لاَ يُقالُ: مِمّا. وَالْبَاطِنُ لاَ يُقالُ: فيما. لاَ شَبَحٌ فَيَتَقَضَّى، وَلاَ مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى، لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الأشْياءِ بِالْتِصَاقٍ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ، وَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ، وَلاَكُرُورُ لَفْظَةٍ، ولاَ ازْدِلاَفُ رَبْوَةٍ، وَلاَ انبِسَاطُ خُطْوَةٍ فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَلاَ غَسَقٍ سَاجٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الْشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الأُفُولِ وَالكُرُورِ، وَتَقَلُّبِ الأزْمِنَةِ والدُّهُورِ، مِنْ إقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإدْبارِ نَهارٍ مُدْبِرٍ، قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ. تَعَالى عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الأَقْدَارِ، وَنِهَايَاتِ الأقْطَارِ، وَتَأثُّلِ الْمَسَاكِنِ، وتَمَكُّنِ الأَمَاكِنِ؛ فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ وإلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ. لَمْ يَخْلُقِ الأشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ، وَلاَ مِنْ أوَائِلَ أبَدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ ما خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ. لَيْسَ لِشَيءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ، وَلاَ لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ. عِلْمُهُ بِالأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالأَحْياءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الأرَضِينَ السُّفْلَى.

أقول: لا يبعد أن يكون الأصل في الخطبة ما رواه (توحيد الصدوق)

مسنداً عن أبي المعتمر مسلم بن أوس، قال: حضرت مجلس عليّ عليه السلام في جامع الكوفة فقام إليه رجل مصفر اللّون كأنّه من متهوّدة اليمن. فقال: يا أمير المؤمنين صف لنا خالقك وانعته لنا كأنّا نراه وننظر إليه. فسبّح عليّ عليه السلام ربّه وعظّمه، وقال: الحمد لله الّذي هو أوّل بلا بدء ممّا، ولا باطن فيما، ولا يزال مهما، ولا ممازج مع ما، ولا خيال وهما. ليس بشبح فيرى، ولا بجسم فيتجزّى، ولا بذي غاية فيتناهى، ولا بمحدث فيبصر، ولا بمستتر فيكشف، ولا بذي حجب فيحوى. كان ولا أماكن تحمله أكنافها، ولا حملة ترفعه بقوّتها، ولا كان بعد أن لم يكن، بل حارت الأوهام أن تكيّف المكيّف للأشياء، ومن لم يزل بلا مكان، ولا يزول باختلاف الأزمان، ولا ينقلب شأناً بعد شأن، البعيد من حدس القلوب، المتعالي عن الأشياء والضروب، الوتر علّام الغيوب. فمعاني الخلق عنه منفيّة وسرائرهم عليه غير خفيّة. المعرّف بغير كيفيّة، لا يدرك بالحواسّ، ولا يقاس بالنّاس، ولا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأفكار، ولا تقدّره العقول، ولا تقع عليه الأوهام. فكلّ ما قدّره عقل أو عرف له مثل فهو محدود، وكيف يوصف بالأشباح وينعت بالألسن الفصاح من لم يحلل في الأشياء فيقال: هو فيها كائن، ولم ينأ عنها فيقال: هو عنها بائن، ولم يخل منها فيقال: أين، ولم يقرب منها بالالتزاق، ولم يبعد عنها بالافتراق، بل هو في الأشياء بلا كيفية، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وأبعد من الشبه من كلّ بعيد. لم يخلق الأشياء من أصول أزليّة، ولا من أوائل كانت قبله بدية، بل خلق ما خلق وأتقن خلقه، وصوّر ما صوّر فأحسن صورته. فسبحان من توحّد في علوّه، فليس لشيء منه امتناع، ولا له بطاعة أحد من خلقه انتفاع. إجابته للدّاعين سريعة، والملائكة له في السماوات والأرض مطيعة. كلّم موسى تكليماً بلا جوارح وأدوات ولا شفة ولا لهوات. سبحانه وتعالى عن الصفات، فمن زعم أنّ إله

الخلق محدود، فقد جهل الخالق المعبود...»[١].

فإنّهما مشتركتان في كثير من الفقرات، واختلافهما في بعضها لا يبعد أن يكون من اختلاف الروايات، كما أنّ نقصهما وزيادتهما لا يبعد أن يكونا من حيث إنّ الرضيّ ـ رضوان الله عليه ـ ينتخب من الخطب، وقد قال في هذه الخطبة: «ومنها أيّها المخلوق السّويّ...»[٢].

وصرّح (التوحيد) أيضاً بأنّ الخطبة طويلة أخذ منها موضع الحاجة[٣].

«الحمد لله خالق العباد» ﴿يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم الّذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً...﴾[٤].

يمكن أن يراد بقوله عليه السلام: «العباد» البشر فقط، ويمكن أن يراد به الجنّ والإنس معاً لقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون﴾[٥]، فالكلّ عباده، بل مع الملائكة لقوله تعالى: ﴿إنّ كلّ من في السماوات والأرض إلّا آتى الرّحمن عبداً* لقد احصاهم وعدّهم عدّاً* وكلّهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾[٦].

«وساطح المهاد» أي: الأرض التي جعلها للنّاس كالمهد للطفل؛ قال تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا﴾[٧]، أو الأرض التي جعلناها ممهّدة ومهيّأة لانتفاع النّاس بها، أي نوع أرادوا منها؛ قال تعالى: ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً*

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٧٧ ح ٣٤ وقال بعد فقرة «فقد جهله الخالق المعبود»: «والخطبة طويلة أخذنا منها موضع الحاجة».

(٢) نهج البلاغة ٢: ٦٧.

(٣) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٧٧ ح ٣٤ وقال بعد فقرة «فقد جهله الخالق المعبود»: «والخطبة طويلة اخذنا منها موضع الحاجة».

(٤) النساء: ١.

(٥) الذاريات: ٥٦.

(٦) مريم: ٩٣ ـ ٩٥.

(٧) النبأ: ٦.

لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾[١]، وقال عزّوجلّ: ﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾[٢]، وقال عزّ اسمه: ﴿وإلى الأرض كيف سُطحت﴾[٣].

هذا، وقالوا: إنّ قوله عليه السلام: «ساطح المهاد» كالآية الأخيرة لا ينافي كروية الأرض[٤].

«ومسيل الوهاد» أي: الأمكنة المنخفضة؛ حمد الله تعالى على إيجاده الأراضي المنخفضة التي تجري فيها سيول المطر، لأنّه لولا ذلك لما حدثت هذه الأنهار، ولا حصلت منها البساتين والأشجار، والرياحين والأزهار.

«ومخصب النّجاد» النّجاد: جمع النّجد الموضع المرتفع، عكس الوهد، والخصب ضدّ الجدب. حمد تعالى على إخصابه النّجاد بإنزال الأمطار عليها في ما لم تجر الأنهار إليها، ولولا ذلك لبقيت الأراضي المرتفعة ورؤوس الجبال والآكام معطّلة مجدبة.

«ليس لأوّليته ابتداء، ولا لأزليّته انقضاء» ﴿هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن...﴾[٥].

وسئل الصادق عليه السلام عن الأوّل، والآخر في وصفه تعالى، فقال: الأوّل لا عن أوّل قبله ولا عن بدء سبقه، والآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين، ولكن قديم أوّل آخر لم يزل ولا يزول بلا بدء ولا نهاية[٦].

---

(١) نوح: ١٩ ـ ٢٠.

(٢) الذاريات: ٤٨.

(٣) الغاشية: ٢٠.

(٤) لسان العرب ١٥: ١١٦ ـ ١١٧ مادة (غدا). عن الليث «يقال: غدا غدُك، وغدا غدوك: ناقص وتام»، وفي موضع آخر قال الليث: «الغدو جمع، مثل الغدوات، والغدى جمع غدوة».

(٥) الحديد: ٣.

(٦) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١١٦ ح٦، والصدوق في التوحيد: ٣١٣ ح١، وفي معاني الأخبار: ١٢ ح١ عن ميمون البان عن الصادق عليه السلام، وقد مر الحديث في العنوان (٥) من هذا الفصل.

«هو الأوّل لم يزل، والباقي بلا أجل» هما كالشرح لسابقيهما.

«خرّت له الجباه» الجباه جمع الجبهة؛ يمكن أن يراد بالجباه الجباه الظاهرة، فيكون المراد جباه بني آدم، ويمكن أن يراد بها جباه الذلّة والمسكنة من جميع الخليقة استعارة، وهو الأظهر؛ قال تعالى: ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيّأ ظلالُه عن اليمين والشمائل سجّداً لله وهم داخرون﴾[١]، ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكَرهاً وظِلالُهُم بالغُدُوّ والآصال﴾[٢].

«ووحّدته الشّفاه» الشّفاه جمع الشّفة؛ والكلام فيه كسابقه، فيمكن أن يكون الكلام على الحقيقة، ويمكن أن يكون استعارة، فيراد بالشفاه شفاه الاعتراف بلسان الحال من كلّ الحقيقة بربوبيته: ﴿...وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم...﴾[٣].

«حدّ الأشياء عند خلقه لها» أي: جعلها محدودة؛ فلنشو الحيوان والنبات حدّ.

«إبانة» أي: فصلاً.

«له» تعالى.

«من شبهها» فلا يمكن أن يكون محدوداً؛ وفي خطبة أُخرى له عليه السلام «إبانةً لها من شبهه وإبانة له من شبهها»[٤].

«لا تقدّره الأوهام» أي: لا تقدر الأفكار أن تعيّن له مقداراً.

«بالحدود والحركات» كما تكون للكواكب.

---

(١) النحل: ٤٨.

(٢) الرعد: ١٥.

(٣) الاسراء: ٤٤.

(٤) هذه قطعة من خطبة أخرجها الكليني في الكافي ١: ١٣٥ ح١، والصدوق في التوحيد: ٤٢ ح٣.

«ولا بالجوارح والأدوات» كما تكون للإنسان والحيوانات.

«لا يقال له : متى» لأنّها موضوعة للسؤال عن الزّمان؛ قال امرؤ القيس:

متى عهدنا بطعان الكما ... ة والمجد والحمد والسؤدد[1]

وقال جرير:

متى كان حكم الله في كرب النّخل[2]

وهو تعالى منزّه عن المكان.

«ولا يضرب له أمد» أي: مدّة.

«بحتّى» لأنّها موضوعة للانتهاء، ولا انتهاء له تعالى.

«الظاهر لا يقال: ممّا» كما تقول: ظهرت الشمس من السحاب.

«والباطن لا يقال: في ما» كما تقول: بطن القمر في السحاب، و (ما) في (مما) و (في ما) كناية عن الشيء غير المعيّن.

«لا شبح» يأتي الشّبح بمعنى الجسد، كقولهم: أشباح بلا أرواح، وبمعنى الهباء، كقولهم: أدقّ من شبح باطل. والظاهر أنّ المراد هنا: الثاني لقوله عليه السلام:

«فيتقضّى» أي: فينقضي.

«ولا محجوب» كملوك الدُّنيا.

«فيحوى» بالأستار والكلل.

«لم يقرب من الأشياء بالتصاق» كقرب جسم من جسم.

«ولم يبعد عنها بافتراق» كبعد شخص عن شخص.

«لا يخفى عليه من عباده شخوص» من شخص بصره إذا فتحه، وجعل

---

(١) أورده لسان العرب ١٥: ٤٧٥ مادة (متى).

(٢) المصدر نفسه.

لا يطرف.

«لحظة» أي: النّظر بمؤخّر العين، واللحاظ بالفتح مؤخّر العين، واللحاظ بالكسر مصدر لاحظ؛ قال تعالى: ﴿يعلم خائنةَ الأعينِ وما تُخفي الصدور﴾[١].

«ولا كرور» مصدر كرّ.

«لفظة» والأصل في اللفظ الحذف؛ يقال: لَفَظ اللقمة من فيه، سمّي اللفظ لفظاً لأنّه يحذف من الفم؛ قال تعالى: ﴿ما يَلْفِظُ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾[٢]، وقال عزّوجلّ: ﴿...ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا خمسة إلّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أينما كانوا ثمّ ينبّئهم بما عملوا يوم القيامة...﴾[٣].

«ولا ازدلاف» أي: التقدّم والتقرّب؛ قال الشاعر:

وكلّ يوم مضى أو ليلة سلفت فيها النّفوس إلى الآجال تزدلف[٤]

«ربوة» بالضّمّ والفتح والكسر: الموضع المرتفع.

«ولا انبساط خطوة» بالفتح: المشي قدماً واحدة، وأمّا بالضّمّ فما بين قدمين مرّة أو أكثر.

«في ليل داج» أي: مظلم؛ وعن الأصمعي معنى ليل داج: ألبس كلّ شيء لقولهم: دجى الإسلام ...[٥] وقال الشاعر:

---

(١) غافر: ١٩.

(٢) ق: ١٨.

(٣) المجادلة: ٧.

(٤) أساس البلاغة: ١٩٤ مادة (زلف).

(٥) مرّ الكلام حول تخريجه في العنوان (٧) من هذا الفصل.

والليل داج كنفا جلبابه[١]

«ولا غسق» عطف على شخوص؛ قال الجوهري: **الغاسق الليل إذا غاب الشّفق**[٢].

«ساج» أي: دام وسكن؛ قال تعالى: ﴿والليل إذا سجى﴾[٣]، وكيف يخفى عليه شيء وقد قال عزّوجلّ: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلّا كنّا عليكم شهوداً إذ تُفيضون فيه وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين﴾[٤]، ﴿سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار﴾[٥].

«يتفيّأ» أي: يرجع.

«عليه» أي: على الليل الداجي أو الغسق السّاجي.

«القمر المنير» ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيّأُ ظلاله عن اليمين والشمائل سجّداً لله وهم داخرون﴾[٦].

«وتعقبه الشمس ذات النّور في الأُفول» أي: الغروب.

«والكرور» أي: الرجوع والطلوع؛ قال تعالى: ﴿والشمس وضحاها* والقمر إذا تلاها* والنهار إذا جلاها* واللّيل إذا يَغْشاها﴾[٧]، وقال عزّوجلّ:

---

(١) أساس البلاغة: ١٢٧، مادة (دجى).

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٤: ١٥٣٧ مادة (غسق).

(٣) الضحى: ٢.

(٤) يونس: ٦١.

(٥) الرعد: ١٠.

(٦) النحل: ٤٨.

(٧) الشمس: ١ ـ ٤.

﴿والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلّى﴾[1].

«وتقليب» وفي (المصرية): (وتقلب) وهو غلط[2].

«الأزمنة والدهور من إقبال ليل مقبل وإدبار نهار مدبر» قال تعالى: ﴿كلّا والقمر * والليل إذ أدبر * والصبح إذا أسفر﴾[3].

ولعلّ وجه تخصيصه عليه السلام الإقبال بالليل والإدبار بالنّهار، مع أنّ لكلّ منهما إقبالاً وإدباراً: كون الأُمور في الدّنيا على خلاف المراد في الأغلب.

«قبل كلّ غاية ومدّة» فلا يمكن أن تكونا مضافتين إليه تعالى.

«وكلّ إحصاء وعدة» فلا يمكن أن يكونا منسوبين إليه جلّ وعلا.

«تعالى» أي: ارتفع.

«عمّا ينحَله» بالفتح أي: يدّعيه.

«المحدّدون» له تعالى.

«من صفات الأقدار»: أي: الأشياء التي لها مقدار.

«ونهايات الأقطار» من الطول والعرض والعمق.

«وتأثّل» أي: اتخاذ.

«المساكن وتمكّن الأماكن» أي: جعلها مكاناً له.

«فالحدّ لخلقه مضروب» وهو تعالى أجلّ من أن يحدّ.

«وإلى غيره منسوب» فمن نسبه إليه فقد أخطأ.

«لم يخلق الأشياء من أصول أزليّة، ولا أوائل أبدية» هو مثل قوله عليه السلام في خطبة له أُخرى: «لا من شيء خلق ما كان»[4].

---

(١) الليل: ١ ـ ٢.

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٤٥٨، وشرح ابن ميثم ٣: ٢٩٧ «تقلب» أيضاً.

(٣) المدثر: ٣٢ ـ ٣٤.

(٤) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٣١٤ح١.

وقال الكليني بعد نقل ذاك القول: دفع عليه السلام بقوله جميع حجج الثّنوية وشبههم، لأنّ أكثر ما يعتمد الثّنوية في عدم حدوث العالم أن يقولوا: لا يخلو من أن يكون الخالق خلق الأشياء من شيء أو من لا شيء. فقولهم من شيء خطأ، وقولهم من لاشيء مناقضة وإحالة، لأنّ من توجب شيئاً ولا شيء تنفيه، فأخرج أمير المؤمنين عليه السلام هذه اللفظة على أبلغ الألفاظ وأصحّها، فقال: لا من شيء خلق ما كان. فنفى من إذ كانت توجب شيئاً، ونفي الشيء إذ كان كلّ شيء مخلوقاً محدثاً لا من أصل أحدثه الخالق كما قالت الثنوية: إنّه خلق من أصل قديم فلا يكون تدبير إلّا باحتذاء مثال[1].

«بل خلق ما خلق فأقام حدّه» الّذي خلق كلّ شيء ثمّ هدى[2].

«وصوّر ما صوّر فأحسن صورته» ﴿...وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾[3]، ﴿الّذي أحسن كلّ شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين﴾[4].

«ليس لشيء منه امتناع» ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد* وما ذلك على الله بعزيز﴾[5].

«ولا له بطاعة شيء انتفاع» ﴿وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغني حميد﴾[6].

«علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين» ﴿ولقد علمنا

---

(١) الكافي ١: ١٣٦.

(٢) في طه: ٥٠ ﴿الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى﴾.

(٣) التغابن: ٣.

(٤) السجدة: ٧.

(٥) فاطر: ١٦ و ١٧.

(٦) إبراهيم: ٨.

المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾[١].

«وعلمه بما في السماوات العُلى كعلمه بما في الأرضين السّفلى» ﴿ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كلّه...﴾[٢].

وفي الخبر أنّ داودعليه السلام لمّا وقف الموقف بعرفة نظر إلى النّاس وكثرتهم، فصعد الجبل فأقبل يدعو، فلما قضى نُسكه أتاه جبرئيلعليه السلام فقال له: يا داود! يقول لك ربّك: لِمَ صعدت الجبل، ظننت أنّه يخفى عليّ صوت من صوت؟! ثم مضى به الى البحر إلى جدّة، فرسب به في الماء مسيرة أربعين صباحاً في البرّ، فإذا صخرة ففلقها فإذا فيها دودة، فقال له: يا داود يقول لك ربّك: أنا أسمع صوت هذه في بطن هذه الصخرة في قعر هذا البحر. فظننت أنّه يخفى عليّ صوت من صوت[٣].

٢٠
من الخطبة (١٧٦)

ومن خطبة لهعليه السلام:

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قِطْرِ المَاءِ، وَلَا نُجُومُ السَّمَاءِ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي ٱلْهَوَاءِ، وَلَا دَبِيبُ ٱلنَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاء. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ ٱلْأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ ٱلْأَحْدَاقِ.

«لا يشغله شأن» أي: عن شأن آخر كما هو شأن النّاس؛ فإذا اشتغل أحد

---

(١) الحجر: ٢٤.

(٢) هود: ١٢٣.

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ٤: ٢١٤ ح ١١، وأخرج قريباً منه الحسين بن سعيد في الزهد: ٦٤ ح ١٦٩، ١٧٠، وبلا استناد الثعلبي في العرائس: ٢٧٦، والمسعودي في اثبات الوصية: ٥٦، ورواية الكليني عن الصادقعليه السلام ورواية الحسين بن سعيد عنه وعن الباقرعليه السلام.

بالخياطة لا يمكنه النّجارة، وإذا تكلّم مع زيد لا يستطيع التكلّم مع عمرو.

«ولا يغيّره زمان» كما يغيّر الخلق.

«ولا يحويه» أي: لا يضمّه.

«مكان» كما يحوي الجسمانيّات؛ وفي الخبر: سأل يونس بن عبد الرّحمن الكاظم عليه السلام عن عروج النبيّ صلى الله عليه وآله إلى السّماء ثم الى سدرة المنتهى ثمّ إلى حجب النّور، فخاطبه وناجاه هناك، والله لا يوصف بمكان. فقال عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان، ولا يجري عليه زمان، ولكنّه عزّوجلّ أراد أن يشرّف به ملائكته وسكّان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه[1].

«ولا يصفه لسان» ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[2].

«ولا يعزب» أي: لا يغيب ولا يبعد.

«عنه عدد قِطَر» بالكسر فالفتح، جمع قطرة.

«الماء» من الأمطار والبحار؛ قال تعالى: ﴿...وأحصى كلّ شيء عدداً﴾[3].

«ولا نجوم السماء» ﴿...والنّجوم مسخّرات بأمره...﴾[4].

«ولا سوافي» جمع سافية، من سفت الرّيح التراب إذا ذرته.

«الريح في الهواء» والمراد ذرّات التراب التي تثيرها الرياح في الفضاء؛ قال تعالى: ﴿...عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السماوات ولا في

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ١٧٥ ح ٥، وعلل الشرائع ١: ١٣٢ ح ٢.

(٢) الكهف: ١٠٩.

(٣) الجن: ٢٨.

(٤) النحل: ١٢.

الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين﴾[١].

«ولا دبيب» وهو المشي على البطن.

«النّمل على الصفا» أي: الصخرة الملساء ﴿...وسع ربّنا كلّ شيء علماً...﴾[٢].

«ولا مقيل» أي: مستقرّ؛ قال ابن رواة:

اليوم نضربكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله[٣]

«الذرّ» قال الجوهري: الذرّ جمع ذرّة، وهي أصغر من النّمل[٤].

«في الليلة الظلماء» ﴿وما من دابّة في الأرض إلّا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلّ في كتاب مبين﴾[٥].

«يعلم مساقط الأوراق» ﴿...وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾[٦].

«وخفيّ» عن اضافة الصفة.

«طَرف» بالفتح فالسكون؛ قال الجوهريّ: طَرَف بصره يطرف طرفاً إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر. الواحدة من ذلك طرفة؛ يقال: أسرع من طرفة عين، وفلان مطروف العين بفلان إذا كان لا ينظر إلّا إليه[٧].

«الأحداق» جمع الحدقة سواد العين الأعظم؛ قال تعالى: ﴿يعلم خائنة

---

(١) سبأ: ٣.

(٢) الأعراف: ٨٩.

(٣) لسان العرب: ١١: ٥٧٨ مادة (قيل).

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٢: ٦٦٣ مادة (ذر).

(٥) هود: ٦.

(٦) الأنعام: ٥٩.

(٧) صحاح اللغة للجوهري ٤: ١٣٩٥ مادة (طرف).

الأعين وما تخفي الصدور﴾[١].

٢١
من الخطبة (١٧٠)

ومن خطبة له عليه السلام:

الحَمْدُ للهِ الَّذي لا تُواري عَنْهُ سَماءٌ سَماءً، وَلا أَرْضٌ أَرْضاً.

في تسبيح (الصحيفة): سبحانك تسمع وترى ما تحت الثرى، سبحانك أنت شاهد كلّ نجوى، سبحانك موضع كلّ شكوى، سبحانك حاضر كلّ ملأ، سبحانك عظيم الرّجاء، سبحانك ترى ما في قعر الماء، سبحانك تسمع أنفاس الحيتان في قعور البحار. سبحانك تعلم وزن السماوات. سبحانك تعلم وزن الأرضين، سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر، سبحانك تعلم وزن الظلمة والنور، سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء، سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال ذرّة، سبحانك قدّوس قدّوس قدّوس[٢]. وقال تعالى: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها...﴾[٣] ﴿...وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾[٤]، ﴿...وما يعزب عن ربك من مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين﴾[٥].

(١) غافر: ١٩.

(٢) ملحقات الصحيفة السجادية الكاملة: ٣١٩ الدعاء (١).

(٣) سبأ: ٢.

(٤) الحديد: ٤.

(٥) يونس: ٦١.

۲۲
من الخطبة (١٩٦)

ومن خطبة له عليه السلام:

يَعْلَمُ عَجِيجَ ٱلْوُحُوشِ فِي ٱلْفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِيَ ٱلْعِبَادِ فِي ٱلْخَلَوَاتِ، وَٱخْتِلَافَ النِّينَانِ فِي ٱلْبِحَارِ ٱلْغَامِرَاتِ، وَتَلَاطُمَ ٱلْمَاءِ بِالرِّيَاحِ ٱلْعَاصِفَاتِ.

«يعلم عجيج» أي: صياح.

«الوحوش» والمراد ما يعمّ السّباع.

«في الفلوات» أي: البراري والمفازات. ومرّ خبر داود في ذلك[١].

«ومعاصي العباد في الخلوات» ﴿وهو الّذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ثمّ يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمّى ثمّ إليه مرجعكم ثمّ ينبّئكم بما كنتم تعملون﴾[٢]. وفي (دعاء الوتر): فإن قلتُ: نعم. فأين المهرب من عدلك، وإن قلت: لم أفعل. قلتَ: ألم أكن الشاهد عليك[٣].

وفي الخبر: إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا أُري ملكوت السماوات والأرض التفت فرأى رجلاً يزني، فدعا عليه فمات، حتّى رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا، فأوحى تعالى إليه: أنّ دعوتك مجابة، فلا تدع على عبادي، ولو شئت لم أخلقهم[٤].

---

(١) مر في العنوان (١٩) من هذا الفصل.

(٢) الأنعام: ٦٠.

(٣) هذا دعاء في تعقيب صلاة الوتر، ويسمى بدعاء الحزين، رواه الطبرسي في مكارم الأخلاق: ٢٩٦ عن السجاد عليه السلام، ورواه الطوسي في مصباح المتهجد: ١٤٥ بلا عزو.

(٤) أخرجه ابن مردويه عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله، وأخرجه أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عنهم الدرّ المنثور ٣: ٢٤ عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وآله، وأخرجه صاحب تفسير العسكري: ٢٣٤، والطبرسي في الاحتجاج ١: ٣٥ عن النبي صلى الله عليه وآله، وأخرجه الكليني في الكافي ٨: ٣٠٥ ح ٤٧٣، وعلي بن ابراهيم في تفسيره ١: ٢٠٦، والعياشي في تفسيره ١: ٣٦٤ ح ٣٧، والصدوق في علل الشرائع ٢: ٥٨٥ ح ٣١ عن الصادق عليه السلام، وروى موقوفاً عن

هذا، وفي (اليتيمة): يحكى أنّه كان في جملة القضاة الّذين ينادمون الوزير المهلّبي، ويجتمعون عنده في الأُسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتّبسّط في القصف والخلاعة، ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخي، وما منهم إلّا أبيض اللّحية طويلها، وكذلك كان الوزير المهلبي، فإذا تكامل الأُنس وطاب المجلس، ولذّ السماع، وأخذ الطرب منهم مأخذه، وهبوا ثوب الوقار للعقار، وتقلّبوا في أعطاف العيش بين الخفّة والطيش، ووضع في يد كلّ منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوءاً شراباً قطربلياً أو عكبرياً، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتّى تتشرب أكثره، ويرشّ بها بعضهم على بعض ويرقصون أجمعهم، وعليهم المصبغات، ومخانق البرم والمنثور، ويقولون كلّما يكثر شربهم: «هرهر». وإيّاهم عنى السّري بقوله:

مجالس ترقص القضاة بها — اذا انتشوا في مخانق البرم

وصاحب يخلط المجون لنا — بشيمة حلوة من الشيم

تخضب بالرّاح شيبة عبثاً — أنامل مثل حمرة النّعم

حتّى تخال العيون شيبته — شيبة فعلان ضرّجت بدم

فإذا أصبحوا عادتُهم في التوقّر والتحفّظ بأُبهة القضاة وحشمة المشائخ الكبراء[1].

قلت: ألم يكونوا سمعوا قوله تعالي: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا﴾[2]، ﴿...فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الّذي تقول

سلمان وعطاء وشهر بن حوشب بطرق الدرّ المنثور ٣: ٢٤، ونقلها الشارح هنا باختصار.

(١) يتيمة الدهر ٢: ٣٣٥.

(٢) النساء: ١٠٨.

والله يكتب ما يبيّتون...﴾[1].

«واختلاف النّينان» جمع النّون أي: الحيتان بأنواعها ـ الّتي لا يعلمها إلّا خالقها ـ واختلافها بالذّهاب والإياب في الماء.

وفي (توحيد المفضّل): تأمّل خلق السّمك ومشاكلته للأمر الّذي قدّر أن يكون عليه، فإنّه خلق غير ذي قوائم لأنّه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء، وخلق غير ذي رية لأنّه لا يستطيع أن يتنفّس وهو منغمس في اللجّة، وجعلت له مكان القوائم أجنحة شداد يضرب بها في جانبيه كما يضرب الملّاح بالمجاديف من جانبي السفينة، وكسي جسمه قشوراً متاناً متداخلة كتداخل الدّروع والجواشن لتقيه من الآفات. فأعين بفضل حسّ في الشّمّ لأنّ بصره ضعيف والماء يحجبه، فصار يشمّ الطعم من البعد البعيد، فينتجعه فيتبعه، وإلّا فكيف يعلم به وبموضعه؟ واعلم أنّ من فيه إلى صماخه منافذ فهو يعبّ الماء بفيه، ويرسله من صماخيه فيتروّح إلى ذلك كما يتروّح غيره من الحيوان إلى تنسّم هذا النّسيم.

فكّر الآن في كثرة نسله، وما خصّ به من ذلك، فإنّك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة، والعلّة في ذلك أن يتّسع لما يغتذي به من أصناف الحيوان فإنّ أكثرها يأكل السمك، حتى إنّ السباع في حافات الآجام عاكفة عى الماء كي ترصد السمك، فإذا مرّ بها خطفته؛ فلمّا كانت السباع تأكل السمك، والطير يأكل السمك، والناس يأكلون السمك، والسمك يأكل السّمك كان من التدبير فيه أن يكون على ما هو عليه من الكثرة. فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك ودوابّ الماء والأصداف والأصناف التي لا

---

(١) النساء: ٨١

تُحصى ولا تعرف منافعها، إلّا الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث مثل القرمز، فإنّه لمّا عرف النّاس صبغه، بأنّ كلبة تجول على شاطئ البحر فوجدت شيئاً من الصّنف الّذي يسمّي الحلزون فأكلته، فاختضب خطمها بدمه، فنظر الناس إلى حسنه فاتّخذوه صبغاً، وأشباه هذا ممّا يقف النّاس عليه حالاً بعد حال وزماناً بعد زمان[1].

«في البحار الغامرات» أي: تغمر كلّ شيء دخلها وتغطّيه لكثرتها؛ فالبحار ثلاثة أرباع الأرض.

قال الصادق عليه السلام للمفضّل: فإن شككت في منفعة هذا الماء الكثير المتراكم في البحار، وقلت: ما الإرب فيه؟ فاعلم أنّه مكتنف ومضطرب ما لا يحصى من أصناف السمك ودوابّ البحر، ومعدن اللؤلؤ والياقوت والعنبر وأصناف شتّى تستخرج من البحر، وفي سواحله منابت العود اليلنجوج وضروب من الطيب والعقاقير، ثمّ هو بعد مركب للنّاس ومحمل لهذه التجارات التي تجلب من البلدان البعيدة، كمثل ما يجلب من الصين الى العراق، ومن العراق إلى الصين، فإنّ هذه التجارات لو لم يكن لها محمل إلّا على الظهر لبارت وبقيت في بلدانها وأيدي أهلها، لأنّ أجر حملها يجاوز أثمانها فلا يتعرّض أحد لحملها، وكان يجتمع في ذلك أمران: أحدهما: فقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة إليها. والآخر: انقطاع معاش من يحملها ويتعيّش بفضلها[2].

«وتلاطم الماء بالرياح العاصفات» قال تعالى: ﴿والمرسلات عرفاً* فالعاصفات عصفاً﴾[3]، أي: الرياح الشديدة، كعرف الفرس يتلو بعضه بعضاً.

---

(١) توحيد المفضل: ١٢٣.

(٢) توحيد المفضل: ١٤٦.

(٣) المرسلات: ١ ـ ٢.

وقال جلّ وعلا: ﴿...حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كلّ مكان...﴾[١].

٢٣

من الخطبة (١٧٧)

ومن كلام له عليه السلام، وَقَدْ سَأَلَهُ ذِعْلِبُ الْيَمانيّ فَقالَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ يَا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ؟ فَقالَ عليه السلام:

أَفأَعْبُدُ مَا لاَ أرى؟ فَقَالَ: وَكَيْفَ تَرَاهُ؟ فَقَالَ: لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإيمانِ. قَرِيبٌ مِنَ الأَشْيَاءِ غَيْرُ مُلَامِسٍ، بَعِيدٌ مِنْها غَيْرُ مُبايِنٍ، مُتَكَلِّمٌ لاَ بِرَوِيَّةٍ، مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ، صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ، لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ، تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ.

قول المصنّف: «ومن كلام له عليه السلام» المفهوم من أسانيده أنّه من خطبة له عليه السلام[٢]. فروى الصدوق في (التوحيد) بروايتين وفي (الأمالي) برواية مسنداً عن الأصبغ، قال: لمّا بايع النّاس علياً عليه السلام خرج إلى الناس متعمّماً بعمامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لابساً بردته صلى الله عليه وآله متنعلاً نعله صلى الله عليه وآله وسلم متقلّداً سيفه صلى الله عليه وآله، فصعد

(١) يونس: ٢٢.

(٢) المفهوم من رواية الديلمي في إرشاد القلوب: ١٦٧ ح ٥ لحديث ذعلب أنّه كلام له عليه السلام، ويؤيده ما روى الكليني في الكافي ١: ٩٧ ح٦، والصدوق في التوحيد: ١٠٩ ح٦ بلفظ «جاء حبر إلى علي عليه السلام»، وما رواه البرقي في المحاسن: ٢٣٩ ح ٢١٦ بلفظ «جاء رجل من اليهود إلى علي عليه السلام»، وما رواه المفيد في الارشاد: ١٢٠، والطبرسي في الاحتجاج ١: ٢٠٩ بلفظ «جاء رجل الى علي عليه السلام» وما رواه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: ١٥٧ بلفظ «سأل رجل علياً عليه السلام» لكن يؤيد كونه خطبة مضافاً إلى رواية الصدوق المذكورة في رواية الكليني في الكافي ١: ١٣٨ ح ٤، والمفيد في الاختصاص: ٢٣٦.

المنبر فجلس متمكّناً، ثمّ شبّك أصابعه فوضعها أسفل بطنه، ثم قال: يا معاشر الناس! سلوني قبل أن تفقدوني هذا سفط العلم، هذا لعاب رسول الله صلى الله عليه وآله، هذا ما زقّني النبيّ صلى الله عليه وآله زقّاً زقّاً، سلوني فإنّ عندي علم الأوّلين والآخرين، أما والله لو ثنيت لي الوسادة فجلست عليها، لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم حتّى تنطق التوراة فتقول: صدق عليّ ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ؛ وأفتيت أهل الإنجيل بإنجيلهم، حتّى ينطق الإنجيل فيقول: صدق عليّ ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ؛ وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم حتّى ينطق القرآن فيقول: صدق عليّ ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأنتم تتلون القرآن ليلاً ونهاراً، فهل فيكم أحد يعلم ما نزل فيه؟ ولولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان وما يكون إلى يوم القيامة، والآية: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أُمّ الكتاب﴾[1]. ثمّ قال: سلوني قبل أن تفقدوني، فوالّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لو سألتموني عن آية آية في ليل أُنزلت أو في نهار أُنزلت، مكيّها ومدنيّها، سفريها وحضريّها، ناسخها ومنسوخها، محكمها ومتشابهها، تأويلها وتنزيلها، لأخبرتكم. فقام اليه رجل يقال له ذعلب، وكان ذرب اللسان بليغاً في الخطب شجاع القلب، فقال: لقد ارتقى ابن أبي طالب مرقاة صعبة لأُخجلنّه اليوم لكم في مسألتي إيّاه. فقال له: هل رأيت ربّك؟

قال: ويلك يا ذعلب! لم أكن بالّذي أعبد ربّاً لم أره.

فقال: فكيف رأيته صفه لنا؟

قال: ويلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، ويلك يا ذعلب! إنّ ربّي لا يوصف بالبعد، ولا بالحركة ولا بالسكون، ولا بالقيام قيام انتصاب، ولا بمجيء ولا بذهاب، لطيف اللطافة لا يوصف

---

(١) الرعد: ٣٩.

باللطيف، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبر لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، رؤوف الرحمة لا يوصف بالرقّة، مؤمن لا بعبادة، مدرك لا بمجسّة، قائل لا باللفظ. هو في الأشياء على غير ممازجة، خارج منها على غير مباينة، فوق كلّ شيء فلا يقال شيء فوقه، وأمام كلّ شيء ولا يقال له أمام، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل، وخارج منها لا كشيء من شيء خارج.

قال: فخرّ ذعلب مغشياً عليه، ثم قال: تالله ما سمعت بمثل هذا الجواب، والله لا عدت إلى مثلها[1].

لكن يمكن أن يقال: إنّه يصدق مع ذلك أن يجعل العنوان كلاماً، لأنّه كان كلاماً خارجاً عن خطبته عليه السلام في جواب ذعلب لما اعترض في الأثناء.

«وقد سأله ذعلب اليمانيّ» لم أقف في أسانيده على وصف ذعلب باليمانيّ، فقد رأيت خلوّ أسناد الصدوق في (التوحيد) و (الأماليّ) عنه، ورواه (الكافي) في باب جوامع التوحيد عن محمد بن أبي عبدالله مرفوعاً عن الصادق عليه السلام، قال: بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على منبر الكوفة إذ قام إليه رجل يقال له ذعلب ذو لسان بليغ في الخطب، شجاع القلب، فقال: يا أمير المؤمنين! هل رأيت ربك[2]... باختلاف مع رواية الصدوق.

وفي (الإرشاد) في باب مختصر من كلامه عليه السلام في وجوب المعرفة بالله: روى أهل السيرة وعلماء النّقلة أنّ رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين! خبّرني عن الله تعالى، رأيته حين عبدته؟

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: لم أك بالّذي أعبد من لم أره.

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٣٠٤ ح ١، و ٣٠٨ ح ٢ بروايتين وفي الأمالي: ٢٨٠ ح ١ المجلس (٥٥).

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١٣٨ ح ٤.

فقال له: فكيف رأيته حين رأيته؟

فقال له: ويحك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان، معروف بالدّلالات، منعوت بالعلامات، لا يقاس بالناس، ولا تدركه الحواسّ.

فانصرف الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته. وتبعه في (الاحتجاج)[1].

وروى مضمون الخبر (الكافي) في باب إبطال الرؤية عن الباقر عليه السلام واشتمل على أنّ رجلاً من الخوارج سأل الباقر عليه السلام[2].

فالظاهر وهم المفيد في نسبته إلى أمير المؤمنين عليه السلام، ولعلّ المصنّف وقف على مستند آخر غير سند الكليني والصدوق في الكتابين وكان مشتملاً على ذكر اليمانيّ[3].

لكن الظاهر أنّ ذعلب اليمانيّ كان رجلاً آخر متأخّراً من الرواة التبس على المصنّف هذا بذاك؛ فقال نفسه في الخطبة (٢٣٢): روى ذعلب اليماني عن أحمد بن قتيبة عن عبدالله بن يزيد عن مالك بن دحية قال: كنّا عند أمير المؤمنين عليه السلام ...[4]، لكن نقله ابن أبي الحديد على ما في النسخة «ذعلب

---

(١) أخرجه المفيد في الإرشاد: ١٢٠، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ١: ٢٠٩ وبينهما اختلاف لفظي يسير.

(٢) أخرج المضمون الكليني في الكافي ١: ٩٧ ح ٥، والصدوق في التوحيد: ١٠٨ ح ٥، والأمالي: ٢٢٩ ح ٤ المجلس (٤٧)، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٢١ عن الباقر عليه السلام ورواه ـ بلا اشارة الى كون الرجل من الخوارج ـ الديلمي في ارشاد القلوب: ١٦٧ ح ١، والطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٣٦، ورواه متردداً عن الباقر أو الصادق عليهما السلام الاربلي في كشف الغمة ٢: ٤١٨.

(٣) يؤيد هذا الاحتمال رواية الديلمي في ارشاد القلوب التي كانت أوفق الروايات للفظ نهج البلاغة، ولكونه أكمل متناً لا يحتمل روايته عن نهج البلاغة، بل المحتمل رواية كليهما عن مصدر واحد، وفي لفظ الديلمي «ذعلب اليماني» أيضاً.

(٤) لفظ نهج البلاغة ٢: ٢٢٧ «روى اليماني» بدون ذكر ذعلب ولفظ ابن ميثم في شرحه ٤: ١١٤ «روى أبو محمد اليماني».

اليماني»[١].

«فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين» وقد عرفت أنّ خارجياً سأل الباقر عليه السلام عن مثله.

«فقال: أفأعبد ما لا أرى» وروى (المحاسن) أنّ رجلاً من اليهود أتاه عليه السلام فقال: يا علي هل رأيت ربك؟ فقال عليه السلام ما كنت بالّذي أعبد إلهاً لم أره. ثم قال: لم تره العيون في مشاهدة الأبصار غير أنّ الإيمان بالغيب بين عقد القلوب[٢].

«فقال: وكيف تراه؟ فقال» هكذا في (المصرية)، والصواب: (قال: كيف تراه؟ قال) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[٣]، ثم كلمة (قال) الثانية زائدة توكيداً، وإلّا يصير ما بعدها مقولها، ويبقى قوله: «ومن كلام له عليه السلام» خبراً بلا مبتدأ.

«لا تدركه العيون بمشاهدة العيان»، وفي روايه الكليني والصدوق: «لم تره العيون بمشاهدة الأبصار»[٤].

«ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» وإدراك القلوب فوق إدراك العيون، لعدم وقوع لبس في إدراكها، بخلاف إدراك العيون فيقع اللبس فيها كثيراً، ولبعضهم:

لئن لم ترك العين ... فقد أبصرك القلب

وقال الصدوق في (توحيده): والأخبار التي ذكرها أحمد بن محمّد بن عيسى في (نوادره) ومحمّد بن أحمد بن يحيى في (جامعه) في معنى الرؤية صحيحة لا يردّها إلّا مكذّب بالحق أو جاهل به، وألفاظه ألفاظ القرآن، ولكلّ

---

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٣: ١٨٦.

(٢) أخرجه البرقي في المحاسن: ٢٣٩ ح٢١٦.

(٣) لفظ ابن أبي الحديد ٢: ٥٠٤ «فقال: وكيف تراه؟ قال»، ولفظ ابن ميثم ٣: ٣٧٣، «فقال: وكيف تراه؟ فقال».

(٤) الكافي ١: ٩٧ ح٥، والتوحيد للصدوق: ٣٠٥ ح١، و٣٠٨ ح٢.

خبر معنى ينفي التشبيه والتعطيل ويثبت التوحيد، وقد أمرنا الأئمة عليهم السلام أن لا نكلّم الناس إلّا على قدر عقولهم، ومعنى الرّؤية الواردة في الأخبار: العلم، وذلك أنّ الدّنيا دار شكوك وارتياب وخطرات، فإذا كان يوم القيامة كشف للعباد من آيات الله وأموره في ثوابه وعقابه ما يزول به الشكوك، ويعلم حقيقة قدرة الله تعالى، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾[١]؛ فمعنى ما روي في الحديث أنّه تعالى يرى، أي: يعلم علماً يقيناً، كقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّل...﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الّذي حاجّ إبراهيم في ربّه...﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف حذر الموت...﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل﴾[٥] وأشباه ذلك من رؤية القلب، وليست من رؤية العين، وأمّا قوله تعالى: ﴿...فلمّا تجلّى ربّه للجبل...﴾[٦]، فمعناه لمّا ظهر عزّوجلّ للجبل بآية من آيات الآخرة التي يكون بها الجبال سراباً والتي ينسف بها الجبال نسفاً، تدكدك الجبل فصار تراباً لأنّه لم يطق حمل تلك الآية، وقد قيل: إنّه بدا له من نور العرش[٧].

وأمّا قول موسى عليه السلام: ﴿...ربِّ أرني أنظر إليك...﴾[٨] فليس دالاً على تجويز موسى عليه السلام رؤيته تعالى، فإنّه عليه السلام قال ذلك لما سأله قومه رؤيته

---

(١) ق: ٢٢.

(٢) الفرقان: ٤٥.

(٣) البقرة: ٢٥٨.

(٤) البقرة: ٢٤٣.

(٥) الفيل: ١.

(٦) الأعراف: ١٤٣.

(٧) التوحيد للصدوق: ١١٩.

(٨) الأعراف: ١٤٣.

تعالى جهرة، فقال ذلك ليفهمهم امتناعها بجوابه تعالى ﴿...لن تراني...﴾(١)، كما يشهد له قوله تعالى في موضع آخر: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم...﴾(٢)، فإنّ القصة في الآيتين واحدة، وقد صرّح في الثانية بأنّ السؤال له تعالى كان منهم، فكان موسى عليه السلام حاكياً عنهم.

هذا، والإمامية والمعتزلة على امتناع رؤيته تعالى في الدّنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾(٣) ولقوله تعالى: لموسى عليه السلام: ﴿...لن تراني...﴾(٤).

وذهبت الأشاعرة إلى جواز رؤيته في الدّنيا منزّهاً عن الجهة والمكان والمقابلة. وقالت المشبّهة والكراميّة برؤيته في الجهة والمكان لكونه عندهم جسماً(٥)، ونسبوا إلى ابن عباس أنّه قال: إنّ الله اختصّ محمداً بالرّؤية، كما اختص موسى بالكلام(٦).

وقال أحمد بن خابط والفضل الحدثي وهما من أصحاب النظّام بحمل كلّ ما ورد في الخبر من رؤية الباري تعالى مثل قوله صلى الله عليه وآله: «إنكم سترون

---

(١) الأعراف: ١٤٣.

(٢) النساء: ١٥٣.

(٣) الأنعام: ١٠٣.

(٤) الأعراف: ١٤٣.

(٥) هذا اقتباس من قول المجلسي في بحار الأنوار ٤: ٥٩ ـ ٦٠. وخلاصة قول المفيد في أوائل المقالات: ٦٣ أنّ صحة رؤية الله تعالى قول المشبهة وبعض الصفاتية، وعدم رؤيته قول جمهور الامامية وعامة متكلمي الامامية إلا من شذ منهم، وجميع المعتزلة، وجمهور المرجئة، وكثير من الخوارج، والزيدية، وبعض أهل الحديث.

(٦) هذا المعنى أخرجه النسائي والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس. وأخرجه الحاكم في المستدرك وابن مردويه وابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد في مسنده عن الشعبي: أن كعباً قاله بحضرة ابن عباس. وعنهم الدرّ المنثور ٦: ١٢٤.

ربّكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر ولا تضامّون في رؤيته»[١] ـ على رؤية العقل الأوّل الّذي هو أوّل مبدع، وهو العقل الفعّال الذي منه تفيض الصّور على الموجودات، وإيّاه عنى النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: «أوّل ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل. ثم قال له: أدبر فأدبر. فقال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك، وبك أُعزّ وبك أُذلّ وبك أُعطي وبك أمنع»[٢]. فهو الذي يظهر يوم القيامة، وترتفع الحجب بينه وبين الصور التي فاضت منه، فيرونه كمثل القمر ليلة البدر؛ فأمّا واهب العقل فلا يرى البتة ولا يشبه إلّا مبدع بمبدع إلى غير ذلك من مذاهبهم البدعيّة التي نقلها (الملل)[٣].

والرّجلان وإن نفيا عنه رؤية البصر وهو حقّ إلّا أنّهما جعلا له شريكاً، وتعالى الله عمّا يشركون.

«قريب من الأشياء غير ملامس» قال تعالى في وصف قربه: ﴿...ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٤]. وقال عزّوجلّ: ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان...﴾[٥].

---

(١) أخرجه عدّة عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وابن رزين وصهيب وجابر بن عبدالله باختلاف يسير وجمع بعض طرقه وألفاظه ابن الأثير في جامع الأُصول ١١: ١٦٨ ح ٨٠٩٨، والمتقي في منتخب كنز العمال ٦: ١٢٤، وشرح الحديث الشريف الرضي في المجازات النبوية: ٤٧ والشريف المرتضى في تنزيه الأنبياء: ١٢٨.

(٢) أخرجه بفرق يسير داود بن المحبّر في كتاب العقل، وعنه هامش جامع الاصول ٤: ٤٢٢، والكراجكي في كنز الفوائد: ١٤، وكون العقل أول ما خلق الله أخرجه الصدوق في الفقيه ٤: ٢٦٧، ورواه الطبرسي في مكارم الأخلاق: ٤٤٢، وكون العقل أوّل خلق من الروحانيين أخرجه البرقي في المحاسن: ١٩٦ ح ٢٢، والكليني في الكافي ١: ٢٠ ح ١٤، والصدوق في الخصال ٢: ٥٨٨ ح ١٣ عن الصادق عليه السلام، لكن اللفظ المشهور في حديث العقل: «لما خلق الله العقل...» رواه عدّة عن النبي صلى الله عليه وآله والباقر عليه السلام والصادق عليه السلام وموقوفاً عن الحسن البصري لا يسع ذكره المقام.

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ١: ٦٣.

(٤) ق: ١٦.

(٥) البقرة: ١٨٦.

«بعيد منها غير مباين» فالبعد بالبينونة صفة الأجسام.

«متكلّم لا برويّة» كالإنسان يتروّى أوّلاً في المعاني ثمّ يتكلّم بالألفاظ.

«مريد لا بهمّة» بالإضمار في نفسه.

«صانع لا بجارحة» كالإنسان يصنع شيئاً بيده.

«لطيف لا يوصف بالخفاء» كأرواح ذوي الأرواح.

«كبير لا يوصف بالجفاء» كأجساد ذوي الأجساد الجسمية.

«بصير لا يوصف بالحاسّة» أي: الباصرة.

«رحيم لا يوصف بالرّقة» للقلب.

«تعنو» أي: تخضع وتذلّ.

«الوجوه لعظمته» ﴿وعنت الوجوه للحيّ القيّوم وقد خاب من حمل ظلماً﴾[1].

«وتجب» أي: تضطرب.

«القلوب من مخافته» ﴿والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهُم وجلةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون﴾[2]، ﴿ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب﴾[3].

٢٤
من الخطبة (١٨٣)

ومن خطبة له عليه السلام:

ٱلْحَمْدُ لِلّهِ ٱلّذِي لَا تُدْرِكُهُ ٱلشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ ٱلْـمَشَاهِدُ، وَلَا تَـرَاهُ

(١) طه: ١١١.

(٢) المؤمنون: ٦٠.

(٣) آل عمران: ٨.

النَّواظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ؛ الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شِبْهَ لَهُ؛ الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ. مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنْ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ، وَاحِدٌ لَا بِعَدَدٍ، دَائِمٌ لا بِأَمَدٍ، وَقَائِمٌ لَا بِعَمَدٍ، تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لاَ بِمُشَاعَرَةٍ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لاَ بِمُحَاضَرَةٍ، لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا، لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً، بَلْ كَبُرَ شَأْناً وَعَظُمَ سُلْطَاناً.

أقول: قد عرفت في أوّل الكتاب[1] أنّ نسخنا من هنا إلى خطبة المتّقين؛ بينهما سبع خطب مختلفة مع نسخة ابن أبي الحديد، وقد عرفت تصريح ابن ميثم بالاختلاف من الأوّل.

«الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد» الشواهد جمع الشاهدة، والشاهدة الحاسّة. فيكون المعنى لا تدركه الحواسّ الظاهرة: السامعة، والباصرة، والذائقة، والشّامّة، واللّامسة، فإنّها تدرك المحسوسات.

«ولا تحويه» قال الجوهري: حواه يحويه حيّاً، أي: جمعه[2].

«المشاهد» أي: المحاضر؛ قالوا: مشاهد مكّة مواطن يحضرها الناس، وإنّه تعالى شاهد كلّ ملأ، ولا يحويه مشهد.

«ولا تراه النّواظر» النّواظر جمع النّاظرة، أي: القوة الباصرة؛ قال تعالى:

(١) مرّ في مقدّمة المؤلف.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٦: ٢٣٢٢ مادة (حوى).

﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير﴾[١].

«ولا تحجبه السّواتر» بخلاف باقي الأشياء حتى الشمس، فإنّها مع كونها أظهر من كلّ شيء وبها يظهر كلّ شيء تحجب بغمام، بل بقتام.

«الدّال على قدمه بحدوث خلقه» وإلّا لزم التسلسل المحال، وزاد (الاحتجاج): «وبحدوث خلقه على وجوده»[٢].

«وباشتباههم على أن لا شبه له» أي: لمّا امتنع عند العقل مشابهة الصّانع والمصنوع ونرى في جميع الأشياء التشابه، نعلم أنّه تعالى هو الّذي ليس له شبه.

«الّذي صدق في ميعاده» ﴿...إنّ وعد الله حقّ فلا تغرنكم الحياة الدّنيا...﴾[٣].

«وارتفع عن ظلم عباده» ﴿إنّ الله لا يظلم النّاس شيئاً ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون﴾[٤]. والظالم إنّما يظلم إمّا لاحتياجه وإمّا لجهله، كما أنّ المخلف لوعده إنّما يخلف إمّا لعجزه عن الوفاء به أو لجهله بقبحه، وهو تعالى منزّه عن الحاجة والعجز والجهل.

نعم يمكن صفحه عن وعيده؛ وفي الدّعاء: يا من إذا وعد وفى، وإذا تواعد عفا[٥].

«وقام بالقسط» أي: العدل.

---

(١) الأنعام: ١٠٣.

(٢) الاحتجاج للطبرسي ١: ٢٠٤ روى الخطبة بتمامها.

(٣) لقمان: ٣٣.

(٤) يونس: ٤٤.

(٥) الفقرتان جاءتا ضمن دعاء رواه المجلسي في بحار الأنوار ٩٤: ١٣٢ عن الكتاب العتيق الغروي عن السجاد عليه السلام، وجاء قريباً منه ما في دعاء رواه الطبرسي في مكارم الأخلاق: ٢٩٥ عن الباقر والصادق عليهما السلام متردداً.

«في خلقه» ﴿شهد الله أنّه لا إله إلّا هو والملائكة وأُولو العلم قائماً بالقسط...﴾[١].

«وعدل عليهم في حكمه» ﴿...ويؤت كلّ ذي فضل فضله...﴾[٢]، ﴿...إنّي لا أُضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أُنثى ...﴾[٣]، ﴿...وما كان الله ليضيع أيمانكم...﴾[٤]، ﴿...إنّا لا نضيع أجر المصلحين﴾[٥]، ﴿... ولا نضيع أجر المحسنين﴾[٦]، ﴿...فإنّ الله لا يُضيع أجر المحسنين﴾[٧]، ﴿يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضل وأنّ الله لا يُضيعُ أجر المؤمنين﴾[٨]، ﴿...إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾[٩].

«مستشهد بحدوث الأشياء على أزليّته» قال الرّضاعليه السلام: خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام ثمّ استوى على عرشه، وكان قادراً على أن يخلقها في طرفة عين، ولكنّه تعالى خلقها في ستة أيام ليظهر للملائكة ما يخلقه منها شيئاً بعد شيء، فيستدلّ بحدوث ما يحدث على الله تعالى مرّة بعد مرّة[١٠].

«وبما وسمها» أي: جعل لها علامة، من وسمه إذا أثّر فيه بسمة وكيّ.

«به من العجز على قدرته» فحيث إنّ كلّهم عاجزون، ومعلوم أنّ في

---

(١) آل عمران: ١٨.

(٢) هود: ٣.

(٣) آل عمران: ١٩٥.

(٤) البقرة: ١٤٣.

(٥) الأعراف: ١٧٠.

(٦) يوسف: ٥٦.

(٧) هود: ١١٥.

(٨) آل عمران: ١٧١.

(٩) الكهف: ٣٠.

(١٠) أخرجه الصدوق في العيون ١: ١١٠ ح ٣٢ ضمن حديث روى معناه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٤١٢ عن علي عليه السلام.

الوجود قادراً على ما يشاء، يُعلم أنّه هو القادر؛ قال تعالى: ﴿... إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلُبهُم الذبّاب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطّالبُ والمطلوب﴾[١]، ﴿... إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد* وما ذلك على الله بعزيز﴾[٢].

«وبما اضطرّها إليه من الفناء» أي: مستشهد به أيضاً.

«على دوامه» فحيث نرى جميع الخلق فانين، ومعلوم أنّه يجب أن يكون في الوجود مفن دائم الوجود، نعلم ونفهم من فنائهم دوامه تعالى؛ قال تعالى: ﴿...كلّ شيء هالكٌ إلّا وجهَهُ...﴾[٣]، ﴿كلّ من عليها فان* ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾[٤].

«واحد لا بعدد» أي: أحد لا ثاني له.

«دائم لا بأمد» أي: مدّة وانتهاء، وكلّ شيء سواه تعالى حتّى الأرض والسّماء والشمس والقمر والجبال والبحار التي يضرب الناس بها الأمثال في الدوام، له أمد ومدّة؛ قال تعالى: ﴿... وسخّر الشمس والقمر كلّ يجري لأجلٍ مسمّى...﴾[٥].

«وقائم لا بعمد» كلّ قائم سواه تعالى على ساق يعتمد عليه كالإنسان وأقسام الحيوان، أو على عمد يستند إليه كالأبنية والأخبية، وهو تعالى قائم بوجوب ذاته.

«تتلقّاه الأذهان» أي: العقول.

---

(١) الحج: ٧٣.

(٢) ابراهيم: ١٩ ـ ٢٠.

(٣) القصص: ٨٨

(٤) الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.

(٥) الزمر: ٥.

«لا بمشاعرة» فإنّ كثيراً من الأشياء تتلقّاه الأذهان من المشاعر الظاهرية، وهو عزّوجلّ لا يتلقى إلّا من البراهين العقلية.

«وتشهد له المرائي لا بمحاضرة» هكذا في النسخ[١]، ويمكن أن يكون (المرائي) مصحف (المرايا) جمع المرآة، فيكون المعنى: أنّ المرايا تشهد لما حاضرها بالتّقابل بالوجود لانتقاشه فيها، وأمّا الباري تعالى فتشهد لوجوده مرايا العقول من غير حضور ومقابلة.

ويحتمل أن يكون (المرائي) جمع (المرأى) اسم مكان بمعنى المنظر، وهو النّاظر كما قاله ابن ميثم[٢]، فيكون المعنى: أنّ رؤيته تعالى لمّا كانت بالقلب لا بالنّواظر لا يحتاج إلى أن يكون حاضراً للنّاظر. ولا يخلو من بعد.

وأمّا ما قال ابن أبي الحديد[٣] من أنّه من قولهم: فلان هو حسن في مرآة عيني يقول: إنّ جنس الرؤية يشهد بوجود الباري تعالى من غير محاضرة منه للحواسّ، ففي غاية البعد.

وأمّا ما قاله الخوئي[٤] تبعاً للمجلسي[٥] من أنّه جمع المرئي (بلفظ المفعول)، أي: المرئيات تشهد بوجوده تعالى من غير محاضرة منه، فلا وجه له؛ فإنّ الشاهد لشيء إنّما يكون الرائي لا المرئي، والمرئيات وإن تشهد له تعالى إلّا أنّه ليس من حيث كونها مرئية بل من حيث كونها أشياء.

«لم تحط به الأوهام» لقصرها عن الإحاطة به.

---

(١) كذا في نهج البلاغة ٢: ١١٥، وشرح ابن أبي الحديد ٣: ١٩٤، وشرح ابن ميثم ٤: ١٢١.

(٢) شرح ابن ميثم ٤: ١٢٥.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣: ١٩٦.

(٤) شرح الخوئي ٥: ١٢٧.

(٥) بحار الأنوار ٤: ٢٦١ وجعله المجلسي احتمالاً ثانياً، واحتماله الأول كونه جمع مرآة بفتح الميم، من قولهم: هو حسن في مرآة عيني.

«بل تجلّى لها» هكذا في (المصرية) الأخيرة، وفي (المصرية) الأُولى: «بل تجلّى بها» وكلتاهما ناقصتان. والصواب ما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[١] بلفظ: «بل تجلّى لها بها». هذا من حيث إحراز ما في النهج، لكن الظاهر وقوع تحريف فيه، وأنّ الأصل: «بل تجلّى للعقول بها». كما يشهد له قوله عليه السلام في الآتي[٢]: «بها تجلّى صانعها للعقول».

وحينئذ يكون معنى قوله عليه السلام بعده: «وبها امتنع منها، وإليها حاكمها» أنّ بالعقول ـ وحكمها أنّه تعالى لا يدرك بالأوهام ـ امتنع من الأوهام أن تدركه، وأنّ اا العقول حاكَمَ تعالى الأوهام لو تدعي معرفته تعالى، حتّى تحكم اا ول بعجزها عن إدراك جلاله؛ فيكون الضمير في (بها) راجعاً إلى (اا ول) وفي (منها) راجعاً إلى الأوهام، وفي (اليها) أيضاً راجعاً إلى (العقول) وفي (حاكمها) راجعاً الى الأوهام.

وأمّا على ما في النهج من إرجاع الضمائر كلّها إلى الأوهام ـ كما يقتضيه السياق ـ فيحتاج المعنى إلى تكلّف، بأن يكون المراد من الأوهام المعنى الأعم لها من المتعارف، ومن معنى العقول كما احتمله المجلسي[٣].

«ليس بذي كبر امتدّت به النّهايات» أي: الطّول والعرض والعمق.

«فكبّرته تجسيماً» حسب شأن أشياء نهاياتها ممتدّة.

«ولا بذي عظم تناهت به الغايات» في أبعاده.

«فعظّمته تجسيداً» وتجعل جسده ضخيماً.

«بل كبر شأناً وعظم سلطاناً» يعني أنّ الكبر والعظمة بالنسبة إليه تعالى

---

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٣: ١٩٤، وشرح ابن ميثم ٤: ١٢١ «بل تجلى لها وبها».

(٢) يأتي في متن الخطبة في العنوان (٢٥).

(٣) بحار الأنوار ٤: ٢٦٢.

كبر الشّأن، وعظم السلطان، وإنّما كبر الجسم وعظم الجسد في غيره تعالى، قال تعالى في كبره: ﴿عالم الغيب والشهادة الكبيرُ المتعال﴾[١]. وقال عزّوجلّ في عظمه: ﴿فسبّح باسم ربّك العظيم﴾[٢].

٢٥
من الخطبة (١٨٤)

ومن خطبة له عليه السلام في التوحيد، وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم مالا تجمعه خطبة:

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ. فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ، وَمُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ. غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ. لَا تَصْحَبُهُ الأَوْقَاتُ، وَلَا تَرْفِدُهُ الأَدَوَاتُ. سَبَقَ الأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالابْتِدَاءَ أَزَلُهُ. بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ. ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرْدِ. مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا [مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا]. لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ[٣]، وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الآلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا. مَنَعَتْهَا مُنْذُ الْقِدَمِيَّةَ، وَحَمَتْهَا قَدُ الأَزَلِيَّةَ، وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا التَّكْمِلَةَ، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ

(١) الرعد: ٩.

(٢) الواقعة: ٧٤، ٩٦.

(٣) قال الشارح ومن بعض النسخ «مقربٌ بين متباعداتها، ومفرقٌ بين متدانياتها، لا يشمل بحدّ».

عَنْ نَظَرِ ٱلْعُيُونِ. لَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَٱلْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ، إِذَنْ لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلَامْتَنَعَ مِنَ ٱلْأَزَلِ مَعْنَاهُ؛ وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ، وَإِذَنْ لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ. وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ ٱلامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ. ٱلَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ وَلاَ يَجُوزُ عَلَيْهِ ٱلْأُفُول، ولَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً. جَلَّ عَنِ ٱتِّخَاذِ ٱلْأَبْنَاءِ، وَطَهُرَ عَنْ مُلاَمَسَةِ ٱلنِّسَاءِ. لَا تَنَالُهُ ٱلْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ ٱلْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ ٱلْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ ٱلْأَيْدِي فَتَمَسَّهُ. لَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ بِالْأَحْوَالِ، وَلَا تُبْلِيهِ ٱللَّيَالِي وَٱلْأَيَّامُ، وَلَا يُغَيِّرُهُ ٱلضِّيَاءُ وَٱلظَّلَامُ، وَلاَ يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلأَجْزَاءِ، وَلاَ بِالْجَوَارِحِ وَٱلأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ ٱلأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ والأَبْعاضِ، وَلا يُقَالُ لَهُ: حَدٌّ وَلاَ نِهَايَةٌ، وَلا ٱنْقِطَاعٌ وَلا غَايَةٌ، وَلاَ أَنَّ الأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ، فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيَهُ، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ، وَلَيْسَ فِي الأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ، وَلاَ عَنْهَا بِخَارِجٍ. يُخْبِرُ لاَ بِلِسانٍ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لاَ بِخُرُوقٍ وأَدَوَاتٍ. يَقُولُ ولا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ ولا يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلاَ يُضْمِرُ، يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِن غَيْرِ مَشَقَّةٍ. يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: كُنْ فَيَكُونُ، لاَ بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، ولا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كائِناً، ولَوْ كانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلهاً ثانِياً. لَا يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لمْ يَكُنْ، فَتَجْرِي عَلَيْهِ ٱلصِّفَاتُ الْمحْدَثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَصْلٌ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ ٱلصَّانِعُ

وَالمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأَ المُبْتَدَعُ وَٱلْبَدِيعُ. خَلَقَ ٱلْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ عنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ. وَأَنْشَأَ ٱلْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ ٱشْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ، وَحَصَّنَهَا مِنَ ٱلْأَوَدِ وَٱلاعْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ ٱلتَّهَافُتِ وَالانْفِرَاجِ؛ أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَٱسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَخَدَّ أَوْدِيَتَهَا. فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ. هُوَ ٱلظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ ٱلْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَٱلْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ، وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَلَا يَفُوتُهُ ٱلسَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقَهُ. خَضَعَتِ ٱلْأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ ٱلْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَيَمْتَنِعَ مِن نَفْعِهِ وَضُرِّهِ، وَلَا كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ، هُوَ ٱلْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وجُودِهَا، حَتّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا.

وَلَيْسَ فَنَاءُ ٱلدُّنْيَا بَعْدَ ٱبْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَٱخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ لَوِ ٱجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا، عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ ٱلسَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا.

وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ ٱلدُّنْيَا وَحْدَهُ لَا شَيْءَ مَعَهُ، كَمَا كَانَ قَبلَ ٱبْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ، وَلَا حِينٍ وَلَا

زَمَانٍ. عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ ٱلآجَالُ وَٱلأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ ٱلسِّنُونُ وَالسَّاعَاتُ، فَلَا شَيْءَ إِلَّا ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٱلَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ ٱلأُمُورِ، بِلَا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ٱبْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ ٱمْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَى ٱلامْتِنَاعِ دَامَ بَقَاؤُهَا. لَمْ يَتَكَأَّدْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يَؤُدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ. وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلَا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ، وَلَا لِلاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِرٍ، وَلَا لِلاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ، وَلَا لِلازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلاَ لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ، وَلَا لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا. ثمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لَا لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ، لَمْ يُمِلَّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا. وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ ٱلْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا لاسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَى حَالِ ٱسْتِئْنَاسٍ، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمىً إِلَى عِلْمٍ وَٱلْتِمَاسٍ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنىً وَكَثْرَةٍ، وَلاَ مِنْ ذُلٍّ وَضِعَةٍ [ضَعَةٍ. خ] إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ[1].

أقول: ورواه (تحف العقول) مع اختلافٍ، إلى فقرة: «ولتحوّل دليلاً».

قول المصنف: «وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لاتجمعه خطبة».

قلت: وبعد هذه الخطبة في الجامعية خطبة الأشباح المتقدّمة[2].

---

(١) تحف العقول: ٦١ روايته يشبه بعضها بالخطبة (١) وبعضها بالخطبة (١٨٤) من نهج البلاغة، لكن الاختلاف كثير.

(٢) تقدم في العنوان (٨) من هذا الفصل ورقمه (٨٩).

قوله عليه السلام: «ما وحّده من كيّفه» لأنّ من كيّفه فقد ثنّاه.

«ولا حقيقته أصاب من مثّله» لأنّه ليس كمثله شيء؛ فمن مثّله أخطأه تعالى وأصاب غيره.

هذا، وفي (ميزان الذّهبي) في أبي السعادات أحمد بن منصور قال: من وضعِه حديثٌ يقول فيه: وبين يدي الربّ لوح فيه أسماء مَنْ يثبت الصورة والرؤية والكيفيّة، فيباهي بهم الملائكة[1].

قلت: فتكنيته بأبي السعادات من قبيل ما قيل بالفارسيّة: «بر عكس نهند نام زنگى كافور»[2]. وإلّا فهو أبو الشقاوات.

«ولا إيّاه عنى» أي: قصد.

«من شبّهه» ﴿وما قدروا الله حقّ قدره...﴾[3].

«ولا صمده» أي: قصده.

«من أشار إليه» عن الباقر عليه السلام: أنّ الكفار نبّهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرك، فقالوا للنبيّ صلى الله عليه وآله: هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار، فأشر أنت يا محمّد إلى إلهك الّذي تدعو إليه حتّى نراه وندركه ولا نأله فيه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾[4].

وحاصله أنّه الغائب عن درك الأبصار ولمس الحواس.

«وتوهّمه» عطف على (أشار إليه)، ولكن في (تحف العقول): «ولا إيّاه أراد من توهمه»[5]. وهو الأصح.

«كلّ معروف بنفسه» أي: بذاته.

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبي ١: ١٥٩.

(٢) أورده (دهخدا) في أمثال وحكم ١: ٤٢٣ وترجمة المثل: يسمون الزنجي كافوراً بالعكس.

(٣) الأنعام: ٩١.

(٤) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٨٨ ح١. والآية (١) من سورة الاخلاص.

(٥) تحف العقول: ٦٢.

«مصنوع» وليس بالصّانع.

«وكلّ قائم في سواه معلول» والباري تعالى قائم بذاته؛ وزاد (التحف): «باطن لا بمداخلة، ظاهر لا بمزايلة، متجلّ لا باشتمال رؤية، لطيف لا بتجسّم»[١].

«فاعل لا باضطراب آلة» كالناس ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[٢].

«ومقدّر» ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾[٣]، ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[٤]، ﴿... وزيّنا السماء الدّنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾[٥]، ﴿...وخلق كلَّ شيءٍ فقدّره تقديراً﴾[٦]، ﴿إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر﴾[٧].

«لا بجول» أي: جَوَلان.

«فكرة» كالنّاس، بل بإيجاده على طبق الحكمة.

«غنيّ لا باستفادة» شيء كالنّاس ﴿...ولله خزائن السماوات والأرض ولكنّ المنافقين لا يفقهون﴾[٨].

«لا تصحبه الأوقات» لكونه جاعل الأوقات.

---

(١) تحف العقول: ٦٣.

(٢) يس: ٨٢.

(٣) الأنعام: ٩٦.

(٤) يس: ٣٨.

(٥) فصلت: ١٢.

(٦) الفرقان: ٢.

(٧) القمر: ٤٩.

(٨) المنافقون: ٧.

«ولا ترفده» أي: لا تعينه.

«الأدوات» جمع الأداة أي الآلات، وكيف ترفده تعالى وهو موجدها؟!

«سبق الأوقاتَ» بالنصب.

«كونه» أي: وجوده؛ فالأوقات عبارة عن الليل والنهار والشهور والسنين، وهي لا توجد إلّا من طلوع الشمس وغروبها وقطع الشمس والقمر بروجهما، وهو تعالى سابق عليهما.

«والعدمَ» بالنّصب أيضاً.

«وجودُه» بالرّفع، وإنّما سبق العدم وجود خلقه.

«والابتداء» أيضاً بالنصب.

«أزلُه» بالرفع، وانما يكون ابتداء لشيء لم يكن أزليّاً.

«بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له» زاد في رواية (التحف): «وبتجهيره الجواهر علم أن لا جوهر له، وبانشائه البرايا علم أن لا منشئ له»(١). والمشاعر: الحواسّ؛ قال بلعاء:

والرّأس مرتفع فيه مشاعره يهدي السبيل له سمع وعينان(٢)

«وبمضادّته بين الأمور عرف ان لا ضدّ له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له».

«ضادّ النور بالظّلمة» قال تعالى: ﴿الحمد لله الّذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنّور...﴾(٣). وجعل كلّاً من الضدّين ذا حكمة في نظام العالم وصلاح بني آدم، فإنّه لو كان النّهار ولم يكن ليل كم كان يدخل على النّاس، كما في عكسه كالنّور والظّلمة.

---

(١) تحف العقول: ٦٤.

(٢) لسان العرب ٤: ٤١٣ مادة (شعر).

(٣) الأنعام: ١.

«والوضوح بالبهمة» فجعل علم الحرث والغرس واتّخاذ الأنعام واستخراج المعادن واضحاً جليّاً في جميع الأدوار، وعند جميع الأجيال، وجعل علم الآجال والرّزايا والبلايا المقدّرة مبهماً خفيّاً، وإلّا لتنغص عيش الإنسان، ولم يتمتّع بشيء من النّعم.

«والجمود بالبلل، والحرور بالصّرد» أي: البرد، فجعل كلّاً منها ذا حكمة، فلو لم يجعل جمود الخريف وبلل الرّبيع، وحرور الصيف وصرد الشتاء، لما وجد كثير من المصالح وتولد كثير من المفاسد.

وقالوا: يؤجّل العنّين سنة في فسخ امرأته العقد لعلّه يرفع عجزه بأحد الفصول الأربعة، ثمّ بعد السنة للمرأة الفسخ إذا لم يرفع مرضه، إذ علم أنّ العلّة لم تكن البلل والجمود والحرور والصّرد[1]. كما أنّه تعالى خلق الذكر والأُنثى في البشر وغيره، وإلّا لما حصل نسل.

هذا، وفي (المروج) عن يموت بن المزارع ابن اخت الجاحظ في ذكر علّته التي مات فيها: وكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدّة حرارته،

(١) تأجيل العنين سنة مرويّ وأُفتي به، أخرج الرواية الحميري في قرب الاسناد: ٥٠، والطوسي في التهذيب ٧: ٤٣١ ح ٣٠، والاستبصار ٣: ٢٤٩ ح ٤، ورواه القاضي النعمان في دعائم الاسلام ٢: ٢٣١ ح ٨٦٩ عن علي عليه‌السلام، وأخرجه أحمد بن محمد بن عيسى في النوادر عنه البحار ١٠٣: ٣٦٤ ح ١٧، والكليني في الكافي ٥: ٤١١ ح ٧ والطوسي بروايتين في التهذيب ٧: ٤٢٩ ح ٢٠، و ٤٣١ ح ٢٧، والاستبصار ٣: ٢٤٩ ح ١، و: ٢٥١ ح ٣ عن الباقر عليه‌السلام، وأخرجه أحمد بن محمد بن عيسى في النوادر وعنه البحار ١٠٣: ٣٦٦ ح ٢٦، والكليني في الكافي ٥: ٤١١ ح ٥، والطوسي في الاستبصار ٣: ٢٤٩ ح ٣، ورواه القاضي النعمان في دعائم الاسلام ٢: ٢٣٢ ح ٨٧٠ عن الصادق عليه‌السلام، وأخرجه الطوسي في التهذيب ٧: ٤٣١ ح ٢٩ عن أبي الصباح، والظاهر أنّه حدّثه عن الصادق عليه‌السلام، وأخرجه صاحب فقه الرضا عليه‌السلام عنه البحار ١٠٣: ٣٦٢ ح ١٠، وأخرجه الصدوق في المقنع: ٢٦ بلا عزو، ورواه موقوفاً ابن حجر في بلوغ المرام: ٢١٢ ح ١٠٤١ عن عمر ومالك في الموطأ: ٥٢٨ عن سعيد بن المسيب. واما الفتوى فنقلها العلّامة الحلّي في المختلف: ٥٥٥ عن الصدوق والمفيد والمرتضى والطوسي وابن زهرة وبتفصيل عن ابن الجنيد، ونقله الوزير في الافصاح ٢: ٣٤٠ عن مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد.

والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ما شعر به من خدره وبرده[١].

«مؤلّف بين متعادياتها، مقارن بين متبايناتها» قال تعالى: ﴿ألم تر أنّ الله يُزجي سحاباً ثمّ يؤلّف بينه ثمّ يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله...﴾[٢].

«مقرّب بين متباعداتها» بجعل أسباب لذلك؛ وفي (توحيد المفضّل): لو كان فرج الرّجل مسترخياً كيف كان يصل إلى قعر الرّحم حتّى يفرغ النّطفة فيه، ولو كان منعظاً أبداً كيف كان الرّجل يتقلّب في الفراش أو يمشي بين النّاس وشيء شاخص أمامه. ثمّ يكون في ذلك مع قبح المنظر تحريك الشهوة في كلّ وقت من الرّجال والنساء جميعاً، فقدّر الله جلّ اسمه أن يكون أكثر ذلك لا يبدو للبصر في كلّ وقت، ولا يكون على الرجال منه مؤنة، بل جعل فيه قوّة الانتصاب وقت الحاجة إلى ذلك، لما قدّر أن يكون فيه من دوام النسل وبقائه[٣].

«لا يشمل بحدّ، ولا يحسب بعدّ» وفي (التحف): «أحد لا بتأويل عدد. صمد لا بتبعيض بدد»[٤].

«وإنّما تحدّ الأدوات أنفسها، وتشير الآلات إلى نظائرها» الظاهر وقوع سقط في الكلام لعدم ذكر حكم للأدوات والآلات قبل حتّى يقال بعد «وإنّما...» ويشهد للسّقط أنّ في (التحف)[٥] وخطبة الرضا عليه السلام[٦] و (مجالس

(١) مروج الذهب للمسعودي ٤: ١٠٩.

(٢) النور: ٤٣.

(٣) توحيد المفضل: ٦٩.

(٤) تحف العقول: ٦٣.

(٥) تحف العقول: ٦٥.

(٦) هذه خطبة للرضا عليه السلام، خطبها عند المأمون، وألفاظها نحو رواية تحف العقول عن علي عليه السلام، روى هذه الخطبة

الشيخ)[1] قبل هذا الكلام: «له معنى الرّبوبيّة إذ لا مربوب، وحقيقة الإلهيّة إذ لا مألوه، ومعنى العالم ولا معلوم، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وتأويل السّمع ولا مسموع. ليس مذ خلق استحقّ معنى الخالق، ولا بإحداثه البرايا استفاد معنى البرائية. كيف ولا تغيبه مذ، ولا تدنيه قد، ولا تحجبه لعل، ولا توقته متى، ولا تشمله حين، ولا تقارنه مع». لكنّ في الأخير بدل قوله: «ولا بإحداثه البرايا استفاد معنى البرائية»: «ولا من حيث أحدث استفاد معنى المحدث».

وحينئذ يكون معنى قوله: «وإنّما تحدّ الأدوات أنفسها وتشير الآلات إلى نظائرها» أنّ هذه الأدوات والآلات، أي: (مذ، وقد، ولعلّ، ومتى، وحين، ومع) إنّما تعيّن الحدّ لأنفسها من الممكنات، وتشير إلى نظائرها من المخلوقات، ولا يمكن أن تحدّ الباري تعالى وتشير إليه جلّ وعلا.

هذا، وزاد (التحف) بعد (إلى نظائرها): «وعن الفاقة تخبر الأداة، وعن الضدّ يخبر التضادّ، وإلى شبهه يؤول الشّبيه، ومع الأحداث أوقاتها، وبالأسماء تفترق صفاتها، ومنها فصّلت قرائنها، وإليها آلت أحداثها»[2].

«منعتها منذ» تخفف (منذ) فيقال: «مذ». قال:

وما زلت أبغي المال مذ أنا يافع[3]

ومع ان (التحف) بدّلها بها[4].

الصدوق في التوحيد: ٣٤ح ٢، وفي العيون ١: ١٢٥، والطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٩٨، والفقرة في التوحيد: ٣٨، والعيون: ١٢٥، والاحتجاج ٢: ٤٠٠.

(١) أمالي ابي علي الطوسي ١: ٢٣، المجلس (١)، ورواية ابن علي أيضاً عن الرضا عليه السلام.

(٢) تحف العقول: ٦٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) أورده السيوطي ونسبه إلى الأعشى في شواهد المغني ٢: ٧٥٧، ونقل في ٢: ٥٧٦ عن ابن اسحاق: «إذ أنا يافع»، وليس بشاهد حينئذ، ونقل سيبويه في الكتاب ١: ٢٣٩ بيتاً قريباً منه.

«القدميّة» هكذا في (المصرية) والصواب: (القدمة) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[١].

«وحمتها» أي: منعتها.

«قد» في (اللّسان) قال الخليل: هي (أي قد) جواب لقوم ينتظرون الخبر أو لقوم ينتظرون شيئاً؛ تقول: «قد مات فلان» ولو أخبره وهو لا ينتظره لم يقل: «قد مات»، ولكن يقول: «مات فلان». وقيل: هي جواب قولك: «لمّا يفعل» فيقول: قد فعل؛ قال النابغة:

أفد الترحل غير أنّ ركابنا لمّا تزل برحالنا وكأن قد

أي وكأن قد زالت، فحذف الجملة، ثم قال أيضاً: وتكون (قد) مع الأفعال الآتية بمنزلة ربّما؛ قال الهذلي:

قد أترك القرن مصفرّاً أنامله كأنّ أثوابه مجّت بفرصاد

ثم قال أيضاً: وتكون (قد) بمنزلة (ما) فينفى بها؛ سمع بعض الفصحاء يقول:

قد كنت في خير فتعرفه[٢]

وفي (القاموس) لـ(قد) ستة معانٍ: التوقع: (قد يقدم الغائب)، وتقريب الماضي من الحال: (قد قام زيد)، والتحقيق: ﴿قد أفلح من زكاها﴾[٣]، والنفي: (قد كنت في خير فتعرفه) بنصب تعرف، والتقليل: (قد يصدق الكذوب)، والتكثير: (قد أترك القرن مصفراً أنامله)[٤].

«الأزليّة» له تعالى.

---

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٠٦، ولكن في شرح ابن ميثم ٣: ١٤٦ «القدمية» أيضاً.

(٢) لسان العرب ٣: ٣٤٦ ـ ٣٤٧ مادة (قدد).

(٣) الشمس: ٩.

(٤) القاموس المحيط ١: ٣٢٦ مادة (قدد).

«وجنّبتها لولا» الّتي تثبت النّقص، فتقول: «نـعم الرّجل فلان لولا فيه الشيء الفلاني»؛ وقال الشاعر:

فلولا حصين غيبه أن أسوءه وإنّ بني سعد صديق ووالد

«التّكملة» أي: كماله تعالى في ذاته؛ وجعل (اللسان) التّكملة كالتكميل خطأً[1].

هذا، وفي (التحف) بدل «وجنّبتها لولا التكملة»: «ونفت عنها لولا الجبريّة»[2].

ثم إنّ ابن أبي الحديد قال: إنّ بعضهم نصب (القدمة) و (الأزلية) و(التكملة) على انّها مفعول ثان، والأوّل: الضمائر المتصلة بالأفعال، والفاعل (منذ) و (قد) و (لولا)، فيكون المعنى: انّ إطلاق (منذ) على الآلات والأدوات يمنعها عن كونها قديمة، واطلاق (لولا) عليها يمنعها من التّكملة. قال: وبعضهم رفع (القدمة) و (الأزليّة) و (التكملة) على الفاعلية، وتكون الضمائر مفعولاً أوّلاً، و(منذ) و (قد) و (لولا) مفعولاً ثانياً،ويكون المعنى: أنّ قدم الباري وأزليّته وكماله منعت الأدوات والآلات من اطلاق (منذ) و(قد) و (لولا) عليه سبحانه[3].

وقال ابن ميثم بعد نقلهما: والرواية الأُولى أولى لوجودها في نسخة الرّضي[4] بخطّه.

قلت: والتحقيق أنّ الأفعال الثلاثة ليس لها إلّا مفعول واحد، وإنّما تتعدّى

(١) هكذا قال ابن منظور في لسان العرب ١١: ٥٩٨ مادة (كمل)، وقال بقوله ابن الحاجب في متن الشافية، ورضي الدين في شرحه شرح الشافية ١: ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) تحف العقول: ٦٦.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٠٦ نقله بالمعنى.

(٤) شرح ابن ميثم ٤: ١٥٩.

إلى مفعول آخر بواسطة (من) و (عن) وليستا في الكلام، وإنّ (منذ) و (قد) و(لولا) بدل بعض من الضمائر في (منعتها) و (حمتها) و (جنّبتها)، فيتعيّن كون (القدمة) و (الأزليّة) و (التّكملة) بالرّفع فواعل لأفعالها، فقد عرفت من رواية (التحف) أنّ قبل قوله عليه السلام: «وإنّما تحدّ الأدوات» كان قوله عليه السلام «ولا تغيبه مذ، ولا تدنيه قد، ولا تحجبه لعلّ، ولا توقّته متى، ولا تشمله حين ولا تقارنه مع» وحينئذ فالأدوات والآلات عبارة عن (منذ) و (قد) و (لولا).

وفي كلام للحسين عليه السلام: لا تحلّه (في)، ولا توقّته (إذ) ولا تؤامره (إن)[١].

«بها تجلّى صانعها للعقول» قالت الشّرّاح: معنى الجملة أنّ بمشاعرنا وخلقه تعالى إيّاها، وتصويره لها تجلّى صانعها لعقولنا بالعلم والقدرة[٢].

فجعلوا الضمير في (بها) للمشاعر، مع أنّ الظاهر أنّ الضمير للأُمور والأشياء في قوله عليه السلام «وبمضادته بين الأُمور» و «بمقارنته بين الأشياء» بعد قوله عليه السلام: «وبتشعيره المشاعر»؛ ويشهد له أنّ قبل الفقرة في خطبة الرضا عليه السلام: «افترقت فدلّت على مفرّقها، وتباينت فأعربت عن مباينها»[٣] فإنّ الضمير في (افترقت) و (تباينت) للأُمور والأشياء قطعاً.

ويمكن أن يكون الضمير في (بها) للتشعير والمضادة والمقارنة في الفقرات الثلاث المتقدمة.

«وبها امتنع عن نظر العيون» قال بعضهم: أي وبمشاعرنا استنبطنا استحالة كونه مرئياً بالعيون، لأنّا بالمشاعر والحواسّ كملت عقولنا، وبعقولنا استخرجنا الدلالة على أنّه لا تصحّ رؤيته[٤].

---

(١) أخرجه ابن شعبة في تحف العقول: ٢٤٥ ضمن حديث طويل عن الحسين عليه السلام.

(٢) قال هذا المعنى ابن أبي الحديد في شرحه ٣: ٢٠٧، وابن ميثم في شرحه ٤: ١٥٩، والخوئي في شرحه ٥: ١٥٣.

(٣) التوحيد للصدوق: ٣٩، والعيون للصدوق ١: ١٢٥، والاحتجاج للطبرسي ٢: ٤٠٠.

(٤) القائل ابن أبي الحديد في شرحه ٣: ٢٠٦ والنقل بالمعنى. ونقل أيضاً عنه ابن ميثم في شرحه ٤: ١٦٠ مشيراً إليه ببعض

وقال بعضهم: أي بإيجاده المشاعر مدركة لحاسّة البصر ظهر امتناعه عن نظر العيون[1].

قلت: وكلاهما كما ترى، والصواب كون الضمير في (وبها) راجعاً إلى العقول المذكورة قبله أي بالعقول وحكمها امتنع عن نظر العيون.

ويشهد له أيضاً أنّ (التّحف) زاد بعد الفقرة: «وإليها تحاكم الأوهام»[2]. ولا ريب أنّ الضمير في (وإليها) راجع إلى العقول، مع أنّه لو كان الضمير راجعاً إلى مرجع الأول لما احتاج إلى تكراره، وكان يقول: «وامتنع عن نظر العيون»؛ مع أنّك قد عرفت أنّ الضمير الأوّل أيضاً غير راجع إلى المشاعر.

«لا يجري عليه السكون والحركة، وكيف يجري عليه ماهو أجراه، ويعود فيه ما هو أبداه،ويحدث فيه ما هو أحدثه، إذن لتفاوتت ذاته ولتجزّأ كنهه» زاد (التحف)[3] وخطبة الرضا عليه السلام[4] قبله فقرات، وفي آخرها: «فكلّ ما في الخلق لا يوجد في خالقه، وكلّ ما يمكن فيه يمتنع من صانعه».

«ولامتنع من الأزل معناه» زاد (التحف)[5]، وخطبة الرضا عليه السلام[6]: «ولما كان البارئ معنى غير المبروء».

«ولكان له وراء إذ وجد له أمام» إذ هما من الأُمور الإضافية.

«ولالتمس التمام إذ لزمه النقصان» كما هو شأن كلّ ساكن يتحرّك.

الشارحين، ويمكن نقل كليهما من شارح أقدم.

(١) القائل ابن ميثم في شرحه ٤: ١٥٩ والنقل بالمعنى.

(٢) تحف العقول: ٦٦.

(٣) تحف العقول: ٦٧.

(٤) التوحيد للصدوق: ٤٠، والعيون للصدوق ١: ١٢٥ ـ ١٢٦، والاحتجاج للطبرسي ٢: ٤٠٠.

(٥) تحف العقول: ٦٧.

(٦) التوحيد للصدوق: ٤٠، والعيون للصدوق ١: ١٢٥ ـ ١٢٦، والاحتجاج للطبرسي ٢: ٤٠٠.

«وإذن لقامت آية المصنوع فيه» زادا قبله[١]: «كيف يستحق الأزل من لا يمتنع من الحدث، وكيف ينشئ الأشياء من لا يمتنع من الإنشاء»، وزاد الأوّل[٢]: «وكيف يستأهل الدّوام من تنقله الأحوال والأعوام».

«ولتحوّل دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه» حسب دلالة المصنوع على الصانع، والبناء على الباني.

«وخرج» مستأنفة، ولا يبعد أن يكون (وخرج) محرّف (قد خرج)، فالفرق بينهما في الخطّ قليل.

«بسلطان الامتناع من أن يؤثّر فيه ما يؤثّر في غيره» إذن لتساوى مع باقي الأشياء؛ ﴿...ليس كمثله شيء...﴾[٣].

«الّذي لا يحول ولا يزول، ولا يجوز عليه الأفول» أي: الغيبة، بشهادة العقول أنّ كلّ آفل لا يمكن أن يكون ربّاً؛ ولذا كان الخليل عليه السلام لمّا رأى أُفول الكوكب والقمر والشمس أنكر على عابديها بأُفولها، وقال لهم: إني بريء ممّا تعبدون من دونه تعالى[٤].

«ولم يلد» هكذا في (المصرية)، والصواب: (لم يلد) بدون واو، كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[٥]، ولأنّ المقام مقام الفصل.

«فيكون مولوداً» كما هو شأن المتوالدة.

«ولم يولد فيصير محدوداً» فإنّ كلّ مولود محدود[٦].

---

(١) تحف العقول: ٦٧، التوحيد للصدوق: ٤٠، والعيون للصدوق ١: ١٢٥ ـ ١٢٦، والاحتجاج للطبرسي ٢: ٤٠٠.

(٢) تحف العقول: ٦٧.

(٣) الشورى: ١١.

(٤) ما نقل عن الخليل عليه السلام مقتبس من قوله تعالى في سورة الأنعام: ٧٥ ـ ٧٨.

(٥) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٠٧، ولكن في شرح ابن ميثم ٤: ١٤٧ «ولم يلد» أيضاً.

(٦) الفقرتان مأخوذتان من قوله تعالى: ﴿لم يلد ولم يولد﴾ الاخلاص: ٣.

«جلّ عن اتخاذ الأبناء» ردّ على اليهود في قولهم: ﴿...عزير ابن الله...﴾[١] وعلى النصارى في قولهم: ﴿... المسيح ابن الله...﴾[٢] وعلى الوثنيّين في قولهم: إنّ الملائكة بنات الله. قال تعالى: ﴿وقالوا اتّخذ الرّحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾[٣].

وورد أنّ اليهود والنّصارى حضروا عند النبيﷺ للمحاجّة. فقال لليهود: ما الّذي دعاكم إلى القول بأنّ عزيراً ابن الله؟

قالوا: لأنّه أحيا لبني إسرائيل التوراة بعدما ذهبت، ولم يفعل به هذا إلّا لأنّه ابنه.

فقال النبيﷺ: فكيف صار عزير ابن الله دون موسى، وهو الّذي جاءهم بالتّوراة ورأى منه من المعجزات ما قد علمتم، ولئن كان عزير ابن الله لأظهر من إكرامه بإحياء التوراة، فلقد كان موسى بالبنوّة أولى وأحقّ، ولئن كان هذا المقدار من الكرامة لعزير يوجب أنّه ابنه فأضعاف هذه الكرامة لموسى يوجب له منزلة أجلّ من البنوّة، لأنّكم إن كنتم إنّما تريدون بالبنوّة الدلالة على سبيل ما تشاهدون في دنياكم هذه من ولادة الأُمّهات الأولاد بوطء آبائهم لهنّ، فقد كفرتم بالله وشبّهتموه بخلقه وأوجبتم فيه صفات المحدثين، ووجب عندكم أن يكون محدثاً مخلوقاً، وأنّ له خالقاً صنعه وابتدعه.

قالوا: لسنا نعني هذا فإنّ هذا كفر كما قلت، لكنّا نعني أنّه ابنه على معنى الكرامة وإن لم يكن هناك ولادة، كما يقول بعض عظمائنا لمن يريد إكرامه

---

(١) قول اليهود والنصارى جاء في سورة التوبة: ٣٠.

(٢) هذا مفهوم من قوله تعالى في النحل: ٥٧، والزخرف: ١٦، والطور: ٣٩، والأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩.

(٣) الأنبياء: ٢٦.

وإبانته بالمنزلة من غيره: «يابنيّ» و «إنّه ابني» لا على إثبات ولادته منه، لأنّه قد يقول ذلك لمن هو أجنبيّ ولا نسب له بينه وبينه، وكذلك لمّا فعل الله بعزير ما فعل كان قد اتّخذه ابناً على الكرامة لا على الولادة.

فقال النبي ﷺ: فهذا ما قلته لكم إنّه إن وجب على هذا القول أن يكون عزير ابنه فإنّ هذه المنزلة بموسى أولى، وإنّ الله يفضح كلّ مبطل بإقراره ويغلب على حجّته، إن ما احتججتم به يؤدّيكم إلى ما هو أكثر ممّا ذكرته، لأنّكم قلتم: إنّ عظيماً من عظمائكم يقول لأجنبيّ لا نسب بينه وبينه: يا بنيّ لا على طريق الولادة، فقد تجدون هذا العظيم يقول لأجنبي آخر: «هذا أخي» ولآخر: «هذا شيخي وأبي»ولآخر: «هذا سيّدي» و: «ياسيّدي» على سبيل الإكرام، وإنّ من زاده في الكرامة زاده في مثل هذا القول، فإذن يجوز عندكم أن يكون موسى أخاً لله وشيخاً له أو أباً وسيّداً، لأنّه قد زاده في الإكرام ممّا لعزير. فبهتوا.

... ثم أقبل على النصارى وقال لهم: وأنتم قلتم: إنّ القديم عزّوجلّ اتّحد بالمسيح ابنه، ما الّذي أردتموه بهذا القول؟ فإن أردتم بأنّ القديم صار محدثاً فقد أبطلتم، لأنّ القديم محال أن ينقلب فيصير محدثاً، وإن أردتم أنّ المحدث صار قديماً فقد أحلتم، لأنّ المحدث أيضاً محال أن ينقلب فيصير قديماً، وإن أردتم بقولكم: «اتّحد به» أنّه اختصّه واصطفاه على سائر عباده فقد أقررتم بحدوث عيسى، وبحدوث المعنى الّذي اتّحد به من أجله.

فقالوا: لمّا أظهر الله على يده من الأشياء العجيبة ما أظهر فقد اتّخذه ولداً على جهة الكرامة.

فقال لهم الرسول ﷺ: فقد سمعتم ما قلته لليهود في هذا المعنى وأعاده.

فقال رجل منهم: قولنا «عيسى ابن الله» كقولك: «ابراهيم خليل الله».

فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: إنّما سمّاه الله تعالى خليلاً لما قال لجبرئيل لمّا لقيه في الهواء: لا حاجة لي إلّا إليه. والخليل من الخلّة وهي: الفاقة، وذلك لا يوجب تشبيهاً بخلقه، والخلّة يمكن أن تسلب والولادة لا يمكن أن تسلب، ثمّ يجب على قولكم أن يجوز أن يقال ذلك لموسى.

فقال بعضهم: في الكتب المنزلة أنّ عيسى قال «اذهب إلى أبي».

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: إن كنتم تعملون بذاك الكتاب ففيه «اذهب إلى أبي وأبيكم»، فقولوا: إنّ جميع مخاطبيه أيضاً كانوا أبناء الله وما يدريكم لعلّه عنى «اذهب الى آدم ونوح» برفعه الله إليه، وجمعه بينه وبينهما وهما أبواه وأبواهم، فسكتوا[1].

«وطهر عن ملامسة النساء» ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾[2]، ﴿...أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كلّ شيء وهو بكلّ شيء عليم﴾[3] ﴿وأنّه تعالى جدّ ربّنا ما اتّخذ صاحبة ولا ولداً﴾[4].

«لا تناله الأوهام» أي: الخيالات.

«فتقدّره» أي: تعيّن له مقداراً بتخمينها.

«ولا تتوهّمه الفِطَن» بالكسر فالفتح جمع الفطنة.

«فتصوّره» أي: تعيّن له صورة بحدسها.

«ولا تدركه الحواسّ» جمع الحاسّة، والمراد: السامعة والباصرة والشامّة واللّامسة.

---

(١) أخرجه صاحب تفسير العسكري: ٢٤٤، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ١: ٢٣ والنقل بتلخيص وتصرف.

(٢) الإخلاص: ٤.

(٣) الأنعام: ١٠١.

(٤) الجن: ٣.

«فتحسّه» أي: تجعله من محسوساتها.

«ولا تلمسه الأيدي فتمسّه» ذكر الأيدي بعد الحواسّ من ذكر الخاصّ بعد العامّ، وأمّا الخبر «يده بيد الله يرفعه»[(١)] فاستعارة.

«لا يتغيّر بحال» كالإنسان يكون أوّلاً طفلاً، ثمّ شاباً، ثم شيخاً.

«ولا يتبدّل بالأحوال» هكذا في (المصرية) والصواب: (في الأحوال) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[(٢)].

«ولا تبليه» أي: لا تجعله بالياً.

«الليالي والأيام» كما تبليان الإنسان والحيوان والنبات.

«ولا يغيّره الضياء والظلام» فهو متجلّ بالوجود في الظلام كالضياء، ومستور بالكنه في الضياء كالظّلام.

«ولا يوصف بشيء من الأجزاء» حتّى الأجزاء العقلية، فعلمه وقدرته عين ذاته.

«ولا بالجوارح والأعضاء» وأمّا قوله تعالى ﴿...يد الله فوق أيديهم...﴾[(٣)] فهو استعارة.

«ولا بعرض من الأعراض» كأبيض يصير أسود أو أحمر أو أخضر أو أصفر، وسليم يصير سقيماً.

«ولا بالغيريّة والأبعاض» فليست سميعيّته غير بصيريّته، كما أنّ السّمع ليس بعضاً منه، ولا البصر بعضاً منه، كما هو كذلك في خلقه.

وفي خبر الصادق عليه السلام مع الزنديق: ليس قولي: «انّه سميع بصير» أي:

---

(١) أخرجه الشريف الرضي في نهج البلاغة ٤: ٦ الحكمة (١٩) ولفظه «يد الله بيده يرفعه».

(٢) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٠٧، ولكن في شرح ابن ميثم ٤: ١٤٧ «بالأحوال» أيضاً.

(٣) الفتح: ١٠.

يسمع بنفسه، ويبصر بنفسه، إنّه شيء والنّفس شيء آخر، وإنّما أردت عبارة عن نفسي إذ كنت مسؤولاً، وافهاماً لك إذ كنت سائلاً. فأقول: إنّه سميع بكلّه، لا أنّ الكلّ منه له بعض، ولكنّي أردت إفهامك والتّعبير عن نفسي[1].

«ولا يقال له حدّ ولا نهاية» فكلّ ذي روح له حدّ ونهاية في حياته الطبيعية.

«ولا انقطاع ولا غاية» كما ليس له أوّل وبداية.

«ولا أنّ الأشياء تحويه» أي: تجمعه وتستولي عليه.

«فتقلّه» أي: ترفعه. يقال: أقلّ الجرّة، إذا أطاق رفعها.

«أو تهويه» أي: تخفضه.

«أو أنّ شيئاً يحمله فيميله أو يعدّله» أي ليس محمولاً على شيء حتّى يميله أو يعدّله على ظهره من غير ميل.

«وليس» هكذا في (المصرية)، والصواب: (ليس) بدون واو كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[2].

«في الأشياء بوالج» أي: داخل.

«ولا عنها بخارج» فإنّ ذلك صفة مخلوقه، بل كما قال هو تعالى: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها...﴾[3].

«يخبر لا بلسان ولهوات» اللّهوات جمع اللّهاة: اللّحمة في أقصى سقف الفم.

«ويسمع لا بخروق» أي خروق الآذان.

«وأدوات» يتركّب منها السامعة؛ روى الفتح الجرجاني عن الهادي عليه السلام

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١٠٩ ح ٢، والصدوق بطريقين في التوحيد: ١٤٤ ح ١٠، و: ٢٤٥ ح ١، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٣٢، لكن توجد فيه هذه القطعة، وقد مر في العنوان (٢) من هذا الفصل.

(٢) كذا في شرح ابن ميثم ٤: ١٤٧، ولكن مع الواو في شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٠٨.

(٣) سبأ: ٢.

قال: سميّ ربّنا سميعاً لا بخَرْتٍ فيه، يسمع به الصوت، ولا يبصر به، كما أنّ خرتنا الّذي به نسمع لا نقوى به على البصر، ولكنّه أخبر أنّه لا يخفى عليه شيء من الأصوات، وهكذا البصر لا بخرت منه أبصر، كما أنّا نبصر بخرت منّا لا ننتفع به في غيره[١].

«يقول ولا يلفظ» أي: لا يكون قوله خارجاً من فم.

ومن أمثالهم «أسمح من لافظة»[٢]. قيل: المراد باللافظة العنز، لأنّها تشلى للحلب وهي تجترّ، فتلفظ بجرّتها وتقبل فرحاً منها بالحلب. وقيل: المراد بها الطيور التي تزقّ فراخها، لأنّها تخرج ما في جوفها وتطعمها. وقيل: المراد بها الديك، لأنّه يلفظ الحبّ من منقاره لدجاجه. وقيل: المراد بها الرّحى، لأنّها تلفظ ما صبّ فيها. وقيل: المراد بها البحر، لأنّه يلفظ بالعنبر والجوهر.

«ويحفظ» كلّ شيء.

«ولا يتحفَّظ» بالقوّة الحافظة مثلنا.

«ويريد» شيئاً.

«ولا يضمر» في النّفس مثلنا.

«يحبّ ويرضى من غير رقّة» له تحصل في القلب مثلنا.

«ويبغض» وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام: ما من شيء ممّا أحلّه الله عزّ وجلّ أبغض إليه من الطلاق، وإنّ الله يبغض المطلاق الذوّاق[٣].

(١) أخرجه الكليني ضمن حديث طويل في الكافي ١: ١٢١ ح٢ عن علي بن محمد مرسلاً عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، وأخرجه الصدوق في التوحيد: ١٨٨ ح٢، والعيون ١: ١٢١ ح٥٠ باسناده عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٩٧ بلا اسناد عن الرضا عليه السلام، ولكن ليس في رواية الطبرسي هذه القطعة، واما قول الشارح الفتح الجرجاني عن الهادي عليه السلام فسهوٌ وهو حديث آخر.

(٢) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١: ٣٥٣، والزمخشري في المستقصى ١: ١٧١.

(٣) رواه الكليني في الكافي ٦: ٥٤ ح٢، وصاحب تحفة الإخوان عنه المستدرك ٣: ٢ الباب(١) ح٣ وروى في معناه كثيراً.

«ويغضب» في الخبر: لا يغضب تعالى كغضبه لظلم الضعيفين النساء والأطفال(١).

وروى (الكافي) عن الباقر والصادق عليهما السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ(٢).

«من غير مشقّة» أي: غضبه ليس كغضبنا بتأثّر وانقلاب في النّفس يوجب المشقّة؛ قال الباقر عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿...ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾(٣): إنّ غضبه هو عقابه لا أنّه استفزه شيء(٤).

«يقول لمن» هكذا في (المصرية) والصحيح: (لما) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)(٥).

«أراد كونه» أي: وجوده.

«كن فيكون» أي: فيوجد.

«لا بصوت يقرع، ولا بنداء يسمع» كما في أقوال الناس بعضهم مع بعض؛

---

(١) أخرج هذا المعنى الحميري في قرب الاسناد: ٤٤، والكليني في الكافي ٥: ٥١١ ح ٣، والبيهقي في شعب الايمان عنه الجامع الصغير ١: ٨، والصدوق في الفقيه ٣: ٢٤٨ ح ١، والخصال ١: ٣٧ ح ١٣ وغيرهم.

(٢) أخرجه صاحب مسند زيد: ١٩٩، وابن الأشعث في سننه: ٥٦، والصدوق في الفقيه ٢: ٣٨ ح ٨، ومعاني الأخبار: ٢٦٤ ح ١، والطوسي في التهذيب ٤: ١٠٥ ح ٣٣، والطبراني وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والبيهقي في شعب الإيمان، والاصبهاني في الترغيب عنهم الدر المنثور ١: ٣٥٤ وابن عساكر في التاريخ عنه الجامع الصغير ١: ٩١، ورواه القاضي النعمان في دعائم الإسلام ١: ٢٤١، والراوندي في النوادر عنه البحار ٩٦: ١٨١ ح ٢٧ عن النبي صلى الله عليه وآله، ورواه الصدوق في ثواب الأعمال: ١٧٢ ح ١، والاربلي في كشف الغمة ٢: ٢٨٩ عن السجاد عليه السلام، والأهوازي في الزهد: ٣٦ ح ٩٤ عن الباقر عليه السلام، والصدوق في ثواب الأعمال: ١٧٢ ح ١ عن الصادق عليه السلام، وأما الكليني فأخرجه بروايتين في الكافي ٤: ٧ ح ١، و: ٨ ح ٣ عن الباقر عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله ومعنى الحديث روي كثيراً.

(٣) طه: ٨١.

(٤) أخرج هذا المعنى الصدوق في التوحيد: ١٦٨ ح ١، ومعاني الأخبار: ١٨ ح ١، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٢٢ عن الباقر عليه السلام.

(٥) في شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٠٨، وشرح ابن ميثم ٤: ١٤٨ «لمن» أيضاً.

فإنّ كلامهم أثر يؤثّره اصطكاك الأجسام في الهواء، والهواء يؤدّيه إلى المسامع، وليس كلامه تعالى ـ والمراد كلامه التكويني ـ كذلك ليس فيه صوت يقرع ولا نداء يسمع، بل هو فعله وخلقه كما قال.

«وإنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثّله» فله تعالى صفات ذات، كالعلم والقدرة، وصفات فعل، كالمشيئة والإرادة وكلامه مع خلقه.

«لم يكن» أي: ذاك الفعل الّذي أنشأه ومثّله.

«من قبل ذلك» أي: أنشأه تعالى.

«كائناً» أي: موجوداً.

«ولو كان قديماً» أي: وجد قبل.

«لكان إلهاً ثانياً» مع الله تعالى.

وقلنا: إنّ مراده عليه السلام كلامه تعالى التكويني، وأمّا كلامه التكليفي مع ملائكته ورسله فبإيجاده الكلمات.

ففي خبر عن الرضا عليه السلام في موسى عليه السلام: لمّا كلّمه الله تعالى، وقرّبه نجيّاً رجع إلى قومه فأخبرهم أنّ الله عزّ وجلّ كلّمه وقرّبه وناجاه. فقالوا: لن نؤمن لك حتّى نسمع كلامه كما سمعت. وكان القوم سبعمائة ألف رجل، فاختار منهم سبعين ألفاً، ثمّ اختار منهم سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمائة، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربّه، فخرج بهم إلى طور سيناء، فأقامهم في سفح الجبل وصعد موسى عليه السلام الى الطور، وسأل الله تعالى أن يكلّمه، ويسمعهم كلامه، فكلّمه الله تعالى وسمعوا كلامه من فوق وأسفل، ويمين وشمال، ووراء وأمام، لأنّ الله عزّوجلّ أحدثه في الشجرة، ثمّ جعله منبعثاً منها، حتّى سمعوه من جميع الوجوه[1].

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ١٢١ ح ٢٤ وضمن حديث طويل في العيون ١: ١٥٩ ح ١، ورواه الطبرسي في الاحتجاج

وفي (كتاب أخطب خوارزم) عن ابن عمر قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وقد سئل بأيّ لغة خاطبك ربّك ليلة المعراج؟ فقال: بلغة علي بن أبي طالب. فألهمني أن قلت: أخاطبتني أنت أم علي؟ فقال: يا محمّد أنا شيء لا كالأشياء، لا أُقاس بالنّاس، ولا أُوصف بالأشياء. خلقتك من نوري، وخلقت عليّاً من نورك، فاطلعت على سرائر قلبك، فلم أجد إلى قلبك أحبّ من عليّ بن أبي طالب، فخاطبتك بلسانه كيما يطمئن قلبك[١].

ويمكن أن يكون قوله عليه السلام «وإنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثّله» إشارة إلى كلامه التكليفي الّذي قلنا، لكن مع وقوع تحريف فيه، وأنّ الأصل: «وأمّا كلامه سبحانه فقول منه أنشأه ومثّله»، وحينئذ فقوله بعد «لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولوكان لكان إلهاً ثانياً» معناه: أنّ كلامه تعالى لمّا كان صفة فعله ليس بقديم، ولو كان قديماً وهو غيره صار إلهاً ثانياً.

وفي خبر أبي بصير عن الصادق عليه السلام قلت: فلم يزل الله متكلّماً؟ قال: فقال: إنّ الكلام صفة محدثة ليست بأزليّة، كان الله تعالى ولا متكلّم[٢].

ومن كلامه عليه السلام يظهر بطلان مذاهب الحنابلة، والكراميّة، والأشاعرة. قالت الحنابلة: إنّ كلامه تعالى حروف وأصوات قديمة.وقالت الكراميّة: إنّ كلامه تعالى صفة له مؤلّفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته، وقالت الأشاعرة: كلامه تعالى معنى واحد بسيط قائم بذاته القديمة[٣].

٢: ٤٢٩ عن الرضا عليه السلام. وروى معناه المرتضى في تنزيه الأنبياء: ١٧٥ بلا عزو.

(١) أخرجه الخوارزمي في المناقب: ٣٧.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١٠٧ ح ١، والصدوق في التوحيد: ١٣٩ ح ١، وقريباً منه أبو علي الطوسي في أماليه ١: ١٧٠ المجلس (٦).

(٣) نقل هذه المقالات الفاضل السيوري في إرشاد الطالبين: ٢١٩، لكن نسبة المقالة المذكورة إلى الكرامية بإطلاقها مشكل، كما يظهر لك من الملل والنحل للشهرستاني ١: ٩٩ ـ ١٠٣.

هذا، وفي (ملل الشهرستاني) في ذكر انفرادات الجبائي وابنه أبي هاشم قال: إنّهما حكما بكونه تعالى متكلّماً بكلام يخلقه في محلّ، وحقيقة الكلام عندهما أصوات مقطعة وحروف منظومة، والمتكلّم من فعل الكلام لا من قام به الكلام، إلّا ان الجبائي خالف أصحابه خصوصاً بقوله يحدّث الله تعالى عند كلّ قارئ كلاماً لنفسه في محلّ القراءة، وذلك حين ألزم أنّ الذي يقرؤه القارئ ليس بكلام الله، والمسموع منه ليس من كلام الله، فالتزم هذا المحال من إثبات أمر غير معقول ولا مسموع، وهو اثبات كلامين في محلّ واحد[1].

«لا يقال كان بعد أن لم يكن» يعني: أنّ قولنا (كان) في ﴿...كان الله سميعاً بصيراً﴾[2] و ﴿...كان الله عليماً حكيماً﴾[3] بمعنى الاستمرار لا بمعنى (صار)، وإلّا لزمت بواطل:

احدها: «فتجري عليه الصفات المحدثات» قال ابن أبي الحديد وابن ميثم: وروى (صفات المحدثات)[4]: أي بالإضافة، وكيف كان فوجه جريان المحدثات عليه حينئذ: أنّ شيئاً لم يكن ثمّ كان محدثاً.

وثانيها: «ولا يكون بينها» أي: المحدثات.

«وبينه» تعالى.

«فصل» لكونه مثلها في السبق بالعدم.

وثالثها «ولا له عليها فضل» بدوام الوجود.

«فيستوي الصانع والمصنوع» في كونه معدوماً أوّلاً.

---

(١) الملل والنحل ١: ٧٤.

(٢) النساء: ١٣٤.

(٣) النساء: ١٧، ٩٢، ١٠٤، ١١١، ١٧٠، والفتح: ٤.

(٤) نقل ابن أبي الحديد هذه الرواية في شرحه ٣: ٢١٠، ولكن لم نجدها في شرح ابن ميثم ٤: ١٧٣ وسائر الصفحات.

«ويتكافأ المبتدع» قال ابن ميثم: وفي نسخة الرضيّ «المبدَع» بفتح الدّال[١].

«والبديع» أي: الله تعالى؛ قال عزّوجلّ: ﴿بديع السماوات والأرض...﴾[٢].

«وخلق الخلائق على غير مثال خلا» أي: مضى.

«عن غيره» كيف لا، ولم يكن موجوداً غيره تعالى، فكيف يكون منه له مثال؟!

«ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه» فلم يكن خلق حتّى يستعين بهم في خلقه.

«وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال» بإمساكها عن فعل آخر، كأحدنا إذا أمسك شيئاً يشتغل به عن شيء آخر: ﴿إنّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده...﴾[٣].

«وأرساها» أي: أثبتها.

«على غير قرار» لها، فإنّها تتحرّك في الفضاء وتدور.

«وأقامها بغير قوائم» جمع القائمة.

«ورفعها» في الفضاء كباقي الكرات.

«بغير دعائم» جمع الدّعامة، أي: العماد لها.

«وحصّنها» بالتشديد، أي: أحكمها.

«من الأود» أي: الميل والانحناء عن مدارها.

«والاعوجاج» بالخروج عن مركزها.

---

(١) شرح ابن ميثم ٤: ١٧٤.

(٢) البقرة: ١١٧.

(٣) فاطر: ٤١.

«ومنعها من التهافت» أي: التساقط قطعة قطعة.

«والانفراج» أي: الانكشاف؛ قال: له فرجة كحل العقال[١].

«أرسى» أي: أثبت.

«أوتادها» وهي جبالها؛ قال تعالى: ﴿والجبال أرْساها﴾[٢].

«وضرب أسدادها» حتّى لا يختلط شيء منها بشيء آخر؛ قال تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان* بينهما برزخ لا يبغيان﴾[٣]، ﴿أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإلهٌ مع الله بل أكثرُهم لا يعلمون﴾[٤].

«واستفاض» يقال: فاض الماء يفيض، إذا كثر حتّى سال.

«عيونها» أي: ينابيعها؛ ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾[٥].

«وخدّ» أي: شقّ وحفر.

«أوديتها» جمع الوادي؛ وفي (اللسان) عن ابن سيده: الوادي كلّ مفرج بين الجبال والتلال والآكام، سمّي بذلك لسيلانه يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً. قال أبو الربيس التغلبي:

لا صلح بيني فاعلموه ولا بينكم ما حملت عاتقي
سيفي وما كنّا بنجد وما قرقر قمر الواد بالشاهق[٦]

(١) أورده أساس البلاغة: ٣٣٧ مادة (خرج)، ولسان العرب ٢: ٣٤١ مادة (خرج)، والشاعر أُميّة ابن أبي الصلت، والبيت بتمامه في العنوان (٣٥) من هذا الفصل.

(٢) النازعات: ٣٢.

(٣) الرحمن: ١٩ ـ ٢٠.

(٤) النمل: ٦١.

(٥) النازعات: ٣١.

(٦) لسان العرب ١٥: ٣٨٤ مادة (ودى).

وقوله عزّوجلّ: ﴿ألم تر أنّهم في كلّ واد يهيمون﴾[١]. ليس يعني أودية الأرض إنّما هو مثل لشعر الشعراء، كما تقول: أنا لك في واد، وأنت لي في واد. أي: يقولون في الذم ويكذبون، وفي المدح ويكذبون، وجمع الوادي أوداء وأودية وأوداية؛ قال: «واقطع الأبحر والأوداية»[٢].

«فلم يهن» أي: لم يضعف.

«ما بناه» ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون* والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾[٣].

«ولا ضعف ما قوّاه» ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً* وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾[٤]، ﴿أأنتم أشدّ خلقاً أم السّماءُ بناها* رفع سَمْكَها فسوّاها* وأغطش ليلها وأخرج ضحاها* والأرض بعد ذلك دحاها﴾[٥].

«هو الظاهر عليها» الضمير في (عليها) راجع إلى (الأرض) في قوله: «وأنشأ الأرض»، أو إلى (الخلائق) في قوله: «خلق الخلائق»، والأوّل أقرب لفظاً، والثاني معنى.

«بسلطانه وعظمته» يتصرّف فيها ما يشاء كيف يشاء.

«وهو الباطن لها بعلمه ومعرفته» ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد﴾[٦].

«والعالي على كلّ شيء منها بجلاله وعزّته» ﴿...والله غالب على أمره ولكنّ

---

(١) الشعراء: ٢٢٥.

(٢) لسان العرب ١٥: ٣٨٥ مادة (ودى).

(٣) الذاريات: ٤٧ ـ ٤٨.

(٤) النبأ: ١٢ ـ ١٣.

(٥) النازعات: ٢٧ ـ ٣٠.

(٦) ق: ١٦.

أكثر الناس لا يعلمون﴾[١].

«ولا يعجزه شيء منها طلبه» ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء...﴾[٢] ﴿...ولا يؤوده حفظهما وهو العليّ العظيم﴾[٣].

«ولا يمتنع» شيء.

«عليه فيغلبه» ذلك الشيء؛ قال تعالى: ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين* ترجعونها إن كنتم صادقين﴾[٤].

«ولا يفوته السّريع منها» كما يفوتنا كثير من الأشياء السريعة.

«فيسبقه» فلا يلحقه؛ ﴿... يا أيّها النّاس إنّما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدّنيا ثمّ إلينا مرجعكم فننبّئكم بما كنتم تعملون﴾[٥].

وفي الخبر: إنّ إبراهيمعليه‌السلام لمّا أري ملكوت السماوات والأرض، فالتفت ثلاثاً ورأى رجالاً يزنون فدعا عليهم فماتوا، أوحى تعالى إليه: إنّي خلقتهم على أصناف: عبد يعبد غيري فلن يفوتني...[٦].

«ولا يحتاج إلى ذي مال فيرزقه» ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون* ما أُريد منهم من رزق وما أُريد أن يطعمون* إنّ الله هو الرزّاق ذو القوّة المتين﴾[٧].

---

(١) يوسف: ٢١.

(٢) الاحقاف: ٣٢.

(٣) البقرة: ٢٥٥.

(٤) الواقعة: ٨٦ ـ ٨٧.

(٥) يونس: ٢٣.

(٦) روي بطرق عديدة عن النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله وعن الصادقعليه‌السلام وعن سلمان وعطاء وشهر بن حوشب، وقد مر تخريجه في العنوان (٢٢) من هذا الفصل.

(٧) الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨.

«خضعت الأشياء له، وذلّت مستكينة لعظمته» ﴿قل أإنّكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العالمين* وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسائلين* ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين* فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كلّ سماء أمرها وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيحَ وحِفظاً ذلك تقديرُ العزيز العليم﴾[1].

«لا يستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فيمتنع من نفعه وضرّه» فهرب موسى عليه السلام من مصر لمّا خاف أن يقتله فرعون، فورد ماء مدين وامتنع من أن تناله يد فرعون[2]، وهرب النبيّ صلى الله عليه وآله من مشركي مكّة لمّا أرادوا قتله، فلمّا ورد المدينة أمن من أذاهم[3]، وكثير من الناس إذا لم يرضوا بسلطانهم يخرجون من مملكته فيمتنعون من نفعه وضرّه، وأمّا هو تعالى فالأرض والسماء في سلطانه، والبرّ والبحر من مملكته، ﴿قل من ذا الّذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة...﴾[4]، ﴿قل إنّي لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً* قل إنّي لن يُجيرَني من الله أحد ولن أجد من دونه مُلتحَداً﴾[5].

«ولا كُفْء له فيكافئه» كيف وهو الخالق وغيره مخلوق؟!

«ولا نظير له فيساويه» ﴿... ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير﴾[6].

---

(١) فصلت: ٩ ـ ١٢.

(٢) جاءت القصة في أوائل سورة القصص.

(٣) القصة مشهورة في كتب السيرة والتاريخ. وأشار اليها تعالى في التوبة: ٤٠.

(٤) الأحزاب: ١٧.

(٥) الجن: ٢١ ـ ٢٢.

(٦) الشورى: ١١.

«هو المفني لها بعد وجودها حتّى يصير موجودها كمفقودها» ﴿كلّ من عليها فان* ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والاكرام﴾[(١)].

«وليس فناء» هكذا في النسخ[(٢)]، والظّاهر أنّ الأصل (افناء).

«الدّنيا بعد ابتداعها» وخلقها.

«بأعجب من إنشائها واختراعها» كيف لا والإيجاد أصعب من الاخراب؟! فاستبعاد من استبعد إخراب هذه الأفلاك من قصر نظره وضعف بصره.

«وكيف» لا يكون الإنشاء والإفناء مختصّين به تعالى.

«لو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها» البهائم جمع البهيمة؛ وفي (اللسان): البهيمة: كلّ ذات أربع قوائم من دوابّ البرّ والماء. ثم نقل عن الزّجاج: كلّ حيّ لا يميّز بهيمة[(٣)].

«وما كان من مُراحها» بالضمّ، والمراد به: ما أُريح من تعب الرّعي كالحمير والبغال والخيل.

«وسائمها» والمراد بالسائم ما ترعى، كالأغنام وما من قبيلها، فالتقابل واقع بين المراح والسائم مثل الطير والبهائم، ولقد وقع ابن أبي الحديد وكثير منهم هنا في حيص وبيص وخبط وخلط.

«وأصناف أسناخها» أي: أُصولها.

«وأجناسها» أي: أنواعها، فالضأن والمعز متّحدان بالأصل مختلفان بالنّوع.

«ومتبلّدة» من البلادة ضدّ الذكاوة والكياسة، وقولهم «بيضة البلد» في

---

(١) الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) كذا في نهج البلاغة ٢: ١٢٤، وشرح ابن أبي الحديد ٣: ٢١١، وشرح ابن ميثم ٤: ١٤٩.

(٣) لسان العرب ١٢: ٥٦ مادة (بهم).

الذمّ، كقول حسّان في نفسه:

وابن الفريعة أمسى بيضة البلدِ(١)

بكسر اللّام، الوصف من البلادة، والمراد بالبلد فيه النعامة؛ فمن أمثالهم «أحمق من نعامة»(٢)، قالوا: إنّها تنتشر للطعم فربّما رأت بيض نعامة قد انتشرت لمثل ما انتشرت هي له، فتحضن بيضها وتنسى بيض نفسها؛ قال ابن هرمة:

كتاركة بيضها بالعراء ... وملبسة بيض أُخرى جناحا(٣)

وقالوا أيضاً: أذلّ من بيضة البلد(٤).

وفسّر (أُم البيض) بالنعامة في قول الشاعر:

وأتانا يسعى تفرس أُمّ الـ ... ـبيض شداً وقد تعالى النّهار(٥)

وأمّا في المدح كقول أُخت عمرو بن عبد ود فيه عليه السلام:

وكان يدعى ابوه بيضة البلد(٦)

فالبلد فيه بالفتح واحد البلاد، كما أنّ البيضة في الأوّل بيضة الطير، وفي الثاني بيضة الحديد التي يقال لها بالفارسية (كلاه خود)(٧)، وقد خلطوا بينهما فقالوا: بيضة البلد يأتي للمدح والذم، والحقيقة ما عرفت.

---

(١) لسان العرب ٧: ١٢٦، مادة (بيض) وصدره: رأى الجلابيب قد عزّوا وقد كثروا. واحتمل ابن منظور كون البيت لرجل آخر يهجو حسّان بن ثابت.

(٢) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١: ٢٢٥، والزمخشري في المستقصى ١: ٨٥.

(٣) أورده في مجمع الأمثال ١: ٢٢٥، والمستقصى ١: ٨٥ ونسبه الزمخشري إلى أبي دواد.

(٤) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١: ٢٨٥ والزمخشري في المستقصى ١: ١٣٢.

(٥) لسان العرب ١٢: ٣٢ مادة (أمم) ونسبه إلى أبي دواد.

(٦) هذا شطر من بيتين مرّ في شرح خطبة الرضي، وقد أشرنا إلى اختلاف ألفاظ الروايات وهذا اللفظ لابن أبي الحديد في شرحه ١: ٧.

(٧) (كلاه خود) آلة حربية حديدية تستعمل لوقاية الرأس، وفي العربية: البيضة أو الخوذة والأخير معرب خود أيضاً.

هذا، وقد يأتي التبلّد في قبال التجلّد، إذا كان تبلّده عارضياً من شدّة المصيبة؛ قال الشاعر:

ألا لا تلمه إن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتبلّدا[1]

«أُممها» قال الجوهري: كلّ جنس من الحيوان أمّة[2].

وفي الحديث: «لولا أنّ الكلاب أمّة من الأُمم لأمرت بقتلها»[3].

قلت: لم خصّ الأمّة بالحيوان، وقد قال تعالى: ﴿وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلّا أُمم أمثالكُم...﴾[4].

«وأكياسها» أي: أذكيائها؛ ومن أمثالهم: «أكيس من قشّة»[5]، وهي جرو القرد،كما أنّ من أمثالهم: «أبلد من ثور ومن سلحفاة»[6].

«على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها» ﴿... إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له...﴾[7].

«ولا عرفت كيف السّبيل إلى ايجادها» ﴿أفرأيتم ما تمنون* أأنتم تخلقونه

---

(١) لسان العرب ٣: ٩٦ مادة (بلد).

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٥: ١٨٦٤ مادة (أُمم).

(٣) هذا صدر حديث أخرجه الترمذي بطريقين في سننه ٤: ٧٨، و ٨٠ ح١٤٨٦ و ١٤٨٩، والنسائي في سننه ٧: ١٨٥، وأبو داود في سننه ٣: ١٠٨ ح ٢٨٤٥، وابن ماجه في سننه ٢: ١٠٦٩ ح ٣٢٠٥، والدارمي في سننه ٢: ٩٠، وأحمد في مسنده ٥: ٥٤ و ٥٦ بطريقين عن عبدالله بن مغفل عن النبي ﷺ، وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير عنه منتخب كنز العمال ٦: ١٤٥، ورواه من الشيعة بلا اسناد أبو الفتوح في تفسيره عن عبدالله بن مغفل عن النبي ﷺ، والاحسائي في غوالي اللآلي عن النبي ﷺ عنهما المستدرك ٣: ٦٥ الباب (٣٢) ح ٢، وشرحه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث: ١٣٣، والسندي في حاشية سنن النسائي ٧: ١٨٥.

(٤) الأنعام: ٣٨.

(٥) أورده الميداني في مجمع الأمثال ٢: ١٦٩، والزمخشري في المستقصى ١: ٢٩٧. قال الميداني: وهي جرو القرد، ثم قال: يضرب مثلاً للسوار خاصة.

(٦) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١: ١١٩، والزمخشري في المستقصى ١: ٢٨.

(٧) الحج: ٧٣.

أم نحن الخالقون﴾[١].

«ولتحيّرت عقولها في علم ذلك» كيف لا، ولا وقفت بعد على حقيقة الروح وعرفانها فضلاً عن علم ايجادها.

«وتاهت» أي: ضلّت.

«وعجزت قواها، وتناهت» أي: بلغت إلى النهاية.

«ورجعت خاسئة» من خسأ البصر: كلّ وأعيا.

«حسيرة» من حسر بصره، إذا كلّ وانقطع من طول النّظر، والأصل في كلامه عليه السلام قوله تعالى: ﴿...ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور* ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[٢].

«عارفة بأنّها مقهورة» أي: مغلوبة.

«مقرّة بالعجز عن إنشائها» فكيف تقدر على ايجاد الرّوح فيها، وكيف تقدر على ايجاد السامعة والباصرة والذّائقة والشّامّة واللامسة فيها، بل والعاطفة وقوى أُخر غير محصورة؟

«مذعنة» أي: معتقدة.

«بالضّعف عن إفنائها» والمراد إفناء نوعها.

«وإنّ الله» هكذا في (المصرية)، والصواب: (وإنّه) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[٣].

«سبحانه يعود بعد فناء الدّنيا وحده لا شيء معه كما كان» وحده لا شيء معه.

---

(١) الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) الملك ٣ ـ ٤.

(٣) في شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢١١، وشرح ابن ميثم ٤: ١٤٩ «وان الله» أيضاً.

«قبل ابتدائها كذلك يكون» وحده لا شيء معه.

«بعد فنائها» حتّى ملك الموت أيضاً لا يبقى؛ روى (الكافي) في نوادر جنائزه عن يعقوب الأحمر قال: دخلنا على الصادقعليه السلام نعزيه بإسماعيل فترحّم عليه، ثم قال: إنّ الله عزّوجلّ نعى إلى نبيّهصلى الله عليه وآله نفسه، فقال: ﴿إنّك ميّت وإنّهم ميّتون﴾[1]، وقال عزّوجلّ: ﴿كلّ نفس ذائقة الموت...﴾[2]. ثم انشأ يحدّث فقال: إنّه يموت أهل الأرض حتّى لا يبقى أحد، ثمّ يموت أهل السّماء حتّى لا يبقى أحد إلّا ملك الموت وحملة العرش وجبرئيل وميكائيل. قال: فيجيء ملك الموت حتّى يقوم بين يدي الله، فيقال له: من بقي؟ وهو أعلم.

فيقول: يا ربّ لم يبق إلّا ملك الموت وحملة العرش وجبرئيل وميكائيل. فيقال له: قل لجبرئيل وميكائيل فليموتا... فيقول: يا ربّ لم يبق إلّا ملك الموت. فيقال له: مت يا ملك الموت، فيموت. ثم يأخذ الأرض بيمينه والسماوات بيمينه، ويقول: أين الذين كانوا يدّعون معي شريكاً، أين الّذين كانوا يجعلون معي إلهاً آخر؟[3]

«بلا وقت» من ليل أو نهار.

«ولا مكان» أرض أو سماء.

«ولا حين ولا زمان» شهر أو سنة.

«عدمت عند ذلك» أي فناء العالم.

«الآجال» للأشياء.

«والأوقات» للأُمور لعدم وجود شمس وقمر.

---

(١) الزمر: ١.

(٢) آل عمران: ١٨٥.

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ٣: ٢٥٦ ح٢٥، وأحمد بن محمد بن عيسى في النوادر عنه البحار ٦: ٣٢٩ ح١٤.

«والسّنون» هكذا في (المصرية)، والصواب: (وزالت السّنون) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[1].

«والساعات» التي هي أجزاء الليل والنهار.

«فلا شيء إلّا الواحد القهّار» ﴿...لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار﴾[2].

«الذي إليه مصير جميع الأُمور» وتدبيرها.

«بلا قدرة منها» الظّرف الأوّل خبر كان قدّم لكونه مهمّاً في القصد، والظرف الثاني متعلّق بالأوّل.

«كان ابتداء خلقها» كيف لا ولم تكن شيئاً حتّى تكون ذات قدرة؟!

«وبغير امتناع منها» مثل سابقه في التركيب.

«كان فناؤها» ولو كان فيها استعداد البقاء.

«ولو قدرت على الامتناع» من الفناء.

«دام» هكذا في (المصرية)، والصواب: (لدام) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[3].

«بقاؤها» بالامتناع من الفناء.

«لم يتكأده» أي: لم يشقّ عليه.

«صنع شيء منها إذ صنعه» ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾[4].

«ولم يؤده» بدون واو، أي: لم يثقل عليه.

«منها خلق ما خلقه وبرأه» أي: خلقه عن غير مثال.

«ولم يكوّنها» أي: لم يوجدها.

---

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢١١، وشرح ابن ميثم ٤: ١٤٩.

(٢) غافر: ١٦.

(٣) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢١١، وبلا (لام) في شرح ابن ميثم ٤: ١٤٩.

(٤) ابراهيم: ٢٠.

«لتشديد سلطان» كسلاطين الدّنيا يصنعون أُموراً لتشديد سلطانهم؛ ومنهم المعتصم جمع من الأتراك أربعة آلاف فألبسهم ـ كما في المروج ـ أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهّبة، وأبانهم بالزّي عن سائر جنوده، وقد كان اصطنع قوماً من حوف مصر ومن حوف اليمن وحوف قيس فسمّاهم المغاربة، واستعدّ رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم من الأشروسية، فكثر جيشه حتّى اضطر إلى الخروج عن بغداد لما ينال الناس من جيشه، فانتقل إلى محل سامراء وبناها[1].

«ولا لخوف من زوال ونقصان» كالنّاس يبنون القلاع لتصونهم من الزوال والنقصان.

«ولا للاستعانة بها على ندّ» أي: مثل ونظير.

«مكاثر» له.

«ولا للاحتراز بها» أي: التوقّي.

«من ضدّ مثاور» أي: مواثب؛ بنى المنصور تحت قصره نفقاً يخرج إلى خارج البلد لكي يفرّ إذا غلبه عدو.

«ولا للازدياد بها في ملكه» كملوك الدّنيا في بنائهم للبلاد.

«ولا لمكاثرة شريك في شركه» كأهل الدّنيا في تكاثرهم بالأموال والأولاد في ما بينهم.

«ولا لوحشة كانت منه» إذ كان وحده.

«فأراد أن يستأنس إليها» ويرفع وحشته بها.

«ثمّ هو» تعالى.

«يفنيها بعد تكوينها» وإيجادها.

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٤٦٥ والنقل بالمعنى.

«لا لسأم» أي: ملال.

«دخل عليه في تصريفها» وتغييرها من حال إلى حال.

«وتدبيرها» بما يكون صلاحها.

«ولا لراحة واصلة إليه» من إفنائها.

«ولا لثقل شيء منها عليه» وقت بقائها.

«لم يملّه» أي: لم يجعله ملولاً.

«طول بقائها فيدعوه» ملله.

«إلى سرعة إفنائها» حتّى لا يزداد ملله.

«لكنّه سبحانه دبّرها» حين ابقائها.

«بلطفه» ﴿...الّذي أعطى كلّ شيءٍ خلقه ثم هدى﴾[1].

«وأمسكها بأمره» لكيلا تضمحلّ.

«وأتقنها» أي: أحكمها.

«بقدرته» فلم يكن فيها انقطاع دون ما أُريد منها.

«ثمّ يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها» كمن يخرب بيته، ثمّ يعيده لحاجته إلى سكناه.

«ولا لاستعانة بشيء منها عليها» كالنّاس في أسباب أعمالهم.

«ولا لانصراف من حال وحشة» حين الفناء.

«إلى حال استئناس» بها بعد إعادتها.

«ولا من حال جهل وعمى» في إفنائها.

«إلى حال علم» هكذا في (المصرية)، والصواب: (إلى علم) كما في (ابن

(١) طه: ٥٠.

أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[١].

«والتماس» أي: تبصّر.

«ولا من فقر وحاجة» من فنائها.

«إلى غنى وكثرة» بإعادتها.

«ولا من ذلّ وضعة» أي: انحطاط من انعدامها.

«إلى عزّ وقدرة» بعد ايجادها.

٢٦

من الخطبة (١٩٣)

ومن خطبة له عليه السلام:

اَلْحَمدُ لِلّهِ الَّذي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلالِ كِبْرِيَائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَ اَلْعُيُونِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ.

«الحمد لله الّذي أظهر من آثار سلطانه» في تصرّفه في العالم وفي نفوس بني آدم بما شاء وكيف شاء.

«وجلال كبريائه» من خلقه السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار وأصناف الخلق.

«ما حيّر» وأدهش.

«مُقَل» بالضمّ فالفتح جمع مقلة: شحمة العين الّتي تجمع البياض والسواد.

«العيون» هكذا في (المصرية)، والصواب: (العقول) كما في (ابن أبي

---

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢١٢، وشرح ابن ميثم ٤: ١٥٠ «إلى حال علم» أيضاً.

الحديد وابن ميثم والخطية)(١).

«من عجائب قدرته» ومنها ما بيّنه في قوله عزّوجلّ: ﴿إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنّهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾(٢).

وقال الصادق عليه السلام للمفضّل في ما بيّنه من حكم الباري تعالى: واعلم ـ يا مفضل ـ انّ اسم هذا العالم بلسان اليونانيّة الجاري المعروف عندهم (قوسموس)(٣) وتفسيره الزّينة، وكذلك سمّته الفلاسفة ومن ادّعى الحكمة، أفكانوا يسمّونه بهذا الاسم إلّا لما رأوا فيه من التقدير والنظام، فلم يرضوا أن يسمّوه تقديراً ونظاماً حتى سمّوه زينة ليخبروا أنّه مع ما هو عليه من الصواب والاتقان على غاية الحسن والبهاء(٤).

وقال الرضا عليه السلام: خلق الله الخلق على أنواع شتّى، ولم يخلقهم نوعاً واحداً لئلّا يقع في الأوهام أنّه عاجز، فلا يقع في وهم أحد صورة إلّا وقد خلق تعالى عليها خلقاً، ولا يقول قائل: هل يقدر الله على أن يخلق على صورة كذا وكذا إلّا وجد ذلك في خلقه عزّوجلّ، فيعلم بالنظر إلى أنواع خلقه أنّه على كلّ

---

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥٣٨، وشرح ابن ميثم ٣: ٤٣١ «العيون» أيضاً.

(٢) البقرة: ١٦٤.

(٣) (قوسموس) معرب (Koouos) اليونانية ذكر (Liddell) و (Scott) في معجم اليونانية [Greek= English Lexicon الصفحة ٧٨٢] من معاني الكلمة: «الترتيب الجيّد: النظم الجيّد» و«الزينة ـ الحلية» و «العالم ـ الكائنات» وقالا أول من استعمل هذه الكلمة في معنى العالم فيثاغورس في فلسفته لنظم العالم وترتيبه الكامل.

(٤) توحيد المفضل: ١٧٦.

شيء قدير[١].

«وردع» أي: كفّ.

«خطرات» ممّا يخطر بالبال.

«هماهم» جمع الهمهمة، ترديد الصوت في الصدر.

«النفوس عن عرفان كنه صفته» جلّ وعلا فإذا كان الإنسان لا يعرف كنه كثير ممّا أظهر من آثار سلطنته من الشمس والقمر والنجوم والسماء وغيرها ممّا يشاهدها كيف يعرف كنه صانعها.

وفي (الحلية) قال أحمد بن أبي الحواري: حدّثني أحمد بن داود قال: اجتمع بنو اسرائيل فأخرجوا من كلّ عشرة واحداً، ثمّ أخرجوا من كلّ مائة واحداً، ثمّ أخرجوا من كلّ ألف واحداً حتّى أخرجوا سبعةً خيار بني إسرائيل.

فقال: أدخلونا في بيت وطيّنوا علينا، ولا تخرجونا حتّى نعرف ربّنا.

ففعلوا، فمات أوّل يوم واحد، وفي اليوم الثاني آخر، ثم مات في اليوم الثالث آخر، فقال شابّ وكان أصغرهم: أخرجونا قد عرفته. قال: ففتحوا فأخرجوهم. فقال لهم: قد عرفته. قالوا: وأي شيء عرفت. قال: عرفت أنّه لا يُعرف. فإن شئتم فدعونا حتّى نموت عن آخرنا وإن شئتم أخرجونا[٢].

٢٧
من الخطبة (١٥٣)

ومن خطبة له عليه السلام: يذكر فيها بديع خلقة الخفّاش:

ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي ٱنْحَسَرَتِ ٱلْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ ٱلْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ، هُوَ ٱللّٰهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ

---

(١) أخرجه الصدوق في علل الشرائع ١: ١٤ ح١٣ بفرق يسير.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ١٠: ١٢.

الْمُبِينُ، أَحَقّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى ٱلْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ ٱلْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ، فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهَامُ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً(١). خَلَقَ ٱلْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ وَلَا مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَلَا مَعونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يَدْفَعْ، وَٱنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ.

«الحمد لله الذي انحسرت» أي: كلّت وانقطعت.

«الأوصاف عن كنه معرفته» كيف لا تنحسر عن كنه معرفته، وقد انحسرت عن كنه كثير من خلقه؟!

«وردعت» أي: كفّت.

«عظمته العقول» عن فهمه.

«فلم تجد مساغاً» أي: جوازاً، والأصل فيه: ساغ الشراب، إذا سهل مدخله في الحلق.

«إلى بلوغ غاية ملكوته» قال تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مدداً﴾(٢).

وقال الصادق عليه السلام: فقالوا ولِمَ لا يدرك تعالى بالعقل؟ قيل: لأنّه فوق مرتبة العقل، كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته؛ فإنّك لو رأيت حجراً يرتفع في الهواء علمت أنّ رامياً رمى به. فليس هذا العلم من قبل البصر بل من قبل العقل، لأنّ العقل هو الّذي يميّزه، فيعلم أنّ الحجر لا يذهب علواً من تلقاء نفسه، أفلا ترى كيف وقف البصر على حدّه فلم يتجاوزه، فكذلك يقف العقل على حدّه من معرفة الخالق فلا يعدوه، ولكن يعقله بعقل أقرّ أنّ فيه نفساً ولم يعاينها ولم يدركها بحاسة من الحواس. وعلى حسب هذا أيضاً نقول: إنّ

---

(١) قال الشارح وفي نسخ «ولم تقع على الاوهام بتقدير فيكون ممثلاً».

(٢) الكهف: ١٠٩.

العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار، ولا يعرفه بما يوجب له الإحاطة بصفته ـ إلى أن قال ـ فإن قالوا: أو ليس قد نصفه؟ فنقول: هو العزيز الحكيم للجواد الكريم. قيل لهم: كلّ هذه صفات إقرار، وليست صفات إحاطة فإنّا نعلم أنّه حكيم، ولا نعلم بكنه ذلك منه، وكذلك قدير وجواد، وسائر صفاته كما قد نرى السماء، فلا ندري ما هو جوهرها ونرى البحر ولا ندري أين منتهاه[١].

«هو الله الملك» هكذا في (المصرية)، وكلمة (الملك) زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[٢].

«الحقّ المبين» ﴿يومئذ يوفّيهم الله دينهم الحقّ ويعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين﴾[٣].

«أحقّ وأبين ممّا تراه العيون» لأنّ ما تراه العيون قد يقع فيه الخطأ، وأمّا هو تعالى فتحقّقه بالعقل الّذي استحال أن يخطئ.

قال الصادق عليه السلام بعدما مرّ في ما مرّ: فإن قالوا فأنتم الآن تصفون من قصور العلم عنه وصفاً حتّى كأنّه غير معلوم. قيل لهم: هو كذلك من جهة إذا رام العقل معرفة كنهه والإحاطة به، وهو من جهة أُخرى أقرب من كلّ قريب، إذا استدلّ عليه بالدّلائل الشافية، فهو من جهة كالواضح لا يخفى على أحد، وهو من جهة كالغامض لا يدركه أحد، وكذلك العقل أيضاً ظاهر بشواهده ومستور بذاته[٤].

«لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبّهاً، ولم تقع عليه الأوهام فيكون ممثّلاً»

---

(١) توحيد المفضل: ١٧٦.

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٤٣٣، وشرح ابن ميثم ٢: ٢٥٢ توجد كلمة «الملك» أيضاً.

(٣) النور: ٢٥.

(٤) توحيد المفضل: ١٨٠.

قال الصادق عليه السلام: فإن قالوا: كيف يعقل أن يكون مبايناً لكلّ شيء متعالياً عن كلّ شيء؟

قيل لهم: الحقّ الّذي تطلب معرفته من الأشياء هو أربعة أوجه، فأوّلها: أن ينظر أموجود هو أم ليس بموجود. والثاني: أن يعرف ما هو في ذاته وجوهره. والثالث: أن يعرف كيف هو وما صفته. والرابع: أن يعلم لماذا هو، ولأيِّ علّة، فليس من هذه الوجوه شيء يمكن المخلوق أن يعرفه من الخالق حقّ معرفته غير أنّه موجود فقط. فإذا قلنا: (وكيف) و (ماهو) فممتنع علم كنهه وكمال المعرفة به، وأمّا (لماذا هو) فساقط في صفة الخالق، لأنّه جلّ ثناؤه علّة كلّ شيء، وليس شيء بعلّة له، ثمّ ليس علم الإنسان بأنّه موجود يوجب له أن يعلم ما هو وكيف هو، كما أنّ علمه بوجود النفس لا يوجب أن يعلم ما هي وكيف هي، وكذلك الأُمور الروحانية اللطيفة[١].

«خلق الخلق على غير تمثيل، ولا مشورة مشير، ولا معونة معين» كيف لا ولم يكن شيء حتى يخلق على تمثيله، ولم يكن أحد حتّى يكون مشيراً له أو معيناً؟!

«فتمّ خلقه بأمره» ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[٢].

«وأذعن» أي: اعترف بلسان الحال.

«لطاعته فأجاب ولم يدفع، وانقاد ولم ينازع» بحصوله على وفق مراده؛ قال تعالى: ﴿...فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أوكرهاً قالتا أتينا طائعين* فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كلّ سماء أمرها وزيّنا السماء

(١) توحيد المفضل: ١٧٩.

(٢) يس: ٨٢.

الدّنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾[١].

٢٨
من الخطبة (١٨٩)

ومن خطبة له عليه السلام:

اَلْحَمْدُ لِلّهِ اَلْفَاشِي حَمْدُهُ، وَاَلْغَالِبِ جُنْدُهُ، وَاَلْمُتَعَالِي جَدُّهُ أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ اَلتُّؤَامِ، وَآلاَئِهِ اَلْعِظَامِ. اَلَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وَعَلِمَ مَا يَمْضِي وَمَا مَضَى. مُبْتَدِعِ اَلْخَلاَئِقِ بِعِلْمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلاَ اِقْتِدَاءٍ وَلاَ تَعْلِيمٍ، وَلاَ اِحْتِذَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيمٍ، وَلاَ إِصَابَةِ خَطَأٍ، وَلاَ حَضْرَةِ مَلأٍ.

«الحمد لله الفاشي» أي: المنتشر.

«حمده» قال تعالى: ﴿تسبّح له السماوات السبع والأرض ومن فيهنّ وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم...﴾[٢]، ﴿وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تُظهرون﴾[٣]، ﴿يسبّح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدّوس العزيز الحكيم﴾[٤].

«والغالب جنده» ﴿وإنّ جندنا لهم الغالبون﴾[٥]، ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إنّ الله قويّ عزيز﴾[٦].

«والمتعالي جدّه» أي: عظمته؛ والأصل فيه قوله تعالى حكاية عن الجنّ:

---

(١) فصلت: ١١ ـ ١٢.

(٢) الاسراء: ٤٤.

(٣) الروم: ١٨.

(٤) الجمعة: ١.

(٥) الصافات: ١٧٣.

(٦) المجادلة: ٢١.

﴿وأنّه تعالى جدّ ربّنا ما اتّخذ صاحبة ولا ولداً﴾[١].

«أحمده على نعمه التّؤام» جمع توأم أي المتواترة؛ قال الشاعر:

قالت لنا ودمعها تؤام كالدرّ إذ أسلمه النّظام
على الّذين ارتحلوا السّلام[٢]

والظاهر كونه استعارة، والأصل فيه: الولدان التّوأمان.

«وآلائه» أي: نعمائه؛ قال الجوهري: الآلاء النعم واحدها (ألى) بالفتح، وقد يكسر ويكتب بالياء، مثاله: معي وأمعاء[٣]. وقال الفيروزآبادي: واحدها إليٌ وألوٌ وأليٌ وألىً وإلىً[٤].

قلت: ولم أقف على استعمال مفرد للآلاء أصلاً، ولنا جموع لا يستعمل مفرد لها.

«العظام» وكلّ نعمة منه تعالى عظيمة، وإنّما فيها عظيم وأعظم.

«الّذي عظم حلمه فعفا» ﴿ولو يؤاخذ الله النّاس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة...﴾[٥]، ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾[٦].

«وعدل في كلّ ما قضى» ﴿إنّ الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاءِ ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي...﴾[٧]، ﴿...وقل آمنت بما أنزل الله من

---

(١) الجن: ٣.

(٢) لسان العرب ١٢: ٦١ مادة (تأم).

(٣) صحاح اللغة للجوهري ٦: ٢٢٧٠ مادة (ألى).

(٤) القاموس المحيط ٤: ٣٠٠ مادة (الا).

(٥) فاطر: ٤٥.

(٦) الشورى: ٣٠.

(٧) النحل: ٩٠.

كتاب وأمرت لأعدل بينكم...﴾[(١)].

وقال جابر الجعفيّ للباقرعليه السلام: نرى من الأطفال من يولد ميّتاً، ومنهم من يسقط غير تامٍّ، ومنهم من يولد أعمى أو أخرس أو أصمّ، ومنهم من يموت من ساعته إذا سقط على الأرض، ومنهم من يبقى إلى الاحتلام، ومنهم من يعمّر حتّى يصير شيخاً؛ فكيف ذلك وما وجهه؟

فقال عليه السلام: إنّ الله أولى بما يدبّره من أمر خلقه منه وهو الخالق والمالك لهم، فمن منعه التّعمير فإنّما منعه ما ليس له، ومن عمّره فإنّما أعطاه ما ليس له، فهو المتفضّل بما أعطى وعادل في ما منع[(٢)].

«وعلم ما يمضي وما مضى» قال تعالى: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾[(٣)].

«مبتدع الخلائق بعلمه» قال الصدوق: من الدّليل على أنَّ الله تبارك وتعالى عالم: أنّ الأفعال المختلفة التّقدير المتضادّة التدبير المتفاوتة الصنعة لا تقع على ما ينبغي أن يكون عليه من الحكمة ممّن لا يعلمها، ولا يستمرّ على منهاج منتظم ممّن يجهلها، ألا ترى أنّه لا يصوغ قرطاً يحكم صنعته، ويضع كلّاً من دقيقه وجليله موضعه من لا يعرف الصياغة، ولا أن ينتظم كتابة يتبع كلّ حرف منها ما قبله من لا يعلم الكتابة، والعالم ألطف صنعة وأبدع تقريراً ممّا وصفناه، فوقوعه من غير عالم بكيفيته قبل وجوده أبعد وأشدّ استحالة[(٤)].

---

(١) الشورى: ١٥.

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٣٩٧ ح ١٣ في صدر الحديث.

(٣) الحجر: ٢٤.

(٤) التوحيد للصدوق: ١٣٧.

«ومنشئهم بحكمه» ﴿ولقد علمتم النشأة الأُولى فلولا تذكّرون﴾[1]، ﴿...هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها...﴾[2]، ﴿وهو الّذي أنشأكم من نفس واحدة...﴾[3].

«بلا اقتداء» لغيره.

«ولا تعليم» من سواه.

«ولا احتذاء» يقال: حذوت النّعل بالنّعل، إذا قدّرت كلّ واحدة على صاحبتها.

«لمثال صانع حكيم» لعدم وجود لغيره.

«ولا إصابة» أحد.

«خطأ» له في خلقه: ﴿...ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور* ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[4].

واجتهد الطبيعيّون في إصابة خطأ في الخليقة، فعابوا بجهلهم الشعر النّابت على الرّكبة وعلى الابطين، وكون بطن الإنسان مصمتاً لا يمكن فتحه لعلاجه، ووجود الموت والفناء، ووجود الآفات الحادثة في بعض الأحيان، مثل الوباء واليرقان والجراد، وقلّة المطر وكثرته والزّلازل وغيرها، مع أنّ ذلك عين الصواب ومحض الحكمة، كما شرحه الصادقعليه السلام للمفضّل في (توحيده).

«ولا حضرة ملأ» وقت خلقه ما خلق: ﴿وجعلوا الملائكة الّذين هم عباد

---

(١) الواقعة: ٦٦.

(٢) هود: ٦١.

(٣) الأنعام: ٩٨.

(٤) الملك: ٣ ـ ٤.

الرّحمن إناثاً أشهدوا خلقهم...﴾[١]، ﴿وما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متّخذ المضلّين عضداً﴾[٢].

٢٩
من الخطبة (١٨٠)

ومن خطبة لهعليه السلام: روي عن نوف البكاليّ، قال: خطبنا هذه الخطبة بالكوفة أمير المؤمنينعليه السلام وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي...[٣]، فقالعليه السلام:

الحَمْدُ لِلّه الَّذي إلَيْهِ مَصائِرُ الْخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ الأَمْرِ، نَحْمَدُهُ عَلى عَظِيمِ إِحْسانِهِ، وَنَيِّرِ بُرْهَانِهِ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً، وَإلى ثَوَابِهِ مُقَرِّباً، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ. وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ رَجَاهُ مُوقِناً، وَأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِناً، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّداً، وَلَاذَ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً. لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشارَكاً، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرِثاً هَالِكاً، وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلَا زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ. وَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلاَ عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلاَ سَنَدٍ. دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ، وَلَا مُبْطِئَاتٍ، وَلَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَإِذْعَانُهُنَّ لَهُ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا

---

(١) الزخرف: ١٩.

(٢) الكهف: ٥١.

(٣) بقية قول نوف: «وعليه مدرعة من صوف وحمائل سيفه ليف وفي رجليه نعلان من ليف وكأنّ جبينه ثفنة بعير» نهج البلاغة ٢: ١٠٣.

جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ، وَلاَ مَسْكَناً لِمَلاَئِكَتِهِ، وَلاَ مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ. جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَاماً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الأَقْطَارِ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ادْلِهْمَامُ سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَلاَ اسْتَطَاعَتْ جَلاَبِيبُ سَوَادِ الْحَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّماوَاتِ مِنْ تَلأْلُؤِ نُورِ الْقَمَرِ. فَسُبْحَانَ مَنْ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ سَوادُ غَسَقٍ دَاجٍ، وَلاَ لَيْلٍ سَاجٍ، فِي بِقَاعِ الأَرَضِينَ الْمُتَطَأْطِئَاتِ، وَلاَ فِي يَفَاعِ السُّفْعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ، وَمَا يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَمَا تَلاَشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الأَنْوَاءِ، وَانْهِطَالُ السَّمَاءِ وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَمَجَرَّهَا، وَما يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِهَا، وَمَا تَحْمِلُ الأُنْثَى فِي بَطْنِهَا. الْحَمْدُ لِلّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أو عَرْشٌ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جانٌّ أَوْ إِنْسٌ، لاَ يُدْرَكُ بِوَهْمٍ، وَلاَ يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ، وَلاَ يَشْغَلُهُ سائِلٌ، وَلاَ يَنْقُصُهُ نائِلٌ، وَلا يَنْظُرُ بِعَيْنٍ، وَلا يُحَدُّ بِأَيْنٍ، وَلاَ يُوصَفُ بالأَزْوَاجِ، وَلاَ يَخْلُقُ بِعِلاَجٍ، وَلاَ يُدْرَكُ بِالحَواسِّ، وَلاَ يُقَاسُ بِالنَّاسِ، الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً، وَأَرَاهُ مِنْ آياتِهِ عَظِيماً، بِلَا جَوَارِحَ وَلاَ أَدَواتٍ، وَلاَ نُطْقٍ وَلاَ لَهَوَاتٍ، بَلْ إِنْ كُنْتَ صادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرائيلَ وَمِيكائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي حُجُرَاتِ الْقُدْسِ مُرْجَحِنِّينَ، مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. فَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفاتِ ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَالأَدَوَاتِ، وَمَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ. فَلاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلاَمٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ.

قول المصنّف: «روي عن نوف البكاليّ» قال ابن أبي الحديد: قال

صاحب (الصحاح): نوف البكاليّ بفتح الباء كان حاجب عليّ عليه السلام[١].

قلت: لم يقل صاحب (الصحاح): إنّ بَكال بفتح الباء فهذا نصّه:

نوف البكاليّ: قال الثعلب: هو منسوب إلى بكالة قبيلة... وبنو بكال من حمير منهم نوف البكاليّ صاحب عليّ عليه السلام[٢]. ولو كان (الصحاح) قال: إنّه بالفتح لغلّطه (القاموس) حيث إنّه قال: إنّه ككتاب[٣]. وإنّما قال ابن برّي محشي (الصحاح) ـ كما نقل عنه في (اللسان) ـ قال المهلبي: بِكالةَ بكسر الباء قبيلة من اليمن والمحدّثون يقولون: نوف البَكاليّ بفتح الباء والتشديد[٤]. وكيف كان فقال الجوهريّ والفيروزآبادي: إنّ (بكيلا) من همدان، و (بكالا) من حمير.

لكن الصواب: كون بكال أيضاً من همدان؛ فروى الطبري في ذكر خبر الخوارج خبراً في سنده جبر بن نوف أبو الودّاك الهمداني[٥]، وقد صرّح (المغرب) أنّ جبراً بن نوف البكالي[٦]، والراوي عن جبر هذا كان أعرف به فوصفه بالهمداني. واختار ما قلنا ابن دريد في جمهرته مع تردّد. فقال: بنو بكيل، وبنو بكال بطنان من العرب أحسبهما من همدان أو يكون بكال من حمير وبكيل من همدان، منهم نوف البكالي صاحب عليّ عليه السلام[٧]، بل قال به الفيروزآبادي أيضاً في مادة (خير) بالخاء والياء المثنّاة. فقال ثمة: خير بن نوف من همدان[٨]. لكن الظاهر وهمه في جعل الابن خيراً بل هو جبر بالجيم

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥٠٩.

(٢) كذا في صحاح اللغة للجوهري ٤: ١٦٣٨ مادة (بكل)، وفيه مثل ما نقله ابن أبي الحديد أيضاً.

(٣) القاموس المحيط ٣: ٣٣٩ مادة (بكل).

(٤) لسان العرب ١١: ٦٣ مادة (بكل).

(٥) تاريخ الطبري ٤: ٥٧ سنة (٣٧).

(٦) المغرب: ٢٤٣ مادة (ودك).

(٧) جمهرة اللغة ١: ٣٢٥.

(٨) لفظ القاموس المحيط ٢: ٢٥ مادة (خير): «و والد نوف بن همدان»، وفي بعض النسخ: «وولد نوف بن همدان»،

والموحدة، كما عرفته من (المغرب).

هذا، والمفهوم من خليفة كونه من كهلان، فعنون (الاستيعاب) عمرو البكاليّ، ونقل عن خليفة في الصحابة وهو من بني بكال بن دعمي بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن كهلان[١].

«قال خطبنا هذه» هكذا في (المصرية)، والصواب: (بهذه) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[٢].

«الخطبة» الظاهر أنّ هذه الخطبة كانت آخر خطباته عليه السلام، فقال نوف في آخرها: فما دارت الجمعة حتّى ضربه الملعون.

«بالكوفة أمير المؤمنين عليه السلام» هكذا في (المصرية)، والصواب: (أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة) كما في (ابن أبي الحديد والخطية) لكن ليس في نسخة (ابن ميثم) لفظ (بالكوفة) رأساً[٣].

«وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي» وهو ابن أخته عليه السلام أمّ هاني؛ وروى الكشي عن الصادق عليه السلام: «كان مع أمير المؤمنين عليه السلام من قريش خمسة نفر، وكانت ثلاث عشرة قبيلة مع معاوية؛ فامّا الخمسة محمد بن أبي بكر أتته النحابة من قبل أمّه اسماء بنت عميس، وكان معه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المرقال، وكان معه جعدة بن هبيرة المخزومي، وكان أمير المؤمنين عليه السلام خاله، وهو الّذي قال له عتبة بن أبي

والاقيانوس شرح القاموس ١: ٨٤٩ خال من هذا، وفي تاج العروس ١١: ٢٤٥ أيضاً «ولد نوف بن همدان»، نقله عن ابن الجواني النسابة.

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٢: ٥٣٣، وقال ابن منظور في لسان العرب ١١: ٦٣ مادة (بكل): «بنو بكيل هي من همدان» ثم قال: وبنو بكال (بكسر الباء) من حمير منهم نوف البكالي صاحب علي عليه السلام» وأقول: همدان المذكور كراراً من ولد كهلان وهو من ولد قحطان.

(٢) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥٠٨، لكن في شرح ابن ميثم ٣: ٣٨٠ بدون (الباء) أيضاً.

(٣) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥٠٨، لكن يوجد في شرح ابن ميثم ٣: ٣٨٠ «بالكوفة» أيضاً.

سفيان: إنّما لك هذه الشّدّة في الحرب من قبل خالك. فقال له جعدة: لو كان لك خال مثل خالي لنسيت أباك[١].

وروى (صفين نصر بن مزاحم): أنّهعليه السلام لما ورد الكوفة من البصرة نزل على جعدة[٢].

وروى الطبري أنّهعليه السلام لمّا ضرب تقدّم جعدة فصلّى بالناس الغداة[٣].

«الحمد لله الّذي إليه مصائر الخلق» ﴿...وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾[٤].

«وعواقب الأمر» ﴿...ألا إلى الله تصير الأُمور﴾[٥] ﴿...ولله عاقبة الأُمور﴾[٦]، ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كلّ شيء وإليه ترجعون﴾[٧]، ﴿له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأُمور﴾[٨].

«نحمده على عظيم إحسانه» قال عزّوجلّ: ﴿خلق الإنسان علّمه البيان﴾[٩]، ﴿خلق الإنسان من علق... علّم الإنسان ما لم يعلم﴾[١٠] ﴿ألم نجعل له عينين* ولساناً وشفتين* وهديناه النّجدين﴾[١١].

«ونيّر برهانه» ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر

---

(١) اختيار رجال الكشي ٦٣: ١١١.

(٢) وقعة صفين: ٥.

(٣) تايخ الطبري ٤: ١١ سنة (٤٠)، ولم يتعرض الشارح لشرح قول نوف: «وعليه مدرعة من صوف...».

(٤) التغابن: ٣.

(٥) الشورى: ٥٣.

(٦) الحج: ٤١.

(٧) يس: ٨٣.

(٨) الحديد: ٥.

(٩) الرحمن: ٣ ـ ٤.

(١٠) العلق: ٢ ـ ٥.

(١١) البلد: ٨ ـ ١٠.

تنتشرون﴾[١]، ﴿...أفي الله شكّ فاطر السماوات والأرض...﴾[٢]، ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون* ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين* ومن آياته منامكم بالليل والنّهار وابتغاؤكم من فضله إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون* ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزّل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون* ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾[٣].

«ونوامي» من إضافة الصّفة.

«فضله وامتنانه» على كلّ شخص وكلّ نوع؛ قال تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً* والجبال أوتاداً* وخلقناكم أزواجاً* وجعلنا نومكم سباتاً* وجعلنا الليل لباساً* وجعلنا النّهار معاشاً* وبنينا فوقكم سبعاً شداداً* وجعلنا سراجاً وهّاجاً* وأنزلنا من المعصرات ماء ثجّاجاً* لنخرج به حبّاً ونباتاً* وجنّات ألفافاً﴾[٤].

«حمداً يكون لحقّه قضاء ولشكره أداء» أي: بالإجمال كقولنا: الحمد لله كما هو أهله[٥]، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله. وكقولنا: لا أُحصي ثناء عليك،

---

(١) الروم: ٢٠.

(٢) ابراهيم: ١٠.

(٣) الروم: ٢١ ـ ٢٥.

(٤) النبأ: ٦ ـ ١٦.

(٥) هذا التحميد رواه ابن فهد في عدّة الداعي عنه بحار الأنوار ٩٣: ٢١٦ ح٢١ عن النبي ﷺ، والصدوق في ثواب الأعمال: ٢٨ ح١ عن الصادق عليه السلام.

أنت كما أثنيت على نفسك[١]. وأمّا حمده التفصيلي فخارج عن طوق البشر لعدم إحصاء نعمه ومننه.

«وإلى ثوابه مقرّباً» ﴿...كذلك نجزي من شكر﴾[٢]، ﴿...ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين﴾[٣].

«ولحسن مزيده موجباً» ﴿...لئن شكرتم لأزيدنكم...﴾[٤].

«ونستعين به استعانة راج لفضله، مؤمّل لنفعه، واثق بدفعه، معترف له بالطّول» بفتح الطاء، أي: المنّ، يقال: «تطوّل عليه» أي: منّ.

«مذعن» أي: مقرّ.

«له بالعمل والقول» جعل عليه السلام في قوله «ونستعين به...» استعانته به تعالى استعانة متّصف بالصّفات الخمس، ليعلم أنّه لا ينبغي الاستعانة إلّا به تعالى، كما قال عزّوجلّ مؤدّباً لهم ﴿وإيّاك نستعين﴾[٥].

«ونؤمن به إيمان من رجاه موقناً» بأنّه هو محلّ الرجاء لا غيره.

«وأناب» أي: أقبل وتاب.

«إليه» تعالى.

«مؤمناً» أي: معتقداً بأنّه تعالى أهل ذلك.

«وخنع» أي: خضع.

«له مذعناً» أي: مقرّاً.

---

(١) هذا الثناء أخرجه ضمن حديث صاحب مصباح الشريعة: ٥٦، والدارقطني في الافراد عنه منتخب كنز العمال ١: ٣٤٨، وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله، ومرّ تخريجه في العنوان(١) من هذا الفصل.

(٢) القمر: ٣٥.

(٣) آل عمران: ١٤٥.

(٤) ابراهيم: ٧.

(٥) فاتحة الكتاب: ٥.

«وأخلص له موحّداً» ﴿... وادعوه مخلصين له الدّين كما بدأكم تعودون﴾[١].

«وعظّمه ممجّداً» ﴿...ومن يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب﴾[٢]، ﴿...ومن يعظّم حرمات الله فهو خير له عند ربّه...﴾[٣].

«ولاذ» أي: لجأ.

«به راغباً مجتهداً» أي: ساعياً. جعل عليه السلام ايمانه في قوله «ونؤمن به...» إيمان متّصف بالصّفات الستّ، ليفهم أنّه الإيمان المطلوب؛ قال تعالى: ﴿يا أيّها الّذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الّذي نزّل على رسوله والكتاب الّذي أنزل من قبل...﴾[٤].

«لم يولد سبحانه فيكون في العزّ مشاركاً» لأن والد العزيز عزيز ولو بسببه؛ قال الشاعر:

كما علا برسول الله عدنان[٥]

«ولم يلد فيكون مورثاً» هكذا في (المصريّة)، والصواب: (موروثاً) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[٦].

«هالكاً» فليس الموروث إلّا هالكاً.

«ولم يتقدّمه وقت ولا زمان» الظاهر كون الوقت خاصّاً والزّمان عامّاً، فإنّ الوقت يأتي للزّمان المعيّن كثيراً؛ قال تعالى: ﴿...إنّ الصلاة كانت على

(١) الأعراف: ٢٩.

(٢) الحج: ٣٢.

(٣) الحج: ٣٠.

(٤) النساء: ١٣٦.

(٥) أورده ابن أبي الحديد في شرحه ٢: ١٦٧، والشاعر علي بن العباس بن جريج، مرّ ذكره مفصّلاً في شرح خطبة الرضي.

(٦) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥١٠، وشرح ابن ميثم ٣: ٣٨١ «مورثاً» أيضاً.

المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾[١] ولا يصحّ كتاباً مزمناً.

ومن ذلك يظهر لك ما في قول ابن أبي الحديد من كونهما مترادفين[٢]، وقول (ابن ميثم) بكون الأوّل جزء الثاني[٣].

«ولم يتعاوره» أي: لم يعترضه.

«زيادة ولا نقصان» فإنّهما من عوارض الجسمانيّات.

«بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم» ﴿الّذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى * كلوا وارعوا أنعامكم إنّ في ذلك لآيات لأُولي النّهى﴾[٤]، ﴿ألم تر أنّ الله أنزل من السّماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثمّ يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثمّ يهيج فتراه مصفرّاً ثمّ يجعله حطاماً إنّ في ذلك لذكرى لأُولي الألباب﴾[٥].

«ومن» هكذا في (المصرية)، والصواب: (فمن) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[٦].

«شواهد خلقه» أي: من شواهد ظهوره لعقول خلقه.

«خلق السماوات موطّدات» أي: مثبتات.

«بلا عمد» قال تعالى: ﴿الله الّذي رفع السماوات بغير عمد ترونها...﴾[٧].

---

(١) النساء: ١٠٣.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥١٠.

(٣) شرح ابن ميثم ٣: ٣٨٥.

(٤) طه: ٥٣ ـ ٥٤.

(٥) الزمر: ٢١.

(٦) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥١٠، ولكن في شرح ابن ميثم ٣: ٣٨١: «ومن» أيضاً.

(٧) الرعد: ٢، ولم يتعرض الشارح لشرح فقرة: «قائماً بلا سند».

«دعاهنّ فأجبن طائعات مذعنات» أي: معترفات.

«غير متلكّئات» أي: معتلات.

«ولا مبطئات» أي: ولا غير مسرعات: قال تعالى: ﴿...فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾[1]، والمراد من إجابتها: إجابتها بلسان الحال لا المقال. ونظيره في كلام العرب كثير؛ قال الشّماخ:

كأنّي كسرت الرجل أخفت سوقها أطـــاع له مـــرزا مـــتين حـــديق

فجعل الحديث مطيعاً للعير لما تمكن من رعيه.

«ولولا إقرارهنّ له بـالرّبوبيّة وإذعـانهنّ له» هكـذا فـي (المـصرية وابـن ميثم)[2] وليست كلمة (له) في (ابن أبي الحديد والخطية)[3].

«بالطّواعية» أي: الطاعة.

«لما جعلهنّ موضعاً لعرشه» ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿...وكان عرشه على الماء...﴾[4]، فقبله ﴿وهو الّذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام...﴾[5]، فالمراد: أنّ العرش كان على الماء قبل خلق السماوات، ويأتي تصريح الخبر بذلك[6].

«ولا مسكناً لملائكته» روي عن الرضا عليه السلام: أنّ الله تعالى خلق العرش والماء والملائكة قبل خلق السماوات والأرض، وكـانت المـلائكة تسـتدلّ بأنفسها وبالعرش والماء على الله تعالى، ثمّ جعل عرشه عـلى المـاء ليظهر بذلك قدرته للملائكة، فيعلم أنّه على كلّ شيء قدير، ثمّ رفع العرش بـقدرته،

---

(١) فصلت: ١١.

(٢) شرح ابن ميثم ٣: ٣٨١.

(٣) لفظ شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥١٠ كذلك أيضاً.

(٤) و (٥) هود: ٧.

(٦) مقصوده الخبر المروي عن الرضا عليه السلام الذي يأتي في شرح الفقرة الآتية.

ونقله فجعله فوق السماوات السبع[١].

وقال شيخنا المفيد: فأمّا العرش الّذي تحمله الملائكة فهو بعض الملك، وهو عرش خلقه الله تعالى في السماء السابعة، وتعبّد الملائكة بحمله وتعظيمه، كما خلق سبحانه بيتاً في الأرض، وأمر البشر بقصده وزيارته، والحجّ إليه وتعظيمه؛ وقد جاء الحديث: أنّ الله تعالى خلق بيتاً تحت العرش سمّاه البيت المعمور تحجّه الملائكة في كلّ عام، وخلق في السماء الرابعة بيتاً سمّاه الضّراح، وتعبّد الملائكة بحجّه والتعظيم له والطواف حوله، وخلق البيت الحرام في الأرض فجعله تحت الضّراح[٢].

وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: لو أُلقي حجر من العرش لوقع على ظهر البيت المعمور، ولو ألقي حجر من البيت المعمور لسقط على ظهر البيت الحرام[٣].

ولم يخلق الله عرشاً لنفسه ليستوطنه ـ تعالى الله عن ذلك ـ لكنّه خلق عرشاً أضافه إلى نفسه تكرمة له وإعظاماً، وتعبّد الملائكة بحمله كما خلق بيتاً في الأرض، ولم يخلقه لنفسه ولا ليسكنه[٤].

«ولا مصعداً للكلم الطيّب والعمل الصالح من خلقه» والأصل في كلامه عليه السلام قوله تعالى: ﴿...إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه...﴾[٥] والصعود والرّفع إلى السماوات: صعود ورفع إلى الله تعالى فلا تنافي.

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٣٢٠ ح ٢، والعيون ١: ١١٠ ح ٣٣.

(٢) و(٣) لم أجد الخبرين بهذا اللفظ، ولكن ثمّة أخبار عديدة بهذا المعنى، فعن الدر المنثور ٦: ١١٧ ـ ١١٨، وبحار الأنوار ٥٨: ٥٥، الباب (٧). والأقوى أن المفيد أخذ لفظه من مشائخ الحديث لكنّه جرّد الخبرين عن السند.

(٤) تصحيح الاعتقاد للمفيد: ٢٩.

(٥) فاطر: ١٠.

«جعل نجومها أعلاماً يستدلّ بها الحيران في مختلف فُجاج» بالضمّ؛ قال الفيروزآبادي: هو الطريق الواسع بين جبلين[١].

«الأقطار» قال تعالى: ﴿وهو الّذي جعل لكم النّجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر...﴾[٢].

وقال الصادق عليه السلام: فكّر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السّنة وتحتجب في بعضها، كمثل الثريّا والجوزاء والشّعريين وسهيل؛ فإنّها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد لم يكن لواحد فيها على حياله دلالات يعرفها الناس، ويهتدون بها لبعض أُمورهم كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثريّا والجوزاء إذا طلعت، واحتجابها إذا احتجبت، فصار ظهور كلّ واحد واحتجابه في وقت غير وقت الآخر، لينتفع الناس بما يدلّ كلّ منها عليه على حدته، وما جعلت الثريّا وأشباهها تظهر حيناً وتحتجب حيناً إلّا لضرب من المصلحة، وكذلك جعلت بنات النّعش ظاهرة لا تغيب لضرب آخر من المصلحة، فإنّها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في البرّ والبحر للطّريق المجهولة، وكذلك إنّها لا تغيب ولا تتوارى فهم ينظرون إليها متى أرادوا أن يهتدوا بها إلى حيث شاؤوا، وصار الأمر أنّ جميعاً على اختلافهما موجّهين نحو الإرب والمصلحة، وفيهما مآرب أُخرى علامات ودلالات على أوقات كثيرة من الأعمال، كالزراعة والغراس والسّفر في البرّ والبحر، وأشياء ممّا يحدث في الأزمنة من الأمطار والرياح، والحرّ والبرد، وبها يهتدي السائرون في ظلمة الليل لقطع القفار الموحشة واللّجج الهائلة، مع ما في تردّدها في

---

(١) القاموس المحيط ١: ٢٠٢ مادة (فجج).

(٢) الأنعام: ٩٧.

كبد السماء[١].

«لم يمنع ضوء» مفعول مقدّم.

«نورها» أي: نور النّجوم.

«ادلهمام» أي: ظلمة.

«سجف» أي: ستور.

«اللّيل المظلم» قال الصادق عليه السلام في إدامة قوله: وجعل فيها (أي في النجوم) جزءاً يسيراً من الضوء ليسدّ مسدّ الأضواء إذا لم يكن قمر، ويمكن فيه الحركة إذا حدثت ضرورة، كما قد يحدث الحادث على المرء، فيحتاج إلى التجافي في جوف الليل، فإن لم يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع أن يبرح مكانه، فتأمّل اللّطف والحكمة في هذا التقدير حين جعل للظلمة دولة ومدّة لحاجة إليها، وجعل خلالها شيء من الضوء للمآرب التي وصفنا[٢].

«ولا استطاعت جلابيب» أي: ملاحف؛ قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً:

تمشي النسور إليه وهي لاهية   مشي العذارى عليهنّ الجلابيب[٣]

«سواد الحنادس» أي: الظلم الشديدة.

«أن تردّ ما شاع في السماوات من تلألؤ نور القمر» فيوجد مع الظلام نور؛ قال الصادق عليه السلام للمفضّل: فكّر في إنارة القمر في ظلمة الليل والإرب في ذلك، فإنّه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان، وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها، فلا يمكن فيه شيء من العمل لأنّه ربّما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم في بعض

---

(١) توحيد المفضل: ١٣٤.

(٢) توحيد المفضل: ١٣٦.

(٣) لسان العرب ١: ٢٧٢ مادة (جلب).

الأعمال في النهار، ولشدّة الحرّ وإفراطه، فيعمل في ضوء القَمر أعمالاً شتّى، كحرث الأرض وضرب اللبن وقطع الخشب وما أشبه ذلك، فجعل ضوء القمر معونة للنّاس على معائشهم إذا احتاجوا إلى ذلك، وأُنساً للسائرين، وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض، ونقص مع ذلك عن نور الشمس وضيائها، لكيلا ينبسط الناس في العمل انبساطهم بالنّهار، ويمتنعوا من الهدوء والقرار فيهلكهم ذلك، وفي تصرّف القمر خاصّة في مهله ومحاقه، وزيادته ونقصانه، وكسوفه من التّنبيه على قدرة الله تعالى خالقه، المصرّف له هذا التصريف لصلاح العالم ما يعتبر به المعتبرون(١).

«فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق» في (الصحاح): الغسق أوّل ظلمة اللّيل، والغاسق الليل إذا غاب الشفق؛ وقوله تعالى: ﴿ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقب﴾(٢) قال الحسن: الليل اذا دخل، ويقال: إنّه القمر(٣).

«داج» قال الأصمعي: دجا الليل إنّما هو ألبس كلّ شيء، وليس هو من الظلمة، ومنه قولهم: دجى الاسلام، أي: قوي(٤).

قلت: ويمكن أن يكون منه قولهم: وإنّه لفي عيش داج. قالوا: أي عيش خفض.

«ولا ليل ساج» أي: سكن ودام من قوله تعالى: ﴿واللّيل إذا سجى﴾(٥) ومنه البحر الساجي. قال الأعشى:

(١) توحيد المفضل: ١٣١.

(٢) الفلق: ٣.

(٣) صحاح اللغة للجوهري ٤: ١٥٣٧ مادة (غسق).

(٤) قد مرّ الكلام حول تخريجه في العنوان (٧) من هذا الفصل.

(٥) الضحى: ٢.

فما ذنبنا أن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج لا يواري الدعامصا[١]

«في بقاع الأرضين المتطأطئات» أي: المنهبطات.

«ولا في يفاع» أي: ارتفاع، من أيفع الغلام فهو يافع، على خلاف الأصل.

«السُّفع» بالضمّ سواد شرب حمرة، ومنه قيل للأثافي السفع.

«المتجاورات» والمراد بالسّفع المتجاورات هنا الجبال أو الأكم والأطلال.

«وما يتجلجل» قال الجوهري: الجلجلة: صوت الرّعد أيضاً، والمجلجل السحاب الذي فيه صوت الرّعد[٢].

«به الرّعد في أُفق السّماء» قيده بالأُفق غالبي.

«وما تلاشت» قال ابن أبي الحديد: أهمل بناء تلاشت كثير من أئمة اللغة وهي صحيحة وقد جاءت ووردت؛ قال ابن الاعرابيّ: لشا الرّجل إذا اتضع وخسّ بعد رفعة[٣]، وإذا صحّ أصلها صحّ استعمال الناس تلاشى الشيء بمعنى اضمحل. وقال القطب الراوندي: تلاشى مركّب من لا شيء، ولم يقف على أصل الكلمة[٤].

قلت: لم يتفطن ابن أبي الحديد أنّ (لشا الرجل) الّذي ذكره ابن الاعرابي أيضاً أصله من لا شيء، والمراد أنّه كان شيئاً ثمّ صار لا شيئاً. ومثل تلاشىقولهم: أيش، وقولهم: بلاش، فإنّ الأصل في الأوّل أيّ شيء، وفي الثاني بلا شيء؛ وكذلك قولهم: لوحش فإنّه مخفف لا أوحش، وليس لنا في اللّغة أيش، وبلش، ولحش، كما ليس لشى، ونظيرها في الفارسية قولهم:

---

(١) أورده لسان العرب ١٤: ٣٧١ مادة (سجى).

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٤: ١٦٥٩ مادة (جلجل).

(٣) نقله عن ابن الاعرابي ابن منظور في لسان العرب ١٥: ٢٤٦ مادة (لشا).

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥١٢.

(نفرين) في مقابل (آفرين)، فإنّه مخفّف (نه آفرين) ومعنى (آفرين) حييت، ومعنى (نفرين): لا حييت.

«عنه بروق الغمام» أي: السحاب.

«وما تسقط» عطف على سواد. مثل (وما يتجلجل) و (وما تلاشت) أي: لا يخفى عليه ما تسقط.

«من ورقة» قال تعالى: ﴿... وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾[١].

«تزيلها عن مسقطها» أي: مكان سقوطها.

«عواصف» صفة لرياح مقدرة، أي: شدائد، والإضافة فيه بمعنى اللام.

«الأنواء» جمع النَّوء بالفتح؛ وفي (الصحاح) النوء: سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كلّ ساعته إلى ثلاثة عشر يوماً، وهكذا كلّ نجم منها إلى انقضاء السّنة ما خلا الجبهة فإنّ لها أربعة عشر يوماً. قال أبو عبيد: ولم نسمع في النّوء أنّه السقوط إلّا في هذا الموضع، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحرّ والبرد إلى الساقط منها. وقال الأصمعي: إلى الطالع منها في سلطانه فتقول مطر بالنّوء كذا[٢].

«وانهطال السماء» أي: تتابع المطر.

«ويعلم مسقط القطرة» أي: قطرة المطر.

«ومقرّها» في سيلانها.

«ومسحب الذّرة» أي: دبيبها، والذّرة أصغر النّمل.

---

(١) الأنعام: ٥٩.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ١: ٧٩ مادة (نوء).

«ومجرّها» أي: مكان تجرّ قوتها إليه.

«وما يكفي البعوضة» أي: البق.

«من قوتها» قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلّا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلّ في كتاب مبين﴾[(١)].

«وما تحمل الأُنثى في بطنها» ﴿...وما تحمل من أُنثى ولا تضع إلّا بعلمه وما يعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمْرِهِ إلّا في كتاب إنّ ذلك على الله يسير﴾[(٢)]، ﴿...ويعلم ما في الأرحام...﴾[(٣)]، ﴿الله يعلم ما تحمل كلّ أُنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكلّ شيء عنده بمقدار﴾[(٤)].

«الحمد لله الكائن قبل أن يكون كرسيّ» الّذي قال فيه: ﴿...وسع كرسيّه السماوات والأرض...﴾[(٥)].

«أو عرش» الّذي قال فيه: ﴿...وهو ربّ العرش العظيم﴾[(٦)].

وفي (اعتقادات الصدوق): اعتقادنا في الكرسي أنّه وعاء جميع الخلق والعرش والسماوات والأرض، وكلّ شيء خلق الله في الكرسي في وجه آخر هو العلم.

وقد سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿وسع كرسيّه السماوات والأرض﴾ قال: هو علمه[(٧)].

---

(١) هود: ٦.

(٢) فاطر: ١١.

(٣) لقمان: ٣٤.

(٤) الرعد: ٨.

(٥) البقرة: ٢٥٥.

(٦) التوبة: ١٢٩.

(٧) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٣٢٧ ح ١، ومعاني الأخبار: ٣٠ ح ٢ والهداية: ٤٦.

وفيه: اعتقادنا في العرش أنّه جملة جميع الخلق، والعرش في وجه آخر هو العلم.

وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ ﴿الرّحمن على العرش استوى﴾[١] فقال: استوى من كلّ شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء[٢].

فأمّا العرش الّذي هو حمل جميع الخلق فحملته ثمانية من الملائكة، لكلّ واحد منهم ثماني أعين، كلّ عين طباق الدّنيا[٣]، واحد منهم على صورة بني آدم فهو يسترزق الله لولد آدم، وواحد منهم على صورة الثّور يسترزق الله تعالى للبهائم كلّها، وواحد منهم على صورة الأسد يسترزق الله تعالى للسّباع، وواحد منهم على صورة الدّيك يسترزق الله للطيور، فهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية[٤].

وأمّا العرش الّذي هو العلم فحملته أربعة من الأوّلين وأربعة من الآخرين، فأمّا الأربعة من الأوّلين، فنوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وأما الأربعة من الآخرين فمحمّد وعليّ والحسن والحسين صلوات الله عليهم[٥].

---

(١) طه : ٥ .

(٢) أخرجه الصدوق بأربع طرق في التوحيد: ٣١٥ ح١، ٢، ٤، ٧، ومعاني الأخبار: ٢٩ ح١، والهداية: ٤٦ والكليني بثلاث طرق في الكافي ١: ١٢٧ ـ ١٢٨ ح٦، ٧، ٨، وعلي بن ابراهيم في تفسيره ٢: ٥٩.

(٣) هذا المعنى أخرجه الصدوق في الخصال ٢: ٤٠٧ ح٤ عن الصادق عليه السلام.

(٤) هذا المعنى أخرجه الصدوق في الخصال ٢: ٤٠٧ ح٥ عن الصادق عليه السلام وعلي بن ابراهيم في تفسيره ١: ٨٥ عن علي عليه السلام، وروى موقوفاً بطرق عديدة عن وهب بن منبه وأبي مالك ومكحول وعروة، جمعها السيوطي في الدرّ المنثور ١: ٢٢٨ و٣: ٢٩٨ و٥: ٣٤٦ ـ ٣٤٧ و٦: ٢٦١ من عدا الصدوق روى بدل الديك (النسر).

(٥) هذا المعنى رواه البحراني في البرهان ٤: ٩١ ح٦ و٣٧٧ ح٤، وشرف الدين في تأويل الآيات عنه البحار ٥٨: ٣٥ ح٥٦ عن الباقر عليه السلام والكاشاني في الشافي ١: ٥٧ عن الكاظم عليه السلام وعلي بن ابراهيم في تفسيره ٢: ٣٨٤ بلا عزو، وأخرج قريباً منه الكليني في الكافي ١: ١٣٢ ح٦ عن الصادق عليه السلام وعلي بن ابراهيم في تفسيره ٢: ٢٥٥ بلا عزو.

قال الصدوق: هكذا روي بالأسانيد الصحيحة عن الأئمة في العرش وحملته[١].

«أو سماء» ﴿قل من ربّ السماوات السّبع...﴾[٢].

«أو أرض» ﴿وهو الّذي في السماء إله وفي الأرض إله...﴾[٣].

«أو جانّ أو إنس» ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار* وخلق الجانّ من مارج من نار﴾[٤] ومعلوم تقدّم الخالق على المخلوق، والرّبّ على المربوب، والمالك على المملوك.

«لا يدرك بوهم» لعجز الوهم عن إدراكه.

«ولا يقدّر بفهم» لأجلّيته تعالى عن ذلك. ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون﴾[٥].

«ولا يشغله سائل» عن سائل آخر كباقي المسؤولين.

«ولا ينقصه نائل» أي: عطاء كباقي المعطين.

«ولا ينظر بعين» كذوي الأرواح.

«ولا يحدّ بأين» كالجسمانيّات، فلا تطلق لفظة (أين) عليه تعالى؛ قال ابن أبي الحديد بعد قوله عليه السلام «ولا يحدّ بأين»: ولفظة (أين) في الأصل مبنيّة على الفتح، فإذا نكّرتها صارت اسماً متمكّناً، كما قال الشاعر:

ليت شعري وأين منّي ليت ... إنّ ليتاً وإنّ لوّاً عناء[٦]

---

(١) الاعتقادات للصدوق: ١٠ ـ ١١.

(٢) المؤمنون: ٨٦

(٣) الزخرف: ٨٤.

(٤) الرحمن: ١٤ ـ ١٥.

(٥) الصافات: ١٨٠.

(٦) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥١٣.

قلت: في ما قال أوّلاً: إنّ (أين) في قوله عليه السلام: «ولا يحدّ بأين» أُريد به لفظه، فهو اسم متمكّن لا أنّه نكّر، وإنّما يقال في مثل (صه) إنّه قد ينكّر فيدخله تنوين التّنكير لا هنا، وثانياً: إنّ البيت الّذي استشهد به، (أين) فيه على أصله مبنيّ على الفتح، وإنّما (ليت) و (لو) أُريد بهما فيه اللفظ فصارا اسمين وأُعربا، لا (أين) كما هو مدّعاه.

«ولا يوصف بالأزواج» وقال الله: ﴿...لا تتّخذوا إلهين اثنين إنّما هو إله واحد فإيّاي فارهبون﴾[1].

«ولا يخلق بعلاج» كالبشر ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[2].

«ولا يدرك بالحواسّ» ﴿...قال ربِّ أرني أنظر إليك قال لن تراني...﴾[3].

«ولا يقاس بالنّاس» ﴿...ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[4].

«الّذي كلّم موسى تكليماً، وأراه من آياته عظيماً» من جعْلِ عصاه حيّة تسعى، وجعل يده بيضاء من غير سوء وغيرهما.

قال تعالى: ﴿وهل أتاك حديث موسى* إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنّي آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى* فلمّا أتاها نودي يا موسى* إنّي أنا ربّك فاخلع نعليك إنّك بالواد المقدّس طوى* وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى... وما تلك بيمينك يا موسى* قال هي عصاي أتوكّأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أُخرى* قال ألقها يا موسى* فألقاها فإذا هي حيّة تسعى* قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأُولى* واضمم

---

(١) النحل: ٥١.

(٢) يس: ٨٢.

(٣) الأعراف: ١٤٣.

(٤) الشورى: ١١.

يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أُخرى* لنريك من آياتنا الكبرى﴾[1].

«بلا جوارح» أي: بلا أعضاء يفعل شيئاً بها.

«ولا أدوات» أي: أسباب وآلات؛ فإنّ النّاس قد يفعلون أفعالاً بأيديهم وجوارحهم بلا توسّط أسباب وآلات، وقد يفعلون بتوسّطها، وهو تعالى منزّه عن جميع ذلك.

«ولا نطق ولا لهوات» لهوات جمع لهاة: الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم، وقوله عليه السلام: «بلا جوارح ولا أدوات» متعلّق بقوله: «وأراه من آياته عظيماً»، وقوله: «ولا نطق ولا لهوات» متعلّق بقوله: «الذي كلّم موسى تكليماً» على خلاف اللف، وكان تكليمه تعالى مع موسى بلا نطق ولا لهوات، وإنّما أوجد الصوت في الجهات الست، فكان يسمعه من كلّ جهة.

«بل إن كنت صادقاً أيّها المتكلّف لوصف ربّك فصف جبرائيل وميكائيل، وجنود الملائكة المقرّبين» يشرح ماهيتهم وتركيبهم وقواهم، وسيأتي كلامه عليه السلام في العجز عن وصف عزرائيل في كيفية قبضه للأرواح[2]، فإذا لم يستطع وصف خلقه فعدم إمكان وصفه تعالى أولى.

وفي خبر قدوم الجاثليق مع مائة من النّصارى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإرشاده إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال الجاثليق له عليه السلام: أخبرني عن وجه الرّبّ تعالى؟

فدعا عليّ عليه السلام بنار وحطب فأضرمه، فلمّا اشتعلت، قال علي عليه السلام: أين وجه هذه النار؟ قال النصراني: هي وجه من جميع حدودها. قال علي عليه السلام: هذه

---

(١) طه: ٩ ـ ٢٣.

(٢) يأتي في العنوان (٣٠) من هذا الفصل.

النّار مدبرة مصنوعة لا يعرف وجهها، وخالقها لا يشبهها ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله...﴾[١].

«في حجرات القدس مرجحنّين» كمقشعرّين، أي: خاضعين، وفي المثل: «إذا ارجحنّ شاصياً فارفع يداً»[٢]، يعني: إذا خضع لك فاكفف عنه.

«متولّهة» أي: متحيّرة.

«عقولهم إن يحدّوا أحسن الخالقين» لعدم إمكان ذلك لهم.

«فإنّما يدرك بالصّفات ذوو الهيئات والأدوات» وهو تعالى منزّه عن أن يكون له هيئة أو أداة.

«ومن» بمعنى: الّذي، عطف على (ذوو).

«ينقضي إذا بلغ أمد حدّه» أي: غاية أجله.

«بالفناء» متعلّق بقوله: «ينقضي»، وهو تعالى باقٍ أبد الآباد، فكيف يمكن إدراكه بالصفات؟!

«فلا إله إلّا هو» بلا شريك.

«أضاء بنوره» أي: بنهاره.

«كلّ ظلام» من البرّ والبحر والمنكشف والمسقف، والأرض والسماء.

«وأظلم بظلمته» أي: بليله.

«كلّ نور» من كوكب وقمر وسراج ونار لعدم إغنائها إغناءً كاملاً؛ قال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى* والنّهار إذا تجلّى﴾[٣] أي يغشى اللّيل كلّ شيء، ويتجلّى بالنّهار كلّ شيء، ولا يقدر أحد أن يُظلِم نوره أو يُضيء ظلامه. وفسّر

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ١٨٢ ح١٦ ضمن حديث، والآية (١١٥) من سورة البقرة.

(٢) أورده الزمخشري في المستقصى ١: ١٣٢، وقال: يضرب في العفو عن العدو عند ذلّه واستكانته.

(٣) الليل: ١ ـ ٢.

الشرّاح قوله عليه السلام: «بنوره» و «بظلمته» بمعانٍ مختلفة، والأظهر ما عرفت.

٣٠
من الخطبة (١١٠)

ومن خطبة له عليه السلام ذكر فيها ملك الموت:

هَلْ تَحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً، بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا، أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ؟!

«هل تَحسّ» بالفتح.

«به إذا دخل منزلاً» قال الصادق عليه السلام: ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلّا وملك الموت يتصفّحهم في كلّ يوم خمس مرّات[١].

«أم هل تراه إذا توفّى» بلفظ المعلوم.

«أحداً» ﴿قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي وُكِّل بكم ثمّ إلى ربّكم ترجعون﴾[٢]، ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم* وأنتم حينئذٍ تنظرون* ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾[٣].

«بل كيف يتوفّى الجنين... في أحشائها» روى الصدوق عن الصادق عليه السلام: أنّه قيل لملك الموت: كيف تقبض الأرواح وبعضها في المغرب وبعضها في المشرق في ساعة واحدة؟ فقال: أدعوها فتجيبني. قال: فقال ملك الموت عليه السلام: إنّ الدّنيا بين يديّ كالقصعة بين يدي أحدكم يتناول منها ما شاء، والدّنيا

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ٣: ٢٥٦ ح٢٢.

(٢) السجدة: ١١.

(٣) الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥.

عندي كالدرهم في كفّ أحدكم يقلّبه كيف يشاء[١].

«كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله» هو نظير قولهعليه السلام في سابقه: «بل إن كنت صادقاً أيّها المتكلّف لوصف ربك فصف جبرائيل وميكائيل...»، بل الإنسان عاجز عن وصف نفسه وروحه ﴿ويسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي...﴾[٢]. فكيف لا يعجز عن وصف ربّ لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته ولو جيء بمثله مددا؟!

٣١
من الخطبة (١٦٥)

أَيُّهَا الْـمَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْحَامِ وَمُضَاعَفَاتِ ٱلْأَسْتَارِ، بُدِئْتَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ، وَوُضِعْتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ، تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً، لَا تُحِيرُ دُعَاءً وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً، ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا؛ فَمَنْ هَدَاكَ لِاجْتِرَارِ ٱلْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ، وَعَرَّفَكَ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلِبَتِكَ وَإِرَادَتِكَ؟ هَيْهَاتَ إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي ٱلْهَيْئَةِ وَٱلْأَدَوَاتِ، فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ.

«أيُّها المخلوق» والمراد نوع الإنسان.

«السّويّ» أي: المستقيم من بين ذوي الأرواح؛ قال الصادقعليه السلام للمفضّل: انظر إلى ما خصّ به الإنسان في خلقه تشريفاً وتفضيلاً على البهائم، فإنّه خلق ينتصب قائماً ويستوي جالساً ليستقبل الأشياء بيديه وجوارحه،

---

(١) أخرجه الصدوق في الفقيه ١: ٨٠ ح ١٢.

(٢) الاسراء: ٨٥.

ويمكنه العلاج والعمل بهما، فلو كان مكبوباً على وجهه كذوات الأربع لما استطاع أن يعمل شيئاً من الأعمال[١].

«والمنشأ» ﴿وهو الّذي أنشأكم من نفس واحدة...﴾[٢]، ﴿...هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها...﴾[٣].

«المرعيّ» من قبل ربّه في نشوئه.

«في ظلمات الأرحام» ﴿...يخلقكم في بطون أُمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث...﴾[٤].

«ومضاعفات الأستار» ستر البطن، وستر الرّحم، وستر المشيمة؛ قال الصادق عليه السلام للمفضّل: تصور الجنين في الرّحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد، تدبّره حتّى يخرج سويّاً مستوفياً جميع ما فيه قوامه وصلاحه من الأحشاء والجوارح، والعوامل إلى ما في تركيب أعضائه من العظام واللحم والشّحم والمخّ والعصب والعروق والغضاريف، فإذا أُخرج إلى العالم تراه كيف ينمو بجميع أعضائه، وهو ثابت على شكل وهيئة لا تتزايد ولا تنقص إلى أن يبلغ أشدّه، إن مدّ في عمره، أو يستوفى مدّته قبل ذلك، هل هذا إلّا من لطيف التّدبير والحكمة[٥].

«بدئت من سلالة من طين، ووضعت في قرار مكين» الأصل فيه قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين* ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين﴾[٦].

---

(١) توحيد المفضل: ٥٨.

(٢) الأنعام: ٩٨.

(٣) هود: ٦١.

(٤) الزمر: ٦.

(٥) توحيد المفضل: ٥٧.

(٦) المؤمنون: ١٢ ـ ١٣.

وسلالة من قولهم سللت الشّيء من الشيء إذا استخرجته منه، وهو خلاصته، و ﴿من طين﴾ متعلّق بقوله ﴿سلالة﴾.

«إلى قدر معلوم وأجل مقسوم» من ستّة أشهر إلى تسعة أشهر، أيّام الحمل ومدّة تحوّلات النطفة إلى نفخ الروح فيه، كما قال عزّوجلّ: ﴿ثمّ خلقنا النّطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثمّ أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسنُ الخالقين﴾[1].

«تمور» أي: تتحرّك؛ قال الأعشى:

كأنّ مشيتها من بيت جارتها مور السّحابة لا ريث ولا عجل[2]

«في بطن أُمّك جنيناً» ﴿...وإذْ أنتم أجنّة في بطون أُمّهاتكم...﴾[3].

«لا تحير» أي: لا تجيب، ومنه المحاورة.

«دعاء» إذا دعاك أحد.

«ولا تسمع نداء» إذا نوديت؛ قال الصادقعليه السلام في ذكر خلق الإنسان: فأوّل ذلك ما يدبّر به الجنين في الرحم، وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء، ولا دفع أذى، ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرّة، فإنّه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه الماء والنّبات، فلا يزال ذلك غذاءه حتّى إذا كمل خلقه، واستحكم بدنه، وقوي أديمه على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقاة الضياء، هاج الطلق بأُمّه فأزعجه أشدّ إزعاج، وأعنفه حتّى يولد، فإذا وُلد صرّف ذلك الدم الّذي كان يغذوه من دم أُمّه إلى ثديها، وانقلب الطّعم واللون إلى ضرب آخر من

---

(١) المؤمنون: ١٤.

(٢) أورده لسان العرب ٥: ١٨٦ مادة (مور).

(٣) النجم: ٣٢.

الغذاء، وهو أشدّ موافقة للمولود من الدّم فيوافيه في وقت حاجته إليه؛ فحين يولد قد تلمّظ وحرّك شفتيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثدي أُمّه كالإداوتين المعلّقتين لحاجته، فلا يزال يغتذي باللبن ما دام رطب البدن، رقيق الأمعاء، ليّن الأعضاء حتّى إذا تحرّك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتدّ ويقوى بدنه، طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس ليمضغ بها الطعام فيلين عليه، ويسهل له إساغته، فلا يزال كذلك حتّى يدرك فإذا أدرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه فكان ذلك علامة الذّكر، وعزّ الرجل الذي يخرج به من حدّ الصبا وشبه النساء، وإن كانت أُنثى يبقى وجهها نقيّاً من الشعر لتبقى لها البهجة والنضارة التي تحرّك الرجال لما فيه دوام النّسل وبقاؤه.

اعتبر يا مفضّل في ما يدبّر به الإنسان في هذه الأحوال المختلفة، هل ترى مثله يمكن أن يكون بالإهمال؟ أفرأيت لو لم يجرِ إليه ذلك الدّم وهو في الرّحم، ألم يكن سيذوي ويجفّ كما يجفّ النّبات إذا فقد الماء، ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه، ألم يكن سيبقى في الرّحم كالموءودة في الأرض، ولو لم يوافقه اللبن مع ولادته، ألم يكن سيموت جوعاً أو يغتذي بغذاء لا يلائمه ولا يصلح عليه بدنه، ولو لم تطلع له الأسنان في وقتها، ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام وإساغته أو يقيمه على الرّضاع، فلا يشتدّ بدنه ولا يصلح لعمل، ثمّ كان يشغل أُمّه بنفسه عن تربية غيره من الأولاد، ولو لم يخرج الشعر في وجهه في وقته، ألم يكن سيبقى في هيئة الصبيان والنساء، فلا ترى له جلالة ولا وقاراً؟![1]

«ثمّ أُخرجت من مقرّك» من الرّحم.

«إلى دار لم تشهدها» وهي هذا العالم.

---

(١) توحيد المفضل: ٤٨.

«ولم تعرف سبل منافعها» ﴿والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً...﴾[١].

قال الصادق عليه السلام: ولو كان المولود يولد فهِماً عاقلاً لأنكر العالم عند ولادته، ولبقي حيراناً تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، وورد عليه ما لم ير مثله من اختلاف صور العالم من البهائم والطير، إلى غير ذلك ممّا يشاهده ساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم.

واعتبر ذلك بأنّ مَنْ سُبي من بلد إلى بلد، وهو عاقل يكون كالواله الحيران، فلا يسرع في تعلّم الكلام، وقبول الأدب كما يسرع الّذي يُسبى صغيراً غير عاقل. ثمّ لو ولد عاقلاً كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولاً مرضعاً معصّباً بالخرق مسجّى في المهد، لأنّه لا يستغني عن هذا كلّه لرقّة بدنه، ورطوبته حين يولد. ثمّ كان لا يوجد له من الحلاوة والوقع من القلوب ما يوجد للطفل، فصار يخرج إلى الدنيا غبيّاً غافلاً عمّا فيه أهله، فيلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة، ثمّ لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً وشيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال، حتّى يألف الأشياء ويتمرّن ويستمرّ عليها، فيخرج من حدّ التأمّل لها والحيرة فيها إلى التصرّف والاضطراب؛ إلى المعاش بعقله وحيلته، وإلى الاعتبار والطاعة والسّهو والغفلة والمعصية[٢].

«فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أُمّك وعرّفك عند الحاجة موضع طلبتك وإرادتك» ولولا هدايته تعالى وعرفانه لو كان عقلاء العالم مجمعين على أن يهدوه لعجزوا.

هذا، وفي (حيوان الجاحظ): أنّ طاعوناً جارفاً جاء في البصرة على أهل

(١) النحل: ٧٨.

(٢) توحيد المفضل: ٥١.

دار فلم يشكّ أهل تلك المحلّة أنّه لم يبق فيها صغير ولا كبير، وقد كان فيها صبي يرتضع ويحبو، ولا يقوم على رجليه، فعمد من بقي من المطعونين من أهل تلك المحلّة إلى باب تلك الدّار، فسدّوه فلمّا كان بعد ذلك بأشهر تحوّل فيها بعض ورثة القوم، ففتح الباب فلمّا أفضى إلى عرصة الدّار إذا هو بصبيّ يلعب مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدّار فراعه ذلك، فلم يلبث أن أقبلت كلبة فلمّا رآها الصبي حبا إليها، فأمكنته من أطبائها، فمصّها فظنّوا أنّ الصّبي لما بقي في الدار وصار منسيّاً واشتدّ جوعه ورأى جراء الكلبة تستقي من أطبائها، حبا إليها، فعطفت عليه، فلما سقته مرّة أدامت ذلك له، وأدام هو الطلب، والّذي ألهم هذا المولود مصّ إبهامه ساعة يولد، ولم يعرف كيف الارتضاع، هو الّذي هداه إلى الارتضاع من أطباء الكلبة(١).

٣٢
من الخطبة (١٥٨)

ومن خطبة له عليه السلام:

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ؛ يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ. اللهُمَّ لَكَ ٱلْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي، حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى ٱلْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ ٱلْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ ٱلْحَمْدِ عِنْدَكَ، حَمْداً يَمْلأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغ مَا أَرَدْتَ، حَمْداً لَا يُحْجَبُ عَنْكَ، وَلَا يَقْصُرُ دُونَكَ، حَمْداً لَا يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ. فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ، إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ، لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ، أَدْرَكْتَ ٱلْأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ ٱلْأَعْمَارَ، وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ، وَمَا ٱلَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ

---

(١) الحيوان للجاحظ ٢: ١٥٥ والنقل بتصرف في اللفظ. ولم يتعرّض الشارح لشرح قوله: «هيهات إن من يعجز...».

قُدْرَتِكَ ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سُتُورُ الْغيب بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، أَعْظَمُ.

«أمره قضاء» لا مردّ له ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾(١).

«وحكمة» ولو لم يهتدِ إليها الأفهام؛ فقالت الملائكة في خلق آدم: ﴿...أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾(٢)، وكم من أمر خفيت حكمتُهُ أوّلاً وظهرت أخيراً، ﴿...فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون﴾(٣).

«ورضاه» تعالى عن العبد.

«أمان» من عذابه.

«ورحمة» منه تعالى.

«يقضي» بين عباده.

«بعلم» فيقضي حقّاً.

«ويعفو» عمّن يستحقّ العقوبة.

«يحلم» ﴿ولو يؤاخذ الله النّاس بظلمهم ما ترك عليها من دابّة...﴾(٤).

«اللّهمّ لك الحمد على ما تأخذ وتعطي» لأنَّ كلّاً منهما على حسب المصلحة؛ وفي الخبر: قال موسى عليه السلام: يا ربّ رضيت بما قضيت، تُميت

(١) يس: ٨٢.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) البقرة: ٣٣.

(٤) النحل: ٦١.

الكبير، وتُبقي الصغير. فقال تعالى: يا موسى! أما ترضاني لهم رازقاً وكفيلاً؟ قال: بلى يا ربّ، فنعم الوكيل أنت ونعم الكفيل[١].

«وعلى ما تعافي وتبتلي» لأنّ ابتلاءه من الحكمة؛ وفي الخبر: أوحى تعالى إلى موسى عليه السلام ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ من عبدي المؤمن، فإنّي إنّما ابتليه لما هو خير له، وأُعافيه لما هو خير له، وأزوي عنه ما هو شرّ له لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي؛ فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرضَ بقضائي، أكتبه في الصّدّيقين عندي[٢].

وإذا كان أمره تعالى عن حكمة وقضاه بعلم وعفوه عن حلم يجب حمده تعالى على كلّ فعل منه تعالى، كما قال عليه السلام، ولكن كثيراً من العامّة قالوا: إنّ له تعالى أن يفعل كلّ ما شاء، لا من حيث الحكمة، بل من حيث قدرته كالسّبع القوي.

قال الغزالي: إنّ السّبع يخاف لا لجنايةٍ سبقت إليه، بل لصفته وبطشه وهيبته، ولأنّه يفعل ما يفعل ولا يبالي، فإن قتلَك لم يرقّ قلبه، وإن خلّاك لم يخلّك شفقةً عليك، وإبقاءً على روحك، بل أنت أخسّ عنده من أن يلتفت إليك، بل إهلاك ألف مثلك، وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة؛ وإذْ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته، وما هو موصوف به من قدرته وسطوته ﴿...ولله المثل الأعلى...﴾[٣] ولكن من عرفه عرفه بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق من المشاهدة الظاهرة، إنّه صادق في قوله: «هؤلاء إلى الجنّة ولا أُبالي، وهؤلاء إلى النّار ولا أُبالي...»[٤] وما أجهل قوماً يصفون إلههم هكذا، تعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٣٧٤ ح١٨.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٢: ٦١ ح٧، وأبو علي الطوسي في أماليه ١: ٢٤٣.

(٣) النحل: ٦٠.

(٤) قاله الغزالي في إحياء العلوم ٤: ١٣٩، والنقل بتصرف يسير.

«حمداً يكون أرضى الحمد لك... حمداً لا ينقطع عدده، ولا يفنى مدده» وفي (دعاء تحميد الصحيفة): حمداً نعمّر به في من حمده من خلقه، ونسبق به من سبق إلى رضاه وعفوه، حمداً يضيء لنا به ظلمات البرزخ، ويسهل علينا به سبيل المبعث، ويشرّف به منازلنا عند مواقف الأشهاد يوم تُجزى ﴿كلّ نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾(١)، ﴿يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ولا هم ينصرون﴾(٢) حمداً يرتفع منّا إلى أعلى علّيين في ﴿كتاب مرقوم* يشهده المقرّبون﴾(٣) حمداً تقرّ به عيوننا إذا برقت الأبصار، وتبيضّ به وجوهنا إذا اسودّت الأبشار، حمداً نُعتق به من أليم نار الله إلى كريم جوار الله، حمداً نزاحم به ملائكته المقرّبين، ونضامّ به أنبياءه المرسلين، في دار المقامة التي لا تزول، ومحلّ كرامته التي لا تحول(٤).

أيضاً: والحمد لله بكلّ ما حمده به أدنى ملائكته إليه، وأكرم خليقته عليه، وأرضى حامديه لديه، حمداً يفضل سائر الحمد، كفضل ربّنا على جميع خلقه. ثمّ له الحمد مكان كلّ نعمة له علينا، وعلى جميع عباده الماضين والباقين(٥).

«فلسنا نعلم كنه عظمتك» قال السجادعليه السلام: لو اجتمع أهل السماء والأرض على أن يصفوا الله بعظمته ما قدروا(٦).

«إلّا أنّا نعلم أنّك حيّ قيّوم لا تأخذك سنة ولا نوم» كما وصف نفسه

---

(١) الجاثية: ٢٢.

(٢) الدخان: ٤١.

(٣) المطففين: ٢٠ ـ ٢١.

(٤) الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٥ الدعاء (١).

(٥) الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٨ الدعاء (١).

(٦) أخرجه الكليني في الكافي ١: ١٠٢ ح ٤ والنقل بتصرف يسير.

عزّوجلّ في قوله: ﴿الله لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم لا تأخذه سنة ولا نوم...﴾[١].

وسُئل الرضاﷺ عن أدنى المعرفة فقال: الإقرار بأنّه لا إله غيره، ولا شبه له ولا نظير، وأنّه قديم مثبت، موجود غير فقيد، وأنّه ليس كمثله شيء[٢].

«لم ينته إليك نظر» من نبيّ أو ملك.

«ولم يدركك بصر» من جنّ أو إنس، والنظر أعمّ من أن يكون بالبصر.

«أدركت الأبصار» ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير﴾[٣].

«وأحصيت الأعمار» هكذا في (المصرية)، و (الأعمال) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم)[٤].

قال تعالى حكاية عن العباد يوم التّناد: ﴿...ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً...﴾[٥].

«وأخذت بالنواصي والأقدام» قال تعالى: ﴿...مامن دابّة إلّا هو آخذٌ بناصيتها إنّ ربّي على صراط مستقيم﴾[٦].

واحتمل الخوئي[٧] أن يكون كلامهﷺ إشارة إلى قوله عزّوجلّ: ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾[٨]. وهو كما ترى.

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٨٦ ح١، والصدوق في التوحيد: ٢٨٣ ح١، والعيون ١: ١٠٩ ح٢٩.

(٣) الأنعام: ١٠٣.

(٤) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٤٤٧، وشرح ابن ميثم ٣: ٢٧٧ «الأعمار» أيضاً.

(٥) الكهف: ٤٩.

(٦) هود: ٥٦.

(٧) شرح الخوئي ٤: ٢٣٨.

(٨) الرحمن: ٤١.

«وما الّذي نرى من خلقك... وحالت ستور» هكذا في (المصرية)، والصواب: (سواتر) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)(١).

«الغيب بيننا وبينه أعظم» وفي الخبر: أنّ في السّماوات السّبع لبحاراً عمق أحدها مسيرة خمسمائة عام فيها ملائكة قيام منذ خلقهم الله تعالى، والماء إلى ركبهم(٢).

٣٣
من الكتاب (٣١)

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ. أَوَّلٌ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ؛ عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ، فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ.

قوله عليه‌السلام: «واعلم يا بنيّ أنّه لو كان لربك شريك... ولعرفت أفعاله وصفاته»

برهان عقلي على وحدة الصانع فكلّ رسول جاء من ربّ واحد، فلو كان ربّ آخر موجوداً لأرسل أيضاً رسلاً، وكلّ ما عرفنا من آثار الملك والسلطان لم نعرفها من غير إله واحد، فلو كان إله آخر لخلق سماوات أُخر، وأرضاً أُخرى، كما نرى لغير ملكنا ملوكاً آخرين لهم ممالك، وكلّ ما عرفنا من أفعال الإله

---

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٤٤٧، وشرح ابن ميثم ٣: ٢٧٧ «ستور» أيضاً.

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٢٨١ ح٩.

وصفاته لم نعرفهما من غير خالق واحد، فلو كان خالق آخر لعرّفنا صفاته بأنّ صفاتي هكذا غير صفات ذاك الخالق، مثلاً عرّف عبد الملك أخلاقه بأنّه ليس كعثمان، ولا كمعاوية، ولا كيزيد؛ الثّلاثة قبله من عشيرته.

والاستدلال بالبرهان العقلي على توحيده تعالى في القرآن أيضاً كثير، كقوله تعالى: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً* سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿أم اتّخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون* لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا فسبحان الله ربّ العرش عمّا يصفون﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿ما اتّخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمّا يصفون﴾[3]، وكقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم شركاءكم الّذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات أم آتيناهم كتاباً فهم على بيّنة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلّا غروراً﴾[4]، وكقوله تعالى: ﴿أمّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون* أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون* أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكّرون* أمّن يهديكم في ظلمات البرّ والبحر ومن يرسل الرّياح بُشراً بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عمّا يشركون* أمّن يبدأ الخلق ثمّ يعيده

---

(١) الإسراء: ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) الأنبياء: ٢١ ـ ٢٢.

(٣) المؤمنون: ٩١.

(٤) فاطر: ٤٠

ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[١].

«ولكنّه إله واحد» بعد ثبوت عدم شريك له.

«كما وصف نفسه» في قوله: ﴿قل هو الله أحد﴾[٢]، وقد عرفت البرهان على عدم إمكان تعدّده.

ولمّا قال الحباب بن المنذر يوم السقيفة لقريش، إن أبيتم فمنّا أمير ومنكم أمير. قال عمر: هيهات لا يجتمع سيفان في غمد واحد[٣].

وكان ابن عبّاس في وقعة الحرّة في الطائف فسأل عن أمير أهل المدينة، فقيل له: عبد الله بن مطيع على قريش، وعبد الله بن حنظلة على الأنصار. فقال: أميران! هلك القوم[٤].

ولمّا خرج عبد الملك لقتال مصعب أغلق عمرو بن سعيد الأشدق باب دمشق فرجع عبد الملك، وصالحه على كون عمرو خليفته، وأنّ له مع كلّ عامل عاملاً، وأن يكون بيده بيت المال، ثمّ بعث إليه يوماً أُحبّ أن أخلو بك لأُشاورك في أمور، فلمّا وقع عنده أمر بأخذه فأُخذ وأمر أخاه أن يقتله، وخرج للصّلاة فرجع ورأى أنّه لم يقتله، فشتمه وأخذ الحربة بيده، وقال له: لو علمت أنّك تبقى ويصلح لي ملكي لفديتك بدم النّاظر، ولكن قلّما اجتمع فحلان في ذود إلّا عدا أحدهما على الآخر، ورفع الحربة فقتله[٥].

---

(١) النمل: ٦٠ ـ ٦٤.

(٢) الاخلاص: ١.

(٣) رواه الطبري في تاريخه ٢: ٤٥٧ سنة (١١)، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١: ٧، والجوهري في السقيفة: ٦٢.

(٤) نقله ابن عبد ربه في العقد الفريد ٥: ١٢٩.

(٥) نقل القصة الطبري في التاريخ ٤: ٥٩٩ سنة (٦٩)، والمسعودي في مروج الذهب ٣: ١٠٤، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ٢: ٢٦ بفرق يسير.

وقال المنصور لقتيبة بن مسلم: ما تقول في قتل أبي مسلم؟ قال: ﴿لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا...﴾. قال: حسبك يا أبا أُميّة[1].

«لا يضادّه في ملكه أحد» كما يضادّ ملوك الدّنيا كثيراً كثيراً.

«ولا يزول أبداً ولم يزل» أي: أنّه أبديّ سرمديّ.

«أوّل قبل الأشياء بلا أوّليّة، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية» ﴿هو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم﴾[2].

«عظم عن أن تثبت ربوبيّته بإحاطة قلب أو بصر» قال الجوادعليه السلام: أوهام القلوب أدقّ من أبصار العيون؛ أنت قد تدرك بوهمك السّند والهند، والبلدان التي لم تدخلها، ولم تدركها ببصرك، وأوهام القلوب لا تدركه، فكيف أبصار العيون[3].

«فإذا عرفت ذلك» أنّه إله واحد لا يضاده في ملكه أحد، وأنّه لا يزول ولم يزل، وأنّه أوّل قبل الأشياء بلا أوّلية له، وآخر بعدها بلا نهاية له، وربوبيّته أجلّ من أن يحيط به بصر أو قلب.

«فافعل كما ينبغي لمثلك» مسكين تقتله الشّرقة، وتؤلمه البقة، وتنتنه العرقة، مكتوم الأُجل، مكنون العلل، محفوظ العمل.

«أن يفعله في صغر خطره» أي: خسّة قيمته.

«وقلّة مقدرته» فلم يقدر على عمل أمر صغير إذا لم يكن مقدّراً.

«وكثرة عجزه» في أُموره، ولو كان ملكاً.

---

(١) ذكر قصة قتل أبي مسلم جمعٌ منهم الطبري في التاريخ ٦: ١٢٧ سنة (١٣٧) بتفصيل. لكن لم أجد في كلامهم ذكر قتيبة بن مسلم. والآية (٢٢) من سورة الأنبياء.

(٢) الحديد: ٣.

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٩٩ ح ١١. والصدوق في التوحيد: ١١٣ ح ١٢. ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٤٤٢ عن أبي هاشم الجعفري عن الجوادعليه السلام. وروى معناه عن عدّة طرق أخرجته في العنوان (١) من هذا الفصل.

ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرّياح بما لا تشتهي السّفن[(١)]

«وعظيم حاجته إلى ربّه» آناً فآناً؛ وفي دعاء الثمالي: «لا الّذي أحسن استغنى عن عونك ورحمتك، ولا الّذي أساء واجترأ عليك ولم يرضك خرج عن قدرتك»[(٢)].

«في طلب طاعته» بتوفيقه.

«والخشية» هكذا في (المصرية)، والصواب: (والرّهبة) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[(٣)]، أي: الخوف.

«من عقوبته» فلا تقوم لها السماوات والأرض، فكيف مثل الإنسان الضعيف.

«والشّفقة» أي: الخوف.

«من سخطه» أي: غضبه. فغضبه إهلاك من غضب عليه.

«فإنّه لم يأمرك إلّا بحسن، ولم ينهك إلّا عن قبيح» فيجب عقلاً إطاعته في أوامره لكونها وفق صلاحه، وفي زواجره لترتّب المفاسد عليها.

٣٤
من الحكمة (٢٥٠)

وقال عليه السلام:

عَرَفْتُ اللهَ سُبْحانَهُ بِفَسْخِ العَزائِمِ وَحَلِّ العُقُود.

أقول: قال ابن أبي الحديد: هذا فصل يتضمّن كلاماً دقيقاً يذكره المتكلّمون في الخاطر الّذي يخطر عن غير موجب لخطوره، فإنّه لا يجوز أن

(١) أورده التفتازاني في المطول: ١٢٦ أحوال المسند إليه، والشاعر أبو الطيب المتنبي.

(٢) هذه من أوائل دعاء أبي حمزة رواه الطوسي عن أبي حمزة الثمالي عن السجاد عليه السلام في مصباح المتهجد: ٥٢٤.

(٣) في شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٨، وشرح ابن ميثم ٥: ٢٢ «الخشية» أيضاً.

يكون الإنسان أخطره بباله، وإلّا لكان ترجيحاً من غير مرجح لجانب الوجود على جانب العدم، فلابدّ أن يكون المخطر له بالبال شيئاً خارجاً عن ذات الإنسان، وذاك الشيء هو الشيء المسمّى بصانع العالم.

ثمّ قال: ويقال: إنّ عضد الدولة وقعت في يده قصّة وهو يتصفّح القصص فأمر بصلب صاحبها، ثمّ أتبع الخادم خادماً آخر يقول له: قل للمطهّر -وكان وزيره- لا يصلبه، ولكن أخرجه من الحبس فاقطع يده اليمنى، ثمّ أتبعه خادماً ثالثاً فقال: بل تقول له يقطع أعصاب رجليه، ثمّ أتبعه خادماً آخر فقال له: ينقله إلى القلعة بسيراف في قيوده فيجعله هناك، فاختلف دواعيه في ساعة واحدة أربع مرّات[1].

قلت: والظاهر أنّ الخبر الذي روي عن النبي صلّى الله عليه وآله: «ما من آدميّ إلّا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله»[2] في معنى كلامه عليه السلام:

«عرفت الله بفسخ العزائم وحلّ العقود» بأن يكون معناه أنّه تعالى يتصرّف في قلوب عبيده كيف شاء بعزمها على أمر، وعقدها له فيفسخها ويحلّها، وبالعكس، كتصرّف من أخذ خاتماً بين إصبعيه فيه، ويشهد له قوله تعالى: ﴿...واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تحشرون﴾[3]، والحديث القدسي: «لا تقضوا أوقاتكم بسبّ الملوك فإنّ قلوبها بيدي أجعلها

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣٥٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ١: ٧٢ ح ١٩٩، وأحمد في مسنده ٤: ١٨٢، والحاكم في المستدرك، والطبراني في معجمه الكبير، والدارقطني في الصفات عنهم منتخب كنز العمال ١: ١١٤، و: ١١٦ عن النواس بن سمعان عن النبي صلّى الله عليه وآله، وروي أيضاً عن طريق أنس بن مالك وعبدالله بن عمر وأمّ سلمة عن النبي صلّى الله عليه وآله، وأخرجه الصدوق في علل الشرائع ٢: ٦٠٤ ح ٧٥ عن الباقر عليه السلام، وشرحه الشريف الرضي في المجازات النبوية: ٣٤٦، والشريف المرتضى في أماليه ٢: ٢ المجلس (٢٢)، وتنزيه الأنبياء: ١٢٥، وابن قتيبة في تأويل المختلف: ٢٠٨، ولفظ الكتاب للرضي.

(٣) الانفال: ٢٤.

رحيماً عليكم»[١].

وأمّا قول المصنّف في (مجازاته النبويّة): إنّ معنى قلبه بين إصبعين من أصابع الله هو: أنّ الإصبع بمعنى النّعمة، والأثر الجميل كقول الرّاعي:

ضعيف العصا بادي العروق ترى له عليها إذا ما أجدب النّاس إصبعا

أي: ما من آدمي إلّا وقلبه من الله سبحانه بين نعمتين حسنتين: إحداهما ما منّ الله عليه من معرفة خالقه ورازقه، والأُخرى ما امتنّ عليه من تحسين خلقه وتوسيع رزقه[٢].

فكما ترى، فإنّ الموضوع في النّعمتين اللّتين قالهما نفس الإنسان لا قلبه، فإن صحّ في الأُولى جعل القلب موضوعاً بتكلّف، ففي الثانية غير صحيح، مع أنّ الأُولى غير صحيحة في نفسها؛ فكم آدميّ لم يرزق معرفة خالقه ورازقه، بل هم أكثر من العارفين بربّهم، مع أنّ الخبر تضمن أنّه ما من آدميّ إلّا وهو كذا، وأيضاً فرق بين قولهم: لفلان عليّ إصبع، وقولهم: أمري بين إصبعيه، فالأوّل بمعنى: أنّ له عندي نعمة، وأمّا الثاني فبمعنى: أمري بيده، ومثله الخبر. وكيف كان ففي (عيون ابن قتيبة): أتى رجل يزيد بن أبي مسلم برقعة يسأله أن يرفعها إلى الحجّاج، فنظر فيها يزيد فقال: ليست هذه من الحوائج التي ترفع إلى الأمير. فقال الرجل: فإنّي أسألك أن ترفعها فلعلّها توافق قدراً فيقضيها وهو كاره. فأدخلها وأخبره بمقالته. فنظر في الرقعة، وقال له: قل للرّجل: إنّها وافقت قدراً، وقد قضيناها، ونحن له كارهون[٣].

وفي (أغاني أبي الفرج) قال أحمد بن خلّاد: حدّثني أبي قال: كنت أكلّم

---

(١) أخرجه الصدوق في أماليه: ٢٩٩ ح ٩ المجلس (٥٨) والنقل بالمعنى.

(٢) المجازات النبوية: ٣٤٦ ح ٢٦٨، وبين اللفظ المنقول ولفظ المجازات فرق كثير.

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣: ١٣٠ والنقل بتصرف يسير.

بشّار الشاعر وأردّ عليه سوء مذهبه بميله إلى الإلحاد، فكان يقول: لا أعرف إلّا ما عاينته أو عاينت مثله. وكان الكلام يطول بيننا؛ فقال لي يوماً: ما أظنّ الأمر يا أبا خالد إلّا كما تقول، وأنّ الّذي نحن فيه خذلان، ولذلك أقول:

طبعت على ما فيّ غير مخيّر هوايَ ولو خيّرت كنت المهذّبا
أريد فلا أُعطى وأعطى فلم أرد وقصّر علمي أن أنال المغيّبا
فأُصرف عن قصدي وعلمي مقصّر وأُمسي وما أُعقبت إلّا التعجّبا[١]

٣٥
الحكمة (٣٥١)

وقال عليه السلام:

عِنْدَ تَناهِي الشِّدَّةِ تَكُونُ الفَرْجَةُ، وَعِنْدَ تَضايُقِ حَلَقِ البَلاءِ يَكُونُ الرَّخاءُ.

هو أحد الشواهد والأدلّة أيضاً على وجود الباري تعالى؛ فالفرج والرّخاء للشخص لئلّا يهلك كدفع الآفات عن العالم لئلّا يفنى دليل على وجود صانع حكيم رؤوف رحيم، وضع للإنسان شدّة كما للعالم آفة حكمة، ويرفعهما بعد حين رأفة ورحمة، وقد صنّف في حكايات من فرّج عنهم بعد غاية الشدّة كتب؛ ومنها كتاب لأبي الحسن المدائني، وكتاب لحسين بن سعد الدهستانيّ، وكتاب لابن أبي الدنيا البغداديّ، وكتاب لمحسن بن علي التنوخي.

وفي (تاريخ بغداد) في يعقوب بن داود السلمي الذي استوزره المهديّ، ثمّ غضب عليه لإطلاقه علوياً أمره بقتله فحبسه في المطبق: قال يعقوب: حبسني المهديّ في بئر وبنيت عليّ قبّة، فمكثت فيها خمس عشرة حجّة

---

(١) الأغاني ٣: ٢٢٧.

مضى صدر من خلافة الرشيد، وكان يدلى إليّ في كلّ يوم رغيف وكوز من ماء، وأوذن بأوقات الصلوات، فلمّا كان في رأس ثلاث عشرة حجّة أتاني آت في منامي، فقال:

حنا على يوسف ربٌّ فأخرجه ... من قعر جبّ وبيتٍ حوله غمم

فحمدت الله وقلت: أتى الفرج. فمكثت حولاً لا أرى شيئاً، ثمّ أتاني ذلك الآت بعد حول، فقال:

عسى الكرب الّذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب

فيأمن خائف ويفكّ عانٍ ... ويأتي أهله النائي الغريب

فلمّا أصبحت نوديت، فظننت أنّي أوذن بالصلاة فدُلّي لي حبل أسود وقيل لي: اشدد به وسطك. ففعلت، فأخرجوني فلمّا قابلت الضوء غشي بصري. فانطلقوا بي فأدخلوني على الرّشيد... فقال لي الرّشيد: والله ما شفّع فيك أحد غير أنّي حملت الليلة صبيّة لي على عنقي، فذكرت حملك إيّاي على عنقك فرثيت لك[1].

وفي (المعجم) أنشد لإبراهيم الصولي:

ربما تجزع النّفوس من الأمـ ... ـرِ له فرجة كحلّ العقال

ونكت بقلمه ثمّ قال:

ولربّ نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند الله منها المخرج

كملت فلمّا استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنّها لا تفرج[2]

---

(١) تاريخ بغداد ١٤: ٢٦٤ والنقل بتصرف.

(٢) معجم الأدباء للحموي ١: ١٨٦.

٣٦
من الخطبة (٨١)

ومن خطبة له عليه السلام عجيبة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ، وَدَنَا بِطَوْلِهِ، مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ، وَكَاشِفِ كُلِّ بَلِيَّةٍ وَأَزْلٍ. أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ، وَسَوَابِغِ نِعَمِهِ، وَأُومِنُ بِهِ أَوَّلًا بَادِياً وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هَادِياً. وَأَسْتَعِينُهُ قَادِراً قَاهِراً، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِياً نَاصِراً.

أقول: وروى (أمالي الشيخ) مسنداً عن ابن عبّاس: قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «الحمد لله الذي لا يحويه مكان، ولا يحدّه زمان، علا بطوله، ودنا بحوله، سابق كلّ غنيمة وفضل، وكاشف كلّ عظيمة وأزل، أحمده على جود كرمه، وسبوغ نعمه، وأستعينه على بلوغ رضاه، والرّضا بما قضاه، وأؤمن به إيماناً، وأتوكّل عليه إيقاناً، وأشهد أن لا إله إلّا الله الذي رفع السماء فبناها، وسطح الأرض فطحاها ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها* والجبال أرساها﴾[١] لا يؤوده خلق، وهو العلي العظيم...»[٢].

قول المصنّف: «ومن خطبة له عجيبة» هكذا في (المصرية)، ولكن في (ابن أبي الحديد): «ومن خطبة له عليه السلام وتسمّى بالغرّاء وهي من الخطب العجيبة»[٣] وفي (ابن ميثم) : «ومن خطبة له عليه السلام وهي من الخطب العجيبة وتسمّى الغرّاء»[٤]، وفي (خطّية مصححة) تاريخها سنة (١٠٧٥): «ومن خطبة له عليه السلام عجيبة تسمّى الغرّاء»؛ وهذا الاختلاف عجيب، ولعلّ في النسخ

---

(١) النازعات: ٣١ ـ ٣٢.

(٢) أخرجه أبو جعفر الطوسي في أماليه ٢: ٢٩٦ المجلس (٢٠).

(٣) لفظ ابن أبي الحديد ٢: ٨٥ «وتسمّى بالغراء وهي من الخطب العجيبة».

(٤) لفظ ابن ميثم ٢: ٢٣٠ «وهي من الخطب العجيبة».

تصحيفاً؛ وكيف كان فمن اتّفاق الثلاثة على فقرة (وتسمى الغرّاء) يعلم سقوطها من (المصرية)، إلّا أنّ قول المصنّف في آخر الخطبة: «ومن النّاس من يسمّي هذه الخطبة الغرّاء، لا يناسب ثبوتها، ولعلّه نسي قوله في الأوّل؛ وكيف كان، فقال ابن أبي الحديد بعد ذكر نكات في ألفاظ العنوان ومعانيها: «وهذه اللّطائف والدقائق من معجزاته عليه السلام»[١].

«الحمد لله الذي علا بحوله» أي: بقوّته؛ قال ابن ميثم: وقد أثنى عليه السلام على الله تعالى في هذا الفصل باعتبارات أربعة من نعوت جلاله؛ الأوّل: كونه علياً، وإذ ليس المراد به العلوّ المكانيّ لتقدّسه عن الجسميّة كما سبق، فالمراد العلوّ المعقول له باعتبار كونه مبدأ كلّ موجود ومرجعه، فهو العليّ المطلق الّذي لا أعلى منه في وجود وكمال رتبة وشرف، كما سبق بيانه، ولمّا عرفت أنّ معنى الدّنوّ إلى كلّ موجود صدر عن قدرته وقوّته، لا جرم جعل للحوقه له مبدأ هو حوله[٢].

«ودنا بطوله» أي: بمنّه؛ قال ابن ميثم: لمّا عرفت أنّ معنى الدنوّ والقرب في حقّه تعالى ليس مكانيّاً أيضاً، كان اعتباراً تحدّثه عقولنا له تعالى من قرب إفاضة نعمه على قوابلها، وقربه من إبصار البصائر في صورة نعمةٍ نعمةً منها، ولذلك جعل طوله مبدأً لدنوّه[٣].

«مانح» أي: معطٍ.

«كلّ غنيمة» ﴿...ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السّلام لستَ مؤمناً تبتغون عرَض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة...﴾[٤].

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٨٦.

(٢) شرح ابن ميثم ٢: ٢٣١.

(٣) شرح ابن ميثم ٢: ٢٣١.

(٤) النساء: ٩٤.

«وفضل» ﴿...ويؤتِ كلَّ ذي فضل فضْلَه...﴾[(١)].

«وكاشف كلّ بليّة وأزل» أي: ضيق؛ قال ابن ميثم: (مانح) و (كاشف) إشارة إلى كلّ نعمة صدرت عنه تعالى على قابلها؛ فمبدؤه جوده ورحمته، سواء كانت وجوديّة كالصّحّة والمال والعقل وغيرها، أو عدمية كدفع البأساء والضرّاء، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثمّ إذا مسّكم الضّرّ فإليه تجأرون* ثم إذا كشف الضرّ عنكم...﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض...﴾[(٣)].

قلت: وكلامه عليه السلام من الأوّل إلى هنا في ثنائه عليه تعالى باعتبارات بيّنها عليه السلام من حوله تعالى وطوله، ومانحيته وكاشفيته، نظير قوله تعالى: ﴿سبّح اسم ربك الأعلى* الذي خلق فسوّى* والذي قدّر فهدى* والذي أخرج المرعى* فجعله غُثاءً أحوى﴾[(٤)]، فأمر ـ تعالى ـ بوجوب تسبيحه والثناء عليه باعتبارات بيّنها من خلقه فتسويته، وتقديره فهدايته، وإخراجه المرعى.

«أحمده على عواطف» من إضافة الصّفة.

«كرمه» مفرد بمعنى الجمع.

«وسوابغ» أي: كوامل.

«نعمه» ﴿...وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة...﴾[(٥)].

قال ابن ميثم: قوله عليه السلام (أحمده) الى قوله (نعمه) تنبيه للسامعين على مبدأ استحقاقه لاعتبار الحمد، وهو كرمه؛ قال بعض الفضلاء: الكريم هو الذي

---

(١) هود: ٣.

(٢) النحل: ٥٣ ـ ٥٤.

(٣) شرح ابن ميثم ٢: ٢٣١، والآية (٦٢) من سورة النمل.

(٤) الأعلى: ١ ـ ٥.

(٥) لقمان: ٢٠.

إذا قدر عفا، وإذا وعد وفا، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى ولا لمن أعطى، وإن رفع إلى غيره حاجة لا يرضى، وإذا جفا عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجأ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء. فمن اجتمعت له هذه الاعتبارات حقيقة من غير تكلّف فهو الكريم المطلق، وليس ذلك إلّا الله تعالى، والأجمع الأمنع في رسم هذا الاعتبار يعود إلى فيضان الخير عنه من غير بخل ومنع وتعويق على كلّ من يقدر أن يقبله بقدر ما يقبله، وعواطف كرمه هي نعمه وآثاره الخيريّة التي تعود على عباده مرّة بعد أُخرى، ونعمه السابغة التي لا قصور فيها عن قبول قابلها[١].

«وأُؤمِنُ به أوّلاً بادياً» أي: ظاهراً. أوّلاً بادياً حالان من الضمير في (به) كقوله عليه السلام بعد: قريباً هادياً، وقادراً قاهراً، وكافياً ناصراً، والكلّ للثبوت كقوله تعالى: ﴿...قائماً بالقسط...﴾[٢] بمعنى أنّه يجب الايمان به تعالى لكونه أوّلاً ومبدأً لجميع الأشياء، ولكونه تعالى ظاهراً جليّاً بآثاره، وخلائقه عند جميع العقلاء.

وأمّا قول ابن أبي الحديد: «أوّلاً منصوب على الظّرفية، كأنّه قال: قبل كلّ شيء[٣]» فبلا معنى، فأيّ شيء يقول في قوله عليه السلام: (بادياً) والظاهر أنّه جعله ظرفاً لقول (الصحاح): تقول: ما رأيته مذ عام أوّلُ، ومذ عام أوّلَ[٤]. فمن رفع الأوّل جعله صفة لعام كأنّه قال: أوّل من عامنا، ومن نصبه جعله كالظّرف كأنّه قال: مذ عام قبل عامنا.

«وأستهديه قريباً هادياً» والاستهداء من البعيد ولو كان هادياً أو القريب

---

(١) شرح ابن ميثم ٢: ٢٣١.

(٢) آل عمران: ١٨.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٨٦.

(٤) صحاح اللغة، الجوهري ٥: ١٨٣٨ مادة (أول).

غير الهادي بلا ثمر، ولا يجمعهما حقيقة غيره تعالى فيجب الاستهداء منه.

«وأستعينه قادراً قاهراً» هكذا في (المصرية)، والصواب: (وأستعينه قاهراً قادراً) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخوئي والخطّية)(١).

قال ابن ميثم: استعانته طلب المعونة منه على ما ينبغي من طاعته، وسلوك سبيله، والقاهر هو الّذي لا يجري في ملكه بخلاف حكمه، بل كلّ موجود مسخّر تحت حكمه وقدرته، وحقير في قبضته، والقادر هو الّذي إذا شاء فعل وإذا لم يشأ لم يفعل، وإن لم يلزم أنّه لا يشاء فلا يفعل كما سبق بيانه، وظاهر أنّه باعتبار هذين الوصفين مبدأ للاستعانة(٢).

«وأتوكّل عليه كافياً ناصراً» قال ابن ميثم: التوكّل ـ كما علمت ـ يعود إلى اعتماد الانسان في ما يرجو أو يخاف على غيره، والكافي اعتبار كونه معطياً لكلّ قابل من خلقه ما يكفي استحقاقه من منفعة، ودفع مضرّة، والنّاصر هو اعتبار إعطائه النّصر لعباده على أعدائهم بإفاضة هدايته وقوّته، وظاهر أنّه تعالى باعتبار هذين الوصفين مبدأ لتوكّل عباده عليه، وإلقاء مقاليد أُمورهم إليه(٣).

قلت: ولذا قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿...ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكّلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثمّ لا يكن أمركم عليكم غُمّة ثمّ اقضوا إليّ ولا تُنظِرُون﴾(٤).

ومثله قال الحسين عليه السلام يوم الطفّ لأهل الكوفة، كما رواه أبو مخنف(٥).

---

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٨٥، وشرح الخوئي ٢: ٢٤٠، لكن في شرح ابن ميثم ٢: ٢٣٠ «قادراً قاهراً» أيضاً.

(٢) شرح ابن ميثم ٢: ٢٣٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) يونس: ٧١.

(٥) رواه الطبري في تاريخه ٤: ٣٢٢ سنة (٦١) عن أبي مخنف، لكن ليس في كتاب مقتل الحسين المنسوب إلى أبي مخنف.

٣٧
الحكمة (١٣)

وقالعليه السلام:

مَنْ ضَيَّعَهُ الأَقْرَبُ أُتيحَ ـ أي قدّر ـ لَهُ الأَبْعَدُ.

أقول: هو أيضاً إحدى آيات الله تعالى، فمن ضيّعه الأقرب لو لم يقدّر له الأبعد لهلك؛ ونرى أنّ كثيراً من المؤمنين الّذين يتبرّأ منهم أقاربهم، ويدعونهم يقدّر الله لهم من يخدمهم من الأباعد، كما أنّ موسىعليه السلام لمّا ألقته أُمّه في اليمّ أخذه عدوّه وربّاه[1].

٣٨
الحكمة (٨٤)

وقالعليه السلام:

بَقِيَّةُ السَّيفِ أبقَى عَدَداً وَأَكْثَرُ وَلَداً.

أقول: الأصل في العنوان أنّ الحصين بن المنذر كتب إليهعليه السلام كما في العقد، أنّ السيف أكثر في ربيعة، فوقّععليه السلام في جوابه: بقيّة السّيف أنمى عدداً[2].

وفي (بيان الجاحظ): قال عليّ كرّم الله وجهه: بقية السّيف أنمى عدداً وأكرم ولداً، ووجد النّاس ذلك بالعيان الّذي صار إليه ولده من نهك السّيف، وكثرة الذّرء وكرم النّجل[3].

وقال ابن أبي الحديد: قال شيخنا أبو عثمان (يعني الجاحظ): ليتهعليه السلام

(١) القصة مذكورة في قوله تعالى في سورة طه: ٣٩.

(٢) العقد الفريد ٤: ٢٥٦.

(٣) البيان والتبيين ٢: ٣٥٥.

لمّا ذكر الحكم ذكر العلّة، ثم قال: قد وجدنا مصداق قوله أولاده، وأولاد الزّبير، وبني المهلّب وأمثالهم[١].

قلت: أمّا العلّة فالعناية الإلهية بجبران من وقع عليه ظلم؛ فمضر حيث كانت فيهم السلطنة، وكانوا أعداء ربيعة فأكثروا من إفنائهم، ثمّ الّذي وجدت في كتاب الجاحظ الاقتصار على ولده[٢]؛ وأمّا جمعه معهم ولد الزّبير وولد المهلّب ـ كما نقل ـ ففي غير محلّه، حيث إنّ الزبير إنّما قتل جمع من ولده أيّام نهوض عبد الملك فقط، فقتل مع عبدالله بن الزبير ابناه الزبير وعروة، وأخوه المنذر، وابن أخيه عمرو بن عروة، وقتل مع مصعب أخيه ابنُه عيسى، كما أنّ المهلّب قُتل جمع من ولده أيّام خرج يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك.

وأمّا ولده عليه السلام فكان القتل فيهم في كلّ زمان في مدّة سلطنة بني أُمية وسلطنة بني العباس، سوى وقعة الطفّ التي أرادوا فيها استيصالهم حتّى قتلوا رضيعهم وأرادوا قتل عليلهم، حتّى صنّف في مقاتلهم كتب كثيرة بالخصوص، ومنها (مقاتل الطالبيين) لأبي الفرج الاصبهاني الأُمويّ، ومع ذلك ولده عليه السلام أكثر من جميع طوائف قريش حتّى مع العباسيين، مع بني هاشم، وقد كانوا كثروا أيام سلطنتهم، وقد كان المأمون أمر بإحصائهم لمّا أراد جعل عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ولي عهده، فكانوا ثلاثة وثلاثين ألفاً صغيراً وكبيراً، فقال المأمون للنّاس أنّه نظر في ولد العباس وولد عليّ عليه السلام فلم يجد في وقته أحداً أفضل ولا أحقّ بالأمر من عليّ بن موسى عليه السلام. نقل ذلك

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٧٩.

(٢) قال الجاحظ في البيان والتبيين ٢: ٣٥٥: «قال المهلب: ليس أنمى من بقية السيف، فوجد الناس تصديق قوله فيما نال أولاده من السيف وصار فيهم من النماء، وقال علي بن أبي طالب: بقيّة السيف أنمى عدداً وأكرم ولداً. ووجد الناس ذلك بالعيان الذي صار إليه من ولده من نهك السيف وكثرة الذرء وكرم النجل» فقال في: ٣٥٦: «ولم يظهر من عدد القتلى مثل الذي يظهر في آل أبي طالب وآل الزبير وآل المهلب».

الطبري والمسعودي[١]، بل المعروف من جميع قريش ـ منذ قرون وفي كلّ قرن ـ كلّ صقع مشحون من ولده عليه السلام، وذلك من آيات الله الخاصّة فيه عليه السلام.

قال محمّد بن محمّد بن النعمان في (إرشاده): ومن آيات الله تعالى فيه عليه السلام أنّه لم يُمْنَ أحد في ولده وذرّيته بمثل ما مني عليه السلام في ذرّيته، وذلك أنّه لم يُعرف خوف شمل جماعة من ولد نبيّ، ولا إمام، ولا ملك زمان، ولا برّ ولا فاجر كالخوف الّذي شمل ذرّية أمير المؤمنين عليه السلام، ولا لحق أحداً من القتل والطرد عن الدّيار والأوطان والإخافة والإرهاب ما لحق ذرّية أمير المؤمنين عليه السلام وولده، ولم يجرِ على طائفة من الناس من ضروب النكّال ما جرى عليهم من ذلك؛ فقتلوا بالفتك والغيلة والاحتيال، وبُني على كثير منهم وهم أحياء البنيان، وعذّبوا بالجوع والعطش حتّى ذهبت أنفسهم على الهلاك، وأحوجهم ذلك إلى التمزّق في البلاد، ومفارقة الديار والأهل والأوطان، وكتمان نسبهم عن أكثر الناس، وبلغ بهم الخوف إلى الاستخفاء عن أحبائهم فضلاً عن الأعداء، وبلغ هربهم من أوطانهم إلى أقصى الشرق والغرب، والمواضع النائية عن العمارة، وزهد في معرفتهم أكثر الناس، ورغبوا عن تقريبهم، والاختلاط بهم مخافة على أنفسهم وذراريهم من جبابرة الزمان؛ وهذه كلّها أسباب تقتضي انقطاع نظامهم واجتثاث أُصولهم وقلّة عددهم، وهم مع ما وصفناه أكثر ذرّيّة من الأنبياء والصالحين والأولياء، بل أكثر من ذراري كلّ أحد من الناس، قد طبقوا بكثرتهم البلاد، وغلبوا في الكثرة على ذراري أكثر العباد.

---

(١) الطبري في التاريخ ٧: ١٣٢، سنة (٢٠٠)، والمسعودي في المروج ٣: ٤٤٠، ولفظ المسعودي «وأُحصي في هذه السنة ولد العباس فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكر وأُنثى» وروى قول المأمون للناس في الرضا عليه السلام الطبري في التاريخ ٧: ١٣٩ سنة (٢٠١)، والمسعودي في المروج ٣: ٤٤١.

هذا مع اختصاص مناكحهم في أنفسهم دون البعداء، وحصرها في ذوي أنسابهم دينة من الأقرباء، وفي ذلك خرق العادة على ما بيّناه، وهو دليل الآية الباهرة في أمير المؤمنين عليه السلام كما وصفناه وبيّناه، وهذا ما لا شبهة فيه[1].

قلت: وكثرة أولاد أمير المؤمنين عليه السلام مع قتلهم وحبسهم وطردهم في كلّ زمان ومكان شاهدة لتصديق وعد الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله الكوثر، كما أنّ انقراض جماهير قريش الشانئين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام دليل لتصديق وعيد الله تعالى شانئه صلى الله عليه وآله لكونه أبتر بالخصوص، مضافاً الى وعيده تعالى الظالمين عموماً بقطع دابرهم في قوله تعالى: ﴿فقطع دابرُ القوم الذين ظَلموا والحمدُ لله ربّ العالمين﴾[2]. وممّا يشهد لقوله عليه السلام في كون بقيّة السّيف أكثر عدداً عناية منه تعالى ببقاء النوع الإنساني في غير الظالمين؛ فبعد الحربين العالميتين كانت النساء في أوربا[3] ـ كما قالوا ـ لم يلدن غير البنين لفناء رجال كثيرين مِنْهُنَّ.

٣٩
الحكمة (١٣٩)

وقال عليه السلام:

تَنْزِلُ المَعونَةُ عَلى قَدْرِ المَؤُونَةِ.

أقول: هو أيضاً أحد الأدلة على وجود الخالق الرّازق، وذلك أمر مشاهد بالعيان؛ فالإنسان إذا كان وحده يكون رزقه بقدره نوعاً، وإذا صار ذا زوجة

---

(١) الإرشاد للمفيد: ١٦٤.

(٢) الأنعام: ٤٥.

(٣) لم يختص هذا الحرب بأوربا، بل قلّما يوجد بلد لم تسر إليه الفتنة في العالم.

يزداد في رزقه بقدرها، وإذا صار ذا أولاد يزداد في رزقه بقدرهم؛ يمعنى أنّه لا يمكن أن يرزق أقلّ، وإلّا فقد يرزق من وحده بقدر مؤونة عدّة.

والمراد ما إذا تعرض للرّزق أو لم يكن له حيلة، وإلّا ففي الخبر: من جلس في بيته ودعا للرّزق مع تمكّنه يكون ممّن لا يستجاب لهم(١).

قال ابن أبي الحديد: كان على بعض الموسرين رسوم لجماعة من الفقراء يدفعها إليهم كلّ سنة فاستكثرها فأمر كاتبه يقطعها، فرآى في المنام كأنَّ له أموالاً كثيرة في داره تصعدها أقوام من الأرض إلى السماء وهو يجزع من ذلك، فيقول: يا ربّ رزقي، فقيل له: إنّما رزقناك هذه لتصرفها في ماكنت تصرفها فيه، فإذا قطعت ذلك رفعناها منك، وجعلناها لغيرك. فلمّا أصبح أمر كاتبه بإعادة تلك الرسوم أجمع(٢).

قلت: وفي (تاريخ بغداد): أنّ الواقديّ كتب رقعة إلى المأمون يذكر فيها غلبة الدَّين وغمّه بذلك. فوقّع المأمون على ظهرها: فيك خلّتان السخاء والحياء؛ فأمّا السّخاء فهو الّذي أطلق ما ملكت، وأمّا الحياء فهو الّذي منعك من اطّلاعنا على ما أنت عليه، وقد أمرنا بكذا وكذا؛ فإن كنّا أصبنا إرادتك في بسط يدك فإنّ خزائن الله مفتوحة، وأنت كنت حدّثتني ـ وأنت على قضاء الرّشيد ـ عن محمّد بن إسحاق عن الزهري عن أنس أنّ النبيﷺ قال للزّبير: إنّ باب الرزق مفتوح بباب العرش ينزّل الله على العباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن قلّل قلّل له، ومن كثّر كثّر له. قال الواقدي: وكنت قد أُنسيت هذا الحديث فكان

---

(١) هذا المعنى أخرجه الحميري في قرب الإسناد: ٣٨، والكليني بخمس طرق في الكافي ٢: ٥١١ ح ٢ و ٣، و ٥: ٦٥ ح ١، و ٥: ٧٧ ح ١، والصدوق في الفقيه ٢: ٣٩ ح ١٠ وبطريقين في الخصال: ١٦٠ ح ٢٠٨، و: ٢٩٩ ح ٧١، والطوسي في التهذيب ٦: ٣٢٢ ح ٨ وأماليه ٢: ٢٩٢ المجلس ١٩، والكراجكي في كنز الفوائد: ٢٩١، وابن إدريس في السرائر عنه الوسائل ٤: ١١٦٠ ح ٤، وجمع آخر.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣٠٩.

تذكرته إيّاي أحبّ إليّ من جائزته ـ قال الراوي: بلغني أنّ الجائزة كانت مائة ألف درهم ـ فكان الحديث أحبّ إليه من مائة ألف[١].

٤٠
الحكمة (١٤٤)

وقال عليه السلام:

يَنْزِلُ الصَّبْرُ عَلى قَدرِ المُصيبَةِ، وَمَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلى فَخْذِهِ عِنْدَ مُصيبَتِهِ حَبِطَ أَجْرُهُ.

«ينزل الصّبر على قدر المصيبة» نزول الصبر على قدر المصيبة أيضاً هو إحدى آياته تعالى وحِكَمه وألطافه على عبيده، كنزول المعونة عليهم على قدر مؤونتهم.

وفي (توحيد المفضل) ـ بعد ذكر نعمة الحافظة، وأنّه لولاها لاختلّ حال الناس ـ: وأعظم من النّعمة على الإنسان في الحفظ النّعمة في النّسيان، فإنّه لولا النسيان لما سلا أحد عن مصيبة، ولا انقضت له حسرة، ولا مات له حقد، ولا استمتع بشيء من متاع الدّنيا مع تذكّر الآفات، ولا رجاء غفلة من سلطان، ولا فترة من حاسد. أفلا ترى كيف جعل في الانسان الحفظ والنسيان وهما مختلفان متضادّان، وجعل له في كلٍّ منهما ضرب من المصلحة؟ وما عسى أن يقول الّذين قسّموا الأشياء بين خالقين متضادّين في هذه الأشياء المتضادّة المتباينة، وقد تراها تجتمع على ما فيه الصّلاح والمنفعة[٢].

وروى (الكافي) عن الصادق عليه السلام أيضاً: أنّ الميّت إذا مات بعث الله تعالى ملكاً إلى أوجع أهله، فمسح على قلبه، فأنساه لوعة الحزن، ولولا ذلك

---

(١) تاريخ بغداد ٣: ١٩، والنقل بتصرف يسير.

(٢) توحيد المفضل: ٧٨.

لم تعمر الدّنيا(١).

وعنه عليه السلام أيضاً: إنّ الله تبارك وتعالى تطوّل على عباده بثلاث: ألقى عليهم الرّيح بعد الرّوح، ولولا ذلك ما دفن حميم حميماً، وألقى عليهم السّلوة، ولولا ذلك لانقطع النّسل، وألقى على هذه الحبّة الدابّة، ولولا ذلك لكنزها ملوكهم كما يكنزون الذّهب والفضّة(٢).

«ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبته حبط أجره» وفي (المصرية) بدل (أجره): (عمله) وهو تصحيف(٣)، وكيف كان روى الفقرة (تحف العقول) عنه عليه السلام(٤)، ولكن رواه (الكافي) عن الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله(٥)، ولا غرو فإنّ النبيّ والوصيّ ـ صلوات الله عليهما وعلى آلهما ـ كانا كنفس واحدة، وموجبيّته للحبط لكشفه عن عدم رضاء العبد بقضاء ربّه فلابدّ أن يحبط أجره.

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ٣: ٢٢٧ ح١، والصدوق في الفقيه ١: ١١٢ ح٢١.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٣: ٢٢٧ ح٢، والصدوق في الفقيه ١: ١١٨ ح٨، وعلل الشرائع ١: ٢٩٩ ح١، والخصال ١: ١١٢ ح٨٧، وأخرج معناه أيضاً الصدوق في علل الشرائع ١: ٢٩٩ ح٢.

(٣) لفظ شرح ابن أبي الحديد ٤: ٣١٠، وشرح ابن ميثم ٥: ٣١٩ «أجره» أيضاً.

(٤) روى ابن شعبة في تحف العقول: ٢٢١ هذا اللفظ: «ومن ضرب بيده على فخذه عند المصيبة حبط أجره، والصنيعة لا تكون صنيعة إلّا عند ذي حسب أو دين، والله ينزل الصبر على قدر المصيبة».

(٥) فقرة «ينزل الصبر على قدر المصيبة» أخرجه الحميري في قرب الأسناد: ٥٥، وابن عدي في الكامل، وابن بلال عنهما الجامع الصغير ١: ٧٨، ورواه الراوندي في لب اللباب، وعنه المستدرك ١: ١٤٠ ح٣٧ عن النبي صلى الله عليه وآله، وأخرجه ابن شعبة في تحف العقول: ٢٢١ عن علي عليه السلام، وأخرجه الصدوق في الفقيه ٤: ٢٩٨ ح٨٠ عن الصادق عليه السلام باختلاف يسير، وفقرة «من ضرب يده على فخذه عند مصيبة حبط أجره» أخرجه الكليني في الكافي ٣: ٢٢٤ ح٤ عن النبي صلى الله عليه وآله، وأخرجه ابن شعبة في تحف العقول: ٢٢١ عن علي عليه السلام، وأخرجه الصدوق في الفقيه ٤: ٢٩٨ ح٨٠ والخصال: ١٩١ ح٢٦٥ عن الصادق عليه السلام، وأخرجه الكليني في الكافي ٣: ٢٢٥ ح٩ عن الكاظم عليه السلام، وأخرجه صاحب فقه الرضا عنه البحار ٨٢: ٧٩ ح١٦ عن الرضا عليه السلام، وينحصر الجمع بين الفقرتين برواية الفقيه.

٤١
الحكمة (١٥) و (٤٥٩)

وقال عليه السلام:

تَذِلُّ الأُمورُ لِلمَقاديرِ حَتّى يَكُونَ الحَتْفُ فِي التَّدْبيرِ.

يَغْلِبُ المِقْدارُ عَلَى التَّقديرِ حَتّى تَكُونَ الآفَةُ فِي التَّدْبيرِ.

وقد مضى هذا المعنى في ما تقدّم برواية تخالف بعض هذه الألفاظ.

أقول: وحكاه الجهشياري في (وزرائه) بلفظ آخر فقال: دخل يحيى البرمكيّ على الرّشيد لما ابتدأت حاله في الفساد وهو خالٍ فرجع فعرف خبره. فقال لبعض الخدم: الحقْ يحيى وقل له: خنتني فاتّهمتني، فأبلغه الرّسول فقال له: قل للرّشيد: إذا أنقضت المدّة كان الحتف في الحيلة. والله ما انصرفت عن خلوتك إلّا تخفيفاً عنك. قال وهذا كلام لعليّ بن أبي طالب كرّم الله مثواه: «إذا انقضت المدّة كان الهلاك في العدّة» قال: وسرق هذا المعنى ابن الرومي فقال:

غلط الطّبيب عليّ غلطة مورد عجزت محالته عن الأصدار

والناس يلحون الطبيب وإنّما غلط الطبيب إصابة المقدار[١]

ورواه (إرشاد المفيد) مع الأصل فيه، وأنّ أصل المعنى ليزدجرد آخر ملوك فارس، فقال: سأل أمير المؤمنين عليه السلام شاهزنان بنت كسرى حين أُسرت: ما حفظت عن أبيك بعد وقعة الفيل؟ قالت: حفظت عنه أنّه كان يقول: «إذا غلب الله على أمر ذلّت المطامع دونه، وإذا انقضت المدّة كان الحتف في الحيلة». فقال عليه السلام: ما أحسن ما قال أبوك! تذلّ الأُمور للمقادير حتّى يكون الحتف في التّدبير[٢].

(١) الوزراء للجهشياري: ٢٢٧ والنقل بتصرف يسير.

(٢) الإرشاد للمفيد: ١٥٩.

وممّا يشهد للمعنى ما في (عيون القتيبيّ): إنّ أبا مسلم لما قدم المدائن في اليوم الّذي قُتل فيه جعل يضرب بالسّوط معرفة برذونه ويقول بالفارسية كلاماً معناه: ما تغني المعرفة إذا لم تقدر على دفع المحتوم. ثم قال: «جارّة ذيلها تدعو يا ويلها بدجلة أو حولها، كأنّا بعد ساعة قد صرنا في دجلة»[١].

وما في (تاريخ الطبري): قال أبو مسلم لنيزك: إنّي والله ما رأيت طويلاً أعقل منك، فما ترى في إتياني المنصور، فقد جاءت هذه الكتب، وقد قال القوم ما قالوا؟ قال: لا أرى أن تأتيه، وأرى أن تأتي الرّي فتقيم بها، فيصير ما بين خراسان والرّي لك، وهم جندك، ما يخالفك أحد ـ إلى أن نقل قول أبي مسلم ـ رأيت أنّ أوجّه أبا إسحاق إلى المنصور، فيأتيني برأيه فإنّه ممّن أثق به، فوجّهه، فلمّا قدم تلقّاه بنو هاشم بكلّ ما يحبّ، وقال له المنصور: اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان، وأجازه فرجع أبو اسحاق إلى أبي مسلم، فقال له: ما أنكرت شيئاً رأيتهم معظّمين لحقّك ـ إلى أن قال ـ فقال له: نيزك: قد أجمعت على الرّجوع؟ قال: نعم، وتمثّل:

ما للرّجال مع القضاء محالة ... ذهب القضاء بحيلة الأقوام[٢]

ويشهد له ما في (المروج): ذكر المدائني والعتبي وغيرهما أنّ مروان حين نزل على الزاب جرّد من رجاله من اختاره من سائر جيشه من أهل الشام والجزيرة وغيرهم مائة ألف فارس على مائة ألف قارح، فلمّا كان يوم الوقعة وأشرف عبد الله بن عليّ في المسوّدة، وفي أوائلهم البنود السّود يحملها الرّجال على الجمال البخت، وقد جعلت أقتابها من خشب الصفصاف والغرب، قال مروان لمن قرب منه: أما ترون رماحهم كأنّهم النّخل غلظاً، أما ترون إلى

(١) رواه ابن قتيبة في عيون الأخبار ١: ٢٦ والنقل بتصرف يسير.

(٢) تاريخ الطبري ٦: ١٣٢ سنة (١٣٧).

أعلامهم فوق هذه الإبل كأنّها قطع من الغمام سود، فبينا هو كذلك إذ طار من أفرجة هنالك قطعة من الغرابيب سود فاجتمعت على أوّل رايات عبد الله بن علي واتّصل سوادها بسواد تلك الرّايات والبنود، ومروان ينظر فتطيّر من ذلك، فقال: أما ترون السّواد قد اتّصل بالسواد، وكان الغرابيب كالسحب سواداً، ثمّ نظر إلى أصحابه المحاربين، وقد استشعروا الجزع والفزع والفشل فقال: إنّها لعدّة وما تنفع العدّة إذا انقضت المدّة[1].

وما في (تاريخ الطبري): كان مروان لما لقيه أهل خراسان لا يدبّر شيئاً إلّا كان فيه الخلل والفساد، كان يوم انهزم واقفاً والناس يقتتلون إذ أمر بالأموال فأُخرجت فقال للنّاس: اصبروا وقاتلوا فهذه الأموال لكم، فجعل ناس يصيبون من ذلك المال، فأرسلوا إليه أنّ الناس قد مالوا على هذا المال ولا نأمنهم أن يذهبوا به، فأرسل إلى ابنه عبد الله أن سر في أصحابك إلى مؤخر عسكرك، فاقتل من أخذ من ذلك المال وامنعهم، فمال عبد الله برايته وأصحابه فقال النّاس الهزيمة فانهزموا[2].

وفي (أذكياء ابن الجوزي) ـ باب في من احتال فانعكس عليه مقصوده ـ ونقل أُموراً، ومنها: عن عليّ بن المحسن عن أبيه قال: حدّثنا جماعة من أهل جند سابور ـ وفيهم كتّاب وتجّار وغير ذلك ـ أنّه كان عندهم في سنة نيف وأربعين وثلاثمائة شابّ من كتّاب النصارى وهو ابن أبي الطيب القلانسي، فخرج إلى بعض شأنه في الرّستاق، فأخذته الأكراد وعذّبوه وطالبوه أن يشتري نفسه منهم، وكتب إلى أهله انفذوا إليّ أربعة دراهم أفيون واعلموا أنّي أشربها فتلحقني سكتة، فلا تشكّ الأكراد أنّي متّ فيحملوني إليكم، فإذا

(١) مروج الذهب ٣: ٢٥٠.

(٢) تاريخ الطبري ٦: ٩٠ سنة (١٣٢).

حصلت عندكم فأدخلوني الحمام واضربوني ليحمى بدني وسوّكوني بالايارج، فإنّي أُفيق، وكان سمع أنّ من شرب أفيوناً أُسكت، فإذا أُدخل الحمّام وضرب وسوّك بالأيارج برأ، فلم يعلم مقداراً لشربه، فشرب أربعة دراهم، فلم يشكّ الأكراد في موته، فلفّوه في شيء وأنفذوه إلى أهله، فلمّا حصل عندهم أدخلوه الحمّام وضربوه وسوّكوه، فما تحرّك وأقام في الحمّام أيّاماً، ورآه أهل الطب فقالوا: قد تلف كم شرب؟ قالوا: أربعة دراهم. فقالوا: هذا الوشوى في جهنّم ما عاش. إنّما يجوز أن يفعل هذا بمن شرب أربعة دوانيق أو وزن درهم أو حواليه. فأمّا هذا فقد مات. فلم يقبل أهله ذلك، فتركوه في الحمّام حتّى أراح وتغيّر فدفنوه، وانعكست الحيلة عليه.

ومنها: روي أنّ بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعريّ كان في حبس الحجّاج وكان يعذّبه، وكان كلّ من مات في الحبس رفع خبره إلى الحجّاج، فيأمر بإخراجه وتسليمه إلى أهله. فقال بلال للسجّان: خذ منّي عشرة آلاف درهم وأخرج اسمي إلى الحجاج في الموتى، فإذا أمرك بتسليمي إلى أهلي هربت في الأرض، فلم يعرف الحجّاج خبري، وإن شئت أن تهرب معي فعلت وعليّ غناك أبداً. فأخذ السجّان المال ورفع اسمه في الموتى؛ فقال الحجّاج مثل هذا لا يجوز أن يخرج إلى أهله حتّى أراه، هاته. فعاد إلى بلال، فقال: اعهد. قال: وما الخبر؟ قال: إنّ الحجاج قال كيت وكيت، فإن لم أحضرك إليه ميتاً قتلني وعلم أنّي أردت الحيلة عليه، ولابدّ أن أقتلك خنقاً، فبكى بلال وسأله أن لا يفعل، فلم يكن إلى ذلك طريق، فأوصى، فأخذه السجّان وخنقه وأخرجه الى الحجاج، فلمّا رآه ميتاً قال: سلّمه إلى أهله، فأخذوه، وقد اشترى القتل لنفسه بعشرة آلاف درهم وجعلت الحيلة عليه(١).

---

(١) رواه ابن الجوزي في الأذكياء: ١١٠ والنقل بتصرف يسير.

ثم معلوم بعد جمعنا بين العنوانين أنّ قول المصنّف في الثاني «وقد مضى هذا المعنى» إشارة الى ذكره في الأوّل باختلاف في بعض ألفاظه.

٤٢
الحكمة (٧)

وقال عليه السلام:

اعْجَبُوا لِهذَا الإنْسانِ يَنْظُرُ بِشَحمٍ، وَيَتَكَلَّمُ بِلَحْمٍ، وَيَسْمَعُ بِعَظْمٍ، وَيَتَنَفَّسُ في خُرْمٍ.

أقول: وكذا يجب أن يتعجّب من محالّها، ومن طعوم فيها:

أمّا الأوّل؛ ففي (توحيد المفضل): انظر الآن يا مفضّل إلى هذه الحواسّ التي خصّ بها الإنسان في خلقه، وشرّف بها على غيره، كيف جعلت العينان في الرّأس كالمصابيح فوق المنارة، ليتمكّن من مطالعة الأشياء، ولم تجعل في الأعضاء التي تحتهنّ كاليدين والرّجلين فتعترضها الآفات ويصيبها من مباشرة العمل والحركة ما يعلّلها ويؤثّر فيها وينقص منها، ولا في الأعضاء التي وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر تقلّبها واطلاعها نحو الأشياء، فلمّا لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرّأس أسنى المواضع للحواسّ، وهو بمنزلة الصومعة لها، فجعل الحواسّ خمساً تلقى خمساً، لكيلا يفوتها شيء من المحسوسات، فخلق البصر ليدرك الألوان، فلو كانت الألون ولم يكن بصر يدركها لم تكن فيها منفعة، وخلق السمع ليدرك الأصوات، فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن فيها إرب، وكذلك سائر الحواسّ[1].

وأمّا الثاني فروى أبو نعيم في (حليته) عن عمرو بن جميع قال: دخلت

(١) توحيد المفضل: ٥٨.

على جعفر بن محمد أنا وابن أبي ليلى وأبو حنيفة. فقال لابن أبي ليلى: من هذا معك؟

قال: هذا رجل له بصر ونفاذ في أمر الدين. قال: لعلّه يقيس الدّين برأيه.

قال: نعم. فقال جعفر لأبي حنيفة: ما اسمك؟ قال: نعمان. قال: يا نعمان! هل قست رأسك بعد؟ قال: كيف أقيس رأسي؟ قال: ما أراك تحسن شيئاً؛ هل علمت ما الملوحة في العينين، والمرارة في الأُذنين، والحرارة في المنخرين، والعذوبة في الشفتين؟ قال: لا. قال: ما أراك تحسن شيئاً؛ قال: فهل علمت كلمة أوّلها كفر وآخرها إيمان؟ فقال ابن أبي ليلى: يابن رسول الله! أخبرنا بهذه الأشياء التي سألته عنها.

فقال: أخبرني أبي عن جدّي أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ الله تعالى بمنّه وفضله جعل لابن آدم الملوحة في العينين لأنّهما شحمتان، ولولا ذلك لذابتا، وإنّ الله تعالى بمنّه وفضله ورحمته على ابن آدم جعل المرارة في الأُذنين حجاباً من الدّواب، فإن دخلت الرأس دابّة والتمست إلى الدّماغ فإذا ذاقت المرارة التمست الخروج، وإنّ الله تعالى بمنّه وفضله ورحمته على ابن آدم جعل الحرارة في المنخرين يستنشق بهما الرّيح، ولولا ذلك لأنتن الدّماغ، وإنّ الله تعالى بمنّه وكرمه ورحمته لابن آدم جعل العذوبة في الشفتين يجد بها استطعام كلّ شيء[١].

«اعجبوا لهذا الانسان» قال ابن ميثم: نبّه عليه السلام على لطف خلق الإنسان ببعض أسرار حكمة الله تعالى فيه وغايته من ذلك الاستدلال على حكمة صانعه ومبدعه، وذكر أربعة من محالّ النظر والاعتبار، وهي: آلة البصر

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣: ١٩٦، ورواه ابن شهر آشوب في المناقب ٤: ٢٥٢، والطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٥٨.

والكلام والسّمع والتنفّس، وخصّها بالذكر لكونها مع ضعفها ضرورية في وجود الإنسان على شرفه وعلوّ رتبته في المخلوقات، ولا يقوم إلّا بها ليكون ذلك محلّ التعجّب واعتبار لطف الصانع الحكيم(١).

«ينظر بشحم» قال ابن ميثم: أراد بالشّحم الذي ينظر به الرّطوبة المسمّاة في عرف الأطباء بالبيضة أو الرطوبة الجليدية، فإنّ العين مركبة من سبع طبقات وثلاث رطوبات، كلّ منها يختصّ في عرفهم باسم(٢).

وقال ابن أبي الحديد: قيل: أمّا الإبصار فقد اختلف فيه، فقيل: إنّه بخروج شعاع من العين يتّصل بالمرئي، وقيل: إنّ القوّة المبصرة التي في العين تلاقي بذاتها المرئيات فتبصرها، وقال قوم: بل يتكيّف الهواء بالشعاع البصري من غير خروج، فيصير الهواء باعتبار تكيّفه بالشعاع به آلة للعين في الإدراك، وقال المحققون من الحكماء: إنّ الإدراك البصري هو بانطباع أشباح المرئيات في الرطوبة الجليديّة من العين عند توسط الهواء الشّفاف المضيء كما تنطبع الصورة في المرآة(٣).

قلت: ويصدّق الأخير أخبارهم عليهم السلام، فورد أن الديصاني قال لهشام بن الحكم: أيقدر ربّك ـ إذا كان قادراً ـ أن يدخل الدّنيا كُلّها في البيضة، لا يكبّر البيضة ولا يصغّر الدّنيا؟ فراجع هشام في ذلك الصادق عليه السلام، فقال عليه السلام له: كم حواسّك؟ قال: خمس. قال: أيّها أصغر؟ قال: الناظر. قال: وكم قدر النّاظر؟ قال: مثل العدسة أو أقلّ. فقال له: انظر أمامك وفوقك وأخبرني بما ترى. فقال: أرى سماءً وأرضاً ودوراً وقصوراً وجبالاً وأنهاراً. فقال عليه السلام: إنّ الّذي قدر أن

(١) شرح ابن ميثم ٥: ٢٤٢.

(٢) شرح ابن ميثم ٥: ٢٤٣.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٢٤٤.

يدخل الّذي تراه العدس أو أقلّ قادر على أن يدخل الدّنيا كلّها في البيضة، لا يصغّر الدّنيا ولا يكبّر البيضة(١).

«ويتكلّم بلحم» قال ابن ميثم: وعنىعليه‌السلام باللّحم اللّسان، فإنّه لحم أبيض رخو تلتفّ به عروق صغار كثيرة فيها دم، ولذلك يتبيّن أحمر وتحته عروق وشريانات وأعصاب كثيرة، وتحته فوهتان يسيل منهما اللّعاب ينتهيان إلى لحم غددي رخو موضوع في أصله يسمى مولّد اللّعاب، وبهاتين الفوهتين يبقى للّسان وما حوله النّداوة الطبيعيّة(٢).

قلت: وفي (توحيد المفضل): أطل الفكر يا مفضّل في الصّوت والكلام وتهيئة آلاته في الإنسان؛ فالحنجرة كالأُنبوبة لخروج الصوت، واللّسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنّغم؛ ألا ترى أنّ من سقطت أسنانه لم يقم السّين، ومن سقطت شفته لم يصحّح الفاء، ومن ثقل لسانه لم يفصح الرّاء، وأشبه شيء بذلك المزمار الأعظم؛ فالحنجرة تشبه قصبة المزمار، والرّئة تشبه الزّق الذي ينفخ فيه لتدخل الرّيح، والعضلات التي تقبض على الرّئة ليخرج الصوت كالأصابع التي تقبض على الزّق حتّى تجري الريح في المزامير، والشّفتان والأسنان التي تصوغ الصوت حروفاً ونغماً كالأصابع التي تختلف في فم المزمار، فتصوغ صفيره ألحاناً، غير أنّه وإن كان مخرج الصوت يشبه المزمار بالآلة والتعريف، فإنّ الزمار في الحقيقة هو المشبه بمخرج الصوت ـ إلى أن قال ـ تأمّل يا مفضّل ما أنعم الله به على الإنسان من هذا المنطق الذي يعبّر به عمّا في ضميره وما يخطر بقلبه وينتجه فكره، وبه

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٧٩ ح ٤، والصدوق في التوحيد: ١٢٢ ح ١، وحديث البيضة جاء بألفاظ أُخرى عن عيسى وعلي والرضاعليهم‌السلام، مرّ تخريجه في العنوان (٥) من هذا الفصل.

(٢) شرح ابن ميثم ٥: ٢٤٣.

يفهم عن غيره ما في نفسه، ولولا ذلك كان بمنزلة البهائم المهملة التي لا تخبر عن نفسها بشيء، ولا تفهم عن مخبر شيئاً[١].

قلت: ولكون نعمة اللّسان بتلك المثابة في تمييز الإنسان من الحيوان، قال الرّحمن ـ جلّ وعلا ـ في مقام الامتنان: ﴿خلق الإنسان * علّمه البيان﴾[٢].

«ويسمع بعظم» قال ابن ميثم: وأراد بالعظم الذي يسمع به العظم المسمّى الحجريّ، وهو عظم صلب فيه مجرى الأُذن، كثير التعاريج والعطفات، يمرّ كذلك إلى أن يلقى العصبة النّابتة من الدّماغ، التي هي مجرى الروح الحامل للقوّة السامعة...[٣].

قلت: وفي (توحيد المفضل): وكذلك من عُدِمَ السّمع يختلّ في أمور كثيرة، فإنّه يفقد روح المخاطبة والمحاورة، ويعدم لذّة الأصوات واللّحون المشجية المطربة، وتعظم المؤونة على النّاس في محاورته حتّى يتبرّموا به، ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم حتّى يكون كالغائب وهو شاهد، وكالميّت وهو حيّ[٤].

وفي أذكار السّجدتين «سَجَد وجهي للّذي خلقه وشقّ سمعه وبصره»[٥].

«ويتنفّس في خُرم» بالضّمّ، وهو ثقب الأنف؛ قال ابن ميثم: وفي هذه وأمثالها من بدن الإنسان وسائر الحيوان عبرة لمن اعتبر، وكمال شهادة

---

(١) توحيد المفضل: ٦٢، ٧٩.

(٢) الرحمن: ٣ ـ ٤.

(٣) شرح ابن ميثم ٥: ٢٤٣.

(٤) توحيد المفضل: ٦٠.

(٥) هذا الذكر أخرجه الكليني في الكافي ٣: ٣٢١ ح١، والطوسي في التهذيب ٢: ٧٩ ح٦٣، ورواه القاضي النعمان في دعائم الاسلام ١: ١٦٤ عن الصادق عليه السلام.

بوجود الصانع الحكيم لها؛ ومن نظر في تشريح بدن الإنسان حضرته شواهد من الحكم الإلهية يحار فيها لبّه ويدهش فيها عقله. وقرأ الصادق عليه السلام قوله تعالى: ﴿...وخلق الإنسان ضعيفاً﴾[1] ثمّ قال: كيف لا يكون ضعيفاً وهو ينظر بشحم، ويسمع بعظم، وينطق بلحم[2].

٤٣
الحكمة (٣٠٢)

وقال عليه السلام:

ما المُبْتَلى الَّذي قَدِ اشْتَدَّ بِهِ البَلاءُ بِأحْوَجَ إلَى الدُّعاءِ مِنَ المُعافى الَّذي لا يَأمَنُ البَلاءَ.

أقول: هو أيضاً إحدى آياته تعالى؛ روى (الكافي) عن سيف بن ليث قال: خلّفت ابناً لي عليلاً بمصر عند خروجي منها، وابناً لي آخر أسنّ منه كان وصيّي وقيّمي على عيالي، وفي ضياعي، فكتبت إلى أبي محمّد عليه السلام أسأله الدّعاء لابني العليل. فكتب عليه السلام إليّ: قد عوفي ابنك المعتلّ، ومات الكبير وصيّك وقيّمك، فاحمد الله ولا تجزع فيحبط أجرك، فورد عليّ الخبر أنّ ابني قد عوفي من علته ومات الكبير يوم ورد جواب أبي محمّد عليه السلام[3].

وروى (العيون) عن محمّد بن داود قال: كنت أنا وأخي عند الرّضا عليه السلام فأتاه من أخبره أنّه قد ربط ذقن محمد بن جعفر، فمضى أبو الحسن عليه السلام ومضينا معه وإذا لحياه قد ربطا، وإذا إسحاق بن جعفر وولده وجماعة آل

---

(١) النساء: ٢٨.

(٢) شرح ابن ميثم ٥: ٢٤٣.

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ١: ٥١١ ح١٨، ورواه ابن شهر آشوب في المناقب ٤: ٤٣٣، والإربلي في كشف الغمة ٣: ٢١٤ عن سيف بن الليث، وروى معناه الإربلي في كشف الغمة ٣: ٢١٢، والراوندي في الخرائج عنه بحار الأنوار ٥٠: ٢٦٩ ح٣١، و: ٢٧٤ ح٤٤ كلاهما عن علي بن يزيد وحجاج بن يوسف العبدي.

أبي طالب يبكون، فجلس أبو الحسن عليه السلام عند رأسه ونظر في وجهه فتبسّم، فنقم من كان في المجلس عليه، فقال بعضهم: إنّما تبسّم شامتاً بعمّه. قال: وخرج ليصلّي في المسجد، فقلنا له: قد سمعنا فيك من هؤلاء ما نكْره حين تبسّمت. فقال أبو الحسن عليه السلام إنّما تعجبت من بكاء إسحاق وهو يموت ـ والله ـ قبله ويبكيه محمّد. قال: فبرئ محمّد ومات إسحاق(١).

وقال الشاعر:

كم مريض عاش من بعد يأس ... بعد موت الطبيب والعوّاد
قد يُصاد القطا فينجو سليماً ... ويحلّ القضاء بالصيّاد

وقال أيضاً:

أكان الجبان يرى أنّه ... يدافع عند الفرار الأجل
فقد يدرك الحادثات الجبان ... ويسلم منها الشجاع البطل

٤٤
من الخطبة (١٩٧)

بعد ذكر الصّلاة والزكاة وأداء الأمانة:

إِنَّ ٱللّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا ٱلْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ. لَطُفَ بِهِ خُبْراً، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْماً. أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ.

«إنّ الله سبحانه وتعالى» هكذا في (المصرية)، وكلمة (وتعالى) زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)(٢).

---

(١) أخرجه الصدوق في العيون ٢: ٢٠٦ ح٦، وأخرج في معناه هو في العيون ٢: ٢٠٦ ح٧ برواية أُخرى، والطبري في دلائل الإمامة: ١٧١، ورواه ابن شهر آشوب في المناقب ٤: ٢٤٠، ونقله عن دلائل الامامة ابن طاووس في فرج المهموم: ٢٣١.

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥٤٩، وفي شرح ابن ميثم ٣: ٤٦٢ «سبحانه وتعالى» أيضاً.

«لا يخفى عليه ما العباد مقترفون» أي: مكتسبون للذّنب ﴿...يعلم ما تكسب كلّ نفس...﴾[١].

«في ليلهم ونهارهم» ﴿سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ باللّيل وساربٌ بالنهار﴾[٢].

«لطُف به خُبْراً» ﴿يا بنيَّ إنّها إن تكُ مثقال حبّة من خردل فتكنْ في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأتِ بها الله إنّ الله لطيف خبير﴾[٣].

«وأحاط به علماً» ﴿... وقد أحطنا بما لديه خُبْراً﴾[٤].

«أعضاؤكم شهوده» استشهد له بقوله تعالى: ﴿ويوم يُحشر أعداءُ الله إلى النّار فهم يوزعون* حتّى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون* وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء وهو خلقكم أول مرّة وإليه ترجعون* وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أنّ الله لا يعلم كثيراً ممّا تعملون﴾[٥].

وبما في (تفسير القمّيّ) في قوله تعالى: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾[٦] قال: إذا جمع الله تعالى الخلق يوم القيامة دفع إلى كلّ إنسان كتابه فينظرون فيه، فينكرون أنّهم عملوا من ذلك شيئاً، فتشهد عليهم الملائكة فيقولون: يا ربّ ملائكتك يشهدون لك ثمّ

(١) الرعد: ٤٢.

(٢) الرعد: ١٠.

(٣) لقمان: ١٦.

(٤) الكهف: ٩١.

(٥) فصلت: ١٩ ـ ٢٢.

(٦) يس: ٦٥.

يحلفون أنّهم لم يعملوا من ذلك شيئاً، وهو قوله تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم...﴾[١] فإذا فعلوا ذلك ختم الله على ألسنتهم وتنطق جوارحهم بما كانوا يكسبون[٢].

«وجوارحكم جنوده» فإذا كانت جوارح النّاس شهوده يصحّ أن يقال: إنّها أيضاً جنوده ﴿...ولله جنود السماوات والأرض...﴾[٣].

«وضمائركم عيونه» أي: جواسيسه ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾[٤].

«وخلواتكم عيانه» ﴿ألا إنّهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرّون وما يعلنون إنّه عليم بذات الصدور﴾[٥].

٤٥
الحكمة (٢٧٣)

وقال عليه السلام:

اعْلَمُوا عِلْماً يَقِيناً أَنَّ اَللّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَبْدِ وَإِنْ عَظُمَتْ حِيلَتُهُ، وَاَشْتَدَّتْ طَلِبَتُهُ، وَقَوِيَتْ مَكِيدَتُهُ، أَكْثَرَ مِمّا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الحَكِيمِ، وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَ الْعَبْدِ في ضَعْفِهِ وَقِلَّةِ حِيلَتِهِ وَبَيْنَ أنْ يَبْلُغَ ما سُمِّيَ لَهُ في الذِّكْرِ الحَكِيمِ، وَاَلْعَارِفُ لهذَا، الْعَامِلُ بِهِ أَعْظَمُ اَلنَّاسِ رَاحَةً فِي مَنْفَعَةٍ، وَاَلتَّارِكُ لَهُ اَلشَّاكُّ فِيهِ أَعْظَمُ النَّاسِ شُغْلاً في مَضَرَّةٍ؛ ورُبَّ مُنْعَمٍ عَلَيهِ مُسْتَدْرَجٌ بالنُّعْمَى، ورُبَّ مُبْتَلىً مَصْنُوعٌ لهُ بالْبَلْوَى. فَزِدْ أَيُّها الْمُسْتَمِعُ

---

(١) المجادلة: ١٨.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم القمي ٢: ٢١٦.

(٣) الفتح: ٤.

(٤) غافر: ١٩.

(٥) هود: ٥.

فِي شُكْرِك، وقَصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَى رِزْقِكَ.

أقول: ورواه ابن شعبة الحرّانيّ في (تحف عقوله)، وزاد بعد قوله: «ما سمّي له في الذكر الحكيم»: «إنّه لن يزداد امرؤٌ نقيراً بحذقه، ولن ينتقص نقيراً بحمقه»، وبدّل قوله: «فزد أيّها المستمع في شكرك» بقوله: «فأفق أيّها المستمتع من سكرك»[١].

ورواه (الكافي) في باب الإجمال في الطلب مع زيادات واختلافات يسيرة[٢]، وكيف كان فهو أيضاً من آياته تعالى، وإنّ الأمر ليس بيد الخلائق، وإنّه لا يقع إلّا ما أراد الخالق.

«اعلموا علماً يقيناً» لا يختلجكم فيه شك.

«أنّ الله لم يجعل للعبد وإن عظمت حيلته» وتدابيره.

«واشتدّت طلبته» وسعيه.

«وقويت مكيدته» وفطانته.

«أكثر» مفعول لقوله: «لم يجعل».

«ممّا سمّي» وعيّن.

«له في الذكر الحكيم» وهو لفظ القرآن؛ قال تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذّكر الحكيم﴾[٣].

والظاهر أنّ المراد به في كلامه عليه السلام اللّوح المحفوظ الّذي فيه مقدرات الخلق، وكيف كان نرى ما قاله عليه السلام بالمشاهدة والعيان، فكثير من الناس ممّن لهم فطانة زائدة يدبّرون تدبيرات لزيادة أرزاقهم ولا يتيسر لهم إلّا ما قدّر الله

---

(١) تحف العقول: ١٥٥، ولفظه: «ما كتب له في الذكر الحكيم أيّها الناس انّه لن يزداد امرؤ نقيراً بحذقه ولن ينتقص نقيراً بحمقه».

(٢) الكافي للكليني ٥: ٨١ ح ٩.

(٣) آل عمران: ٥٨.

تعالى لهم.

وروى (الكافي) عن الباقر عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع: **ألا إنّ الرّوح الأمين نفث في روعي أنّه لا تموت نفس حتّى تستكمل رزقها. فاتّقوا الله عزّوجلّ وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله، فإنّ الله تعالى قسّم الأرزاق بين خلقه حلالاً، ولم يقسّمها حراماً؛ فمن اتّقى الله تعالى وصبر أتاه الله برزقه من حلّه، ومن هتك حجاب السّتر وعجّل فأخذه من غير حلّه، قصّ به من رزقه الحلال، وحوسب عليه يوم القيامة**(١).

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: **كم من متعب نفسه مقترّ عليه، ومقتصد في الطلب قد ساعدته المقادير**(٢).

وروي عن الثمالي قال: ذُكر عند عليّ بن الحسين عليه السلام غلاء السّعر. فقال: **وما عليّ من غلائه؛ إن غلا فهو عليه، وإن رخص فهو عليه**(٣).

وعن الصادق عليه السلام: **لو كان العبد في حجر لأتاه الله برزقه، فأجملوا في الطّلب**(٤).

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ٥: ٨٠ ح١، وبفرق يسير علاء بن رزين في أصله: ١٥٣، وعاصم بن حميد في أصله: ٢٣، والاسكافي في التمحيص: ٥٢ ح١٠٠، والكليني بثلاث روايات في الكافي ٢: ٧٤ ح٢، و٥: ٨٠ ح٣، و٥: ٨٣ ح١١، والصدوق في أماليه: ٢٤١ ح١ المجلس ٤٩، والمفيد في المقنعة: ٩٠، والطوسي في التهذيب ٦: ٣٢١ ح١، ورواه أبو القاسم الكوفي في الأخلاق عنه المستدرك ٢: ٤١٨، الباب ١٠ ح١٣، والديلمي في أعلام الدين عنه المستدرك ٢: ٤١٨ الباب ١٠ ح١٠.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٥: ٨١ ح٦، والاسكافي في التمحيص: ٥٢ ح١٠١، والصدوق في الفقيه ٤: ٢٧٦ ضمن وصيته عليه السلام لابن الحنفية.

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ٥: ٨١ ح٧، والصدوق في الفقيه ٣: ١٧٠ ح١٣، والتوحيد: ٢٨٨ ح٣٤، والطوسي في التهذيب ٦: ٣٢١ ح٢.

(٤) أخرجه الكليني في الكافي ٥: ٨١ ح٤، والاسكافي في التمحيص: ٥٣ ح١٠٣.

«ولم يحل» تعالى.

«بين العبد في ضعفه» في بدنه.

«وقلّة حيلته» في أُموره.

«وبين أن يبلغ ما سمّي له في الذكر الحكيم» من الرزق، بل الغالب كون رزقهم أكثر؛ قال الصادق عليه السلام: إنّ الله تعالى وسّع في أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء، ويعلموا أنّ الدّنيا ليس ينال ما فيها بعمل ولا حيلة[1].

«والعارف لهذا» أي: العارف بأنّه لا ينال إلّا ما قُدّر له.

«العامل به» على طبق علمه.

«أعظم النّاس راحة في منفعة» حيث إنّه يعلم أن ما قدّر له يأتيه بلا تعب؛ قال الصادق عليه السلام: إذا فتحت بابك، وبسطت بساطك، فقد قضيت ما عليك[2].

«والتّارك له الشاكّ فيه» بظنّه أنّ الرّزق بجدّه وجهده.

«أعظم النّاس شغلاً في مضرّة» حيث إنّه يكدّ ليله ونهاره ويسلب راحته، ولا يحصل له إلّا ما قُدّر له.

«وربّ منعم عليه مستدرج» أي: مأخوذ تدريجاً؛ والأصل فيه قوله تعالى: ﴿والّذين كذّبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾[3].

«بالنّعمى» فكانت سبب غرّته، فلو لم يكن منعماً عليه كان له أولى؛ قال تعالى: ﴿أيحسبون أنّما نمدّهم به من مال وبنين* نسارع لهم في الخيرات بل

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ٥: ٨٢ح ١٠، والاسكافي في التمحيص: ٥٣ح ١٠٢، والصدوق في علل الشرائع ١: ٩٢ح ١، والطوسي في التهذيب ٦: ٣٢٢ح ٥، ورواه الورّام في تنبيه الخواطر ١: ١٤ عن الصادق عليه السلام.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٥: ٧٩ح ١، والصدوق في الفقيه ٣: ١٠٠ح ٤٢، والطوسي في التهذيب ٦: ٣٢٣ح ٧، وأخرج معناه أيضاً الصدوق في الفقيه ٣: ١٠٠ح ٤١، كلّهم عن الصادق عليه السلام.

(٣) الأعراف: ١٨٢.

لا يشعرون﴾[١].

«وربّ مبتلى مصنوع له» من الله تعالى.

«بالبلوى» أي: بالابتلاء؛ روى (التوحيد) عن النبي صلى الله عليه وآله قال: قال تعالى: «إنّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك»[٢].

«فزد أيّها المستمع وقف عند منتهى رزقك» ولا تطمع في الزيادة عليه سفاهة، وقد عرفت ما بدّل (التّحف) الجملة[٣].

ورواها (الكافي): «فاتّق الله أيّها الساعي من سعيك، وقصّر من عجلتك، وانتبه من سنة غفلتك، وتفكّر في ما جاء عن الله تعالى على لسان نبيّه صلى الله عليه وآله»[٤].

٤٦
الحكمة (٨٤)

ومن خطبة له عليه السلام:

قَدْ عَلِمَ السَّرائِرَ، وَخَبَرَ الضَّمائِرَ؛ لَهُ الإحاطَةُ بِكُلِّ شَيءٍ، وَالغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيءٍ، وَالقُوَّةُ عَلى كَلِّ شَيءٍ.

«قد علم السّرائر» ﴿...والله يعلم إسرارهم﴾[٥]، ﴿ألم يعلموا أنّ الله يعلم سرّهم ونجواهم...﴾[٦].

---

(١) المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٤٠٠ ح١، وعلل الشرائع ١: ١٢ ح٧، وأخرج في معناه الكليني في الكافي ٢: ٩٠ ح٤.

(٣) مرّ في بدء هذا العنوان من تحف العقول: ١٥٦.

(٤) الكافي للكليني ٥: ٨٢ ح٩، وفي بعض نسخ الكافي «فأفق أيّها الساعي».

(٥) محمد: ٢٦.

(٦) التوبة: ٧٨.

«وخَبَرَ» بالفتح: أي علم.

«الضّمائر» ﴿...فإنّه يعلم السرّ وأخفى﴾(١) ﴿... وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول...﴾(٢).

«له الإحاطة بكلّ شيء» ﴿ولله ما في السّماوات وما في الأرض وكان الله بكلّ شيء محيطاً﴾(٣).

«والغلبة لكلّ شيء» ﴿...والله غالب على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾(٤).

أراد نمرود وفرعون منع تولّد إبراهيم وموسى عليهما السلام، وأراد إخوة يوسف دفعه عمّا قدّر له من الرّفعة(٥)، فصاروا مغلوبين في قبال أمره تعالى.

«والقوّة على كلّ شيء» ﴿...ولو يرى الّذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوّة لله جميعاً...﴾(٦).

---

(١) طه: ٧.

(٢) النساء: ١٠٨.

(٣) النساء: ١٢٦.

(٤) يوسف: ٢١.

(٥) منع تولّد إبراهيم لم يجئ في القرآن، لكن أخرجه علي بن إبراهيم في تفسيره ١: ٢٠٧ والكليني في الكافي ٨: ٣٦٦ ح٥٥٨، والصدوق في كمال الدّين ١: ١٣٨ ح٧، ورواه الراوندي في قصص الأنبياء عنه البحار ١٢: ٤٢ ح٣١ مسنداً عن الصادق عليه السلام، وأخرجه المسعودي في إثبات الوصيّة: ٢٩ مرسلاً عن العالم عليه السلام، ورواه موقوفاً أو بلا اسناد الطبري في التاريخ ١: ١٦٣ ـ ١٦٥، والمسعودي في مروج الذهب ١: ٥٦، والثعلبي في العرائس: ٧٣ ـ ٧٤، والطبرسي في مجمع البيان ٤: ٣٢٥، وأما قصة منع تولّد موسى عليه السلام فجاءت في القرآن، طه: ٣٨ ـ ٤٠، والقصص: ٤ ـ ٩، وأمّا قصة أخوة يوسف عليه السلام فجاءت مفصّلة في القرآن في سورة يوسف.

(٦) البقرة: ١٦٥.

٤٧
من الخطبة (٩٩)

ومن خطبة له عليه السلام أخرى:

الْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَالآخِرِ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ، بِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ، وَبِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا آخِرَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا ٱللَّهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ ٱلْإِعْلَانَ، وَٱلْقَلْبُ اللِّسَانَ.

قول المصنّف: «ومن خطبة له عليه السلام أخرى» هكذا في (المصرية)، ولا معنى لكلمة (أُخرى)، فإنّ كلّ خطبة من الكتاب غير سابقتها، وفيها نقص. ففي (ابن أبي الحديد)[١]: «ومن خطبة له عليه السلام، وهي من الخطب التي تشتمل على ذكر الملاحم» وكذا (ابن ميثم)[٢] بدون قوله: «وهي من الخطب الّتي» ومثل (ابن ميثم): (الخطية)، لكن فيها «الملحمة» بدل (الملاحم).

قوله عليه السلام: «الأوّل قبل كلّ أوّل، والآخر بعد كلّ آخر» روى (توحيد الصدوق) أنّ الصادق عليه السلام سُئل عن قوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر﴾، فقال: الأوّل لا عن أوّل كان قبله، ولا عن بدء سبقه، والآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين، ولكن قديم أوّل آخر لم يزل ولا يزال، بلا بدء ولا نهاية، لا يقع عليه الحدوث، ولا يحول من حال إلى حال، خالق كلّ شيء[٣].

«بأوّليّته وجب أن لا أوّل له» أي: بأوّليته قبل جميع الأشياء وجب أن لا يكون له أوّل، فيكون شيء قبله.

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٩٢.

(٢) شرح ابن ميثم ٣: ٩.

(٣) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٣١٣ ح١، ومعاني الأخبار: ١٢ ح١، والكليني في الكافي ١: ١١٦ ح٦ عن ميمون اللّبان عن الصادق عليه السلام، وقد مرّ في العنوان (٥، ١٩) من هذا الفصل.

«وبآخريّته أن لا آخر له» هكذا في (المصرية)، والصواب ما في (ابن أبي الحديد)[١]: (وبآخريته وجب أن لا آخر له).

وفي (توحيد الصدوق) أيضاً عن ابن أبي يعفور: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿هو الأوّل والآخر﴾، وقلت: أمّا الأوّل فقد عرفناه، وأمّا الآخر فبيّن لنا تفسيره. فقال: إنّه ليس شيء إلّا يبيد أو يتغيّر أو يدخله الغير والزّوال أو ينتقل من لون إلى لون، ومن هيئة إلى هيئة، ومن صفة إلى صفة، ومن زيادة إلى نقصان، ومن نقصان إلى زيادة، إلّا ربّ العالمين؛ فإنّه لم يزل ولا يزال واحداً؛ هو الأوّل قبل كلّ شيء، وهو الآخر على ما لم يزل؛ لا تختلف عليه الصفات والأسماء ما يختلف على غيره، مثل الإنسان الّذي يكون تراباً ومرّة لحماً ومرّة دماً، ومرّة رفاتاً ورميماً؛ وكالتّمر الّذي يكون مرّة بلحاً، ومرّة بسراً، ومرّة رطباً، ومرّة تمراً، فيتبدّل عليه الأسماء والصفات، والله عزّوجلّ بخلاف ذلك[٢].

«وأشهد أن لا إله إلّا الله شهادةً يوافق فيها السّر الإعلانَ» لا كشهادة اليهود ﴿وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون﴾[٣].

«والقلبُ اللّسانَ» لا كشهادة المنافقين ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنّك لرسول الله والله يعلم إنّك لرسوله والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾[٤]، ﴿...يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم...﴾[٥].

---

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٩٢، ولفظ شرح ابن ميثم ٣: ٩ نحو الطبعة المصرية.

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٣١٤ ح ٢، والكليني في الكافي ١: ١١٥ ح ٥، وقد مرّ في العنوان (١) من هذا الفصل.

(٣) البقرة: ١٤.

(٤) المنافقون: ١.

(٥) الفتح: ١١.

٤٨
من الخطبة (١٨١)

فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً، وَآيَةً مُحْكَمَةً، تَزْجُرُ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ، فَرِضَاهُ فِيما بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَخَطُهُ فِيما بَقِيَ وَاحِدٌ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ: قَدْ كَفَاكُمْ مؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ، وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ. فَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ، إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ، قَدْ وَكَّلَ بكم حَفَظَةً كِرَاماً، لَا يُسْقِطُونَ حَقّاً، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلاً.

«فعظّموا منه سبحانه ما عظّم من نفسه» ﴿قل اللّهم مالك المُلك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير* تولج اللّيل في النّهار وتولج النهار في اللّيل وتخرج الحيّ من الميّت وتخرج الميّت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب﴾[١]، ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثَمّ وجه الله...﴾[٢]، ﴿الله الّذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء

(١) آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) البقرة: ١١٥.

قدير وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً﴾[١]، ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مددا﴾[٢]، ﴿وما قدروا الله حقّ قدره والأرض جميعاً قبضتهُ يوم القيامة والسماوات مطويّاتٌ بيمينه...﴾[٣]، ﴿...إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد* وما ذلك على الله بعزيز﴾[٤].

«فإنّه لم يخفِ» من أخفى.

«عنكم شيئاً من دينه» فقد قال تعالى في كتابه: ﴿...اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً...﴾[٥]، والمراد الإكمال بالكتاب والعترة معاً، فقد قال النبيّ ﷺ في المتواتر عنه: إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، وانّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض[٦].

«ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه إلّا وجعل له» أي: لما رضيه أو كرهه.

«علماً» أي: علامة.

«بادياً» أي: ظاهراً، أي من سنّته.

---

(١) الطلاق: ١٢.

(٢) الكهف: ١٠٩.

(٣) الزمر: ٦٧.

(٤) إبراهيم: ١٩ ـ ٢٠.

(٥) المائدة: ٣.

(٦) اسناد هذا الحديث يزيد على المئات عن طريق أهل السنة والامامية والزيدية. أقتصر على ما أخرجه وصحّحه مسلم في صحيحه ٤: ١٨٧٣ و ١٨٧٤ ح٣٦، ٣٧ بأربع طرق، والحاكم في مستدرك الصحيحين عنه إحياء الميت: ١١ ح٦ عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ، وأخرجه صاحب صحيفة الرضا عليه السلام فيه: ٥٩ ح٨٣، وصاحب مسند زيد بن علي فيه: ٤٠٤، والقاضي الصعدي في درر الأحاديث: ٥٢ عن الرضا عليه السلام، وزيد بن علي، والهادي إلى الحق عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ، وجمع بعض طرقه الصدوق في كمال الدين ١: ٢٣٤ ـ ٢٤١، والسيوطي في إحياء الميت: ١١ ـ ٤٨.

«وآية» بمعنى أو آية.

«محكمة» غير متشابهة من كتابه.

«تزجر عنه» أي: عن ذاك الشّيء الّذي كرهه.

«أو تدعو إليه» أي: إلى ذاك الشيء الّذي رضيه؛ وقد قال النبيﷺ في حجّة وداعه: «يا أيّها الناس والله ما من شيء يقرّبكم من الجنّة ويباعدكم من النار إلّا وقد أمرتكم به، وما من شيء يقرّبكم من النّار ويباعدكم من الجنّة إلّا وقد نهيتكم عنه»[١].

«فرضاه في ما بقي» من الزّمان أو من النّاس.

«واحد» فالنّاس عنده سواء.

«وسخطه في ما بقي واحد» لكون حلاله وحرامه على حالهما إلى الأبد.

«واعلموا أنّه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم» من الأُمم الماضية أو ممّن كان في عصر الرّسولﷺ.

«ولن يسخط» أي: لن يغضب.

«عليكم بشيء رضيه ممّن كان قبلكم» لكون حكم الجميع واحداً.

«وإنّما تسيرون في أثر بيّن» من الدّين ﴿...قد تبيّن الرّشد من الغيّ...﴾[٢].

«وتتكلّمون برجع قول قد قاله الرّجال من قبلكم» قال ابن أبي الحديد: يعني كلمة التوحيد (لا إله إلّا الله) قد قالها الموحّدون من قبل هذه الملّة لا تقليداً، بل بالنّظر والدّليل، فقولوها أنتم كذلك[٣].

قلت: لم أفهم كيفية دلالة (رجع القول) على ما قال، وإنّما المستفاد من

---

(١) هذا صدر خطبة الكليني رواها في الكافي ٢: ٧٤ ح ٢، وعاصم بن حميد في أصله: ٢٣، ورواه أبو القاسم الكوفي في الأخلاق عنه المستدرك ٢: ٤١٩ ح ١٣، والديلمي في أعلام الدين عنه المستدرك ٢: ٤١٨ ح ١٠.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥٢٣.

مورد آية ﴿...ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربّهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الّذين استُضعفوا للّذين استكبروا لولا أنتم لكنّا مؤمنين* قال الّذين استكبروا للّذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين* وقال الّذين استُضعفوا للّذين استكبروا بل مكرُ اللّيل والنّهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله...﴾[١] كونُ رجع القول تكراراً لمجاوبة بين فريقين، ولعلّ الرجع هنا بمعنى النّفع، كما قيل في قوله تعالى: ﴿والسماء ذات الرّجع﴾[٢].

«قد كفاكم مؤونة دنياكم» ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون* فوربّ السّماء والأرض إنّه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون﴾[٣].

«وحثّكم على الشّكر» ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنّما يشكر لنفسه ومن كفر فإنّ الله غنيّ حميد﴾[٤]، ﴿...لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾[٥].

«وافترض من ألسنتكم الذّكر» صادراً عن القلب ﴿...واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون﴾[٦]، ﴿واذكر ربّك في نفسك تضرّعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين﴾[٧].

«وأوصاكم بالتّقوى» ﴿...ولقد وصيّنا الّذين أُوتوا الكتاب من قبلكم

---

(١) سبأ: ٣١ ـ ٣٣.

(٢) الطارق: ١١.

(٣) الذاريات: ٢٢ ـ ٢٣.

(٤) لقمان: ١٢.

(٥) ابراهيم: ٧.

(٦) الجمعة: ١٠.

(٧) الأعراف: ٢٠٥.

وإيّاكم أن اتّقوا الله...﴾[١].

«وجعلها منتهى رضاه» من عباده ﴿...إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم...﴾[٢].

«وحاجته من خلقه» ﴿يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصّيام كما كتب على الّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون﴾[٣].

«فاتّقوا الله الّذي أنتم بعينه» ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتقون﴾[٤]، ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٥]، ﴿وهو الّذي يتوفّاكم باللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ثمّ يبعثكم فيه لِيُقضى أجل مسمّى...﴾[٦].

«ونواصيكم بيده» ﴿...ما من دابّة إلّا هو آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراط مستقيم﴾[٧].

«وتقلّبكم في قبضته» ﴿... والله يعلم متقلّبكم ومثواكم﴾[٨]، ﴿..فلا يغررك تقلّبهم في البلاد﴾[٩].

«إن أسررتم علمه» ﴿... يعلم السرّ في السماوات والأرض...﴾[١٠]،

---

(١) النساء: ١٣١.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) البقرة: ١٨٣.

(٤) الأنعام: ١٥٣.

(٥) ق: ١٦.

(٦) الأنعام: ٦٠.

(٧) هود: ٥٦.

(٨) محمّد: ١٩.

(٩) غافر: ٤.

(١٠) الفرقان: ٦.

﴿...تسرّون إليهم بالمودّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم...﴾[١]، ﴿...يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾[٢].

«وإن أعلنتم كَتبه» ﴿وكلّ صغير وكبير مستطر﴾[٣]، ﴿...ونكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾[٤]، ﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾[٥].

«قد وكّل بكم» هكذا في (المصرية)، والصواب: (بذلك) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[٦].

«حفظة كراماً» ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتّى إذا جاء أحدكم الموتُ توفّته رسلنا وهم لا يفرّطون﴾[٧].

«لا يسقطون حقّاً ولا يثبتون باطلاً» لا ككتّاب الأُمراء والملوك يثبتون الباطل على النّاس ويسقطون الحقّ لهم.

قال تعالى: ﴿وإنّ عليكم لحافظين* كراماً كاتبين* يعلمون ما تفعلون﴾[٨]، ﴿إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾[٩]، ﴿...ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها

---

(١) الممتحنة: ١.

(٢) النمل: ٢٥.

(٣) القمر: ٥٣.

(٤) يس: ١٢.

(٥) ق: ١٨.

(٦) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥٢٢، وشرح ابن ميثم ٣: ٣٩٨ «بكم» أيضاً.

(٧) الأنعام: ٦١.

(٨) الانفطار: ١٠ ـ ١٢.

(٩) ق: ١٧.

ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾[١].

٤٩
من الخطبة (١٩٣)

وَٱعْلَمُوا عِبَادَ ٱللَّهِ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً؛ عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ، وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ. فَاسْتَفْتِحُوهُ وَٱسْتَنْجِحُوهُ، وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ وَٱسْتَمْنِحُوهُ، فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ. وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ، لَا يَثْلِمُهُ ٱلْعَطَاءُ، وَلَا يَنْقُصُهُ ٱلْحِبَاءُ، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ، وَلَا يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَلَا يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، وَلَا تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ، وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلَا تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، وَلَا تُجِنُّهُ ٱلْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلَا تَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ ٱلْبُطُونِ. قَرُبَ فَنَأَى، وَعَلَا فَدَنَا، وَظَهَرَ فَبَطَنَ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ وَلَمْ يُدَنْ. لَمْ يَذْرَأْ ٱلْخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ، وَلَا ٱسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ.

«واعلموا عباد الله أنّه لم يخلقكم عبثاً» ﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[٢].

«ولم يرسلكم هملاً» كإبل بلا راع ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى* ألم يك نطفة من منيٍّ يمنى* ثمّ كان علقة فخلق فسوّى* فجعل منه الزوجين الذكر والأُنثى* أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾[٣].

«علم مبلغ نعمه عليكم وأحصى إحسانه إليكم» وإنّما الخلق لا يعلمون

---

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) المؤمنون: ١١٥.

(٣) القيامة: ٣٦ ـ ٤٠.

مبلغ نعمه ولا يحصون مقدار إحسانه؛ قال تعالى: ﴿... وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها...﴾[١].

«فاستفتحوه» فإنّه القادر على فتح أبواب النّعم عليكم.

«واستنجحوه» فهو القادر لإنجاح حوائجكم.

«واطلبوا إليه» مطالبكم كلّيها وجزئيها؛ وفي الخبر: أُوحي إلى موسى: اطلب منّي جميع حوائجك حتّى علف شاتك وملح خميرك[٢].

«واستمنحوه» وروي (استميحوه)[٣] وَكلّ منهما بمعنى اطلبوا العطاء منه تعالى: ﴿...واسألوا الله من فضله إنّ الله كان بكلّ شيء عليماً﴾[٤].

«فما قطعكم عنه حجاب» كالملوك والأُمراء.

«ولا أُغلق عنكم دونه باب» كأهل الدّنيا.

«وإنّه لبكلّ مكان» قال رجلان من علماء اليهود له عليه السلام: أين ربّك؟ فقال عليه السلام لهما ـ ضارباً لهما مثلاً ـ: أقبل ملك من المشرق وملك من المغرب، وملك من السماء، وملك من الأرض. فقال صاحب المشرق لصاحب المغرب: من أين أقبلت؟ قال: من عند ربّي. وقال صاحب المغرب لصاحب المشرق: من أين أقبلت؟ قال: من عند ربّي. وقال الخارج من الأرض للنّازل من السّماء: من أين أقبلت؟ قال من عند ربّي. وقال النّازل من السماء للخارج من الأرض: من أين أقبلت؟ قال: من عند ربّي[٥].

«وفي كلّ حين» أي: زمان، عطف على (لِكُلّ).

---

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) رواه ابن فهد في عدّة الداعي عنه الجواهر السنية: ٦١ والنقل بالمعنى.

(٣) نقل هذه الرواية ابن أبي الحديد في شرحه ٢: ٥٣٩.

(٤) النساء: ٣٢.

(٥) أخرجه الصدوق ضمن حديث طويل في التوحيد: ١٨٠ ح١٥ عن علي عليه السلام.

«وأوان» أي: وقت، لأنّه خالق الأوقات والأزمنة، كما أنّه خالق الأمكنة.

«ومع كلّ إنس وجان» ﴿... ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا خمسة إلّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أينما كانوا ثم ينبّئهم بما عملوا يوم القيامة إنّ الله بكلّ شيء عليم﴾[1].

«لا يثلمه» أي: لا يورد عليه خللاً؛ يقال: «في الإناء ثلم» إذا انكسر من شفته شيء.

«العطاء» كما يثلم الخلق.

«ولا يَنقصه» بالفتح، هنا متعدٍّ، ويأتي لازماً يقال: «نقص الشيء ونَقصتُهُ».

«الحِباء» أي: العطاء، وكيف يثلمه عطاء، وينقصه حباء، وهو الّذي إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون.

«ولا يستنفده» أي: لا يجعل ما عنده فانياً، يقال: «نفد الشيء» إذا أُفني.

«سائل» ﴿...ولله خزائن السماوات والأرض...﴾[2].

«ولا يستقصيه» أي: لا يبلغ أقصاه.

«نائل» أي: عطاء كالنوال.

«ولا يلويه» أي: لا يميله.

«شخص عن شخص» آخر كالنّاس.

«ولا يلهيه» آخر كالخلائق.

«ولا تحجزه» أي: لا تمنعه.

«هبة» لأحد.

---

(١) المجادلة: ٧.

(٢) المنافقون: ٧.

«عن سلب» عن آخر: ﴿...يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذّكور* أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً...﴾(١).

«لا تولهه» أي: لا تغفله.

«رحمة» لأحد.

«عن عقاب» لآخر ﴿...إنّ ربّك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾(٢).

فإن قيل: إنّ غيره تعالى قد يهب لواحد، ويسلب آخر، ويغضب على رجل، ويرحم آخر، ويعاقب شخصاً، ويترحم على آخر. فأيّ امتياز له تعالى؟

قلت: غيره تعالى يفعل ما ذكر على التعاقب على حسب حال تعرض له من حصول رقّة أو ثورة أو غيرهما، وهو تعالى يفعل جميع ذلك في وقت واحد بدون حصول تأثّر له.

«ولا تجنّه» بالفتح والضمّ؛ قال الجوهري: جننت الميّت وأجننته، أي: واريته(٣).

«البطون عن الظهور، ولا تقطعه الظهور عن البطون» قال ابن أبي الحديد: الظهور والبطون مصدران، تقول: ظهر ظهوراً، وبطن بطوناً(٤).

قلت: ويحتمل أن يكونا جمع الظهر والبطن، ويكون المراد أنّ الخلائق إذا وردوا في بطون الأشياء تكون ظهورها عنهم مستورة وبالعكس، والخالق ليس كذلك، بل بطون الأشياء وظهورها عنده سواء.

«قرب» ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أُجيب دعوة الداع إذا

---

(١) الشورى: ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) فصلت: ٤٣.

(٣) صحاح اللغة للجوهري ٥: ٢٠٩٣ مادة (جنن).

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٥٣٩ والنقل بالمعنى.

دعان...﴾[١].

«فنأى» أي: بعد ﴿...ربِّ أرني أنظر اليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً...﴾[٢].

«وعلا» ﴿سبّح اسم ربّك الأعلى* الذي خلق فسوّى* والّذي قدّر فهدى* والذي أخرج المرعى﴾[٣].

«فدنا» أي: قرب ﴿...ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٤].

«وظهر فبطن» ﴿هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم﴾[٥].

«وبطن فعلن» ﴿قالت رسلهم أفي الله شكّ فاطر السماوات والأرض...﴾[٦].

وروى (توحيد الصدوق) عن أحمد بن محسن الميثمي، قال: كنت عند أبي منصور المتطبّب، فقال: أخبرني رجل من أصحابي، قال: كنت أنا وابن أبي العوجاء، وعبد الله بن المقفّع في المسجد الحرام. فقال ابن المقفّع: ترون هذا الخلق؟ ـ وأومأ بيده إلى موضع الطّواف ـ ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانية، إلّا ذلك الشيخ الجالس ـ يعني جعفر بن محمّد عليه السلام ـ فأما الباقون فرعاع وبهائم. فقال له ابن أبي العوجاء: وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ

---

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) الأعراف: ١٤٣.

(٣) الأعلى: ١ ـ ٤.

(٤) ق: ١٦.

(٥) الحديد: ٣.

(٦) ابراهيم: ١٠.

دون هؤلاء؟ قال: لأنّي رأيت عنده ما لم أر عندهم. فقال ابن أبي العوجاء: لابدّ من اختبار ما قلت فيه منه. فقال له ابن المقفع: لا تفعل، فإنّي أخاف أن يفسد عليك ما في يدك. فقال: ليس ذا رأيك، ولكنّك تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إيّاه المحلّ الّذي وصفت. فقال له ابن المقفّع: أمّا إذا توهّمت على هذا فقم إليه، وتحفظ ما استطعت من الزّلل، ولا تثن عنانك إلى استرسال يسلمك إلى عقال وسِمْه مالَك أو عليك. قال: فقام ابن أبي العوجاء وبقيت أنا وابن المقفّع فرجع إلينا وقال: يا بن المقفّع! ما هذا ببشر! وإن كان في الدنيا روحاني يتجسّد إذا شاء ظاهراً ويتروّح إذا شاء باطناً فهو هذا. فقال له: وكيف ذاك؟ فقال: جلست إليه فلمّا لم يبق عنده غيري ابتدأني، فقال: ان يكن الأمر على ما يقول هؤلاء، وهو على ما يقولون ـ يعني أهل الطّواف ـ فقد سلموا وعطبتم، وإن يكن أمر على ما تقولون وليس كما تقولون فقد استويتم أنتم وهم.

فقلت له: يرحمك الله، وأيّ شيء نقول، وأيّ شيء يقولون؟ ما قولي وقولهم إلّا واحد. قال: فكيف يكون قولك وقولهم واحداً، وهم يقولون: إنّ لهم معاداً وثواباً وعقاباً ويدينون بأنّ للسّماء إلهاً وأنّها عمران، وأنتم تزعمون أنّ السماء خراب ليس فيها أحد؟

قال: فاغتنمتها منه، فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما تقول أن يظهر لخلقه ويدعوهم إلى عبادته حتّى لا يختلف منهم اثنان، ولِمَ احتجب عنهم، وأرسل إليهم الرّسل، ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الايمان به؟

فقال لي: ويلك، وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك: نُشوءَك ولم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوّتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوّتك، وسقمك بعد صحتك، وصحتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حزنك، وحبّك بعد بغضك،

دعان...﴾[١].

«فنأى» أي: بعد ﴿...ربِّ أرني أنظر اليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً...﴾[٢].

«وعلا» ﴿سبّح اسم ربّك الأعلى* الذي خلق فسوّى* والّذي قدّر فهدى* والذي أخرج المرعى﴾[٣].

«فدنا» أي: قرب ﴿...ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٤].

«وظهر فبطن» ﴿هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم﴾[٥].

«وبطن فعلن» ﴿قالت رسلهم أفي الله شكّ فاطر السماوات والأرض...﴾[٦].

وروى (توحيد الصدوق) عن أحمد بن محسن الميثمي، قال: كنت عند أبي منصور المتطبّب، فقال: أخبرني رجل من أصحابي، قال: كنت أنا وابن أبي العوجاء، وعبد الله بن المقفّع في المسجد الحرام. فقال ابن المقفّع: ترون هذا الخلق؟ ـ وأومأ بيده إلى موضع الطّواف ـ ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانية، إلّا ذلك الشيخ الجالس ـ يعني جعفر بن محمّدعليهما السلام ـ فأما الباقون فرعاع وبهائم. فقال له ابن أبي العوجاء: وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) الأعراف: ١٤٣.

(٣) الأعلى: ١ ـ ٤.

(٤) ق: ١٦.

(٥) الحديد: ٣.

(٦) ابراهيم: ١٠.

دون هؤلاء؟ قال: لأنّي رأيت عنده ما لم أر عندهم. فقال ابن أبي العوجاء: لابدّ من اختبار ما قلت فيه منه. فقال له ابن المقفع: لا تفعل، فإنّي أخاف أن يفسد عليك ما في يدك. فقال: ليس ذا رأيك، ولكنّك تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إيّاه المحلّ الّذي وصفت. فقال له ابن المقفّع: أمّا إذا توهّمت على هذا فقم إليه، وتحفظ ما استطعت من الزّلل، ولا تثن عنانك إلى استرسال يسلمك إلى عقال وسِمْه مالَك أو عليك. قال: فقام ابن أبي العوجاء وبقيت أنا وابن المقفّع فرجع إلينا وقال: يا بن المقفّع! ما هذا ببشر! وإن كان في الدنيا روحاني يتجسّد إذا شاء ظاهراً ويتروّح إذا شاء باطناً فهو هذا. فقال له: وكيف ذاك؟ فقال: جلست إليه فلمّا لم يبق عنده غيري ابتدأني، فقال: ان يكن الأمر على ما يقول هؤلاء، وهو على ما يقولون ـ يعني أهل الطّواف ـ فقد سلموا وعطبتم، وإن يكن أمر على ما تقولون وليس كما تقولون فقد استويتم أنتم وهم.

فقلت له: يرحمك الله، وأيّ شيء نقول، وأيّ شيء يقولون؟ ما قولي وقولهم إلّا واحد. قال: فكيف يكون قولك وقولهم واحداً، وهم يقولون: إنّ لهم معاداً وثواباً وعقاباً ويدينون بأنّ للسّماء إلهاً وأنّها عمران، وأنتم تزعمون أنّ السماء خراب ليس فيها أحد؟

قال: فاغتنمتها منه، فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما تقول أن يظهر لخلقه ويدعوهم إلى عبادته حتّى لا يختلف منهم اثنان، ولِمَ احتجب عنهم، وأرسل إليهم الرّسل، ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الايمان به؟

فقال لي: ويلك، وكيف احتجب عنك من أراك قدرتَه في نفسك: نُشوءك ولم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوّتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوّتك، وسقمك بعد صحتك، وصحتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حزنك، وحبّك بعد بغضك،

وبغضك بعد حبّك، وعزمك بعد إبائك، وإباءك بعد عزمك، وشهوتك بعد كراهتك، وكراهتك بعد شهوتك، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاك بعد يأسك، ويأسك بعد رجاك، وخاطرك بما لم يكن في وهمك، وعزوب ما أنت معتقده عن ذهنك... وما زال يعدّ عليّ قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتّى ظننت أنّه سيظهر إلهه فيما بيني وبينه[١].

«ودان» أي: جزى ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين* ترجعونها إن كنتم صادقين﴾[٢].

«ولم يُدَنْ» بلفظ المجهول، أي: ولم يجزه أحد؛ قال تعالى: ﴿لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون﴾[٣].

«لم يذرأ» الذّرء: الخلق المتفرّق الكثير، كما في قوله تعالى: ﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه...﴾[٤]، ﴿وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً...﴾[٥]، ﴿...جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه...﴾[٦].

«الخلق» أي: مخلوقاته.

«باحتيال» وحيلة ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[٧].

«ولا استعان بهم» أي: بخلقه.

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ١٢٥ ح ٤، والكليني في الكافي ١: ٧٤ ح ٢، وقد مرّ الحديث في العنوان (٤) من هذا الفصل.

(٢) الواقعة: ٨٦ ـ ٨٧.

(٣) الأنبياء: ٢٣.

(٤) النحل: ١٣.

(٥) الأنعام: ١٣٦.

(٦) الشورى: ١١.

(٧) يس: ٨٢.

«لِكَلال» أي: عيّ ومسّ تعب؛ قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام وما مسّنا من لغوب﴾[١].

٥٠
من الخطبة (٨٩)

وَقَدَّرَ ٱلْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ، فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِها وَمَعْسُورِهَا، وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا، ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا، وَبِسَلاَمَتِهَا طَوَارِقَ آفاتِها، وَبِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا، وَخَلَقَ ٱلآجَالَ فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَها، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا، وَوَصَلَ بِالمَوْتِ أَسْبَابَها، وَجَعَلَهُ خالِجاً لِأَشْطانِها، وَقاطِعاً لِمَرَائِرِ أَقْرَانِها.

«وقدّر الأرزاق فكثّرها وقلّلها» ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له...﴾[٢].

«وقسّمها على الضّيق والسّعة» ﴿...نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدّنيا...﴾[٣].

«فعدل فيها» لأنّ تقديره تعالى وتقسيمه عزّوجلّ على وفق الحكمة؛ وفي الخبر: من منعه تعالى منعه ما ليس له، ومن أعطاه فإنّما أعطاه ما ليس له، فهو المتفضّل بما أعطى والعادل في ما منع، ولا يفعل إلّا ما كان حكمةً وصواباً، ومن وجد في نفسه حرجاً في شيء ممّا قضى فقد كفر[٤].

---

(١) ق: ٣٨.

(٢) العنكبوت: ٦٢.

(٣) الزخرف: ٣٢.

(٤) أخرجه الصدوق في ذيل حديث في معنى لفظ (الجواد) في العيون ١: ١١٦ ح ٤١، ومعاني الأخبار: ٢٥٦ ح ١، والخصال: ٤٣ ح ٣٦.

«ليبتلي» أي: يمتحن.

«من أراد بميسورها ومعسورها» أي: يمتحن بعضاً بالميسور، وبعضاً بالمعسور، وروى التوحيد عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث قال: قال تعالى: وإنّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالفقر،ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالغناء، ولو أفقرته لأفسده ذلك[1].

«وليختبر» أي: يمتحن.

«بذلك الشكر والصبر من غنيّها وفقيرها» هل يشكر غنيُّها، وهل يصبر فقيرُها، وفي (الكافي) عن الكاظم عليه السلام يقول تعالى: إنّي لم أُغنِ الغنيّ لكرامة به عليّ، ولم أفقر الفقير لهوانٍ به عليّ، وممّا ابتليت به الأغنياء بالفقراء، ولولا الفقراء لم يستوجب الأغنياء الجنّة[2].

«ثمّ قرن بسعتها عقابيل» جمع عقبول، وهي قرح صغار تخرج بالشفة من بقايا المرض، والمراد هنا الشدائد.

«فاقتها» فقالوا: الفقر الموت الأحمر، ولا شيء أمرّ منه.

«وبسلامتها طوارق» والأصل في الطروق الإتيان ليلاً، وهنا كناية عن البغتة.

«آفاتها» فحكمته اقتضت جعل الدّنيا كذلك لئلّا يخلد النّاس إليها وينسوا إلههم.

«وبفُرَج» بالضمّ فالفتح، جمع فرجة.

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٤٠٠ ح١، وعلل الشرائع ١: ١٢ ح٧، والكليني في الكافي ٢: ٩٠ ح٤، وقد مرّ في العنوان (٤٥) من هذا الفصل.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٢: ٢٦٥ ح٢٠، والاسكافي في التمحيص: ٤٧ ح٦٩.

«أفراحها» ومسارّها.

«غصص» الأصل في الغصّة اعتراض الطعام في الحلق.

«أتراحها» جمع التّرح ضدّ الفرح، ولم ترَ في الدّنيا فرحاً لا يخلطه ترح، والحكمة ما مرّ.

«وخلق الآجال فأطالها وقصّرها وقدّمها وأخّرها» بدون أن يطلع عليها أحداً، والجاهل والعالم في ذلك سواء حتّى الأطباء؛ قال تعالى: ﴿هو الّذي خلقكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ يخرجكم طفلاً ثمّ لتبلغوا أشدّكم ثمّ لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفّى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمّى ولعلّكم تعقلون﴾[١].

«ووصل بالموت أسبابها» أي: أسباب الآجال، والمراد الأمراض والآفات.

«وجعله» أي: الموت.

«خالجاً» أي: جاذباً.

«لأشطانها» أي: حبالها الطويلة.

«وقاطعاً لمرائر» جمع مريرة، حبل اشتدّ فتله.

«أقرانها» أي: حبالها، وإضافة مرائر إليه من إضافة الصّفة؛ ﴿ولكلّ أُمّة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[٢].

٥١
من الخطبة (٨٩)

فيها بعدما مرّ:

عَالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمائِرِ الْمُضْمِرِينَ، وَنَجْوَى الْمُتَخَافِتِينَ، وَخَوَاطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَعُقَدِ عَزِيمَاتِ الْيَقِينِ، وَمَسَارِقِ إِيمَاضِ الْجُفُونِ، وَما ضَمِنَتْهُ

(١) غافر: ٦٧.

(٢) الأعراف: ٣٤.

أَكْنانُ ٱلْقُلوبِ، وَغَياباتُ ٱلْغُيُوبِ، وَما أَصْغَتْ لِاسْتِرَاقِهِ مَصائِخُ ٱلْأَسْمَاعِ، وَمَصَائِفُ الذرِّ، وَمَشَاتِي ٱلْهَوَامِّ، وَرَجْعِ ٱلْحَنِينِ مِنَ المُولَهاتِ، وَهَمْسِ ٱلأَقْدَامِ، وَمُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلَائِجِ غُلُفِ ٱلْأَكْمامِ، وَمُنْقَمَعِ الوُحُوشِ مِنْ غِيرَانِ ٱلْجِبالِ وَأَوْدِيَتِها، وَ مُخْتَبَأِ ٱلْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ ٱلْأَشْجَارِ وَأَلْحِيَتِها وَمَغْرِزِ ٱلْأَوْرَاقِ مِنَ ٱلْأَفْنانِ، وَمَحَطِّ ٱلْأَمْشاجِ مِنْ مَسَارِبِ ٱلْأَصْلَابِ، وَناشِئَةِ ٱلْغُيُومِ وَمُتَلَاحِمِها، وَدُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتَرَاكِمِها، وَمَا تَسْفِي ٱلْأَعَاصِيرُ بِذُيُولِها، وَتَعْفُو ٱلْأَمْطَارُ بِسُيُولِها، وَعَوْمِ بَناتِ ٱلْأَرْضِ فِي كُثْبانِ الرِّمَالِ، وَمُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ ٱلْأَجْنِحَةِ بِذُرَى شَناخِيبِ ٱلْجِبالِ، وَتَغْرِيدِ ذَوَاتِ المَنْطِقِ فِي دَيَاجِيرِ ٱلْأَوْكَارِ، وَمَا أَوْعَبَتْهُ ٱلْأَصْدَافُ وَحَضَنَتْ عَلَيْهِ أَمْوَاجُ ٱلْبِحَارِ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهارٍ، وَمَا ٱعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الدَّيَاجِيرِ، وَسُبُحَاتُ النُّورِ، وَأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَرَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ، وَمِثْقالِ كُلِّ ذَرَّةٍ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ، وَمَا عَلَيْها مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ، أَوْ سَاقِطِ وَرَقَةٍ، أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ، أَوْ نُقَاعَةِ دَمٍ وَمُضْغَةٍ، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ وَسُلَالَةٍ؛ لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذَلِكَ كُلْفَةٌ، وَلَا ٱعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ٱبْتَدَعَهُ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ، وَلَا ٱعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ ٱلْأُمُورِ وَتَدْبِيرِ المَخْلُوقِينَ مَلَالَةٌ وَلَا فَتْرَةٌ، بَلْ نَفَذَ فِيهِمْ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُمْ عَدُّهُ، وَوَسِعَهُمْ عَدْلُهُ، وَغَمَرَهُمْ فَضْلُهُ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ.

«عالم السرّ» ﴿... يعلم السرّ وأخفى﴾[١].

«من ضمائر المضمرين» ﴿وإنّ ربك ليعلم ما تكنّ صدورهم وما

(١) طه: ٧.

يعلنون﴾[١].

«ونجوى المتخافتين» ﴿ألم ترَ أنّ الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا خمسة إلّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أينما كانوا ثمّ ينبّئهم بما عملوا يوم القيامة إنّ الله بكلّ شيء عليم﴾[٢].

«وخواطر رجم الظّنون» ممّا لا حقيقة له، ولا وجود له إلّا في الخيال؛ قال الجوهري: الرّجم أن يتكلّم الرّجل بالظنّ.

قال تعالى: ﴿... رجماً بالغيب...﴾[٣] يقال: صار فلان رجماً لا يوقف على حقيقة أمره[٤].

«وعُقَد» بالضمّ فالفتح جمع عقدة.

«عزيمات اليقين» أي: قطع يطابق الواقع.

«ومسارق» جمع مسرق، يقال: هو يسارق النظر. إذا اهتبل غفلته.

«إيماض» من أومضت المرأة إذا ساقت النظر.

«الجفون» من العيون، والأصل في كلامه عليه السلام قوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور﴾[٥].

«وما ضمنته» أي: جعلته في ضمنها.

«أكنان» جمع الكنّ، بمعنى السّترة.

---

(١) النمل: ٧٤.

(٢) المجادلة: ٧.

(٣) الكهف: ٢٢.

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٥: ١٩٢٨ مادة (رجم).

(٥) غافر: ١٩.

«القلوب» ﴿وربّك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون﴾[١].

«وغيابات» جمع الغيابة، يقال: غيابة الجب. أي: قعره.

«الغيوب» جمع الغيب خلاف الشهود، والأصل في الغيب المطمئنّ من الأرض؛ قال لبيد في بقرة أكل السّبع ولدها:

وتسمّعت رزّ الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها[٢]

والغيب ما غاب من العين يقال: شاة ذات غيب. إذا كانت ذات شحم، لتغيبه عن العين.

قال تعالى: ﴿... فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون﴾[٣].

«وما أصغت» أي: استمعت.

«لاستراقه» من استرق السمع، أي: استمع مستخفياً كأنّه يسرق الخبر.

«مصائخ الأسماع» والمصائخ جمع المصيخة، ما فيها قوّة السّماع، والأسماع جمع السمع، أي: الآذان السّمعية؛ قال تعالى: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيّناها للنّاظرين* وحفظناها من كلّ شيطان رجيم* إلّا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾[٤].

«ومصائف الذّرّ» الذّرّ جمع ذرّة أصغر النّمل، ومصائفها مواضعها في الصيف.

«ومشاتي الهوامّ» الهوامّ جمع الهامّة؛ قال الجوهري: لا يقع اسم الهامّة إلّا

---

(١) القصص: ٦٩.

(٢) أورده لسان العرب ١: ٦٥٥ مادة (غيب).

(٣) البقرة: ٣٣.

(٤) الحجر: ١٦ ـ ١٨.

على المخوف من الأحناش. ومشاتيها مواضعها في الشتاء[١].

«ورجع الحنين» قال الجوهري: حنين النّاقة: صوتها في نزاعها إلى ولدها[٢].

«من المولهات» جمع المولهة، أي: التي فرّق بينها وبين ولدها فهي عليه والهة.

«وهمس الأقدام» أي: أخفى صوتها؛ قال تعالى: ﴿...فلا تسمع إلّا همساً﴾[٣].

«ومنفسح الثمرة» أي: متّسعها.

«من ولائج» جمع الوليجة، أي: مداخل.

«غُلُف» بضمّتين: جمع غلاف.

«الأكمام» جمع الكِمّ، بالكسر وعاء الطّلع وغطاء النّور؛ قال:

بوائج في أكمامها لم تفتّق[٤]

وأما الكُمّ بالضّمّ فهو كمّ القميص، وليس بمراد هنا.

«ومنقمع» أي: مختفى.

«الوحوش» أي: حيوانات البرّ.

«من غيران» بالكسر جمع غار كالكهف في الجبل.

«الجبال وأوديتها» جمع الوادي؛ وفي (المصباح): الوادي: كلّ منفرج بين

---

(١) صحاح اللغة للجوهري ٥: ٢٠٦٢ مادة (همس).

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٥: ٢١٠٤ مادة (حنن).

(٣) طه: ١٠٨.

(٤) أورده لسان العرب ١٢: ٥٢٦ مادة (كمم)، ونسبه إلى الشمّاخ وصدره:

قضيت أُموراً ثم غادرت بعدها.

جبال أو آكام يكون منفذاً للسّيل[1].

«ومختبأ» أي : مختفى.

«البعوض» قال الجوهريّ: البعوض البق[2].

«بين سُوق» بالضّمّ، جمع ساق.

«الأشجار وألحيتها» بفتح الهمزة، جمع اللّحاء: قشر الشّجر.

«ومغرز» من غرزت الشيء بالإبرة.

«الأوراق» جمع الورق، والمراد ورق الشجر.

«من الأفنان» جمع الفنّ: غصن الشجر.

«ومحطّ» أي: محلّ نزول.

«الأمشاج» أي : نطفة الرّجل والمرأة، جمع المشيج، مثل يتيم وأيتام؛ يقال: نطفة أمشاج. لماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها.

قال تعالى: ﴿إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج...﴾[3].

«من مسارب» جمع مسرب، أي: مجرى.

«الأصلاب» قال تعالى: ﴿يخرج من بين الصُّلب والتّرائب﴾[4].

«وناشئة» قال الجوهري: النّشء أوّل ما ينشأ من السّحاب[5].

«الغيوم» جمع الغيم، يقال: غامت السّماء، إذا أطبق بها السحاب.

«ومتلاحمها» أي: متضاعفها.

«ودرور» أي: سيلان.

---

(١) المصباح المنير ٢: ٣٧٢ مادة (ودي).

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٣: ١٠٦٦ مادة (بعض).

(٣) الإنسان: ٢.

(٤) الطارق: ٧.

(٥) صحاح اللغة للجوهري ١: ٧٧ مادة (نشأ).

«قطر السّحاب في متراكمها» أي: مجتمعها، وركوب بعضها بعضاً.

«وما تسفي» من سفت الرّيح التّراب إذا ذرته.

«الأعاصير» جمع الإعصار، وهو ريح تثير الغبار فيرتفع إلى السماء كأنّه عمود؛ قال تعالى: ﴿...فأصابها إعصار فيه نار...﴾[1].

ويقال: هو ريح تثير سحاباً ذات رعد وبرق.

«بذيولها» التي تلاقي الأرض.

«وتعفو» من عفت الرّيح المنزل: درسته.

«الأمطار بسيولها» أي: السّيول الحاصلة منها.

«وعَوْم» أي: سباحة.

«بنات الأرض» روي «نبات» بتقديم النّون[2]، فتكون إضافة العوم إليه مجازاً، وبتقديم الباء فيكون المراد بها الحشرات والهوامّ التي تكون في تلال الرّمال، فتكون نسبة العَوْم إليها استعارة.

«في كثبات الرمال» أي: تلالها؛ قال الجوهري: كلّ ما انصبّ في شيء فقد انكثب فيه، ومنه سمّي الكثيب من الرّمل، لأنّه انصبّ في مكان فاجتمع فيه، والجمع: الكثبان[3].

«ومستقرّ ذوات الأجنحة» أي: الطيور.

«بذُرى» بالضّمّ، جمع ذروة، أي: أعالي.

«شناخيب الجبال» أي: رؤوسها.

«وتغريد» من غرّد الطائر اذا صوّت وغنّى.

---

(١) البقرة: ٢٦٦.

(٢) نقل هذه الرواية ابن ميثم في شرحه ٢: ٣٨٣.

(٣) صحاح اللغة للجوهري ١: ٢٠٩ مادة (كثب).

«ذوات المنطق» أي: طيور تتغنّى، وليس كلّ طير كذلك.

«في دياجير» جمع ديجور، أي: ظلمة.

«الأوكار» جمع الوكر: عشّ الطائر.

«وما أوعبته» هكذا في (المصرية)، والصواب: (وما أوعته) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخوئي والخطيّة)[1]، وقالوا: وفي نسخة «وما أودعته»[2]. ومعنى (ما أوعته): جعلت له وعاء.

«الأصداف» جمع الصّدف: غشاء الدّرّة.

«وحضنت» من: حضن الطائر بيضه، إذا ضمّه إلى نفسه تحت جناحه، وكذلك المرأة إذا حضنت ولدها.

«عليه أمواج البحار» يفهم من كلامه عليه السلام أنّ أمواج البحار تربيّ أشياء حيّة وغير حيّة.

«وما غشيته» أي: حوته.

«سدفة» أي: ظلمة.

«ليل» قال النّابغة:

فإنّك كاللّيل الّذي هو مدركي   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع[3]

«أو ذرّ» من ذرّت الشّمس، أي: طلعت.

«عليه شارق» أي: طالع؛ يقال: لا آتيك ما ذرّ شارق.

«نهار» والمراد بشارق النّهار: الشّمس.

«وما اعتقبت» أي: تعاقبت.

---

(١) كذا في شرح الخوئي ٣: ١٣١، لكن في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٦٧، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٦٧ «ما أوعبته» أيضاً.

(٢) أمّا ابن أبي الحديد فأورد في متن الخطبة في ٢: ١٦٧ «أوعبته»، وعند شرح الفقرة في: ١٦٧ «ما أودعته» ولم يصرّح إلى كونه في نسخة أُخرى، والظاهر غلط الناسخ، وأما ابن ميثم والخوئي فلم نجد في شرحيهما هذه الرواية أصلاً.

(٣) أورده التفتازاني في المطول: ٢٨٦ باب الايجاز والاطناب والمساواة.

«عليه أطباق» أي: طبقات.

«الدّياجير» أي: الظُلَم.

«وسبحات النّور» أي: أشعّته.

«وأثر كلّ خطوة» أي: قدم.

«وحسّ» أي: صوت خفي.

«كلّ حركة» من كلّ متحرك.

«ورجع كلّ كلمة» أي: أثرها في الهواء بالتموّج.

«وتحريك كلّ شفة» بكلام جهر أو خفي.

«ومستقرّ كلّ نسمة» أي: كلّ نفس إنساناً أو غيره؛ قال تعالى: ﴿وما من دابّة في الأرض إلّا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلّ في كتاب مبين﴾[1].

«ومثقال كلّ ذرّة» ﴿...وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين﴾[2].

«وهماهم» جمع همهمة، ترديد الصّوت في الصدر.

«كلّ نفس هامّة» بالتّشديد، أي: قاصدة لشيء لا تدري تفعله أم لا؛ قال الشاعر:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله[3]

«وما عليها من ثمر شجرة» هكذا في النسخ[4]، وقال ابن أبي الحديد: «وما عليها» أي: ما على الأرض، فجاء بالضمير ولم يسبق ذكر صاحبه اعتماداً على

---

(١) هود: ٦.

(٢) يونس: ٦١.

(٣) أورده الزمخشري في الكشاف ٢: ٤٥٥.

(٤) نهج البلاغة ١: ١٨٠، وشرح ابن أبي الحديد ٢: ١٦٧، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٦٨.

فهم المخاطب، كما قال تعالى: ﴿كلّ من عليها فانٍ﴾[١].

قلت: والأظهر حصول سقط في الكلام أو تقديم وتأخير أو تحريف، ولا يبعد أن يكون الأصل (وما ينع من ثمر شجرة) من قوله تعالى: ﴿...انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويَنْعِه...﴾[٢]، وإلّا فمقتضى السياق أن يكون (قرارة نطفة) وما بعده عطفاً على (ثمر شجرة) كقوله: «ساقط ورقة» ولا معنى له.

«أو ساقط ورقة» ﴿...وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾[٣].

«أو قرارة نطفة» ﴿ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين﴾[٤].

«أو نقاعة دم» الظاهر أنّ المراد بنقاعة دم: العلقة، بقرينة ذكر النّطفة قبلها والمضغة بعدها.

وقال الجوهري: دم ناقع، أي: طريّ؛ قال الشاعر قسام بن روامة:

وما زال من قتلي رزاح بعالج   دم ناقع أو جاسد غير ما صح

وقال أبو سعيد: يريد بالنّاقع الطّريّ، وبالجاسد القديم[٥].

«ومضغة» أي: قطعة لحم؛ قال تعالى: ﴿ثمّ خلقنا النّطفة علقةً فخلقنا العلقةَ مضغةً...﴾[٦].

«أو ناشئة خلق» والمراد نطفة تصير منشأ مولود، وليس كلّ نطفة كذلك.

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٦٩، والآية (٢٦) من سورة الرحمن.

(٢) الأنعام: ٩٩.

(٣) الأنعام: ٥٩.

(٤) المؤمنون: ١٣.

(٥) صحاح اللغة للجوهري ٣: ١٢٩٢ مادة (نقع).

(٦) المؤمنون: ١٤.

«وسُلالة» أي: الخلاصة؛ قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾[1].

«لم يلحقه» هكذا في (المصريّة)، والصواب: (لم تلحقه) كما في (ابن أبي الحديد والخطية)[2].

«في ذلك كلفة» أي: مشقّة؛ قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام وما مسّنا من لغوب﴾[3].

«ولا اعترضته في حفظ ما ابتدعه» هكذا في (المصرية)، والصواب: (ما ابتدع) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطّية)[4].

«من خلقه عارضة» تمنعه من الحفظ؛ قال تعالى: ﴿...وسع كرسيّه السماوات والأرضَ ولا يؤوده حفظهما وهو العليّ العظيم﴾[5].

«ولا اعتورته» أي: لا اعترضته.

«في تنفيذ الأُمور» وإمضائها.

«وتدبير المخلوقين» هكذا في (المصرية)، والصواب: (وتدابير المخلوقين) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخوئي والخطيّة)[6].

«ملالة ولا فترة» أي: ضعف؛ وكيف تلحقه كلفة أو تعترضه عارضة أو تعتوره فترة في خلقه وأمره، وهو الّذي إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون؟!

---

(١) المؤمنون: ١٢.

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٦٧، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٦٨ «لم يلحقه» أيضاً.

(٣) ق: ٣٨.

(٤) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٦٧، لكن في شرح ابن ميثم ٢: ٣٦٨ «ما ابتدعه» أيضاً.

(٥) البقرة: ٢٥٥.

(٦) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٦٧، وشرح الخوئي ٣: ١٣١، لكن في شرح ابن ميثم ٢: ٣٦٨ «تدبير» أيضاً.

«بل نفذ فيهم علمه» ﴿...يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم...﴾[١].

«وأحصاهم عدّه» ﴿لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً﴾[٢].

«ووسعهم عدله» ﴿وتمّت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلماته وهو السميع العليم﴾[٣].

«وغمرهم» من غمره الماء إذا علاه.

«فضله» ﴿... ولولا دفع الله النّاس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضل على العالمين﴾[٤].

«مع تقصيرهم عن كنه» أي: حقيقة.

«ما هو أهله» ﴿وما قدروا الله حقّ قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويّات بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يشركون﴾[٥].

هذا، وقال ابن أبي الحديد بعد نقل هذا العنوان: لو سمع النّضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قاله عليّ بن إسماعيل بن جريح لإسماعيل بن بلبل:

قالوا أبو الصّقر من شيبان قلتُ لهم ... كلّا ولكن لعمري منه شيبان
وكم أب قد علا بابنٍ ذُرى شرف ... كما علا برسول الله عدنان

إذن كان يفتخر به على عدنان وقحطان بل كان يقرّ به عين أبيه إبراهيم خليل الرّحمن، ويقول له: إنّه لم يعف ما شيّدت من معالم التوحيد، بل أخرج الله لك من ظهري ولداً ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب ما لم تبتدعه أنت في جاهليّة النّبط، بل لو سمع هذا الكلام أرسطا طاليس القائل بأنّه تعالى لا

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) مريم: ٩٤.

(٣) الأنعام: ١١٥.

(٤) البقرة: ٢٥١.

(٥) الزمر: ٦٧.

يعلم الجزئيات لخشع قلبه وقفّ شعره، واضطرب فكره. ألا ترى ما عليه من الرّواء والمهابة، والعظمة، والفخامة، والمتانة والجزالة، مع ما قد أُشرب من الحلاوة والطّلاوة، واللطف والسّلاسة، ولا أرى كلاماً يشبه هذا إلّا أن يكون كلام الخالق سبحانه، فإنّ هذا الكلام نبعة من تلك الشجرة، وجدول من ذلك البحر، وجذوة من تلك النّار، وكأنّه عليه السلام شرح قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾[1].

قلت: قد أجاد في ما أفاد، لكن عرفت ممّا نقلنا من الآيات في شرح الفقرات أنّ كلامه عليه السلام تفسير لما قاله من الآية ولآيات أُخر.

٥٢
الحكمة (٤٧٠)

وقال عليه السلام ـ في نسخة ـ وسُئل عن التّوحيد والعدل، فقال عليه السلام:
التَّوْحيدُ أنْ لا تَتَوَهَّمَهُ، وَالعَدْلُ أنْ لا تَتَّهِمَهُ.

وأقول: وقال الصادق عليه السلام: أمّا التّوحيد فأن لا تجوز على ربك ما جاز عليك، وأمّا العدل فأن لا تنسب إلى خالقك ما لامك عليه[2].

وفي الخبر: أنّ أبا الصّلت الهرويّ قال للرّضا عليه السلام: لأيّ علّة أغرق الله تعالى الدنيا كلّها في زمن نوح عليه السلام وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له؟ فقال: ما كان فيهم الأطفال لأنّ الله تعالى أعقم أصلاب قوم نوح عليه السلام وأرحام نسائهم أربعين عاماً، فانقطع نسلهم فغرقوا ولا طفل فيهم، وما كان الله تعالى ليهلك

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٦٧، مرّ نقله وتحقيق ما نقل عن ارسطاطاليس في شرح خطبة الرضي، والآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٩٦ ح ١.

بعذابه من لا ذنب له، وأمّا الباقون من قوم نوح عليه السلام فأغرقوا لتكذيبهم لنبيّ الله نوح عليه السلام، وسائرهم أغرقوا برضاهم بتكذيب المكذّبين، ومن غاب عن أمر فرضي به كان كمن شهده وأتاه[١].

٥٣
من الخطبة (٢١٢)

ومن خطبة له عليه السلام:

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ وَحَكَمٌ فَصَلَ.

أقول: قال ابن أبي الحديد: الضمير في (أنّه) يرجع إلى القضاء والقدر المذكور في صدر هذه الخطبة، ولم يذكره الرّضي رحمه الله[٢].

قلت: إن وُجِدَ، فالخطبة كما ذكر، وإلّا فنقول: إنّ الضمير فيه يرجع إليه تعالى، ولو كان راجعاً إلى القدر كما ذكر لكانت القاعدة أن يقول: «عدل عدل فيه، وحكم فصل فيه» ولا يحتاج إلى تكلّف أنّه نسب العدل إلى القضاء مجازاً، وحينئذٍ فـ (عَدْلٌ) بمعنى: عادل، واستعماله كذلك كثير، كالخلق بمعنى المخلوق، و (حَكَمٌ) بفتحتين، بمعنى: الحاكم.

وفي الخبر: أنّ يهودياً سأله عليه السلام عمّا ليس لله، وعمّا ليس عند الله، وعمّا لا يعلمه الله.

فقال علي عليه السلام: أمّا ما لا يعلمه الله فذلك قولكم يا معشر اليهود: عزير ابن الله. والله لا يعلم له ولداً، وأمّا ما ليس عند الله فليس عند الله ظلم للعبيد، وأمّا ما ليس لله فليس لله شريك. أشهد ألّا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله[٣].

---

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٣٩٢ ح ٢، والعيون ٢: ٧٤ ح ٢، وعلل الشرائع ١: ٣٠ ح ١.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٣.

(٣) أخرجه صاحب صحيفة الرضا عليه السلام فيه: ٨٤ ح ١٩٢، والصدوق في التوحيد: ٣٧٧ ح ٢٣ والعيون ١: ١١٦ ح ٤٠، و ٢: ٤٥ ح ١٧٢ بطريقين، وأبو علي الطوسي في أماليه ١: ٢٨٢ المجلس (١٠)، وأخرجه ضمن حديث طويل محمد بن علي

وورد أنّ أبا حنيفة خرج من عند الصادق عليه السلام فاستقبله الكاظم عليه السلام وهو يومئذٍ غلام، فقال له: يا غلام! ممّن المعصية؟ فقال: لا يخلو من ثلاث: إمّا أن يكون من الله تعالى ـ وليست منه ـ فلا ينبغي للكريم أن يعذّب عبده بما لا يكتسبه، وإمّا أن يكون من الله ومن العبد ـ وليس كذلك ـ فليس ينبغي للشريك القويّ أن يظلم الشريك الضعيف، وإمّا أن يكون من العبد ـ وهي منه ـ فإن عاقبه الله فبذنبه، وإن عفا عنه فبكرمه وجوده[1].

هذا، وممّا يدخل في موضوع كتابه، ولم ينقله ممّا هو راجع إلى التوحيد ما رواه الكليني عن البرقيّ والعطّار مرفوعاً، والصدوق في اسنادين عن الصادق عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استنهض الناس في حرب معاوية في المرّة الثانية فلمّا حشد الناس قام خطيباً، فقال:

«الحمد لله الواحد الأحد الصمد، المتفرّد الّذي لا من شيء كان، ولا من شيء خلق ما كان، قدرة بان بها من الأشياء، وبانت الأشياء منه، فليست له صفة تنال، ولا حدّ يضرب له فيه الأمثال، كلّ دون صفاته تحبير اللّغات، وضلّ هناك تصاريف الصّفات، وحار في ملكوته عميقات مذاهب التفكير، وانقطع دون الرّسوخ في علمه جوامع التفسير، وحال دون غيبه المكنون حجب من الغيوب، تاهت في أدنى أدانيها طامحات العقول في لطيفات الأُمور، فتبارك الله الّذي لا يبلغه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، وتعالى الذي ليس له وقت معدود، ولا أجل ممدود، ولا نعت محدود. سبحان الّذي ليس له أوّل مبتدأ، ولا غاية منتهى، ولا آخر يفنى، سبحانه هو كما وصف نفسه، والواصفون لا

بن إبراهيم في عجائب الأحكام: ١٠١ ح ١٧٠، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ١: ٢٠٧.

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٩٦ ح ٢، والعيون ١: ١١٣ ح ٣٧، وأماليه: ٣٣٤ ح ٤ المجلس (٦٤)، والمرتضى في الفصول ١: ٤٣، والكراجكي في كنز الفوائد: ١٧١، وابن شعبة في تحف العقول: ٤١١، ورواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٨٧.

يبلغون نعته، وحدّ الأشياء كلّها عند خلقه إبانة لها من شبهه، وإبانة له من شبهها، لم يحلل فيها فيقال هو فيها كائن، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن، ولم يخل منها فيقال له أين، لكنّه سبحانه أحاط بها علمه، وأتقنها صنعه، وأحصاها حفظه، لم يعزُب عنه خفيّات غيوب الهوى، ولا غوامض مكنون ظُلَم الدّجى، ولا ما في السماوات العلى إلى الأرضين السّفلى.

لكلّ شيء منها حافظ ورقيب، وكلّ شيء منها بشيء محيط، والمحيط بما أحاط منها، الواحد الأحد الصّمد، الّذي لا يغيّره صروف الزّمان، ولا يتكأده صنع شيء كان، إنّما قال لما شاء كن فكان.

ابتدع ما خلق بلا مثال سبق، ولا تعب ولا نصب، وكلّ صانع شيء، فمن شيء صنع، والله لا من شيء صنع ما خلق، وكلّ عالم فمن بعد جهل تعلّم، والله لم يجهل ولم يتعلّم، أحاط بالأشياء علماً قبل كونها، فلم يزدد بكونها علماً علمه بها قبل أن يكوّنها كعلمه بعد تكوينها، لم يكوّنها لتشديد سلطان، ولا خوف من زوال ونقصان، ولا استعانة على ضدّ مناوٍ، ولا ندّ مكاثر، ولا شريك مكابر، لكن خلائق مربوبون، وعباد داخرون.

فسبحان الّذي لا يؤوده خلق ما ابتدأ، ولا تدبير ما برأ، ولا من عجز ولا من فترة بما خلق اكتفى، علم ما خلق، وخلق ما علم، لا بالتفكير في علم حادث أصاب ما خلق، ولا شبهة دخلت عليه في ما لم يخلق، لكن قضاء مبرم، وعلم محكم، وأمر متقن، توحّد بالرّبوبية، وخصّ نفسه بالوحدانيّة، واستخلص بالمجد والثناء، وتفرّد بالتّوحيد والمجد والثناء، وتوحّد بالتحميد، وتمجّد بالتّمجيد، وعلا عن اتّخاذ الأبناء، وتطهّر وتقدّس عن ملامسة النساء، وعزّوجلّ عن مجاورة الشركاء.

فليس له في ما خلق ضدّ، ولا له في ما ملك ندّ، ولم يشركه في ملكه أحد.

الواحد الأحد الصمد، المبيد للأبد، والوارث للأمد، الّذي لم يزل ولا يزال وحدانياً أزلياً قبل بدء الدهور، وبعد صرف الأُمور، الّذي لا يبيد ولا ينفد.

بذلك أصف ربّي، فلا إله إلّا الله من عظيم ما أعظمه، ومن جليل ما أجلّه، ومن عزيز ما أعزّه، وتعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً»[١].

لكن مرّ بعض فقراتها في العناوين المتقدّمة باتّفاق واختلاف.

وما روياه بأسنادهما عن محمّد البرقي، عن أحمد بن النضر وغيره، عن عمرو بن ثابت[٢]، عن رجل سمّاه، عن أبي إسحاق السبيعي عن الحارث الأعور قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام خطبة بعد العصر فعجب النّاس من حسن صفته، وما ذكره من تعظيم الله تعالى. قال أبو إسحاق: فقلت للحارث: أو ما حفظتها؟ قال: كتبتها. فأملاها علينا من كتابه:

«الحمد لله الّذي لا يموت، ولا تنقضي عجائبه، لأنّه كلّ يوم في شأن من إحداث بديع لم يكن، الّذي لم يلد فيكون في العزّ مشاركاً، ولم يولد فيكون موروثاً هالكاً، ولم تقع عليه الأوهام فتقدّره شبحاً ماثلاً، ولم تدركه الأبصار فيكون بعد انتقالها حائلاً. الذي ليست في أوّليته نهاية، ولا لآخريته حدّ ولا غاية، الّذي لم يسبقه وقت ولم يتقدّمه زمان، ولا يتعاوره زيادة ولا نقصان، ولا يوصف بأين ولا بِمَ ولا مكان. الّذي بطن من خفيّات الأُمور، وظهر في العقول بما يرى في خلقه من علامات التدبير. الّذي سُئلت الأنبياء عنه فلم تصفه بحدّ، ولا ببعض، بل وصفته بفعاله، ودلّت عليه بآياته. لا تستطيع عقول

---

(١) أخرجها الكليني في الكافي ١: ١٣٤ ح١، والصدوق في التوحيد: ٤١ ح٣.

(٢) كذا في التوحيد، لكن في الكافي أحمد بن النضر، وغيره عمّن ذكره عن عمرو بن ثابت، والظاهر أن رواية أحمد عن عمرو بغير واسطة كما يشهد عليه النظر في الطبقات. وما أخرجه البرقي في المحاسن: ٥٨٣ ح٧١، والكليني في الكافي ٦: ٣٨٥ ح٢ عن أحمد بن النضر عن عمرو بن أبي المقدام (وأبو المقدام كنية ثابت أبيه)، قال: رأيت أبا جعفر عليه السلام وهو يشرب في قدح من خزف.

المتفكّرين جحده، لأنّ من كانت السّماوات والأرض فطرته، وما فيهنّ وما بينهنّ، وهو الصانع لهنّ، فلا مدفع لقدرته. الّذي نأى من الخلق فلا شيء كمثله، الّذي خلق الخلق لعبادته، وأقدرهم على طاعته بما جعل فيهم، وقطع عذرهم بالحجج، فعن بيّنة هلك من هلك، وبمنّه نجا من نجا، ولله الفضل مبدئاً ومعيداً، ثمّ إنّ الله ـ وله الحمد ـ افتتح الحمد لنفسه، وختم أمر الدّنيا ومحلّ الآخرة بالحمد لنفسه، فقال: ﴿وقضيَ بينهم بالحقّ وقيل الحمد لله ربّ العالمين﴾[١].

الحمد لله اللّابس الكبرياء بلا تجسّد، والمرتدي بالجلال بلا تمثيل، والمستوي على العرش بغير زوال، والمتعالي على الخلق بلا تباعد منهم ولا ملامسة منه لهم، ليس له حدّ يُنتهى إلى حدّه، ولا له مثل فيعرف بمثله، ذلّ من تجبّر غيرهُ، وَصَغُرَ من تكبّر دونه، وتواضعت الأشياء لعظمته، وانقادت لسلطانه وعزّته، وكلّت عن إدراكه طروف العيون، وقَصُرَتْ دونَ بلوغ صفته أوهامُ الخلائق. الأوّلِ قبل كلّ شيء ولا قبل له، والآخر بعد كلّ شيء ولا بَعْدَ له. الظاهر على كلّ شيء بالقهر له، والمشاهد لجميع الأماكن بلا انتقال إليها؛ لا تَلْمسُهُ لامِسَةٌ ولا تَحُسُّهُ حاسّة. ﴿هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم﴾[٢] أتقن ما أراد من خلقه من الأشباح كلّها لا بمثال سبق إليه، ولا لغُوبٍ دَخَلَ عليه في خلق ما خلق لديه، ابتدأ ما أراد ابتداءه، وأنشأ ما أراد إنشاءه، على ما أراد من الثَّقَلَيْنِ الجنِّ والإنس، ليعرفوا بذلك ربوبيّته، وتمكّن فيهم طاعَتَه.

نحمده بجميع محامده كلّها على جميع نَعمائه كلّها، ونستهديه لمراشد أُمورنا، ونعوذ به من سيّئات أعمالنا، ونستغفره للذّنوب الّتي سبقت منّا...».

---

(١) الزمر: ٧٥.

(٢) الزخرف: ٨٤.

وهي أيضاً كسابقتها في اشتمال العناوين المتقدّمة على بعض فقراتها.

وما رواه الصدوق مسنداً عن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: خطب أمير المؤمنين عليه السلام النّاس في مسجد الكوفة، فقال:

«الحمد لله الذي لا من شيء كان، ولا من شيء كوّن ما قد كان، مستشهد بحدوث الأشياء عن أزليّته، وبما وسمها به من العجز على قدرته، وبما اضطرّها إليه من الفناء على دوامه، لم يخل منه مكان فيدرك بأينيّته، ولا له شبه مثال فيوصف بكيفيّته، ولم يغب عن علمه شيء فيعلم بحيثيّته، مباين لجميع ما أحدث في الصفات، وممتنع عن الإدراك بما ابتدع من تصريف الذّوات، وخارج بالكبرياء والعظمة من جميع تصرّف الحالات؛ محرّم على بوارع ثاقبات الفطن تحديده، وعلى عوامق ناقبات الفكر تكييفه، وعلى غوائص سابحات الفطر تصويره؛ لا تحويه الأماكن لعظمته، ولا تذرعه المقادير لجلاله، ولا تقطعه المتقاييس لكبريائه. ممتنع عن الأوهام أن تكتنهه، وعن الأفهام أن تستغرقه، وعن الأذهان أن تمثّله؛ قد يئست من استنباط الإحاطة به طوامح العقول، ونضبت عن الإشارة إليه بالاكتناه بحار العلوم، ورجعت بالصّغر عن السّموّ إلى وصف قدرته لطائف الخصوم.

واحد لا من عدد، ودائم لا بأمد، وقائم لا بعمد، ليس بجنس فتعادله الأجناس، ولا بشبح فتضارعه الأشباح، ولا كالأشياء فتقع عليه الصفات، قد ضلّت العقول في أمواج تيّار إدراكه، وتحيّرت الأوهام عن إحاطة ذكر أزليّته، وحصرت الأفهام عن استشعار وصف قدرته، وغرقت الأذهان في لجج أفلاك ملكوته. مقتدر بالآلاء، وممتنع بالكبرياء ومتملّك على الأشياء؛ فلا دهر يُخلقه، ولا وصف يحيط به، قد خضعت له ثوابت الصعاب في محلّ تخوم قرارها،

وأذعنت له رواصن الأسباب في منتهى شواهق أقطارها. مستشهد بكلّية الأجناس على ربوبيته، وبعجزها على قدرته، وبفطورها على قدمته، وبزوالها على بقائه، فلا لها محيص عن إدراكه إيّاها، ولا خروج من إحاطته بها، ولا احتجاب عن إحصائه لها، ولا امتناع من قدرته عليها. كفى بإتقان الصنع لها آية، وبمركب الطبع عليها دلالة، وبحدوث الفطر عليها قدمة، وبإحكام الصّنعة لها عبرة. فلا إليه حدّ منسوب، ولا له مثل مضروب، ولا شيء عنه محجوب. تعالى عن ضرب الأمثال والصفات المخلوقة علوّاً كبيراً»(١).

وما رواه أيضاً مسنداً عن الباقر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، قال: أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة خطبها بعد موت النبيّ صلى الله عليه وآله بسبعة أيّام، وذلك حين فرغ من جمع القرآن، فقال:

«الحمد لله الّذي أعجزَ الأوهامَ أن تنال إلّا وجودَه، وحجب العقولَ أن تتخيل ذاتَهُ في امتناعها من الشبه والشكل، بل هو الّذي لم يتفاوت في ذاته، ولم يتبعّض بتجزئة العدد في كماله. فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن، وتمكّن منها لا على الممازجة، وعَلِمَها لا بأداة لا يكون العلم إلّا بها، وليس بينه وبين معلومه علمٌ غيرُهُ. إن قيل: كان فعلى تأويل أزليّة الوجود، وإن قيل: لم يزل فعلى تأويل نفي العدم. فسبحانه وتعالى عن قول من عَبَدَ سِواه، واتّخذ إلهاً غيره علوّاً كبيراً»(٢).

ورواه (الروضة) و(التحف) واصفين له بالخطبة المعروفة بالوسيلة(٣).

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٦٩ ح٢٦، والعيون ١: ٩٩ ح١٥.

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٧٩ ح٢٧.

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ٨: ١٨ ح٤، وابن شعبة في تحف العقول: ٩٢ باختلاف كثير.

وما رواه (الروضة) بعنوان الخطبة الطالوتيّة مسنداً عن ابن التيهان أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب الناس بالمدينة، فقال:

«الحمد لله الذي لا إله إلّا هو، كان حيّاً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكانه كيف، ولا كان له أين، ولا كان في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع لكانه مكاناً، ولا قوي بعدما كوّن شيئاً، ولا كان ضعيفاً قبل أن يكوّن شيئاً، ولا كان مستوحشاً قبل أن يبتدع شيئاً، ولا يشبه شيئاً ولا كان خلواً عن الملك قبل إنشائه، ولا يكون خلواً منه بعد ذهابه.

كان إلهاً حيّاً بلا حياة، ومالكاً قبل أن ينشئ شيئاً، ومالكاً بعد إنشائه للكون، وليس يكون لله كيف، ولا أين، ولا حدّ يعرف، ولا شيء يشبهه، ولا يهرم لطول بقائه، ولا يضعف لذعرة، ولا يخاف كما تخاف خليقته من شيء، ولكن سميع بغير سمع، وبصير بغير بصر، وقوّي بغير قوّة من خلقه؛ لا تدركه حدق الناظرين، ولا يحيط بسمعه سمع السّامعين. إذا أراد شيئاً كان بلا مشورة، ولا مظاهرة ولا مخابرة، ولا يسأل أحداً عن شيء من خلقه أراده»[١].

وما رواه أيضاً مسنداً عن الباقر عليه السلام، قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فقال:

«الحمد لله الخافض الرّافع، الضارّ النّافع، الجواد الواسع، الجليل ثناؤه، الصّادقة أسماؤه، المحيط بالغيوب، وما يخطر على القلوب، الذي جعل الموت بين خلقه عدلاً وأنعم بالحياة عليهم فضلاً، فأحيا وأمات، وقدّر الأقوات، أحكمها بعلمه تقديراً، وأتقنها بحكمته تدبيراً، إنّه كان خبيراً بصيراً، هو الدّائم بلا فِناء، والباقي إلى غير منتهى. يعلم ما في الأرض وما في السماء، ﴿وما

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ٨: ٣١ ح ٥.

بينهما وما تحت الثرى﴾[١].

وما رواه مسنداً عن الصادق عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب يوم الجمعة، فقال:

«الحمد لله أهل الحمد، وَوليّه ومنتهى الحمد ومحلّه، البدْء البديع، الأجلّ الأعظم، الأعزّ الأكرم، المتوحّد بالكبرياء، والمتفرّد بالآلاء، القاهر بعزّه، والمسلّط بقهره، الممتنع بقوّته، المهيمن بقدرته، والمتعالي فوق كلّ شيء بجبروته، المحمود بامتنانه وبإحسانه، المتفضّل بعطائه، وجزيل فوائده، الموسّع برزقه، المسبغ بنعمه، نحمده على آلائه، وتظاهر نعمائه، حمداً يزن عظمة جلاله، ويملأ قدر آلائه وكبريائه»[٢].

وما رواه المسعودي في (إثباته) مرسلاً من خطبته عليه السلام في انتقال نور النبي صلى الله عليه وآله:

«الحمد لله الّذي توحّد بصنع الأشياء، وفطر أجناس البرايا على غير مثال سبقه في إنشائها، ولا إعانة معين على ابتداعها، بل ابتدعها بلطف قدرته، فامتثلت لمشيّته خاضعة مستحدثة لأمره. الواحد الأحد، الدائم بغير حدّ ولا أمد، ولا زوال ولا نفاد، وكذلك لم يزل ولا يزال. لا تغيّره الأزمنة، ولا تحيط به الأمكنة، ولا تبلغ مقامه الألسنة، و﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾[٣]. لم تره العيون فتخبر عنه برؤيته، ولم تهجم عليه العقول فيتوهم كنه صفته، ولم تدرِ كيف هو إلّا بما أخبر عن نفسه. ليس لقضائه مردّ، ولا لقوله مكذّب.

ابتدع الأشياء بغير تفكير، وخلقها بلا ظهير ولا وزير، فطرها بقدرته، وصيّرها بمشيّته، وصاغ أشباحها، وبرأ أرواحها، واستنبط أجناسها، خلقاً

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي ٨: ١٧٠ ح١٩٣، والآية (٦) من سورة طه.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٨: ١٧٣ ح١٩٤.

(٣) البقرة: ٢٥٥.

مبروّاً مذروّاً في أقطار السماوات والأرضين، لم يأتِ بشيء على غير ما أراد أن يأتي عليه، ليرى عباده آيات جلاله وآلائه. فسبحانه لا إله إلّا هو الواحد القهّار ـ إلى أن قال ـ لقد لطف علمك، وجلّت قدرتك عن التفسير، إلّا بما دعوت إليه من الإقرار بربوبيّتك وأشهد أن الأعين لا تدركك، والأوهام لا تلحقك، والعقول لا تصفك، والمكان لا يسعك، وكيف يسع المكان من خلقه وكان قبله، أم كيف تدركه الأوهام، وكيف تؤمر الأوهام، ولا نهاية له ولا غاية، وكيف يكون له نهاية وغاية، وهو الّذي ابتدأ الغايات والنّهايات، أم كيف تدركه العقول، ولم يجعل لها سبيلاً إلى إدراكه، وكيف يكون لها سبيل إلى إدراكه، وقد لطف بربوبيّته عن المحاسّة والمجاسّة، وكيف لا يلطف عنهما من لا ينتقل عن حال إلى حال، وقد جعل الانتقال نقصاً وزوالاً؟!

فسبحانك ملأتَ كلّ شيء، وباينتَ كلّ شيء. فأنت الّذي لا يفقدك شيء، وأنت الفعّال لما تشاء، تباركت يا من كلُّ مدرَكٍ من خلقه، وكلُّ محدودٍ من صنعه. أنت الّذي لا يستغني عنك المكان والزمان، ولا نعرفك إلّا بانفرادك بالوحدانيّة والقدرة»[1].

وما نقله البحراني في (الصحيفة العلويّة):

«الحمد لله أوّل محمود، وآخر معبود، وأقرب موجود. البدء بلا معلوم لأزليّته ولا آخر لأوّليته، والكائن قبل الكون بلا كيان، والموجود في كلّ مكان بلا عيان، والقريب من كلّ نجوى بغير تدانٍ. علنت عنده الغيوب، وضلّت في عظمته القلوب؛ فلا الأبصار تدرك عظمته، ولا القلوب على احتجابه تنكر معرفته، يمثل في القلوب بغير مثال تحدّه الأوهام أو تدركه الأحلام.

ثمّ جعل من نفسه دليلاً على تكبّره عن الضّدّ والنّدّ، والشّكل والمثل؛

---

(١) أخرجه المسعودي في إثبات الوصية: ١٠٦.

فالوحدانية آية الربوبيّة، والموت الآتي على خلقه مخبرٌ عن خلقه وقدرته؛ ثمّ خلقُهم من نطفة ولم يكونوا شيئاً دليلٌ على إعادتهم خلقاً جديداً بعد فنائهم كما خلقهم أوّل مرّة.

والحمد لله ربّ العالمين، الّذي لم يضرّه بالمعصية المتكبّرون، ولم ينفعه بالطاعة المتعبّدون، الحليم عن الجبابرة المدّعين، والمهمل الزّاعمين له شركاء في ملكوته، الدّائم في سلطانه بغير أمد، والباقي في ملكه بعد انقضاء الأبد، والفرد الواحد الصّمد، والمتكبّر عن الصّاحبة والولد، رافع السماء بغير عمد، ومجري السّحاب بغير صفد، قاهر الخلق بغير عدد، لكن هو الله الواحد الفرد الأحد، الّذي ﴿لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾[1].

والحمد لله الذي لم يخلُ من فضله المقيمون على معصيته، ولم يجازه لأصغر نعمه المجتهدون في طاعته. الغنيّ الذي لا يضنّ برزقه على جاحده، ولا ينقص عطاياه أرزاق خلقه؛ خالق الخلق ومفنيه، ومعيده ومبديه ومعاقبه، عالم ما أكنّته السرائر، وأخبته الضمائر، واختلفت به الألسن، وأنسته الأزمن. الحيّ الذي لا يموت، والقيّوم الّذي لا ينام، والدّائم الذي لا يزول، والعدل الّذي لا يجوز، الصافح عن الكبائر بفضله، والمعذب من عذّب بعدله، لم يخف الفوت فحلم، وعلم الفقر إليه فرحم، وقال في محكم كتابه: ﴿ولو يؤاخذ الله النّاس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة﴾[2]. أحمده حمداً أستزيده في نعمته، وأستجير به من نقمته، وأتقرّب إليه بالتصديق لنبيّه المصطفى لوحيه، المتحيّز لرسالته، المختصّ بشفاعته»[3].

وفي الجميع فقرات مرّت في العناوين السابقة.

---

(١) الاخلاص: ٣ ـ ٤.

(٢) فاطر: ٤٥.

(٣) الصحيفة العلويّة الأُولى: ٣٢ الخطبة (٢).

الفصل الثاني

في خلق السّماء والأرض
والشمس والقمر والنّجوم
والعرش والكرسيّ

مرّ في الفصل الأوّل قوله عليه السلام: «وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال، وأرساها على غير قرار، وأقامها بغير قوائم، ورفعها بغير دعائم، وحصّنها من الأود والاعوجاج، ومنعها من التّهافت والانفراج. أرسى أوتادها، وضرب أسدادها، واستفاض عيونها، وخدّ أوديتها، فلم يهن ما بناه، ولا ضعف ما قوّاه» مع شرحه[1].

١
من الخطبة (١)

بعدما مرّ في سابقه:

ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ ٱلْأَجْوَاءِ، وَشَقَّ ٱلْأَرْجَاءِ وَسَكَائِكَ ٱلْهَوَاءِ فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاطِماً تَيَّارُهُ، مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ ٱلرِّيحِ العَاصِفَةِ، وَٱلزَّعْزَعِ ٱلْقَاصِفَةِ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ. ٱلْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ، وَالمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ، ثُمَّ أَنْشَأَ

(١) مرّ في العنوان (٢٥) من الفصل الأوّل شرح الخطبة (١٨٤).

سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا، وَأَدَامَ مَرَبَّها وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا، وَأَبْعَدَ مَنْشَأَهَا، فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ المَاءِ الزَّخَّارِ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاءِ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ، تَرُدُّ أَوَّلَهُ عَلَى آخِرِهِ، وَسَاجِيَهُ إِلَى مَائِرِهِ حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ، وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَماوَاتٍ جَعَلَ سُفْلاَهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً، وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً، وَسَمْكاً مَرْفُوعاً؛ بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا، وَلاَدِسَارٍ يَنْظِمُهَا، ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ، وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً، وَقَمَراً مُنِيراً، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ.

أقول: مرّ في أوّل الفصل السابق الكلام في مستنده[١].

«ثم أنشأ سبحانه» قالوا: (ثمّ) هنا للتّفصيل بعد الإجمال في سابقه.

«فتق» والفتق ضدّ الرّتق.

«الأجواء» جمع الجوّ، وفسّر الجوّ بشيئين ما بين السماء والأرض، والفضاء الواسع، لكن الصواب الثاني، حيث إنّ كلامه عليه السلام في الجوّ قبل خلق الأرض والسماء، وقد قال أبو عمرو في قول طرفة:

يالك من قبّرة بمعمر خلا لكِ الجوّ فبيضي واصفري[٢]

الجو: ما اتسع من الأودية.

«وشقّ» مصدر عطف على (فتق).

«الأرجاء» والأرجاء جمع رجا، أي: النّاحية؛ قال تعالى: ﴿والمَلَكُ على أرجائها...﴾[٣].

---

(١) مرّ في العنوان (١) من الفصل الأول في شرح الخطبة (١).

(٢) أورده لسان العرب ٥: ٦٩ مادة (قبر) والشاعر: طرفة وقيل كليب بن ربيعة.

(٣) الحاقة: ١٧.

«وسكائك الهواء» في (اللّسان): السّكاك والسّكاكة: الهواء بين السماء والأرض، وقيل: الّذي لا يلاقي أعنان السماء. ومنه قولهم: لا أفعل ذلك ولو نزوت في السّكاك، أي: في السماء. وفي حديث الصّبيّة المفقودة قالت: فحملني على خافية من خوافيه، ثمّ دوّم بي في السّكاك[١].

السّكاك والسّكاكة: الجوّ، وهو ما بين السماء والأرض، ومنه حديث عليّ عليه السلام: «شقّ الأرجاء وسكائك الهواء». السكائك: جمع السّكاكة، وهي السّكاك، كذؤابة وذوائب[٢]. وقال أيضاً: السّكّة الطريق المستوي، وبه سمّيت سكك البريد. قال الشماخ:

حنّت على سكة السّاري فجاوبها ... حمامة من حمام ذات أطواق

ثم قال: وقال الشماخ:

نضربهم إذ أخذوا السكائكا[٣]

هذا، وبدّل (مطالب السؤول) قوله «وسكائك الهواء» بقوله «رتق الهواء»[٤]. وكيف كان فقال ابن أبي الحديد: ظاهر كلامه عليه السلام أنّ الفضاء الّذي هو الفراغ الذي يحصل فيه الأجسام خلقه الله تعالى، ولم يكن من قبل، وهذا يقتضي كون الفضاء شيئاً، لأنّ المخلوق لا يكون عدماً محضاً، وليس ذلك ببعيد، فقد ذهب إليه قوم من أهل النظر، وجعلوه جسماً لطيفاً خارجاً عن مشابهة هذه الأجسام، ومنهم من جعله مجرّداً[٥].

قلت: والصواب كونه جسماً لطيفاً يشهد له قول السجاد عليه السلام في تسبيح

---

(١) نقله أيضاً ابن الاثير في النهاية ٢: ٣٨٥ مادة (سكك).

(٢) لسان العرب ١٠: ٤٤١ مادة (سكك).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) في مطالب السؤول: ٢٨ «رافق الهواء» والظاهر أنّه تحريف.

(٥) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٧.

الصحيفة: «سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء»[١]. ويمكن أن يكون قولهعليه السلام: «وسكائك الهواء» إشارة إلى ما اكتشفوه في هذه العصور من أمواج الهواء التي تحمل الأصوات في الراديات.

«فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّاره» أي: موجه؛ وفي (الصحاح): يقال قطع عرقاً تيّاراً، أي: سريع الجرية، وقال عدي:

كالبحر يقذف بالتّيّار تيّاراً[٢].

«متراكماً» أي: متراكباً.

«زخّاره» من زخر الوادي إذا امتدّ جدّاً وارتفع.

«حمله على متن الريح العاصفة» أي: الشديدة.

«والزّعزع» أي: المحرّكة للأشياء.

«القاصفة» أي: الكاسرة لها؛ يقال قصفت الرّيح السفينة، قال المجلسي: وهذه الرّيح غير الهواء المذكور أوّلاً، كما سيأتي في قول الصادقعليه السلام للزّنديق: الرّيح على الهواء والهواء تمسكه القدرة[٣]. فيمكن أن تكون مقدّمة في الخلق عليه ومتأخرة عنه أو مقارنة له[٤].

«فأمرها بردّه وسلّطها على شدّه وقرنها إلى حدّه» قال المجلسي: أي: أمر الرّيح أن تحفظ الماء، وتردّه بالمنع عن الجري الّذي سبقت الإشارة إليه بقوله: «فأجرى فيها ماء»، فكان قبل الردّ قد خلّي وطبعه ـ أي: عن الجري الّذي يقتضيه طبعه ـ وقوّاها على ضبطه كالشيء المشدود، وجعلها مقرونة إلى

---

(١) ملحقات الصحيفة السجادية الكاملة: ٣١٩، الدعاء (١) وقد مرّ في العنوان (٢١) من الفصل الأول.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٢: ٦٠٣ مادة (تير).

(٣) الظاهر انّه أشار إلى ما جاء في البحار ٦٠: ١٥ ح ١٩ عن احتجاج الطبرسي، وهو في الاحتجاج ٢: ٣٥٠، لكن ليس بهذه الألفاظ، وروى قريباً منه البرسي في المشارق: ٤٣، والمجلسي في البحار ٥٧: ٢٠١ عن عليعليه السلام.

(٤) بحار الأنوار ٥٧: ١٨٣.

انتهائه محيطة به[١].

قلت: مقتضى كلامه أنّ الله تعالى أجرى الماء أوّلاً في الهواء المجرّد بجعل الهواء حاملاً له، وأنّ الماء كان جارياً حينئذٍ على مقتضى طبعه من الحركة إلى السفل، ثمّ حمله على ظهر الرّيح فقسرت جريه وعكسته، مع أنّ ظاهر كلامه عليه السلام أنّ جريه أوّلاً في الهواء كان بتوسّط حمله على ظهر الرّيح، فإنّ الظاهر أنّ قوله عليه السلام: «حمله على متن الرّيح العاصفة...» حال من (ماء) في قوله: «فأجرى فيها ماء...» أي: أجرى الماء حاملاً له على متن الريح، ولو كان المعنى كما ذكر لقال عليه السلام: (ثم حمله).

«الهواء من تحتها فتيق» أي: منشقّ.

«والماء من فوقها دفيق» قال الجوهري: دفقت الماء أدفقه دفقاً، أي: صببته، فهو ماء دافق، أي: مدفوق، كما قالوا: سرٌّ كاتم. أي: مكتوم، لأنّه من قولك: دفق الماء على ما لم يسمّ فاعله[٢].

قلت: بل الظاهر أنّ قولهم: ماء دافق، ومثله ماء دفيق، كما هنا بمعنى وثّاب؛ قال تعالى: ﴿فلينظر الإنسان ممّ خلق * خلق من ماء دافق﴾[٣].

قال المجلسي في معنى قوله: «الهواء من تحتها فتيق والماء من فوقها دفيق» أي: الهواء الذي هو محلّ الرّيح مفتوق، أي: مفتوح منبسط من تحت الرّيح الحاملة للماء، والماء دفيق من فوقها، أي: مصبوب مندفق، والغرض أنّه سبحانه بقدرته ضبط الماء المصبوب بالرّيح الحاملة له، كما ضبط الرّيح بالهواء المنبسط، وهو موضع العجب[٤].

---

(١) المصدر نفسه، وقال عقيب كلامه في حديث الصادق عليه السلام: «ويمكن أن يكون المراد بها ما تحرك منه كما هو المشهور».

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٤: ١٤٧٥ مادة (دفق).

(٣) الطارق: ٥ ـ ٦.

(٤) بحار الأنوار ٥٧: ١٨٤.

قلت: بل الظاهر أنّ الغرض أنّ مقتضى الطبيعة أن يكون الماء تحت، والرّيح فوقه، والهواء فوقها، وهو تعالى جعل الرّيح وسطاً والماء فوقها والهواء تحتها، وهو موضع العجب.

«ثمّ أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبّها» اعتقم: من قولهم: رحم معقومة، أي: مشدودة لا تلد.

«وأدام مربّها» أي اقامتها في محلّها، من قولهم: مربُّ الإبل لمكان لزمته.

قال المجلسي: الظاهر أنّ هذه الريح غير ما جعلها الله محلاًّ للماء، بل هي مخلوقة من الماء كما سيأتي في الرواية[1].

قلت: كون هذه الرّيح غير الأُولى لا يحتاج فيه إلى الاستناد إلى الرواية الدّالّة على خلقها من الماء، بل نفس هذه الفقرة مع ظهورها في عدم خلقها من ذلك الماء كالصريحة في التّغاير للتعبير بقوله: «ثمّ أنشأ...».

وقال ابن أبي الحديد: استدلّ الراوندي لتغاير الرّيح الثانية مع الأُولى بتعريف الأُولى وتنكير الثانية، وردّه بأنّه ليس مستفاداً من مجرّدهما، بل من كون إحداهما تحت الماء والأُخرى فوقه[2].

قلت: وأيّ مانع من أن يجعل مقداراً من ريح واحدة تحت الماء، ومقداراً فوقه؟ فالصواب أن يستند إلى التّعبير بفقرة «ثمّ أنشأ».

«وأعصف» أي: أشدّ.

«مجراها» أي: جريانها.

«وأبعد منشأها» من منتهاها.

«فأمرها بتصفيق» قال الجوهري: الصّفق: الضرب الذي يسمع

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٩، والنقل بالمعنى.

له صوت[١].

«الماء الزخّار» أي: الكثير.

«وإثارة» من: أثار الغبار.

«موج البحار» بجعله فوق وتحت.

«فمخضته» أي: حرّكته.

«مخض السّقاء» أي: سقاء اللّبن لأخذ زبده.

«وعصفت به» أي: بالماء.

«عصفها بالفضاء» أي: حرّكت الماء مثل تحريكها للفضاء.

«تردّ أوّله إلى» هكذا في (المصرية)، والصواب: (على) كما في (ابن أبي الحديد والخطية)[٢].

«آخره وساجيه» أي: ساكنه.

«إلى» هكذا في (المصرية)، والصواب: (على) كما في (ابن أبي الحديد والخطية)[٣].

«مائرة» أي: متحرّكة؛ قال الأعشى:

كأنّ مشيتها من بيت جارتها ... مور السّحابة لا ريث ولا عجل[٤]

«حتّى عبّ عبابه» أي: ارتفع سيله وموجه، أو صوّت.

«ورمى بالزّبد» أي: زبد الماء.

«ركامه» أي: متراكمه.

«فرفعه في هواء منفتق» أي: منشقّ.

---

(١) صحاح اللغة للجوهري ٤: ١٥٠٧ مادة (صفق).

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٧، وشرح ابن ميثم ١: ١٣١ «الى آخره» أيضاً.

(٣) في شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٧، وشرح ابن ميثم ١: ١٣١ «الى مائره» أيضاً.

(٤) أورده لسان العرب ٥: ١٨٦ مادة (مور).

«وجوّ منفهق» أي: متّسع.

«فسوّى منه سبع سماوات» وروى (الكافي) عن الباقر عليه السلام قال: كان كلّ شيء ماءً، وكان عرشه على الماء، فأمر الله تعالى الماء فاضطرم ناراً، ثمّ أمر النار فخمدت، فارتفع من خمودها دخان فخلق الله السماوات من ذلك الدّخان، وخلق الأرض من الرّماد[١].

وروى في خبر آخر عنه عليه السلام: وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه، وهو الماء الذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كلّ شيء إلى الماء، ولم يجعل للماء نسباً يضاف إليه، وخلق الرّيح من الماء، ثمّ سلّط الرّيح على الماء، فشققت الرّيح متن الماء حتّى صار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلك الزبد أرضاً بيضاء نقية ليس فيها صدع ولا ثقب ولا صعود ولا هبوط ولا شجرة، ثمّ طواها فوضعها فوق الماء، ثمّ خلق الله النّار من الماء فشققت النّار متن الماء حتّى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء الله أن يثور، فخلق من ذلك الدّخان سماءً صافية نقية ليس فيها صدع ولا ثقب[٢].

وروى (تفسير القمي) عن الصادق عليه السلام في خبر قال: كان عرشه على الماء، والماء على الهواء، والهواء لا يحدّ ولم يكن يومئذٍ خلق غيرهما، والماء يومئذٍ عذب فرات؛ فلمّا أراد أن يخلق الأرض أمر الرّياح فضربت الماء حتّى صار موجاً، ثمّ أزبد فصار زبداً واحداً، فجمعه في موضع البيت، ثمّ جعله جبلاً من زبد، ثمّ دحا الأرض من تحته، فقال: ﴿إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للّذي ببكّة مباركاً...﴾[٣] ثم مكث الرّب تبارك وتعالى ما شاء، فلمّا أراد أن يخلق

---

(١) أخرجه الكليني في الكافي في صدر حديث في موضعين ٨: ٩٥ ح ٦٨، و: ١٥٣ ح ١٤٢.

(٢) أخرجه الكليني ضمن حديث في الكافي ٨: ٩٤ ح ٦٧.

(٣) آل عمران: ٩٦.

السماء أمر الرياح، فضربت البحور حتّى أزبدت بها فخرج من ذلك الموج - والزّبد من وسطه - دخان ساطع من غير نار، فخلق منه السماء، وجعل فيها البروج والنجوم، ومنازل الشمس والقمر، وأجراها في الفلك، وكانت السماء خضراء على لون الماء الأخضر، وكانت الأرض غبراء على لون الماء العذب، وكانتا مرتوقتين ليس لهما أبواب[١].

«جعل سفلاهنّ موجاً مكفوفاً» عن السقوط، وفي خبر سؤال الرّجل الشامي عن الباقر عليه السلام وسأله عن السماء الدّنيا ممّ هي؟ قال: من موج مكفوف[٢].

«وعلياهنّ سقفاً محفوظاً» هكذا في (النّهج)، ولكن في (مطالب السؤول) نقله «وسقفاً محفوظاً» بدون كلمة (علياهنّ)[٣]؛ وعليه يصير المعنى كون سفلاهنّ سقفاً محفوظاً ككونها موجاً مكفوفاً، وكأنّه أصحّ. فقال تعالى: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾[٤] فجعل السّفلى سقفاً محفوظاً، وكذلك قوله عليه السلام: «وسمكاً مرفوعاً» لم يخصّه الله تعالى

(١) أخرجه علي بن إبراهيم في تفسيره ٢: ٦٩، وقريب منه ما أخرجه صاحب تفسير العسكري فيه: ٦٩ عن النبي صلى الله عليه وآله، وأخرجه القرات الكوفي في تفسيره: ٦٦ عن علي عليه السلام، وأخرجه العياشي في تفسيره ١: ١٨٦ ح ٩١، والكليني بروايتين في الكافي ٤: ١٨٩ ح ٧، و ٨: ٩٤ ح ٦٧ عن الباقر عليه السلام، وعلي بن إبراهيم في تفسيره ١: ٣٢١ بلا عزو، وروي عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم موقوفاً.

(٢) أخرجه ضمن أسئلة رجل من الشام لعلي عليه السلام الصدوق في علل الشرائع ٢: ٥٩٣ ح ٤٤، والعيون ١: ١٨٨ ح ١، وأخرج معناه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وابن أبي حاتم عن أبي الجلد موقوفاً، وابن راهويه في مسنده وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في معجمه الأوسط، وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس موقوفاً عنهم الدرّ المنثور ١: ٤٤، وقد جاء ذكر (الموج المكفوف) في أخبار أُخرى لم يسع المقام لذكرها.

(٣) مطالب السؤول: ٢٨.

(٤) الأنبياء: ٣٢.

بالعليا. فقال: ﴿أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها* رفع سمكها فسوّاها﴾[١]، وقال عزّوجلّ: ﴿والسّقف المرفوع﴾[٢]، بل قوله في ما يأتي: «ثم زيّنها بزينة الكواكب» أيضاً يشهد لزيادة كلمة (علياهنّ)؛ وعليه فلا يحتاج إلى ما تكلّفه المجلسيّ في شرح الفقرة على نقل (النّهج)، فقال: يخطر بالبال وجه آخر، وهو أن يكون المراد أنّه تعالى جعل الجهة السفلى من كلٍّ من السماوات موّاجة متحرّكة واقعاً، أو في النّظر، والجهة العليا منها سقفاً محفوظاً تستقرّ عليه الملائكة، ولا يمكن للشّياطين خرقها[٣].

«بغير عمد يدعمها» أي: يكون عماداً لها.

«ولا دسار» أي: مسمار.

«ينظمها» هكذا في (المصرية)، والصواب: (ينتظمها) كما في (ابن أبي الحديد والخطّيّة)[٤].

«ثمّ زيّنها بزينة الكواكب» ولا ريب أنّ الضمير في (زيّنها) يرجع إلى السماء الدّنيا لقوله تعالى: ﴿إنّا زيّنا السماء الدّنيا بزينةٍ الكواكب﴾[٥]، وقوله عزّوجلّ: ﴿ولقد زيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح...﴾[٦].

«وضياء الثواقب» والأصل في الثقب: ثقب الدّرّ، والمراد ثقبها بضوئها؛ قال تعالى: ﴿وما أدراك ما الطارق* النّجم الثّاقب﴾[٧].

---

(١) النازعات: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) الطور: ٥.

(٣) بحار الأنوار ٥٧: ١٨٦.

(٤) في شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٧، وشرح ابن ميثم ١: ١٣١ «ينظمها» أيضاً.

(٥) الصافات: ٦.

(٦) الملك: ٥.

(٧) الطارق: ٢ ـ ٣.

وعن الصادق عليه السلام: النّجم الثاقب: زحل، ومطلعه في السماء السابعة، وأنّه ثقب بضوئه حتّى أضاء في السّماء الدّنيا، فمن ثمّ سمّاه الله النّجم الثاقب[١].

«وأجرى فيها سراجاً مستطيراً» قال تعالى: ﴿وجعلنا سراجاً وهّاجاً﴾[٢]، وقال عزّوجلّ: ﴿والشّمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[٣].

وقال الصادق عليه السلام للمفضّل: فكّر الآن في تنقّل الشّمس في البروج الاثني عشر لإقامة دور السّنة، وما في ذاك من التّدبير... انظر إلى شروقها على العالم كيف دبّر أن يكون، فإنّها لو كانت تبزغ في موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها إلى كثير من الجهات، لأنّ الجبال والجدران كانت تحجبها عنها، فجعلت تطلع أوّل النّهار من المشرق، فتشرق على ما قابلها من وجه المغرب، ثمّ لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتّى تنتهي إلى المغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أوّل النهار، فلا يبقى موضع من المواضع إلّا أخذ بقسطه من المنفعة منها والإرب الّتي قدّرت له[٤].

«وقمراً منيراً» ﴿وجعل القمر فيهنّ نوراً...﴾[٥].

«في فلك دائر وسقف سائر ورقيم» أي: منتقش.

«مائر» أي: متحرّك، والظاهر أنّ (دائر) خبر لكلمة (كلّ) محذوفة لا صفة لـ(فلك)، وفي (فلك) متعلّق به، ومثله (سائر) و (مائر)؛ فيكون المعنى: كلّ من الكواكب والشمس والقمر دائر في فلك، وسائر في سقف، ومائر في رقيم.

---

(١) هذا مقتبس من حديث طويل أخرجه الصدوق في الخصال ٢: ٤٨٩ ح٦٨.

(٢) النبأ: ١٣.

(٣) يس: ٣٨.

(٤) توحيد المفضل: ١٣٠.

(٥) نوح: ١٦.

فيكون مساوقاً لقوله تعالى ـ بعد ذكر الشمس والقمر ـ: ﴿...كلٌّ في فلك يسبحون﴾[١].

وقال الصادق عليه السلام ـ بعد ذكر مقدار من حِكَمه تعالى في الشمس والقمر والنّجوم ـ: مع ما في تردّدها في كبد السّماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من العبر، فإنّها تسير أسرع السّير وأحثّه؛ أرأيت لو كانت الشمس والقمر والنجوم بالقرب منّا حتّى يتبيّن لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه، ألم تكن تستخطف الأبصار بوهجها وشعاعها، كالّذي يحدث أحياناً من البروق إذا توالت واضطرمت في الجوّ؟! وكذلك لو أنّ أُناساً كانوا في قبة مكلّلة بمصابيح تدور حولهم دوراناً حثيثاً، لحارت أبصارهم حتّى يخرّوا لوجوههم. فانظر كيف قدّر أن يكون مسيرها في البعد البعيد لكيلا تضرّ في الأبصار، وتنكأ فيها بأسرع السرعة، لكيلا تتخلّف عن مقدار الحاجة في مسيرها[٢].

٢
من الخطبة (٨٩)

(منها في صفة السّماء):

وَنَظَمَ بِلاَ تَعْلِيقٍ رَهَوَاتِ فُرَجِهَا، وَلاَحَمَ صُدُوعَ انْفِرَاجِهَا، وَوَشَّجَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَزْوَاجِهَا، وَذَلَّلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ، وَالصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ حُزُونَةَ مِعْرَاجِهَا، نَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ، فَالْتَحَمَتْ عُرَى أَشْرَاجِهَا، وَفَتَقَ بَعْدَ الارْتِتَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا، وَأَقَامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا، وَأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تَمُورَ فِي خَرْقِ الْهَوَاءِ بِأَيْدِهِ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لأَمْرِهِ، وَجَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا، وَقَمَرَهَا آيَةً

(١) يس: ٤٠.

(٢) توحيد المفضل: ١٣٥.

مَنْحُوَّةً مِنْ لَيْلِهَا، فَأَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا، وَقَدَّرَ سَيْرَهُمَا فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِمَا، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِهِمَا، وَلِيُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ بِمَقَادِيرِهِمَا، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوِّهَا فَلَكَهَا، وَنَاطَ بِهَا زِينَتَهَا، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيهَا، وَمَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا، وَرَمَى مُسْتَرِقِي السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شُهُبِهَا، وَأَجْرَاهَا عَلَى أَذْلاَلِ تَسْخِيرِهَا، مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا، وَمَسِيرِ سَائِرِهَا، وَهُبُوطِهَا وَصُعُودِهَا، وَنُحُوسِهَا وَسُعُودِهَا.

«ونظم بلا تعليق رهوات فرجها» قال ابن أبي الحديد في شرح الفقرة: يقول عليه السلام: كانت السماء أوّل ما خلقت غير منتظمة الأجزاء بل بعضها أرفع وبعضها أخفض، فنظمها سبحانه، فجعلها بسيطاً واحداً، نظماً اقتضته القدرة الإلهيّة من غير تعليق، أي: لا كما ينظم الإنسان ثوباً مع ثوب أو عقداً مع عقد بالتّعليق والخياطة. وتبعه الخوئي في ذلك[١].

قلت: فيه أوّلاً: إنّه هل كان بناؤه تعالى للسّماء كبناء الناس لشيء أوّلاً غير منظم لعدم فهمهم الخلل، ثمّ ينظمونه بعد الوقوف على خلله تعالى عن ذلك؟

وثانياً: إنّ المعنى الذي قال يستلزم استعمال (الرهوات) في معنيين؛ قال (الصحاح): الرّهو والرّهوة: المكان المرتفع والمنخفض أيضاً، يجتمع فيه الماء[٢]. وهو من الأضداد، واستعمال المشترك في معنيين غير جائز، والأظهر أنّ رهوات في كلامه عليه السلام بمعنى المنفتحات، كقوله تعالى: ﴿واترك البحر رهواً...﴾[٣]. والمراد نظمها أوّلاً، ويشهد له إضافتها إلى فرجها.

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٧، وشرح الخوئي ٣: ٩٥.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٦: ٢٣٦٥ مادة (رهو).

(٣) الدخان: ٢٤.

«ولاحم صدوع انفراجها» أي: جعلها ملصقة ابتداءً.

«ووشّج» أي: خلّط، والأصل فيه الاشتباك؛ ولهذا يطلق الوشيجة على عرق الشّجر، وعلى ليف يُفتل لشدّ الحمل، لأنّهما يشتبكان.

«بينها وبين أزواجها» أي: قرائنها، كقوله تعالى: ﴿احشروا الّذين ظلموا وأزواجهم...﴾[1].

وقال ابن ميثم: المراد بأزواجها نفوسها التي هي الملائكة السماوية[2]. وردّه المجلسيّ بنقل المرتضى: الإجماع من المسلمين على أنّ الأفلاك لا شعور لها ولا إرادة. وقال: يمكن أن يراد بالأزواج الملائكة الموكّلون بها، أو القاطنون فيها، أو أشباهها من الكواكب والأفلاك الجزئية، أو أشباحها في الجسمية والإمكان من الأرضيات[3]. وهو كما ترى، لا سيّما الأوّل والأخير من وجوهه. فلا معنى للتّوشيج بين السماوات والملائكة، وبينها وبين الأرضيات.

«وذلّل للهابطين» أي: للملائكة الهابطين.

«بأمره» من السماء.

«والصاعدين بأعمال خلقه» من الأرض.

«حزونة» أي: خشونة.

«معراجها» أي: العروج إليها.

«ناداها» هكذا في (المصرية)، والصواب: (ناداها) كما في (ابن أبي

---

(١) الصافات: ٢٢.

(٢) شرح ابن ميثم ٢: ٣٤٦.

(٣) بحار الأنوار ٥٧: ١٢٨، وأمّا ما نقله عن المرتضى فمن ملحقات الدرر والغرر له، لكن لم يصرح المجلسي بكونه من الملحقات، ونقل ابن طاووس في فرج المهموم: ٤١ قول المرتضى ونقده بتفصيل.

الحديد وابن ميثم والخطيّة)[١].

«بعد إذ هي دخان» الأصل في كلامه عليه السلام قوله تعالى: ﴿ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين* فقضاهنّ سبع سماوات في يومين وأوحى في كلّ سماءٍ أمرها...﴾[٢]، والنّداء في كلامه عليه السلام، كالقول في الآية، حاليٌّ لا مقاليّ.

«فالتحمت عرى» جمع عروة، عروة الكوز وغيره.

«أشراجها» جمع الشّرج؛ قال الفيروزآبادي: الشّرج محرّكة العرى ومنفسح الوادي ومجرة السماء، وفرج المرأة، وانشقاق القوس[٣].

قلت: والظاهر أنّ الأصل في معناه الانشقاق فهو يجمع معاني ذكرها، ولكن ذكر (النهاية) له معنيين آخرين فقال: وفي حديث الصوم: فأمرنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالفطر فأصبح الناس شرجين؛ يعني نصفين : نصف صيام، ونصف مفاطير. وفي حديث مازن: فلا رأيهم رأيي، ولا شرجهم شرجي. يقال: ليس هو من شرجه، أي: من طبقته وشكله، ومنه حديث علقمة: وكان نسوة يأتينها مشارجات لها.أي: أتراب وأقران[٤].

قلت: ويمكن إرجاعهما إليه أيضاً، وكيف كان فقال ابن أبي الحديد: أشراجها: جمع شرج، وهو عرى العيبة، وأشرجت العيبة، أي: أقفلت أشراجها، وتسمّى مجرّة السماء شرجاً تشبيهاً بشرج العيبة[٥].

قلت: لم يقل أحد أنّ الشرج عرى العيبة، بل مطلق العرى، ومنشأ وهم

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٦، لكن لا توجد (الواو) في شرح ابن ميثم ٢: ٣٤٥.

(٢) فصلت: ١١ ـ ١٢.

(٣) القاموس المحيط ١: ١٩٥ مادة (شرج).

(٤) النهاية لابن الأثير ٢: ٤٥٦ مادة (شرج).

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٧.

ابن أبي الحديد أنّ الجوهري قال: شرج العيبة عراها[(١)]. فـفسّر شـرج العـيبة بعرى العيبة، لا مطلق الشّرج. ثمّ على تفسيره ماذا يجعله معنى الكلام، فيصير معناه: فالتحمت عرى عرى عيبتها، وهو بلا معنى، كما أنّ ما ذكره مـن أنّ مجرّة السماء سمّيت شرجاً تشبيهاً بشرج العيبة، لم يذكره أحد، وأيّ شباهة بينهما حتّى تشبّه به.

«وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها» قال تعالى: ﴿أولم ير الّذين كفروا أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما...﴾[(٢)] لكن الأخبار فسّرت الآية بأنّ السماء كانت رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت. ففتقتا بالأمطار والنّبات[(٣)].

وأمّا قوله عليه السلام: «صوامت أبوابها» فقال ابن أبي الحديد: هو وقوله بـعد: «على نقابها» صريح في أنّ للسّماء أبواباً، وهو مطابق لقوله تعالى: ﴿...لا تفتّح لهم أبواب السّماء...﴾[(٤)]، والقرآن وكلام هذا الامام المعظّم أولى بالاتّباع من كلام الفلاسفة الّذين أحالوا الخرق على الفلك[(٥)].

وقال المجلسي: وفتق صوامت الأبواب: إمّا كناية عن إيـجاد الأبـواب فيها وخرقها بعدما كانت رتقاً لا باب فيها، أو فتح الأبواب المخلوقة فيها حين ايجادها، وهذه الأبواب هي الّتي منها عروج الملائكة وهبوطها وصعود أعمال

---

(١) صحاح اللغة للجوهري ١: ٣٢٤ مادة (شرج).

(٢) الأنبياء: ٣٠.

(٣) هذا التفسير نقله الكليني في الكافي ٨: ٩٤ ح٦٧، والاربلي في كشف الغمة ٢: ٣٣٨، والطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٢٦ عن الباقر عليه السلام، وعلي بن إبراهيم في تفسيره ٢: ٦٩ عن الصادق عليه السلام، ونقله الفريابي، وعبد بن حميد في مسنده، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن المنذر وأبو نعيم في حلية الأولياء، وبروايتين ابن أبي حاتم عنهم الدرّ المنثور ٤: ٢١٧، وصاحب تنوير المقباس فيه ٣: ٢٥٩ عن ابن عباس، ونقله الطوسي في التبيان ٧: ٢١٥ عن الباقر والصادق عليهما السلام وعكرمة وابن زيد.

(٤) الأعراف: ٤٠.

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٧ والنقل بالمعنى.

العباد وأدعيتهم وأرواحهم، كما قال تعالى: ﴿...لا تفتّح لهم أبواب السماء...﴾[١] والتي تنزل منها الأمطار كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾[٢].

قلت: لقائل أن يقول: إنّ الآية الأُولى كناية عن عدم المبالاة بهم، فبعدها: ﴿...ولا يدخلون الجنّة حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط...﴾[٣] والآية المتقدمة كما عرفت، وبالجملة؛ كلامه عليه السلام كالقرآن لا صراحة فيه في ما ادّعيا.

«وأقام رصداً من الشّهب الثّواقب على نقابها» نقاب، جمع نقب: الطريق بين الموضعين. قال تعالى: ﴿وإنّا لمسنا السّماء فوجدناها مُلئت حرساً شديداً وشهباً* وإنّا كنّا نقعد منها مقاعد للسّمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا﴾[٤]، لكن ظاهر كلامه عليه السلام أنّ الإرصاد كان من الأوّل، وظاهر الآية حكاية عن الجنّ أنّه كان أخيراً، والمراد بعد مولد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وجمع بينهما بكونه أوّلاً خفيفاً وشدّد أخيراً.

«وأمسكها من أن تمور» أي: تضطرب؛ قال تعالى: ﴿يوم تمور السماء موراً﴾[٥] والمراد في القيامة.

«في خراق» جمع خرق، أي: متّسعات.

«الهواء بأيده» أي: بقوّته؛ قال تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ...﴾[٦]، ﴿إنّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من

---

(١) الأعراف: ٤٠.

(٢) بحار الأنوار ٧: ١٢٩، والآية (١١) من سورة القمر.

(٣) الأعراف: ٤٠.

(٤) الجن: ٨ ـ ٩.

(٥) الطور: ٩.

(٦) الذاريات: ٤٧.

بعده...﴾[١].

«وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره» ﴿...وأوحى في كلّ سماء أمرها...﴾[٢].

«وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها، وقمرها آية ممحوّة من ليلها» ﴿وجعلنا اللّيل والنّهار آيتين فمحونا آية اللّيل وجعلنا آية النّهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربّكم...﴾[٣].

قال الصادق عليه السلام للمفضّل: فكّر يا مفضّل في طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتي النّهار واللّيل، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كلّه، فلم يكن الناس يسعون في معائشهم، ويتصرّفون في أُمورهم، والدّنيا مظلمة عليهم، ولم يكونوا يتهنّؤون بالعيش مع فقدهم لذّة النّور وروحه، والإرب في طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الإطناب في ذكره، والزّيادة في شرحه.

بل تأمّل المنفعة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للنّاس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والرّاحة لسكون أبدانهم، وجموم حواسّهم، وانبعاث القوّة الهاضمة لهضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم نكايته في أبدانهم، فإنّ كثيراً من النّاس لولا جثوم هذا اللّيل بظلمته عليهم لم يكن لهم هدوء ولا قرار حرصاً على الكسب والجمع والادّخار، ثمّ كانت الأرض تستحمي بدوام الشّمس بضيائها، ويحمى كلّ ما عليها من حيوان ونبات، فقدّرها الله بحكمته وتدبيره تطلع وقتاً وتغرب وقتاً، بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم، ثمّ يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤوا ويقروا؛ فصار

---

(١) فاطر: ٤١.

(٢) فصلت: ١٢.

(٣) الإسراء: ١٢.

النّور والظلمة مع تضادّهما منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه.

ثمّ فكّر بعد هذا في ارتفاع الشّمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السّنة، وما في ذلك من التّدبير والمصلحة؛ ففي الشّتاء تعود الحرارة في الشجر والنّبات، فيتولّد فيهما موادّ الثمار، ويستكثف الهواء فينشأ منه السّحاب والمطر، وتشدّ أبدان الحيوان وتقوى؛ وفي الرّبيع تتحرّك وتظهر الموادّ المتولّدة في الشتاء، فيطلع النّبات وتنوّر الأشجار، ويهيج الحيوان للسّفاد؛ وفي الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار، وتتحلل فضول الأبدان، ويجفّ وجه الأرض، فتُهيأ للبناء والأعمال؛ وفي الخريف يصفو الهواء، وترتفع الأمراض، وتصحّ الأبدان، ويمتدّ اللّيل، فيمكن فيه بعض الأعمال لطوله وطيب الهواء فيه إلى مصالح أُخرى لو تقصّيت لذكرها لطال الكلام.

فكّر الآن في تنقّل الشّمس في البروج الاثني عشر لإقامة دور السنة، وما في ذلك من التدبير، فهو الدور الّذي تصحّ به الأزمنة الأربعة من السنة، الشتاء والربيع والصيف والخريف، وتستوفيها على التّمام، وفي هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلّات والثمار، وتنتهي إلى غاياتها، ثمّ تعود فيُستأنف النّشوءُ والنموّ؛ ألا ترى أنّ السنة مقدار مسير الشّمس من الحمل إلى الحمل؟ فبالسنة وأخواتها يكال الزّمان من لدن خلق الله تعالى العالم إلى كلّ وقت وعصر من غابر الأيّام، وبها يحسب النّاس الأعمار والأوقات الموقّتة للدّيون، والإجارات والمعاملات، وغير ذلك من أُمورهم، وبمسير الشمس تكمل السنة، ويقوم حساب الزّمان على الصّحة ـ إلى أن قال: ـ

ولو تخلّفت مقدار عام أو بعض عام كيف كان يكون حالهم، بل كيف

كان يكون لهم مع ذلك بقاء، أفلا ترى كيف كان يكون للناس هذه الأُمور الجليلة التي لم يكن عنهم فيه حيلة، فصارت تجري على مجاريها لا تفتل، ولا تتخلّف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه بقاؤه ـ إلى أن قال: ـ

فكّر في إنارته (أي القمر) في ظلمة اللّيل والإرب في ذلك، فإنّه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النّبات لم يكن صلاح في أن يكون اللّيل ظلمة داجية لا ضياء فيها، فلا يمكن فيه شيء من العمل لأنّه ربّما احتاج الناس إلى العمل باللّيل لضيق الوقت عليهم في بعض الأعمال في النّهار، ولشدّة الحرّ وإفراطه، فيعمل في ضوء القمر أعمالاً شتّى كحرث الأرض، وضرب اللّبن، وقطع الخشب، وما أشبه ذلك؛ فجعل ضوء القمر معونة للناس على معائشهم إذا احتاجوا إلى ذلك وأُنساً للسائرين، وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض، ونقص مع ذلك عن نور الشّمس وضيائها لكيلا ينبسط الناس في العمل انبساطهم بالنّهار، ويمتنعوا من الهدوء والقرار فيهلكهم ذلك؛ وفي تصرّف القمر خاصة في مهلّه ومحاقه وزيادته ونقصانه وكسوفه من التنبيه على قدرة الله تعالى خالقه المصرّف له هذا التصريف لصلاح العالم ما يعتبر به المعتبرون[(١)].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في الخطاب إلى الشّمس عند طلوعها: «أيّتها الشمس البديعة التصوير، المعجزة التقدير، التي جُعلت سراجاً للأبصار، ونفعاً لسكّان الأمصار؛ شروقك حياة، وغروبك وفاة، إن طلعت بأمر عزيز، وإن رجعت إلى مستقر حريز، أسأل الّذي زيّن بك السماء، وألبسك الضياء، وصدع لك أركان المطالع، وحجبك بالشعاع اللّامع، فلا يشرف بك شيء إلّا امتحق، ولا يواجهك بشر إلّا احترق، أن يهب لنا بك من الصّحة ودفع العلّة،

---

(١) توحيد المفضل: ١٢٨.

وردّ العزبة، وكشف الكربة...»[١].

وعن السجّادعليه السلام في الخطاب إلى القمر عند مستهلّه: أيّها الخلق المطيع، الدّائب السّريع، المتردّد في منازل التقدير، المتصرّف في فلك التدبير، آمنت بمن نوّر بك الظّلم، وأوضح بك البهم، وجعلك آية من آيات ملكه، وعلامة من علامات سلطانه، وامتهنك بالزّيادة والنّقصان، والطّلوع والأُفول، والإنارة والكسوف، في كلّ ذلك أنت له مطيع، وإلى إرادته سريع. سبحانه ما أعجب ما دبّر في أمرك، وألطف ما صنع في شأنك؛ جعلك مفتاح شهر حادث لأمر حادث، فأسأل الله ربّي وربّك، وخالقي وخالقك، ومقدّري ومقدّرك، ومصوّري ومصوّرك أن يصلّي على محمّد وآله، وأن يجعلك هلال بركة لا تمحقها الأيّام، وطهارة لا تدنسها الآثام، هلال أمنٍ من الآفات وسلامةٍ من السّيئات، هلال سعد لا نحس فيه، ويُمْنٍ لا نَكْد معه، ويسر لا يمازجه عسر، وخير لا يشوبه شرّ، هلال أمنٍ وإيمان ونعمة وإحسان وسلامة وإسلام.

اللّهم صلِّ على محمّد وآله، واجعلنا من أرضى من طلع عليه، وأزكى من نظر إليه، وأسعد من تعبّد لك فيه، ووفّقنا فيه للتّوبة، وأعصمنا فيه من الحوبة، واحفظنا من مباشرة معصيتك، وأوزعنا فيه شكر نعمتك، وألبسنا فيه جنن العافية، وأتمم علينا باستكمال طاعتك فيه المنّة، إنّك المنّان الحميد...»[٢].

«فأجراهما» هكذا في (المصرية)، والصواب: (وأجراهما) كما في (ابن

(١) رواه المحدث النوري في الصحيفة العلوية الثانية: ٢٠٠ عن ظهر نسخة عتيقة من كتاب لبّ اللباب. وأشار إليه ابن طاووس في جمال الأُسبوع: ٢٣٠.

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٠٩ الدعاء ٤٣، ورواه بفرق يسير القاضي القضاعي في دستور المعالم: ١٣٠، وأبو علي الطوسي في أماليه ٢: ١٠٩ المجلس ١٧ عن عليعليه السلام.

أبي الحديد وابن ميثم والخطيّة)[١].

«في مناقل» جمع منقل، اسم مكان.

«مجراهما» مجرى مصدر ميمي.

«وقدّر سيرهما» هكذا في (المصرية)، والصواب: (مسيرهما) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[٢].

«في مدارج درجهما» أي: حركتهما؛ قال تعالى في الأوّل: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾[٣] وفي الثاني: ﴿والقمر قدّرناه منازل حتّى عاد كالعُرجون القديم﴾[٤].

وروى الصولي عن ابن عبّاس في منازل القمر أنّها ثمانية وعشرون، ينزل القمر كلّ ليلة منزلاً منها، وهي: الشّرطان، والبطين، والثّريا، والدّبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنّثرة، والطرف، والجبهة، والزّبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزّبانا، والإكليل، والقلب، والشّولة، والنّعائم، والبلدة، وسعد الذّابح، وسعد بلع، وسعد السّعود، وسعد الأخبية، والفرغ المقدّم والفرغ المؤخّر، وبطن الحوت[٥].

وفي (الصحاح): والنّعائم منزل من منازل القمر، وهي ثمانية أنجم

---

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٧، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٤٥ «فأجراهما» أيضاً.

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٧، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٤٥ «يسرهما» أيضاً.

(٣) يس: ٣٨.

(٤) يس: ٣٩.

(٥) لم أجده في أدب الكاتب. وأخرجه الخطيب في كتاب النجوم عنه الدرّ المنثور ٥: ٢٦٤ عن ابن عباس، وقال الآلوسي في روح المعاني ٢٣: ١٧ ـ ١٩: روى هذا عن ابن عباس وغيره ثم شرحه شرحاً بسيطاً، ويستفاد منه: إن الشرطان على زنة عدنان، والبطين على سهيل، والدبران على سرطان، والهقعة والهنعة على ضربة، والزبرة على عمدة، والزبانا على سكارى.

كأنّها سرير معوج، أربعة صادرة وأربعة واردة[١].

«ليميّز بين اللّيل والنّهار» اختلف في أن أيّهما أسبق؛ فروى الطبريّ عن ابن عباس تقدّم اللّيل وعن آخرين العكس[٢].

وروى ابن طاووس في (نجومه) عن كتاب (واحدة بن جمهور القمي) أنّ من مسائل ذي الرياستين للرضا عليه السلام: أنّ الناس تذاكروا بين يدي المأمون في خلق الليل والنّهار، فقال بعض: خلق الله النهار قبل الليل، وقال بعض: خلق الله الليل قبل النّهار، فرجعوا بالسؤال إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام فقال عليه السلام: إنّ الله عزّوجلّ خلق النهار قبل الليل، وخلق الضياء قبل الظلمة؛ فإن شئتم أوجدتكم ذلك من النجوم، وإن شئتم من القرآن. فقال ذو الرياستين: أوجدنا من الجهتين جميعاً. فقال عليه السلام: أمّا من النجوم فقد علمت أنّ طالع العالم السرطان، ولا يكون ذلك إلّا والشمس في شرفها في نصف النهار، وأمّا من القرآن فاستمع قوله تعالى فيه: ﴿لا الشّمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا اللّيل سابق النّهار وكلٌّ في فلكٍ يسبحون﴾[٣]. ورواه عن دلائل النعماني أيضاً[٤].

«وليعلم عدد السّنين» السّنين الشمسية، والسّنين القمريّة.

«والحساب بمقاديرهما» الأصل فيه قوله تعالى: ﴿هو الّذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلّا بالحقّ يفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾[٥]، ﴿وجعلنا اللّيل والنّهار آيتين

---

(١) صحاح اللغة للجوهري ٥: ٢٠٤٤ مادة (نعم).

(٢) تاريخ الطبري ١: ٤١ ـ ٤٢.

(٣) يس: ٤٠.

(٤) نقله عن كتاب ابن جمهور في فرج المهموم: ٩٦، وعن كتاب النعماني فيه: ٩٥، ونقله معناه أيضاً الطبرسي في مجمع البيان ٨: ٤٢٥ عن العياشي عن الرضا عليه السلام.

(٥) يونس: ٥.

فمحونا آية اللّيل وجعلنا آية النّهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربّكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكلّ شيءٍ فصّلناه تفصيلاً﴾[١]، ﴿يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للنّاس والحجّ...﴾[٢].

ومرّ قول الصادق عليه السلام للمفضّل: فكّر الآن في تنقّل الشمس في البروج الاثني عشر لإقامة دور السّنة ـ إلى أن قال ـ واستدل بالقمر، ففيه دلالة جليلة تستعملها العامّة في معرفة الشهور، ولا يقوم عليه حساب السّنة، لأنّ دوره لا يستوفي الأزمنة الأربعة ونشوّ الثّمار وتصرّمها، ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها، وصار الشهر من شهور القمر ينتقل، فيكون مرّة بالشتاء ومرّة بالصيف[٣].

«ثمّ علّق في جوّها فلكها» الظاهر أنّ معناه أنّه تعالى علّق في جوّ السماء فلك الشّهب والشمس والقمر، قال تعالى: ﴿...وكلّ في فلك يسبحون﴾[٤].

«وناط» أي: علق وألصق.

«بها زينتها من خفيات دراريها» أي: كواكبها الصغار التي كالدّرّ.

«ومصابيح» من إضافة الصّفة.

«كواكبها» أي: كواكب كالسّراج.

«ورمى مسترقي» على وزن مفتعلي، لأنّه من سرق.

«السّمع» أي: شياطين مسترقين للسّمع.

«بثواقب شهبها» ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيّناها للنّاظرين * وحفظناها من كلّ شيطان رجيم * إلّا من استرق السمع فأتبعه

---

(١) الإسراء: ١٢.

(٢) البقرة: ١٨٩.

(٣) توحيد المفضل: ١٣٠.

(٤) يس: ٤٠.

شهاب مبين﴾(١).

«وأجراها على إذلال تسخيرها» ﴿وسخّر لكم الشّمس والقمر دائبين وسخّر لكم اللّيل والنهار﴾(٢)، ﴿...والنّجوم مسخّرات بأمره إنّ في ذلك... لقوم يذّكرون﴾(٣).

«من ثبات ثابتها ومسير سائرها» كلّ منهما لحكمة؛ قال الصادق عليه السلام للمفضّل: فكّر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها، كمثل الثّريّا والجوزاء والشّعريين وسهيل، فإنّها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد لم يكن لواحد فيها على حياله دلالات يعرفها الناس ويهتدون بها لبعض أمورهم، كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثّور والجوزاء إذا طلعت، واحتجابها إذا احتجبت؛ فصار ظهور كلّ واحد منها واحتجابه في وقت غير وقت الآخر، لينتفع الناس بما يدلّ عليه كلّ واحد منهما على حدته، وما جعلت الثّريا وأشباهها تظهر حيناً وتحتجب حيناً إلّا لضرب من المصلحة، وكذلك جعلت بنات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب آخر من المصلحة، فإنّها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في البرّ والبحر للطرق المجهولة، وكذلك انّها لا تغيب ولا تتوارى، فهم ينظرون إليها متى أرادوا أن يهتدوا بها إلى حيث شاؤوا، وصار الأمران جميعاً على اختلافهما موجّهين نحو الإرب والمصلحة.

وفيها مآرب أُخرى علامات ودلالات على أوقات كثيرة من الأعمال كالزّراعة والغراس، والسفر في البرّ والبحر، وأشياء ممّا يحدث في الأزمنة

---

(١) الحجر: ١٦ ـ ١٨.

(٢) إبراهيم: ٣٣.

(٣) النحل: ١٢ ـ ١٣.

من الأمطار والرياح، والحرّ والبرد، وبها يهتدي السائرون في ظلمة الليل لقطع القفار الموحشة واللّجج الهائلة(١).

وقال عليه السلام ـ ونقله الخوئي أيضاً ـ: فكّر يا مفضّل في النجوم واختلاف مسيرها؛ فبعضها لا تفارق مراكزها من الفلك، ولا تسير إلّا مجتمعة، وبعضها مطلقة تنتقل في البروج، وتفترق في مسيرها، فكلّ واحد منها يسير سيرين مختلفين:

أحدهما عامّ مع الفلك نحو المغرب، والآخر خاصّ لنفسه نحو المشرق، كالنّملة التي تدور على الرّحى؛ فالرّحى تدور ذات اليمين، والنملة تدور ذات الشمال، والنّملة في ذلك تتحرّك حركتين مختلفتين، إحداهما بنفسها فتتوجّه أمامها، والأُخرى مستكرهة مع الرّحى تجذبها إلى خلفها. فاسأل الزّاعمين أنّ النجوم صارت على ما هي عليه بالإهمال من غير عمد، ولا صانع لها ما منعها أن تكون كلّها راتبة أو تكون كلّها منتقلة؛ فإنّ الإهمال معنى واحد، فكيف صار يأتي بحركتين مختلفتين على وزن وتقدير؟ ففي هذا بيان أنّ مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدبير، وليس بإهمال كما يزعم المعطّلة.

فإن قال قائل: ولِمَ صار بعض النجوم راتباً، وبعضها منتقلاً؟ قلنا: إنّها لو كانت كلّها راتبة لبطلت الدّلالات التي يستدلّ بها من تنقل المتنقلة، ومسيرها في كلّ برج من البروج، كما يستدلّ على أشياء ممّا يحدث في العالم بتنقّل الشمس والنجوم في منازلها، ولو كانت كلّها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف، ولا رسم يوقف عليه، لأنّه إنّما يوقف عليه بمسير المنتقلة منها بتنقلها في البروج الرّاتبة، كما يستدلّ على سير السائر في الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها ولو كان تنقّلها بحال واحدة لاختلط نظامها وبطلت المآرب

---

(١) توحيد المفضل: ١٣٤.

فيها، ولساغ لقائل أن يقول: إنّ كينونتها على حال واحدة توجب عليها الإهمال[١].

«وهبوطها وصعودها» روي أنّ الصادق عليه السلام سئل عن الحرّ والبرد ممّا يكونان، فقال عليه السلام: إنّ المرّيخ كوكب حارّ، وزحل كوكب بارد؛ فإذا بدأ المريخ في الارتفاع انحطّ زحل، وذلك في الرّبيع، فلا يزالان كذلك كلّما ارتفع زحل درجة انحطّ المرّيخ درجة حتّى ينتهي المرّيخ في الهبوط، وينتهي زحل في الارتفاع فيجلو زحل، وذلك في أوّل الشتاء، وآخر الخريف، فلذلك يشتدّ البرد. وكلّما ارتفع هذا هبط هذا، وكلّما هبط هذا ارتفع هذا. فإذا كان في الصيف يوم بارد، فالفعل في ذلك للقمر، وإذا كان في الشتاء يوم حار، فالفعل في ذلك للشمس[٢].

«ونحوسها وسعودها» قالت أهل النجوم: زحل النّحس الأكبر، ومرّيخ النّحس الأصغر، والمشتري السّعد الأكبر، وزهرة السّعد الأصغر، وعطارد مع السّعد سعد ومع النّحس نحس، والنيران الشمس والقمر سعدان من التّثليث والتسديس، ونحسان من المقابلة والتّربيع، والمقارنة والرّأس سعد، والذنب والكيد نحسان[٣].

وقال الجوهري: سعود النجوم عشرة: أربعة منها في برج الجدي، والدّلو ينزلها القمر، وهي: سعد الذابح، وسعد بلع، وسعد الأخبية، وسعد السّعود، وهو كوكب منفرد نيّر، وأمّا السّتة التي ليست من المنازل: فسعد ناشرة، وسعد الملك، وسعد البهام، وسعد الهمام، وسعد البارع، وسعد مطر،

---

(١) توحيد المفضل: ١٣٢، وشرح الخوئي ٣: ١٠٢.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٨: ٣٠٦ ح ٤٧٤، والنقل بتصرف في اللفظ.

(٣) كذا نقل ابن ميثم في شرحه ٢: ٣٥١.

وكلّ سعد من هذه السّتّة كوكبان، بين كلّ كوكبين في رأي العين قدر ذراع، وهي متناسقة، وأمّا سعد الأخبية فثلاثة أنجم كأنّها أثافيّ، ورابع تحت واحد منهنّ، وسعد بلع من منازل القمر كوكبان متقاربان زعموا أنّه طلع لما قال تعالى للأرض: ﴿...ابلعي ماءك...﴾[١] يعني سمّي بلع لذلك[٢].

وفي (كنايات الجرجاني): والعرب تكنّي عن الحشرات بجنود سعد، ويريدون سعد الأخبية، لأنّه إذا طلع انتشرت الهوام وخرج منها ما كان مختبئاً، ويقال لذلك سمّي سعد الأخبية، قال الشاعر:

قد جاء سعد مؤذناً بشرّه ... مؤذنة جنوده بحرّه[٣]

هذا، ومن أمثالهم: أسعْد أم سعيد[٤]. والأصل فيه أنّ سعداً وسعيداً ابنا ضبّة خرجا، فرجع سعد وفقد سعيد، فصار سعيد ممّا يتشأم به.

ومنها، قولهم: بكلّ وادٍ بنو سعد[٥]. والأصل فيه أنّ الأضبط بن قريع السعدي من سعد بن زيد مناة بن تميم رأى جفوة من قومه، فتحوّل في قبائل أُخرى، فرأى أيضاً منهم الجفوة، فرجع، وقال: بكل وادٍ بنو سعد.

هذا، وفي (وزراء هلال بن محسن الصّابي) قال أبو العبّاس بن الفرات: إنّ منجّماً أخبره أنّه لم ينزل زحل في برج السّنبلة إلّا حدثت حادثة، وقد جرت العادة بذلك على مضيّ الأوقات، ومن ذلك أنّه نزل هذا البرج سنة ثمان

---

(١) اشارة الى قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ هود: ٤٤.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ١: ٤٨٥ مادة (سعد).

(٣) نقله عن الكنايات للجرجاني ابن أبي الحديد في شرحه ٤: ٥١٥، والنقل بتصرف في اللفظ.

(٤) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١: ٣٢٩، والزمخشري في المستقصى ١: ١٦٨، قال الميداني: يضرب في العناية بذي الرحم، وفي الاستخبار أيضاً عن الأمرين الخير والشّر أيّهما وقع. وقال الزمخشري: يضرب في النجح والخيبة والخير والشر.

(٥) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١: ١٠٥.

للهجرة، فكان في تلك السنة فتح خيبر ومكّة، ونزل في سنة (٣٨) فكانت حرب صفّين بين علي عليه السلام ومعاوية، ونزل في سنة (٦٨) فكان فيها حرب المختار وعبد الملك وقضيّة عبد الله بن الزبير، ونزل فيه سنة (٩٨) فمات سليمان بن عبد الملك، وانتقل الأمر إلى عمر بن عبد العزيز، ونزل في سنة (١٢٨) فظهر أبو مسلم وجرت قضية مروان بن محمّد، ونزل في سنة (١٥٨) فمات المنصور، ونزل في سنة (١٨٨) فأوقع الرّشيد بالبرامكة، ونزل في سنة (٢١٨) فتوفّي المأمون، ونزل في سنة (٢٤٨) فتوفّي المنتصر وقتل المتوكّل، ونزل في سنة (٢٧٨) فتوفّي الموفّق، وحدث من الأُمور ما حدث[1].

هذا ويقال: أسعده الله فهو مسعود، ولا يقال: مسعد على خلاف أصله.

٣
من الخطبة (٨٩) أيضاً

ومنها في صفة الأرض ودحوها على الماء:

كَبَسَ ٱلْأَرْضَ عَلَى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَلُجَجِ بِحارٍ زَاخِرَةٍ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِها، وَتَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفاتُ أَثْبَاجِها، وَتَرْغُو زَبَداً كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِياجِها، فَخَضَعَ جِمَاحُ المَاءِ المُتَلاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِها، وَسَكَنَ هَيْجُ ٱرْتِمائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِها، وَذَلَّ مُسْتَخْذِياً إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِها؛ فَأَصْبَحَ بَعْدَ ٱصْطِخابِ أَمْوَاجِهِ ساجِياً مَقْهُوراً، وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقاداً

---

(١) كذا في الوزراء للصابي: ٢٤٨، أمّا اتفاق الطبري والمسعودي فإن فتح خيبر كان في سنة (٧) وفتح مكة سنة (٨) وحرب صفين سنة (٣٦) وحرب المختار سنة (٦٦) وحرب عبد الملك وابن الزبير سنة (٧٢) وموت سليمان سنة (٩٩) وموقعة الزاب بين أصحاب أبي مسلم ومروان سنة (١٣٢) وموت المنصور سنة (١٥٨) وإيقاع الرشيد بالبرامكة سنة (١٨٧) وموت المأمون سنة (٢١٨) وموت المنتصر سنة (٢٤٨) وقتل المتوكل سنة (٢٤٧) وموت الموفق سنة (٢٧٨) ثم ان الحوادث المذكورة ليس أكثرها مهم؛ ففي التاريخ حوادث كثيرة أعظم منها، وهذه الأقوال من خرافات المنجّمين.

أَسِيراً، وَسَكَنَتِ ٱلْأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ، وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَٱعْتِلاَئِهِ، وَشُمُوخِ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوَائِهِ، وَكَعَمَتْهُ عَلَى كِظَّةِ جَرْيَتِهِ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيَفَانِ وَثَبَاتِهِ. فَلَمَّا سَكَنَ هِيَاجُ المَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا، وَحَمَلَ شَوَاهِقَ ٱلْجِبَالِ الشُّمَّخِ ٱلْبُذَّخِ عَلَى أَكْتَافِهَا، فَجَّرَ يَنَابِيعَ ٱلْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِهَا، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيدِهَا وَأَخَادِيدِهَا، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلاَمِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا، فَسَكَنَتْ مِنَ المَيَدَانِ لِرُسُوبِ ٱلْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا، وَتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ ٱلْأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا، وَفَسَحَ بَيْنَ ٱلْجَوِّ وَبَيْنَهَا، وَأَعَدَّ ٱلْهَوَاءَ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِهَا، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا. ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ ٱلْأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ ٱلْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا، وَلاَ تَجِدُ جَدَاوِلُ الأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا، حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا؛ أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ ٱفْتِرَاقِ لُمَعِهِ، وَتَبَايُنِ قَزَعِهِ، حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ الْمُزْنِ فِيهِ، وَٱلْتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كِفَفِهِ، وَلَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ فِي كَنَهْوَرِ رَبَابِهِ، وَمُتَرَاكِمِ سَحَابِهِ، أَرْسَلَهُ سَحّاً مُتَدَارِكاً، قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ، تَمْرِيهِ ٱلْجَنُوبُ دِرَرَ أَهَاضِيبِهِ، وَدَفَعَ شَآبِيبِهِ. فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرْكَ بِوَانَيْهَا، وَبَعَاعَ ما ٱسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ ٱلْعِبْءِ المَحْمُولِ عَلَيْهَا، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الأَرْضِ النَّبَاتَ، وَمِنْ زُعْرِ ٱلْجِبَالِ الأَعْشَابَ، فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا، وَتَزْدَهِي بِمَا أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ أَزَاهِيرِهَا، وَحِلْيَةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا، وَجَعَلَ ذَلِكَ بَلاَغاً لِلْأَنَامِ، وَرِزْقاً لِلأَنْعَامِ، وَخَرَقَ ٱلْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا، وَأَقَامَ المَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِهَا.

أقول: رواه أئمّة غريب اللّغة كما يفهم من تفسير (النهاية) لبعض

فقراتها، كقوله عليه السلام: تلتطم أواذيّ أمواجها[١]، وغيره كما يأتي.

«كبس» أي: أهجم.

«الأرض على مور» أي: مضطرب، من إضافة الصّفة.

«أمواج مستفحلة» قيل: أي: هايجة هيجان الفحول، وقيل: أي: صائلة.

«ولجج» جمع لجّة؛ قال الجوهري: لُجّة الماء بالضمّ: معظمه[٢].

«بحار زاخرة» أي: الممتدة المرتفعة.

«تلتطم أواذيّ» جمع آذيّ، أي: شدائد؛ وتفسير الجوهري، والفيروز آبادي للآذيّ بالموج غلط[٣]، وإنّما يأتي صفة الموج كما فسّره (النّهاية)[٤]، وإضافته من باب إضافة الصّفة.

«أمواجها» أي: أمواج تلك البحار.

«وتصطفق» من صفقت العود فاصطفق إذا حرّكت أوتاره؛ قال:

ويوم كظلّ الرّمح قصّر طوله   دم الزقّ عنّا واصطفاق المزاهر[٥]

«متقاذفات» أي: قذف هذا بذاك، وقذف ذاك بهذا.

«أثباجها» جمع ثبج، أي: أوساطها؛ ففي (الأساس): التقم لقماً مثل أثباج القطا، وهي أوساطها؛ قال ذو الرّمّة:

بجرع كأثباج القطا المتتابع

ويمكن أن يكون استعارة من الثّبج، بمعنى ما بين الكاهل إلى الظهر، كقول الراعي:

---

(١) النهاية لابن الأثير ١: ٣٤ مادة (أذى).

(٢) صحاح اللغة للجوهري ١: ٣٣٨ مادة (لجج).

(٣) صحا اللغة للجوهري ٦: ٢٢٦٦ مادة (أذى).

(٤) النهاية لابن الأثير ١: ٣٤ مادة (أذى).

(٥) أورده لسان العرب ١٠: ٢٠٥ مادة (صفق) والشاعر ابن الطثرية.

إذا الرّمـــل قـدّم أثـباجه أبان لراكبها المـخصر[١]

والأول أظهر؛ وفي خبر أُمّ حرام: قوم يركبون ثبج هـذا البـحر[٢]، أي: وسطه ومعظمه.

«وترغو» من رغا البعير إذا صوّت.

«زبداً» تمييز.

«كالفحول» أي: كالإبل الفحول.

«عند هياجها» أي: هيجانها للسّفاد.

«فخضع» استعارة لسكونه.

«جماح» استعارة أيضاً، من جمح الفرس براكبه إذا غلبه.

«الماء المتلاطم» من البحار الزّاخرة.

«لثقل حملها» بالأرض.

«وسكن هيج» أي: هيجان.

«ارتمائه» أي: ترامیه.

«إذ وطئته بكلكلها» أي صدرها، والمراد كلّها، فالوطي بالكلكل لا يمكن إلّا بالكلّ.

«وذلّ مستخذياً» أي: مسترخياً ومنقاداً.

«إذ تمعّكت عليه» أي: تمرّغت، وتدلّكت عليه.

«بكواهلها» الكاهل مقدّم ظهر البعير الذي يكون عليه المحمل، وهو أيضاً كناية عن الكلّ، فالتّمعك بالكواهل يستلزمه.

(١) أساس البلاغة: ٤٣ مادة (ثبج).

(٢) هذا اللفظ أخرجه مسلم في صحيحه ٣: ١٥١٨ ح ١٩١٢، والترمذي في سننه ٤: ١٧٨ ح ١٦٤٥، والنسائي في سننه ٦: ٤٠، ومالك في الموطأ: ٤٧٩، وروي حديث أُمّ حرام بألفاظ أخرى أيضاً.

«فأصبح بعد اصطخاب» من اصطخاب الطير، أي: اختلاط أصواتها.

«أمواجه ساجياً» أي: ساكناً ليّناً.

«مقهوراً، وفي حَكَمة» بفتحتين: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه.

«الذّل منقاداً أسيراً» كفرس مُلجم لصاحبه، ومن صار أسيراً لك.

«وسكنت الأرض مدحوّة» أي: مبسوطة.

«في لجّة تيّاره» أي: موجه.

«وردّت من نخوة بأوه» أي: كبره.

«واعتلائه» أي: تعاليه.

«وشموخ» أي: ارتفاع.

«أنفه وسموّ» أي: علوّ.

«غلوائه» أي: غلوّه، وتجاوزه عن حدّه.

«وكعمته» أي: شدّت فاه.

«على كظّة» أي: امتلاء.

«جريته» أي: جريانه.

«فهمد» أي: سكن.

«بعد نزقاته» من نزق الفرس، أي: نزا.

«ولبد» أي: أقام ولصق.

«بعد زيفان» أي: تبختر؛ قال ابن أبي الحديد: ويروى (زفيان) أي: شدّة[1].

«وثباته» الوثبات جمع الوثبة.

«فلمّا سكن هياج» هكذا في (المصرية) والصواب: (هيج) كما في (ابن أبي

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥٤.

الحديد وابن ميثم والخطية)(١).

«الماء من تحت أكنافها» أي: جوانبها.

«وحمل شواهق» أي: مرتفعات.

«الجبال» والأصل الجبال الشواهق.

«الشمّخ» هكذا في (المصرية)، والكلمة زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)(٢).

«البذّخ» أي: العوالي.

«على أكتافها، فجّر» جواب (لمّا).

«ينابيع العيون» يفهم من إضافته عليه السلام الينابيع إلى العيون كون الينبوع غير العين، وأنّ الينبوع أصل العين، ومحل خروج الماء، والعين ماؤه المجتمع، لا كما توهّم من اتّحادهما.

«من عرانين أنوفها» قال الجوهري: عرنين الأنف تحت مجتمع الحاجبين، وهو أوّل الأنف حيث يكون فيه الشّمم(٣).

«وفرّقها» أي: فرّق الينابيع.

«في سهوب» أي: واسعات.

«بيدها» البيد جمع البيداء، أي: الأرض البرّ.

«وأخاديدها» أخاديد جمع أُخدود، أي: شقّ في الأرض مستطيل.

«وعدّل حركاتها» ظاهر كلامه عليه السلام أنّ للأرض حركات متعدّدة.

وفي (الهيئة والإسلام): وحكماء عصرنا يذكرون لكرة الأرض خمس

---

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥٤، لكن في شرح ابن ميثم ٢: ٣٦٥ «هياج» أيضاً.

(٢) يوجد في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥٤، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٦٥ لفظ «الشمّخ».

(٣) صحاح اللغة للجوهري ٦: ٢١٦٣ مادة (عرن).

حركات مختلفة وهي المشهورة، وحكى (فيلكس ورنه) عنهم القول بإحدى عشرة حركة، وقد انتخبت من كتبهم حركات ثمانية:

الأُولى: الحركة المحورية على منطقة الاستواء، وهي في حيّزها وموضعها، ولذلك تسمى بالحركة الوضعية والاستوائية، ويتمّ دورها في (٢٣) ساعة و (٥٨) دقيقة و (٤٩) ثانية، ويحصل منها الليل والنهار، وتتولد من تركّب هذه الحركة مع جزء من الحركة السنوية الحركة اليومية كما تقدّم، فيتم الدور في (٢٤) ساعة.

الثانية: الحركة السنوية حول مركز الشمس على منطقة البروج في دائرة بيضيّة، ويتمّ دورها في (٣٦٥) يوماً و (٦) ساعات و (٨) دقائق و (٣٨) ثانية، وبها تحصل الأشهر الفرسيّة والرّومية والنّجومية ونحوها، وتتولّد الحركة الميليّة من هذه الحركة بسبب انحراف محور الأرض عن سطح دائرة البروج (٢٣) درجة ونصف تقريباً، وهذه الحركة غير مستقلّة، وبها نرى للشّمس في كلّ سنة كرّاً من الشّمال إلى نقطة الجنوب، ثمّ رجوعها منها إلى نقطة الشمال، ولو عدّت هذه الحركة والحركة اليوميّة مستقلّتين بلغت الحركات عشراً.

الثالثة: الحركة الإقباليّة: أي إقبال دائرة البروج إلى دائرة الاستواء في كلّ (٦٧٠) عاماً درجة واحدة، وهذه الحركة محصورة في زاوية ثلاث درجات، ولا تكمل دورة مستديرة. فلا نرتقب زماناً تنطبق فيه إحدى الدائرتين على الأُخرى كما كان القدماء يتوقّعون ذلك، وبه فسّر بعضهم قيامة الدّنيا.

الرابعة: حركة نقطتي الأوج والحضيض حول المحيط من دائرة البروج في كلّ (٢٠٩٣١) سنة دورة كاملة بسبب تجاذب المشتري والزهرة

مع الأرض، وبذلك تتغيّر أزمنة الفصول. ففي سنة (٦٤٨) كانت نقطة الحضيض على نقطة الانقلاب الصيفي. فكانت أيّام الصيف مساوية لأيّام الربيع، وبهذه الحركة تقرب الأرض من الشمس في نقطة الحضيض ثلاثمائة ألف فرسخ بالنسبة إلى أوجها، فتزداد قوّة جاذبيّة الشمس في الأرض قدر الخمس ممّا كان لها قبلئذٍ.

ومن آثار اشتداد هذه القوّة سرعة تحرّك الأرض في فلكها كلّ يوم إحدى وستين دقيقة، مع أنّها تتحرّك في أوجها كلّ يوم سبعاً وخمسين دقيقة من فلكها.

ومن آثارها أيضاً ارتفاع السائلات المستنبطة على وجه الأرض كمياه البحار المحيطة وتراكمها نحو أقرب نقاط الأرض إلى الشمس، على هذا فنحن الآن نرى المياه متراكمة في النواحي الجنوبية من عرض أربعين درجة، بحيث توجد ثمّة بقاع تلمع بصفاح متّسعة كالأقطار الشمالية، لكن الأمر ينعكس بعد اليوم بخمسة آلاف سنة، حيث تنتقل نقطة الحضيض الى شمالنا، فتتجه المياه نحو الشمال طالبة أقرب النقاط إلى الشمس، فتحسر الأقطار الجنوبية قناع الغمر عن أوجهها وتبدي محاسنها وما أودع الله فيها لنوع البشر، ويصبح فيها العمران والعلم والتمدّن الأواخر، وتدعونا نحوها مبشّرات، ويمسي في شمالنا الغرق والخراب والعطالة وتزجرنا بالخروج منذرات، فتعرف الأمم عند ذلك أثمان المراكب البحرية والهوائية، ويومئذٍ ينجو المخفّون.

الخامسة: حركة تقديم الاعتدالين الربيعي والخريفيّ، وبها ترى الثوابت متحركة على موازاة دائرة البروج في (٢٦٠٠٠) سنة شمسيّة مرّة، وكان القدماء يظنّون أنّ الثوابت بأسرها مركوزة في ثخن فلك يدور دورة في تلك المدّة.

السادسة: الحركة الرّقصية أو الارتعاش القمري، وهي التي تعرض على محوري الأرض، فتميل بذلك إلى دائرة البروج في كلّ (٢٩) سنة مرّة؛ اكتشفها الفلكيّ (برادله) سنة (١٨٤٤م) ومنشؤها تأثير الجاذبيتين من الشمس والقمر في أرضنا مع تسطيحها القطبي وتفرطحها الاستوائي، وينتقل محور الأرض بهذه الحركة في دورة عقدتي القمر بمقدار (١٨ درجة وكسر) إلى الجنوب والشمال.

السابعة: الارتعاش الشمسي؛ قال في (الحدائق): النّجوم ما معناه أنّ الأرض يرتعش محورها ـ أي يرتعش محورها من طرف قطبيها ـ بجاذبيّة الشمس، وتتمّ في سنة شمسيّة وغايتها دقيقة من الفلك.

الثامنة: الحركة التبعية، وهي سير الأرض كباقي السيارات بتبعيّة الشمس في الفضاء المهول حول مركز مجهول، والأرجح أنّ الحركات أكثر مما وصلوا إليه...[١].

نقلناه بطوله لاشتماله على وجود حركات للأرض، وإن كانت تفاصيل ما قاله غير معلومة، ونكِله إلى أهل فنّه.

«بالرّاسيات» أي: الثابتات، صفة (الجبال) مقدّرة.

«من جلاميدها» أي: صخورها العظيمة.

«وذوات» أي: بصاحبات.

«الشّناخيب» أي: الرّؤوس؛ قال الجوهري: الشنخوبة والشنخوب واحد شناخيب الجبل، وهي رؤوسه[٢].

«الشّمّ» أي: الطوال.

---

(١) الهيئة والاسلام ١: ٨٣، والنقل بتصرف يسير.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ١: ١٥٢ مادة (شنخب).

«من صياخيدها» أي: شدادها.

«فسكنت من المَيدان» أي: من الاضطراب والحركة غير المعتدلة.

«لرسوب» هكذا في (المصرية) والصواب: (برسوب) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[1] من رسب الشيء في الماء، أي: سفل فيه.

«الجبال في قِطَع» بالكسر فالفتح: جمع قطعة؛ وقال ابن أبي الحديد: ويروى بالكسر فالسكون، أي: طنفسة الرّجل، وهو استعارة، كأنّه جعل الأرض ناقة وجعل لها قطعاً[2].

قلت: إنّما كان يناسب ما قاله لو كان عليه السلام قال: (بركوب الجبال) لا (برسوب الجبال)، فالصواب الأوّل، مع أنّ قرينتها (جوبات) أيضاً جمع.

«أديمها» هكذا في النسخ[3]، والظاهر كونه مصحّف (أياديمها) أي: متونها، وأمّا (أديمها) فهو ما ظهر منها، ولا مناسبة له، مع أنّ قرينته (خياشيمها) أيضاً جمع.

«وتغلغلها» قال الجوهري: الغلغلة سرعة السير، وتغلغل الماء في الشجر إذا تخللها[4].

والظاهر أنّ المراد هنا الثاني، بأن يكون المعنى تخلّلت الجبال في الأرض تخلّل الماء في الشجر.

«متسرّبة» أي بلا مانع للجبال من التّخلل؛ قال الجوهري: السارب الذاهب على وجهه في الأرض. وقولهم: اذهب فلا أنده سربك، أي: لا أردّ إبلك، تذهب حيث شاءت. وكانوا يقولون في الجاهليّة للمرأة: اذهبي فلا أنده

---

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥٤، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٦٥ «لرسوب» أيضاً.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥٦، والنقل بالمعنى.

(٣) كذا في نهج البلاغة ١: ١٧٤، وشرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥٤، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٦٥.

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٥: ١٧٨٣ مادة (غلغل).

سربك، فتطلّق[١].

«في جوبات» الجوبات جمع الجوبة، أي: الحفرة المستديرة الواسعة.

«خياشيمها» أي أُنوفها.

«وركوبها» أي: ركوب الجبال.

«أعناق سهول الأرضين» أي: مسطحاتها.

«وجراثيمها» وهي ضدّ سهولها؛ وفي (النهاية): الجراثيم: أماكن مرتفعة عن الأرض مجتمعة من تراب أو طين[٢].

«وفسّح» أي: وسّع.

«بين الجوّ وبينها» أي: وبين الأرض.

«وأعدّ الهواء متنسّماً» أي: سبب تنفّس.

«لساكنها» من البشر وغيره.

قال الصادق عليه السلام للمفضّل: أُنبّهك يا مفضّل على الرّيح وما فيها، ألست ترى ركودها إذا ركدت، كيف يحدث الكرب الّذي يكاد أن يأتي على النفوس، ويمرّض الأصحّاء، وينهك المرضى، ويفسد الثّمار، ويعفّن البقول، ويعقّب الوباء في الأبدان، والآفة في الغلات؟ ففي هذا بيان أنّ هبوب الرّيح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق. وأُنبّئك عن الهواء بخلّة أُخرى، فإنّ الصّوت أثر يؤثّره اصطكاك الأجسام في الهواء، والهواء يؤدّيه إلى المسامع، والناس يتكلّمون في حوائجهم، ومعاملاتهم، طول نهارهم وبعض ليلهم؛ فلو كان أثر هذا الكلام يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لامتلأ العالم منه، فكان يكربهم ويفدحهم، وكانوا يحتاجون في تجديده والاستبدال به إلى أكثر

---

(١) صحاح اللغة للجوهري ١: ١٤٦ مادة (سرب).

(٢) النهاية لابن الأثير ١: ٢٩٤ مادة (جرثم).

ممّا يحتاج إليه في تجديد القراطيس، لأنّ ما يلفظ من الكلام أكثر ممّا يكتب، فجعل الخلّاق الحكيم جلّ قدسه هذا الهواء قرطاساً خفيّاً يحمل الكلام ريثما يبلغ العالم حاجتهم، ثم يمحى فيعود جديداً نقيّاً، ويحمل ما حمل أبداً بلا انقطاع. وحسبك بهذا النّسيم المسمّى هواء عبرة وما فيه من المصالح، فإنّه حياة هذه الأبدان، والممسك لها من داخل بما يستنشق منه من خارج بما يباشر من روحه، وفيه تطرد هذه الأصوات فيؤدّي البعد البعيد، وهو الحامل لهذه الأرواح ينقلها من موضع إلى موضع.

ألا ترى كيف تأتيك الرّائحة من حيث تهبّ الريح؟ فكذلك الصوت، وهو القابل لهذا الحرّ والبرد اللّذين يتعاقبان على العالم لصلاحه، ومنه هذه الريح الهابّة؛ فالرّيح تروّح عن الأجسام وتزجي السّحاب من موضع إلى موضع ليعمّ نفعه حتّى يستكثف فيمطر وتفضّه حتّى يستخفّ فيتفشى، وتلقح الشّجر، وتسيّر السّفن، وترخي الأطعمة، وتبرّد الماء، وتشبّ النار، وتجفّف الأشياء النديّة. وبالجملة إنّما تحيي كلّما في الأرض، فلولا الرّيح لذوى النّبات ولمات الحيوان، وحمت الأشياء وفسدت[1].

«وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها» وكمال مصالحها.

قال الصادق عليه السلام للمفضّل: يا مفضّل! أوّل العبر والدّلالة على الباري جلّ قدسه تهيئة هذا العالم، وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه، فإنّك إذا تأمّلت العالم بفكرك، وخبرته بعقلك وجدته كالبيت المبني المعدّ فيه جميع ما يحتاج إليه عباده؛ فالسّماء مرفوعة كالسّقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم مضيئة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكلّ شيء فيها لشأنه معدّ.

---

(١) توحيد المفضل: ١٤٠.

والإنسان كالمملّك ذلك البيت، والمخوّل جميع ما فيه، وضروب النّبات مهيّأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه؛ ففي هذا دلالة واضحة على أنّ العالم مخلوق بتقدير وحكمة، ونظام وملاءمة، وأنّ الخالق له واحد، وهو الّذي ألّفه ونظمه بعضاً إلى بعض[1].

«ثمّ لم يدع» أي: لم يترك.

«جرز» بتقديم الرّاء على الزاي، أرض انقطع عنها النبات، وفيه لغات: بضمّتين، وفتحتين، وضمّ فسكون، وفتح فسكون.

«الأرض التي تقصر مياه العيون عن روابيها» أي: عواليها.

«ولا تجد جداول» قال الجوهري: الجدول: النهر الصغير[2].

«الأنهار» والمراد الكبيرة.

«ذريعة» أي: وسيلة.

«إلى بلوغها» أي بلوغ تلك الروابي كرؤوس الجبال والآكام، أو بلوغ تلك الأرض الجرز كأراضٍ ليست فيها أنهار ولا عيون.

«حتّى أنشأ لها ناشئة سحاب تحيي مواتها، وتستخرج نباتها» بالأمطار النازلة من السحاب؛ قال الصادق للمفضّل: تأمّل نزول المطر على الأرض، والتّدبير في ذلك فإنّه جُعل ينحدر عليها من علوّ ليغشى ما غلظ وارتفع منها فيرويه، ولو كان إنّما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها، ويقلّ ما يزرع في الأرض؛ ألا ترى أنّ الذي يزرع سيحاً أقلّ من ذلك؟!

فالأمطار هي التي تطبق الأرض، وربما تزرع هذه البراري الواسعة، وسفوح الجبال وذراها، فتغلّ الغلّة الكثيرة، وبها يسقط عن الناس في كثير

---

(١) توحيد المفضل: ٤٧.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٤: ١٦٥٤ مادة (جدل).

من البلدان مؤونة سياق الماء من موضع إلى موضع، وما يجري في ذلك بينهم من التّشاجر والتظالم، حتى يستأثر بالماء ذو العزّة والقوّة، ويحرمه الضعفاء. ثمّ إنّه حين قدّر أن ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرشّ ليغور في قعر الأرض فيرويها، ولو كان يسكبه انسكاباً كان ينزل على وجه الأرض فلا يغور فيها، ثمّ كان يحطم الزّرع القائمة إذا اندفق عليها، فصار ينزل نزولاً رقيقاً، فينبت الحبّ المزروع، ويحيي الأرض والزّرع القائم، وفي نزوله أيضاً مصالح أُخرى، فإنّه يليّن الأبدان، ويجلو كدر الهواء، فيرتفع الوباء الحادث من ذلك، ويغسل ما يسقط على الشجر والزّرع من الدّاء المسمّى باليرقان، إلى أشباه هذا من المنافع[١].

«ألّف غمامها» أي: سحابها.

«بعد افتراق لُمَعه» بالضّمّ فالفتح: جمع لُمْعة بالضّمّ فالسّكون، أي: قطعاته، سمّيت القطعة من الغمام لمعة للمعانها، كما سميّت القطعة من النبات إذا يبست لمعة للمعانها، وكما سمّيت قطعة من الجسد لم يصبها الماء في الوضوء والغسل لمعة للمعانها.

«وتباين» أي: انفصال.

«قُزَعه» بالضم فالفتح أيضاً، جمع قُزْعة بالضّمّ فالسّكون، أي: قطعه الرقيقة التي تعدو سريعاً. والأصل في القزعة السرعة في العدو.

«حتّى إذا تمخّضت» الأصل في المخاض قرب الولادة؛ قال:

تمخّضت المنون له بيوم   أنى ولكلّ حاملة تمام[٢]

«لجّة» قالوا: لجّة الماء معظمه.

---

(١) توحيد المفضل: ١٤٩.

(٢) أورده أساس البلاغة : ٤٢٢ مادة (مخض)، ولسان العرب ٧: ٢٣٠ مادة (مخض).

«المزن» أي: السحابة البيضاء.

«فيه» الضمير فيه راجع إلى الغمام كما في (لمعه) و (قزعه)، وقال ابن أبي الحديد: الهاء في (فيه) يرجع إلى المزن[١]، وهو كما ترى.

«والتمع برقه في كِففه» بالكسر فالفتح: جمع كفّة بالفتح، أي: في أطرافه، وسمّي الطرف كفّه لأنّ الشيء إذ انتهى إلى الطرف كفّ عن الزيّادة، كما أنّ الرزق الكفاف يكفّ صاحبه عن النّاس.

«ولم ينم وميضه» قال الجوهري: ومض البرق وميضاً لمع لمعاً خفيفاً، ولم يعترض في نواحي الغيم، فإن اعترض فهو الخفو، فإن استطال في وسط السماء وشقّ الغيم من غير أن يعترض يميناً وشمالاً فهو العقيقة[٢].

«في كنهور» قال الجوهري: والكنهور: العظيم من السحاب[٣]. وجعله (القاموس) خماسياً كسفرجل[٤].

«ربابه» قال الجوهري: رباب سحاب أبيض واحدته ربابة[٥]. ومراده أنّه اسم جنس كتمر وتمرة. وتوهّم ابن أبي الحديد[٦] أنّ مراده كونه جمعاً.

وقال الجوهري أيضاً: ويقال: إنّ رباب السّحاب الذي تراه كأنّه دون السحاب قد يكون أبيض وقد يكون أسود[٧].

«ومتراكم سحابه» الّذي بعضه فوق بعض.

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥٦.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٣: ١١١٣ مادة (ومض).

(٣) صحاح اللغة للجوهري ٢: ٨١١ مادة (كهر).

(٤) القاموس المحيط ٢: ١٢٩ مادة (كنهور).

(٥) صحاح اللغة للجوهري ١: ١٣٣ مادة (ربب).

(٦) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥٦.

(٧) صحاح اللغة للجوهري ١: ١٣٣ مادة (ربب).

«أرسله سحّاً» أي: صاباً.

«متداركاً» أي: ملحقاً آخره بأوّله.

«قد أسفّ» أي: دنا من الأرض؛ قال عبيد في سحاب قرب من الأرض كثيراً:

دان مسفّ فويق الأرض هيدبُه … يكاد يدفعه من قام بالراح[١]

«هيدبه» قال الجوهري: هيدب السحاب: ما تهدّب منه إذا أراد الودق كأنّه خيوط[٢].

«تمريه» قال الجوهري: الرّيح تمري السحاب وتمتريه، أي: تستدرّه[٣].

«الجنوب درر» أي: صبّ.

«أهاضيبه» أي: مطراته، والمراد مطرة بعد مطرة.

«ودفع شآبيبه» جمع شؤبوب، أي: دفعة بعد دفعة؛ قال الشاعر:

كأنّ ثناياها بنات سحابة … سقاهنّ شؤبوب من الغيث باكر

وبنات سحابة: البرد.

«فلمّا ألقت السّحاب برك» قال الجوهري: البرك الصدر[٤].

«بوانيها» قال الجزري: البواني في الأصل أضلاع الصدر. وقيل: الأكتاف والقوائم، الواحدة بانية، ومن حقّ هذه الكلمة أن تجيء في باب الباء والنون والياء، وإنّما ذكرناها هاهنا حملاً على ظاهرها، فإنّها لم ترد حيث وردت إلّا مجموعة؛ ومنه حديث عليّ عليه السلام: ألقت السماء برك بوانيها[٥].

---

(١) أورده لسان العرب ٩: ١٥٤ مادة (سفف)، وقال: إنّه لأوس بن حجر أو عبيد بن الأبرص.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ١: ٢٣٧ مادة (هدب).

(٣) صحاح اللغة للجوهري ٦: ٢٤٩١ مادة (مرى).

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٤: ١٥٧٤ مادة (برك).

(٥) النهاية لابن الأثير ١: ١٦٤ مادة (بون).

وممّا نقلنا يظهر لك ما في قول ابن أبي الحديد أنّ بوانيها تثنية بوان، على فِعال بكسر الفاء، وهو عمود الخيمة والجمع بُون بالضمّ. قال الشاعر:

أصبر من ذي ضاغط عركرك ألقى بواني زوره للبرك

قال: ومن روى بوانيها (أي بلفظ الجمع) أراد لواصقها من قولك: قوس بانية. إذا التصقت بالوتر، والرواية الأُولى أصحّ....

ومع أنّه ليس للسّحاب عمودان حتّى يكون ما قاله صحيحاً، والشعر الذي استشهد به دالّ على ضدّ مراده، و (البواني) فيه أيضاً جمع (بانية)، ومراد الشاعر بـ(ذي ضاغط عركرك) الجمل القويّ، فالمعنى أنّه أصبر من جمل قوي ألقى بواني زوره، أي: اضلاع صدره للمبرك.

«وبعاع» في (النهاية): البعاع شدّة المطر، ومنهم من يرويها بالثّاء المثلّثة، من: ثعّ يثعّ، إذا تقيأ، أي: قذفها في البطحاء؛ ومنه حديث عليعليه السلام: ألقت السحاب بعاع ما استقلّت به من الحمل[1].

«ما استقلّت به» أي: ارتفعت به.

«من العبء» أي: الحمل؛ قال الشاعر:

الحامل العبء الثقيل عن الـ جاني بغير يد ولا شكر[2]

«المحمول عليها» أي: على السّحاب.

«أخرج» جواب لمّا، وفاعله هو تعالى.

«به» أي: بعبئها.

«من هوامد الأرض» أي: أراضٍ لا نبات فيها.

«النبات» والأصل فيه قولهعليه السلام من «فلما ألقت» إلى «النبات» قوله تعالى:

---

(١) النهاية لابن الأثير ١: ١٤٠ مادة (بعع).

(٢) أورده لسان العرب ١: ١١٧ مادة (عبأ) والشاعر: زهير.

﴿وهو الّذي يرسل الرّياح بُشراً بين يَدَيْ رحمته حتّى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سُقناه لبلد ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلّ الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلّكم تذكّرون﴾[1].

«ومن زعر الجبال» من إضافة الصفة، أي: جبال قليلة النبات.

«الأعشاب» أي: أخرج منها الأعشاب، والأعشاب جمع العشب: الكلأ الرطب.

«فهي تبهج بزينة رياضها» كمرأة تبهج بزينة حليها وألبستها المتلوّنة.

«وتزدهي» أي: تتكبّر.

«بما ألبسته من ريط» قيل: ريطة: كلّ ثوب رقيق ليّن.

«أزاهيرها» أزاهير جمع زَهرة، بالفتح، وزهرة النّبت نوره.

«وحلية» عطف على (ما) في قوله (بما) لا على قوله (ريط) كما هو المتبادر في بادي النظر، كما لا يخفى على من تدبّر.

«ما سمطت» قال الجوهريّ: السّمط: الخيط ما دام فيه الخرز، وإلّا فهو سلك؛ قال طرفة:

مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد[2]

«به من ناضر» أي: رونق.

«أنوارها» أنوار جمع نَور بالفتح، أي: أزهارها؛ قال تعالى: ﴿... وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت وأنبتت من كلّ زوج بهيج﴾[3].

---

(١) الأعراف: ٥٧.

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٣: ١١٣٤ مادة (سمط).

(٣) الحج: ٥.

قال ابن عمران المخزومي: أتيت مع أبي والياً كان على المدينة من قريش، وعنده أعرابي يقال له ابن مطير، واذا مطر جود، فقال له الوالي: صفه. فقال: دعني أُشرف وأنظر. فأشرف ونظر، ثم قال:

كثرت لكثرة ودقه أطّباؤه ... فإذا تحلّب فاضت الأطباء
وله رباب هيدب لرفيفه ... قبل التبعّق ديمة وطفاء
وكأنّ بارقه حريق تلتقي ... ريح عليه وعرفج وإلاء
وكأنّ ريقه ولمّا يحتفل ... ودق السماء عجاجة طخياء
مستضحك بلوامع مستعبر ... بمدامع لم تمرها الأقذاء
فله بلا حزن ولا بمسرّة ... ضحك يؤلّف بينه وبكاء
حيران متّبع صباه يقوده ... وجنوبه كنف له ورهاء
ثقلت كلاه فبهّرت أصلابه ... وتبعّجت عن مائه الأحشاء
غدق تبعّج بالأباطح مزّقت ... تلك السّيول ومالها أشلاء
غرّ محجّلة دوالج ضمّنت ... حمل اللّقاح وكلّها عذراء
سحم فهنّ إذا عبسن فواحم ... سود وهنّ إذا ضحكن وضاء
لو كان من لجج السواحل ماؤه ... لم يبق في لجج السواحل ماء[1]

«وجعل ذلك بلاغاً للأنام ورزقاً للأنعام» قال تعالى: ﴿وفاكهة وأبّا* متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[2].

«وخرق العجاج» هكذا في (المصرية)، والصواب: (الفجاج) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[3]. و الفجاج جمع الفج: الطريق الواسع

(١) نقله ابن عبد ربه في العقد الفريد ٤: ٤٨.

(٢) عبس: ٣١ ـ ٣٢.

(٣) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥٤، لكن في شرح ابن ميثم ٢: ٣٦٦ «العجاب» أيضاً.

بين الجبلين.

«في آفاقها» أي أطرافها؛ قال تعالى: ﴿... وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلّهم يهتدون﴾[١].

وقال الصادق عليه السلام: فلولا امتداد هذه الأرض كيف كانت تتّسع لمساكن الناس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت أخشابهم وأحطابهم، والعقاقير العظيمة، والمعادن الجسيم غناؤها[٢].

«وأقام المنار» للنّاس بنجوم السماء؛ قال تعالى: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾[٣].

«للسالكين على جوادّ» بالتشديد، جمع الجادّة.

«طرقها» أي: طرق الأرض.

٤
الخطبة (٢٠٩)

ومن خطبة له عليه السلام:

وَكَانَ مِنْ اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ، يَبَساً جَامِداً. ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ وأرْسَى أَرْضاً يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجِرُ، وَالْقَمْقَامُ الْمُسَخَّرُ. قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ، وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا، وَنُشُوزَ مُتُونِهَا، وَأَطْوَادَهَا؛ فَأَرْسَلَهَا فِي مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا

---

(١) الأنبياء: ٣١.

(٢) توحيد المفضل: ١٤٢.

(٣) النحل: ١٦.

قَرَارَتَهَا، فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي ٱلْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي المَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَ أَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا، وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلاَلَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا، وَجَعَلَهَا لِلأَرْضِ عِمَاداً، وَأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً. فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً، فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لاَ يَجْرِي، وَقَائِمٍ لاَ يَسْرِي، تُكَرْكِرُهُ الرِّيَاحُ ٱلْعَوَاصِفُ، وَتَمْخَضُهُ ٱلْغَمَامُ الذَّوَارِفُ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾[1].

أقول: رواها أيضاً أئمّة غريب اللّغة كما يفهم من تفسير (النهاية) لبعض فقراتها[2].

«وكان من اقتدار جبروته» إضافة الاقتدار الى جبروته تعالى مع أنّ الأصل إضافته إليه تعالى، كما في نسبة الإكرام إلى مثوى يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿...أكرمي مثواه...﴾[3] مع أنّ الأصل النسبة إليه عليه السلام للدلالة على المبالغة.

«وبديع» عطف على (اقتدار) والبديع: ما لا مثال له قبله.

«لطائف صنعته» وكيف لا، وقد خلق الأرض والسماوات السبع من ماء كما خلق كلّ شيء من ماء؟!

«أن جعل من ماء البحر الزّاخر» أي: المرتفع الممتدّ.

---

(١) النازعات: ٢٦.

(٢) النهاية لابن الأثير ١: ٢١٢ مادة (ثمجر).

(٣) يوسف: ٢١.

«المتراكم» أي: الذي بعضه فوق بعض.

«المتقاصف» أي: المتدافع.

«يبساً جامداً» قال ابن أبي الحديد: اليَبَس بالتّحريك: المكان يكون رطباً، ثمّ ييبس، ومنه قوله تعالى: ﴿...فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً...﴾[1]. واليَبْس بالسكون: اليابس خلقةً: «حطب يَبْس»، هكذا يقوله أهل اللّغة. وفيه كلام لأنّ الحطب ليس يابساً خلقةً، بل كان رطباً من قبل، فالأصوب أن يقال: لا تكون هذه اللفظة محرّكة إلّا في المكان[2].

قلت: في ما قاله أوّلاً: إنّ اليَبَس بالتحريك ليس مختصاً بالمكان، فيأتي وصف المرأة والشّاة أيضاً؛ قال الرّاجز:

إلى عجوز شنة الوجه يَبَس[3]

فقوله: «فالأصوب» خلاف الصواب.

وثانياً: إنّ التفصيل الذي ذكره لم يقله جميع أهل اللّغة كما هو مفهوم كلامه، وإنّما قاله الجوهري[4]، وأمّا الفيروزآبادي فعكس، فقال: يابِسٌ ويَبِسٌ، وَيَبِيسٌ وَيَبْسٌ: كان رطباً فجفّ، كاتّبس؛ وما أصله اليبوسة ولم يعهد رطباً فيَبَسٌ بالتحريك. وأمّا طريق موسى في البحر، فإنّه لم يعهد قطّ طريقاً لا رطباً ولا يابساً، إنّما أظهره الله لهم حينئذٍ مخلوقاً على ذلك. وتسكّن الباء أيضاً ذهاباً إلى أنّه وإن لم يكن طريقاً فإنّه موضع كان فيه ماء فيبس[5].

وثالثاً: إنّ مناقشته بعدم كون الحطب يابساً خلقةً في غير محلّه؛ يقال:

---

(١) طه: ٧٧.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣: ١٨.

(٣) أورده لسان العرب ٦: ٢٦١ مادة (يبس).

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٢: ١٩٠ مادة (يبس).

(٥) القاموس المحيط ٢: ٢٦١ مادة (يبس).

حطب يَبْس. قال ثعلب: كأنّه خلقة[١]، قال علقمة:

تـــخشخش أبـــدان الحـــديد عـليهم

كما خشخشت يَبْس الحصاد جنوب[٢]

ورابعاً: إنّ الآية ﴿...فاضرب لهم طريقاً في البحر يَبَساً...﴾ لا كما نقله[٣].

«ثمَّ فطر» أي: خلق اختراعاً.

وعن ابن عباس: كنت لا أدري ما ﴿...فاطر السماوات والأرض...﴾[٤] حتّى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر. فقال: أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأت حفرها[٥].

«منه أطباقاً» أي: سماوات أطباقاً؛ قال تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً﴾[٦]، ﴿الّذي خلق سبع سماوات طباقاً...﴾[٧].

«ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها» ﴿أولم ير الّذين كفروا أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما...﴾[٨].

«فاستمسكت بأمره» ﴿...وأوحى في كلّ سماء أمرها...﴾[٩].

«وقامت على حدّه» الضمير راجع إليه تعالى، أي: قامت السماوات على تحديده تعالى لها.

---

(١) و (٢) قول ثعلب والبيت نقلهما لسان العرب ٦: ٢٦١ مادة (يبس).

(٣) لم يظهر لي فرق بين ما نقل الشارح وما نقل ابن أبي الحديد ولا رسم المصحف.

(٤) يوسف: ١٠١.

(٥) مرّ تخريج الحديث في العنوان (١) من الفصل الأوّل.

(٦) نوح: ١٥.

(٧) الملك : ٣.

(٨) الأنبياء: ٣٠.

(٩) فصلت: ١٢.

«وأرسى أرضاً» هكذا في (المصرية) وليست الجملة في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخوئي والخطية)[١] رأساً، فيعلم عدم وجودها في النّهج، وإن كان المعنى بدونها مختلّاً، لأنّه يصير الضمير في قوله بعد «يحملها الأُخضر» راجعاً إلى السماوات السبع، وليس كذلك، ولذا تكلّف الخوئي في أنّ الضمير في (يحملها) راجع إلى (الأرض) المستفادة من اليبس[٢]، وهو كما ترى. فالظاهر أنّ (المصرية) نقلت الجملة من نسخة خَلطتْ حاشيةً بالمتن.

«يحملها الأخضر» فسّر ابن أبي الحديد الأخضر بالبحر، ويسمّى أيضاً خضارة معرفة غير مصروف[٣].

قلت: لم يقل أحد بإطلاق الأخضر مجرّداً على البحر، بل مع الوصف بالمثعنجر، لأنّه بمعنى السائل. نعم، خضارة مجرّدة تطلق عليه. ثمّ سوق كلامه أنّ الأخضر غير منصرف، وليس كذلك، بل خضارة غير منصرف.

قال الجوهري: خُضارة بالضمّ: البحر، معرفة لا تجرى، تقول: هذا خضارة طامياً[٤]. ولو كان عبّر: وخضارة معرفة غير مصروف، لسلم.

«المثعنجر» قال الفيروزآبادي: المثعنجر: السائل من ماء أو دمع، وبفتح الجيم وسط البحر، وليس في البحر ماء يشبهه[٥].

وقال الجزري في حديث عليّ عليه السلام «يحملها الأخضر المثعنجر»: هو أكثر موضع في البحر ماءً، والميم والنون زائدتان، ومنه حديث ابن عباس:

---

(١) كذا في شرح الخوئي ٧: ٣٢٧، وتوجد الجملة في شرح ابن أبي الحديد ٣: ١٨، وشرح ابن ميثم: ٤: ٢٤.

(٢) شرح الخوئي ٧: ٢٢٨.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣: ١٩.

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٢: ٦٤٧ مادة (خضر).

(٥) القاموس المحيط ١: ٣٨٢ مادة (ثعجر).

فإذا علمي بالقرآن في علم عليّ عليه السلام كالقرارة في المثعنجر[١]. القرارة: الغدير الصغير[٢].

قال ابن أبي الحديد: تصغير المثعنجر: مثيعج ومثيعيج[٣].

قلت: أخذه من (الصحاح) لكنّه غلط منه، لأنّ المثعنجر رباعيّ مزيد فيه، أصلُه ثعجر، لا ثلاثي مزيد فيه أصله ثعج.

قال في (القاموس): قول الجوهري والصغانيّ تصغير المثعنجر: مثيعج ومثيعيج[٤] غلط، والصواب: ثعيجر، كما تقول في محرنجم: حريجم[٥].

والقمقام» يأتي لمعانٍ أحدها البحر، وهو المراد هنا.

«المسخّر» من الله تعالى.

«قد ذلّ لأمره» والمراد أمره التكويني.

«وأذعن» أي: خضع.

«لهيبته، ووقف الجاري منه» بعد حمله للأرض.

«لخشيته» الطبيعية.

«وجبل» أي: خلق.

«جلاميدها» أي: صخورها الشديدة.

«ونشوز» أي: ارتفاع.

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في شرح الفتح المبين عنه ينابيع المودة: ٧٠ بفرق يسير، وروى معناه المفيد وأبو علي الطوسي والنقاش والحمويني والأربلي، وقد مرّ تخريجه في شرحه خطبة الرضي.

(٢) النهاية لابن الأثير ١: ٢١٢ مادة (ثعجر).

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٠.

(٤) كذا ذكر الجوهري تصغيره في صحاح اللغة ٢: ٦٠٥ مادة (ثعجر)، لكن لم يذكر الصغاني في التكملة ٢: ٤٣٦ مادة (ثعجر) تصغيراً له.

(٥) القاموس المحيط ١: ٣٨٢ مادة (ثعجر).

«متونها» أي: ما صلب منها.

«وأطوادها» أي: جبالها.

«فأرسلها في مراسيها» أي: في مواقفها[١].

«ورست» أي: ثبتت، وفي نسخة (ورسبت)[٢]، من رسب في الماء، إذا هبط فيه.

«أُصولها» أي: عروقها.

«في الماء» لكون الأرض على الماء.

«فأنهد» أي: أنهض.

«جبالها عن سهولها» سهل الأرض خلاف حزنها.

«وأساخ» أي: أغاص، من: ساخت قدمه في الأرض، إذا غاصت فيها.

«قواعدها» وأساسها.

«في متون أقطارها» أي: جوانبها.

«ومواضع أنصابها» أي: في مواضع نصبت فيها.

«فأشهق» أي: أعلى.

«قلالها» قلال جمع قلّة، أعلى الجبل.

«وأطال» أي: جعل طويلاً.

«أنشازها» أي: ارتفاعاتها.

«وجعلها للأرض عماداً» أي: عموداً.

«وأرّزها» أي: أثبتها، من أرزت الشجرة: ثبتت.

---

(١) لم يتعرّض الشارح لشرح الفقرتين: «وألزمها قرارتها، فمضت رؤوسها في الهواء».

(٢) لم نجد أحداً من الشرّاح نقل هذه الرواية.

«فيها أوتاداً» قال تعالى: ﴿والجبال أوتاداً﴾(١).

«فسكنت على حركتها» أي: مع حركتها، فإن (على) في مثل الموضع بمعنى (مع)، كقوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق...﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾(٣)، وكقول الشاعر:

وإنّي على ليلى لزارٍ وإنّني على ذاك في ما بيننا مستديمها(٤)

وقوله:

على جوده ما جاد بالمال حاتم(٥)

«من أن تميد» أي: تضطرب.

«بأهلها» كوقت يحصل الزلزال.

«أو تسيخ» أي: تغوص.

«بحملها» كبناءٍ لم يُستحكم أساسُه.

«أو تزول عن مواضعها» التي عيّنها الله تعالى لها؛ قال في (الهيئة والاسلام): يظهر من قوله عليه السلام: «أو تزول عن مواضعها» تحرّك الأرض في مدار مخصوص؛ فإنّ الأرض عند المتأخّرين لها مواضع لا تحصى، لكنّها جميعاً في مدار معيّن بإزاء البروج الاثني عشر؛ فيتمّ على هذا تفسير قوله عليه السلام: «على حركتها» بحركة الأرض السنوية، وأنّ الجبال وعروقها هي

---

(١) النبأ: ٧.

(٢) إبراهيم: ٣٩.

(٣) الإنسان: ٨.

(٤) أورده السيوطي في شواهد المغني ١: ٦١، والشاعر إمّا قيس بن الملوح أو غيره.

(٥) أورده لسان العرب ١٢: ١١٥ مادة (حتم) والشاعر الفرزدق، وصدره:

على حالة لو أنّ في القوم حاتماً

الحافظة لهيئة أجزاء الأرض المانعة من تفرّقها واضطرابها وزوالها عن مواضعها المخصوصة في فلكها المخصوص؛ وأمّا على القول بالسكون - كما عليه المتقدّمون - فلا يتمّ هذا الكلام الكامل، إذ الجسم لا يكون ذا مواضع إلّا بتحرّكه الانتقالي، والساكن لا يكون إلّا ذا موضع واحد.

ثمّ استدلّ صاحب الكتاب لحركة الأرض بآيات:

منها: ﴿الّذي جعل لكم الأرض مهداً...﴾[١]. قال: والمهد يتحرّك سريعاً بلا ميلان.

ومنها: ﴿هو الّذي جعل لكم الأرض ذلولاً...﴾[٢]. قال: فإنّ الذّلول إبل تمتاز بنعومة الحركة وسرعة السير.

ومنها: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمرّ مرّ السحاب صُنْعَ الله الّذي أتقن كلّ شيء...﴾[٣]. قال: فلو كان المراد القيامة كما قالوا لما كان لقوله: ﴿...صُنْعَ الله الّذي أتقن كلّ شيء...﴾ مناسبة.

ومنها: ﴿والأرض بعد ذلكَ دحاها﴾[٤]. قال: بناءً على أنّ المراد بالدّحو: الدّفع والدحرجة - كما يفهم من اللّغة ومن موارد استعماله - دون البسط، كما هو المشهور. ثمّ تعرّض للاستدلال على مدّعاه بكون المراد من الدّحو في الآية الدّفع والدّحرجة دون البسط الّذي قال غيره[٥].

قلت: الظاهر أنّ المشهور فسّروه باللازم، فإنّ دحرجة الملفوف تستلزم بسطه، وممّا يمكن أن يستدلّ به على ما قال، وإن لم يتفطّن له قول الحميري

---

(١) طه: ٥٣.

(٢) الملك: ١٥.

(٣) النمل: ٨٨.

(٤) النازعات: ٣٠.

(٥) الهيئة والاسلام ١: ٨٢، والنقل بتصرف يسير.

في تشبيهه رمي أمير المؤمنين عليه السلام للصّخرة العظيمة التي كانت على عين في طريق صفين بكرةٍ رماها قوي:

فكأنّـها كـرة بكـفّ حـزوّر عبل الذّراع دحا بها في ملعب[1]

كما أنّه فاته الاستدلال بكلامه عليه السلام في الخطبة (٧٠) «اللّهمّ داحي المدحوّات»[2]. فإنّه مثل قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾[3]. واستدلّ بخبر (الاحتجاج) عن الصادق عليه السلام: أنّ الأشياء تدلّ على حدوثها من دوران الفلك بما فيه، وهي سبعة أفلاك، وتحرّك الأرض ومن عليها[4]. واستدلّ بآيات وأخبار أُخر ليس لها وضوح دلالة، كقوله تعالى: ﴿...فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾[5]، فقال في معناه: ﴿ائتيا﴾ أي: انتقلا وتحركا من حيزكما، ﴿طوعاً﴾ لنظام هذه الشمس، أو ﴿كرهاً﴾ عنها وطوعاً لنظام آخر، واتّباعاً لجاذبية عالم آخر، ﴿قالتا﴾ بلسان الحال: ﴿أتينا طائعين﴾ لهذا النظام، خاضعين لنواميس هذه الجاذبية التي سنّها الله تعالى في هذا العالم[6]. وهو كما ترى.

«فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها» ﴿إنّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده...﴾[7].

«وأجمدها بعد رطوبة أكنافها» أي: جوانبها.

---

(١) هذا بيت من القصيدة البائية نقله المفيد في الإرشاد: ١٧٨ وغيره.

(٢) نهج البلاغة ١: ١٢٠.

(٣) النازعات: ٣٠.

(٤) رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢: ٣٣٨ ضمن حديث طويل.

(٥) فصلت: ١١.

(٦) الهيئة والاسلام ١: ٧١، ٧٤.

(٧) فاطر: ٤١.

«فجعلها لخلقه مهاداً» ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾(١).

«وبسطها لهم فراشاً» ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً...﴾(٢).

«فوق بحر لُجّي» بالضمّ، أي: بحر مشتمل على اللّجّات.

«راكد» أي: ساكن.

«لا يجري» كما يجري اليمّ.

«وقائم» في مكانه.

«لا يسري» إلى موضع آخر.

«تكركره» أي تردّده.

«الرّياح العواصف» أي: الشدائد.

«وتمخضه» من مخضت اللّبن، إذا حرّكت سقاءه لأخذ زبده.

«الغمام» أي: السحاب.

«الذّوارف» من ذرفت عينه إذا سال منها الدّمع، شبّهعليه السلام صبّ الغمام للقطر بنساء يسكبن دموعهنّ؛ قال ابن أبي الحديد ليس قولهعليه السلام: «وتمخضه الغمام الذوارف» صريحاً في أنّ السحب تنزل في البحر فتغترف منه، كما قد يعتقد في المشهور العامّي، نحو قول الشاعر:

كالبحر يمطره السحاب وما لها   فضل عليه لأنّه من مائه

بل يجوز أن تكون الغمام الذوارف تمخضه وتحرّكه بما ترسل عليه من الأمطار السائلة منها(٣).

قلت: أصل كلامهعليه السلام في وصف البحر الذي يحمل الأرض، لقولهعليه السلام

---

(١) النبأ: ٦.

(٢) البقرة: ٢٢.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣: ١٩.

أوّلاً: «يحملها الأخضر المثعنجر» وقوله أخيراً: «فوق بحر لجّي»، لا البحر الظاهر في الأرض، وحينئذ فالظاهر وقوع تصحيف هنا أيضاً، كما مرّ عند قوله: «ويحملها الأخضر المثعنجر»، وأنّ الأصل «ولا تكركره الرياح العواصف، ولا تمخضه الغمام الذوارف» عطفاً على قوله عليه السلام: «لا يسري»، بمعنى أنّه بحر غير هذه البحار البارزة، ولولا ما قلنا لكان تنافراً أيضاً بين الجملتين، وبين قوله عليه السلام: «راكد لا يجري، وقائم لا يسري».

«﴿إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾» اقتباس من القرآن آية (٢٦) من: والنازعات.

٥
الخطبة (١٦٩)

ومن خطبة له عليه السلام لما عزم على لقاء القوم بصفين:

اَللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرىً لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ.

وَرَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَامِ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ، وَمَا لَا يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمما لَا يُرَى. وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً. إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ، وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وجَنِّبْنا الْفِتْنَةَ.

أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ، وَالْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ؟ الْعَارُ وَرَاءَكُمْ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!

أقول: رواه ابن طاوس في (مهجه) عن كتاب دعاء الحسين بن سعيد

الأهوازي باسناده عن يعقوب بن شعيب عن الصادق عليه السلام قال: كان من دعاء أمير المؤمنين يوم صفين: «اللّهم ربّ هذا السّقف المرفوع... فجنّبنا الكبر وسدّدنا للرّشد... واعصم بقيّة أصحابي من الفتنة»[١].

ورواه الطبري في (تاريخه) عن زيد بن وهب، وزاد بعد قوله عليه السلام: «وممّا لا يرى» قوله: «من خلقك العظيم وربّ الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وربّ السحاب المسخّر بين السماء والأرض، وربّ البحر المسجور المحيط بالعالم»[٢].

ورواه نصر بن مزاحم في (صفّينه)[٣].

«اللّهم ربّ السّقف المرفوع» هو لفظ القرآن في التعبير عن السماء؛ قال تعالى: ﴿والسّقف المرفوع﴾[٤].

«والجوّ المكفوف» المراد بالجوّ المكفوف السماء كالسّقف المرفوع، ومرّ قوله عليه السلام في العنوان الأوّل من الفصل: «جعل سفلاهنّ موجاً مكفوفاً».

وفي (صفّين نصر): «اللهمّ ربّ هذا السّقف المحفوظ المكفوف الذي جعلته...»[٥].

قال الشهرستاني في (الهيئة): يعني عليه السلام بالجوّ المكفوف الممنوع من الهطلان مع سيلان مادّته الأثيرية[٦].

«الّذي جعلته مغيضاً للّيل والنّهار» قال ابن أبي الحديد: وجه المشاركة أنّ

---

(١) مهج الدعوات: ١٠٢.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ١٠ سنة (٣٧).

(٣) وقعة صفين: ٢٣٢.

(٤) الطور: ٥.

(٥) وقعة صفين: ٢٣٢، ولفظة «المكفوف» في بعض النسخ.

(٦) الهيئة والاسلام ١: ٥١.

المغيض أو الغيضة يتولّد منهما الشجر، وكذلك اللّيل والنّهار يتولّدان من جريان الفلك، كنبت الشجر من المغيضة والأجمة[١].

قلت: المغيض يستعمل في الخفاء لا الظهور، قال تعالى: ﴿... وما تغيض الأرحام وما تزداد...﴾[٢]، ويقال: غاض الكرام وفاض اللئام، و ابن أبي الحديد عكس.

وقال الشهرستاني: المغيض: موضع يمصّ الماء ويبلعه. فكأنّه عليه السلام استعار لفظ اللّيل والنّهار لمعنى النور والظلام، وشبّه انعدام ضوء النهار لمعنى النور والظلام، وشبّه انعدام ضوء النهار في الجوّ ليلاً، وكذا انمحاء ظلام الليل فيه نهاراً بمصّ الجوّ وابتلاعه للظلام والضياء، ويظهر من هذا التعبير ما استكشفه المتأخرون بآلة (سبكترسكوب) وغيرها أنّ الجوّ أو الهواء يشرب ويمصّ من النّور ما يقتضيه طبعه، ويمجّ الباقي إلينا، وقد فتح عليهم هذا الباب ألف باب من العلم، لكن باب مدينة العلم ـ أعني علياً عليه السلام ـ قد علّمه النبيّ صلى الله عليه وآله حسب الآثار الصحيحة ألفَ باب، يُفتح له من كلّ باب ألفُ باب، وربّما كان هذا وأشباهه من فروع هذه الأبواب التي يستكشف الحكيم منها ألف باب. وأيم الله سبحانه إنّ المتأمّل في كلمات علي عليه السلام بعد اطّلاعه على فنون الفلسفة تنفجر عليه ينابيع الحكمة، ويصدق عندئذٍ من قال: «إنّ كلام عليّ عليه السلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين»[٣].

«ومجرى للشّمس والقمر» قال تعالى: ﴿والشّمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم* والقمر قدّرناه منازل حتّى عاد كالعُرجون القديم﴾[٤].

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٤٧٢.

(٢) الرعد: ٨.

(٣) الهيئة والاسلام ١: ٥١، والنقل بتصرف يسير.

(٤) يس: ٣٨ ـ ٣٩.

«ومختلفاً للنّجوم السّيّارة» في طلوعها وغروبها؛ قال الصادق عليه السلام للمفضّل: فكّر يا مفضّل في النجوم واختلاف مسيرها؛ فبعضها لا تفارق مراكزها من الفلك، ولا تسير إلّا مجتمعة، وبعضها مطلقة تنتقل في البروج، وتفترق في مسيرها؛ فكلّ واحد منها يسير سيرين مختلفين: أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب، والآخر خاص لنفسه نحو المشرق، كالنّملة التي تدور على الرّحى[1].

هذا، وفي (أصل زيد النّرسي) - وزيد مختلف فيه - عن الصادق عليه السلام في خبر: وربّ هود بن أسية عافِني من كلّ عقرب وحيّة. قلت: وما هود بن أسية؟ قال: كوكبة في السماء خفية تحت الوسطى من الثلاث، الكواكب التي في بنات النّعش المتفرّقات، ذلك أمان ممّا قلت[2].

«وجعلت سكّانه سبطاً» أي: طائفة.

«من ملائكتك» كما أن الأرض مسكن بني آدم.

«لا يسأمون» أي: لا يملّون.

«من عبادتك» وإن أداموا، لا مثل البشر.

«وربّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام» ﴿...وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين﴾[3]، ﴿أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً...﴾[4]، ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً...﴾[5].

---

(١) توحيد المفضل : ١٣٢.

(٢) أصل زيد النرسي : ٥٧ ، والنقل بتقطيع.

(٣) البقرة: ٣٦.

(٤) النمل: ٦١.

(٥) غافر: ٦٤.

«ومدرجاً» أي: مسلكاً.

«للهوامّ» أي: الحشرات؛ يقال خلّ درج الضبّ، أي: طريقة لئلّا يسلك بين قدميك، فتنتفخ. وفسّرت الهامّة ـ في حديث الاستعاذة «من كلّ سامّة وهامّة»[1] ـ بحشرة ذات سمّ لا تقتل كالعقرب، في قبال السّامّة حشرة ذات سمّ تقتل. والمراد هنا المطلق، لجعلها في مقابل الأنعام.

«والأنعام» أي: مطلق الحيوان، لا خصوص المال الرّاعية، حيث جعل مقابلاً للهوامّ.

«وما لا يحصى» من خلقك.

«ممّا يرى وممّا لا يرى» وما لا يرى قسمان، قسم منها لغيبوبته عنّا مثل ما في العلويّات، وقسم منها لصغر جسمها حتّى لا ترى بالعين، وفي القسم الثاني اخترعت أدوات ترى بها.

«وربّ الجبال الرّواسيّ» أي: الثوابت.

«التي جعلتها للأرض أوتاداً» لئلّا تضطرب.

«وللخلق» الإنسان وأقسام الحيوان.

«اعتماداً» حتى يمكنهم السّكنى فيها.

«إن أظهرتنا على عدوّنا» فبيده مفتاح الظفر والهزيمة.

«فجنّبنا البغي» كما هو شأن أكثر الفاتحين.

«وسدّدنا» أي: وفّقنا.

«للحقّ» وترك الباطل.

«وإنّ أظهرتهم علينا» ﴿...تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك

---

(١) أخرجه أبو يعلى والبزار في مسنديهما عنهما المطالب العالية ٢: ٣٤٨ ح ٢٤٤٣ بلفظ، والصدوق في معاني الأخبار: ١٧٣ ح ١ بلفظ آخر، وذكرُ الهامّة في أحاديث الاستعاذة كثير.

ممّن تشاء...﴾[1].

«فارزقنا الشهادة» في الحرب دون الأسر بيد العدوّ.

«وجنّبنا الفتنة» أي: الامتحان الذي يوجب الضلال.

«أين المانع للذمار» أي: ما يلزمك حفظه ممّا وراءك ويتعلّق بك.

«والغائر» أي: الغيور.

«عند نزول الحقائق» أي: نزول أُمور يحقّ على الرجل أن يحميها، ويدفع عنها كعرضه وحرمه؛ قالوا: كان ربيعة بن مكدم ـ من بني فراس بن غنم ـ حامي الظّعن بعد موته؛ وذلك أنّه عرض له فارسان من بني سليم ومعه ظعائن من أهله يحْميهُنَّ وحده، فطاعَنَهُما فرماه أحدهما بسهم أصاب قلبه، فنصب رمحه في الأرض واعتمد عليه، وهو ثابت في سرجه لم يزل، فسارت الظّعائن حتّى بلغن بيوت الحيّ، وبنو سليم قائمون بإزائه لا يقدمون عليه، ويظنّونه حيّاً، حتّى قال قائل منهم: إنّي لا أراه إلّا ميّتاً، ولو كان حيّاً لتحرّك، فرموا فرسه بسهم، فوثب من تحته، فوقع وهو ميّت، وفاتتهم الظعائن[2].

«من أهل الحِفاظ» بالكسر، أي: الّذين يحافظون على ما يجب عليهم رعايته.

«العار وراءكم» إن أجحمتم عن عدوّكم بالفرار؛ بعث عبيد الله بن زياد إلى أبي بلال الخارجي، وقد كان خرج إلى آسك موضع بين أرّجان ورامهرمز، وهو في أربعين ومعبد بن أسلم الكلابي في ألفين، فانهزم وما ردّه شيء حتّى ورد البصرة، فكان الناس يصيحون به: يا معبداً وراك أبو بلال حتّى شكاهم

(١) آل عمران: ٢٦.

(٢) نقله ابن أبي الحديد في شرحه ١: ١١٣، وروى قريباً منه المسعودي في مروج الذهب ٢: ٣٢٨.

إلى ابن زياد[١].

ولمّا انهزم خالد بن الوليد بالناس يوم مؤتة بعد قتل جعفر وصاحبيه زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، ودنا من دخول المدينة جعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون: يا فرّار، وكان فيهم سلمة بن هشام بن المغيرة، فكان لا يحضر الصلاة مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقالت أُمّ سلمة لامرأته: لِمَ لا يحضر؟ قالت: ما يستطيع، كلّما خرج صاح النّاس أفررتم في سبيل الله؟ فقعد في البيت وما يخرج[٢]. ومن المضحك أنّ إخواننا سمّوا خالداً سيف الله بتلك الهزيمة[٣].

«والجنّة أمامكم» إن أقدمتم عليه حتّى ترزقوا الشهادة؛ وروى (الكافي) عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: للجنّة باب يقال له باب المجاهدين يمضون إليه، فإذا هو مفتوح وهم متقلّدون بسيوفهم، والجمع في الموقف، والملائكة ترحّب بهم[٤].

٦
من الخطبة (١٥٨)

فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي ٱلْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ ٱلْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ وَالِهاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً.

«فمن فرّغ قلبه» عن الشواغل.

---

(١) نقل القصة بطولها ابن أبي الحديد في شرحه ١: ٤٤٨.

(٢) نقله ابن هشام في السيرة ٤: ١٧، والطبري في التاريخ ٢: ٣٢٣ سنة (٨).

(٣) المدّعى أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال في شأنه: «سيف من سيوف الله» نقله عن أكثر من ثلاثين طريقاً المتقي في منتخب كنز العمال ٤: ٩٤، ٩٥، و ٥: ١٧٤ ـ ١٧٦.

(٤) أخرجه في صدر حديث الكليني في الكافي ٥: ٢ ح ٢، والصدوق في ثواب الأعمال: ٢٢٥ ح ٢ وأماليه: ٤٦٢ ح ٨ المجلس (٨٥)، والطوسي في التهذيب ٦: ١٢٣ ح ٨.

«وأعمل فكره» بإطالته.

«ليعلم كيف أقمت عرشك» روى (توحيد الصدوق) بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: إنّ للعرش صفاتٍ كثيرةً مختلفة، له في كلّ سبب وضع في القرآن صفة على حدة، فقوله: ﴿...ربّ العرش العظيم﴾[١] يقول: الملك العظيم، وقوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[٢] يقول: على الملك احتوى، وهذا ملك الكيفوفيّة في الأشياء. ثمّ العرش في الوصل متفرّد من الكرسيّ، لأنّهما بابان من أكبر أبواب الغيوب، وهما جميعاً غيبان، وهما في الغيب مقرونان؛ لأنّ الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الّذي منه مطلع البدء، ومنه الأشياء كلّها. والعرش هو الباب الباطن الّذي يوجد فيه علم الكيف والكون، والقدر والحدّ، والأين والمشيئة، وصفة الإرادة، وعلم الألفاظ والحركات والتّرك، وعلم العَود والبدء.

فهما في العلم بابان مقرونان، لأنّ ملك العرش سوى ملك الكرسي، وعلمه أغيب من علم الكرسي؛ فمن ذلك قال: ﴿ربّ العرش العظيم﴾[٣]، أي: صفته أعظم من صفة الكرسي[٤].

وروى (روضة الفتال) مرسلاً أنّه قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البرّ والبحر، وهذا تأويل قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه...﴾[٥]، وإنّ بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطير المسرع مسير ألف عام، والعرش يكسى كلّ يوم سبعين ألف لون من النور، لا

---

(١) التوبة: ١٢٩، والنمل: ٢٦.

(٢) طه: ٥.

(٣) التوبة: ١٢٩، والنمل: ٢٦.

(٤) أخرجه الصدوق في التوحيد: ٣٢١ ح١.

(٥) الحجر: ٢١.

يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله، والأشياء كلّها في العرش كحلقة في فلاة.

وإن لله تعالى ملكاً يقال له حزقائيل، له ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام؛ فخطر له خاطر: هل فوق العرش شيء؟ فزاده الله تعالى مثلها أجنحة أُخرى، فكان له سِتَّةٌ وثلاثونَ ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام، ثمّ أوحى الله إليه: أيّها الملك طر، فطار مقدار عشرين ألف عام، لم ينل رأسه قائمة من قوائم العرش، ثمّ ضاعف الله له في الجناح والقوّة، وأمره أن يطير فطار مقدار ثلاثين ألف عام ولم ينل أيضاً، فأوحى الله إليه: أيّها الملك لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوّتك لم تبلغ إلى ساق العرش. فقال الملك سبحان ربّي الأعلى. فأنزل الله عزّوجلّ: ﴿سبح اسم ربّك الأعلى﴾[(١)]. فقال النبي صلى الله عليه وآله: اجعلوها في سجودكم[(٢)].

«خلقك» ﴿وهو الّذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾[(٣)]، ﴿...جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[(٤)].

«وكيف علقت في الهواء سماواتك» ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها...﴾[(٥)]، ﴿خلق السماوات بغير عمدٍ ترونها...﴾[(٦)].

---

(١) الأعلى: ١.

(٢) رواه الفتّال في روضة الواعظين ١: ٤٧، وما روي عن النبي صلى الله عليه وآله «اجعلوها في سجودكم» قد جاء في الأخبار كثيراً.

(٣) المؤمنون: ٧٩.

(٤) الشورى: ١١.

(٥) الرعد: ٢.

(٦) لقمان: ١٠.

«وكيف مددت على مور الماء» أي: اضطرابه وذهابه ومجيئه.

«أرضك» فاستقرت.

«رجع طرفه» أي: عينه وبصره؛ قال تعالى: ﴿...لا يرتدّ إليهم طرفهم...﴾[1].

«حسيراً» أي: كليلاً ومنقطعاً، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿...ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[2].

«وعقله مبهوراً» أي: مغلوباً.

«وسمعه والهاً» أي: متحيّراً.

«وفكره حائراً» غير واصل إلى مقصد.

(١) إبراهيم: ٤٣.

(٢) الملك: ٤.

الفصل الثالث

في خلق الملائكة

١
من الخطبة (١)

ثمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ ٱلسَّمَاوَاتِ ٱلْعُلَى، فَملأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلَائِكَتِهِ؛ مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ، وَصَافُّونَ لَا يَتَزَايَلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ ٱلْعُيْنِ، وَلَا سَهْوُ ٱلْعُقُولِ، وَلَا فَتْرَةُ الْأَبْدَانِ، وَلَا غَفْلَةُ النِّسْيَانِ، وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ. وَمِنْهُمُ ٱلْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ، وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جِنَانِهِ. وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرَضِينَ ٱلسُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَٱلْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ ٱلْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، وَٱلْخَارِجَةُ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَٱلْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ ٱلْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ ٱلْعِزَّةِ وَأَسْتَارُ ٱلْقُدْرَةِ؛ لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ، وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ ٱلْمَصْنُوعِينَ، وَلَا يَحُدُّونَهُ بِالْأَمَاكِنِ، وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ.

قول المصنف: «في خلق الملائكة».

أقول: كنه الملائكة غير معلوم لنا، وحيث إنّا لا نعرف أنفسنا بالكنه، قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي وما أُوتيتم من العلم إلّا قليلاً﴾[١]. فالملائكة الّذين ليسوا من جنسنا، وغير مرئيين لنا أولى بعدم العرفان.

ومرّ في الفصل الأوّل[٢] قوله عليه السلام في مقام بيان عدم إمكان الإحاطة بذاته تعالى: «بل إن كنتَ صادقاً أيّها المتكلّف لوصف ربّك فصف جبرائيل وميكائيل وجنود الملائكة المقرّبين في حجرات القدس مرجحنّين». ومرّ ثمة أيضاً[٣] قوله عليه السلام في ذاك المقام في ملك الموت: «هل تحسّ به إذا دخل منزلاً، أم هل تراه إذا توفّى أحداً؟ بل كيف يتوفّى الجنين في بطن أُمّه؟ أيلج عليه من بعض جوارحها، أم الرّوح أجابته بإذن ربّها، أم هو ساكن معه في أحشائها؟ كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله؟».

ثمّ اختلف في لفظ (الملك)، هل هو مفرد فقط أو مشترك بينه وبين الجمع؟ وفي مادّته هل هو فعَل، أو مفَل، أو معل؟

أمّا الأوّل، فقال الفيروزآبادي: إنّ الملك واحد الملائكة والملائك[٤]. وقال الجوهري: الملك من الملائكة واحد وجمع[٥].

قلت: وهو الصواب، يشهد لمجيئه مفرداً قوله تعالى: ﴿...إنْ هذا إلّا ملك

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) مرّ في الفصل الأوّل أواخر العنوان ٢٩.

(٣) مرّ في الفصل الأوّل العنوان ٣٠.

(٤) القاموس المحيط ٣: ٣٢١ مادة (ملك).

(٥) صحاح اللغة ٤: ١٦١١ مادة (ملك).

كريم﴾[١]، ولمجيئه جمعاً قوله عزّوجلّ: ﴿وجاء ربّك والملك صفّاً صفّاً﴾[٢].
لا يقال: إنّه هنا اسم جنس لأنّا نقول: لا يقال: جاء الرّجل صفّاً صفّاً. بل (الرجال).

وأمّا الثاني فذهب إلى الأوّل ابن كيسان، وإلى الثّاني أبو عبيدة، وإلى الثالث الكسائيّ[٣]، ولذا ذكره (القاموس) في: (ألك) و (لأك) و (ملك)[٤]. واستند أبو عبيدة في كونه من (لأك) ـ وتركت همزته لكثرة الاستعمال فقيل: (ملك) فلمّا جمع ردّت، فقالوا: ملائك وملائكة ـ إلى قول الشاعر: وهو إمّا عبد القيس الجاهلي في بعض الملوك، أو أبو وجزة الإسلامي في ابن الزّبير:

فلست لإنسيّ ولكن لملأك تنزّل من جوّ السماء يصوب[٥]

قلت: أيّ دلالة في البيت على كون (ملأك) من (لأك)، ومن أين أنّ (ملأك) ليس بأصل على (فعلل) أُسقطت همزته تخفيفاً، كما أُسقطت من (أرى) ماضياً ومستقبلاً أفعالاً وفعلاً، وردّت في جمعه كما هي القاعدة، وليس (الملأك) منحصراً استعماله بذاك البيت، بل ورد في بيت آخر نقله (اللّسان):

أيّها القاتلون ظلماً حسيناً أبشِروا بالعذاب والتّنكيل
كلّ أهل السماء يدعو عليكم من نبيّ وملأك ورسول[٦]

ويشهد لكون (ملك) فعَل قوله تعالى: ﴿قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي

---

(١) يوسف: ٣١.

(٢) الفجر: ٢٢.

(٣) مجمع البيان للطبرسي ١: ٧٣، ولسان العرب لابن منظور ١: ٤٩٦ مادة (ملك).

(٤) القاموس المحيط ٣: ٢٩٣، ٣١٧، ٣٢١ مادة (ألك ولأك وملك).

(٥) نقله عنه لسان العرب ١٠: ٤٩٦ مادة (ملك).

(٦) لسان العرب ١٠: ٣٩٣ مادة (ألك).

وُكّل بكم ثمّ إلى ربّكم ترجعون﴾[١]. فلا ريب أنّه بمعنى المالكية؛ وأمّا ما نقل (اللّسان) عن (محكم ابن سيده) أنّ رويشداً سمّى ملك الموت مالكاً، فقال:

فأبلِغ مالكاً أنّا خطبنا فإنّا لم نلايم بعد أهلا

وقال:

غدا مالك يبغي نسائي كأنّما نسائي لسهمي مالك غرضان

وقال:

فيا ربّ فاترك لي جهينة أعصراً فمالك موت بالفراق دهاني

وقال : قال ابن سيده: ظنّ ملك الموت من (ملك)، فصاغ مالكاً من ذلك فهو غلط منه، ومثل غلط رويشد كثير في شعر الأعراب الجفاة[٢]، فهو كما ترى، فالأعراب كان في اعتقاداتهم أوهام لا في فهمهم اللّغات.

وأمّا من جعله من (ألك) فظنّ ترادف الملك والرّسول والألوك والمألكة الرّسالة، فاستندوا إلى أبيات وردت فيها الألك والمألك والمألكة والمالك، كقول زيد بن حارثة:

ألكني إلى قومي وإن كنت نائياً فإنّي قطين البيت عند المشاعر

وقول عمرو بن شأس:

ألكني إلى قومي السّلام ورحمة الـ إله فما كانوا ضعافاً ولا عزلا

ويُروى :

ألكني إلى قومي السّلام رسالة بآية ما كانوا ضعافاً ولا عزلا

وقول ابن أبي ربيعة:

ألكني إليها بالسّلام فإنّه ينكّر إلمامي بها ويشهّر

(١) السجدة: ١١.

(٢) لسان العرب ١٠: ٤٨٢ مادة (لأك). والنقل بالمعنى.

وكقول الشاعر:

أبلغ أبـا دخـتنوس مألكـة عن الّذي قد يقال مِ الكـذب

أي: مِن الكذب. وكقوله:

أبلغ يزيد بني شيبان مألكـة أبـا ثـبيت أمـا تـنفكّ تأتكـل

وقول عدي بن زيد:

أبـلغ النـعمان عــنّي مألكـا أنّه قد طال حبسي وانتظار[١]

مع أنّه وهم؛ فالملائكة لا يحصي عددهم غير الله تعالى، وإنّما كان جبرائيل رسوله تعالى إلى أنبيائه، وقال عليه السلام هنا: «ومنهم أُمناء على وحيه وألسنة إلى رسله».

«ثم فتق» أي: شقّ.

«ما بين السماوات العلى» ومرّ في الفصل السابق[٢] قوله عليه السلام: «وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها»، وقوله عليه السلام[٣]: «ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها».

«فملأهنّ أطواراً» مختلفة.

«من ملائكته» في (تفسير القمي): قال الصادق عليه السلام: ما من شيء ممّا خلق الله أكثر من الملائكة، وأنّه ليهبط كلّ يوم أو في كلّ ليلة سبعون ألف ملك، فيأتون البيت الحرام فيطوفون به، ثمّ يأتون النبي صلى الله عليه وآله ثمّ يأتون أمير المؤمنين عليه السلام فيسلّمون عليه، ثمّ يأتون الحسين عليه السلام فيقيمون عنده. فإذا كان عند السّحر، وضع لهم معراج إلى السماء ثمّ لا يعودون أبداً[٤]، وما في السماء

(١) لسان العرب ١٠: ٣٩٢ ـ ٣٩٣ مادة (ألك).

(٢) مرّ في الفصل الثاني العنوان ٢.

(٣) مرّ في الفصل الثاني العنوان ٤.

(٤) تفسير القمي ٢: ٢٠٦، وأمالي الطوسي ١: ٢١٨ المجلس ٨.

موضع قدم إلّا وفيها ملك يسبّحه ويقدّسه[١].

«منهم سجود لا يركعون» سجود هنا جمع ساجد، لا مصدر سجَد.

«وركوع» ركوع أيضاً هنا جمع راكع.

«لا ينتصبون» أي: لا يقومون من الركوع؛ وفي (تفسير القمي) قال الصادق عليه السلام: «إنّ لله ملائكة ركّعاً إلى يوم القيامة، وإنّ لله ملائكة سجّداً إلى يوم القيامة»[٢].

«وصافّون» أقدامهم في القيام بين يديه تعالى.

«لا يتزايلون» عن مواضعهم.

«ومسبّحون» أي: مُنزِّهون له تعالى.

«لا يسأمون» أي: لا يملّون من تسبيحه؛ قال تعالى ـ كما في التفسير ـ حكايةً عن جبرئيل عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿وما منّا إلّا له مقام معلوم* وإنّا لنحن الصّافّون* وإنّا لنحن المسبّحون﴾[٣]، وقبله وإن كان ﴿وجعلوا بينه وبين الجِنّة نسباً...﴾[٤]، إلّا أنّ المراد بالجنّة هنا الملائكة؛ حيث زعموا أنّهم بناته، تعالى عن ذلك، وقال تعالى: ﴿فإن استكبروا فالّذين عند ربّك يسبّحون له باللّيل والنّهار وهم لا يسأمون﴾[٥]، وقال: ﴿يسبّحون اللّيل والنّهار لا يفترون﴾[٦].

«لا يغشاهم نوم العين» هكذا في (المصرية)، والصواب: (العيون) كما في

---

(١) تفسير القمي ٢: ٢٥٥.

(٢) تفسير القمي ٢: ٢٠٦، وأخرج معناه ابن جرير وأبو نعيم في حلية الأولياء عنهما الدرّ المنثور ١: ٤٦.

(٣) الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٤) الصافات: ١٥٨.

(٥) فصّلت: ٣٨.

(٦) الأنبياء: ٢٠.

(ابن أبي الحديد والخطية)[١]، وأمّا ما رواه (الإكمال) عن داود بن فرقد عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه السلام: ما من حيّ إلّا وهو ينام ما خلا الله وحده عزّوجلّ، والملائكة ينامون.

فقلت: يقول الله تعالى: ﴿يسبّحون اللّيل والنّهار لا يفترون﴾، فقال: أنفاسهم تسبيح[٢]. فالدّال على نومهم مرسل، والتعليل الّذي فيه عليل، فإنّه تعالى في مقام بيان إظهار عظمته بخلقه من لا يفتر عن عبادته فرقاً بينه وبين البشر، ولو احتسب النفس تسبيحاً لأمكن ذلك في البشر أيضاً.

وأمّا ما في علل ابن هاشم: «سئل الصادق عليه السلام عن الملائكة: يأكلون ويشربون وينكحون؟ فقال: لا، إنّهم يعيشون بنسيم العرش. فقيل له: فما العلّة في نومهم؟ فقال: فرقاً بينهم وبين الله تعالى، لأنّ الّذي لا تأخذه سنة ولا نوم هو الله تعالى»[٣] فمرسل أيضاً، ومخالف للآيات المتقدّمة. إلّا أنّ الراونديّ كأنّه جمع بين الخبرين وبين قوله عليه السلام هنا؛ فقال: قوله عليه السلام: «لا يغشاهم» يقتضي أنّ لهم نوماً قليلاً لا يغفلهم، فأمّا الباري سبحانه وتعالى فإنّه لا تأخذه سنة ولا نوم أصلاً[٤].

«ولا سهو العقول» هكذا في النسخ[٥]، ولا يبعد أن يكون (العقول) مصحّف (الغفلات) لعدم مناسبة لإضافة السّهو إلى العقول؛ يشهد للاستظهار ما في دعاء الصحيفة في الملائكة: «ولا يقطعهم عن تعظيمك سهو

---

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٩، لكن في شرح ابن ميثم ١: ١٣٢ «العين» أيضاً.

(٢) كمال الدين للصدوق: ٦٦٦، ويسمى هذا الكتاب (اكمال الدين) أيضاً.

(٣) أخرجه محمد بن علي بن إبراهيم في العلل عنه البحار ٥٩: ١٩٣ ح ٥٤. وهذا الكتاب من الكتب المفقودة.

(٤) نقله عنه ابن أبي الحديد في شرحه ١: ٣٠.

(٥) كذا في شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٩، وشرح ابن ميثم ١: ١٣٢، ونهج البلاغة ١: ١٩.

الغفلات»[١]، اللّهمّ إلّا أن يقال: إنّ عقول البشر لمّا كانت ناقصة ويقع منها الخطأ نفي ذلك عن الملائكة، لكنّ الإنصاف أنّ العقل لا يسهو، وإذا عجز عن فهم شيء لا يحكم، لا أنّه يحكم خطأ؛ كيف يحكم خطأ وهو الرّسول الباطن، ولولاه لم يغن الرّسول الظاهر؟!

قال الباقر عليه السلام: لمّا خلق الله العقل قال له: أقبل. فأقبل، ثمّ قال له: أدبر. فأدبر، فقال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك؛ إيّاك آمر، وإيّاك أنهى، وإيّاك أثيب، وإيّاك أعاقب[٢].

وبالجملة للبشر سهو الغفلات؛ قالوا: قال قتادة يوماً: ما نسيت شيئاً قطّ. ثمّ قال لغلامه: ناولني نعلي. فقال له: نعلك في رجلك.

وفي (ميزان الذّهبي) قال الكلبي محمّد بن السائب: ما حفظت شيئاً نسيته، وحضر (عقيب الكلام) الحجام فأومأ إلى لحيته، فقبض قبضة فأراد أن يقول: خذ من ها هنا. فقال: خذ من ها هنا. فأخذها من وراء القبضة[٣].

«ولا فترة الأبدان» أي: انكسارها.

«ولا غفلة النسيان» فإنّ كلّ ذلك مختصّ بالبشر؛ قال الصدوق في (اعتقاداته): الملائكة روحانيون معصومون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يألمون ولا يسقمون، ولا يشيبون ولا يهرمون. طعامهم وشرابهم التسبيح والتقديس، وعيشهم من نسيم العرش، وتلذّذهم بأنواع العلوم. خلقهم الله بقدرته أنواراً

---

(١) الصحيفة السجادية: ٣٥، الدعاء ٣.

(٢) أخرجه الكليني بطريقين في الكافي ١: ١٠، ح١، و: ٢٦، ح٢٦، والبرقي بخمس طرق في المحاسن: ١٩٢، ح٤ - ٨، والصدوق في أماليه: ٣٤٠، ح٥، المجلس ٦٥، وصاحب مسند زيد بن علي: ٤٠٩، وجمع آخر وروايات أخرى مرّ تخريجه في العنوان ٢٣ من الفصل الأوّل.

(٣) ميزان الاعتدال ٣: ٥٥٦.

وأرواحاً كما شاء وأراد[١].

ثمّ إنّه عليه السلام جعل الساجدين والراكعين والصّافّين والمسبّحين طوراً واحداً، لأنّه يجمعهم العبادة المستغرقة لأوقاتهم؛ وأمّا سلبه النوم والسّهو والفترة والغفلة عن هؤلاء، مع أنّ الظاهر شمولها لجميع الأصناف، فلعلّه لكون هؤلاء مظنّة هذه الأمور بأن يقطع عبادتهم النوم أو الفترة أو السّأمة، أو يحصل لهم السّهو والغفلة فيها، وعنها.

ويمكن أن يكون حصل في الكلام تقديم وتأخير، وأنّ قوله عليه السلام: «لا يغشاهم... ولا غفلة النسيان» كان بعد قوله: «أطواراً من ملائكته».

«ومنهم أُمناء على وحيه» قال تعالى: ﴿نزل به الرّوحُ الأمين* على قلبك لتكون من المنذرين﴾[٢].

قال الصدوق: اعتقادنا في كيفيّة نزول الوحي أنّ بين عيني إسرافيل لوحاً، إذا أراد الله أن يتكلّم بالوحي ضرب اللّوح جبين إسرافيل، فنظر فيه فيقرأ ما فيه، فيلقيه إلى ميكائيل، ويلقيه ميكائيل إلى جبرئيل، فيلقيه جبرئيل إلى الأنبياء[٣].

«وألسنة إلى رسله» قال تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى...﴾[٤]، وقال: ﴿قالوا يا لوط إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك فأسْرِ بأهلك بِقِطع من اللّيل ولا يلتفت منكم أحد إلّا امرأتك إنّه مصيبها ما أصابهم إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾[٥]، وقال: ﴿فنادته الملائكة وهو قائم

---

(١) الاعتقادات للصدوق: ٣٤.

(٢) الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٣) الاعتقادات للصدوق: ٣٠.

(٤) هود: ٦٩.

(٥) هود: ٨١.

يصلّي في المحراب أنّ الله يبشّرك بيحيى...﴾[١].

«ومختلفون بقضائه وأمره» قال تعالى: ﴿...ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر...﴾[٢]، ﴿فالمقسّمات أمراً﴾[٣]، ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها...﴾[٤]، ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين* بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين﴾[٥].

«ومنهم الحفظة لعباده» قال تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتّى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا وهم لا يفرّطون﴾[٦].

وفي الخبر: أنّ مع كلّ إنسان ملكين يحفظانه من أن يقع من سطح أو يتردّى في بئر، فإذا جاء أجله خلّياه[٧].

وفي (اعتقادات الصدوق): أنّ كلّ صنف من الملائكة يحفظ نوعاً ممّا خلق[٨].

هذا إذا أُريد بقوله عليه السلام: «الحفظة لعباده» الحفظة لأنفسهم، ويمكن أن يراد به الأعمّ منها ومن الحفظة لأعمالهم؛ فقد قال تعالى: ﴿وإنّ عليكم لحافظين* كراماً كاتبين* يعلمون ما تفعلون﴾[٩].

---

(١) آل عمران: ٣٩.

(٢) الأنعام: ٨.

(٣) الذاريات: ٤.

(٤) الأحزاب: ٩.

(٥) آل عمران: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٦) الأنعام: ٦١.

(٧) التوحيد للصدوق: ٣٦٨ ح٥، وتفسير العياشي ٢: ٢٠٥ ح١٦، وتفسير القمي ١: ٣٦٠ والنقل بالمعنى.

(٨) الاعتقادات للصدوق: ٣٥.

(٩) الانفطار: ١٠ ـ ١٢.

وفي خبر: سئل الصادق عليه السلام: ما علّة الملائكة الموكّلين بعباده يكتبون عليهم ولهم، والله عالم السرّ وما هو أخفى؟ قال عليه السلام: استعبدهم بذلك، وجعلهم شهوداً على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّ على طاعة الله مواظبةً، وعن معصيته أشدّ انقباضاً، وكم عبد يهمّ بمعصيته، فذكر مكانهم فارعوى وكفّ فيقول: ربّي يراني، وحفظتي عليَّ بذلك تشهد. وإنّ الله برأفته ولطفه أيضاً وكّلهم بعباده يذبّون عنهم مردة الشيطان وهوامَّ الأرض وآفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن الله إلى أن يجيء أمر الله تعالى[١].

«والسَّدَنة» بفتح السين والدّال، أي: الخزنة.

«لأبواب جنانه» والظاهر سقوط كلمة (ونيرانه) بعد (جنانه) من الرواة، ليكون موافقاً لقوله تعالى: ﴿وسيق الّذين اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زمراً حتّى إذا جاؤوها وفُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وسيق الّذين كفروا إلى جهنّم زمراً حتّى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربّكم وينذورنكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين﴾[٣].

«ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم» وفي نسخة من (ابن أبي الحديد): «في الأرض السفلى أقدامهم»[٤]، وهو الأصح.

«والمارقة» أي: المتجاوزة.

«من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار» أي: أقطار

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: ٣٤٨.

(٢) الزمر: ٧٣.

(٣) الزمر: ٧١.

(٤) في نسختنا من شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٠ «الأرضين» أيضاً.

السماوات والأرض.

«أركانهم» أي: جوانبهم وجوارحهم؛ روى الصدوق في (توحيده) عن زيد ابن وهب قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن قدرة الله تعالى، فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: إنّ لله تعالى ملائكة لو أنّ ملكاً منهم هبط إلى الأرض ما وسعته لعظم خلقه وكثرة أجنحته، ومنهم من لو كلّفت الجنّ والإنس أن يصفوه ما وصفوه لبعد ما بين مفاصله وحسن تركيب صورته، وكيف يوصف من ملائكته من سبعمائة عام ما بين منكبيه وشحمة أُذنيه، ومنهم من يسدّ الأُفق بجناح من أجنحته دون عظم بدنه، ومنهم من السماوات إلى حُجزته، ومنهم من قدمه على غير قرار، في جوّ الهواء الأسفل، والأرضون إلى ركبتيه، ومنهم من لو ألقي في نقرة إبهامه جميع المياه لوسعتها، ومنهم من لو أُلقيت السّفن في دموع عينيه لجرت دهر الدّاهرين[١].

وفي (تفسير القمّي) عن الصادق عليه السلام: إنّ لله ملكاً بعد ما بين شحمة أُذنيه إلى عينيه مسيرة خمسمائة عام خفقان الطير[٢].

وقال عليه السلام في خبر المعراج: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ثمّ صعدنا إلى السماء السابعة ـ إلى أن قال ـ وملكاً من ملائكة الله خلقه كما أراد، رجلاه في تخوم الأرضين السابعة، ثمّ أقبل مصعداً حتّى خرج في الهواء إلى السماء السابعة، وانتهى فيها مصعداً حتّى استقرّ قرنه إلى قرب العرش، وهو يقول: سبحان ربي... وله جناحان في منكبيه إذا نشرهما جاوزا المشرق والمغرب[٣].

«والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم» حتّى تحتمل حملها؛ في (اعتقادات

---

(١) التوحيد للصدوق: ٢٧٧ ح ٣.

(٢) تفسير القمي ٢: ٢٠٦، والكافي للكليني ٨: ٢٧٢، ح ٤٠٥، والتوحيد للصدوق: ٢٨١ ح ٨.

(٣) تفسير القمي ٢: ١٠، والتوحيد للصدوق: ٢٧٩ ح ٤.

الصدوق): حملة العرش ثمانية من الملائكة، لكلّ واحد منهم ثمانية أعين، كلّ عين طباق الدّنيا، واحد منهم على صورة بني آدم يسترزق الله تعالى لولد آدم، وواحد منهم على صورة الثور يسترزق الله تعالى للبهائم كلّها، وواحد منهم على صوة الأسد يسترزق الله تعالى للسّباع، وواحد منهم على صورة الدّيك يسترزق الله تعالى للطيور، فهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية[1].

ولكن قال شيخنا المفيد: الأحاديث التي رويت في صفة الملائكة الحاملين للعرش أحاديث آحاد، وروايات أفراد لا يجوز القطع بها، ولا العمل عليها، والوجه الوقوف عندها، والقطع على أنّ الأصل في العرش هو المُلك، والعرش المحمول جزء من المُلك تعبّد الله، بحمله الملائكة[2].

«ناكسة» أي: خافضة.

«دونه» تعالى.

«أبصارهم» في دعاء الصحيفة في الملائكة: «الخشّع الأبصار، فلا يرومون النّظر إليك، النّواكس الأذقان الّذين قد طالت رغبتهم في ما لديك»[3].

وقال ابن أبي الحديد: الضمير في (دونه) راجع إلى العرش[4].

قلت: قال ذلك لعدم إمكان النظر من أحد حتّى الملائكة إليه تعالى، لكن الظاهر رجوع الضمير إليه تعالى، وكون الكلام استعارة، مثل قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربّها ناظرة﴾[5].

---

(١) الاعتقادات للصدوق: ١١، ومرّ تخريج أحاديثه في العنوان ٢٩ من الفصل الأول.

(٢) تصحيح الاعتقاد للمفيد: ٣١.

(٣) الصحيفة السجادية: ٣٥، الدعاء ٣.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٠.

(٥) القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.

«متلفّعون» أي: مشتملون؛ قال الشاعر:

لم تتلفّع بفضل مئزرها[١]

«تحته بأجنحتهم» فلا يفارقون مراكزهم.

«مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزّة وأستار القدرة» هكذا في النُّسخ[٢]، ولا يبعد أن يكون وقع في الكلام تحريف، وأنّ الأصل «مضروبة بينه وبينهم حجب العزّة وأستار القدرة» كما لا يخفى.

وعن الصادق عليه السلام: الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، والكرسيُّ جزءٌ من سبعين جزءاً من نور العرش، والعرش جزءٌ من سبعين جزءاً من نور الحجاب، والحجاب جزءٌ من سبعين جزءاً من نور السّتر...[٣]

وروى القمي عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: قال جبرئيل: إنّ بين الله وبين خلقه سبعين ألف حجاب، وأقرب الخلق إلى الله أنا وإسرافيل وبيننا وبينه أربعة حجب. وفي الخبر العامي عن جبرئيل، قال: لله دون العرش سبعون حجاباً، لو دنونا من أحدها لأحرقتنا سبحات وجهه[٤].

«لا يتوهّمون ربّهم بالتّصوير، ولا يجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدّونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر» لكمال معرفتهم به تعالى، وانكشاف الحقائق عليهم، لا ككثير من البشر الخابطين.

في (ملل الشهرستاني): وأمّا المشبّهة الحشوية، فذكر الأشعري عن محمّد بن عيسى أنّه حكى عن نصر، وكهمش وأحمد الهجيمي أنّهم أجازوا على ربّهم الملامسة والمصافحة، وأنّ المخلصين من المسلمين يعاينونه في

---

(١) لسان العرب ٨: ٣٢١ مادة (لفع) والبيت لجرير، وذيله: دعد ولم تغذ دعد بالعلب.

(٢) كذا في نهج البلاغة ١: ٢٠،وشرح ابن أبي الحديد ١: ٣٠، وشرح ابن ميثم ١: ١٣٢.

(٣) التوحيد للصدوق: ١٠٨، ح٣.

(٤) تفسير القمي ٢: ١٠ ضمن حديث طويل، وفي بعض نسخه: «تسعون ألف حجاب».

الدّنيا والآخرة إذا بلغوا من الرياضة والاجتهاد إلى حدّ الاخلاص والاتحاد المحض. حكى الكعبي عن بعضهم يزورونه ويزورهم، وحكى عن داود الخوارزميّ قال: اعفوني عن الفرج واللّحية واسألوني عمّا وراء ذلك. وقال: إنّ معبودهم جسم ولحم ودم، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ورأس ولسان وعينين وأُذنين. قال: وحكى أنّه قال: هو أجوف من أعلاه إلى صدره، مصمت ما سوى ذلك، وأنّ له وفرة سوداء، وله شعر قطط... وزادوا في الأخبار أكاذيب نسبوها إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأكثرها مقتبسة من اليهود، فإنّ التشبيه فيهم طباع، حتّى قالوا: اشتكت عيناه فعادته الملائكة، وبكى على طوفان نوح حتّى رمدت عيناه، وأنّ العرش ليئطّ من تحته كأطيط الرّحل الجديد، وأنّه ليفضل من كلّ جانب أربعة أصابع. وروى المشبّهة أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: لقيني ربّي فصافحني وكافحني، ووضع يده بين كتفي حتّى وجدت برد أنامله[١].

إلى آخر ما نقل عنهم من الترّهات. تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

٢
من الخطبة (٨٩)

منها في صفة الملائكة:

ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لإِسْكَانِ سَمَاوَاتِهِ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ ٱلْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلائِكَتِهِ، وَمَلأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا، وَحَشَا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا، وَبَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ ٱلْفُرُوجِ زَجَلُ ٱلْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ ٱلْقُدْسِ، وَسُتَرَاتِ ٱلْحُجُبِ وَسُرَادِقَاتِ المَجْدِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيجِ ٱلَّذي تَسْتَكُّ مِنْهُ ٱلْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ ٱلْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا.

---

(١) الملل والنحل ١: ٩٦.

أَنْشَأَهُمْ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ، أُولِي أَجْنِحَةٍ تُسَبِّحُ جَلاَلَ عِزَّتِهِ، لاَ يَنْتَحِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي ٱلْخَلْقِ مِنْ صَنْعَتِهِ، وَلاَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا ٱنْفَرَدَ بِهِ؛ ﴿...بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[1] جَعَلَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَا هُنَالِكَ أَهْلَ ٱلْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ، وَحَمَّلَهُمْ إِلَى المُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ. وَأَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ المَعُونَةِ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضُعَ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُلاً إِلَى تَمَاجِيدِهِ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَى أَعْلاَمِ تَوْحِيدِهِ، لَمْ تُثْقِلْهُمْ مُؤْصِرَاتُ الآثَامِ، وَلَمْ تَرْتَحِلْهُمْ عُقَبُ اللَّيَالِي وَٱلْأَيَّامِ، وَلَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ، وَلَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ، وَلاَ قَدَحَتْ قَادِحَةُ ٱلْإِحَنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلاَ سَلَبَتْهُمُ ٱلْحَيْرَةُ مَا لاَقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ ٱلْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بِرَيْنِهَا عَلَى فِكْرِهِمْ. مِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ ٱلْغَمَامِ الدُّلَّحِ، وَفِي عِظَمِ ٱلْجِبَالِ الشُّمَّخِ، وَفِي قَتْرَةِ الظَّلاَمِ ٱلْأَيْهَمِ. وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ ٱلْأَرْضِ السُّفْلَى؛ فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ ٱلْهَوَاءِ، وَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ ٱنْتَهَتْ مِنَ ٱلْحُدُودِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ؛ قَدِ ٱسْتَفْرَغَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ، وَوَصَّلَتْ حَقَائِقُ ٱلْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَقَطَعَهُمُ ٱلْإِيقَانُ بِهِ إِلَى ٱلْوَلَهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ. قَدْ ذَاقُوا حَلاَوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَشَرِبُوا بِالْكَأْسِ ٱلرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاءِ قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ

(١) الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧.

خِيفَتِهِ، فَحَنَوْا بِطُولِ الطَّاعَةِ ٱعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ، وَلَمْ يُنْفِذْ طُولُ ٱلرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ، وَلاَ أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رِبَقَ خُشُوعِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَلَّهُمُ ٱلْاِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُم، وَلاَ تَرَكَتْ لَهُمُ ٱسْتِكَانَةُ ٱلْاِجْلاَلِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ. وَلَمْ تَجْرِ ٱلْفَتَرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طُولِ دُؤُوبِهِمْ، وَلَمْ تَغِضْ رَغَبَاتُهُمْ فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ، وَلَمْ تَجِفَّ لِطُولِ ٱلْمُنَاجَاةِ أَسَلاَتُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ مَلَكَتْهُمُ ٱلْأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ ٱلْجُؤَارِ إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاكِبُهُمْ، وَلَمْ يَثْنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابَهُمْ، وَلاَ تَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ بَلاَدَةُ ٱلْغَفَلاَتِ، وَلاَ تَنْتَضِلُ فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ، قَدِ ٱتَّخَذُوا ذَا ٱلْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ، وَيَمَّمُوهُ عِنْدَ ٱنْقِطَاعِ ٱلْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ، لاَ يَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ، وَلاَ يَرْجِعُ بِهِمُ ٱلاسْتِهْتَارُ بِلُزُومِ طَاعَتِهِ، إِلاَّ إِلَى مَوَادَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَمَخَافَتِه. لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ فَيَنُوا فِي جِدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمُ ٱلْأَطْمَاعُ فَيُؤْثِرُوا وَشِيكَ السَّعْيِ عَلَى ٱجْتِهَادِهِمْ. وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوِ ٱسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ ٱلرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَجَلِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ، وَلاَ تَوَلاَّهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ، وَلاَ شَعَبَتْهُمْ مَصَارِفُ ٱلرِّيَبِ، وَلاَ ٱقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ ٱلْهِمَمِ، فَهُمْ أُسَرَاءُ إِيمَانٍ لَمْ يَفُكَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَيْغٌ وَلاَ عُدُولٌ، وَلاَ وَنًى وَلاَ فُتُورٌ، وَلَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعُ إِهَابٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ. يَزْدَادُونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً، وَتَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَماً.

أقول: رواه أئمة غريب اللغة كما يظهر من نقل بعض فقراته

في (النهاية)[١].

«ثمّ خلق» الله.

«سبحانه لإسكان سماواته» كإسكان أرضه.

«وعمارة» مصدر عمرت الخراب.

«الصفيح» أي: الجانب.

«الأعلى» أي: السماء؛ وقال الجزريّ: الصفيح من أسماء السماء، ومنه حديث عليّ عليه السلام «وعمارة الصّفيح الأعلى من ملكوته»[٢].

«من ملكوته» في (الصحاح): الملكوت من الملك كالرهبوت من الرّهبة؛ يقال له: ملكوت العراق، وملكوة العراق أيضاً مثال الترقوة، وهو الملك والعزّ[٣].

«خلقاً بديعاً من ملائكته ملأ بهم فروج» أي: شقوق.

«فجاجها» أي: طرقها الواسعة.

«وحشا بهم» أي: جعلهم في حشو.

«فتوق» أي: شقوق.

«أجوائها» أي: متّسعها؛ في خبر ابن أبي العوجاء مع الصادق عليه السلام أنّه عليه السلام قال له في مقام إقناعه: لو كان الأمر كما تقولون لم يضرّ بالمتديّنين، وإن كان كما يقولون فأنتم هالكون. فقال له ابن أبي العوجاء: ما قولي وقولهم إلّا واحداً. فقال عليه السلام له: كيف يكون كذلك وهم يقولون: إنّ لهم معاداً وثواباً وعقاباً، ويدينون بأنّ في السماء إلهاً وأنّها عمران، وأنتم تزعمون أنّ السماء خراب ليس فيها أحد[٤]؟

(١ و ٢) النهاية لابن الأثير ٣: ٣٥ مادة (صفح).

(٣) صحاح اللغة ٤: ١٦١٠ مادة (ملك).

(٤) الكافي للكليني ١: ٧٤ ح ٢، والتوحيد للصدوق: ١٢٥ ح ٤ ضمن حديث طويل والنقل بالمعنى.

«وبين فجوات» أي: ساحات.

«تلك الفروج» أي: الشقوق المتقدّمة في قوله عليه السلام: «فروج فجاجها».

«زَجَل» بفتحتين، أي: صوت.

«المسبّحين منهم في حظائر القدس» والأصل في الحظر المنع، وسمّيت السماوات التي هي محالّ الملائكة حظائر القدس، لأنّ الشياطين ـ وهم أهل الرجس ـ ممنوعون منها.

«وسترات الحجب وسرادقات المجد» يمكن أن يكون (السترات) و (السرادقات) استعارة كما في قول رؤبة:

يا حكم بن المنذر بن الجارود سرادق المجد عليك ممدود[1]

ويمكن أن تكونا حقيقة؛ ففي خبر زيد بن وهب عنه عليه السلام: الحجب سبعة، غلظ كلّ حجاب مسيرة خمسمائة عام... ثمّ سرادقات الجلال، وهي سبعون سرادقاً، في كلّ سرادق سبعون ألف ملك، بين كلّ سرادق وسرادق مسيرة خمسمائة عام[2].

«ووراء ذلك الرّجيج» الأصل في الرّجيج الحركة الشديدة، كقوله تعالى: ﴿إذا رُجّت الأرضُ رجّاً﴾[3]. ولازم الحركة الشديدة تولد صوت، كقوله عليه السلام في ذي الثدية: «وأمّا شيطان الرّدهة فقد كفيته بصعقة سمعت لها وجبة قلبه ورجّة صدره»[4]. ثمّ الإشارة إلى الرّجيج في قوله: «ذلك الرّجيج» مع عدم لفظه إنّما هو لتقدّمه بمعناه في قوله: «زجل المسبّحين منهم».

«الذي تستكّ منه الأسماع» أي: تذهب منه السامعة؛ قال عبيد بن الأبرص:

---

(١) لسان العرب ١٠: ١٥٨ مادة (سردق).

(٢) التوحيد ٢٧٧ ح ٣، والخصال للصدوق: ٤٠٠ ح ١٠٩، باب السبعة.

(٣) الواقعة: ٤.

(٤) رواه الشريف الرضي ضمن الخطبة القاصعة في نهج البلاغة ٢: ١٥٦، الخطبة ١٩٠.

دعا معاشر فاستكّت مسامعهم[١]

والأصل في السكّ اصطلام الأُذن وقطعها؛ وفي الخبر مرّ ﷺ بجدي أسكّ[٢].

«سبحات نور» أي: تجلّياته ولمعاته.

«تردع» أي: تكفّ.

«الأبصار عن بلوغها» والمراد استكاك أسماع البشر، وردع أبصارهم لو فرض بلوغهم إلى ذلك المحلّ، ويمكنِ أن يقرأ (الرّجيجُ) بالرّفع مبتدأ لقوله: (وراء)، ويكون (سبحات) مصحّف (وسبحات) عطفاً على (الرّجيج)، وحينئذ فالمراد: استكاك أسماع الملائكة وردع أبصارهم؛ ويشهد له ما في (النهاية) أنّ في الخبر: قال جبرئيل: لله دون العرش سبعون حجاباً لو دنونا من أحدها لأحرقتنا سبحات وجه ربّنا[٣].

«فتقف» أي: الأبصار.

«خاسئة» أي: كليلة.

«على حدودها» ولا تتجاوز.

«أنشأهم على صور مختلفات، وأقدار متفاوتات» مرّ في سابقه[٤] قوله عليه السلام: «ومنهم الثابتة في الأرضين السّفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم. ومرّت ثمّة أخبار في ذلك.

---

(١) لسان العرب ١٠: ٤٤٠ مادة (سكك). وذيله: يالهف نفسيَ لو يدعو بني أسد.

(٢) صحيح مسلم ٤: ٢٢٧٢ ح٢، ومسند أحمد ٣: ٣٦٥، والكافي للكليني ٢: ١٢٩ ح٩، والزهد الأهوازي: ٤٩ عن جابر.

(٣) رواه الكيذري في شرحه ٢: ٥٢٦، وأبو الشيخ وابن مردويه عنهما الدرّ المنثور ١: ٩٣.

(٤) مرّ في هذا الفصل العنوان ١.

«أُولي أجنحة» قال تعالى: ﴿...جاعل الملائكة رسلاً أُولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إنّ الله على كلّ شيء قدير﴾[1].

«تسبّح جلال عزّته» قال تعالى: ﴿فإن استكبروا فالّذين عند ربّك يسبّحون له باللّيل والنّهار وهم لا يسأمون﴾[2]. وإسناد التسبيح إلى جلال عزّته للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿...أكرمي مثواه...﴾[3]. وأمّا (تسبّح) بلفظ الإفراد فالظاهر كونه صفة (أجنحة) فإن لم يكن (تسبّح) مصحّف (يسبّحون) يدلّ الكلام على تسبيح أجنحة الملائكة له تعالى أيضاً، وورد تسبيح أجنحتهم، وباقي أعضائهم له تعالى.

ففي خبر عن جميل عن الصادق عليه السلام: إنّ في السّماوات السّبع لبحاراً عمق أحدها مسيرة خمسمائة عام، فيها ملائكة قيام منذ خلقهم الله تعالى، والماء إلى ركبهم، ليس فيهم ملك إلّا وله ألف وأربعمائة جناح، في كلّ جناح أربعة وجوه، في كلّ وجه أربعة ألسن، ليس فيها جناح ولا وجه ولا لسان ولا فم إلّا وهو يسبّح الله تعالى بتسبيح لا يشبه نوعٌ منه صاحبه[4].

وفي خبر عن ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وآله: إن لله تعالى ملائكة ليس شيء من أطباق أجسادهم إلّا وهو يسبّح الله تعالى ويحمده من ناحية بأصوات مختلفة[5].

«لا ينتحلون» أي: لا يدّعون لأنفسهم.

«ما ظهر في الخلق من صنعته» هكذا في (المصرية) والصواب: (من

(1) فاطر: 1.

(2) فصّلت: 38.

(3) يوسف: 21.

(4) التوحيد للصدوق: 281 ح 9.

(5) التوحيد للصدوق: 280 ح 6.

صنعه) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية)[١]؛ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثمّ يقول للملائكة أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون* قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون﴾[٢].

«ولا يدّعون أنّهم يخلقون شيئاً ممّا انفرد به» هكذا في (المصرية)، والصواب: (شيئاً معه ممّا انفرد به) كما في الثلاثة[٣]؛ قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وما نتنزّل إلّا بأمر ربّك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربّك نسيّا﴾[٤].

«﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾» اقتباس من الآية في سورة الأنبياء وقبلها ﴿وقالوا اتّخذ الرحمن ولداً سبحانه...﴾[٥]، وبعدها ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾[٦].

«جعلهم في ما هنالك أهل الأمانة على وحيه» فلا يمكن خيانتهم فيه ﴿نزل به الرّوح الأمين﴾[٧].

«وحمّلهم» بلفظ المصدر عطفاً على (وحيه).

«إلى المرسلين ودائع أمره ونهيه» لا كما يقول الغلاة من أنّ الله تعالى أرسل جبرئيل إلى عليّ عليه السلام فذهب إلى محمّد صلى الله عليه وآله.

---

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٨، ولكن في شرح ابن ميثم ٢: ٣٥١ «صنعته» أيضاً.

(٢) سبأ: ٤٠ ـ ٤١.

(٣) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٨، ولكن في شرح ابن ميثم ٢: ٣٥١ «شيئاً ممّا» أيضاً.

(٤) مريم: ٦٤.

(٥) الأنبياء: ٢٦.

(٦) الأنبياء: ٢٨.

(٧) الشعراء: ١٩٣.

«وعصمهم» أي: حفظهم.

«من ريب» أي: شك.

«الشّبهات» أي: ريب يعرض من الشّبهات؛ قال شيخنا المفيد: إنّ الملائكة معصومون ممّا يوجب لهم العقاب بالنّار، وعلى هذا القول جمهور الإمامية، وسائر المعتزلة، وأكثر المرجئة، وجماعة من أصحاب الحديث، وقد أنكر قوم من الإمامية أن يكون الملائكة مكلّفين، وزعموا أنّهم إلى الأعمال مضطرّون، ووافقهم على ذلك جماعة من أصحاب الحديث[١].

قلت: فيكون حال الملائكة عند أُولئك حال الشمس والقمر والنجوم في طلوعها وغروبها حيث سخّرت على ذلك، ويردّهم قوله تعالى: ﴿...لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿...بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾[٤] الآية المذكورة في كلامه عليه السلام، ويردّهم قوله عليه السلام في العنوان: «لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه... فتقترع برينها على فكرهم»، وقوله عليه السلام: «قد استفرغتهم... في قلوبهم عظماً». وأيّ شيء يقولون في قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها... فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقلّ لكم إنّي أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾[٥]، وأيّ شيء يقولون في قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا

(١) أوائل المقالات للمفيد: ٨٢.

(٢) التحريم: ٦.

(٣) النحل: ٥٠.

(٤) الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧.

(٥) البقرة: ٣٠ ـ ٣٣.

لآدم فسجدوا إلّا إبليس...﴾[١].

«فما منهم زائغ» أي: مائل.

«عن سبيل مرضاته» تعالى.

«وأمدّهم بفوائد المعونة» هكذا في النسخ[٢]، والصواب: (بعوائد المعونة)، أي: أمدّهم بالإعانة بدءاً وعوداً، وأمّا (فوائد) بالفاء فلا معنى له هنا.

قال الخوئي: قال الفيّوميّ: معونة مفعلة، وجعله بعضهم فعولة من الماعون[٣].

قلت: إنّ ما قاله خلط، فلا خلاف في أنّ (المعونة) من (العون)، وإنّما الخلاف في (الماعون)؛ هل هو من المعن أو العون.

«وأشعر قلوبهم» أي: جعل كالشّعار لها.

«تواضع إخبات» مصدر أخبت، أي: خشع.

«السّكينة» أي: السكون والطمأنينة والوقار؛ قال تعالى: ﴿ويسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته...﴾[٤].

وفي حديث المعراج: إنّ الملك منهم إلى جنب صاحبه ما كلّمه قطّ، ولا رفعوا رؤوسهم إلى ما فوقها، ولا خفضوها إلى ما تحتها خوفاً من الله وخشوعاً[٥].

«وفتح لهم أبواباً ذللاً» أي: بلا صعوبة.

«إلى تماجيده» أي: تسابيحه جمع التّمجيد؛ قال تعالى: ﴿يسبّحون الليل

---

(١) البقرة: ٣٤.

(٢) كذا في نهج البلاغة ١: ١٦٩، وشرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٨، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٥١.

(٣) قاله الخوئي في شرحه ٣: ١٠٤، والفيومي في المصباح المنير ٢: ١٠٤ مادة (عون). والنقل بالمعنى.

(٤) الرعد: ١٣.

(٥) تفسير القمي ٢: ٧.

والنّهار لا يفترون﴾[١].

«ونصب لهم مناراً واضحة» مرّ في خطبة الكتاب[٢] كون (منار) جمعاً، ولذا وصف بالواضحة.

«على أعلام» متعلّق بقوله: ونصب، والأعلام الجبال، وهو أحسن استعارة، كما في قول الخنساء في أخيها صخر:

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة به　　　كأنّه علم في رأسه نار[٣]

«توحيده» فلا يمكن أن يتطرّق إليهم شكّ.

«لم تثقّلهم» بالتشديد: أي: لم تجعلهم ثقلاء الحمل.

«موصرات» أي: مضيّقات.

«الآثام» ككثير من الناس؛ قال تعالى: ﴿وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليُسألُن يوم القيامة عمّا كانوا يفترون﴾[٤].

«ولم ترتحلهم» هكذا في النسخ[٥]، والظاهر كونه تصحيف (ولم ترحّلهم).

«عقب» أي: تعاقب.

«الليالي والأيّام» الحاصلتين من طلوع الشمس وغروبها، أي: لم يحملهم تعاقب الليالي والأيّام على الرّحلة كالنّاس؛ قال الشاعر:

أفناه قيلُ الله للشّمس ارجعي　　　حتّى إذا واراك أُفق فارجعي

وليس المعنى أن تعاقبهما لم يجعلهم راحلة له، كما في خبر: إنّ ابني

---

(١) الأنبياء: ٢٠.

(٢) مرّ في شرح خطبة الرضي رحمه الله.

(٣) المطول: ٢٩٣، باب الايجاز.

(٤) العنكبوت: ١٣.

(٥) كذا في نهج البلاغة ١: ١٦٩، وشرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٨، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٥٢.

ارتحلني[١]... فلا معنى له هنا.

«ولم ترم» من الرّمي.

«الشّكوك بنوازعها» من: نزع في القوس، أي: مدّها، ونسخة (بنوازغها) من (نزغ الشيطان)، كما حكاها الخوئي[٢] بلا مناسبة مع (لم ترم) من الرّمي. نعم، إن قرئ (ولم ترِم) بكسر الرّاء من (رام) أي: قصد يكون له ربط، لكنّه خلاف الظاهر حيث إنّ بعده (ولم تعترك).

«عزيمة أيمانهم» أي: أيمانهم الثابت الّذي لا يتزايل، بمعنى: أنّ الشكوك وإن كانت ذات روام نوازع لم تستطع أن تجعل ايمانهم هدفاً لها.

«ولم تعترك» أي: ولم تقاتل، والأصل في العرك الدّلك، وفي القتال يدلك كلّ من القرنين الآخر.

«الظنون على معاقد يقينهم» فتسلّط على حلّه من قلوبهم، والمراد أنّ الملائكة لم يحصل لهم ظنون مخالفة ليقيناتهم في المعارف الإلهية كما قد يتفق للبشر؛ وذكر الظّنون بعد الشكوك كالاعتراك بعد الرّمي في غاية الحسن.

«ولا قدحت قادحة» والقادحة: الدودة التي تقع في الأشجار والأسنان؛ قال جميل:

---

(١) الأصل انه صلى الله عليه وآله سجد فركبه الحسن عليه السلام فأبطأ في سجوده، فلما فرغ سئل عنه فقال: «إنّ ابني ارتحلني فكرهت أن أُعجله» أخرجه النسائي في سننه ٢: ٢٢٩، وأحمد في مسنده ٣: ٤٩٣، و٦: ٤٦٧، وابن عساكر بثلاث طرق في ترجمة الحسن عليه السلام: ٩١ ح١٥٤ ـ ١٥٦، وبطريقين في ترجمة الحسين عليه السلام: ١٠٥ ح١٤٢ و ١٤٣، وأبو يعلى في مسنده عنه المطالب العالية ٤: ٧٢ ح٣٩٩٨، والطبري في منتخب الذيل: ٦٣، والبغوي والطبراني وسعيد بن منصور عنهم منتخب كنز العمال ٥: ١٠٢.

(٢) شرح الخوئي ٣: ١٠٤.

رمى الله في عينَي بثينة بالقذى وفي الغرّ من أنيابها بالقوادح[١]

«الإحن» جمع الإحنة، أي: الحقد والضغن. قال الشاعر:

إذا كان في صدر ابن عمّك إحنة فلا تستثرها سوف يبدو دفينها[٢]

«في ما بينهم» ككثير من الناس.

«ولا سلبتهم الحيرة» أي: التحيّر وعدم الاهتداء.

«ما لاق» أي: لصق؛ يقال: ما لاقت المرأة بقلب زوجها، أي: ما لصقت.

«من معرفته» أي: المعرفة له تعالى.

«بضمائرهم» متعلّق بقوله: لاق.

«وما سكن» هكذا في (المصرية)، والصواب: (وسكن) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطّية)[٣] عطفاً على لاق.

«من عظمته وهيبة جلالته في أثناء» جمع ثني.

«صدورهم» لا كبعض النّاس الّذين يسلب عنهم أيمانهم، كما حكى تعالى عن بعضهم: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾[٤].

«ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع» قال ابن أبي الحديد: تقترع من الاقتراع بالسّهام بأن يتناوب كلّ من الوساوس عليها، ويروى (فتفترع) بالفاء أي: تعلو[٥].

قلت: معنى الافتعال من (قرع) بالقاف الاختيار، وايقاد النّار وضرب

(١) لسان العرب ٢: ٥٥٥ مادة (قدح).

(٢) لسان العرب ١٣: ٩ مادة (إحن)، والشاعر: الاقيبل القيني.

(٣) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٩، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٥٢ «وما سكن» أيضاً.

(٤) الأعراف: ١٧٥.

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥١.

القرعة، ومن (قرع) بالفاء الافتضاض من (افترع البكر) ولم يتعدّ أحدهما بعلى، والظاهر كون الكلمة تحريف (فتفرغ) من قوله تعالى: ﴿...ربّنا أفرغ علينا صبراً...﴾[١].

«بريبها» من (الريبة)، وقرئ (برينها)[٢] من ﴿...ران على قلوبهم...﴾[٣]، والأوّل أقرب إلى الوساوس.

«على فكرهم» فيكون المعنى: لو كانت الوساوس تطمع فيهم، يمكن أن تفرغ ارتياباتها على فكرهم كالبشر، لكنّهم ليسوا كذلك.

«منهم» الظاهر وقوع تقديم وتأخير، وأنّ قوله هذا إلى «من الحدود المتناهية» كان بعد قوله المتقدّم: «وأقدار متفاوتات»، وقوله: «قد استفرغتهم» بعد «المتناهية» إلى آخر العنوان كان بعد قوله: «على فكرهم» ليكون كلامه عليه السلام في وصف خلقتهم في موضع، وفي وصف عبادتهم وطاعتهم في موضع، ولا يكون الكلام مختلاً مختلطاً.

«من هو في خلق الغمام» أي: السّحاب؛ أي: خلقه كخلق الغمام.

«الدّلح» جمع الدّالح أي: الماشي بحمل ثقيل؛ يقال: دلح الرّجل ودلح البعير إذا مشيا بحملهما غير منبسطي الخطو لثقله عليهما. ثمّ وصف (الغمام) وهو مفرد (بالدّلح) وهو جمع من باب قولهم: بلد أخصاب وبلد سباسب ورمح اقصاد وبرمة أعشار وثوب أسمال وثوب أخلاق من وصف المفرد بالجمع لإرادة الأجزاء منه.

هذا، وقلنا إنّ قوله عليه السلام: «في خلق الغمام الدّلح» معناه أنّ خلقته كخلقته،

---

(١) الأعراف: ١٢٦.

(٢) هذه رواية ابن أبي الحديد في شرحه ٢: ١٤٩، وابن ميثم في شرحه ٢: ٣٥٢، ونهج البلاغة ١: ١٧٠، والشارح نفسه في متن الخطبة.

(٣) المطففين: ١٤.

لقوله بعد: «ومنهم من خرقت أقدامهم»، ولأنّ (النهاية) نقله «ومنهم كالسحائب الدّلح»[١]. ويمكن أن يراد به أنّ منهم من عمله صنع السّحاب الدّلح، وكذلك القول في قوله عليه السلام بعد: «وفي عظم الجبال الشمّخ، وفي قترة الظّلام الأيهم» على ما يأتي[٢].

ويشهد للحمل هنا ما في دعاء الصحيفة ـ في الصلاة على حملة العرش وكلّ ملك مقرّب ـ: «وخزّان المطر وزواجر السّحاب، والّذي بصوت زجره يسمع زجل الرعود، وإذا سبحت به خفيفة السحاب التمعت صواعق البروق، ومشيّعي الثّلج والبرد والهابطين مع قطر المطر إذا نزل»[٣]. وعليه، فالكلام في موضعه بدون تقديم وتأخير «ومنهم من خرقت أقدامهم... من الحدود المتناهية» وإن أمكن أيضاً ربطه بتكلّف أكثر.

«وفي عظم الجبال الشمّخ» أي: الرّفيعة؛ ظاهره أن يكون خلقه في عظم الجبال، ويمكن أن يراد به أنّهم مقيمون في تلك الجبال موكّلون بها، وفي دعاء الصحيفة المتقدّم «والقوّام على خزائن الرياح والموكّلين بالجبال فلا تزول»[٤].

«وفي قترة» أي: غبرة.

«الظلام الأيهم» والأصل في (يهم) ما لا علاج له، ولذا قيل للفلاة التي لا يهتدى فيها: يهماء، وللبرّ الذي لا يهتدى فيه: أيهم، والمراد ظلام لا يهتدى فيه من شدّته. و (الأبهم) في (المصرية) غلط، ففي (ابن أبي الحديد وابن ميثم

---

(١) النهاية لابن الأثير ٢: ١٢٩ مادة (دلح).

(٢) يأتي في تكملة هذا العنوان.

(٣) الصحيفة السجادية: ٣٦ الدعاء ٣.

(٤) المصدر نفسه.

والخطية)[١] بالمثناة، والكلام فيه كسابقه.

وفي الخبر: أنّ ذا القرنين لمّا انتهى إلى السدّ جاوزه فدخل في الظّلمات فإذا هو بملك قائم على جبل طوله خمسمائة ذراع... فقال له ذو القرنين: من أنت؟ قال: أنا ملك من ملائكة الرحمن موكّل بهذا الجبل، وليس من جبل خلقه الله تعالى إلّا وله عرق متصل بهذا الجبل...[٢]

«ومنهم من خرقت أقدامهم» قال في سابقه: «منهم من هو» حملاً على لفظ (من) وهنا قال: «أقدامهم» حملاً على معناها.

«تخوم» أي: منتهى.

«الأرض السّفلى» من الأرضين السّبع.

«فهي» أي: فأقدامهم.

«كرايات بيض قد نفذت» أي: جاوزت.

«في مخارق الهواء» التي لا تمنع الأشياء من النفوذ فيها.

«وتحتها» أي: تحت تلك الأقدام.

«ريح هفّافة» أي: سريعة المرور في هبوبها، كما ذكره الجزريّ في معنى السّكينة[٣].

«تحبسها» أي: تحبس الرّيح أقدامهم.

«على حيث انتهت» تلك الأقدام.

«من الحدود المتناهية» في الأرض والهواء، ويمكن ربطه من قوله:

---

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٩، ولكن في شرح ابن ميثم ٢: ٣٥٢ «الأبهم» أيضاً.

(٢) الفقيه للصدوق ١: ٣٤٢ ح٦، وعلل الشرائع: ٥٥٤ ح ٢، وأماليه: ٣٧٥ ح ٢، المجلس ٧١، وتفسير العياشي ٢: ٣٥٠ ح ٨٢ والتهذيب للطوسي ٣: ٢٩٠ ح ١.

(٣) النهاية لابن الأثير ٢: ٣٨٦ مادة (سكن): «ومنه حديث علي عليه السلام وبناء الكعبة فأرسل الله إليه السكينة وهي ريح خجوج أي سريعة الممر».

«ومنهم» إلى هنا، بأنّ عملهم حفظ الأرض من التّلاشي، لكن لا يناسب قوله بعد.

«قد استفرغتهم أشغال» بالفتح، جمع (شغل).

«عبادته» ولو كان (إشغال) بالكسر لكان تأنيث الفعل لكسب التأنيث من (عبادته).

«ووصلت» هكذا في (المصرية وابن أبي الحديد)[١]، ولكن في (ابن ميثم والخطية)[٢]: «ووسلت».

«حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته» قال شيخنا المفيد في (مقالاته): إنّ الملائكة مكلّفون وموعودون[٣]. قال تعالى: ﴿ومن يقل منهم إنّي إله من دونه فذلك نجزيه جهنّم كذلك نجزي الظالمين﴾[٤].

«وقطعهم الإيقان به» عن كلّ شيء.

«إلى الوله إليه» تعالى؛ وفي مناجاة شعبان عنهم عليهم السلام: «إلهي وألهمني ولهاً بذكرك إلى ذكرك وهمّتي إلى روح نجاح أسمائك ومحلّ قدسك»[٥].

«ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره» وفي ذاك الدّعاء: «إلهي وألحقني بنور عزّك الأبهج فأكون لك عارفاً، وعن سواك منحرفاً، ومنك خائفاً مراقباً»[٦].

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٩.

(٢) في شرح ابن ميثم ٢: ٣٥٢ «وصلت» أيضاً.

(٣) أوائل المقالات: ٨٢.

(٤) الأنبياء: ٢٩.

(٥) بحار الأنوار للمجلسي ٩٤: ٩٩ عن الكتاب العتيق الغروي، لكن لفظه «وأتحفني بنور عزّك»، وأما لفظ «وألحقني» فللقمي في مفاتيح الجنان: ٣٧٤.

(٦) المصدر نفسه.

«قد ذاقوا حلاوة معرفته وشربوا بالكأس» قال ابن الاعرابي: لا تسمّى الكأس كأساً إلّا وفيها الشّراب[1].

«الروية» أي: الرافعة للعطش وتأنيث (الروية) لكون (الكأس) مؤنّثاً.

«من محبّته» وفي المناجاة الخامسة عشرة: «ما أطيب طعم حبّك، وما أعذب شرب قربك»[2].

«وتمكّنت من سويداء» أي: حبّة.

«قلوبهم وشيجة» أي: اشتباك عروق.

«خيفته، فحنوا» أي: عوّجوا.

«بطول» والباء فيه للسببيّة.

«الطاعة» أي: العبادة.

«اعتدال ظهورهم» والمراد ركوعهم.

«ولم ينفد» أي: لم يُفْنِ.

«طول الرغبة إليه مادّة تضرّعهم» فهم متضرّعون إليه دائماً.

«ولا أطلق عنهم عظيم الزّلفة» أي: التقرّب لديه تعالى.

«ربق» بالكسر فالفتح: جمع ربقة حبل فيه عدّة عرى يشدّ به البهائم.

«خشوعهم» فهم أبداً في حبالته.

«ولم يتولّهم الإعجاب» بأعمالهم.

«فيستكثروا ما سلف منهم» وأمّا ما روي في (عقاب الأعمال) عن ابن خالد الصيقل عن الباقر عليه السلام: «إنّ الله عزّوجلّ فوّض الأمر إلى ملك من الملائكة، فخلق سبع سماوات وسبع أرضين وأشياء، فلمّا رأى الأشياء قد انقادت له

---

(١) نقله عن لسان العرب ٦: ١٨٩ مادة (كأس).

(٢) بحار الأنوار للمجلسي ٩٤: ١٥١، وملحقات الصحيفة السجادية: ٣٦٣ عن السجاد عليه السلام.

قال: من مثلي؟ فأرسل الله عزّوجلّ نويرة من نار؟ قلت: وما نويرة من نار؟ قال: نار بمثل أنملة. قال: فاستقبلها بجميع ما خلق فتحلّلت لذلك حتّى وصلت إليه لما أن دخله العجب»[1] فهو خبر واحد.

«ولا تركت لهم استكانة» أي: مسكنة وفعلها استكان؛ ففي (القاموس) في سكن واستكان: خضع وذلّ؛ افتعل من المسكنة أُشبعت حركة عينه[2]. لكنّه قال في (كان) أيضاً: والاستكانة والخضوع[3].

قلت: الظاهر كون قوله الثاني وهماً، فإذا كانت (الاستكانة) من (الكون) يكون بمعنى طلب الكون، أي: الوجود والرفعة، وهو ضدّ المراد، وإنّما الصواب قوله الأوّل، ولمّا أُشبع (استكن) وصار استكانَ، صار المصدر ـ وهو استكان كاجتماع ـ استكانة، والأصل في قوله الثاني (الصحاح)، فإنّه اقتصر على ذكره في الكون[4]، وجعله أبو عليّ الفارسي، كما في (اللّسان) استفعالاً من الكين، الّذي هو لحم باطن الفرج؛ قال: لأنّ الخاضع الذليل خفي، فشبّهه بذلك لأنّه أخفى ما يكون من الإنسان[5].

قلت: لا يبعد أن يكون استفعالاً من الكين، لكن ما قاله الفارسي في تشبيهه بلحم باطن الفرج في الخفاء خفي، والأظهر أن يقال: إنّه من قولهم: «بات فلان بكينة سوء» بالكسر، أي: بحالة سوء. قال أبو سعيد: يقال: أكانه الله يكينه إكانة. أي: أخضعه حتّى استكان وأدخل عليه من الذلّ ما أكانه، وأنشد:

لعمرك ما يشفى جراح تكينه ... ولكن شفائي أن تئيم حلائله[6]

---

(١) عقاب الأعمال للصدوق: ٢٩٩ ح ١، والمحاسن للبرقي: ١٢٣ ح ١٣٩.

(٢) القاموس المحيط ٤: ٢٣٥ مادة (سكن).

(٣) القاموس المحيط ٤: ٢٦٤ مادة (كون).

(٤) صحاح اللغة ٦: ٢١٩٠ مادة (كون).

(٥) لسان العرب ١٣: ٢١٨ مادة (سكن).

(٦) لسان العرب ١٣: ٣٧١ مادة (كين).

وبالجملة كونه استفعالاً من الكون، كما قاله (الصحاح) وتبعه (القاموس) في (الكون) غير صحيح، ومن الكين والمسكنة صحيح، والأوّل أظهر لفظاً، والثاني معنى.

«الإجلال» لله تعالى.

«نصيباً» لهم.

«في تعظيم حسناتهم» فيعدّونها حقيرة.

«ولم تجر الفترات» الفترة: الانكسار والضعف.

«فيهم على طول دؤوبهم» أي: سعيهم وجدّهم في عبادته.

«ولم تغض» من «غاض الماء» أي: قلّ ونضب.

«رغباتهم» إليه تعالى.

«فيخالفوا عن رجاء ربّهم» إلى رجاء غيره.

«ولم تجف» أي: لم تيبس.

«لطول المناجاة» مع خالقهم.

«أسلات ألسنتهم» أي: مستدقّاتها.

«ولا ملكتهم الأشغال» الشخصيّة.

«فتنقطع بهمس» أي: الصوت الخفيّ.

«الجؤار» بالهمزة، أي: التضرّع.

«إليه» تعالى.

«أصواتهم» فاعل تنقطع.

«ولم تختلف في مقاوم» جمع مقام.

«الطاعة» أي: العبادة.

«مناكبهم» بأن يبدّلوا منكباً بمنكب للاستراحة؛ ويحتمل أن يكون

(تختلف) مصحّف (تتخلّف) فيكون الكلام استعارة عن عدم إعراضهم عن طاعته.

«ولم يثنوا» أي: لم يرفعوا، من قوله تعالى: ﴿ثاني عطفه...﴾[1]، أي: رافع جنبه.

«إلى راحة التقصير في أمره رقابهم» مفعول لم يثنوا.

«ولا تعدو» هكذا في (المصرية وابن أبي الحديد)[2]، ولكن في (ابن ميثم والخطية)[3]: «لا تعدو» بدون عاطف: أي لا تتجاوز ولا تتعدى.

«على عزيمة جدّهم» في عبادته.

«بلادة الغفلات» فيقصّرون في طاعته.

«ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات» قال ابن أبي الحديد: استعارة من النضال، وهو المراماة بالسّهام[4].

قلت: تناضل من النضال لا (تنتضل)، وإنّما (تنتضل) كـ(ينضل) بمعنى الرّمي، مع أنّه لا تصحّ المراماة هاهنا، كما لا يخفى.

«في هممهم خدائع الشهوات» ككثير من البشر.

هذا، وفي الخبر عن الصادق عليه السلام: إنّ طائفة من الملائكة عابوا ولد آدم في اللّذّات والشهوات ـ أعني لكم: الحلال ليس الحرام ـ قال فأنف الله للمؤمنين من ولد آدم من تعيير الملائكة لهم؛ قال: فألقى الله في همم أُولئك الملائكة اللّذّات والشهوات كيلا يعيبوا المؤمنين. قال: فلمّا أحسّوا ذلك من هممهم عجّوا إلى الله من ذلك، فقالوا: ربّنا عفوك عفوك ردّنا إلى ما خلقتنا له وأجبرتنا

---

(١) الحج: ٩.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٤٩.

(٣) في شرح ابن ميثم ٢: ٣٥٣ توجد (الواو) أيضاً.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥١.

عليه، فإنّا نخاف أن نصير في أمر مريج. قال: فنزع الله ذلك من هممهم[١].

وليس هذا الخبر مخالفاً لعصمتهم، فمضمونه نظير كلامهم في خلقة آدم عليه السلام.

«قد اتّخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم» قال الخوئي: يعني بيوم فاقتهم: يوم قبض أرواحهم[٢].

قلت: بل يعني به: جميع أيّامهم، فإنّهم كغيرهم في جميعها محتاجون إليه تعالى.

«ويمّموه» أي: قصدوه تعالى.

«عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم» متعلّق بقوله: «ويمّموه».

«لا يقطعون أمد» أي: مسافة.

«غاية» أي: نهاية.

«عبادته» لأنّه تعالى أهل لأن يعبد فوق تلك المرتبة.

«ولا يرجع بهم الاستهتار» أي: الحرص والولع.

«بلزوم طاعته» أي: اللّصوق بها.

«إلّا إلى موادّ من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته» (غير) صفة لمواد ومن لبيانها.

«لم تنقطع أسباب الشّفقة» أي: الخوف.

«منهم فينوا» أي: يضعفوا من: وني يني، قالوا: والإناة أيضاً منه بقلب الواو همزة.

«في جدّهم» في العبادة.

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢١١ ح ٤٢.

(٢) شرح الخوئي ٣: ١١١.

«ولم تأسرهم الأطماع» في المادّيات.

«فيؤثروا» أي: يختاروا.

«وشيك السعي» أي: سرعته إلى ما طمعوا فيه.

«على اجتهادهم» في طاعته تعالى.

«ولم يستعظموا ما مضى من أعمالهم» في الأزمنة المتطاولة.

«ولو استعظموا ذلك» أي: ما مضى من أعمالهم.

«لنسخ» أي: أزال.

«الرّجاء منهم» في عظم أعمالهم.

«شفقات» جمع شفقة؛ وفي (الأساس): لي عليه شفقة وشفق (يعني به) رحمة ورقة وخوف من حلول المكروه به مع نصح[1].

«وجلهم» : أي خوفهم.

قال الشاعر:

لعمرك ما أدري وإنّي لأوجل ... على أيّنا تغدو المنيّة أوّل[2]

«ولم يختلفوا في ربّهم» كالبشر، فلم يصفه أحد منهم بما لا يليق بجنابه.

«باستحواذ» أي: غلبة.

«الشيطان عليهم» ككثير من البشر.

«ولم يفرّقهم سوء التقاطع» كتقاطع عن عداوة، وإنّما تقاطعهم تقاطع حسن بأن يذهب كلٌّ إلى ما وظّف له.

«ولا تولّاهم» أي: لا صار وليّهم.

«غلّ» بالكسر: الغش والحقد.

---

(١) أساس البلاغة : ٢٣٨ مادة (شفق).

(٢) لسان العرب ١١: ٧٢٢ مادة (وجل) والشاعر: معن بن أوس المزني.

«التّحاسد» حسد هذا ذاك، وذاك هذا.

«ولا شعبتهم» أي: فرّقتهم.

«مصارف» أي: مغيّرات.

«الرّيب» أي: الحوادث.

«ولا أقتسمتهم» أي: لم تجعلهم قسماً قسماً.

«أخياف» جمع خيف، والأصل فيه الاختلاف؛ قالوا: سمّي مسجد الخيف خيفاً، لاختلافه بانحداره عن غلظ الجبل، وارتفاعه عن مسيل الماء[١].

«الهمم» كالبشر همّ بعضهم في الطعام والشراب، وهمّ بعضهم في الألبسة، وهمّ بعضهم في الأبنية، وهمّ بعضهم في النساء.

«فهم أسراء إيمان» به تعالى.

«لم يفكّهم من ربقته» أي: ربقة الأسر المفهوم من (أُسراء).

«زيغ» أي: ميل عن الحقّ.

«ولا عدول» عنه.

«ولا ونى» أي: ضعف.

«ولا فتور» أي: انكسار.

«وليس في أطباق» أي: طبقات.

«السماء» هكذا في (المصرية)، والصواب: (السماوات)، كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطّية)[٢].

«موضع إهاب» أي: جلد غير مدبوغ.

«إلّا وعليه ملك ساجد أو ساعٍ» أي: عامل.

---

(١) معجم البلدان للحموي ٢: ٤١٢.

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٥٠، وشرح ابن ميثم ٢: ٣٥٣ «السماء» أيضاً.

«حافد» أي: سريع؛ روى القمّي أنّ الصادق عليه السلام سئل عن الملائكة، أهم أكثر أم بنو آدم؟ فقال: والّذي نفسي بيده لعدد ملائكة الله في السماوات أكثر من عدد التّراب في الأرض، وما في السماء موضع قدم إلّا وفيها ملك يسبّحه ويقدّسه(١).

«يزدادون على طول الطّاعة بربّهم علماً» بإلههم.

«وتزداد عزّة ربّهم في قلوبهم عظماً» حيث تزداد معرفتهم.

٣
من الخطبة (١٠٧)

مِنْ مَلاَئِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ، هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ. لَمْ يَسْكُنُوا ٱلْأَصْلاَبَ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا ٱلْأَرْحَامَ، وَلَمْ يُخْلَقُوا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، وَلَمْ يَشْعَبْهُمْ رَيْبُ المَنُونِ، وَإِنَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَٱسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ، وَكَثْرَةِ طاعَتِهِمْ لَكَ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لَحَقَّرُوا أَعْمَالَهُمْ، وَلَزَرَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ.

أقول: ورواه القمّي هكذا: «وملائكة خلقتهم، وأسكنتهم سماواتك؛ فليس فيهم فترة، ولا عندهم غفلة، ولا فيهم معصية. هم أعلم خلقك بك، وأخوف خلقك منك، وأقرب خلقك إليك، وأعملهم بطاعتك. لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان. لم يسكنوا الأصلاب، ولم تتضمّنهم الأرحام، ولم تخلقهم من ماء مهين، أنشأتهم إنشاءً، فأسكنتهم سماواتك، وأكرمتهم بجوارك، وائتمنتهم على وحيك، وجنّبتهم الآفات، ووقيتهم البليّات، وطهّرتهم

(١) تفسير القمي ٢: ٢٥٥.

من الذّنوب، ولولا قوّتك لم يقووا، ولولا تثبيتك لم يثبتوا، ولولا رحمتك لم يطيعوا، ولولا أنت لم يكونوا. أما إنّهم على مكانتهم منك، وطواعيتهم إيّاك، ومنزلتهم عندك، وقلّة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا ما خفي عنهم منك، لاحتقروا أعمالهم، ولأزروا على أنفسهم»[١].

«من ملائكة أسكنتهم سماواتك، ورفعتهم عن أرضك» كلامه عليه السلام هذا دالّ على أنّ الأصل في مسكن الملائكة السماوات، وأنّهم إنّما ينزلون إلى الأرض، ويمكن أن يراد قسم خاص منهم، حيث قال: من ملائكة، ولعلّه ذكر قبله قسم خاص لم ينقله المصنّف.

«هم أعلم خلقك بك، وأخوفهم لك» حيث يشاهدون ملكوت السماوات، وأنّه ليس حاكم فيهم غيره تعالى، فيكونون أعلم به تعالى من البشر، ولمّا كانوا أعلم كانوا أخوف ﴿... إنّما يخشى الله من عباده العلماء...﴾[٢].

«وأقربهم منك» حيث لا يعصونه أبداً.

«لم يسكنوا الأصلاب» أصلاب آباء.

«ولم يضمّنوا الأرحام» أرحام أُمهات.

«ولم يخلقوا من ماء مهين» وهو المني، كبني آدم؛ قال تعالى: ﴿... وبدأ خلق الإنسان من طين * ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾[٣]. ومهين فعيل من «مهن» أي: ضعف.

«ولم يشعبهم» هكذا في (المصرية)، والصواب: (لم يتشعبهم) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطّية)[٤]، أي: لم يفرّقهم.

---

(١) تفسير القمي ٢: ٢٠٧.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) السجدة: ٧ ـ ٨.

(٤) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٢٩، لكن في شرح ابن ميثم ٣: ٥٧ «يشعبهم» أيضاً.

«ريب» أي: صرف.

«المنون» قال الفرّاء: تكون المنون واحدة وجمعاً[١]، والأصل في المنون الضعف، ويقال لكلّ من الدّهر والمنيّة: المنون لأنّهما يضعفان ويقطعان المدد وينقصان العدد؛ قال الأعشى:

أأن رأت رجلاً أعشى أضرّ به ريب المنون ودهر متبل خبل[٢]

وقال آخر:

كأن لم يغن يوماً في رخاء إذا ما المرء منّته المنون[٣]

(فريب المنون) في الأوّل بمعنى حوادث الدّهر، و (منّته المنون) في الثاني بمعنى قطعته المنيّة، ومراده عليه السلام أنّهم ليسوا كالبشر الّذين يتشعّبهم حوادث الدّهر، واخترام المنايا.

وممّن تشعّبهم ريب المنون حتّى ضُرب بهم المثل ولدُ سبأ، فقالوا تشبيهاً بهم: تفرقوا أيادي سبأ.

وقالوا: نزل حسّان بن عمرو الحميريّ جبلاً باليمن يقال له: شعب. ثمّ تشعب ولده، فمن كان منهم بالكوفة يقال لهم: شعبيون ـ ومنهم الشعبي المعروف ـ ومن صار منهم إلى الشام يقال لهم: الشعبانيون، ومن صار منهم إلى اليمن يقال لهم: آل ذي شعبين، ومن صار منهم بالمغرب ومصر يقال لهم: الأشعوب[٤].

«وإنّهم على مكانهم منك» بالقرب المعنوي.

«ومنزلتهم عندك» بالدّرجة الرفيعة.

(١ و٢) لسان العرب ١٣: ٤١٦ مادة (منن).

(٣) اساس البلاغة: ٤٣٨ مادة (منن).

(٤) معجم البلدان للحموي ٣: ٣٤٧.

«واستجماع أهوائهم فيك» وفي عبادتك وطاعتك، وليسوا كالبشر الّذين زيّن لهم ﴿حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث﴾[١].

«وكثرة طاعتهم لك» حتّى لم يكن لهم شغل غير عبادته.

«وقلّة غفلتهم عن أمرك» ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾[٢].

«لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك» وكيف لا يخفى عليهم، وهو الّذي لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته ولو جيء بمثله مدداً.

«لحقّروا أعمالهم» في جنب عظمته.

«ولزروا» : أي عتبوا وعابوا؛ قال:

نبّئت نعماً على الهجران زارية سقياً ورعياً لذاك العاتب الزاري[٣]

وأيضاً:

وإنّي على ليلى لزارٍ وإنّني على ذاك في ما بيننا مستديمها[٤]

«على أنفسهم» في تقصيرهم في حقّك.

«ولعرفوا أنّهم لم يعبدوك حقّ عبادتك، ولم يطيعوك حقّ طاعتك» كما لم يعرفوه حقّ معرفته، وكذلك الأنبياء والأوصياء كانوا معترفين بذلك.

---

(١) آل عمران: ١٤.

(٢) الأنبياء: ٢٧.

(٣) أساس البلاغة: ١٩١ مادة (زري).

(٤) لسان العرب ١٤: ٣٥٦ مادة (زري).

الفصل الرابع

في خلق آدم عليه السلام

١
من الخطبة (١)

صفة خلق آدم عليه السلام:

ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَه مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلَاطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ وَوُصُولٍ وَأَعْضَاءٍ وَفُصُولٍ، أَجْمَدَهَا حَتَّى ٱسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ.

ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ وَٱلْأَذْوَاقِ وَٱلْمَشَامِّ وَٱلْأَلْوَانِ وَٱلْأَجْنَاسِ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ ٱلْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَٱلْأَشْبَاهِ ٱلْمُؤْتَلِفَةِ، وَٱلْأَضْدَادِ ٱلْمُتَعَادِيَةِ، وَٱلْأَخْلَاطِ ٱلْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ، وَٱلْبَلَّةِ وَٱلْجُمُودِ.

وَٱسْتَأْدَى ٱللهُ سُبْحَانَه ٱلْمَلَائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ،

فِي الْإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ، فَقَالَ سبحانه: ﴿...اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ...﴾[1] اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَاسْتَهْوَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[2].

ثُمَّ أَسْكَنَ سبحانه آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عِيشَتَهُ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ، وَمُرَافَقَةِ الْأَبْرَارِ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ، وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ، وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً، وَبِالاغْتِرَارِ نَدَماً.

ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ؛ وَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ.

قول المصنّف: «صفة خلق آدم» هكذا في (المصرية)، ولكن في (ابن ميثم): «منها في خلق آدم»[3]، وفي (ابن أبي الحديد): «منها في صفة آدم»[4]، وكيف كان، ففي (إثبات المسعودي): روي أنّ آدم سمّي آدم لأنّه خلق من أديم الأرض[5].

وآدم يأتي اسماً ووصفاً؛ والاسمي جمعه (أوادم)، والوصفي يأتي

(١) البقرة: ٣٤.

(٢) الحجر: ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) شرح ابن ميثم ١: ١٧٠.

(٤) في شرح ابن أبي الحديد ١: ٣١ «منها في صفة خلق آدم» أيضاً.

(٥) إثبات الوصية للمسعودي: ١٠٠، ومروج الذهب ١: ٤٠، وهذا الوجه في التسمية مروي عن النبي ﷺ وعن علي والباقر والصادق عليهم السلام وعن ابن عباس وسعيد بن جبير، وجمع بعض طرقه السيوطي في الدرّ المنثور ١: ٤٩، والمجلسي في بحار الأنوار ١١: ١٠٠ ـ ١١٢.

وصفان للإنسان والبعير، وكلّ منهما بمعنى؛ وله جمع يقال: رجل آدم، أي: أسمر، وجمعه: أدمان، ويقال: بعير آدم، أي: شديد البياض، ويقال: هو البعير الأبيض، الأسود المقلتين، وجمعه أُدُم بضمتين.

قال الشاعر:

فإنّ أهجُهُ يضجَرْ كما ضجر بازل   من الأدم دبرت صفحتاه وغاربه[1]

وأصل آدم: أأدم بهمزتين.

وقوله عليه السلام: «ثمّ جمع سبحانه من حزن الأرض» أي: خشنها.

«وسهلها» أي: ما ليس فيه خشونة.

«وعذبها» أي: ما ليس فيه ملوحة.

«وسبخها» أي: الأرض التي تعلوها الملوحة، ولا تنبت الزّرع.

«تربة» الواحدة من ترب لغة في تراب.

«سنّها» أي أنتنها من قوله تعالى: ﴿... من حمأ مسنون﴾[2]؛ قال المسعودي في (إثباته): خلق الله آدم من عذب الأرض ومالحها، ومرّها و...[3].

وقال ابن أبي الحديد: سنّها، أي ملّسها من قولهم: مرمر مسنون[4].

وقال الخوئي ـ تبعاً للمجلسيّ ـ: سنّها من سننت الماء على الأرض: صببته[5].

قلت: وهما كما ترى، فلا معنى لتمليس التّربة بالماء، كما لا معنى لصبّ التربة بالماء.

---

(١) لسان العرب ١٢: ١٢ مادة (أدم) والشاعر: الأخطل.

(٢) الحجر: ٢٦.

(٣) إثبات الوصية للمسعودي: ١٠ ضمن حديث طويل.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٢.

(٥) شرح نهج البلاغة للخوئي ١: ١٤٨، وبحار الأنوار للمجلسي ١١: ١٢٣.

«بالماء حتّى خلصت» في سننها.

«ولاطها» من لطت الحوض بالطين، أي: ملطته به، وطيّنته، وقال الخوئي: من لاط الشيء بالشّيء لوطاً: لصق[1].

قلت: ذاك لازم، وهذا متعدّ.

«بالبلّة» أي: الرطوبة.

«حتّى لزبت» أي: لزقت، ولصقت؛ قال تعالى: ﴿...إنّا خلقناهم من طين لازب﴾[2].

«فجبل منها صورة» قال ابن أبي الحديد: قال الراوندي: أي خلق خلقاً عظيماً. واعترض عليه بأنّ جبل بمعنى خلق سواء كان عظيماً أو غير عظيم[3].

قلت: إنّ جبل وذرأ وأنشأ كلّها بمعنى: خلق إلّا أنّ لكلّ منها خصوصية لا يصحّ لها استعمال أحدها في موضع الآخر.

فإنّ ذرأ معناه: خلق متكثر منتشر؛ قال تعالى: ﴿...يذرؤكم فيه...﴾[4].

و (أنشأ) معناه خلق حادث جديد؛ قال تعالى: ﴿...هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض...﴾[5].

وجبل معناه: خلق غليظ؛ قال الجوهري: يقال للرّجل إذا كان غليظاً: إنّه لذو جبلة، وامرأة مجبال، أي: غليظة الخلق، وشيء جبل بكسر الباء، أي: غليظ جاف[6]. ويقال: أجبل الشّاعر، إذا صعب عليه القول؛ فكأنه بلغ المكان الغليظ،

---

(١) شرح الخوئي ١: ١٤٨.

(٢) الصافات: ١١.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٦.

(٤) الشورى: ١١.

(٥) النجم: ٣٢.

(٦) صحاح اللغة ٤: ١٦٥١ مادة (جبل).

وأجبل الحافر، إذا بلغ المكان الصّلب. وقال الزّمخشري : ناقة جبلة السنام تامته، رجل جبل الوجه، وجبل الرأس: غليظهما، وسيف جبل ومجبال: لم يرقّق؛ قال:

صافي الحديدة لا ناب ولا جبل[١]

وسألناهم فأجبلوا: إذا لم ينولوا؛ قال الكميت:

فبان وأبقى لنا من بنيه　　　لهاميم سادوا ولم يجبلوا[٢]

«ذات أحناء» جمع حنو بالكسر، أي: الجوانب والنواحي؛ قال لبيد:

فقلت ازدجر أحناء طيرك واعلمن　　　بأنّك إن قدّمت رجلك عاثر[٣]

وقال الكميت:

وآلوا الأُمور وأحناءها　　　فلم يبهلوها ولم يهملوا[٤]

«ووصول» قال ابن أبي الحديد: قال الراوندي: الوصول جمع وصل، وهو العضو، وكلّ شيء اتّصل بشيء فما بينهما وصلة. ثمّ اعترض عليه بأنّه ما وجد في لغة أنّ الوصل العضو، وقال: وقوله «وكلّ شيء...» لا معنى لذكره بعد ذلك التفسير[٥].

قلت: قال الجزريّ في (نهايته) ـ وكلامه مأخوذ من أئمّة اللّغة كأبي عبيد وأبي عبيدة ونحوهما ـ في صفة النبي صلى الله عليه وآله: كان فعم الأوصال. أي: ممتلئ الأعضاء. الواحد: وصل[٦]. فتراه صرّح بأنّ الوصل العضو، أي: المراد منه

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري: ٥١ مادة (جبل).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) لسان العرب ١٤: ٢٠٦ و ٢٠٤ مادة (حنا).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٦.

(٦) النهاية لابن الأثير ٥: ١٩٤ مادة (وصل).

العضو. وقوله: لا معنى لقوله «وكلّ شيء...» بلا معنى؛ فكلامه الأوّل معنى الوصل، والأخير معنى الوصلة، وما قاله لفظ (الصحاح) فقال: وكلّ شيء اتّصل بشيء فما بينهما وصلة، والجمع: وُصَل[١].

«وأعضاء» كاليدين والرّجلين.

«وفصول» كالمنكب والعضد والمرفق والذّراع والكفّ والأصابع والأنامل في اليدين والفخذ والرّكبة والسّاق والقدم والأصابع والأنامل في الرّجلين.

«أجمدها» أي: أبقاها حتّى صارت جامدة.

«حتّى استمسكت» من التّلاشي.

«وأصلدها» من قولهم: حجر صلد، أي: صلب أملس.

«حتى صلصلت» من قولهم: تصلصل الحلي، إذا صوّت؛ والأصل في كلامه عليه السلام: قوله تعالى: ﴿...من صلصال من حمأ مسنون﴾[٢].

قال أبو عبيدة: الصّلصال الطّين الحرّ خلط بالرّمل فصار يتصلصل إذا جفّ، فإذا طبخ في النار فهو الفخار[٣].

وفي خبر: ثمّ جعلها صلصالاً كالفخار أربعين سنة[٤].

«لوقت معدود» عيّنه (تفسير القمّي) أربعين سنة[٥]، و (مروج

---

(١) صحاح اللغة ٥: ١٨٤٢ مادة (وصل).

(٢) الحجر: ٢٦، ٢٨، ٣٣.

(٣) نقله عنه الجوهري في صحاح اللغة ٥: ١٧٤٥ مادة (صلصل).

(٤) هذا اللفظ رواه المجلسي في بحار الأنوار ١١: ١٢١، عن سعد السعود لابن طاووس عن نسخة من صحف إدريس عليه السلام لكن لم توجد هذه الفقرة إلّا في سعد السعود المطبوع: ٣٢، ونقل هذا المعنى المسعودي في مروج الذهب ١: ٤٠.

(٥) تفسير القمي ١: ٤١.

المسعودي) مائة وعشرين سنة[١].

«وأمد معلوم» هكذا في (المصرية)، والصواب: (وأجل معلوم) كما في (ابن أبي الحديد والخطية)[٢].

«ثمّ نفخ فيها من روحه» نسب تعالى الرّوح إلى نفسه دلالة على شرف الإنسان؛ قال تعالى للملائكة: ﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ويسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي...﴾[٤].

«فمثلت» تلك التّربة.

«إنساناً ذا أذهان يجيلها» في خبر أبي بصير: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: لأي علّة خلق الله تعالى آدم من غير أب وأمّ، وخلق عيسى من غير أب، وخلق سائر الناس من الآباء والأمّهات؟ فقال: ليعلم الناس تمام قدرته وكمالها[٥].

«وفكَر يتصرّف بها» في الأشياء، فلا يعمل عملاً إلّا بعد فكر.

«وجوارح يختدمها» أي: يجعلها خادمة له في حوائجه.

«وأدوات» أي: آلات للسّمع والبصر.

«يقلّبها» كيف شاء.

«ومعرفة يفرق بها بين الحقّ والباطل» وهي العقل؛ روى (العيون) أنّ ابن السّكّيت قال للرضا عليه السلام بعد سؤاله عن وجه اختلاف معجزات موسى وعيسى ونبيّنا عليهم السلام: فما الحجّة على الخلق اليوم؟ فقال عليه السلام: العقل يعرف به

(١) مروج الذهب للمسعودي ١: ٤١، ثم قال: «وقيل أربعون سنة».

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ١: ٣١، وكذا في شرح ابن ميثم ١: ١٦٩ «وأمد معلوم» أيضاً.

(٣) الحجر: ٢٩.

(٤) الاسراء: ٨٥.

(٥) علل الشرائع للصدوق: ١٥ ح١.

الصّادق على الله فيصدّقه، والكاذب على الله فيكذّبه. فقال ابن السكّيت: هذا والله الجواب[١].

«والأذواق» فيعرف بها الحلو والمرّ والحامض، وغيرها.

«والمشامّ» فيعرف بها الرّيح الطيّبة من الخبيثة.

«والألوان» فيعرف بها الأبيض والأسود والأحمر والأخضر والأصفر.

«والأجناس» بالخشونة واللّينة، وكأنّه سقط من الكلام (والأصوات) فيبعد أن يذكر عليه السلام الذائقة والشّامة والباصرة واللّامسة، ولا يذكر السّامعة مع كونها أهمّ من الشّامة.

«معجوناً» الظاهر كونه حالاً من (إنساناً) ويحتمل كونه صفة بعد صفة.

«بطينة الألوان المختلفة» روي أنّ عبد الله بن سلام سأل النبي صلى الله عليه وآله أنّ آدم خلق من الطين كلّه أو من طين واحد؟ قال: بل من الطّين كلّه، ولو خلق من طين واحد لما عرف النّاس بعضهم بعضاً، وكانوا على صورة واحدة. قال: فلهم في الدّنيا مَثَل؟ قال: التّراب فيه أبيض، وفيه أخضر، وفيه أشقر، وفيه أغبر، وفيه أحمر، وفيه أزرق، وفيه عذب، وفيه ملح، وفيه خشن، وفيه لين، وفيه أصهب، فلذلك صار النّاس فيهم لين، وفيهم خشن،وفيهم أبيض، وفيهم أصفر، وأحمر، وأصهب، وأسود على ألوان التراب[٢].

ويقال للرّوم: بنو الاصفر، وللعرب: أسود، وللعجم: أحمر. فعن ابن الاعرابي: معنى قولهم: آتاني كلّ أسود منهم وأحمر: آتاني جميع الناس عربهم وعجمهم[٣].

---

(١) عيون الأخبار للصدوق ٢: ٧٨ ح ١٢، وعلل الشرائع: ١٢١ ح٦، والكافي للكليني ١: ٢٤ ح ٢٠ في ذيل حديث.

(٢) علل الشرائع للصدوق: ٤٧٠ ح ٣٢ ضمن حديث طويل، والسائل يزيد بن سلام، كما في الأصل، ولعبد الله بن سلام حديث آخر.

(٣) لم أجده عن ابن الاعرابي لكن نقله ابن منظور في لسان العرب ٤: ٢٠٩ مادة (حمر) عن أبي عمرو بن العلاء.

«والأشباه المؤتلفة، والأضداد المتعادية» عن الرضا عليه السلام الطبائع أربعة، فمنهنّ البلغم وهو خصم جدل، ومنهن الدّم وهو عبد زنجي وربما قتل العبد سيّده، ومنهنّ الريح وهو ملك يدارى، ومنهنّ المرّة، وهيهات هيهات هي الأرض ارتجّت ارتجّت بما عليها[١].

«والأخلاط المتباينة من الحرّ والبرد والبلّة» أي: الرطوبة.

«والجمود» وزاد (ابن أبي الحديد والخطية)[٢]: «والمساءة والسرور».

قال النّظام: الدّليلُ على الصانع أنّا رأينا أشياء متضادّة من شأنها التنافي والتّباين والتفاسد مجموعة، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة المجتمعة في كلّ حيوان، وفي أكثر سائر الأجسام، فعلمنا أنّ جامعها قسرها على الاجتماع، ولولا ذلك لتباينت وتفاسدت، ولو جاز أن تجتمع المتضادّات المتنافرات، وتتقاوم من غير جامع جمعها لجاز أن يجتمع الماء والنّار ويتقاوما من ذاتهما، بغير جامع مدبّر مقيم يقيمها، وهذا محال[٣].

هذا، وقال المبرّد: دخلت على الجاحظ في آخر أيّامه وهو عليل، فقلت له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج ولو نشر بالمناشير لما أحس به، ونصف الآخر منقرس لو طار الذّباب بقربه لآلمه[٤].

وقال الجاحظ لمتطبب يشكو إليه علّته: قد اصطلحت الأضداد على جسدي إن أكلت بارداً أخذ برجلي، وإن أكلت حارّاً أخذ برأسي[٥].

«واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد» بالنّصب عطف

(١) عيون الأخبار للصدوق ١: ٦٦ ح٨ عن الكاظم، و ٢: ٧٨ ح١١، وعلل الشرائع: ١٠٦ ح٢، عن الرضا عليهما السلام.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٢.

(٣) نقله عن النظام الكراجكي في كنز الفوائد: ٨٦.

(٤) نقله عن المبرد ابن الأنباري في نزهة الألباء: ١٣٤، والمرتضى في أماليه ١: ١٤٢ المجلس ١٣.

(٥) أمالي المرتضى ١: ١٤٢ المجلس ١٣.

على (وديعته).

«وصيّته إليهم» أشار عليه السلام في قوله: «واستأدى الله...» إلى قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون* فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[١].

«في الإذعان» أي: الانقياد.

«بالسّجود له» أي: لذاك الإنسان.

«والخنوع» أي: التذلّل.

«لتكرمه» أي: إكرامه.

«فقال سبحانه» هكذا في (المصرية)، والصواب: (فقال تعالى) كما في (ابن أبي الحديد والخطية)[٢].

«اسجدوا لآدم» وردت هذه الجملة في (البقرة، والأعراف، وبني إسرائيل، والكهف، وطه)[٣].

«فسجدوا إلّا إبليس» وردت هذه الجملة في غير الأُولى.

«اعترته الحميّة، وغلبت عليه الشّقوة، وتعزّز بخلقة النار، واستهون خلق الصلصال» هكذا في (المصرية) بدون زيادة، وإفراد الضمير في (اعترته) وما عطف عليه، والصواب: (وقبيله اعترتهم الحمية، وغلبت عليهم الشّقوة، وتعزّزوا بخلقة النار، واستهونوا خلق الصلصال) كما في (ابن أبي الحديد وابن ميثم والخطية) و (الراوندي)[٤].

---

(١) الحجر: ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٢، وكذا في شرح ابن ميثم ١: ١٦٩ «فقال سبحانه» أيضاً.

(٣) البقرة: ٣٤، والأعراف: ١١، والإسراء: ٦١، والكهف: ٥٠ وطه: ١١٦.

(٤) لفظ شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٢، وشرح ابن ميثم ١: ١٦٩ أيضاً كالمصرية، وانّما ما نقله الشارح عن الراوندي فمفهوم من بحث لغوي له حول كلمة (قبيل) نقله ابن أبي الحديد في شرحه ١: ٣٦.

واختلف في إبليس هل كان من الجنّ أو من الملائكة ؟ فأكثر متكلّمي العامّة على الأوّل، واختاره المفيد قائلاً: إنّ الأخبار به متواترة عنهم عليهم السلام، وإنّه مذهب الإمامية[١].

وذهب أكثر فقهاء العامّة إلى الثاني، واختاره الشيخ في (تبيانه) قائلاً: وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام[٢].

قلت: والصواب أن يقال: إنّه كان من الجنّ لقوله تعالى: ﴿...كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه...﴾[٣]، إلّا أنّه كان في عداد الملائكة كما يكون في البشر رجل من قبيلة معدوداً من قبيلة أُخرى؛ فقالوا: كان الزّبير ـ وهو من أسد قريش ـ قبل أن ينشأ ابنه عبد الله في عِداد بني هاشم[٤].

ويدلّ على كونه في عداد الملائكة قوله تعالى: ﴿...فسجدوا إلّا إبليس...﴾[٥] في السور المتقدّمة، وقوله تعالى: ﴿فسجد الملائكة كلّهم أجمعون * إلّا إبليس...﴾[٦] في سورة الحجر، وسورة (ص) وقوله عليه السلام هنا: وقوله في القاصعة: «ما كان الله سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر اخرج به منها ملكاً»[٧].

---

(١) قاله المفيد في أوائل المقالات للمفيد: ١٤٩.

(٢) التبيان للطوسي ١: ١٥٠.

(٣) الكهف: ٥٠.

(٤) انظر حديث علي عليه السلام: «مازال الزبير رجلاً منّا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبدالله» رواه ابن أبي الحديد في شرحه ٤: ٤٨٠ الحكمة ٤٨٠ عن نهج البلاغة، ولم يوجد في سائر نسخ النهج، وأخرجه أيضاً الجوهري في السقيفة: ٦٠، وعاصم بن حميد في أصله: ٢٣، والصدوق في الخصال: ١٥٧ ح ١٩٩ باب الثلاثة، والمفيد في الجمل: ٢٠٨، وابن قتيبة في الامامة والسياسة ١: ١٠.

(٥) الكهف: ٥٠.

(٦) الحجر: ٣٠ ـ ٣١.

(٧) نهج البلاغة ٢: ١٣٩ الخطبة : ١٩٠.

قال ابن أبي الحديد: قال الرّاوندي ـ في سجود الملائكة لآدم ـ: لمّا علمنا أنّ تقديم المفضول على الفاضل قبيح، علمنا أنّ آدم كان أفضل من الملائكة في ذلك الوقت وفيما بعده. واعترض عليه بأنّ لقائل أن يقول: أليس قد سجد يعقوب ليوسف عليه السلام أفيدلّ ذلك على أنّ يوسف أفضل من يعقوب؟[١]

قلت: قال هذا الكلام قبله شيخه الجبائي[٢]، ولكن لو لم يكن دالاًّ على أفضلية آدم على الملائكة لما قال إبليس في جواب قوله تعالى: ﴿ما منعك ألّا تسجد إذ أمرتك...﴾[٣]: ﴿...أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[٤]، وكذا في جواب قوله تعالى: ﴿...ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ استكبرت أم كنت من العالين﴾[٥]: ﴿...لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال...﴾[٦]. أوَما سمع هو وشيخه الجبائيّ قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ...﴾[٧] والسجود ليوسف لم يعلم أنّه كان بوضع الجبهة، فلعلّه من قسم تعظيم الملوك، مع أنّه أيّ مانع من كون يوسف أفضل من يعقوب، فامتحن بمحن فوق محن أبيه، وكان سليمان أفضل من أبيه، قال تعالى: ﴿ففهّمناها سليمان وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً...﴾[٨].

قال ابن أبي الحديد أيضاً: إنّه قال الراوندي في قوله عليه السلام: «إلّا إبليس وقبيله»: قبيل إبليس نسله؛ قال تعالى: ﴿...إنّه يراكم هو وقبيله...﴾[٩]، وكلّ

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٧.

(٢) نقله عن الجبائي وغيره الطوسي في التبيان ١: ١٥٠، وهو مشهور عن كثير من المعتزلة.

(٣ و ٤) الأعراف: ١٢.

(٥) ص: ٧٥.

(٦) الحجر: ٣٣.

(٧) الإسراء: ٦٢.

(٨) الأنبياء: ٧٩.

(٩) الأعراف: ٢٧.

جيل من الإنس والجنّ قبيل. واعترض عليه أنّ قوله تعالى لا يدلّ على أنّهم نسله، وقوله: «وكلّ جيل...» ينقض دعواه أنّ قبيله لا يكون إلّا نسله[١].

قلت: إنّ ابن أبي الحديد لا يفرّق بين بيان المراد من الكلمة، وبين بيان مفهومها اللّغوي، فقول الراوندي: «قبيله: نسله» بيان المراد، وأخذه من الأخبار. فروي في خبر أنّ الآباء ثلاثة: آدم ولد مؤمناً، والجانّ ولد مؤمناً وكافراً، وإبليس ولد كافراً، وليس فيهم نتاج، إنّما يبيض ويفرخ، وولده ذكور ليس فيهم إناث[٢].

وأمّا ذكره الآية فإنّما لبيان أنّ (قبيله) ـ كما ذكر في كلامه عليه السلام ـ ذكر في القرآن مع أنّ آية ﴿...أفتتخذونه وذرّيّته أولياء من دوني وهو لكم عدوّ...﴾[٣] تدلّ على أنّ قبيله من نسله وإن لم يذكر ذلك الرّاوندي، وقوله: «وكلّ جيل...» بيان لمعنى مطلق القبيل؛ فأيّ تنافٍ له مع كون قبيل إبليس نسله حتّى ينقض دعواه؟

ويأتي القبيل بمعنى: الكفيل أيضاً، ويأتي بمعنى: القابلة، قال الشاعر:
كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها[٤].

فهل ذكر معنى ينقض معنى آخر؟ قال ابن أبي الحديد: إنّه قال الرّاوندي في قوله عليه السلام: «وتعزّزوا بخلقة النار»: إنّ القياس الّذي قاسه إبليس كان باطلاً، لأنّه ادّعى أنّ النار أشرف من الأرض، والأمر بالعكس، لأنّ كلّ ما يدخل إلى النار ينقص، وكلّ ما يدخل التراب يزيد. واعترض عليه بأنّ هذا عجيب! فإنّا نرى الحيوانات الميتة إذا دفنت في الأرض تنقص أجسامها، وكذلك الأشجار

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٦.

(٢) الخصال للصدوق: ٢: ١٥٢ ح١٨٦ باب الثلاثة.

(٣) الكهف: ٥٠.

(٤) لسان العرب ١١: ٥٤٤ مادة (قبل)، وصدره: أصالحكم حتى تبوءوا بمثلها. والشاعر: الأعشى.

المدفونة في الأرض. على أنّ التحقيق أنّ المحترق بالنار والبالي بالتراب لم تعدم أجزاؤه ولا بعضها، وإنّما استحالت إلى صور أُخرى[١].

قلت: بل اعتراضه عليه عجيب، وتحقيقه ركيك؛ فإنّ هذه أُمور عرفية، فتدخل في الأرض نوى ليس بقدر أنملة ينبت منه شجرة كجبل، وتلقي جبلاً من الخشب في النار فلا يبقى منه إلّا قليل رماد في حكم العدم، فالعرف يرى أنّ النار لا تبقي شيئاً، وما وقع فيها شيء إلّا أكلته، وعليه ورد «إنّ الحسد ليأكل الايمان كما تأكل النار الحطب»[٢] إلّا أنّ ابن أبي الحديد يعترض على الراوندي عناداً.

هذا، وورد بطلان قياس إبليس في الأخبار بطرق أُخر أيضاً؛ ففي خبر أنّ إبليس قاس نفسه بآدم، فقال: ﴿...خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[٣]، فلو قاس الجوهر الّذي خلق الله منه آدم بالنّار، كان ذلك أكثر نوراً وضياءً من النّار[٤].

وفي خبر آخر: كذَب إبليس لعنه الله ما خلقه الله إلّا من طين، ثم قال الله تعالى: ﴿الّذي جعل لكم من الشّجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾[٥] خلقه الله من تلك النّار، والنّار من تلك الشجرة، والشجرة أصلها من طين[٦].

ومن القياسات الباطلة السجود لغيره تعالى قياساً على سجود الملائكة

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٧.

(٢) أخرجه الحميري في قرب الاسناد: ١٥، وابن ماجه في سننه ٢: ١٤٠٨ ح ٤٢١٠ والشريف الرضي في المجازات النبوية: ٢٢١ ح ١٧٩ ورواه الفتال في روضة الواعظين ٢: ٤٢٤، عن النبي صلى الله عليه وآله. والشريف الرضي في نهج البلاغة ١: ١٥١ الخطبة ٨٤ عن علي عليه السلام، وفي الباب عن الباقر والصادق عليهما السلام.

(٣) الأعراف: ١٢.

(٤) الكافي للكليني ١: ٥٨ ح ١٨، ٢٠، وعلل الشرائع للصدوق: ٨٦، ٨٧ ح ١، ٣ عن الصادق عليه السلام.

(٥) يس: ٨٠.

(٦) تفسير القمي ٢: ٢٤٤ عن الصادق عليه السلام.

لآدم، ففي (الاحتجاج) أنّ جمعاً من المشركين حاجّوا النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: إنّ الله لمّا خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له، كنّا نحن أحقّ بالسجود لآدم من الملائكة، ففاتنا ذلك فصوّرنا صورته فسجدنا لها تقرّباً إلى الله كما تقرّبت الملائكة بالسجود لآدم إلى الله، وكما أُمرتم بالسّجود بزعمكم إلى جهة مكّة، ففعلتم ثمّ نصبتم في غير ذلك البلد بأيديكم محاريب سجدتم إليها، وقصدتم الكعبة لا محاريبكم، وقصدكم بالكعبة إلى الله تعالى لا إليها... فقال النبي صلى الله عليه وآله لهم: إنّ الله عزّوجلّ حيث أمر بالسجود لآدم لم يأمر بالسّجود لصورته التي هي غيره، فليس لكم أن تقيسوا ذلك عليه، لأنّكم لا تدرون لعلّه يكره ما تفعلون إذ لم يأمركم به. ثمّ قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: أرأيتم لو أذن لكم رجل دخول داره يوماً بعينه، ألكم أن تدخلوها بعد ذلك بغير أمره، أو لكم أن تدخلوا داراً أُخرى له مثلها بغير أمره...[1]

«فأعطاه الله النّظرة» أي: المهلة.

«استحقاقاً للسّخطة» أي: لغضبه تعالى عليه؛ قال تعالى: ﴿ولا يحسبنّ الّذين كفروا انّما نملي لهم خير لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾[2].

«واستتماماً للبليّة» أي: تكميلاً لابتلائه وامتحانه، فإنّه وإن كان قبل خلق آدم يعبد الله بعبادات كثيرة، لكن باطنه كان خبيثاً، فانكشف بخلق آدم والأمر بالسّجود له.

«وانجازاً» أي: قضاءً.

«للعدة» أي: لوعده تعالى.

---

(١) تفسير العسكري: ٢٤٨، والاحتجاج للطبرسي: ٢٦.

(٢) آل عمران: ١٧٨.

«فقال: إنّك ﴿من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾» وفي سورة الحجر، وسورة (ص): ﴿قال فانّك من المنظرين* إلى يوم الوقت المعلوم﴾[1].

«ثمّ أسكن سبحانه آدم داراً» أي: الجنّة.

«أرغد» أي: أوسع وطيّب.

«فيها عيشته» ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً حيث شئتما...﴾[2].

«وآمن فيها محلّته» أي: حلوله ﴿إنّ لك ألّا تجوع فيها ولا تعرى* وانّك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾[3].

«وحذّره إبليس وعداوته» ﴿فقلنا يا آدم إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنّة فتشقى﴾[4].

«فاغترّه عدوّه» ﴿فدلّاهما بغرور...﴾[5].

«نفاسة» أي: حسداً.

«عليه بدار المقام» الّتي لا ارتحال منها ﴿فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه...﴾[6].

«ومرافقة الأبرار» أي: الملائكة.

«فباع اليقين» بنهيه عن أكل الشجرة.

«بشكّه» الحادث من وسوسة إبليس؛ قال تعالى: ﴿فوسوس إليه

---

(١) الحجر: ٣٧ ـ ٣٨، و ص: ٨٠ ـ ٨١.

(٢) البقرة: ٣٥.

(٣) طه: ١١٨ ـ ١١٩.

(٤) طه: ١١٧.

(٥) الأعراف: ٢٢.

(٦) البقرة: ٣٦.

الشيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾[١].

«والعزيمة بوهنه» ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾[٢].

«واستبدل بالجَذَل» بفتحتين، أي: بالفرح.

«وجلاً» أي: خوفاً.

«وبالاغترار» الحاصل له من قول إبليس، كما مرّ في كلامه عليه السلام وفي الآية، وقول الخوئي: «وبالاعتزاز» بالعين المهملة والمعجمتين[٣] بلا ربط.

«ندماً» فعاقبة الاغترار الندم.

«ثمّ بسط الله سبحانه له في توبته» ﴿ثمّ اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى﴾[٤].

«ولقّاه كلمة رحمته» ﴿فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه إنّه هو التوّاب الرّحيم﴾[٥].

«ووعده المردّ إلى جنّته» بعد البعث.

«وأهبطه» هكذا في (المصرية)، والصواب: (فأهبطه) كما في (ابن أبي الحديد، والخطية)[٦].

«إلى دار البلية» أي: الدّنيا؛ وقد قال عليه السلام في وصفها «دار بالبلاء محفوفة وبالغدر معروفة».

---

(١) طه: ١٢٠.

(٢) طه: ١١٥.

(٣) شرح الخوئي ١: ١٧٦.

(٤) طه: ١٢٢.

(٥) البقرة: ٣٧.

(٦) في شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٣، وكذا في شرح ابن ميثم ١: ١٧٠ (الواو) أيضاً.

قال تعالى في إهباطه: ﴿وقال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين﴾[1].

ثمّ ظاهر كلامه عليه السلام هنا وفي الآتي أنّ إهباطه كان بعد توبته، وهو ظاهر قوله تعالى في سورة طه ﴿ثمّ اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى﴾[2]، قال: ﴿اهبطا منها جميعاً..﴾[3]، ولكن في سورة البقرة ﴿...وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين* فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه..﴾[4]، ويمكن الجمع بأن توبته كانت فوراً بعد عتاب الله تعالى له. قال سبحانه: ﴿...وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدوّ مبين* قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾[5] وإنّما قبول توبته كان بعد الإهباط.

وفي (اثبات الوصيّة): ثمّ أمر الله تعالى الملائكة بإخراجه فأخذوا بيده ليخرجوه، فقال: اللّهمّ بحقّ محمّد وعليّ والحسن والحسين تب عليّ. فأوحى الله إليه: اهبط إلى الأرض حتّى أتوب إليك[6].

وفيه: وقد هبط آدم على الصّفا وحوّاء على المروة، فاشتقّ للجبلين هذان الاسمان[7]. وكان مكثه في الجنّة في ما روي سبع ساعات (من ساعات الدنيا، روي أنّه دخلها قبل زوال الشمس وخرج قبل أن تغيب[8].

«وتناسل الذرّيّة» ﴿...خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ

(١) الأعراف: ٢٤.

(٢) طه: ١٢٢.

(٣) طه: ١٢٣.

(٤) البقرة: ٣٦ ـ ٣٧.

(٥) الأعراف ٢٢ ـ ٢٣.

(٦ و ٧ و ٨) إثبات الوصية للمسعودي: ١١ و ١١٢.

منهما رجالاً كثيراً ونساءً...﴾[١]، ﴿يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[٢].

وروى (العلل) عن الصادق عليه السلام أنّ آدم ولد له سبعون بطناً؛ في كلّ بطن غلام وجارية إلى أن قُتل هابيل، فلمّا قتل قابيلُ هابيل جزع آدم عليه السلام على هابيل جزعاً قطعه عن إتيان النساء، فبقي لا يستطيع أن يغشى حوّاء خمسمائة عام، ثمّ تخلّى ما به من الجزع عليه، فغشى حوّاء، فوهب الله له شيثاً وحده ليس معه ثان، واسم شيث هبة الله، وهو أوّل من أوصى إليه من الآدميين في الأرض. ثمّ ولد له من بعد شيث يافث ليس معه ثانٍ، فلمّا أدركا وأراد تعالى أن يبلغ بالنّسل ما ترون وأن يكون ما قد جرى به القلم من تحريم ما حرّم الله تعالى من الأخوات على الاخوة، أنزل بعد العصر في يوم الخميس حوراء من الجنّة اسمها: نزلة، فأمر الله تعالى آدم أن يزوّجها من شيث، فزوّجها منه، ثمّ أنزل بعد العصر من الغد حوراء من الجنّة اسمها: مُنزلة، فأمر الله تعالى آدم أن يزوّجها من يافث فزوّجها منه، فولد لشيث غلام وولدت ليافث جارية، فأمر الله تعالى آدم حين أدركا أن يزوّج بنت يافث من ابن شيث، ففعل، فولد الصفوة من النبيين والمرسلين من نسلهما، ومعاذ الله أن يكون ذلك على ما قالوا من الإخوة والأخوات[٣].

والخبر خبر ابن مقاتل عمّن سمع زرارة، ورواه (الفقيه) مختصراً[٤]، وتوهم الخوئي أنّه خبر مسمع فحرّف «عمّن سمع» بقوله: «عن مسمع»، كما

---

(١) النساء: ١.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) علل الشرائع للصدوق: ١٩ ح ٢، وقصص الأنبياء للراوندي، وعنه البحار ١١: ٢٦٢ ح ١١، في ذيل حديث.

(٤) أخرجه الصدوق في الفقيه ٣: ٢٤٠ ح ٤.

توهّم أنّ ما في (الفقيه) غير ما في (العلل)[1].

٢
من الخطبة (٨٩)

فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ، اخْتَارَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام خِيرَةً مِنْ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ، وَ أَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الْاقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ، وَالْمخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِه . فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ ، فَأَهْبَطَهَ بَعدَ التَّوْبَةِ، لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ، وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ .

«فلمّا مهد أرضه» ﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾[2].

«وأنفذ أمره» فيها بما أراد من الجبال والبحار وغيرهما.

«اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه» ﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة ... فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾[3].

«وجعله أوّل جبلّته» أي: خليقته من البشر ﴿يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذي خلقكم من نفس واحدة...﴾[4].

«وأسكنه جنّته وأرغد» أي: أوسع.

«فيها أكله» ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً حيث شئتما...﴾[5].

---

(١) شرح الخوئي ١: ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) الذاريات: ٤٨.

(٣) البقرة: ٣٠ ـ ٣٣.

(٤) النساء: ١.

(٥) البقرة: ٣٥.

«وأوعز» أي: تقدّم.

«إليه في ما نهاه عنه» في قوله تعالى لهما: ﴿...ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾[(١)].

«وأعلمه أنّ في الإقدام عليه» أي: على ما نهاه عنه.

«التعرّض لمعصيته» ﴿...وعصى آدم ربّه فغوى﴾[(٢)].

«والمخاطرة بمنزلته» ﴿...إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنّة فتشقى﴾[(٣)].

«فأقدم على ما نهاه عنه» ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفِقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة...﴾[(٤)].

«موافاة لسابق علمه» يمكن أن يكون مفعولاً مطلقاً لقوله «فأقدم»، والأصل (اقداماً موافاة)، وأن يكون مفعولاً له، من باب ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً...﴾[(٥)] لسابق علمه بجعله في الأرض خليفة له.

«فأهبطه بعد التوبة» مرّ في سابقه أنّ نفس توبة آدم كانت قبل الهبوط، وإنّما وعد القبول كان بعده ﴿ثمّ اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى﴾[(٦)].

«ليعمر أرضه بنسله» وفي خبر عن الصادق عليه السلام ما معناه: أنّ ملكاً زار آدم بعد هبوطه، فلمّا رأى قلقه سلّاه ثلاثاً بأن قال له: إنّ الله تعالى قال لنا فيك: ﴿...انّي جاعل في الأرض خليفة...﴾[(٧)]، فهو خلقك لأن تكون في الأرض

---

(١) البقرة: ٣٥.

(٢) طه: ١٢١.

(٣) طه: ١١٧.

(٤) طه: ١٢١.

(٥) القصص: ٨.

(٦) طه: ١٢٢.

(٧) البقرة: ٣٠.

أيستقيم أن تكون في السماء[١]؟!

«وليقم الحجّة به على عباده» وفي الخبر: إنّ الحجّة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق[٢]، ولو لم يبق في الأرض إلّا رجلان لوجب أن يكون أحدهما الحجّة[٣].

هذا، واشتهر إجماع الإمامية على عدم جواز صدور معصية ولو صغيرة من الأنبياء ولو قبل نبوّتهم[٤]، لكن قال شيخنا المفيد في (مقالاته): إنّ الصغيرة لا يجوز منهم مع الاستخفاف مطلقاً، وأمّا بدونه فجاز وقوعه منهم قبل النبوّة وعلى غير التعمّد[٥].

وما قاله الصواب وعليه يحمل أكل آدم من الشجرة، فإنّه لم يكن عن تعمّد، لقوله تعالى: ﴿...فنسي ولم نجد له عزماً﴾[٦].

وفي خبر الهروي عن الرّضا عليه السلام: أمّا قوله تعالى في آدم: ﴿...وعصى آدم ربّه فغوى﴾[٧] فإنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم حجّة في أرضه وخليفة في بلاده لم يخلقه للجنّة، وكانت المعصية من آدم في الجنّة لا في الأرض، وعصمته

---

(١) تفسير العياشي ١: ٣٢ ح١٠.

(٢) الكافي للكليني ١: ١٧٧ ح ٤، وكمال الدين للصدوق: ٤، وبصائر الدرجات للصفار: ٥٠٧ ح١ عن الصادق عليه السلام.

(٣) أخرج هذا المعنى الكليني بخمس طرق في الكافي ١: ١٧٩ ـ ١٨٠ ح١ ـ ٥، والصفار بأربع طرق في البصائر: ٥٠٧ ـ ٥٠٨ ح٢ ـ ٤، والصدوق بثلاث طرق في كمال الدين: ٢٠٣ ح ١٠، و: ٢٣٠ ح ٣٠، و: ٢٣٢ ح٣٨، وبطريقين في علل الشرائع: ١٩٦ ـ ١٩٧ ح٦ و ١٠، ووالده بطريقين في الامامة والتبصرة: ٢٨ ح٩، و: ٣٠ ح١٣، والنعماني بست طرق في الغيبة: ٩٠ ـ ٩١ وغيرهم.

(٤) يظهر إجماع الإمامية من عبارة الصدوق في الاعتقادات: ٣٧، والمرتضى في تنزيه الأنبياء: ٢، والعلّامة الحلي في كشف المراد: ٢٧٤ وغيرهم، لكن صرّح المفيد في أوائل المقالات: ٦٩، والطوسي في تمهيد الاصول: ٣٢١ بأن بعض الإمامية فرّقوا بين حال النبوّة وقبلها.

(٥) أوائل المقالات: ٦٨، والنقل بالمعنى.

(٦) طه: ١١٥.

(٧) طه: ١٢١.

تجب أن تكون في الأرض ليتمّ مقادير أمر الله عزّوجلّ، فلمّا أُهبط إلى الأرض وجعل حجّة وخليفة، عصم بقوله عزّوجلّ: ﴿إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾[١].

ومثله خبر ابن الجهم، عنه عليه السلام مع زيادة: إنّ إبليس ألبس عليهما بأنّ المراد بهذه الشجرة في خطابه تعالى الشخص لا الجنس، وحلف لهما، وما ظنّ آدم أنّ أحداً يحلف بالله كاذباً[٢].

(١) حديث الهروي طويل جاء في عيون الأخبار للصدوق ١: ١٥٣ ح١، وأماليه: ٨٢ ح٣ المجلس ٣٠، والآية ٣٣ من سورة آل عمران.

(٢) حديث ابن الجهم طويل جاء في عيون الأخبار ١: ١٥٥ ح١، والنقل بالمعنى.

الفهرس الكامل لموضوعات الكتاب
(لأربعة عشر مجلّداً)

المجلّد الأوّل

العنوان رقم الصفحة

المجلّد الثّاني

العنوان رقم الصفحة

المجلّد الثّالث

العنوان	رقم الصفحة

المجلّد الرّابع

العنوان | رقم الصفحة

المجلّد الخامس

العنوان رقم الصفحة

المجلّد السّادس

العنوان رقم الصفحة

المجلّد السّابع

العنوان **رقم الصفحة**

المجلّد الثّامن

العنوان — رقم الصفحة

المجلّد التّاسع

العنوان رقم الصفحة

المجلّد العاشر

العنوان — **رقم الصفحة**

المجلّد الحادي عشر

العنوان **رقم الصفحة**

المجلّد الثّاني عشر

العنوان **رقم الصفحة**

المجلّد الثّالث عشر

العنوان **رقم الصفحة**

المجلّد الرّابع عشر

العنوان	رقم الصفحة

شابک ۱-۲۶۳-۰۰-۹۶٤
ISBN 964-00-0263-1

بهای دورهٔ ۱۴ جلدی ۱۹۵۰۰۰ ریال